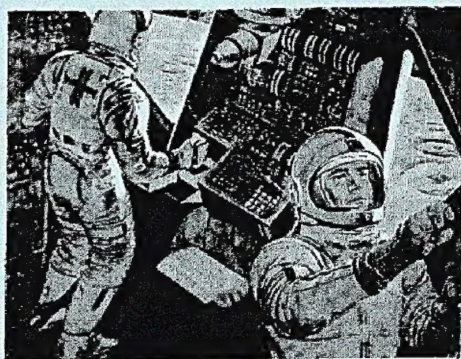


تاريخ وقواعد الحضارات

تأليف

فرنالد بروديل



ترجمة وتعليق

سفير د. حسين شريف



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب



0097856

Bibliotheca Alexandrina

تاريخ وقواعد الحضارات

تأليف

فرناند بروديل

ترجمة وتعليق

سفير د. حسين شريف



الهيئة المصرية العامة للكتاب

Genre: '...ization' ١٩٩٩ Alexandria Library (GOAL
٢٠٠٢

الإخراج الفنى: _____ ماهر الشمسى

المقدمة

الحضارات ومقوماتها

يشمل الكتاب على دراسة لتاريخ الحضارات الإنسانية، وأهم الوقائع فى ماضى البشرية على مدى عصورها، وما تضم من أحداث وعبر، تؤدى بنا إلى إدراك مشاكل الحاضر أو المستقبل.

والكتاب - لمن هم على أعتاب خضم الحياة العامة ومعتركها من الشباب خاصة - دعوة إلى ما ينبغى من التصدى للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية وما يسود المجتمع البشرى من صراعات وذلك فى ضوء الإلمام بتعدد الحضارات.

وعلى الجملة لتأهيلهم بحيث يستطيعون عند قراءة صحيفة يومية استخلاص كنه ما تسرد من أخبار ومعلومات. ولكن ترى هل يحدث ذلك؟ للأسف لا، فإن كثيرا من مناهج التربية اليوم إنما تخرج شباباً لا يعلمون عن الماضى والتاريخ شيئا، ذلك أن التاريخ وكتابته - وهو العنصر الرئيسى الذى يضم تجارب البشرية -

يواجه مشكلة كبرى، ومن ثم فلن يحظى بقبولية الحياة ضمير وطني أو إنساني غيرها ولن يتيسر بدون هذا الضمير إنشاء ثقافة أصيلة عن الحضارات الحقيقية في بقعة من بقاع الأرض أو مع شعب من الشعوب.

التاريخ والأزمة المعاصرة

ولا سبيل إلى دراسة التاريخ المعاصر، بغير الرجوع إلى ما سبق من أحداث مرت بها الشعوب، ولا كذلك بالقياس إلى التاريخ الحقيقي لمختلف الحضارات الإنسانية بأسلوب ومنهج واضح، بعيداً عن المبالغات، حتى تتضح الصور الحقيقية التي إذا ما جمع بعضها إلى بعض، وجدنا أننا حيال لوحة إنسانية للحضارات، فيسهل عندئذ فهم التاريخ الحقيقي للحضارات الإنسانية.

ولسوف يكون مجدياً تفسير لفظ الحضارة - ما استعملنا - تفسيراً واضحاً بسيطاً، كما نحدد ونفسر خطأً مستقيماً، أو مثلثاً أو جسماً كيماوياً، ولكن مفردات العلوم الإنسانية للأسف لا تتيح تفسيراً قاطعاً محدداً، إذ كثيراً ما تختلف التفسيرات من كاتب إلى آخر، ذلك أن الكلمات، كما يقول: «ليفى شتراوس»، «الكلمات بالنسبة لكل منا أدوات نطبقها ونفسرها، على ما نهوى وندرك، طالما كانت في خدمة مرامينا ونياتنا»، بمعنى أن الكلمات في العلوم الإنسانية، كالفلسفة على سبيل المثال، تختلف معانيها، مهما كانت بساطتها على حسب فكر من يستخدمها أو يفسرها، فإن لفظ الحضارة، لم يستقر على تفسير محدد سوى عام ١٧٥٢ على يد «تيرجوا»^(١) الذى كان وقتئذ يعد موسوعته عن تاريخ البشرية والتي لم تنشر في حياته، بل نشرت مع ظهور مؤلفات «ميرابو»، رائد الخطابة الثورية عام ١٧٥٦، بل إن «فولتير»، لم يستخدم لفظ الحضارة، برغم إدراكه حقيقة معناها في مؤلفه الذى صدر عام ١٧٥٦ بعنوان «دراسة سلوك وعادات وتقاليده الأمم»، وكانت هذه الدراسة خاصة أول محاولة تاريخية جادة عن الحضارات.

ومعنى لفظ الحضارة إنما يعارض معارضة تامة لفظ همجية، فإن هناك شعوباً حضارية، كما أن هناك أخرى متوحشة بدائية أو همجية، بل إن بعض هذه الشعوب المتوحشة، بما تتسم به من طبيعة طيبة، لم يتفق على تسميتها بالشعوب الحضارية.

وانطلق تفسير لفظ الحضارة من فرنسا إلى أوروبا بسرعة بالغة، مصاحباً لفظ «الثقافة»، إلا أنه اصطدم بعدد من تفسيرات مختلفة من شعب إلى آخر، كما في «ألمانيا وهولندا» حتى عام ١٨٣٥، حيث حاول «رومانوزي» إطلاق لفظ Incivimentc، بمعنى فكرة مسار الحضارة، تماماً كالحضارة نفسها، ولكن هذه المحاولة للاتفاق على لفظ تقبله الشعوب الأوروبية لم يتفق عليه بعد، بحكم اختلاف معاني الألفاظ من لغة إلى أخرى، ومن شعب إلى آخر.

ومع انتشار لفظ الحضارة، عبر بلدان أوروبا، فقد صاحبه لفظ آخر هو "Cueture" بمعنى الثقافة، مقارباً المعنى المقصود من لفظ الحضارة، وصار لفظ «ثقافة» صنواً للفظ الحضارة، وإن ظل ذلك أمداً يسيراً، إذ حدث عام ١٨٣٠ أن استخدم «هيجل» اللفظين بلا اكتراث أو تمييز بينهما، لولا أن الضرورة استدعت التمييز بينهما.

ذلك أن مفهوم الحضارة في الواقع على الأقل مزدوج فهو يشير من جهة إلى القيم الروحية، كما يشير في الوقت نفسه من جهة أخرى إلى القيم المادية. وسنرى أن «كارل ماركس» حاول التمييز بين (المادية Infnastrnutunc) و (Supenstvuctures الروحية) وإن كان اللفظان مرتبهين فيما بينهما بصورة ضيقة، ثم رأينا «شارل سبنديوس» Seignobos في إحدى نزائوته ومزاحاته يقول: إن الحضارة إنما هي الطرق والموانئ والأرصعة ولا تعنى الروح فقط، إنها كل المعرفة والخبرة البشرية المكتسبة، ويؤكد ذلك «مارسيل موس» Mauss والمؤرخ «كافينيكا» "Cavaignuc" بقوله: إن الحضارة حد أدنى من العلوم والفنون والنظم والفصائل.

فقد أثار إذن لفظ الحضارة كثيراً من الجدل حول مفهومه وتفسيره حيث اتفق على الأقل على شموله مرحلتين إذ يميز كثير من المفسرين بين الماديات والروحانيات على اختلاف الأمم والمجتمعات، بل لقد وقع التناقض في التفسير بين أفراد المجتمع الواحد على مختلف الحقب والعهود والمفسرين.

ففي ألمانيا ترددت التفسيرات والمجادلات التي سادت بين مفكريها، حتى طفت على السطح، المعاني والتفسيرات اللفظية المؤيدة لكلمة «كولتور» Kultur

وانتهى الجدل إلى أولية ظفر بها هذا اللفظ، مع تقييم واع لما ينبغي من تقدير لفظ الحضارة، ونجد أن تونيز A. Tonnies (١٩٢٢) والفريد فيبر (١٩٣٥) يفسران اللفظ بقولهما: إنها لا تعدو طائفة من معارف فنية تتخذ منهاجاً، وممارسة عملية، أى مجموعة من الوسائل والطرق للتصرف إزاء «الطبيعة»، أما لفظ «كولتور»، ثقافة، فتعنى على العكس المبادئ المعيارية، والقيم والمثاليات، المشتقة من كلمة الروح أو الذهن أو العقل.

وربما فسر ذلك - إلى حد ما - الانعكاس الغريب الذى يبادر اليوم أى فرنسى اليوم، وهو يسمع للوهلة الأولى تفسير هذا المؤرخ المفكر الألمانى «قلهلم موش»، "Wilhelm Mommsen" إذ يقول: إن من واجب الإنسان، ألا يدمر الحضارة الثقافية، ويطغى عليها، ولا تسيء إلى تنقية الجنس البشرى وتلك جملة تثير فينا الدهشة، ذلك أن ما لدينا من لفظ الحضارة، يظل مسيطراً شائعاً، كما هو فى إنجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية، على حين أن لفظ الثقافة (Cultur) فى بولندا وفى روسيا، هو الشائع المسيطر، كما فى ألمانيا أو ربما بسببها. وفى فرنسا لا تحتفظ كلمة الثقافة بقوتها إلا حين يتعلق الأمر بتحديد النمط الشخصى للحياة الذهنية والروحية، أو الإشارة إليه (هنرى مارو Marrou) بعكس ما يذهب إليه «بول فاليرى - Paul Valéry» الذى يؤكد أن لفظ الحضارة، إنما يعنى مجموعة القيم الجماعية المشتركة.

وهكذا تعددت التفسيرات وتنوعت مما أثار وضاعف من التعقيدات حيث تضيف تعقيداً آخرأ يبدو كأنه أهم هذه التعقيدات التفسيرية كلها ذلك أن العلماء الذين كرسوا جهودهم فى البحث عن أصل الإنسان وتطوره وأعرافه وعاداته ومعتقداته وأغلبهم من سلالة الأنجلوسكسون ابتداء من أ.ب. تايلور، E.B. Tylor فى كتابه «الثقافة القطرية» ١٨٧٤ قد استخدموا لفظاً مختلفاً عن كلمة «الحضارة»، التطبيقية على المجتمعات البدائية التى يدرسون نشأتها وتطورها، مغايراً لما عبر به المفكر الإنجليزى عن المجتمعات الحديثة، وهذا التمايز والاختلاف فى التفسير هو ما سوف يواجهنا كلما تحدثنا عن أحدهما إذ نواجهه وينفس القدر اللفظ الآخر.

على أن صفة الثقافة لحسن الحظ هى أول ما ظهر فى ألمانيا عام ١٨٥٠ وصارت أنسب للمفكرين الألمان تشمل كافة مدلول لفظى «ثقافة وحضارة»، ثم

صار لفظ الحضارة حول عام ١٨١٩ يستخدم مفرداً وإن دل على جمع، ومن ثم قيل حضارة أثينا في القرن الخامس أو الحضارة الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر، ثم أصبح بتوالي العهود دلالة على جمع بالنسبة إلى إنسان القرن العشرين خاصة، وكذلك تعطينا المتاحف بدورها الإحساس بالغربة وتغرقنا في خضم حضارات كاملة في الأزمنة الماضية نستعيد فيها في الزمان والمكان، فإذا ما عبرنا نهر الراين أو المانش بدا لنا البحر المتوسط وحضاراته التي لا تنسى بحيث يسهل علينا إدراك مصدر الحضارات التي سبقتنا.

فستعرف أن النار واكتشافها، والكتابة، وعلوم الحساب، وتدجين النباتات والحيوان، لا ترتبط كلها بأصل معين، بل تحولت كلها منافع وثروات جماعية للحضارات المتعاقبة.

ولذا فإن انتشار الثروات والمزايا الثقافية بين البشر، إنما تتخذ مدىً منفرداً في عالمنا المعاصر. فإن التقنية صناعة أنتجها الغرب على سبيل المثال سرعان ما ينتشر في أنحاء الدنيا بصورة صارخة أحياناً بحسبانه تراثاً إنسانياً ونجد البشرية نفسها سائرة في طريق طويل من التقدم يؤدي بها حتماً إلى مرحلة بل مراحل كثيرة، فمنها ما هو في صالحها ومنها بالطبع ما هو ضار بها ولن يكون سهلاً في عصرنا اليوم بما اتسم به من سرعة التداول وانتشار العلاقات والأنباء والمعلومات وقف سرعة انتشار المزايا التي تتيحها كل ساعة وكل يوم حضارات الأمم والشعوب وتقدمها.

وعلى الجملة، فإن كل حضارات الدنيا، سوف تصل في وقت قصراً طالاً، إلى نوع من التماثل في التطبيقات التقنية، وبالتالي تتماثل طرق المعيشة، وسرعان ما نجد رغم ذلك، أننا إزاء عدة حضارات متميزة جداً، وذلك بحكم اختلاف البشر، وهو اختلاف طبيعي.

وسوف يكون لفظ الحضارة على المدى البعيد، سواء احتفظ بطبيعته الفردية أو الجماعية أو بهما معاً، لفظاً لا يتوقف أمامه المؤرخون، أو يترددون بشأنه في الوصول إلى رأى صريح حازم قاطع.

الحضارة تتحدد ويتعرف بها بالنسبة لمختلف علوم الإنسان

لا سبيل إلى تحديد مفهوم الحضارة أو التعرف عليه إلا فى ضوء شتى العلوم التى يحققها الإنسان بما فيها التاريخ الإنسانى .

وسنحاول فى هذا الفصل التعريف بالمعنى المجرد للحضارة باستمداد كل من الجغرافيا والعلوم الإنسانية والاقتصاد وعلم النفس على التعاقب أى أننا سنرتاد ميادين لا تشابه بينها، وإن بدا منذ البداية أن الردود التى نحصلها سوف تتقارب إحداها بالأخرى .

الحضارات . . مواقع

لابد مهما علت أو صغرت حضارة من الحضارات أن نجدها بداية متصلة ومرتبطة بأرض ما، وأن جزءاً كبيراً من واقعها قد كان رهنا بمتطلبات وميزات أتاحتها تلك الرقعة الجغرافية .. ويدهى أن هذا الموقع قد شمله ما تصدى له سكان هذا الموقع من تطوير وإضافات منذ قرون بل لعل الإنسان سكن بعض المواقع الجغرافية منذ آلاف القرون . ولذلك فما من موقع سكنه الإنسان إلا فيه أثر مما عمله وتركه شاهداً على ما أنجز من تطوير وتعهد دعرب أدى إلى تحسين ترابه على مر العصور وبإيجاز شديد ما من موقع سكنه الإنسان إلا طراً عليه تطور

ملحوظٌ وتلمسته يد الإنسان بالتحسين والتغيير إلى ما هو أفضل، أو كما قال كارل ماركس: «إنه هذا النتاج الإنسانى بيد الإنسان ذاته».

فإن الحديث عن الحضارة إنما يعنى الحديث عن المواقع والأراضى وتضاريسها وعن المناخ والنبات وأنواع الحيوان ونوعيات ألوان النمو والتقدم ومظاهرها سواء ما جاء عن الفطرة أو كان من صنع البشر.

وكل ما نجم وينجم للإنسان عن الزراعة وتربية الحيوان واستئناسه فضلا عن الأغذية والبيوت والملابس ومسائل النقل والصناعات حيث يتحكم المسرح الذى تجرى فيه هذه المظاهر التى لا تنتهى جزئيا فى هذه الإنجازات ويفسر إلى حد كبير خصائصها ومميزاتها. فالبشر يجيئون ويذهبون، وتبقى هذه المظاهر متشابهة.

ويذهب هرمان جوتيز Hermangoez عالم الهنديات إلى أن هناك ضدين أولاهما تلك التى يسودها المناخ الرطب والمستنقعات والأدغال والأزهار المائية الأخرى الجافة نسبيا بما يقطنها من بشر ذوى قسما بشرة سمراء وكثيرا ما نجدهم مغرمين بالحروب والنزاعات وما الهند إلا ساحة الصراع بين هذين النوعين من البشر، أما البيئة، وهذا طبيعى فبيئة طبيعية، فضلا عن بيئة أخرى صنعها الإنسان ذاته على الرغم من أن البيئة لا تفسر كل شىء. وذلك أن ما يحزره البشر فى كلا الجانبين من تقدم فطرى أو مكتسب إنما هو ما يحدد ملامح كل من الموقعين.

فإذا تحدثنا عن الميزات المكتسبة وجدنا أن المجتمعات التى استفادت من موقعها كانت المجتمعات النهرية فى العالم القديم على شواطئ النهر الأصغر (الصين) وشواطئ نهر الأندوس (الهند) ونهر الفرات (الحضارات السومارية وحضارة بابل وآشور ونهر النيل (الحضارة المصرية) ومثلها حضارات أخرى متصلة بموقعها وتسمى نبات البحر ومنها حضارة فينيقيا وحضارة اليونان والحضارة الرومانية. وإذا كانت مصر هبة النيل فهى أيضاً هبة البحر الأبيض المتوسط حيث تجمعات الحضارات الأوروبية الشمالية النشطة المجتمعة حول بحر

البلطيق وبحر الشمال وذلك دون أن ننسى دور المحيط الأطلسي ذاته وحضاراته، وتجمع تلك الحضارات حول المحيط تشابه تجمعات تلك الحضارات التي نشأت في العالم الروماني في سالف الزمان حول البحر المتوسط.

وواقع الأمر في هذه الحالات الكلاسيكية إنما تكشف بالذات عن أولوية دوران الاتجاهات الحضارية وأسبقيتها فلا سبيل لأية حضارة أن تعيش دون حركة ذاتية فكل منها تتغذى وتزدهر بما يثير التقارب من التبادلات والتصادم ومن ثم لا يمكن تصور الإسلام دون تقدير لحركة القوافل عبر تلك البحار الفاصلة بين الفياقي والصحاري والسهوب حيث لا يمكن تصورها دون تلك المسارات الملاحية في البحر المتوسط وعبر المحيط الهندي حتى بلاد الصين.

ولسوف نجد أنفسنا حيال حصر تلك الميزات التي حققتها المجتمعات البشرية بعيدين عن تلك الميزات والنجاحات الطبيعية المباشرة وهي أساس الحضارات، فقهر وإخضاع الصحاري أو مواجهة التقلبات الفجائية في البحر المتوسط واستخدام الرياح المنتظمة للمحيط الهندي وتحويل مسار نهر من الأنهار بالسدود ميزات اكتسبها وحققها أقوام في تقدمهم ونموهم، ثم يبقى ما يثير التساؤل، فلم نجحت عبر عصور كثيرة مجتمعات بشرية في مواقع معينة ولم تنجح مجتمعات في مواقع أخرى؟ على هذه التساؤلات يسوق أرنولد توينبي إحدى نظرياته المثيرة بقوله: إنه لا بد أن نضيف إلى أي إنجاز بشري إن الأمر يحتاج إلى تحد بالضرورة وكذلك إلى رد فعل قوى، إذ يؤيه أن تتمثل الطبيعة للبشر هيئة صعبة تواجهه بالتحدى لقهرها، فإذا ما تحداها الإنسان خلق رد فعله إزاءها الأساس الحقيقي لحضارته، على أننا إذا ما أخذنا بهذه النظرية فهل نخرج منها بأن التحدى كلما زاد من جانب الطبيعة للإنسان ازداد رد فعله إزاءها؟ قطعاً ذلك يبعث بنا إلى الشك في تقبل هذه النظرية تقبلاً تاماً، إذ على الرغم من الفوائد التي لا جدال فيها كاستخراج الذهب والنفط فلم يستطع الإنسان مضاعفتها أو إنشاء حضارات حولها. وهكذا نرى أن التحديات قد وجدت بالفعل، كما نشأت ردود الأفعال إزاءها، كذلك وإن لم يكن عليه بالضرورة أن يخلق هذا المناخ حضارة ما، اللهم إلا أن يجد الإنسان يوماً وسائل تقنية حديثة يواجه بها هذه التحديات.

فكل حضارة مرتبطة إذن بموقع ذى حدود تكاد تكون ثابتة ولكل حضارة جغرافيتها، وإمكانيات لا تتوافر لحضارة أخرى، ومن ثم نرى مجتمعات تميزت بمساكن خشبية وأخرى من الطين المخلوط بالقش وأخرى مساكنها حوائط من خيزران أو من أحجار، وأخرى تميزت بمختلف المنسوجات كالصوف والأقطان والحريز، كما رأينا مجتمعات ذات منتجات غذائية كبيرة أساسها الأرز والذرة والقمح، وعلى ذلك تختلف التحديات وتنوع وبالتالي تختلف ردود الأفعال إزاءها. أليست الحضارة الغربية أو الأوروبية، حضارة القمح والخبز بل والخبز الأبيض مع الضغوط التى تفترضها، ذلك أن القمح نبات يحتاج إلى متطلبات عديدة ولنفكر فقط ما تحتاج إليه زراعته من وجوب انقضاء زمن فى أعقاب زراعته، واحتياج الأرض لفترة من راحة، أما أراضى زراعة الأرز التى تغمر بالمياه لدى سكان الشرق الأدنى تفرض هى الأخرى على السكان مواجهات عديدة وتحتاج إلى فترات راحة وهكذا ردود أفعال الإنسان لا تفنأ وفى نفس الوقت من تحريره من المجتمع الذى يحوطه وإخضاعه للحلول التى تصورها للمواجهة، وهكذا يواجه الإنسان حتمية معينة يخرج منها ليواجه حتمية أخرى، وكان من الضرورى والطبيعى مع تنوع واختلاف هذه الحتميات أن ينوع كذلك من أنواع وأنماط الحضارات والثقافات، هكذا اتفق علماء الاجتماع والمؤرخون والجغرافيون وعلماء الأجناس كما يقول مارسيل موبس Marcel Mauss كانت الشعوب التى تقطن سواحل المحيط الهادى الواسع حيث نشأت الحضارات البدائية الأولى على الرغم من عمق الاختلافات.

أما الحضارات المسماة بالغربية وهى فى الوقت نفسه الحضارة الأمريكية للولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا اللاتينية، كذلك روسيا وأوروبا بداهة، وهى نفسها سلسلة من حضارات بولندية وألمانية وإيطالية وإنجليزية وفرنسية ... إلخ بغض النظر عن الواقع الذى يشير إلى تميز هذه الحضارات بدورها بين حضارات أحدث تنفرع منها مثل كل من الحضارة الأسكتلندية والإيرلندية وكل من حضارة كاتالونيا وصقلية وشعوب الباسك (بين فرنسا وأسبانيا) .. إلخ وكل منها تعطى وتأخذ من الثقافات، ولم تكن الحدود بينها حائلا دون التداخل والتزاوج أحيانا

واليوم فإن انتشار الثقافات قد أخذ طابع سرعة الانتقال من مجتمع إلى آخر، ولن يطول الوقت الذى تتأثر به كافة أركان الأرض بالحضارة الصناعية الأوروبية، وقد بدأنا نرى كم تأثرت حضارات وطبائع لشعوب كثيرة من الأفلام الأمريكية والأوروبية وهى تغزو مجتمعات بعيدة عنها وأثرت فى أذواق شعوبها. بل وفى عاداتها وتقاليدها الموروثة.

الحضارات .. مجتمعات

ما من حضارة بدون مجتمعات تنميها بشدها وجذبها ويتطورها وتقدمها ثم يتجلى السؤال الأول الذى لا سبيل إلى تجنبه هل كان حتما اختلاق هذه الكلمة «الحضارة» ثم محاولة رفعها إلى المستوى العلمى بما تعنى مرادفا آخر لها هو المجتمع ذلك ما أقام توينبى Toynbee على استعماله من لفظ المجتمع فى حديثه عن الحضارة بل ويذهب مارسيل موس Marcel Mauss إلى أبعد من ذلك فيقول: إن كلمة حضارة بطبيعة الحال أقل وضوحا من لفظ المجتمع الذى تعنيه على أن المجتمع بعامه - يستحيل فصله عن الحضارة كما لا يمكن فصل لفظ الحضارة عن لفظ المجتمع فالكلمتان تعبير صادق عن حقيقة واحدة عن مفهومين منفصلين بل يعبر كل منهما عن منظورين متكاملين فى موضوع واحد يثيره إيضاحا لوجهة نظر تأخذ بأى منهما.

فلفظ المجتمع إنما ينطوى على محتوى أكثر ثراء، ومن ثم تعزى الحضارة الغربية التى نعيشها إلى المجتمع الصناعى الذى نحيا فيه . فبسهل عندئذ وصفها عند محاولة الإشارة إلى ما يسودها من قيم فكرية ومعنوية ومثل ومظاهر وتناسق وذوق وباختصار فليس لفظ الحضارة إلا المرأة التى تنعكس عليها أحداث مجتمعتها أو السجل الذى يحفظ على المجتمع ملامحه بكل اختلافاتها من تقدم وضغوط. وربما أخذنا فى اعتبارنا ما سجلته المجتمعات المعاصرة وأعكستها ظروف المجتمعات القديمة وما بينهما من فروق واضحة وبروز هذه النزعة الواضحة لإرساء قواعد أكثر نظامية لسير الأمور فى المجتمعات الحديثة عن تلك النزعات الفطرية التى جبلت عليها هذه المجتمعات القديمة وهو ما انعكس بدوره

على العلاقات الإنسانية وكانت تتحول أحيانا كثيرة هذه العلاقات ذاتها إلى نزعات بل وثورات عارمة وصراعات سياسية دائمة.

ولاشك أن من السمات الأقوى الفروق الواضحة بين الثقافات والحضارات قيام المدن أو غيابها مع فواصل طبيعية بين هذا التواجد وهذا الغياب فنجد مثلا أن أفريقيا السوداء مجتمعات تقليدية تشتبك في صراعات تبدو أحيانا وحشية بل ضارية في سبيل إرساء قواعد حضارات وليدة لخلق مناهج سكنية معاصرة. فمدنها التي من الواضح أنها ترنو إلى تقليد النموذج الخارجى وانعكاساته على المجتمعات ما هي إلا مجموعة من الجزر وسط بلاد راكدة بتاريخها السابق الخامل، ومن هذا المنظور ترى هذه البلاد وتفهم الحضارة القادمة على حين تفترض الحضارات والمجتمعات الأكثر ازدهارا وتقدما أن بين أسوار مدنها ثقافات متعددة لمجتمعات توفر الغذاء. ولننظر إلى هذا الحوار الدائر بين المدن والقرى الريفية في كافة المجتمعات إذ كان أن التنمية لا يمكن أن تكون بكل المناطق وكل الفئات من مناطق وفئات السكان فنجد دائما مناطق متأخرة تجاهد لبلوغ نوع من النمو الحضارى شأن المناطق الجبلية المعذمة النائية بعيدا عن العمران وشبكات المواصلات وهي مجتمعات بدائية خالصة وسط مجتمع حضارى وكان أول نجاح للمغرب من غير شك بخاصة في اجتذاب هذه المناطق الريفية النائية البعيدة عن العمران وتخليصها من ثقافتها القروية وإدماجها قدر المستطاع في ثقافات المدن المتقدمة.

وفي الإسلام نجد الفروق الازدواجية أوضح بالقياس إلى المجتمعات الغربية، إذ نجد المجتمعات الإسلامية في المناطق الآهلة أكثر استقرارا وتقبلا لوضعها على خلاف المجتمعات الغربية في أوروبا بحكم ما في هذه المجتمعات الإسلامية من مناطق بدوية شاسعة حيث الانفصالية في الشرق الأدنى هي القاعدة السائدة إذ ظلت الثقافات في شبه عزلة متفوقة حول نفسها إذ نجد بين المدن المتقدمة قرى منغلقة تتداخل وتعيش باقتصاد شبه منغلق أو متوحش أحيانا، ولا بد بحكم العلاقة الوطيدة بين الحضارة والمجتمع أن تتخذ لبوس علماء الاجتماع كلما تعرضنا لدراسة تاريخ الحضارات الطويل. إلا أننا نحن كمؤرخين لا نخلط على أى حال

بين المجتمعات والحضارة. وسوف نشرح فى الفصل التالى بم تتمثل فى نظرنا هذه الفروق على امتداد الزمن؟ إذ تتجاوز الحضارة الأحقاب الزمنية حقائق المجتمعات التى تقودها.

الحضارات . . اقتصاديات

ما من مجتمع أو حضارة إلا كان نابعا من منجزاتها الاقتصادية والتكنولوجية التقنية والبيولوجية والديمغرافية وظروفها المادية عامة، فأما البيولوجية فلها تأثير بلا نهاية له على مصير الحضارة، فانخفاض أو ارتفاع عدد البشر، ازدهار أو تدهور الصحة العامة، انطلاق وازدهار أو تدهور الاقتصاد أو العوامل التكتيكية تنعكس عبر البنيان الثقافى كما تنعكس عبر البنيان الاجتماعى والاقتصاد السياسى فى معناه الشامل هو دراسة كل هذه المسائل الهائلة.

ولقد كان الإنسان هو الأداة الوحيدة التى حركت هذه الأمور، فهو من ثم هو الصانع الأوحد لكل حضارة مادية ومشيدها صنعها بيديه. وواقع الأمر منذ البداية أن ارتفاع عدد السكان فى المجتمع يؤدى إلى ارتقاء عناصر الحضارة كما وقع لأوروبا فى القرون الثالث عشر والسادس عشر والثامن عشر وكذلك القرن العشرين.

وقد ارتبط ازدهار هذه المجتمعات بارتقاء الازدهار الاقتصادى، على حين يؤدى ازدياد عدد السكان مع تدهور الاقتصاد إلى مشاكل المجاعة أو انتشار الأمراض والأوبئة، كما نشهد اليوم فى أغلب شعوب العالم الثالثة وما تعارفنا على تسميته اليوم بالعالم النامى، وذلك فضلا عما يصيب هذه المجتمعات من ندن فى الأجور وانخفاض العائد من العمل ومن ثم فربما انطلقت الانقضااضات الشعبية الثائرة حيث تشب عديد من الثورات.

وقد شهدنا فى أوروبا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر وباء الطاعون الأسود وما أعقبه من مجاعات. جعل المجتمعات التى اجتازت تلك الدورات من الانحسار فعاشت فى ظروف أفضل وأيسر مما سبقها بما استأنفت من أسباب الازدهار حيث قلت أعداد السكان وظلت تتمتع به أمدا غير يسير وكأنما كان ذلك

دورة حضارية طبيعية من ازدهار ثم تدهور يعقبه ازدهار ومن ثم فلم يكن غير ظهور حركة التصنيع وازدهارها في نهاية القرن الثامن عشر والتاسع عشر قاضيا على تلك الحلقة الجهنمية فمحت الإنسان أو بالأحرى ردت إليه قيمته وفرصة العمل والعيش، ويوضح تاريخ أوروبا هذه القيمة المتنامية للإنسان، فكان من نتيجة ذلك الدفع الحضارى الصناعى أن نما اقتصاد تلك المجتمعات التى أدركت ما تتيحه الصناعة التى تقدمت باختراع الآلات المحركة وتطورها.

أما المجتمعات القديمة من يونانية ورومانية فلم تدرك منزلة الصناعة إذ انغمست فى الاستحواذ على العبيد واستخدامهم فى الترفيه والخدمات فلم تزدهر هاتان الحضارتان بل كان مآلهما الاندثار وكذلك الحضارة الفينيقية التى نشأت قبل القرن الثالث عشر بمفاهيم روحية راسخة لولا أنها للأسف لم تدرك خطر التقدم الصناعى التقنى وبذلك ظلت مجتمعاتها تعج بجماهير هائلة لا قيمة لها لم تستطع برغم الكم الهائل من روحانياتها تخطى عتبة التصنيع الحديث وتركت لأوروبا تلك الميزة وهذا الشرف وذلك المكسب.

على أن انعكاسات التقلبات الاقتصادية والحياة الاقتصادية ذاتها لا تفتأ تتذبذب بين صعود وهبوط وهى ذبذبات تقع قصيرة أحيانا وطويلة أحيانا، فإذا بأزمات الرخاء وأزمات الكساد فى المجتمعات تتعاقب السنين والأيام وتشكل المجتمعات وحضاراتها ازدهارا وكساداً عندما تمتد زما يطول، وعلى سبيل المثال نجد أن التشاؤم وعوامل القلق التى صاحبت القرن الخامس عشر قد وضعت له حدا وأنهت عصرا اتفق على تسميته تجريف القرون الوسطى وهو ما أثار انزعاج الغرب من التدهور الاقتصادى، ثم كان فيما بعد تزامنت الحركة الرومانسية بفروع الاتجاهات الأدبية والفنية وفلسفاتها فى البلاد والمجتمعات الأوروبية مع انحسار اقتصادى طويل بين أعوام ١٨١٧ أو ١٨٥٢، أما الامتداد الاقتصادى للنصف الثانى من القرن الثامن عشر فيما بعد عام ١٧٣٣ فقد عرف ولحقته بعض فترات من توقف عشية الثورة ولكن التصاعد المثمر على الحملة قد حل محل التصاعد والنمو الثقافى لعصر التنوير وذلك فى سياق ومضمون من الرفاهية صاحبه ازدهار التجارة النشطة وازدهار الصناعات وتصاعدها فى عدد السكان، على أن مهما

تصاعدت أو انخفضت التذبذبات في اتجاه أو آخر فإن الحياة الاقتصادية تكاد تميل دائماً إلى خلق فائض، فإذا ما رأت المجتمعات تبديده عاد باختفاء نوع من الترف الحضارى في هيئة ازدهار الفنون والآداب نلاحظها اليوم إذ يثير إعجابنا ما نراه من بدائع فنون العمارة والنحت وفنون التصوير، ولعلنا لم ندرك عند ملاحظة هذه الإبداعات أن الأمر لم يكن سوى نزعة أمير يميل إلى الزهو والخيلاء أو رجل أعمال تكسدت فوائض أمواله وراءها.

وقد كان في ربوع أوروبا منذ القرن السادس عشر أن ارتبط المستوى الحضارى ارتباطاً عضوياً بازدهار الرأسمالية ونموها وتدفق الأموال في المجتمعات.

وكما تتشكل الحضارات على أسلوب يؤدي إلى اختلاف مستوياتها بين أعلاها وأدناها فإن مستويات القمة التي تستخدم الفائض في خلق الفنون الترفيهية وحيازتها واقتناء العمارات والتحف واللوحات والتماثيل، أما المستويات الأدنى فيحصر اهتمامها إلى تحسين وسائل معيشة الجماهير.

ومن ثم لم يكن هناك كما رأينا في الفترات الاقتصادية الصعبة من عصر لويس الرابع عشر من نصير ومعين للأدباء سوى رجال البلاط الملكى وأمرائه منحصرة في دائرة ضيقة، وكذلك كانت أيام الازدهار السعيدة والتسهيلات الاقتصادية في القرن الثامن عشر أن أسهمت الأرستقراطية والبرجوازية بسخاء زائد في نشر المعرفة الثقافية والعلوم النظرية، والحركات الفلسفية التي عرف بها وتقدمها هذا القرن، ومع ذلك فقد ظلت الدائرة محدودة لامتياز أقلية في المجتمع إلى جانب أفراد الأسرة المالكة، أما حضارة الطبقة الدنيا أى حضارة الحياة اليومية للطبقات المتواضعة الفقيرة فلم يكن لها مساهمات تذكر، ولذلك كان غالباً ما تمثل الطبقات السفلى للحضارة مستواها الحقيقي، مستوى يثير التساؤلات: ما هي الحرية؟ ما هي ثقافة الفرد؟ متى يكون المستوى الأعلى الحياتى بعيد المنال؟ ومن هذه الرؤية عن القرن التاسع عشر في أوروبا، عصر انحطاط نسبي وعصر الأغنياء الجدد أى عصر البرجوازية المدعية الغازية وهو العصر الذى أعلن عن مصير جديد للحضارات، وما هي مدعوة أكثر فأكثر إلى نوع من الحضارة الجماعية ومما لا شك فيه ولا حاجة للقول أن ثمن مثل هذا التحول كان عبئاً

اجتماعيا ثقيلًا ولكن المقابل قد اتضحت أهميته بتقدم التعليم والنفوذ إلى الثقافات وانتشار الجامعات وبالتالي ارتفاع المستويات الاجتماعية حتى برغم انتشار الآثار الثقيلة التي ترتبت عليه في القرن التاسع عشر.

والمشكلة الكبرى اليوم وغدا هي خلق حضارة تكون في الوقت نفسه حضارة نوعية وقدرًا من تكتلات البشرية في المجتمع وهي برغم ما يعترض تحقيقها من تكلفة باهظة مخيفة أحيانًا فهي ضرورية إذا ما أردناها في خدمة المجتمع، ولا يمكن تصور تحقيقها دون أن تتجه المجتمعات إلى تحقيق الوفرة اللازمة التي تمكن للتحويل الآلي على تحقيقها البشرية وهو المظهر الذي نلاحظه في الدول الصناعية قريب المثال، إلا أن الأمر يزداد برغم هذا - تعقيدًا على مستوى العالم بأسره ذلك أن التقارب بين المستويات الحضارية. والتفاوت الاجتماعي والمادي بين الدول. وخاصة ما اصطالحنا على تسميته بالعالم الثالث الذين يعيشون على أرضه حتى ينحصر في الحد الأدنى لمعيشة لائقة قبل التفكير في الولوج إلى نطاق الحضارة وهي غالبًا ترف لا تعرفه هذه الجماهير، ومما لاشك فيه أن الإنسانية كلها يجب أن تعمل على إزالة هذا التفاوت الرهيب بين هذه المجتمعات وإلا فقدت كل ما حققته مجتمعات أخرى من تقدم حضارى وسيكون فقداننا للأخضر واليابس وهو ما يمثل كارثة بكل ما تعنيه هذه الكلمة.

الحضارات . . فكر جماعي

بعد الجغرافيا وعلوم الاجتماع والاقتصاد يلزمنا علم النفس بمواجهة أخيرة تتعلق بالنفس البشرية وهي ليست سوى علوم نفتقد النقة في نفسها خاصة علوم النفس الجماعية، فإن العلوم التي توصل إليها الإنسان أنيرت حولها اتهامات كثيرة وشابها كثير من الخلاف ولكنها لم تغامر بالوقوف أمام سريان التاريخ إلا نادرا، فعلوم النفس البشرية علوم متشعبة لا يسهل التفضيل بينها فالحياة النفسية والشعور والوعى ليست سوى مجموعة من الأدوات أو الآليات تساعد على أن نعيّز إنتاج باكورة العلوم النفسية الجماعية إذ تتأثر بها المجتمعات، فهناك علماء اختلفوا فيما بينهم على التفسيرات، ولا أهمية لاختلافاتهم فالأمر لا يرتبط بهم، فقد نجد على مر عصور كثيرة، في كل عصر تفسيرًا يفاير ما استقر على فهمه من العقليات

البشرية وتفسيرات معينة يتمسك بها الناس، مغايرة لما كان مأخوذاً به من قبل، وتصل هذه التفسيرات إلى حد العقيدة الراسخة في عقول البشر، ومن ثم تؤثر في فهم المعتقدات وتوجه الاختبارات وتعمق جذور الآراء المسبقة وتحرك رغبات المجتمعات البشرية وميولها وهي بلاشك من أعمال الحضارة وأكثر من الأحداث أو الظروف التاريخية أو الاجتماعية لعصر من العصور ذلك أنها ثمرة ميراث قديم سحيقة من عقائد ومخاوف وقلق ولا شعورية غالباً وهي واقع الأمر أنها آثار عدوى توارثتها الأجيال وضاعت جراثيمها في الماضي السحيق.

إن ردود أفعال إحدى المجتمعات تجاه الأحداث الجارية والضغط التي تتعرض بسببها إليها والقرارات التي تضطر إلى مواجهتها إنما هي ردود أفعال لا تخضع كثيراً للمنطق أو حتى تراعى المصلحة الذاتية وأحياناً المصلحة الذاتية الأنانية التي تتفجر تدفقاً من اللاشعور الجماعي.

وهذه القيم الجوهرية وهذا البنيان النفسي هما بكل تأكيد أمل ما تعززه الحضارات من نتائج وعوامل لا اتصال بينها الواحد نحو الآخر وهو ما يعزلها بعضها عن بعض ويميزها بصورة أو أخرى ثم إن هذه العقليات كذلك أقل إدراكاً وإحساساً بضربات الزمن وصروفه، إلا وبعد أعراض طويلة هي نفسها لا شعورية. وهنا نجد أن الدين هو الخط الأقوى في قلب الحضارات ماضيتها وحاضرها معاً.

ونجد منذ البداية على خلاف ما كان في الحضارة الأوروبية أن في الهند على سبيل المثال الحياة تتشكل وتتخذ مسوغاتها من الممارسات الدينية لا من التفكير العقلاني، ومن الشائع حكاية الفيلسوف الهندي سقراط مع آخر من فلاسفة الهند إذ طلب إلى سقراط بأن يفسر ويحدد فلسفته فرد سقراط قائلاً: إنها دراسة الحقائق الإنسانية، فأنفجر الفيلسوف الهندي ضاحكاً وقال: كيف لإنسان أن يدرس الحقائق الإنسانية وهو يجهل الحقائق الإلهية السماوية. وإزاء هذا التواضع والخشوع الديني يبدو الغرب أحياناً كمن فقد منابعه ومصادره الدينية ولا بد مع هذا الإشارة إلى أن هناك نوعاً من التعايش أو التزاوج بين العلمانية والعلوم والدين فالمسيحية من

الحقائق الحياتية الغربية وأنها دون أن تدري أو تعرف أحيانا تصل إلى ترسيخ الزندقة وقواعدها والحقائق التي تواجه بها الحياة والموت ومعانى العمل ومفاهيمه وقيمة المجهود ودور المرأة أو الطفل، وكم من سلوكيات ليست بحال من سلوكيات المسيحية ومع تبدو بعير الحق من توابعها.

ولابد من الاعتراف بأن الحضارة الغربية كلما نمت وازدهرت بدت وكأنها تبتعد عن المفاهيم الدينية وتقرب أكثر فأكثر من التفكير العقلانى أى نوع من التحلل والتحرر من السلوك الدينى حيث لابد من الاعتراف بتفرداها فى هذا الاتجاه ولم يحدث مثل هذا التحرر كما حدث فى الغرب إذ توشك الحضارات كلها أن يغمرها ويكتسحها العنصر الدينى وما يفوق الطبيعة والسحر من عناصر تستمد منها أقوى مسوغاتها وحياتها وكيانها.

الحضارات . . سلسلة متصلة الحلقات

سوف يؤدى أى حديث عن الحضارات بالضرورة إلى طرق موضوع التاريخ وأبعاده وتفسيراته بكامن حضارة حالية يمكن إدراكها دون التعمق فى سبر أغوارها ومعرفة مسالكها والتجارب التى اجتازتها إذ أن الحضارة وإن كانت ماضياً فهو ماض نابض بالحياة .

ثم إن تاريخ حضارة ما بالتالى هو التنقيب بحثا عن أطوار توافقاتها القديمة والتى ظلت ذات القيمة محسوسة حتى اليوم . فليس الأمر أن يقال لنا ما يمكن معرفته عن الحضارة اليونانية أو حضارة الصين فى القرون الوسطى على سبيل المثال، وإنما الأهم هو أن يوضح لنا ماذا بقى من الحياة فى هذا الزمان الغابر ولازالت تفاعلاته ظاهرة أى كل ما كان ماضيا وحاضرا متصلا أحدهما بالآخر بتيار دوار يظل متفاعلا عبر أجيال متباعدة .

نبدأ منذ البداية باختصار فنقول إن كل حضارة بالأمس كما هى اليوم تتضح معالمها للوهلة الأولى بسلسلة من المظاهر مثل رواية أو مسرحية مثيرة أو كعرض فنى لرسومات زيتية أو نجاح كتاب فى موضوع ما أو ظهور نظرية فلسفية أو نجاح معرض أزياء أو كشف علمى أو نظريات فنية أى كل هذه

النظريات والأحداث الواضحة والظاهرة والمنفصلة إحداها عن الأخرى، فعلى سبيل المثال ليس هناك ارتباط ما بين فلسفة مارلو ولوحة قماش من صنع بيكاسو، وهذه المظاهر الحضارية تكون عادة ذات بقاء قصير فكيف إذن تقودنا إلى نحو التنسيق بينها أى بين قديمها وحاضرهما بينما هى فى الواقع تبدو كأنها وهى تتعاقب تنقوض إحداها بالأخرى بدلا من أن تتفاعل بغية الاستمرار ولا أحد يهتم بطول تصدرها قائمة الاهتمام، ويبدو هذا التحول والتغيير بل ويبدو من تعاقب المظاهر الأدبية أو الفنية أو الفلسفية كأن كلا مدتها منخلق على ذاته حيث يمكن القول إذا ما استخدمنا لغة الاقتصاديين بأن هناك أحوالا وظروفا أدبية مواتية، كما أن هناك أحوالا اقتصادية مواتية كذلك بمعنى تقلبات قد تكون طويلة أو فجائية، وغالبا ما تتعاقب وتتوالى فى تناقض شديد وأسلوب عنيف وقد يتغير كل شيء من عصر إلى عصر أو يبدو كأنما يتغير حيث يمثل عصر النهضة فيها بعالمه وعرف عنه من أفكار وألوان ثقافية خير مثال بل وبما له من ملامحه وعاداته وزياداته التى عرف بها فضلاً عما كان يثيره من انفعالات وأهداء وانعكاسات أدبية أو فلسفية وفترات انغلاقية وقد نقول، مستخدمين لغة الاقتصاديين، بما كانت هناك من فترات ثقافية كما كانت هناك فترات وتحولات اقتصادية أى بما يعنى تنبذات وتحولات فجائية أو ممتدة وغالبا ما كانت تتوالى وتتابع فى تداخل يثير العجب والدهشة إذ يتغير ويتبدل كل شيء من عصر إلى عصر أو يبدو كأنما يتبدل كما يقع فى المسرح فمن ميل إلى حب كل ما هو جميل وإثارة جدل ينزع إلى التسامح وحب الحياة بما كانت تعاصر كشف آثار الأقدمين والعصور السالفة التى أسهمت فيها أوروبا إسهما كله افتتان وشغف إلى أحقاب روما لسنة تشكل العواطف فيها السمة البارزة (من عام ١٨٠٠ إلى عام ١٨٥٠) وإن كان دليبعيا بروز العواطف ومظاهر الذكاء والإحساس على فترات خلال عصر الانحلال والانحسار والتقهقر الاقتصادى فى ربوع أوروبا كلها بين أعوام ١٨١٧ و ١٨٥٢ على أنا يقينا نريد القول بأن هذا الانحسار الاقتصادى وحده هو الذى يسوع أو ينشئ هذه الموجة من القلق العاطفى فقد أنتت كذلك أزمان انشعبت بدء به الفكر بعيدة عن أى مضمون فلدى كل شغفه إنكار ما سبقه من أجيال بما سوف نرده لها

الأجيال القادمة وبناء على ذلك فقد كانت هناك دائما ديبذبات لا نهاية لها بين الرومانسية (العاطفة) أو عصر الباروك وهو العصر الذى اتسم بالأسلوب الفنى الذى ساد فى القرن السابع عشر وتميز بالزخارف والحركية والحرية فى الشكل وبين الحركات الكلاسيكية (الأدب اللهجى الاتباعى) .

وكانت الصورة السائدة حركية مستمرة، فكل حضارة مثلها مثل كل تطوير اقتصادى لها إيقاعها ومعدلاتها وهى تتمثل من التاريخ كمرحلة يتخللها خسوف وكسوف من الممكن تقسيمها حقبا شبه مختلفة الواحدة عن الأخرى فى تتابعات متصلة .

وهكذا سمعنا من يقول عن عصر لويس الرابع عشر بأنه عصر النور والضياء والإشعاع وكذلك عن حضارة القرن الثامن عشر بأنها عصور حضارية اتسمت بالاختراعات وتلك حضارات تفترض نوعا من الاستمرار برغم ما يبدو فيها أحيانا من تناقضات ذلك فضلا عن أن التعدد والتوحد لا يتوقفان على المواجهة والعيش معا وهذه التحولات وهذه الأحداث وتتابع تلك الوقائع والمشاهد وتعاقبها إنما تعادنا على إدراك المكانة الخاصة التى تحتلها فى سجل التاريخ حضارة عرفت واتسمت بأحداث معينة أو شخصيات معينة ذات ندرة ميزتها عن غيرها .

فكل حدث عند النظر إليه عن قرب ممكن تحليله فى صورة سلسلة فى الأدوار والتصرفات وما الحضارات على كل حال إلا طائفة من الناس فلا نهاية من ثم للتصرفات والأدوار ولا نهاية لمشاعرهم أو ارتباطاتهم بل ولا كفاءاتهم وثوراتهم .

ومن بين هذه الوقائع، سجلت مع ذلك، تلك الأعمال والأحداث من تحولات ومراحل جديدة تزداد قيمتها بقدر نتائجها كالذى وقع عند كشف قانون الجاذبية الأرضية «نيوتن عام ١٦٨٧» ، فضلا عن أحداث كثيرة أخرى كالذى كان من اختراع العالم الفرنسى دينيس بابان Denis Parin (١٦٤٧ - ١٧١٤) الآلة البخارية .. وسمى أبا الحسابات الضئيلة (الحساب التفاضلى) غير أن ما يهيمن على تاريخ الحضارات من الأسماء إنما يجتاز من العوائق ما تجتازه سفينة من عواصف وذلك على سبيل المثال لا الحصر: Dante دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١)

والفيلسوف جوته Goethe (١٧٤٩ - ١٨٣٢) وإليهما نضيف عالم الفيزياء نيوتن Newton وأواخر عصر الحداثة الأوروبية إذ أدت علومه إلى مولد الفيزياء الحديثة التي تعرف اليوم مبدعها العالم الرائع ألبرت أينشتاين Albert Einstein (١٨٧٩ - ١٩٥٥).

ومؤسسو النظريات الكبرى الفكرية تعود إلى هذه المجموعة المميزة من المفكرين والفلاسفة، سقراط وأفلاطون وكونفسيوس وديكارت وكارل ماركس إذا اتسعت أفكارهم لتشمل أجيالا وعصورا، كانوا مؤسسي حضارات لاشك وإن كانوا أقل منزلة من أولى الشهرة العظمى من مؤسسي الأديان قبل بودا والمسيح ومحمد فهم الذين سلطوا الأضواء. وما بنا من حاجة إلى القول على ما يزال يسطع حتى اليوم. وعلى الجملة فإن المقياس الذي نتخذه للحكم على مكانة كل مؤسس أو مخترع إنما هو المقياس الذي يستطيع به الحدث أو الشخص لنبوته مكانته وذلك وفق الحدث أو تقدير الاختراع أو السهم الذي أسهم به كل منهم من أجل البشرية، وكذلك مدى الزمن الذي اقتضاه لحذف مفاهيم سائدة وإحلال أخرى مكانها.

وهكذا التلقى أبعد من تاريخ شائع مألوف، كما يحدث في في شفافية ونقاء الإحداثيات الكامنة للزمن الذي علينا الآن أن نتجه إليه.

الحضارات فى هياكلها البنائية

لم تقدم لنا تصورات هذه الأزمنة وانعكاسها سوى أحداث وانطباعات متغيرة على مسرح أحداث الحضارات حيث تظهر ثم تختفى فإذا ما حاولنا وأحداث العرض مستمرة أن نتمسك ببعضها فى محاولة لفهمها فلسوف تدرك أنها فى الواقع لا تتغير حيث تبدو لنا حقائق أبسط فى سبيل منفعة جديدة يدوم بعضها على مدى مشهد أو مشهدين أو ثلاثة من مشاهد المسرحية وتعبر بنا أخرى قرونا ويدوم غيرها آخر الأمر دهرًا كأنما هى ثابتة لا تتغير ولكن ذلك خطأ فى التقدير بعمامة إذ تتحرك هى كذلك وتتبدل وإن جاء بشكل خفى بطيء إنها تلك الحقائق التى هى بمنزلة الضغوط التى تمارسها الطبقات الاجتماعية إلى غير نهاية ولا تلير الضرورات البشرية التى يتعذر فهمها للوهلة الأولى وخاصة للذين عايشوها وعاصروها مشكلة وتبدولهم وكأنها حقائق وأحداث طبيعية.

إنها تلك الحقائق التى جرى العرف على تسميتها بنية ذلك، إن المؤرخ نفسه لا يستطيع رؤيتها حال ظهورها بما اعتاد وأمثاله من سرد تاريخى متعاقب يكون عادة متسرعا كما تفهم هذه الحقائق أو تقتفى فى تطورها البطيء جدا إلا بتحملنا تهديد أحقاب طوال إذ تندثر التحركات السطحية والأحداث والناس أنفسهم أمام عيوننا على حين تتصاعد أحقاب أخرى متصلة أو شبه متصلة قد تدرك أو لا

تدرك وهى هنا بمنزلة أسس للحضارات أو بتعبير أفضل بنية الحضارات، فالمشاعر الدينية على سبيل المثال أو الجمود الذى يسود حياة أهل القرى أو المواقف من الموت والعمل والسعادة الأسرية .. إلا تلك البنى وهى بعامة قديمة طويلة الأجل، كما أنها سمات مميزة وعلامات فارقة أصيلة تضافى على الحضارات وجهها الفريد وكيانها ولا نستدير إليها قط فكل واحدة تعتبرها سمات مميزة وقيم فريدة وعلامات فارقة أصيلة يتعذر استبدالها وتمنح الحضارات وجهها المنفرد ويدهى أن تلك السمات والاختبارات الموروثة والمواقف الرافضة تجاه الحضارات الأخرى لا شعورية بالنسبة إلى التكتلات البشرية الكبرى، وينبغي لإبرازها فى جلاء ووضوح الابتعاد ولو ذهنيا على الأقل عن تلك الحضارة التى نتصدى لشرحها، ولتأخذ مثالا بسيطا وإن اتصل على بساطته بكيان هيكلى عميق ذلكم هو دور المرأة فى مجتمع ما فى القرن العشرين ولنقل مجتمعنا الأوروبى فلن يبدو هذا الدور غريبا بكافة مميزاته بل نراه طبيعيا غير أننا إذا ما عمدنا مثلا إلى مقارنة دور المرأة فى الإسلام أو قارناه بدور المرأة الأمريكية فى الولايات المتحدة وجدنا أنفسنا حياد تناقضات عميقة لن نستطيع فهم علة هذه التناقضات إلا بالرجوع إلى الماضى أو بالرجوع إلى القرن الثانى عشر على الأقل وهو العصر الذى عرف بما يسمى بالحب (الغزل العذرى) إذ كان بمنزلة الإعداد المسبق لما عرف بحب الزواج فى الغرب ثم نعمد بعد ذلك إلى سلسلة من التفسيرات إلى المسيحية وإلى دخول المرأة المدارس وكذا الجامعات وإلى نظرة الأوروبى إلى تربية الأطفال وإلى الظروف الاقتصادية ومستوى المعيشة وعمل المرأة فى المنزل وخارج المنزل .. إلخ إذ يتجلى دور المرأة ويؤكد دائما دعامة من دعائم البنيان الحضارى واختبارا له إذ هو فى كل حضارة من الحقائق ذات الأجل الطويل التى تقاوم الصدمات الخارجية ويصعب تغييرها فجأة من يوم إلى آخر. والشائع فى كل حضارة أنها تبدى نفورا من اعتناق فكر ثقافى يطرح دعامة من دعائها الراسخة للمناقشة ولئن كان هذا النفور وذلك العداء الخفى نادرا نسبيا فهو يؤدى دائما إلى صميم الحضارة وكذلك تلجأ كل حضارة عادة إلى الأخذ عن جاراتها مع احتمال العودة إلى الأخذ والمقارنة بين ما أخذت واقتبست كل حضارة محط من محاط

البضائع لا تكف عن تسلم غرائب الأمتعة والحقائب وشحنها ومع ذلك فربما وجدنا حضارة ما إذا ما ووجهت بذلك تستبعد في عناد ومكابرة هذا أو ذلك من أية إسهامات خارجية فليس هناك حضارة كما قال مارسيل موس Marcel Mauss جديرة باسم الحضارة ليس لها عادات الرفض والنفور من الإسهامات الدخيلة وفي كل مرة حيث يصدر الرفض محصلة لأحقاب طويلة من التردد والتجربة فإذا انقضى عليه زمن من ترو وتأمل هادى بطيء اتخذ مسرح الأهمية القصوى..

أليس استيلاء الأتراك على مدينة القسطنطينية عام ١٤٣٥ واقعة متعارفا عليها؟ غير أن مؤرخا تركيا يؤكد اليوم أن المدينة استسلمت وتم غزوها من الداخل قبل الاقتحام التركي لها.

وهذه الأطروحة الافتراضية ليست غير صحيحة. فالحق أن الكنيسة الأرثوذكسية ولنا أن نقول الحضارة البيزنطية فضلت على الاتحاد مع اللاتينيين الخضوع للأتراك ولا سبيل هنا إلى إلقاء الأمر على قرار متعجل اتخذ عفواً الساعة في مواجهة حدث معين وإنما لا يعدو الأمر أن يكون النتيجة النهائية والطبيعية لسباق زمنى طويل من تحلل إمبراطورية بيزنطية ذاتها، والتي رفضت الوحدة مع اللاتينيين وكانوا دون سواهم القادرين على إنقاذها من الخضوع لبرائن الأتراك، وذلك من ناحية أخرى ما عمل على ازدياد نفور اليونانيين من التقارب مع اللاتينيين وكانت بينهم خلافات عقدية لاهوتية. فقد كانت الوحدة ممكنة حيث قبلها الإمبراطور ميشيل باليولوج Michel Paleologus كان فى المجمع الدينى بمدينة ليون عام ١٢٧٤ وجاهر الإمبراطور حنا الخامس عام ١٢٧٤ باعتناق الكاثوليكية ثم أيد ذلك المجمع الدينى المشترك بمدينة فلورنسا عام ١٤٣٩ كما أيد إمكانية الوحدة وكان بعض كبار علماء الدين اليونانيين قد كتبوا يشايعون ويؤيدون تلك الوحدة ولكن اليونانيين كانوا يفضلون الأتراك. فعمدت الكنيسة بدافع الغيرة إلى استدعاء العدو وسلمته الإمبراطورية والعالم المسيحى.

ويكتب بطريرك القسطنطينية عام ١٣٨٥ إلى البابا أوربان السادس (VI) Urbain يقول: إنهم على الأقل يتركون للكنيسة اليونانية كامل حرية الحركة ويضيف فرنان حرينارد Fernad Grenard إن خضوع القسطنطينية لمحمد الثانى كان بمنزلة

انتصار للبطيريك المعارض للوحدة فضلا عن أن الغرب كان على علم راسخ بأسباب تلور الشرق ويكتب بترارك Petraroue وهو من أشهر كتاب العلوم الإنسانية في عصر النهضة ومن المؤرخين البارزين يقول: لاشك أن هؤلاء المنشقين خافوا منا.. وكرهونا من أعماقهم. ورفض آخر بطيء هذه المرة، بدأت معالمه تتضح في فرنسا حيث عوامل التردد كانت هي الأقوى إذا احتاج الأمر إلى قرن من الزمان حيث انتهى بعصر النهضة في إيطاليا وشبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) ثم فرنسا التي كانت ساحة لقتال طويل غير اللامستقر بين مذهبى الإيمان بالمسيح وطريقته.

ثم رفض من بعد ذلك لم يكن سياسيا فحسب ولم يكن شاملا وذلك ما كان من النزعة التي أدت إلى ابتعاد الغرب المتطور وأميركا الأنجلو ساكسونية بما فيها كندا عن المذهب الماركسى والحلول الشمولية للجمهوريات الاشتراكية.

وكان الرفض أكثر حسما من قبل البلاد الجرمانية والأنجلو ساكسونية ولعله كان أكثر اعتدالا من لدن فرنسا وإيطاليا ويل ومن لدن بلاد شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا والبرتغال، الأندلس سابقا) ولاشك كان رفضا من حضارة لحضارة أخرى.

وقد نقول في هذا السياق نفسه من التفكير بأن أوروبا الغربية وهى تتقبل المبدأ الشيوعى قد كانت على الأرجح مقدمة على إرساء قواعده على هواها وأسلوبها كما تطبق اليوم المبدأ الرأسمالى بطريقة تختلف يقينا عما تطبقه الولايات المتحدة اختلافا كاملا.

وهذا التصرف سواء أكان ترحيبا أو رفضا من جانب حضارة تجاه حضارة خارجية أخرى إنما تمارسه هى نفسها فى المقابل كذلك ببطء وبصورة دائمة يقليل من الإدراك أو بغير إدراك وبرغم ذلك فإنه تصرف أو عمل يساعد على معاونة الحضارة نفسها على أن تتشكل ، وهى تتقاسم جزءاً من ماضيها، وفى خضم ما تشعر به حضارة ما من حسدات ومواقف عن ماضيها وما وقع فيه من تطورات تدفع بها إليها ويعرض نفسه عليها، فإنها وبهدوء تقوم وبشكل غير محسوس باقتفاء أو باستبعاد واحد من الوحدة أو موقف من المواقف، ومن الجائز ..

فى هذه الروافض الداخلية أن تكون صادقة أو معتدلة أو قابلة للبقاء أو قاصرة على فترات عابرة فإن الروافض الدائمة دون سواها فى هذا السياق هى العوامل الجوهرية التى تضىء تدريجيا الطريق لدراسة النفوس البشرية فى موقع أوليد أو حضارة فإن التقاسم لإحدى الحضارات كما ذكر ميشيل فوكو Michel Foucault بأسلوبه الفريد هو أن تطرح دون أن يعد هذا من حدودها أو ذاك من قيمها التى تتنكر لها.

ولا تبلغ حضارة ما حقيقتها الذاتية وهى تزيج ما يعوق طريقها وتاريخها وتفرق بين مصير واضح جلى ومصير مظلم وغير واع. وترى هذه الدراسة فى علوم النفس البشرية التى تعود إلى الماضى ويقدم لنا كتاب ميشيل فوكو دراسة لحالة خاصة تشمل مشكلة التفرقة بين العقلانية والجنون وبين المجانين والراشدين وهى مشكلة لم يعرفها القرن الأوروبى الوسيط إذ كان الناس يعتقدون أن المجنون مثله كممثل كل إنسان بائس هو مبعوث الله بصورة أو بأخرى وكان المعتوهون يوضعون فى السجون فى قسوة وشراسة. وفى القرن السابع عشر الذى اتسم بالميل والشغف نحو نظام اجتماعى وصف المعتوهين بأنهم فضلات يجب استبعادها واستئصالها كما يعامل معتادو الإجرام والأشرار كان ذلك فى بداية هذا القرن ثم اتسمت من بعد المعاملة والنظرة إليهم بنوع من الاعتدال جاء عصر اعتبرهم مرضى ومن حال إلى حال ومن موقف لآخر ولكن المشكلة الرئيسية رغما عن ذلك لم تتغير حيث إن الغرب ومنذ العصر الكلاسيكى وحتى يومنا هذا قد تقاسم النظر إلى الجنون إذ يحرم تصوره ويرفض وجوده وهكذا يتزامن العقل وانتصاره بعمق مع زويدة طويلة هادئة ومسيرة شبه لا شعورية وشبه غامضة ومع ذلك فهى أخت شقيقة لهذا الانتصار الذى تحقق فى وضوح النهار فى ذلك الغزو الذى حققته العقلانية والعلوم. أى تلك الفلسفة القائمة على العقل فى ميادين المعرفة والأخلاق والعلوم.

ويمكننا طبعا تقديم نماذج أخرى لهذا التقاسم أو شبه التقاسم فى كتاب البرتو تينتى Alberto Teiventi نتابع فى أناة مسيرة الغرب التى أبعدته عن الموت كما كان ينظر إليه فى القرون الوسطى المسيحيون وهو عملية انتقال بسيط للمخلوق المنفى على الأرض إلى الحياة الحقيقية الأخرى. ثم كان فى القرن الخامس عشر

أن أصبح الموت «إنسانياً، أى اختباراً رفيعاً يجتازه الإنسان مع هول تحلل الجسد وعن هذه المفهوم الجديد للموت يتمكن الإنسان من الخروج بمفهوم آخر لحياة يراها ذات قيمة إنسانية تستحقها وفي القرن التالى أى السادس عشر أو على الأقل فى بدايته اختفى واحد من الوساس التى لحقت بالموت وحل محلها حب الحياة.

ويفترض فى التصادمات والاحتكاكات العنيفة التى أفرزت منطق العقلانية أن تكون بين حضارات ترتبط إحداها بالأخرى بعلاقات سليمة هادئة تقررها فى هدوء وباختيارها الحر ومع ذلك فقد كانت العلاقات العنيفة فى أغلب الأحيان هى القاعدة كانت مأساوية دائماً وربما كانت ذات فائدة على المدى الطويل.

ولا سبيل إلى إدراك أسباب كثير من النجاحات قبل تطور بلاد الغال من البداوة إلى الصفة الرومانسية وتطوير شطر كبير من أوروبا الغربية بعد غزوها إلا بطول الحقبة التى استغرقها الوصول إلى هذا النجاح وكذلك كما قيل بسبب تدنى مستويات المعيشة لأهل هذه البلاد لدرجة الانحطاط ومدى ما أبداه أهلها من إعجاب بالغازى المنتصر ثم ببعض من التواطؤ الداخلى فى نهاية الأمر غير أن هذا النجاح قد كان من القلة والندرة بحيث يقع استثناء من القاعدة.

وكان الإخفاق أثناء هذه التصادمات والاحتكاكات العنيفة أكثر وقوعاً من النجاح، ولئن كان الاستعمار قد انتصر بالأمس فإن فشله وخيبته اليوم حقيقية لا تحتاج إلى دليل.. وقلنا إن الحركة الاستعمارية ما هى إلا طمس واكتساح لحضارة أخرى فيسلم ويخضع المنهزمون دائماً للآخرين إلى الأقوى ولكن خضوعهم يظل مرحلياً مؤقتاً منذ تعايشهم القهرى أمداً طويلاً لا تمردون امتيازات يكتسبها الأقوى وتنازلات إجبارية أو بتواطئات ودون أن تتخلل هذه الآماد افتراضات ثقافية هامة يتنازل عنها أو يمنحها المحتل قد تكون مثمرة أحياناً ومع ذلك تظل لا تتعدى حدوداً معينة أبداً ويحدثنا عن أفضل مثال على التداخل الثقافى فى ظل العنف روجيه باستيد Roge Bastid فى كتابه القيم الديانات الإفريقية فى البرازيل ١٩٦٠ فيروى ما كان من انتزاع مخزن للعبيد من أراضيهم ومواطنيهم الأصلية فى أفريقيا ثم إلقائهم بعد ذلك فى خضم مجتمع بطريركى مسيحي سائد فى البرازيل الاستعمارية فكان رد فعل هؤلاء الأفارقة إزاء ما وقع لهم أن قامت جماعات

سوداء وطائفة مشربة بدمرة البشرة بإنشاء جمهوريات مستقلة يمارسون مرغمين شعائر الديانة المسيحية، وظلت هذه الجمهوريات قائمة فلم تسقط واحدة منها إلا بعد حروب نظامية عديدة وبذلك استطاعت الفئة المجردة من كل شيء أن تعيد تشكيل ممارساتها الدينية الإفريقية التي ورثوها عن أسلافهم الأفارقة كما نجحوا فوق ذلك في إحياء رقصاتهم الإفريقية فالت شهرة عالمية.

بل وصل الأمر اليوم أنهم استطاعوا تكوين مجتمعات تمارس أنواعا متجانسة من الشعائر المسيحية والإفريقية معاً.

أليست تلك التوليفة التوافقية مثالا ثقافيا حيا نعيشه ويعيشه معنا العالم اليوم.. فإن المهزوم وإن استسلم فقد استطاع المقاومة والصمود واتقاء انعكاسات الدمج القهرى وآثاره لصيانة جذوره بل استطاع نشرها حية غازية منتصرة.

التاريخ والحضارة

نستطيع عبر عصور متباينة تجتازها حضارة من الحضارات وتغيرات بطيئة فيها ونقلات لها من الارتقاء وتدهور وصمود وخضوع وإذعان ورفض ومقاومة واستسلام أن نستخلص صياغة أو وصفا يعبر عن تقييم وتفسير نهائى يرد إليها بمالها من وصف نهائى وجهها الخاص فإن كل مظهر من مظاهرها حلقة فى سلسلة تاريخية يتعاقب بعضها إثر بعض . ومن ثم كانت الحضارة بذلك أبعد أمدا بين عصور التاريخ الطوال، غير أن المؤرخ لا يستسلم بسهولة لذلك فليست بالنسبة إليه سوى تتابعات تتوالى حيث نجد النظرة فى سباق الارتقاء تتسع بالتدريج .

ومن المعروف أن عصور التاريخ تختلف إذ تسجل يوما يوما أو بعمل وحدات قياسية يختلف بعضها عن بعض غالبا فنراها عاما بعد عام أو عقدا بعد عقد (١٠ سنوات) وربما قرنا كاملا بعد قرن وكل مرة فإن المشهد يختلف باختلاف وحدة القياس المستخدمة وهذه التناقضات بين هذا الكم من الحقائق الملاحظة وبين هذه الأزمنة ذات الآماد المتنوعة الأطوال والتي تغذى الصيغة الديالكتيكية الجدلية الجديدة بالتاريخ ولتبسيط الشرح المفهوم، لنقل إن المؤرخ على ثلاثة محاور على الأقل . فالمحور الأول هو التاريخ التقليدى أى السرد المعتاد والذي يسرع فى الانتقال من حدث إلى حدث تالٍ مثلما يفعل مؤرخ يرصد قديم الأحداث، أو

مراسل صحفى اليوم فتراهما ينتقلان بين عشرات من صور حية سرعان ما تؤلف قصة متعددة الألوان غنية بالتغيرات المفاجئة كما يقع لدى أبطال المسرحيات بما يشوق المرء إلى متابعة الأحداث ومع ذلك فما إن ينتهى من قراءة الحدث أو مشاهدة المسرحية (إلا ويظل غالباً على تعطشه عاجزاً عن الحكم أو الفهم أو الإدراك السليم وتتجلى أحداث المحور الثانى جملة كمعصر الرومانسية والثورة الفرنسية والثورة الصناعية والحرب العالمية الثانية، ففى هذه الأحداث نجد أن وحدة القياس إما عقدية (عشرية السنوات) أو عشرينية بل قد تبلغ نصف القرن والأحداث تسمى بفضل هذه الوحدات القياسية الطويلة حقبا أو مراحل وتتقارب فيكون تفسيرها وتقديمها بعدد من الشروح. إنها هنا إذن فماذا أردنا القول؟ أحداث طويلة ومسبقا منزوع منها التفاصيل الزائدة والتي لا طائل منها ولا فائدة.

ثم مرحلة ثالثة آخر الأمر وهى المرحلة التى يكون فيها تجاوز الأحداث الطويلة ولا تستبقى إلا الأحداث القرنية (كل قرن من الزمان) أو متعدد القرون ففيها يقحم حدثا كل لحظة فيه طويلة وتتجاوز وتتعدى الزمنية الكبيرة وهو تاريخ لا تجتاز مراحله إلا بالتهيو بما يليق به ومثال ذلك إذ ليست يقينا الطويل للمصير الليبرالى العنيف لتلك الثورة التى شبها ومر بها الغرب وما فولتير Voltaire إلا مرحلة من مراحل تطور الفكر الحر كما أن لعلماء الاجتماع فى هذه المرحلة الأخيرة كذلك تصوراتهم فيقولون عن هذه المرحلة ذات العمق إن الحضارات تبدو خارج الأحداث العارضة بعيداً عن الطوارئ غير المتوقعة التى شكلت مصيرها وصبغته على امتدادها، أو بعبارة أدق على امتداد الزمن الذى تواصلت فيه وهياكلها وصورها التجريدية البعيدة عن الواقع رغم ذلك كله مراحل جوهرية.

فما الحضارة - من ثم - إلا اقتصادا معذوحا لا مجتمع مسلم به إذ هى سلسلة من ظروف اقتصادية، طوائف فى مجتمعات تتشبهت بإصرار بالبقاء. ولا تكاد تترك نفسها للتفكير قليل.

ولذلك فلا سبيل إلى إدراك حضارة ما إلا على امتداد من الزمان بعيد، مشحونة بتاريخ عاصف، أو صاخب عاصف معاً أحياناً، بما يشبه جيلاً بعد جيل، قوم حافظوا عليه كأثمن ما تملكون.

ولذا نرفض ما انتهى إليه المؤرخ الأسباني الكبير رافائيل التاميرا Rafael Al-tamira (١٩٥١) وفرانسوا جويزو Francois Guizot (١٨٥٥) إذ اعتبروا الحضارة «كل التاريخ، وهى وإن كانت لاشك كل التاريخ، فذلك من منظور متماسك مع أقصى مالمدى التاريخ الممكن والمتناغم انسجاماً مع نوع معين من التاريخ البشرى، وليس لاستعادة حكاية فونتينيل Fontenelle وأزهاره، وصحيح إن الورود جميلة ولكن أفضل منها حكاية البستاني، وما تؤمن الورود بخلوده.

فبالنسبة للمجتمعات فإن الأوضاع الاقتصادية، وآلاف أحداث الحياة على امتداد تاريخها القصير، فإن الحضارات تبدو كذلك خالدة وهذا النوع من التاريخ ذو النفس الطويل. هذا التاريخ القاصى (عن بعد) سباحة فى عرض البحر المتلاطم، لا كمثل الإبحار الساحلى الآمن غير بعيد عن الأنظار وهذه المسيرة التاريخية بغض النظر عما نحاول إضفاءه عليها من رسم أو اسم، مسيرة لها محاسنها ومساوئها.

فمن محاسنها أنها تلزمن التفكير والتفسير بألفاظ وتعبيرات غير مألوفة، كما تقتضى اللجوء إلى الشرح التاريخى لإدراك زمنها الذاتى. أما مساوئها بل إخطارها، فهى احتمالات وقوعنا فى تعميمات سهلة لفلسفة التاريخ.

وإجمالها تاريخاً خيالياً أكثر منه تاريخاً محققاً موثقاً غير متنازع عليه.

ولا شك أن للمؤرخين الحق فى توقي الحذر من هؤلاء المتحمسين من أمثال شبنجلر Spingler أو توينى Toynbee إذ أن كل تاريخ إنما ينساق إلى مستوى الشرح العام ولكنه يستلزم بالضرورة الرجوع الدائم إلى الواقعية المجردة وإلى الأرقام والخرائط والتسلسل التاريخى الدقيق. وباختصار إلى المراجعة والفحص والتحيص.

وأكيدا وبصورة أكبر مما يتعلق بدعائم الحضارات فإن دراسة الحالات المجردة هو ما يستوجب الارتباط بها لفهم ماهية إحدى الحضارات، إذ أن كل قواعد الاختلاف أو الاتفاق التى تولينا حتى الآن تفسيرها، سوف تفسيراتها الواضحة فى الأمثلة اللاحقة والتالية.

الجزء
الأول

الحضارات غير الأوروبية

الفصل الأول

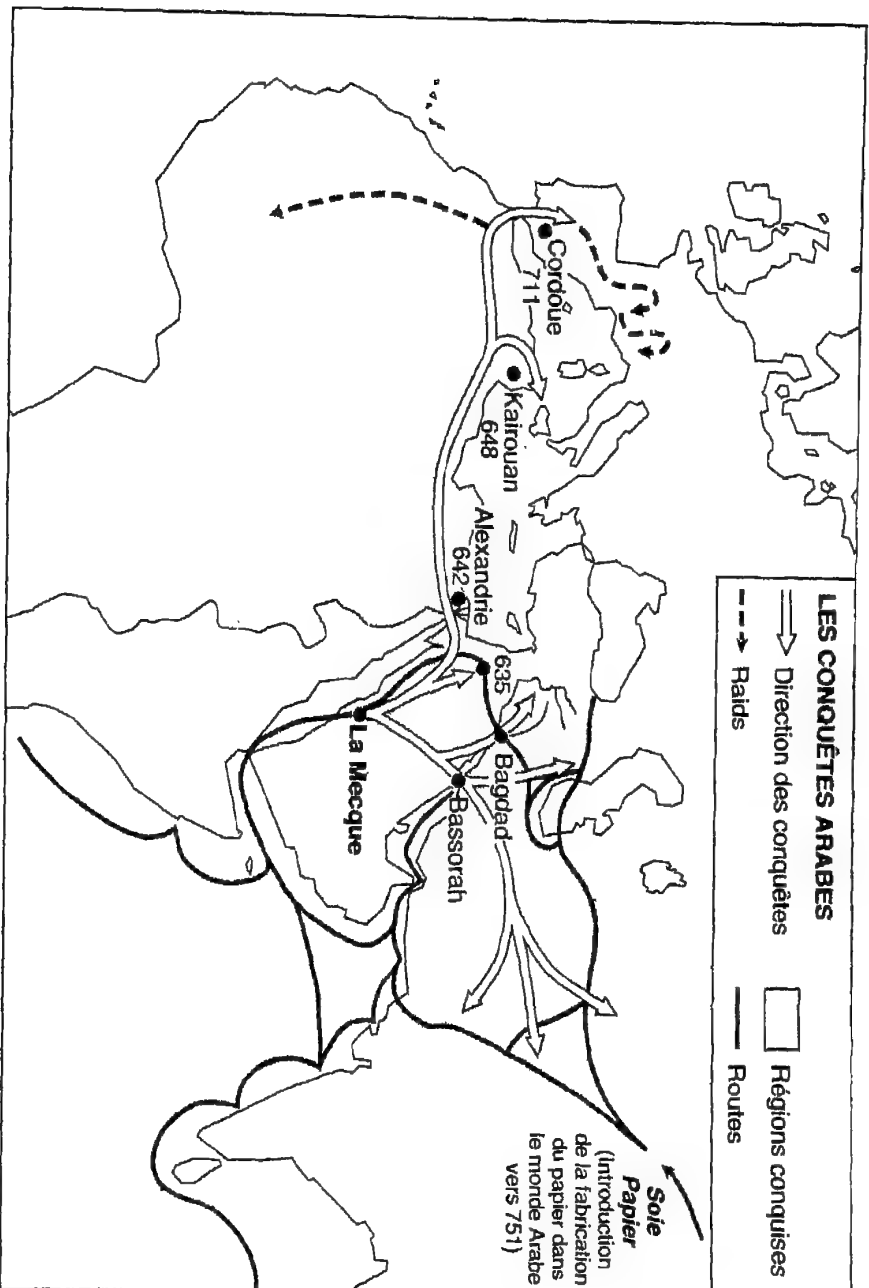
الإسلام والعالم
الإسلامي ..

الحضارات غير الأوروبية

لا شك أن الحضارات تقتضى زمناً تدشأ فيه، كما تقتضى إعداداً وتمهيداً موقع حتى تنتقل إلى مرحلة الوثوب والانطلاق، والقول بأن الإسلام ظهر ثم عبر مع ظهور محمد سنين، قول صحيح وغير صحيح فى الوقت نفسه، بحيث تقف عند حقيقة، قل أن تبدو غامضة، وكذلك كانت المسيحية التى كان كذلك مولدها من قبل ظهور المسيح زمناً طويلاً، فما كان بدون محمد ولا المسيح، إسلام ولا مسيحية، ومع ذلك فقد استطاعت هذه الديانات الجديدة، وفى كافة مراحل تطورها التقاط قلب الحضارة التى سبقتها فكانتا دائماً بمنزلة الروح، فاستطاعتا منذ مرحلة الانطلاق الفوز بفضل الاستحواذ على ميراث خصيب وماضٍ وغنى، فضلاً عن كل الحاضر، وواضح أن كلا منهما كان يمتلك منذ الوهلة الأولى مستقبلاً مبشراً.

الإسلام صورة جديدة للشرق الأدنى

حضارة أخرى: وكما ورثت المسيحية الإمبراطورية الرومانية ميراثاً استطاعت مد مسيرته وإطالته، فقد تمكن الإسلام فى مطلع نشأته من الاستيلاء على الشرق الأوسط الذى كان وقتذاك من أقدم - إن لم يكن - ملتقى للبشر والممالك المتحضرة



الفروحات العربية
 اتجاهات الغزوة
 - - - - - المعارك الفروقات
 □ المناطق المفتوحة
 — الطرق

فى الدنيا، إنه واقع ذو آثار هائلة فقد اتخذت الحضارة الإسلامية سماتها من الضرورات الجيوبوليتيكية القديمة، ومن الأشكال السكانية الحضرية، والعادات والشعائر والعقائد الدينية القديمة فى الإيمان وأساليب الحياة، خاصة فى عقيدة الإيمان كل فى دينه، وقد ارتبط الإسلام بشكل أو بآخر باليهودية والمسيحية وبنوة إبراهيم والعهد القديم ووحدايته الصارمة، كما أن القدس مدينة مقدسة، ويتفوق عليها فقط أكبر الأنبياء قبل محمد.

وكانت لهم فى نواحي المعيشة اليومية سلوكيات قديمة.

توالى عشرات القرون على الإسلام حتى يومنا هذا.

وفى ألف ليلة وليلة، فإن تحية العاهل هى تقبيل الأرض بين يديه، كان الأسلوب هو المتبع فى بلاط خسرو (٥٣١ - ٥٧٩) وكان هذا هو المتبع قبل ذلك يقينا، وفى القرنين السادس والسابع كان السفراء الأوروبيون يتجنبون هذه الإيماءة عند تقديم التحية فى كل من اسطنبول وأصفهان أو دلهى، إذ كانوا يرون فيها نوعا من المهانة لهم ولمن يمثلونهم من الملوك أو الأمراء.

وكان هيرودوت فى عصر سابق يسخط من عادات المصريين كانت فى نظره منفرة، إذ كانوا وفى عرض الطريق بدلا من التحية يسجدون بعضهم أمام بعض انبطاحا حتى منتصف أجسادهم أو يخفضون الأيدى كالكلاب حتى الركبة بدل التحية، ومازال هذا أسلوب التحية سائدا حتى اليوم. ومن التفاصيل الأخرى فالحمامات المغربية التى تسمى الحمامات التركية وليست سوى أنماط معدلة من حمامات المياه المعدنية الساخنة التى كانت عند الرومان قديما ثم أدخلتها الغزوات العربية بلاد الفرس وغيرها من البلاد. ثم هناك يد فاطمة Lamain Refatma عند المسلمين، وتقابل عندنا أنواط ووشاح الأكتاف فى المناسبات الجزرية ونصب القرطاجة التذكارية.

أما ما كانوا يتخذون من ملابس وأردية، فقد عمدنا إلى استعارة ما ذكره ف. ف. جوتييه F.F. Gautier فيما لم يتردد فى الاعتراف بأنه كان فى بابل القديمة كما وصفها، وكان قد انقضى أربعة قرون بل قد تزيد على ما كان من ارتداء

سكان بابل جلبابا من كتان ينسدل حتى أقدامهم، وكذا كان فى الجزائر فيما يسمى «الغدورة»، ومن فوقها جلبابا آخر من كتان كذلك، يسمى جلابه، ومن فوقهما معطفا أبيض صغير قد يشبه «البرنس» الصغير كرداء للرأس، ويلفون رؤوسهم بفلنسة تسمى «طربوش».

وثمة تفاصيل أخرى عن أساليبهم واضحة على كل حال فى أساليب التفاهم والتعبير وقدراتهم فى هذا السبيل.

مثل الحصار الإسلامية كمثل الحصار الغربية، مشتقة ومنفرعة من «الدرجة الثانية»، كما وصفها «الفريد ويبر» Alfred Weber فهى لم تقم من فراغ بل على بقايا وأنقاض هذه الحصار غير المعروفة المفعمة بالحيوية الشديدة التى سبقتها فى الشرق الأدنى.

إن لم يكن منذ نبوة محمد، ولا خلال عشرات الأعوام من تلك الغزوات الخاطفة (٦٣٢-٦٤٢) الأولى يمكن القول بأن ملامح الإسلام وكيانه قد بدأ فى الظهور، فإن الإسلام فى واقع الأمر إنما تكشف بالانفتاح على تاريخ طويل لا نهاية له تاريخ الشرق الأدنى.

تاريخ الشرق الأدنى

ضم الآشوريون ووجدوا كثيرا من ممالك الشرق الأدنى، ثم كان بعد سلوات ضم إلى هذين الضمين والتوحيد مرة أخرى، الغزوات التي شنها كل من «كورش» Carus (٤٢٤ - ٤٩١ ق.م) الذي قام على رأس المرتزقة من الإغريق ومن سكان آسيا الصغرى في حروبه ضد شقيقه Cyrus كورش الأكبر ابن «قمبيز» ثم تعرضت هذه الممالك نفسها لغزوات قمبيز وداريوس (٥٤٦ - ٤٨٦ ق.م).

ثم كان بعد قرنين من الزمان أن زالت مملكة الإخمينيين الـ Acheminides وحضارتهم من سلالة الفرس حوالى عام ٥٥٠ ق.م قامت مرة أخرى بضم وتوحيد بلدان الشرق الوسطى وزالت حضارتهم التي اتسمت بالعظمة بوفاة ملكها «داريوس الثالث» وتعد أنقاض «بيرسوبوليس الشهيرة» Perepolis عنوانا على عظمة فنون ذلك الزمان السحيق وعهد الـ Archeminides إذ وقع ذلك إثر ضربات الإغريق وحروب المقدونيين وقائدهم الإسكندر (٣٣٤ - ٣٣١) ق.م وكان هذا الغزو وهذه الهجمة الشرسة من السرعة بأسرع مما كان متوقعا، ويعد هذه الأحداث، وبعدها يقرب من عشرة قرون، جاء العرب بغزوهم الساحق، وإجمالا فإن الزمن الفاصل يمثل حلقة غريبة «حلقة استعمارية» تمكن خلالها الإغريق من السيطرة على المساحة الهائلة بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي، وقاموا

مستعمرين بتشديد المدن وموانئ كبيرة مثل أنطاكية Antioche والإسكندر، كما أسسوا منها ممالك مثل السلوقيين والبطالمة Lagides, Seleucides ورغم اختلاطهم بأتباعهم من الرعية فلم يمتزجوا بهم ولم يختلطوا، فلم يقبلوا العيش فى القرى التى ظلت بالنسبة لهم مواقع غريبة، وعلى الجملة فقد استعمر هذا الشعب القليل من الإغريق والمقدونيين، ذلك الجزء الشاسع من آسيا، كما فعلت أوروبا فيما بعد حين شرعت فى استعمار إفريقيا وفرضت عليها لغتها ونظم الإدارة فيها وتكرمت أوروبا بمنحها جزءاً من نشاطها Dynamisme .

وامتد الغزو الرومانى بدوره إلى آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وقد أفلحت الحضارة الإغريقية فى الإفلات من المواجهة الاستعمارية ذات السمات الرومانية وظلت قائمة بدورها، ثم عادت لتصبح بدورها بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية إن أردنا الدقة هى المسيطرة على تلك الممالك والبلاد، ثم كان فى القرن الخامس أن قامت «بيزنطة» بدلا عن الحضارة اليونانية السائدة بمغامرة استعمارية غازية، وإن لم يترك تاريخها الغريب شيئا يذكر.

على أن سكان الشرق الأدنى لم يميلوا إلى سادتهم ولم يبادلوهم مشاعرهم الودية، ثم تألفت منذ عام ٢٥٦ ق.م عدة شعوب فى ذلك النطاق الشاسع مثل البارثيين Parthes والـ Arsacides ثم بعدهم الفرس الساسانيون من ممالك الفرس التى حكمت فارس من ٢٢٥ إلى ٦٥١ وقد تألفت دولتهم عبر إيران وعبر نخوم نهر السند وعلى ضفافه، وكذلك على الحدود السورية الهشة، وعمدت كل من روما وبيزنطة إلى شن معارك ضارية ضد هذا الجار العدوانى القوى المنظم ذى الميول الإقطاعية والبيروقراطية، بما له من فيالق من الفرسان، ويتمتع منذ ماضٍ سحيق بعلاقات مع الشرق الأقصى، مع الهند والمغول والصين، ولاشك أن قسى الفرسان البارعين بأسهمها التى تخترق البوارج الرومانية قد جاءتهم من مغوليا . وقد قاوم بحكم وثيق ارتباطه بالديانة الزرادشتية العليا، هذا الدخيل الإغريقى مقاومة شرسة، غير أن تلك العداوة السياسية لم تحل بينه وبى انتهاز الفرصة والترحيب بالتيارات الثقافية القادمة من الغرب، فتمكن الفلاسفة الإغريق الذين طاردهم الملك جوستينيان Justinien (إمبراطور بيزنطة ٤٨٢ - ٥٦٥) من اللجوء

والاحتفاء فى العاصمة الكبرى ستيسيڤون Ctesiphon بإيران كما تمكن النسطوريون وهم المسيحيون الملحدون والذين اضطهدهم بيزنطة وعذبتهم، من الوصول هربا إلى الصين، وهناك نجحوا فى أن يكون لهم منزلة فريدة مشهورة.

وفى هذا الشرق الأدنى المتحفظ الصامت فى صراعه مع الوجود الإغريقى ثم بتحوله إلى المسيحية اضطرابه بالصراعات الدينية العنيفة المتصلة اندلعت الغزوات والفتوحات العربية الأولى (٦٣٤ - ٦٤٢) وفورا ما كانت ترغب فى تواطئات، واستقبلت كل من سوريا ٦٣٤ ومصر ٦٣٩ الوافد الجديد بكل ترحاب، وكان بأسرع مما كان متوقعا، أن انضم الفرس عام ٤٢٦ ذلك لأن الإمبراطورية التى دبت الشيوخة فى أوصالها المنهكة إثر صراعاتها وحروبها مع روما أكثر من قرن من الزمان. أما بيزنطة قد دافعت عن نفسها دفاعا سيئا ضعيفا رغم شهرة خيولها فى المعارك وشهرة أفيالها التى عجزت عن الصمود الجاد إزاء ركاب الإبل العربية وقتالهم الشرس. وهكذا وجد الشرق الأدنى نفسه منهارا، فاستسلمت ممالكه الواحدة تلو الأخرى للوافدين الجدد، إلا أن هؤلاء الوافدين لم يستطيعوا بسهولة الاستيلاء على بلدان شمال أفريقيا فى منتصف القرن السابع وبداية القرن الثامن.

ومع ذلك فربما كانت نتيجة حتمية لهذه الغزوات أن وقعت أسبانيا فى أيديهم واستسلمت عام ٧١١ .

وعلى الجملة فإذا استثنينا آسيا الصغرى المعروفة بوعورة دروبها ومسالكتها حيث أسرع بيزنطة إلى الذود عنها وإنقاذها فقد تمكن الفاتحون العرب من الاستيلاء على كافة ممالك الشرق، ثم حيث طفقت جحافلهم تتجه غربا. غير أنهم تخطوا الحدود بأكثر مما ينبغى.

ترى هل كانت السرعة التى تحققت بها هذه الفتوحات الغازية...

أ - نتيجة فجائية لصالح الغزاة الذين انقضوا بصورة لم يكن يتوقعها أحد؟

ب - أم كان النجاح طبيعيا لغارات انقضت بتلك السرعة الفائقة وهى تهدم

المدن ثم تعزلها وتجبرها الواحدة تلو الأخرى على الاستسلام؟

والاحتماء فى العاصمة الكبرى ستيسيفون Ctesiphon بإيران كما تمكن النسطوريون وهم الميسحيون الملحدون والذين اضطهدتهم بيزنطة وعذبتهم، من الوصول هربا إلى الصين، وهناك نجحوا فى أن يكون لهم منزلة فريدة مشهورة.

وفى هذا الشرق الأدنى المتحفظ الصامت فى صراعه مع الوجود الإغريقى ثم بتحويله إلى المسيحية اضطرابه بالصراعات الدينية العنيفة المتصلة اندلعت الغزوات والفتوحات العربية الأولى (٦٣٤ - ٦٤٢) وفورا ما كانت ترغب فى تواطئات، واستقبلت كل من سوريا ٦٣٤ ومصر ٦٣٩ الوافد الجديد بكل ترحاب، وكان بأسرع مما كان متوقعا، أن انضم الفرس عام ٤٢٦ ذلك لأن الإمبراطورية التى دبت الشيوخة فى أوصالها المنهكة إثر صراعاتها وحروبها مع روما أكثر من قرن من الزمان. أما بيزنطة قد دافعت عن نفسها دفاعا سيئا ضعيفا رغم شهرة خيولها فى المعارك وشهرة أفيالها التى عجزت عن الصمود الجاد إزاء ركاب الإبل العربية وقتالهم الشرس. وهكذا وجد الشرق الأدنى نفسه منهارا، فاستسلمت ممالكه الواحدة تلو الأخرى للوافدين الجدد، إلا أن هؤلاء الوافدين لم يستطيعوا بسهولة الاستيلاء على بلدان شمال أفريقيا فى منتصف القرن السابع وبداية القرن الثامن.

ومع ذلك فربما كانت نتيجة حتمية لهذه الغزوات أن وقعت أسبانيا فى أيديهم واستسلمت عام ٧١١ .

وعلى الجملة فإذا استثنينا آسيا الصغرى المعروفة بوعورة دروبها ومسالكها حيث أسرع بيزنطة إلى الذود عنها وإنقاذها فقد تمكن الفاتحون العرب من الاستيلاء على كافة ممالك الشرق، ثم حيث طفقت جحافلهم تتجه غربا. غير أنهم تخطوا الحدود بأكثر مما ينبغي.

ترى هل كانت السرعة التى تحققت بها هذه الفتوحات الغازية...

أ- نتيجة فجائية لصالح الغزاة الذين انقضوا بصورة لم يكن يتوقعها أحد؟

ب- أم كان النجاح طبيعيا لغارات انقضت بتلك السرعة الفائقة وهى تهدم

المدن ثم تعزلها وتجبرها الواحدة تلو الأخرى على الاستسلام؟

جـ - أم يعود السبب إلى الانحطاط والعطب البطيئين اللذين لحقا ببلدان الشرق الأدنى أيام كان فى طريقه إلى التحرر من الاستعمار كما نقول اليوم؟

لاشك أن الأسباب الثلاثة حق، ومع ذلك يبدو ما نسوق من التفسيرات والشروح بمنظور تاريخ الحضارات ناقصا إذ ليس يسيرا أن نشرح لو تمسكنا بشيء من الكياسة أو بنوع من الضجر هذا النجاح الذى حققته هذه الغزوات وبقي هذا الأمر البعيد ولكن: ألا يجب علينا أن نناقش ويعمق هذه المصاهرة الدينية والروحية البالغة القدم وهى ثمرة التعايش الطويل؟

فإن الدين الذى يبشر به محمد إنما ابتدع فى منعطفات هذا الشرق الأدنى بشعوره الذاتى العميق طبقا لما شعرت به روحه؟

فالإسلام فى ريعان توسعته وامتداده لم يفعل سوى إعادة الروح إلى الحضارة الشرقية الضاربة فى القدم وكان العنوان الأكبر للمغامرة أو كان على الأقل الدعامة الثانية للبيت المراد تشييده إذ كان الأول وهذا طبيعى بيت الحضارة العربية ذاتها.

والمقصود هنا حضارة صلبة قوية مشيدة فوق مناطق ظاهرة الثراء حيث تبدو فى مواجهتها الأمة العربية عنصرا ذا فائدة ونفع كبير- وسوف يكون مصير الإسلام على هذا النحو دفع هذه الحضارة القديمة وإطلاقها على محور جديد ومسار جديد.

محمد والقرآن والإسلام^(١)

إن المصادر المباشرة للإسلام تضعنا في الحال أمام رجل وكتاب ودين، فبين عامي ٦١٠ و ٦١٢ - وهي تواريخ غير دقيقة إلا أنها أقرب إلى الحقيقة - وعام ٦٣٢، وقعت رسالة محمد الحاسمة، فلولا ما كان للبلاد العربية أن تتوحد، إذ كانت مدهكة موزعة بين قبائل متصارعة مكشوفة أمام تيارات النفوذ الأجنبي والتطلعات الاستعمارية للفرس وأنيوبيا المسيحية وسوريا ومصر البيزنطية.

وبهذا النجاح تمكن محمد من توجيه أنظاره نحو الحدود الشمالية الطويلة، ولم تكن كل من بيزنطة ولا مملكة خراسان - وكانتا تتصارعان على امتداد سنوات في حروب مدمرة - بحيث تقدران مدى خطورة هذا العدو الذي بدأ ظهوره فجأة في هذه البلاد الفقيرة.

فقد وقعت لا شك غزوات عديدة، غير أن الغازي كان يرتد بعد غارته. ومع ذلك فقيم كانت وماذا أثارت تلك الغزوات المتقطعة، وخاصة أنها آتية في مناطق لا سيادة لأحد عليها، وإن ظل الفرس والإغريق من قبل في صراع دائم للسيطرة على حافة «الهلال الخصيب».

تغير بعد ظهور محن كل شيء، وذلك بفضل نجاحه والذي استخلصناه من الكتب العلمية التي تناولت نشأته وحياته ورسالته. ثم لا ننسى أن الحواشي

التعويضية التي أضيفت إليها والصورة التي عرفناها جاءتنا بعد عملية صقل^(٢) لم تكن سوى صورة جميلة باللغة الأثر.

ولد محمد حوالي عام ٥٧٠، وكان على مدى الأربعين عاما الأولى من عمره مثقلا بالهموم، وعوامل المعاناة، وهذه الحياة الغامضة^(٣) لم تبلغ ذروتها إلا عندما وصل الرسول إلى الأربعين عاما من عمره حوالي عام ٦١٠ / ٦١٢

ففى ليلة من لبالى شهر رمضان وفى غار حراء غير بعيد من مكة، إذ به وهو يغالب النوم تقع له «الكلمة» المنبثة فى الرؤيا، والتي كان انبعاثها بمنزلة تيار جارف، فى الدنيا تعلن عن نزول الكتاب على قلب الرسول، إذ أظهر له الكائن الغامض^(٤) الذى جاءه فى منامه لغة من الرداء مغطاة بالعلامات والإشارات وأمره أن اقرأ فقال محمد: ما أنا بقارئ، فكرر الملك مرتين قائلا «اقرأ» هو يضغط بالرداء حول عنق النائم ثم أردف «اقرأ باسم ربك الذى خلق».

ويدرك محمد المختار بعد أن استرد جأشه، أن كتابا قد بدأ ينزل على قلبه . وهناك تفصيلات صغيرة حول أسلوب نزول الرسالة، هل هى رسالة نزلت بالقراءة أو التبشير، لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يعرف على وجه اليقين ما إذا كان الرسول يعرف أو لايعرف القراءة والكتابة^(٥).

هذه الرواية المقدسة تشير إلى أن محمدا بعد كلمات الملاك جبرائيل وهو (الزائر الغامض) استشعر فى نفسه أنه رسول الله، ويرغم شعوره هذا فقد انتابه خوف شديد، ولم يجد سندا سوى زوجته خديجة.

وما أن بدأ الخبر ينتشر حتى شب الصراع من جانب الأثرياء من تجار مكة . وهم أقارب محمد، فزاد ذلك من تردده وشكوكه إلى درجة اليأس بل القنوط، فتساءل ما فائدة اتباع هذه الرؤية خطوة خطوة والتي تقع إثر إلهامات وومضات يأتى بها مبعوث الله فى صورة «آيات» وسور من القرآن .. هذا الكتاب الذى يضم رؤى محمد^(٦) والمهم هنا هو ملاحظة جمال وقوة الدفع والأثر السريع المتفجر من سور القرآن، وكلها تؤكد أنه كتاب ربانى، وهى نبوءات كانت تسبقها غالبا موجات هائلة من الخشية كان محمد خلالها يفقد الوعي^(٧)، وليس سهلا كذلك أن

يغير انتباهنا لهذا النوع من الشعر الغريب، فهو من الصعوبة بحيث لا يستطيع أحد إتقان ترجمة ما جاء فيه ترجمة دقيقة كاملة.

وهكذا عاشت البلاد العربية ما قبل ظهور الإسلام.. أو قانا مليئة بالآثار، فالشعر يفتح الآذان والقلوب.

وظل الرسول سنوات لا يعرف سوى أفراد الحلقة الصغيرة من المؤمنين المخلصين، وهم بعض أقاربه وبعض البسطاء البؤساء، وغالبا ما كانوا فقراء جدا، وإلى جوارهم جماعة من التجار يثرون من تجارة القوافل بين سوريا ومصر والخليج الفارسي، وكان هؤلاء لديهم صناعات وعمال يدويون وعبيد، وكان من بين هؤلاء العبيد بلال العبد الأسود الذي اشتراه أبو بكر صديق الرسول ثم صهره فيما بعد. وكان بلال أول مؤذن للإسلام.

أما الأثرياء فقد كانوا - في بداية الأمر - لا يعيرون هذه الحركة اهتماما، ولا يأبهون لتلك «الزوبعة»، التي أثارت ضحكهم وسخريتهم، ثم لم تلبث أن انقلبت تهددهم وتثير سخطهم مما جعل المواقف تتغير، فقام عدد من المخلصين الأوفياء لمحمد اضطروا اضطرابا إلى الهجرة إلى مواقع في بلاد الحبشة المسيحية ثم قام ستون منهم باللجوء إلى واحة يثرب في شمال مكة. وسوف تصبح يثرب هذه مدينة الرسول «المدينة» - واعتبر هذا اللجوء نوعا من الهرب - والتي قام محمد نفسه بالالتجاء إليها، واعتبر ذلك بداية منطلق العصر الإسلامي (٢٠ سبتمبر ٦٢٢). وهذا ملاحظة قد تكون صغيرة الشأن إذ يبدو أن اسم المدينة كان معروفا قبل التاريخ الهجري، إذ كانت حينذاك مدينة يتألف ثلاثة أرباع سكانها من فلاحى قبيلتين عربيتين تحارب كل منهما الأخرى، وقلة لها وزنها من اليهود كلهم تقريبا من التجار.

وفي مواجهة هذه القلة من يهود انتقلت سياسة محمد من التعاطف إلى الدفاع ثم إلى العداوة.

وكانت القدس قبلة الصلاة حتى ذلك الوقت، ثم تحولت من بعد إلى مكة، وقد وقع ذلك أثناء حروب متصلة. وكان المسلمون الفارون في سبيل العيش يشنون

الغارات على جيرانهم، ويناوشون القوافل الطويلة التى لتجار مكة ثم كان آخر الأمر أن مكنت حروب العشر السنوات تلك محمدا من دخول مكة سيّدا فاتحا، ولكن تصرفاته مع أهلها - رغم ملاقاه من صعاب هائلة - اتسمت بكثير من التسامح - وبسلوك متفرد فى اتخاذ القرار الحاسم والعمل بحكمة

ثم بدأ ببيان الدين ينمو رويدا رويدا بفضل هذه السور التى تكون فيما بعد منها القرآن. وبدأت دعائم الإسلام - التى جوهرها الخضوع لله - بتصميم وسياسة حكيمة من الرسول تزداد رسوخا.

ببساطة مثالية، حيث جاءت الدعائم الخمس تأكيدا على إله واحد هو الله، وعلى أن محمدا رسوله وهما الشهادتان، وأداء خمس صلوات كل يوم، وصوم شهر رمضان ٢٩ أو ٣٠ يوما، والزكاة للفقراء، والحج إلى مكة. أما الجهاد فليس من أصول التعاليم الخمس، وهى الشعيرة التى سيلجأ إليها بعد قليل وسوف تلعب دورا هاما وكبيرا.

ولا تتضمن التعاليم الإسلامية أى نوع من الأسرار الخفية أو الألغاز. ومع أن نقاطا عديدة تظل محلا للجدل، بل وتفتح أبوابا كثيرة لتفسيرات متناقضة حول الزهد الروحاني والعقيدة الإسلامية، فهى لا تزيد كثيرا عن المسيحية فى هذا السياق، فكلتاهما ترتادان طرقا وعرة المسالك بالنسبة إلى الروح. أما الصلوات فقد استلهم الرسول فيها الممارسات المسيحية واليهودية^(٩)، ولكنه ظل وفيا للتقاليد العربية وتقاليد سكان مكة فيما يتعلق بالحج، فقد حافظ على عادات الحج القديمة التى ترتبط الواحدة بالأخرى بالكعبة ومكة وجبل عرفات المجاور لها، وبما يحتمل من احتفال مسيحي قديم يقام فى فصل الربيع وآخر فى فصل الخريف يشبه حج اليهود فى عيد الفصح كما ورد فى العهد القديم^(١٠).

وكل هذه الشعائر القديمة كانت فيما يبدو وإلى حد كبير قد فقدت ما كانت تتمتع به من أهمية، وما كانت ترمز إليه من معان لعلها ضاعت فى عهود سحيقة. وقد أعيدت صياغة هذه الشعائر بأسلوب جديد ولغة جديدة إذ قام محمد بما يشبه ضم أسطورة أخرى ثقافية هذه المرة إذ ادعى كما أورد يواكيم مبارك

عام ١٩٥٨ فى كتابه (إبراهيم فى القرآن) أن إبراهيم فى زمانه مع ابنه إسماعيل هما أجداد العرب قاما بتنظيم شعائر الكعبة المقدسة ومراسم الحج^(١٠) وهكذا تأسست أسبقية الإسلام على اليهودية التى أنشأها موسى وعلى المسيحية التى ارتبطت بالمسيح. ولكن هل يكفى مثل هذا الارتباط بإبراهيم بالحساب «السياسى» لتحقيق الأولوية؟ أليس للآديان منطقها الدينى وحقائقها؟ ويبدو أن يواقيم مبارك ذكر ذلك لحسابه الشخصى.

أما لوى ماسينيون فقال: إن الإسلام فى إشادته بإبراهيم أول المسلمين على حق.. حق صحيح «إلهي»، ولكن المهم أن تدرك إلى أى مدى كانت المعتقدات والممارسات الدينية تثقل كاهل محمد وحياته وتفرض عليه الالتزام بقواعد نظام صارم دقيق، إذ أن كل شيء بالنسبة له، حتى الحق، إنما ينبثق من القرآن ويتفرع منه. وقد ظلت الشعائر الدينية حتى اليوم أكثر حيوية فى الإسلام مما هى عليه فى أقطار العالم المسيحى، حيث ورد عن ماسينيون عام ١٩٥٥ تصوير مايقع كل عام من اتجاه نحو ١٥٠ ألف حاج من كافة البلاد ومثلهم من قرى مصر ليجتمعوا فى جبل عرفات، فإذا قارنا تجمع المسيحيين فى عيد الفصح فى قرية من قرى فرنسا وجدنا أن الإسلام بالقطع يتفوق ويسبق فى هذا المجال. والسؤال الذى يطرح نفسه هل يمكن أن نغزو ذلك وبصورة قسرية إلى إيمان أكثر حيوية لدى المسلمين؟ قد يجدر أن نذكر هنا أن المسيحية اضطرت إلى مواجهة محن وتجارب «داخلية»، حتى تلك التى تنتسب إلى الحضارة التى أثمرتها، وهى محن وتجارب لم يمارسها أو يجابهها الإسلام بعد، ولعله يستشف الإحساس بها إذ يرتكز ويستند إلى مجتمعات قديمة جاهلية، وقد تتجدد الطقوس والشعائر الدينية شأن سائر السلوكيات الاجتماعية الأخرى فى الحياة ذاتها.

البلاد العربية قضية حياة وثقافة تصبح بالكاد حياة حضرية

ترى على مدى نجاح محمد وانتشار الإسلام ما هو الدور الذى لعبه فى شبه الجزيرة العربية المترامية الأطراف؟
ليس الرد من السهولة بمكان.

كان حظ هذه المدينة مكة وتراثها وقتئذ حدثا جديدا، ذلك أن محمدا عاش وبنى محيطا حضريا عايش بلادا عربية بدائية، ولا تزال وقت حديثنا بدائية، ولم يكن الحال فى مكة إلا شبيها، كما كان واقعا حيا فى تلك البقاع الصحراوية.. وقد سبق أن ذكرنا أن الأسبقية عند محمد كانت «تحضير» هذه البقاع، ولا شك أن الدافع إنما جاءه من اتصالاته بمواقع حضرية وأجنبية أخرى بعيدة لاتصالها إلا من قوافل التجارة أى من تجار مكة والذين يكادون يكونون ثرواتهم والتي جعلت منهم رأسمالية تجارية. ولا شك عرف محمد من المدن السورية أكثر مما عرف من البلدان العربية، إذ كان يعمل فى صحبة القوافل للحراسة، وذلك قبل أن يأتيه الوحي.

نقول عرف محمد هذه الأوساط المتهودة والمسيحية^(١١) هذا الإطار على كل حال أوحى إليه بكثير من الأنظمة التي أرادها لعشيرته، فأذان المؤذنين والصلوات الجماعية أيام الجمعة وحجاب المرأة والكرامة التي يلتزم بها المؤمنون تجاه إمامهم

فى الصلاة؁ لم يكن ذلك كله ميسورا دون شهود أو حشد من البشر أو تعايش
يجرى جنباً إلى جنب.

كانت هذه المثالية الصارمة التى تتسم بالاحتشام من طباع تجار الحجاز؁ حيث
نجد كذلك الإسلام يجتهد بحثاً عن مظهر من مظاهر المدن بدلاً من الحياة
القاسية؁ وفى هذا المنظور يجب تفسير بعض «أحاديث الرسول؁ إذ يقول إن ما
أخشاه وأخاف منه على قومى هو اللين حيث يطبع الشيطان بين الحثالة والنخبة..
أخشى عليهم أن يحبوا الشرب» (١٢) ثم يعودوا إلى الصحراء (تاركين مهملين
المواقع التى تقام فيها صلاة الجماعة) (وهذا التعليق من عندنا) .

وهناك مقاصد أخرى افترضها الرسول وترسخت لديه لرؤية الآلة الحادة
القاطعة المثبتة بالمحراث فيعلن قائلاً: هذا لا يدخل أبداً منزل الأوفياء المخلصين؁
فلا بد أن تدخل معه فى نفس الوقت عوامل الخزى والهران (١٣) . وبإيجاز ومثلما
يؤكد القرآن ذاته أن عرب الصحراء هم أكثر قوة وأكثر تصلباً فى دينهم وفى
خبيثهم (١٤) .

كانت مواقع الإيمان إذن فى هذا الإسلام الوليد هى المدن مشابهة لما حدث
فى المسيحية وفى الكنيسة المسيحية فى بداياتها فى الغرب.. ألم يقل إن الكافر هو
الفلاح (١٥) الوثنى الملحد؟

غرياء (مساكين) هؤلاء الفلاحون إذ نقول بحق إن البدو فى البلدان العربية
وفى مستهل القرن العشرين مايزالون هم هم؁ ولعلنا نجد بعضاً منهم فى قلب البلاد
العربية اليوم.

وقد رأينا كاتباً عن الإسلام هو «روبرت مونتانى» (١٨٩٣- ١٩٤٥) يؤلف
كتاباً قيماً عن «حضارة الصحراء» هذه. وقد يرفض متخصص فى العلوم التى
تعنى بخصائص الشعوب وصفها بالحضارة ويفضل وصفها بالثقافة فليست هناك
فى أرض الواقع مدن؁ فإن وجدت فما أشد بدائيتها؁ فلم تكن يثرب زمن الهجرة
تشبه طيبة عاصمة بيتوتيا (١٦) فى عهد إيبامينونداس (١٧) كان هناك حول تلك
المدن وفى الأودية قليلة الماء من الأهلىن.

من عاشوا فى حضر، وإن كانوا أصلا من رقيق الأرض وإن قل عددهم، ذلك أن أغلبية العرب كانوا من البدو الرحل، يشبهون جموع النحل وهى تغادر خلاياها فى تجمعات صغيرة. ومن هذه الجموع السكانية تألفت مجتمعات من أسر كان الأب فيها هو السيد المطاوع، وكذلك فروع أصغر من العشائر أو بطون القبائل تتحد فيما يشبه القبائل.

وكان إحصاء هذه القبائل يجرى على النظام المألوف اليوم، كأن يسمى بطنا كل عدد ما بين مائة و٣٠٠ خيمة تكون جزءا من قبيلة، وتبلغ هذه الأخيرة (٣٠٠٠ فرد).

وكان أضخم وحدات هذا السلم الاجتماعى كذلك ما يتوفر فيه نوع من الترابط والتماسك.

وكان الوهم كما كانت الحقيقة مما يعترف به البدوى، فالقبيلة هى الوحدة الكبيرة فى المعارك يعيش أفرادها إخوة، وأولى قرى تؤلف بينهم «رابطة الدم»، أو يشملهم اتحاد جامع، ولم يكن ذلك سوى وحدة هشة يتبعثر ويتناثر المساهمون فيها فى مناطق شاسعة.

ولم تكن معيشة البدو عبر الصحارى وشبه الصحارى فى البلاد العربية ممكنة لولا رعى الإبل، ذلك لأنها كانت معيشة شاقة، والجمل معروف عنه الصبر والتحمل والقدرة على تحمل العطش بما يمكنه من أسفار بعيدة، ومصدر للإنعام فى نهاية هذه الأسفار، وفى أعمال سلب الماشية والحرب؛ كانت الجمال تحمل الأعلاف والمربى - (جرباب توضع فيه السوائل والحبوب).

أما الخيول كانت فى آخر لحظة توفر السرعة اللازمة للكر والفر عند الالتحام. وكانت الحياة تجرى وراء العشب الذى كان كأنما يهرب. ومع الجمال المسرعة، وإبل السباق البيضاء.

كان البدو ينتشرون فى أراضى شاسعة تمتد أحيانا مئات الكيلو مترات من الشمال إلى الجنوب والعكس، شمالا نحو تخوم الهلال الخصيب بين سوريا والعراق حيث تبدو بداوتهم - إذا ما اتصلوا فى مسيرتهم بسكان الحضر - كأنما تتدهور وتثقل كاهلهم.

والى جانب رعى الجمال يضاف كذلك رعى الأغنام وكان البدوى يدعى أى راعى الأغنام، ويليهِ فى المنزلَ رعاة البقر (البقارة) والجواميس، ويأتى ترتيبهم أواخر التقويم الطبقي^(١٨) طبقة سكان الحضر ذوى الجفاء والفظاظة.

وفى جنوب ووسط البلاد العربية تحتفظ طبقة البدو الرحل (الجمالون) بتفاوتهم وأدعاء النبل وشرف النسب.

وكانت هذه القبائل النبيلة، دائما فى حروب يطارد القوى منها الضعيف، ذلك أن الصحراء إذا ضاقت فيها المعيشة طردت إلى خارجها تلك الزيادات البشرية، وكان الطرد عبر مسالك ودروب الغرب، ولم تكن سيناء ولا شريط النيل الضيق عوائق دون الصحراء وبلاد المغرب..

ولهذا الخروج أى لتلك الهجرة الجماعية أسباب عديدة: أسباب جغرافية وتاريخية، حيث الصحارى الباردة نحو الشمال تعقبها صحارى حارة. ولم يحقق العرب نجاحا فى آسيا الصغرى فى القرن السابع، إذ لم تكن إيلهم تحتمل الأجواء الباردة السائدة فى وديان الأناضول (تركيا حاليا)، بينما تعيش فى بكتريان^(١٩).

إيل تأقلمت على مثل تلك الأجواء الباردة. فإن الصحراء فى الغرب امتداد لصحارى البلاد العربية فيما وراء أخدود البحر الأحمر. وأما الأسباب التاريخية فإن الصحارى الشمالية من آسيا الوسطى يعيش فيها بدوها الرحل المعتادون أجواءها مع إيلهم ذات السنمين وخيولهم وفرسانهم وتحركاتهم فى موجات هجرة عنيفة. ومن المؤكد أن مواقعهم لم تكن بها مساحات «خالية» يتيسر الاستقرار فيها.

ويتردد أن البوادرى العربية قد وضعت فى خدمة الإسلام قوتها القتالية الممتازة وإن لم يكن دخول هذه القبائل الرحل الإسلام بين يوم وليلة ولكنهم ظلوا محاربين منقلبين أبدا، فقد حدث فى أسبانيا، التى فتحت أيام خلفاء بنى أمية، أن اندلعت المعارك والنزاعات من جديد بين طوائف من اليمين وبين بطون قيس، على بعد آلاف الفراسخ من بلاد النزاع والصراعات الأصلية..

كما أنه على أثر وفاة محمد (الرسول) حدث أن أعلنت القبائل العصيان بينما كانت تبدو فى الظاهر كأنما خضعت تماما لسلطان الإسلام. وكانت أعمال القمع

طويلة حتى أيام خلافة عمر (٦٣٤ - ٦٤٤) (٢٠) فلم يجد حلا لهذه النزاعات الصاخبة أفضل من إلقاء الفرسان وأصحاب الإبل في أتون المعارك كنوع من «الجهاد» وهي وسيلة كان يهدف منها إبعادهم عن البلاد العربية، ومحاولة تفادي الصراعات فيما بينهم (بين القبائل) في الوقت نفسه.

وهكذا حقق البدو أول فتوحات الإسلام على مسارات شاسعة، وعلمنا أن نتخيل طريق هذه المجموعات من شعوب بالغة الضلالة بقوافلهم وخيامهم من وبر الجمال وشعر الماعز ناقلين معهم عاداتهم وتقاليدهم، وهذه العجرفة التي تميز هؤلاء الرعاة وهم لا يكتفون حرصهم على البقاء رعاة، وما يبدون من احتقار لتلك الحياة الخائفة التي يحياها سكان لا يميلون إلى الترحال. على حين كانت تتجمع في الأفق مجموعات ذوو أجسام ضئيلة سوف يشنون عن قريب غاراتهم متجهين نحو الغرب.. إنه الفتح الإسلامي - وحاملين في كل مكان يستقرون فيه لهجاتهم وفنونهم الشعبية وعيوبهم وفضائلهم، وفوق كل ذلك وفي المقدمة عواطفهم المشبوبة نحو الكرم.. هذا الكرم الذي يزهر به في مجموعة. وهكذا نتعرف على مسيرة القافلة الطويلة، قبيلة بنى هلال، التي غادرت جنوب الحجاز في القرن السابع، ومرت بمواقف تدعو إلى الرثاء في صعيد مصر حول عام ٩٧٨، كما أنها انطلقت نحو شمال إفريقيا في منتصف القرن الحادي عشر كأنها غارة من الجراد، وفي القرن الثاني عشر سحقتها جحافل البربر في معركة مسطيف عام ١١٥١، فتناثرت تلك القبائل وسط بلاد المغرب، وها هي اليوم تعود ملاحمهم ومآثرهم تنبض بما تركوه وراءهم من مآثراتهم الشعبية من صحراء الأردن وحتى بسكرا وبورت إينيين. في موريتانيا والحضارة والمعيشة اليومية في العالم الإسلامي. وإذا كان دور القبائل العربية التي أثارت الاهتمام بالطريقة التي اتبعتها الإسلام، سرعان ما تهبذت وتمحست لتضغط على التوالى بهذه النجاحات كلها تقريبا على القوى المعاتلة والثقافات الحية لشعوب بدائية استطاع الإسلام إخضاعها وبث فيها الحضارة بسرعة.

لقد قدمت القبائل العربية لمحمد خلال قرن من الزمان أول نجاح له، واستطاع الإسلام فيما بعد وفي صحبة سكان الجبال من ذوى الطبائع الخشنة من بربر شمال

أفريقيا غزو أسبانيا، كما استطاع بناء مصر الفاطميون. كما تمكن من الأتراك والمغول وهم قبائل رحل، فنجح في إدخالهم في الإسلام. ومنذ القرن العاشر كان المرتزقة الأتراك يشكلون القوة الرئيسية في جيوش خليفة بغداد، وظلوا كذلك جنودا يتسمون بالبسالة والإقدام، ورماة بالنبال والسهام وفرسانا بأسلحين.

ويسخر قليلا ذلك الكاتب العربى الكبير الجاحظ من هؤلاء الأجلاف أولى الخشونة والفظاظة فى الصورة التى رسمها. ولكن التاريخ سوف يظل هو هو يصبح الفقراء أثرياء ويصير البدو الرحل من سكان الحضر، ويتعهدون بإثبات التحول من خدم إلى سادة. فقد يكون الطريق أحيانا قصيرا إذ يصبح الأتراك السلاجقة ثم الأتراك العثمانيون أمراء الإسلام، وسوف يكون لقب السيد الأكبر أو التركى الأعظم هو اللقب الذى يطلقه الغرب على الأمراء العثمانيين بعد أن استقر سلطانهم إثر الاستيلاء على القسطنطينية عام ١٤٥٣ وصارت عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

وربما كان نوعا من قوانين القدر بالنسبة للإسلام الذى نجح فى استمالة ما يطوق أراضيه أو يعترضها من شعوب بدائية وإن كانت ترزخ وتلوى تحت ثقل العنف والقهر.

ويختفى المناضل البدائى الناجح الذى تميز بجهاده المؤثر الأثير، فينساح فى لجج جبار من حياة الحضر التى بناها الإسلام ووضع دعائمها الراسخة.

الهوامش:

- (١) ليس المؤلف من المتخصصين في الدراسات الإسلامية؛ ولذلك جاءت كتابته في مستوى متوسط. ولكن يذكر له أنه تناول الإسلام باعتباره أصلاً من أصول الحضارات العالمية وإن جانبته الدقة في عرض بعض المعلومات.
- (٢) لم تبلغ الكتابة عن أحد من الأنبياء مستوى من الدقة مثلما كتب عن الرسول ﷺ إذ على المؤلفون الأوائل بعرض أخبار حياته من خلال الأسانيد المتصلة مع التنبيه الدقيق إلى عدالة كل رأي ودرجة ضبطه لما يرويهِ ولا وجود للحواشي المموهة اللهم إلا إذا كان المؤلف يعنى القصصى الشعبى غير الوارد في السيرة.
- (٣) تتحدث التوراه كما يتحدث الإنجيل عن الملاك «جبرائيل» فليس هو في عقيدة أصحاب الأديان السماوية بالكائن الغامض، إلا أن يكون للمؤلف موقف معين من الأديان جميعاً.
- (٤) يؤكد القرآن الكريم الحقيقة التي يعرفها عرب البعثة جميعاً بقوله «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك».
- (٥) ليست رؤى محمد ﷺ، ولكنها وحى منزل. والغريب أنهم لا يشككون في أقوال أنبياء التوراه الذين يتحدثون عن وحى الرب وملاكه من أمثال «أرميا وأشعيا وحقوق وحجي وغيرهم».
- (٦) لا يمكن لمن يفقد الوعي أن يأتي بهذه الآيات النبيلات الآسرة.
- (٧) أي عارف باللفظ يدرك بالتقطع أن القرآن ليس شعراً.
- (٨) الصلوات للخمس بفرونها ونافلتها مغايرة لهيئة ورسوم الصلوات المسيحية أو اليهودية. يعرف ذلك كل مطلع عليها، دون حاجة إلى علم الأديان المقارن.
- (٩) شعيرة الحج حظيت من آيات القرآن الكريم بالحفاوة أكثر من غيرها من العبادات وارتباطها بالكعبة وعرقات إنما هو متصل بملة إبراهيم عليه السلام التي بقيت آثارها في بعض التقاليد العربية وقد صحح الإسلام ممارسات العرب في شأنها كما أنها لا تتصل في شعائرها بأي مظهر من مظاهر احتفالات اليهود بعيد الفصح عند اليهود أو النصارى.
- (١٠) المفارقة واضحة بين ما شرعه الإسلام من شرائع وما قرره من نظم، وبين ما كان سائداً في الأوساط المتهودة والمسيحية التي يتحدث عنها المؤلف، ويؤكد ذلك إشارته التالية إلى بعض الشعائر الإسلامية
- (١١) ليس هذا من أحاديث الرسول ﷺ. ولعله يشير إلى خشية من أن تفتح الدنيا على أصحابه وأن يذتافسوها.
- (١٢) لعله يشير إلى بعض أقوال «كعب الأحبار» عن صلة الخصب والفلحة بالنزلة، من وجهة نظره.
- (١٣) ربما كان في ذهن المؤلف قوله تعالى: «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً» وهي آية نزلت في مناسبة معينة.
- (١٤) يخلط المؤلف بين المعنى اللغوي للبحث وبين المفهوم الاعتقادي. فالفلاح يكفر البذور أي يغطيها بالتربة ومن هذا الفعل فالكفار الذين يدفنون البذور في الأرض هم الزراع (الكفار) لغة لا عقيدة.
- (١٥) إحدى مقاطعات بلاد الإغريق القديمة.
- (١٦) من زعماء طيبة، مولود في طيبة في بلاد الإغريق (٤١٨ - ٣٦٢ ق.م).
- (١٧) تقويم طبقى خاطئ يتعارض مع أقوال الكاتب نفسه فيما ذكره قبل ذلك.
- (١٨) بلد آسيوى قديم قرب أفغانستان.
- (١٩) المعروف أن حروب الردة انتهت في حياة الخليفة أبي بكر، كما بدأ عصر الفتوحات الإسلامية.

الفصل الثاني

الجغرافيا

ماذا نأخذه عنها ونعلمه

الجغرافيا.. ماذا نأخذ عنها ونعلمه

يثير الإسلام سلسلة أحقاب ومراحل ترتبط إحداها بالأخرى وهى بعد ذلك مؤثرة ومتأثرة بتحولات وتقلبات كثيرة بما يكفى.. ذلك أن تاريخ الإسلام لم يكن تاريخا هادئا مستقرا.. ومع ذلك تظل هذه التحولات إذا ما رددناها إلى مجمل تلك الفترات الزمنية فإنها تظل نسبية. فالمسرح الإسلامى الحاضر يقدم لنا كل (فى مجموعه) ظاهرة مستقرة واضحة المعالم جليلة، تبدو سلسلة من الحقائق والإيضاحات المفسرة تفسيرا ذاتيا ومنطقيا.

تحدث الخرائط الجغرافية بالأهم، فقد صورنا المناطق ما كان فى حوزة الإسلام من مناطق، ثم تركت وأهمل شأنها حيث كان كل مرة يواجه حضارات أجنبية تنافسه:

صقلية وشبه جزيرة أيبيريا (أسبانيا) وسبتمانيا وجنوب إيطاليا ثم ممالك البحر الأبيض المتوسط الغربى وممالك كريت وشبه جزيرة البلقان من قبل شرق أوروبا المسيحية الأورثوذكسية بضخامتها والسهل الهندى الأوسط على ضفاف نهر الجانج ومملكة Deccan ديكان الشمالية ومثيلاتها الوسطى (مملكة ديكان هى جزيرة الهند) من جانب العالم الهندى.

وتطل مناطق الإسلام اليوم حيث احتفظ بسيطرته أو حافظ على الأقل على تلك السيطرة منذ زمن بعيد مناطق شاسعة ليست ثرية بعامة وتمتد من المغرب وصحارى الأطلنطى حتى الصين وانسرلند Insulinde الجزء الجزيرى لآسيا الجنوبية الشرقية أى أندونيسيا والفلبين وجزر الشرق الأقصى ومن دكا إلى جاكرتا كما جاء فى عنوان كتاب صدر حديثا.

علينا فى سردنا لما نتصدى له الآن من الأحداث ألا ننسى الأحقاب التى ازدهرت فيها الفتوحات البحرية وكانت تستخدم فى سالف العصر وهى اليوم وتقريبا وبصورة دائمة بعيدة عن قبضة وتناول الدول الإسلامية. ففي الماضى كان الأمر مختلفا تماما فالبحار تخضع لمن يمزح عبابه.

كان الإسلام فى سالف الزمان يمتلك وجودا ظاهرا فوق مياه البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى وبحر قزوين وبصفة خاصة فى المحيط الهندى ذاته وذلك بفضل انتظام الرياح الموسمية التى أتقن الملاحون المسلمون الانتفاع بها واستطاعوا تحقيق صفقات تجارية رخيصة التكاليف بفضل نوع من سفن شراعية عربية فريد بناؤها تسمى Boutres ذات ألواح موصولة بحبال من ألياف اللخيل ولا يدخل هيكلها شىء من المسامير، وتمكنت هذه السفن الشراعية المتميزة بلوغ مشارف مقاطعة كانتون فى الصين.

وعمدة فاسكوداجاما تعقب طريقها وتمكن عام ١٤٩٨ من الاستيلاء عليها وسلب شحناتها .. ومع ذلك ظلت حقيقة واقعة يجب الاعتراف بها، فلا البرتغاليون ولا الهولنديون أو الإنجليز - وفيما بعد - استطاعوا وقف هذا النوع من الصفقات التجارية البحرية العربية وربما تيسر ذلك فقط بعد اختراع البخار والسفن التجارية حول نهاية القرن التاسع عشر.

وهكذا كان التفوق الإسلامى البحرى تفوقا ذا نفس طويل امتد سنين عديدة، ومن ثم فلم تقتصر الأمجاد الإسلامية القديمة على بسالة فرسان الإسلام بل امتدت كذلك إلى مهارة رجال البحرية الإسلامية وخدمتهم وكان رمزها الشهير السندباد البحرى وما كان السندباد البحرى إلا رمزها المشهور.

كانت الأسبقية للبحر الأبيض المتوسط إذ وقعت على سواحه وأمواجه أحداث هذه المغامرة الكبرى إذ يتحدث السندباد عن مغامرات وملاحم لاقاها وعاشها مع مشاعر الانبهار للعجائب التي شاهدها ولكنه لم يفسر وصف الكوارث والفواجع التي شهدتها في المحيط الهندي وسوف نجد إن لم نخطئ أن المصير أو القدر البحري للإسلام قد تقرر فوق مياه البحر الأبيض المتوسط وعلى سواحه (فقد تقرر المصير البحري والقدر الملاحى العالمى الذى تحقق للإسلام) فهناك تحقق نجاحه وانتصاراته وكذلك حروبه ومعاركه .

كما وقع كذلك كل ما خاضه من معارك يائسة عنيفة ثم وقعت أخيرا أحداث الفشل الذى منى به .

من أهم فتوحات الإسلام ما تحقق له فضلا عن سوريا ومصر وفارس وشمال أفريقيا، فيما كان يشمل من البحر الأبيض المتوسط بكامل سواحه وأقطاره، وكان ممكنا لهذه الفتوحات أن تدمر لو أن المسلمين صمدوا فى جزيرة كريت عام ٨٢٥ غير أن بيزنطة تمكنت (فى عام ٩٦١) من استعادة هذا الموقع الأمامى الهام حيث ترسخت أقدامها فى كل من قبرص ورودى محتفظة فى يدها بمفاتيح الطرق المؤدية إلى البحر الأحمر، فكان أن استطاعت بيزنطة، من فشل إلى نصف فشل شرقا، الاحتفاظ بهذا البحر بما تناثر فى مياهه من تلك الجزر الكثيرة حول شبه جزيرة البلقان وكذلك بالبحر الأسود والإدرياتى وهما الطريق إلى إيطاليا الذى سوف يستخدمه حكام البندقية فى انتصارهم الأول المتواضع حيث اشتهروا بنقل الأخشاب والملح والقمح إلى بيزنطة الثرية .

ومع ذلك فقد وقع الطرف الآخر من البحر الأبيض المتوسط وهو الجزء الغربى فى أيدي البحارة من مصر وشمال أفريقيا وأسبانيا وكانوا يعملون فى ظل الراية الخضراء كما تمكن الأندلسيون عام ٨٢٥ من غزو جزيرة كريت على حين تمكن التونسيون منذ عام ٨٢٧ حتى عام ٩٠٢ من الاستقرار فى جزيرة صقلية التى شهدت وقتئذ حقبة ازدهار عجيب إذ أصبحت هذه الجزيرة بمنزلة القلب النابض للبحر الأبيض المتوسط المغربى الإسلامى فتحقق لهما بالتعاون مع يلرمونجاح

حضرى مشهود وسط ما اشتهر فى التاريخ بأسطورة الصدفه الذهبية (Conque D'oR) التى يجعلها الرى من حدائق الجنة.

كما تمكن المسلمون كذلك من حيازة نقاط فى مناطق مختلفه فى كل من كورسبكا وسردينيا ويستقر مقامهم فى الأقاليم حيث ظلوا يمثلون تهديداً لروما بل وينزلون من سفنهم كما يحلو لهم حتى مصب نهر التيبير Tibre وتمكنوا من ترسيخ أقدامهم بصلاية فى الـ Balears وهى مجموعه الجزر ذات الأهمية الكبرى للاتصال بالشطر الشرقى من البحر المتوسط وهو ما يتيح الرحلات المباشرة بين أسبانيا وجزيرة صقلية.

وبضربة واحدة يصير البحر «ناقل الثراء» فى خدمة الإسلام ويساهم فى توسيع مدنهم البحرية وكانت محاصرة (مقفولة) وتصبح الإسكندرية منذ ذاك العاصمة وفرعا من فروع المدينة الرئيسية الكبرى المتروبول Metropole^(١) الضخم بالقاهرة «وبليرمو» ونبتت وظهرت مدن أخرى استعاد بعضها ازدهاره من جديد مثل بوجيا Bougies التى اشتهرت بتكثيف غاباتها التى تبلى من أخشابها السفن البحرية وكذلك الجزائر وأوران وكل منهما مدينة متواضعة السمات فضلا عن الميناء الأسبانى الحيوى Almeria وما يجتمع على نهر «الوادى الكبير» Guaoalquivir من مدن فى مواجهة سفيليا Seville الأطلانطى وقد امتد هذا الازدهار زهاء قرن أو يزيد. ولاشك أن الإسلام كان قد اضطر مبكرا إلى اللجوء إلى القرصنة المسيحية وذلك قدر الأثرياء ممن تتعرض ثرواتهم فتقع فريسة ومصدر إغراء للفقراء وبحول القرن العاشر وعلى نفىض الوضع التقليدى فيما بعد كان المسلم هو الثرى أما المسيحي فقد اكتفى بأداء دور القرصان.

وكانت كل من أمالفى AMALFI وبيزا PISE وجنوا Genes تعد عشا للزنابير يؤوى القراصنة.

ثم تتدهور الأوضاع وتتصاعد مع غزو صقلية على يد النورمانديين فيما بين عامى ١٠٦٠ و ١٠٩١ ذلك أن السفن السريعة كانت تمخر البحر سعيا إلى اصطياد السفن الشراعية المسلمة وأصبح احتلال صقلية بمنزلة أول ثغرة تفتح فى بنيان العالم «الاحتكارى» الإسلامى.

ثلث تلك الحقبة وقفة «امتدت وصارت نوعا من الضيق المحسوس عبر البحيرة الإسلامية، المترامية الأطراف عام ١٠٨٠ عشية وصول «المرابطين» Al-moravides القادمين من السودان وشمال أفريقيا للجنة مسلمى أسبانيا ١٠٨٥ فى عهد كومبانين (٢) ، وحين لاحت بودار انحسار فتوحاتهم.

ومع ذلك استمرت البحار تابعة للروم والسفن تخر عبايها وهى تتعرض لعدد من المخاطر حيث ظلت مدن القارة فى أيدى العرب.. وباله من مقابل تأرى حتى عشية اندلاع الحروب الصليبية ١٠٩٥ - ١٢٧٠ تمكنت من استعادة السيطرة على البحار الداخلية، بفضل الأساطيل البحرية التى وفرتها المدن الإيطالية. وبذلك بدأ منها بزوغ العصور الكلاسيكية الكبرى فى عديد من المراحل كمرحلة الاستيلاء على القدس على ١٠٩٩ وتأسيس دويلات الأرض المقدسة والاستيلاء على القسطنطينية على يد اللاتين Latins عام ١٢٠٤ وذلك إثر التحول الأسطورى للحرب الصليبية الرابعة ومع ذلك فما ينبغى أن يخفى تلك الحقيقة الكبرى وهى القضاء على حقبة البحر المتوسط البحرية التجارية وها هى المسيحية عام ١٢٩١ ومع ظهور القديس Saint. IEan d'acae (٣) تفقد المركز الآسيوى ذا الأهمية القصوى، كما لم تستطع الاحتفاظ بسيطرتها الكاملة على البحر المتوسط بلا منازع ينافس تواجدها.

ولم تحدث ردود أفعال إسلامية إلا بعد مرور قرنين أو ثلاثة قرون فيما تلا ذلك حيث حاول العثمانيون استعادة السيطرة الملاحية وتم لهم ذلك عام ١٥٣٨ فى انتصارهم فى Prevesa إذ صارت مسالك البحر المتوسط فى حوزتهم ثم كان بعد الهزيمة الضخمة فى Lepante عام ١٥٧١ أن وضع حل تقريبا مؤقت لعودة السيطرة التى كانت على أى حال تستهدف السيادة الحربية دون سواها ولم يعد هناك سوى أسطول تركى ضعيف من سفن نقل أغلبها يونانى وتقتصر مهامها على النقل فيما بين أسطنبول على البحر الأسود ومصر وذلك فى مواجهة أساطيل عديدة من البندقية وجنوا وفلورنسا، وقد نتج عن ذلك الوضع الجديد لا شك أن تفجر نشاط القراصنة المسلمين مع الانتصارات الفريدة فى الجزائر حيث لم يكف

البربر أبداً من أصحاب الأساطيل التجارية وهكذا تتابعت فوق مياه البحر الأبيض المتوسط الانتصارات والهزائم.

أما المحيط الهندي فقد ظلت مياهه هادئة نوعاً ما حتى تدخل البرتغاليون عام ١٤٩٨ إثر رحلة الطواف البحرية المشهورة حول رأس الرجاء الصالح وانقلب الحال منذ ذلك التاريخ إذ أخذ الإسلام على غرة وبدأت شمسُه تغرب وأمجاده تنحسر.

وصدق الباحث أسعد بك Essadbey إذ يقول إن الإسلام هو الصحراء... بل هو هذا التجمع الصحراوي الشاسع الذي يقع بين بقعتين ملاحيتين بين مساحتين من مياه مالحة هما البحر المتوسط والمحيط الهندي، ومن جهة أخرى فهو يقع بين ثلاث تكتلات بشرية كثيفة هي: الشرق الأدنى وأوروبا وشمال أفريقيا.

على أن الإسلام وقبل كل شيء قارة «وسطية» فهو يضم فيما يضم تلك المناطق الشاسعة من المحيط الأطلنطي حتى الغابة السيبيرية وفي شمال الصين صحارى وصحارى منها فى الجنوب الساخنة التى تتميز عن الصحارى الباردة فى الشمال وتنفرد بأنها مناطق الجمال ذات السنامين وهى الجمال الحقيقية ذات السنم الواحد وهناك خط يمتد من بحر قزوين Caspienne حتى مصب نهر الهندوس حيث يفصل تقريبا بين هذه المناطق وليس هناك بطبيعة الحال صحراء لا تمتلك سواحلها ومدنها الحضرية وسهولها وواحاتها حيث جرفت المحارث والمجاذيف الأراضى الزراعية التى قام بفلاحتها سكان هذه المدن الحضرية، كما كان فى هذه البلاد القديمة المتحضرة وكانت على شيء من حضارة وأطلق عليها المدن «الفردوسية» Paradisiaques كواحات نهر النيل الخصيبة الثرية ونهرى دجلة Tigre والفرات ونهر الأندوس «فى الهند، ونهر Amou ونهر سيجون Syrdaria اسم نهر فى الهند يصب فى بحر آرال (بحر وبحيرة فى تركستان الروسية فى آسيا الغربية) وكانت هذه الأراضى تتمتع بتربة خصبة رائعة يندر مثلها جرفت منذ عهود سحيقة بحيث تبدو أحيانا كأنما استهلكت من كثرة الاستغلال إذ يجتمع الطقس وظواهر المناخ والطبيعة حتى لتبدو هشة واهية مضعضة تتأثر بأقل عارض فجائى أو أخطاء بشرية بل وأحداث واهمة من فعل الطبيعة كالسيول

والأمطار الغزيرة أو كثافة سكان هذه الأراضي الممتدة على حواف الصحارى مما كان يحدث فيها من آثار مدمرة رهيبة لدرجة الفناء أو بتعبير أدق فإن الصحارى سرعان ما تبتلع وتدفن تحت رمالها المدن والحقول.

وهكذا تندمج فى الإسلام تلك العوامل الهشة المتعددة الغامضة فقد كانت مدن الإسلام مدنا مثقلة جدا يسكنها تجار عديدون وحولها حقول زراعية ضيقة حيث كانت حضارة الإسلام بمواقعه الجغرافية هذه حضارة قلقة مشدودة دائما فى انتظار ما كانت تتوقعه من صعوبات متواصلة ولو قد ألقينا اليوم نظرة على خريطة العالم الإسلامى لأدركنا بوضوح أن الإسلام يتألف من مناطق ويقاع كثيفة السكان بينها فراغات هائلة لم تتمكن منها عبقرية وسائل الرى ولا ما تحقق من نجاح فى الزراعة فى تربة جافة ولا ما يتمتع به الفلاحون المسلمون من صبر وجلد ومثابرة فى زراعة الزيتون أو نخيل البلح.. كل ذلك لم يوفر للبلاد الإسلامية الأمان اليومى الذى تحتاج إليه الشعوب المستقرة المطمئنة أما الوفرة فأمر لم تعرفه مجتمعات الإسلام إلا فى فترات قصيرة قليلة اللهم إلا ما عسى أن تتمتع به جماعة لها امتيازات اجتماعية أو معيشية (محظوظة) أو ميزات تحظى بها مدن بعينها.

وثمة مثال متناقض لتلك الحالة على الأقل عند النظرة الأولى «مدينة مكة، بثرواتها العريضة التى تأتىها ممن يتدفق عليها من الحجاج فى المواسم ويصبح فيها كل شىء ممكنا.. بإعجاز إذ يصف ابن بطوطة البحار العربى والرحالة الشهير عام ١٣٢٦ متغنيا بما شاهده من تراثها ووفرة كل شىء فيها وفواكهها الرائعة ذات المذاق الحلو ولحومها المكنزة بشحومها وبما لا مثيل له من أعنابها وتينها ويلحها فضلا عن الشمام الذى لا يضاهى ثم يختتم سطره فيما كتب فيقول: باختصار هنا فى هذه المدينة نجد كل السلع التى نعرفها متناثرة فى مختلف البقاع والبلدان.

ولكن الجوع فى موضع آخر هو الرفيق المحتوم الذى لا مفر منه أو فى قول شاعر عربى: أستطيع أن أطوى جوعى بين ثنايا ضلوعى أو كما قال أبو هريرة وهو واحد من صحابة الرسول ﷺ غادر الدنيا دون أن يشبع مرة من خبز الشعير.

ومن السهل أن ندرك الآثار التي كانت تترتب على هذه الحال متى وضعناها في إطارها الصحيح من حياة بدو يجولون الصحارى ويحيون على الرعى وتتساوى الصورة وتتوازن تماما مع صحارى الإسلام حيث كان قدره أن يتكيف مع الحياة في تلك البقاع... المليئة بالشدائد والقهر إذ صور البدوى غالبا في غير رافة بأنه البدائي وذلك رغم ما أضفيت عليه من ألقاب نبيلة وهو إن لم يفهم أهل الحضرة فهم من ناحيتهم كذلك لا يفهمونه. وقد قرأنا لبعض المستشرقين العالمين بالإسلام من أمثال جاك بيريك قوله في هذا البدوى الذى يوصف غالبا بالمحتقر «كم هو جميل... نعم إنه نموذج من الحيوانية البشرية».

ومع ذلك فما أصعب قهره أو إذلاله وتطويعه وتوجيهه في أموره ومصيره ولكنه كان بعامه شريكا على كل حال

... حيث إن الوضع بدونه

غير أن الحياة البائسة التي كان يحياها وتأخذ بخناقها قد جعلت صعبا نجاح ما نسميه اليوم بترقيته ترقية اجتماعية ما دامت الترقية لا تتحقق إلا بتلك العملية التحضرية،

أى الانتقال من حياة البدو الرحل إلى حياة الاستقرار في مدن خلوية وهو ما يجرى اليوم على مستوى عال عريض، وكم من أمم وبلاد إسلامية منذ أيام الإمبراطورية العثمانية حققت هذه المعجزات لحسابها مهما كانت التكاليف، وكان كذلك منذ القرن السادس عشر فى أنحاء تركيا الآسيوية والأوروبية حيث زرعت مستعمراتها هنا وهناك العديد من اليوروكس والبدو.. من ثلأيا هذه الحياة البدوية من الرحل، الحياة القاسية وثقافتها المنغلقة المنطوية على نفسها وتعبر عن تصميم واضح جلى

والإنسان هنا أسير وعبد لكلتمته وردود أفعاله كما يقول المؤرخ أرتولد تونبى.

كان الإسلام بالأمس إذ ينقصه البشر مضطرا إلى استخدام من كان فى متناول يده من البشر على ما كانوا عليه من حالهم وكان هذا النقص شبه الدائم وجها من أوجه فقره الأساسى ولكننا على النقيض اليوم نجد عدد المسلمين كبيرا جدا بالقياس

إلى إمكانياته وموارده بل أكبر مما ينبغي، أما بالأمس أيام العظمة فقد كان هذا العدد يتكرر ما بين ٣٠ و ٥٠ مليوناً وليس كما هو اليوم ما بين ٣٠٠ إلى ٥٠٠ مليون فى أنحاء هذا الكون وبذلك صارت مهام الإسلام وواجباته اليوم واجبات ومهام ثقيلة تقبلها الإسلام مرغماً إذ وقع عليه تقبل سكان بلاده كما هم، وذلك ما لم يصادفه الغرب ديموجرافيا على الأقل برغم ثرائه النسبى وذلك فضلاً عما كان عليه الغرب من تصميم على تلمس البشر خارج حدوده

بحيث جعل من الإسلام التقليدى نوعاً من الرق الممتاز، وهكذا كان مورد الإمداد البشرى المستديم من أكبر دعائم العالم الإسلامى، إذا أدت كافة الأمم والبلاد المجاورة ما عليها من إتاوة على التوالى: المسيحيون من أوروبا الذين أسرهم المسلمون سواء فى اليابس والماء أو كان شراؤهم كالمصقالبية من أسرى الحروب حيث عرضهم يهود فردان للبيع فى القرن التاسع، أو من ذوى البشرة السوداء من شمال إفريقيا والحبشة والهند وسكان أقاليم القوقاز البائسين فى القرن السادس عشر، إذا انتهز الروس غارات القطار من سكان شبه جزيرة القرم لتمويل اسطنبول التركية بما تحتاج إليه من مدد بشرى.

غير أن جموع الرقيق هؤلاء كانوا أحياناً كثيرة مجلبة للرخاء بشكل مثير كالمماليك فى مصر الذين تمكنوا من الاستيلاء على السلطة حتى أيام حملة القديس لويس الصليبية الفاشلة عام ١٢٥٠، إذ تمكن هؤلاء المماليك الذين تربوا ونشأوا فى صناعة السلاح وأغلبهم من أصل تركى ومن القوقاز حيث نجحوا فى حكم مصر بقدر ما حتى الغزو العثمانى فى عام ١٥١٧ ولم يستطع القضاء عليهم قضاء مبرماً ثم كانوا هم الذين واجههم بونابرت فى معركة الأهرامات وكان المماليك فى قول أحد المؤرخين طوائف من المحظوظين من محدثى النعمة ولكن فى غير خشونة أو فظاظة فلم يقدموا على الصغائر وكانوا بعامّة يشبهون حرس السلطان الأتراك ذوى الشهرة.. ويشبهونهم فى كثير من الطباع والعادات والسمات.

وفى الحقيقة كانت فى كل مدينة إسلامية أحيائها التى يقطن كلامها مختلف السلالات والديانات واللغات. وقد وقع عام ١٦٥١ فى تمرد نشب فى قصر بادبشاه

العثماني (السلطان) أن انصبت لعة يابل داخل السراى حيث فوجئ غلمان السلطان وضباط حرسه من هول العصيان فبدوا فى خصم مشاعر الخوف والهلع كمن فقدوا السيطرة على مشاعهم ونسوا مالمقوا من شعارات وأصول وتعليمات وانقلبت السراى ساحة من الشغب والصياح بما أدهش شهود الواقعة حيث سمعوا المذعورين يصيحون كل بلغته الأصلية من جورجية وألبانية والبوسنية والتركية والإيطالية، وهذا مثل واحد من كثير تذكرنا بجزائر القراصنة الأتراك.

هوامش:

- (١) Metropole تحالف من عدة بلاد.
- (٢) اسم الفارس الأسباني الذى حارب «المور» Maures والأخير اسم أطلقه الرومان على بربر المغرب والآنندلس.
- (٣) قلعة كان جنود الصليبيين يحتمون فيها.

القارة الوسيطة أو الموقع والحركة والمدن

لم يكن مقدراً للإسلام أن يكون شيئاً بغير الطرق التي تخترق بنيته الصحراوية وتنعشه وتمنحه الحياة إذ الطرق ثروته بل وحضارته وقد استطاع بها تحقيق نوع من الركيزة المسيطرة حتى قبيل اكتشاف أمريكا حيث يشرف وسيطر بالفعل على ما يسمى «بالعالم القديم» متحكماً في جوانب تاريخه العالمي فهو وحده ونكرر وحده الذى يوصل بين كبرى التيارات الثقافية التى ينقسم العالم القديم مدتها: الشرق الأدنى وأوروبا وشمال أفريقيا.. فلا مرور لشيء بغير موافقته أو يغمض على الأقل عينيه.. وهو الوسيط الحق عن السفن والقوافل التجارية رغم ماكان يعتريه من صعوبات سياسية كثر حدوثها إذ ظل الإسلام جغرافياً صاحب حق الانتفاع بالطرق والمسارات الضرورية ولم يكن الإسلام بالطبع دائماً على وعى تام بهذا الوضع المتميز كما لم يكن أحياناً أخرى سيداً للموقف وهكذا صار الإسلام فى مواجهة الصحارى الباردة فى آسيا ضخمة «هشاشة» سيطرة هامشية غير مستقره فى مواجهة شعوب بدوية دائمة الاضطراب والشغب فالتركستان المسلمة خط من واحات هى بمنزلة موقع أمامى ولم تكن أبداً بمنزلة حواجز وسدود منيعة لمواجهة الأتراك أو التركمان أو المغول فى طريق بحر آرال حتى بحر قزوين وإلى البحر الأسود فكان أشد هؤلاء البدو بأساً يصعدون حتى إيران

ويهددون بغداد. وما وقع فى القرن الثالث عشر من معانى الاندحار والانكسار لرد
الهجمة المغولية.

ومع ذلك فقد ظل الإسلام قرونا هو الوحيد الذى يتحكم فى تداول الذهب من
السودان والعبيد من الزنوج وهم يعبرون تجاه الأبيض المتوسط وفى تجارة الحرير
والتوابل (الفلل) واللؤلؤ من الشرق الأقصى فى طريقها إلى أوروبا وظلت تجارة
الشرق من احتكارات الإسلام بلا منازع بين آسيا وأفريقيا وبين أيدى التجار فى
إيطاليا فقط وذلك منذ وصولها إلى الإسكندرية أو حلب أو بيروت أو طرابلس أو
سوريا.

وبذلك يكون الإسلام وبامتياز حضارة حركية فمن رحلات بحرية إلى أقاصى
الأرض مع عديد من مسارات القوافل بين المحيط الهندى والبحر المتوسط كما
كانت تنطلق وفى نفس الوقت كثيرا من البحر الأسود إلى الهند والصين من بلاد
ذوى البشرة السوداء حتى شمال أفريقيا وكانت هذه القوافل مع توفر الفيلة فى
الشرق والخيول والحمير فى كل مكان تعتمد أساسا على الإبل والجمالين إذ يستطيع
الجمال حمل ما وزنه ثلاثة قناطير من عروض التجارة المفيدة (حوالى ٣٠٠ كيلو
جرام) فلو قدرنا قافلة من خمسة آلاف جمل أو ستة آلاف لأمكن مقارنة وزن ما
تحمله فى مجمله بحمولة أضخم سفينة شراعية حيث تتحرك القافلة كما تتحرك
الجيش بقوادها وهيئة أركانها وأحكامها الصارمة ومراحلها الاضطرارية والمحددة
وما تتخذ فى رحلاتها وتنقلاتها من احتياطات ضرورية من مفاجآت البدو
وغاراتهم لنهب شحناتهم وكان من الحكمة إبرام اتفاقيات مع هذه العناصر من
النهازيين وقطاع الطرق. وكانت قوافل الجمال المحملة ومن يقودونها من الجمالة
يصلون بعد مسيرات محددة ومعينة إلى هياكل مبنية مشيدة لإيواء المسافرين
والعابرين يقال لها «خان» ، يأتيها قواد القوافل للراحة وإطعام جمالهم وإيوائها. ويعد
الخان محطاً للقوافل فما من مسافر من أوروبا لم يذكر هذا النوع من الخان بقاعاته
الفسيحة الضخمة وأثاثها المتواضع ومازال بعض منها إلى اليوم قائما مثل خان
حلب الرائع (خانات) ولا سبيل لهذا النوع من تجارة القوافل أن يتلاءم أو يدوم
دون تنظيم وإن كان بسيطا؛ ولذا كان للإسلام فئاته من التجار (مسلمين وغير
مسلمين).

وتشاء الصدفة وحدها أن أحتفظ ببعض وسائل تجار اليهود من سكان مدينة القاهرة منذ عصر الحرب الصليبية الأولى من (١٠٩٥ حتى ١٠٩٩) وهى تكشف عن أساليب التجارة وطرق التعامل النقدي، والتعامل بالقرض وكافة أشكال التعاملات السلعية والتجارية والمبادلات، وكذلك تحدثنا هذه الرسائل من هذا النوع من المبادلات التجارية العابرة بين مناطق شاسعة بعيدة وأنواع مختلف السلع كالمرجان من أفريقيا إلى الهند، وعن اجتلاب العبيد جلبهم وشراؤهم من الحبشة والفلفل والبهارات من الهند وغيرها من السلع .

وكانت هذه الحركة من التجارة فى حاجة إلى مدن ورجال مدربين وتنظيم ضخم وحركة مالية وسلع للمقايضة وما كان لأحد أن يدهش بما حقق التجار العرب المسلمون من روعة العظمة وضخامة الثراء فأصبحت من دعائم الإسلام الراسخة .

ذكر ذلك فيما لقيه الرحالة المغربي الأصل «ابن بطوطة» الذى ولد بمدينة طنجة بالمغرب عام ١٣٠٤ وكان قد أتم رحلاته حول الأرض من عام ١٣٢٥ حتى عام ١٣٤٩ زار خلالها مصر والبلاد العربية وسواحل نهر الفوبى وأفغانستان والهند والصين ووصل عام ١٣٥٢ إلى «السود» وسواحل النيجر ولم يكن مقدرا لكل هذه التحركات أن تحدث أو تقع ما لم تكن مستندة إلى خلفية منتظمة تدعمها فى مدائن منيعة كان الإسلام يعج بالعديد منها حيث يتكاثر ويزداد عددا عاما بعد عام ولم يكن لشيء أن يتحقق إلا عن طريقها وبفضلها من الناس والأنعام والسلع وكل أسباب الثراء بل ومن التيارات الثقافية والتحف ونستطيع أن تصدر قائمة ولا سبيل إلى حصرها فى مثل هذه العجالة بما كان يصدر إلى أوروبا من سلع منها على سبيل المثال النباتات القادمة من أقاصى الأرض وقصب السكر وأشجار القطن وبارود المدافع والحريز ودود القز والورق وأنواع ذات شهرة عريضة من نباتات الأدوية ومجموعات كثيرة من جراثيم أشد الأمراض فتكا كأمراض الطاعون والكوليرا من الصين والهند لإجراء التجارب عليها .

وكانت هذه المدن تتشابه من حيث شوارعها الضيقة المنحدرة عادة حتى تغسلها مياه الأمطار وتنظفها وكانت ضيقة بحيث لا يستطيع حماران محملا اجتيازها فى تقاطع واحد وقد تتعدى المنازل غالبا على الشوارع والأرصفة ومنها

ما كان ذائتوهم فهي أشبه بالمساكن الغربية فى القرون الوسطى المرتكزة على الأعمدة وقد أدى اختفاء النظام وغياب إدارة محلية للبلديات إلى تزامم هذه المنازل المنخفضة إلى تزامم تكدها بصورة عشوائية إثر ازدياد سكان المدينة ومما كتبه الرحالة الفرنسى تيفنو عام ١٦٥٧ نقرأ وصفه لهذه المدن ومنازلها وشوارعها فيقول : من الغرب ألى نجد فى مدينة كالقاهرة شارعاً واحداً جميلاً ولكنك تعثر على عدة شوارع صغيرة تلتوى وتتقاطع فى حوارى ومنعطفات تدل على أن هذه المنازل قد بنيت عشوائياً دون أى تخطيط مقتطعة كل مساحة تروق لمشيدها دون أى مراعاة لما يحتمل أن تسد أو تحجب أى طريق، ثم فرنسى آخر من بعده اسمه قوليني عام ١٧٨٢ يصف هذه الشوارع فيقول: هذه الشوارع وهى غير مرصوفة تعج دائماً بكتل من البشر والمواشى والحيوانات والحمير والكلاب وكلها فى عجلة من أمرها تتحرك بسرعة مثيرة كثيراً من الأتربة والرمال فيضطرب السكان إلى رش المياه أمام منازلهم وأبوابهم فيتخلف من الغبار الطين الذى يغمر المكان فيمتلئ بالروائح الكريهة، والمنازل تشيد على عكس ما هو مألوف عن الشرق من دورين أو ثلاثة أدوار تنتهى بسطح من الصلصال أو الطوب اللبن أو من أحجار تجلب من جبل المقطم القريب من مدينة القاهرة وتبدو أغلب هذه المنازل كالسجون وتجدها الصورة نفسها فى مدينة أخرى كاستنبول فى القرن التاسع عشر فلم يكن يشق على العربات وحدها المرور بل لم تكن الخيول ذاتها تستطيع المرور إلا بصعوبة بالغة ولم يكن عرض شارع (الديوان) وكان يعد أعرض شوارع العصر ليزيد عن مترين ونصف أو ثلاثة أمتار فى بعض المواقع. وعلى الجملة فقد كان هذا هو الواقع بصفة عامة ومع ذلك فى القرن الحادى عشر كان فى القاهرة منازل ذات سبعة طوابق أو ١٢ طابقاً أحياناً وكانت مدينة سامرا، بمنزلة استثناء من القاعدة بما كان بها من ميدان فسيح يمتد طويلاً عدة كيلو مترات ويعرض بين ٥٠ و ١٠٠ متر. وقد أدى هذا الوضع مع ضيق شوارع المدن الإسلامية إلى التكسد المستمر مع كثافة سكانها إذ كانت مكان التجمع خصوصاً لشعب يحب الظهور والتعبير عن ذاته وكان الشارع بمنزلة الشريان الحيوى حيث تتجمع فئات المنشدين والرواه والقصاصين والمغنين وحوائى

اللعابين والمهرجين والراقصين وكذلك المشعوذين والدجالين والمطربين بكافة أنواع الأعشاب يداورون المرضى والحلاقين كما يتجمع فى الوقت نفسه علماء الأخلاق ودعاة العقيدة المسلمون حيث يتفقون على مواعيد يتلاقون فيها للدرس والوعظ والإرشاد، وكذلك غصت شوارع المدن الإسلامية بالأطفال والأولاد فى لعبهم ولهوهم وكان عنيقا أحيانا، وإلى ذلك كله يضاف ما احتفظ به للمرأة من ميزة سيرها وحواها على الأرصفة وعلى رغم هذا المقدار الهائل من الفوضى فلم يخل الأمر من خطة عامة، ظلت مرتبطة بحياة السكان إذ ينهض وسط هذه المدن الجامع الكبير فى موقع له جلاله وهيئته وخاصة كل أسبوع للصلاة فإنه تتجه الجموع ثم تنتشر منه بعد الصلاة.

كأنما هو القلب من الجسد وإلى جواره تمتد الأسواق والوكالات التجارية ومستودعات للبضائع والسلع التى ترد بها القوافل وفى بعض أبنيتها الحمامات العامة، الشعبية ودكاكين أصحاب الحرف والصناع المهرة تتجمع فى شبه تخطيط مركزى ينطلق من موقع الجامع الكبير فنجد أولا صناعات الروائح والبخور والعطور وتجارها ثم الحوانيت حيث تباع أنواع الأقمشة والفرش ثم الصاغة وتجار المواد الغذائية وأخيرا أصحاب حرف أقل منزلة وأقل درجة كصناع الجلود وديباغتها والإسكافية والحدادين والخزافين والسرورجية والصباغين وهؤلاء الذين جاءوا فى نهاية ما ذكر من الحرف تبلغ حدود المدينة التى كانت مقسمة إلى حارات تضم كل منها أصحاب حرفة معينة. أما «المخزن» ويعد حتى الأمر فيقع على حافة المدينة فى منأى عن الشغب ونوبات الفوران الشعبى وإلى جوارها وتحت حمايته حارة اليهود (الملة) وإلى جانب هذه الشكول تقوم مجموعة عديدة من حارات سكنية مقسمة تبعا للموروثات ومختلف الأعراف فى انطاكية وهى مدينة من طائفة من أحياء صغيرة خمس وأربعون حارة تعيش فى خوف وأرق دائم من حوادث القتل ومن ثم لم يخلق الاستعمار الغربى للتمييز العنصرى بل لعله أزاله إذا قام فى طريقه.

استفحل هذا النظام الصارم والفوضى الظاهرة وتفاقم مما كان للمدن من أسوار وأبواب عظيمة وما كان يحيط بها من جدران فسيحة لا يسهل التعدى عليها ولعل

حركة السيارات والعربات اليوم أجبرت أهلها على تحويل مواقعها أحيانا دونما تخطيط ففى خلال موجة التوسع وحمى التطور وتوسيع الشوارع لاستيعاب الأعداد الكثيفة والحركة الطارئة تحولت مدينة كمدينة اسطنبول إلى مايشبه الأودية الجليدية إلى حشد من قنوات مفتوحة وطرق جانبية متقاطعة فى غير نظام ومنازل تنقسم من منتصفها بحيث تفتح أبوابها الداخلية الآن على الفراغ طرق رئيسية جديدة مرصوفة تخرج منها شوارع جانبية .

بعد رفع مسرع للأنفاص على أن المدن الإسلامية وإن لم تعرف فى واقع الأمر الحريات السياسية ولا ما تتبعه التجمعات السكانية الغربية من إحساس معمارى منظم فيما سلكت من مسيرة التنمية فهى فى الوقت نفسه لم تعرف الوظائف التى تؤدى إلى نشأة المدن مع ما كانت تأوى كثيرا من طبقة بورجوازية ذات تفكير تقدمى إلى جانب طوائف من فقراء ونشالين وغشاشين يعيشون مع ماكان بينهم من أصحاب حرف بائسين يعيشون على فقات تلقية إليهم الأسر الثرية ومع ذلك يبرأ أفراد من هؤلاء الأثرياء بحياتهم الرغدة المترفة من فساد لا يحتمل بما يمارسون من ألوان الدعارة والفن ولم تكن مجموعة المتشددین والوعاظ لتقبل منهم هذا القدر من الفساد إذ كان منهم الوعاظ الذين هم بحق قلاع الفكر وذلك بفضل مدارسهم التى جاورت المساجد فتحولت أحيانا إلى كليات وجامعات. كان هذا النشاط كله يثير انتباه القرويين من أبناء الريف وإغراؤهم لما يشاهدونه ما أن يلجوا أبواب المدن وشوارعها وكان من مهام الوعاظ والمرشدين تطبيع هذه الفئات من القرويين وترويضهم وفق «قواعد اللعبة» التى لن تنتهى مادام هناك مدن وأرياف فى أنحاء الدنيا ولكن المهم أن هذه اللعبة وقواعدها ثابتتان لاتتغيران تهيمن على العلاقات بين الموسرين والفقراء وكان المنطق الذى استلهموه من الوعظ والإرشاد قولهم: إنه مامن إنسان ليس فى حاجه إلى تقويم وإصلاح ذلك لأن من بينهم اللصوص والمسرفين المبذرين والأشرار.. ورد هذا الكلام على لسان مواطن فى مدينة أشبيلية كان لاشك فى حديثه يتذكر ما كان من نزاعات لانهاية لها وما كان يثار من شجار بين أهل المدن وأهل القرى وبائعى المواشى واللحوم والجلود والزبد والدهون وما إليها من سلع وكانت ثوبات

الشجار تنشب أيام الأسواق عند انتقال أهل القرى لترويج منتجاتهم فيحاول أهل المدن من الحضر الاستحواذ عليها بثمن بخس يثير حفيظة أهل القرى وأغلبهم من الفقراء البائسين المعدمين .

ومع ذلك فقد كان دهاء أهل الحضر ومكرهم هو الفيصل في فوز أهل المدن وانتصارهم على هذه الفئة من الفقراء من أهل الريف ويشاء القدر أن يظل زمان يسرق السارق فيه بدوره وكذلك كان يقع سكان المدن في حبال القرويين أحيانا ذلكم ناموس الحياة وقواعد العلاقات بين البشر دائما . أما في الإسلام وبأفضل مما كان يقع في الغرب فقد استطاع أهل المدن السيطرة على أهل الريف بحكم ما كان عليه القرويون من حياة بدائية خشنة لم تمسحها بعد يد الصقل ومن ثم رأينا دمشق على سبيل المثال تسيطر سيطرة شبه كاملة على فلاحى المناطق القريبة من الغوطة، وسكان جبل الدروز وسيطرة سكان الجزائر على قراصنة البحار الوافدين وفلاحى فاس ومثلهم برجوازي غرناطة كملابسهم الحريية وسيطرتهم على الفلاحين بملايسهم القطنية الوافدين عليها من الجبال القريبة .

ومهما يكن من شئ فقد كان ذلك دائما سمة كل مدن الحضرة، أما انفراد التجمعات الإسلامية وأصالتها في هذا السياق بالقياس إلى الغرب فإنما يعود إلى «باكوبوتها» من جهة ومن وضعها الفريد من جهة أخرى .

ولا تأثير منزلة مدن الإسلام شيئا من الدهشة، ذلك أنها تمسك بالزمام من «جوهر» أو «بروح» حضارية، فالمدن والطرق والسفن والقوافل ومناسك الحج إنما تمثل «وحدة» متماسكة وهى بمنزلة الدعائم وروابط حركة وانطلاق أو خطوط دفاع قوية عن الحياة الإسلامية وتعرض لها فى سماحة «لويس ماسينيون»

أما حديثنا فيتناول فى الصفحات التالية:

- ١ - أكانت هناك حضارة للإسلام منذ القرن الثامن ؟!
- ٢ - العصر الذهبى للإسلام بين القرن الثامن والقرن الثانى عشر .
- ٣ - الإسلام حضارة مبهمه .

- ٤ - الإسلام ظاهرة عالمية ذات سمة إقليمية.
- ٥ - العلوم والفلسفة في الإسلام.
- ٦ - تجمد الإسلام وانحداره.
- ٧ - الإسلام ونهضته الحالية في مواجهة العالم اليوم.

عظمة الإسلام... وانطوائه في القرن السابع حتى القرن الثالث عشر

قد نختلف في ترجمة عنوان هذا الفصل، أما مالا سبيل إلى الاختلاف عليه فهو لفظ عظمة الإسلام أما لفظ الانطواء قد تعنى الانكماش أو التقلص. بلغ الإسلام أوجه فيما بين القرنين الثامن والثاني عشر بإجماع الطاقة ولكن في أي تاريخ يحدد انكماشه وفي ذلك ما قد يكون الخلاف فيه، فإذا ما أخذنا بالتفسيرات الشائعة، فقد بدأ الانحسار القاطع منذ القرن الثالث عشر حيث يجب التمييز بين أمرين جد مختلفين مع عدم الخلط بينهما هما نهاية تفوق أو رجحان حضارة ما ونهايتها ذلك أن الإسلام في القرن الثالث عشر قد فقد جليا موقع الزعامة وإن الخسارة الخطيرة الهائلة ما كان من سرعة التدهور ابتداء من القرن الثالث عشر أي بمقياس الحضارات البطيء منذ وقت قصير جدا، وكان مصيره ما صارت إليه كثير من الأمم التي توصف اليوم بالنامية وترجمتها الصحيحة ما دون النماء إذ أخفقت مثل تلك الأمم في اللحاق بالثورة الصناعية، وهي الثورة الأولى التي مكنت من تنمية العالم بسرعة الآلات الخيالية. ويرغم هذا الإخفاق الجلي للإسلام، فإن علينا أن نذكر والحق يقال إن الإسلام لم يمت من حيث هو حضارة وإنما تأخر عن أوروبا تأخرا ماديا قرنين من الزمان... ولكن أي قرنين!

لم يكن للإسلام حضارة فيما بين القرنين الثامن والتاسع.

فقد ولد الإسلام فى واقع الأمر فى عدة السنوات هذه التى احتاج إليها العرب لفتح إمبراطورية، ولكن الحضارة الإسلامية إنما هى نتاج الامتزاج بين هذه الإمبراطورية وحضارات أخرى أقدم وقد احتاج الأمر إلى زمن طويل جدا كما احتاج إلى أجيال عديدة من البشر والناس والحق يقال.

قليل من الحوار كثير من الخزى.. خلقه

الغزوات الأولى خلقت إمبراطورية وخلقت دولة

ولكنها لم تخلق حضارة

لم يكن هدف الفاتح العربى فى البداية الدعوة إلى الدخول فى العقيدة الجديدة إلا نادرا بل على العكس استغل أكثر الحضارات الثرية التى وقعت تحت رحمته من فارس وسوريا ومصر وكذا حضارة أفريقيا (أى أفريقيا تحت النفوذ الرومانى) فأما أفريقيا العرب وتوازى تونس اليوم وأما أسبانيا أى الأندلس فقد حاول المسيحيون فيها الدخول فى الإسلام حيث كانوا عرضة للجلد بالسياط إذ كان سداد الضرائب الجزئية مقصورا على المسلمين..

فلم يكن السادة الجدد ليعملوا على خفض مواردهم!

وقد احتفظ سكان الأمم والبلاد المفتوحة بأساليب معيشتهم دون إزعاج أو إرهاب وإذ لم يمنع ذلك من معاملتهم معاملة الحيوانات «الراقية»، حيث تحتاج إلى عناية خاصة طالما أقامت على سداد الشطر الأكبر من الضرائب كما ذكر جاسنون فيبب وهكذا استمر الحال فى عهد خلفاء محمد الأربعة، وكانوا ذوى توجيهات طيبة (٦٣٢ - ٦٦٠) ثم فى عهد خلفاء بنى أمية (٦٦٠ - ٦٧٥) الذين أقاموا عاصمتهم فى دمشق.

وخلال سنوات هذه الحروب المتواصلة لم يكن أبدا الاهتمام ولا كان الباعث نشر الدعوة الإسلامية فى المقام الأول. وهكذا كان النزاع وكانت الصراعات مع بيزنطة سياسية ولا عقيدة دينية تنازع عقيدة دينية أخرى.

بل أكثر من ذلك إذ كان لأهل البلاد المفتوحة الاحتفاظ بحق الإدارة كما تظل كتابتهم سواء باليونانية أو البهلوية (لغة الفرس) أما الفنون فقد ظلت بدورها تحتفظ بطرزها اليونانية حتى فى بناء الجوامع من حيث الساحات فى الوسط والأعمدة التى تحيط بالمبنى والشرفات والقباب أى كانت كلها على النمط البيزنطى على الرغم من أنها تذكر بالأجراس المسيحية غير أن المآذن كان لها طابعها الخاص ذلك، إذ تصمم لأذان الصلاة.

المنعطف العباسى حول منتصف القرن الثامن والتغييرات الجوهرية الحاسمة من سياسية واجتماعية وسرعان ما تصبح ثقافية عند انتقال الخلافة إلى العباسيين وأصبح العلم «الأسود» يحل محل راية بنى أمية البيضاء.

يتحول العالم الإسلامى إذن نحو الشرق ويبتعد قليلا عن البحر المتوسط وهو المنطقة التى كثيرا ما سحرته ريوها فمع الخلفاء الجدد انتقلت عاصمة الإسلام فى الواقع من دمشق إلى بغداد وهكذا تتحقق محاباة الثأر الرهيب لدى الإيرانيين وعملاء آخرين من الشعوب الخاضعة.. لقد انتهى زمن حكم العربى ذى الدم النقى الذى دام قرنا أو أكثر من الزمان أى على مدى ثلاثة أو أربعة أجيال مضئية وهو المدى الذى ضاعت خلاله نغمة المحارب المتفوق فى ثنايا المباحج والملذات والثراء وفخامة الحضارة وإغراءاتها. تلك الحضارة التى قال عنها فيما بعد ابن خلدون الذى ولد فى الأندلس إن الحضرة هو الشر مجسما.

فإذا الأدوار الأولى تعود إلى الأمم ذات الحضارات القديمة العريقة فى الوقت الذى بدأت تطل فيه برأسها انتعاشات مادية كبيرة، ففى حوالى عام ٨٢٠ ارتفعت موارد الخليفة بما قد يبلغ خمسة أضعاف موارد الإمبراطورية البيزنطية السنوية وتعود هذه الموارد الهائلة إلى رأسمالية مبكرة وجهت اهتماماتها نحو التجارة والمبادلات فانتسعت اتصالاتها حتى الهند والصين وشملت الخليج الفارسى وأثيوبيا وسواحل البحر الأحمر وأفريقيا والأندلس.

ليس فى لفظ رأسمالية مغالطة تاريخية ذلك أن المضاربة على البضائع فيما بين أطراف الأقطار التى تألق فيها النفوذ الإسلامى لم يعد له حدود يتوقف عندها

فقد ازدهر التبادل التجارى وشمل ما سبق ذكره من بلاد، فلقد قرأنا كيف كان التاجر فى بلد يتفاوض مع آخر فيسأله كيف يستطيع استيراد الزعفران من فارس لنقلها إلى الصين حيث سمع أن سعرها هناك مرتفع جدا وكيف استورد من الصين سلعا (خزف صينى) يبيعها ويسوقها فى اليونان وعن شراء بروكار (أقمشة) من اليونان للهند وصلب من الهند لحلب و سلع خارجية من حلب لليمن وأقمشة ذات خيوط حريرية من اليمن لفارس وكانت قواعد التجارة فى البصرة تجرى وفقا لما يمكننا اليوم تسميته عمليات التخليص أو الإفراح ولم تكن العبادلات تزدهر دون مدن تلنعد فيها وهكذا قامت مدن كثيرة مختلفة تقوم فيها قواعد النشاط التجارى الذى لم يقتصر على بغداد من عام ٧٦٢ ثم كان أن دمرها المغول تدميرا وحشيا وكانت عام ١٢٥٨ قد صارت بلاشك أضخم وأغنى عاصمة فى العالم القديم وأصبحت يقينا من مدن النور، وغير بعيد منها على نهر الـ «دجلة»، قامت مدينة سامرا الضخمة التى تأسست عام ٨٣٦ ومعها مدينة البصرة ذلك الميناء الكبير ومدن القاهرة ودمشق وتونس وهى تجسيد مجدد لمدينة قرطبة.

كان لكل هذه المدن على اللغة العربية الفصحى ابتداء من لغة القرآن والأشعار التقليدية المتوارثة فضل الصياغة أو إعادة صياغة وهى لغة مصطنعة يقينا أو على الأصح «أدبية»، سوف تصبح أداة التعبير فى كافة البلاد الإسلامية تماما كما كانت اللغة اللاتينية بالنسبة إلى شعوب الديانة المسيحية.

كانت اللغة العربية لغة الأمم العربية المتنوعة ذات اللهجات الإقليمية لا لغة من اللغات وكانت أقرب إلى «لغة أدبية»، ولغة تفكير وتجمع لغوى بل ومستهل حضارة انبثقت فى البداية فى مدينة بغداد ثم من بغداد سطعت أشعتها وتألفت بعيدا.

وقد تلا هذا الزمان منذ العباسيين انقلاب كبير فى تطويع الموظفين. ففي عام ٧٠٠ استدعى الخليفة عبدالملك «حنا الدمشقى، الراهب الناسك فيما بعد وجعله مستشاره وأبلغه بأنه قرر اعتبارا من اليوم إلغاء اللغة اليونانية فى جميع قرارات الإدارة العامة مما أثار فى سارجون أى سرجيوس باسم آخر عرف به حنا الدمشقى، حفيظته وغضبه فكان فى غمرة حزنه أن التقى ببعض أولى الأصل

اليوناني من الموظفين فقال لهم: ابحثوا عن مهنة أخرى مجزية.. ذلك أن تلك المهنة التي تمارسونها اليوم قد «سحبها» قد «انتزعها» الله... كان ذلك بمنزلة نهاية لتسوية مرضية تقبلها طرفان بالنسبة لإحدى اللغات وبالنسبة لمرحلة من مراحل التساهل والتراخي المتبادل بين المسلمين والمسيحيين.. ذلك أن عصرا جديدا قد بدأت تباشيره.

ومع الوحدة اللغوية انبثقت قوة الدفع الضرورية للمبادلات الثقافية ولما كانت تقتضيه أوجه النشاط التجارى ومتطلبات الحكومة والإدارة وأصبحت رسائل تجار اليهود التي سبق الحديث عنها تحرر منذئذ بالعربية ولو بحروف عبرانية وبفضل هذه الإدارة اللغوية يجنى الإسلام ثمارا وفوائد ضخمة إذ قام ابن الخليفة الشهير تامر بترجمة كثير من المصنفات الأجنبية إلى العربية وخاصة اليونانية وانتشرت علوم هذه المصنفات انتشارا سريعا ذلك أن الإسلام كان قد عرف في وقت مبكر الورق وكان أقل تكلفة من الرق الذي كان شائعا بين الشعوب للكتابة، وفي قرطبة قيل إن الخليفة ابن الحكم الثاني ٩٦١ - ٩٧٦ كان يكتنى وحده مكتبة عامرة من أربعمائة ألف مخطوط مع ٤٤ مجلدا من الفهارس، ومع ما ينبغي أن تعرف حتى لو كان هذا الرقم مبالغا فيه، إن مكتبة شارل الخامس بن حنا الطيب لم تكن تحوى سوى ٩٠٠ مجلد.

وبهذا القدر الهائل في التحولات الداخلية التي تفاعلت خلال تلك القرون الهامة يختلف دين محمد في تفسيراته وتأويلاته مع البيزنطية حيث يتضاعف بروحانية يجد فيها المتخصصون أنفسهم طوعا إزاء «بعث جديد» من أفلاطونية جديدة حتى الانشقاق الشيعي الهائل ذلك الذي انبثق من الأعماق ولو جاء في جزء منه من الخارج واندس في الإسلام منذ ظهوره في البلاد العربية ذلك أن الشيعة إنما يتعلقون بالخليفة النقي «على» الذي اغتاله الأمويون يعارضون الأغلبية من السنة وتقاليده الإسلام متمثلة في مناسك الحج التي يؤديها آلاف من المؤمنين بها إذ يرون في «على» نبياً ثانياً وفي أمه فاطمة قديسة كريم العذراء وما زالت قصة وفاة «على» وأولاده تروى في إطار من الشغف المشبوب بالعواطف الجياشة حتى اليوم.

وهكذا فإن الإسلام فى روجه الدينية يحش الصياغة مقترضا مستعيرا من الحضارات الشرقية وحضارات سواحل البحر المتوسط المتجددة مقدرا فيها مهمة وقتية روحانيا وواجبا مشتركا وذلك فى نطاق لغوى واحد حيث لم تكن البلاد العربية سوى مرحلة من المراحل، ذلك أن الحضارة الإسلامية من وجهة نظر معينة لم تبدأ كذلك إلا مع تعميم المدارس عبر الإمامة وهى مجمع المؤمنين وكذلك لم تبدأ إلا مع دخول الأمم وشعوبها غير المسلمة فى الإسلام أفواجا وهما من المحيط الأطلسى حتى هضبة بامير (الهضبة العليا فى آسيا الواقعة بين الهند والتركستان) وهما هو ذا التبريد القديم يعود فيعبأ ليملاً القرب من جديد .

عصر الإسلام الذهبى فيما بين القرن السابع والقرن الثانى عشر

كان الإسلام على مدى أربعة أو خمسة قرون هو الحضارة ذات السطوع الأكبر فى أقطار العالم القديم، إذ يمتد هذا العصر الذهبى من ابن هارون الرشيد (المأمون) ٨١٣ - ٨٣٣ منشئ دار الحكمة فى بغداد بما يضم الوقت نفسه من مكتبة ومركز للترجمة ومرصد فلكى حتى وفاة ابن الرشيد ١١٢٦ - ١١٩٨ فى المغرب عن عمر يجاوز قليلا ٧٢ عاما. غير أن تاريخ الفكر والفنون لا يفسر وحده تلك البرهة العظيمة التى عاشها الإسلام حيث يتضح فى مضمون التاريخ العام صورتها الحازمة.

كتب أحد مؤرخى الفلسفة الإسلامية ليون جوتييه يقول إن ما شهد الفكر الإسلامى من أحقاب ملائمة له كانت عصور سلام وازدهار عام تلاقى مع حماية أسبغها خليفة مستنير ذو سلطان كبير شأن خلفاء العباسيين الذين كانوا خلال القرن الثامن من عصر المنصور حتى عصر المتوكل يشجعون بلا انقطاع نشر العلوم والفلسفة اليونانية فى كافة أنحاء العالم الإسلامى وذلك بزعم حملة كبرى من حملات الترجمة تولاها المسيحيون، النسطوريون، وذلك على غرار ما كان فى الغرب فى القرن الثانى عشر إذ ألف الخلفاء الحوار المسهب فى التأمل وجها لوجه مع من كانوا يؤثرون من أطبائهم وفلاسفتهم وكذلك كاتت العصور

الموتانية أيام انحلال الإمبراطورية إذ تيسر للمفكرين الأفذاذ اختيار صغار الطغاة المستبدين لدى «سيد، سمح كريم كما وقع فى النصف الأول من القرن التاسع لدى أمير حلب سيف الدولة حامى الفارابى (الفيلسوف العالم الإيرانى المولد)

ويقول ليون جوتييه فى استعراض التاريخ السياسى الموضوع إنما تتوقف الحضارة على الأمراء وعلى الشرذمة من هؤلاء الطغاة المستبدين على أن التدهور السريع للخلافة فى بغداد بما ثار حولها من تفسيرات، وما جرت خلفها من تقسيمات وجزئيات خارقة لم يلحق أضراراً بالفكر أيام وقعت بل على العكس شجع ذلك بزوغ حرية فكرية تمكن للمثقف الهرب من بلد إلى آخر والتخلص من حماية أمير بالانتقال إلى حماية آخر.

وكذلك كان الأمر فيما صار عادة متكررة فى إيطاليا وسائر أوروبا فى عصر النهضة خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر وقد عرف الإسلام تلك المزية غالباً ولكن مزايا الروح هذه لم تكن كافية وحدها إذ كانت تساندها غالباً مزايا مادية وامتيازات ضخمة تفسرها وكان الإسلام حول عام ٧٥٠ قد بلغ أقصى حدوده الخارجية حيث واجه انتشاره ما يشبه السدود بسبب الهجمات المضادة كحصار القسطنطينية عام ٧١٨ وأنقذت بفضل شجاعة ليون أما الغرب وبلاد الغال (أى فرنسا) فقد أنقذوا بفضل انتصار بواتييه ٧٣٢/٧٣٣ وثورة المغرب التى زامنتها، وهكذا ران نوع من هدوء نسبي حقيقى على الساحة الخارجية، وفى المقابل توطدت دعائم اقتصاد واسع عبر كل بقاع الإمبراطورية وتوطدت كذلك معدلات هذا الاقتصاد وامتداده وكان هذا الانطلاق الاقتصادى بمنزلة وضع الترتيبات اللازمة لإنشاء ما قد يسمى «اقتصاد السوق» واقتصاد المال.

لحركة تجارة سلعية متعاطمة يوماً بعد يوم وذلك بفضل ما لديها من منتجات زراعية يستهلك أغلبها محلياً ويشكل الجزء الباقى بضائع لتنمية المدن وانطلاقها فقد استدعت تجارة البلح على سبيل المثال فى عام من الأعوام نقل محصوله تهديته وإعداد ما يقرب من مائة ألف جمل لحمله ونقله وكانت قاعات تخزين البضائع فى المدن تسمى «بيوتا» فيها بيت البطيخ وبيت الميرف للشمام والبطيخ

فى ترانو كسبان - اعتقد تركمانستان - وكانت لها شهرة واسعة خاصة، أما محصول البلح بعد تخزينه فكان ممكنا نقله إلى آفاق بعيدة أو حتى بغداد إن كان طازجا وذلك عن طريق قوافل تخرج فى سلسلة من الرحلات متناوبة تناوبية حيث يعبأ البلح فى أوعية من جلد محوطة بالبلح ليصل إلى هدفه طازجا. أما زراعة قصب السكر فقد أدت إلى ظهور إحدى الصناعات الهامة ويبنى فى هذا النطاق ذكر ما حدث فى نطاق المواد الغذائية حيث ازدهرت ونمت عمليات الطحين بفضل طواحين المياه قرب بغداد أو بفضل طواحين الرياح التى عرفت منذ عام ٩٤٧ فى سبستان أما فى البصرة فقد استخدمت مساقط نهر دجلة لتدوير عجلات الطواحين العائمة.

يفسر لنا هذا النوع من الاقتصاد النشط ازدهار عديد من الصناعات التى نمت وتطورت كالحديد والأخشاب ومنسوجات الكتان والقطن والحريز والصوف وخاصة ازدهار حقول القطن وانتشارها وسجاجيد بوخارا فى أرمينيا الفارسية التى نالت شهرة عالمية وظلت البصرة طويلا تستورد الألوان النيلية وأكثرها من اللونين الأزرق والأحمر لصناعة الأقمشة والمنسوجات كما يجب أن تشير إلى أن الأصباغ التى تعبر مدينة كابول فى طريقها من الهند كانت أحسن وأفضل من أصباغ مصر العليا.

وقد نتج عن هذه الأنشطة التجارية ما يمكن أن نسميه آثارا لا حصر لها ذلك أن عمليات الاقتصاد المالى قد زعزعت أركان مجتمع كان قبل كل شىء مجتمع سادة إقطاعى السمة مع مجتمع ريفى من فلاحين معدمين فيه يزداد ثراء الأغنياء بما اشتهروا به من طبائع الغطرسة والسفاهة وفقر الفلاحين على فقرهم ليصيروا طبقة من البائسين. ذلك فضلا عما اقتضته فنون الرى الحديث من زيادة استرقاق الفلاحين، ذلك أن أثرياء الإسلام بما يجمعون من أموال قد كانوا أقدر على دفع أعلى الأسعار لاقتناء العبيد إذ نتج عن تلك الأوضاع من توترات واضطرابات اجتماعية فإذا لم تستطع هذه الأموال وهذا الثراء من التحكم والسيطرة على كل شىء فقد تستطيع تفسير أشياء كثيرة وفهمها من دراسة هذا الثراء وخاصة المناخ الثورى، الذى تمثل فى سلسلة لم تتوقف من القلاقل

والاضطرابات فى الأرضى الزراعى وفى المدن المرتبطة غالباً بالحركات والانقفاضات الوطنىة مما يتضح عبر إيران إذ استخدمت ألفاظ لغة العصر أكثر حداثة منها: الوطنىة والرأسمالىة وصراع الطبقات ولنقرأ هذا المنشور الذى كتبته الأفرىقى حوالى عام ١٠٠٠ حيث يقول: «لا... بكل تأكيد... لن أصلى لله... ماضلت فقيراً. ولنترك الصلوات للشيخ وقائد الجيوش وقبايهم الخاصة الفياضة.. ثم لماذا تجب على الصلاة؟ أترانى قادراً؟ وهل أملك قصراً؟ وأملك خيلاً وثياباً ثمينة أو حزاماً من ذهب، فإذا لم أملك أقل قطعة من أرض... فذلك نفاق خالص. وعلى أساس التماسك الطبىعى فإن ذلك الزيغ عن الإسلام وسرعة ازدياده خلال تلك القرون الحافلة بالأنشطة الضخمة زيغ له جذوره الاجتماعىة والسياسىة كذلك المروق وتلك البدع التى نشأت فى أوروبا فى القرون الوسطى حيث تتشكل مجموعة من المنشقين ثم تنمو بفضل ما تواجهه من اضطهاد أو تراطؤ فتبدأ فى الانفجار ويرتبط تاريخ الفكر الإسلامى بهذه المجموعات المتفجرة سريعة التوتر ارتباطاً لا نهاية له، ولقد استخدم المؤرخ أ. مير فى محاولته وصف عصر الإسلام الذهبى لفظ عموض نهضته وربما أوحى ذلك بالتشبيه بالنهضة الإيטالىة الرائعة حيث المقارنة بين امتزاج الثروة المادية والثروة الثقافىة وما كان لمثل هذا الامتزاج ما كان لإيטاليا فى القرن الخامس عشر.. فى زمان ذى أمجاد نادرة إذ استند كل منهما الإسلام وإيטاليا على مجتمعات حضرىة تمتعت استثنائاً بمزايا تحققت فى التجارة والمجتمعات الإسلامىة مثلها مثل المجتمعات الإيטالىة تهيأت فى حلقات ضيقة جداً ذات عقليات فريدة تغترف بتوسع من جذور الحضارة القديمة التى تجلها إلا أنها تعيش قروناً سالفة على عصرها على حين تواجهان فى الخارج «العدو المترىص»، وتهديداته التى لا يكاد يخفيها حقد أو غضب. ففى إيטاليا فى نهاية القرن الخامس عشر تمثل هذا العدو الهمجى فى ساكن الجبل بالمقاطعات السويسرىة أو الألمانية الرابضة فى الشمال، وبالنسبة للإسلام كان العدو المترىص متمثلاً فى هذا التركى السلجوقى وساكن الصحارى. وغالباً ما كان الأمر يستدعى استرضاء هذا العدو والمترىص تماماً كما وقع فى إيטاليا إذ قام الخليفة منذ العهد الأول من خلافة بغداد باستدعاء العبيد والجنود المرتزقة الأتراك فعرضهم على المشترين حتى بواسطة أهلهم أنفسهم «القلقين، على مستقبلهم، أما

فى أسبانيا استعملت بعض قطع الذهب للتخلص من المسيحيين القادمين غزاة من الشمال وطردهم إلى أوطانهم ثم أصبحت المعركة الجادة واقعة لا محالة حيث اضطر ملك أشبيلية المعتمد لحماية بلاده من الغزاة المسيحيين إلى طلب العون من أعداء آخرين وهم المرابطون فى شمال إفريقيا فإذا نظرنا إلى الحضارة الإسلامية (نظرة شاملة) فيما بين ما ذكرناه (٨١٣ - ١١٩٨) وجدنا أنها تتوطد أركانها ودعائمها وهو ما يتناقض مع الظاهر فقط، وتبدو ظاهرة عالمية وإقليمية فى الوقت نفسه أى وحدة متنوعة.

١ - وقد رأينا فى كل مكان مساجد تشيد ومدارس تبنى على نمط واحد ونموذج اختياري تجريدى منتظم، صحن فى الوسط وأورقة وشرفات وأحواض للوضوء ومحراب يعين القبلة للصلاة ومنبرا يتمثل فى كرسى يجلس عليه الواعظ ثم المآذن وهى تستخدم ذات العناصر النباتية من فن المعمار من أعمدة ذات تيجان وأقواس مختلفة أشكالها وأقواس حادة ثلاثية الفصوص أو متعددة الفصوص وقباب ذات زخارف من الفسيفساء أو الخزف والفخار ثم الزخارف من الخطوط والكتابات العربية المرشدة.

٢ - أبيات الشعر الداعية إلى الإخلاص والولاء للأماكن المقدسة وهى تمجد الله كزهرة لا عيب فيها ثم إلى الطبيعة والحب والشجاعة والدم النبيل والحصان والجمال «الضخم كالحبل، والأرض بأثار أقدامه وكذلك العلم والخمر المحرم وفى العالم الإسلامى تشيع كذلك نفس الروايات الشعبية النابعة أصلا من الهند، وهو ما يمكننا قراءته فى «ألف ليلة وليلة، وترجمت فى زمن متأخر فى القرن الرابع عشر فى أجزاء مطولة.

٣ - فلسفة مأخوذة عن الفكر اليونانى لأرسطو والمتعطشين إلى الأرسطية وذلك المجهود الضخم لتحديد الله فى الكون الذى بناء على اليونانيين يعلن عن خلوده وبالتالي التهرب من كل الخلق.

٤ - ونجد الأساليب التقنية نفسها فى كل مكان والصناعات نفسها. وكما توضح لنا الحفائر مثل مدينة الصحراء بقرب قرطبة.

الآثاث والأدوات الصناعية والأذواق والعادات والتقاليد نفسها الموروثة من

بغداد وتعطيها السمة. وعبر أسبانيا هذا البلد الأقصى يمكن متابعة وصول هذه المزاياء الثقافية من خلال الرحلات والأسفار وأسلوب الكتابة المأخوذ عن أشهر شعراء الشرق ممن ما تنتحل أسماؤهم كثيرا وأسلوب ارتداء ملابسهم الغربية وتعميم ارتداء البرانس وذلك اعتبارا من وصول المرابطين فضلا عن الأفكار والموضوعات الأدبية السائدة والوصفات الطبية العلاجية.

ولنستعرض قبل اختتام هذا الفصل بعض الصور العابرة التي تميز بها هذا العصر إذ نجد ضمن بلاد الفرس وحتى الأندلس جماعات المنشدين والشعراء وهم عادة من المصريين يجوبون المدن والقرى في رفقة جماعات من الراقصات والمطربات تألفت أصلا في بغداد ويرتدين في المدينة أزياء بلون أصفر شرقا ولون أحمر غربا وقد جاء ذكرهن في قصائد كل الشعراء وتجد في كل ربوع هذه البلاد تجمعات يلعبن النرد والكوراج.

وكانت هذه اللعبة الأخيرة واسعة الانتشار وهي أشكال من خشب تمثل خيولا ترتدى التنورة وكثيرا ما كانت هذه اللعبة تشغل أوقات من يمارسونها وقبل بشكل غريب أن قائد المعتمدين مارتين فوجي في جناحه الخاص يلعب في قرطبة بمفرزة من جنود الأعداء تلعب الكوراج كما نورد فيما يلي صورتين تمثلان ظاهرتين من مظاهر تلك الأيام أولاهما هذا الوزير ولي عهد خراسان في بداية القرن العاشر وهو يبعث بالوفود إلى كل مكان من بلاد الدنيا لتجمع له صورا من القواعد المنبئة في بلاط الملوك ونظم الإدارة ومن الوزارات في الإمبراطورية اليونانية وتركستان والصين والعراق ومصر وبلاد السند وبلاد زابول وكابول وقام بفحص كل هذه القواعد فحفا دقيقا واختار من بينها أفضل ما فيها لتطبيقها في بلاطة وكافة إدارات بخارى مراعيًا ألا تتعدى تلك القواعد الحدود الصارمة السائدة في العالم الإسلامي.

وهناك صورة خليفة قرطبة الحكم الثاني وكان يشتري من الكتب فور ظهورها كل ما تألق في بلاد الفرس وفي سوريا وبلاد أخرى وقد أرسل هذا الخليفة ألف دينار من الذهب الخالص إلى أبو الفرج الأصفهاني كي يظفر بأول نسخة من موسوعته الشهيرة «الأغانى» ومع ذلك لم تستطع هذه الوحدة الثقافية النيل من

مظاهر الخصوصية المحافظة على تقاليد المتوارثة وهي مظاهر ظلت راسخة واضحة. وكان منذ الشرخ الكبير الذى قسم الأمبراطورية أن عمدت كل منطقة إلى استعادة حرية التصرف فى أمورها إلى حد ما ثم تمكنت فجأة كل منطقة مع بعض الأقاليم من التنفس على هواها لتعيد تأكيد نسيجها الذاتى وهو النسيج الذى وبرغم ما عاناه من جهة أو أخرى برغم كثرة تضحياته وإفراضه من ذاته لصالح المجموع إلا أنه احتفظ سرا وبعناية وغيره بأساسى ذلك النسيج الذاتى.

وهكذا بدأت تظهر فى الأفق جغرافية «تبادلية» إذ انتقلت أسبانيا الإسلامية من مرحلة الاقتباس إلى مرحلة التكوين الفرضى بانتقال العدوى المتواصلة فمالت لتصبح إحدى تلك الأسبانيات بين عديد حدثنا التاريخ عنها.

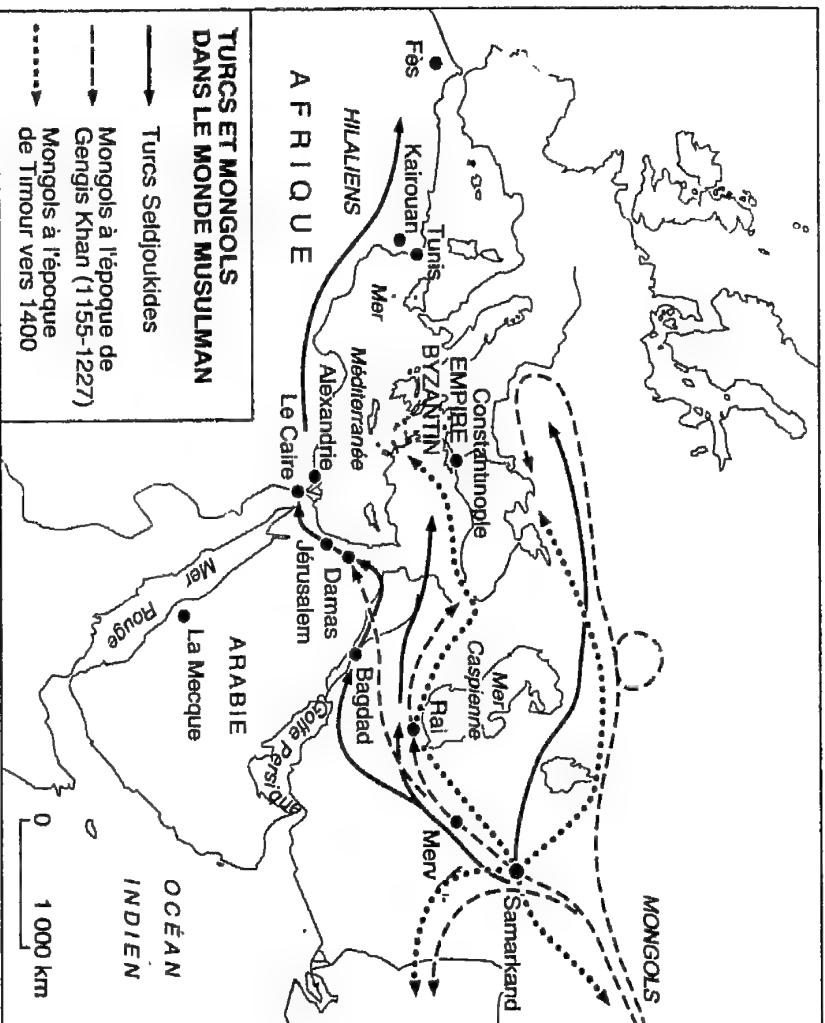
وأكثر من ذلك مثال إيران إذ أظنها زمان أكدت فيه خصوصياتها الذاتية التى تميزت بالرسوخ التاريخى والقومى إذ استردت مع خلافة بغداد حيويتها وتنفسها الذاتى، فصارت بغداد مدينة إيرانية السمات وذلك على عصر العباسيين الذى ازدهر فيه تطويع الأرض البكر وإعداد القوالب من طينها للطلاء بالمينا وزخرفتها وكلها صناعات اشتهرت بها بلاد فارس كما عرفت «الإيوانات» وهى أروقة ضخمة تذكرنا بإيوان كسرى ذى الشهرة التاريخية وحافظ العرب على سيطرة لغتهم العربية لتظل هى المسيطرة، ومع ذلك فقد ظلت اللغة الفارسية برغم كتابتها بالحروف العربية إحدى اللغات الأدبية الأخرى وظلت أضواؤها تسطع إلى آفاق بعيدة وبالأخص حتى الهند وانتشرت فيما بعد فى أنحاء الإمبراطورية العثمانية بأسرها وتتحدى بكونها لغة «نصف شعبية» ومن السهل انتشارها بين قطاعات عريضة من الناس وترجع استفادتها بهذه الميزة بسبب الحذف شبه الكامل للغة اليونانية، وفى نهاية القرن العاشر رأينا الشاعر الفردوسى يؤلف كتابه «كتاب الملوك».

مشيدا فيه بأمجاد قدماء الإيرانيين حيث ظلت لرسوخ أقدامها اللغة الفارسية الإيرانية لغة الانتشار العلمى بفضل حيويتها فى فارس يقينا منذ القرن الحادى عشر إحدى الحضارات الوطنية وكائنا قويا نشيطا ولكن فى نطاق الحضارة الإسلامية الواسعة وكان الفن الإيرانى فى المعرض الدولى بباريس فى أكتوبر

١٩٦١ بمنزلة علامة ثابتة لظاهرة توضح بجلاء عصرين: عصر ما قبل الإسلام وعصر الإسلام ويبلهما فاصل زمنى وقعت فيه تحولات عميقة.

كما وقعت خلالها كذلك فترات الاتصال والاستمرار واجه الإسلام كثيرا تلك الأجواء المعارضة التى يبدو بعضها كونيا وبعضها إقليميا فى كل البقاع التى فتحتها ولنتذكر فقط تلك الحالات المتطرفة التى وقعت لكل من الهند الإسلامية وأندونيسيا الإسلامية وأفريقيا السوداء التى طحنها ثم شكلها الإسلام وإن ظلت رغم ذلك وبأعجوبة محتفظة بشخصيتها المميزة وبجذورها فنجد فى الهند مثلا أن عدوى الامتزاج بين حضارتين قد أتاحت الفرصة لظهور فن أصيل هندي إسلامى ولم تبدأ عظمتة فى الظهور لا مع بداية القرن الثانى عشر وخاصة القرن الثالث عشر لا سيما فى مدينة دلهى على سبيل المثال حيث لازالت آثار رائعة تثير العجب ويمكن تفسير غرابتها إذا ما عرفنا أن أول مسجد شيد بالمدينة عام ١١٩٣ إنما أعد تصميمه ورسومه صناع مسلمون، أما أعمال البناء فقد تولاها عمال من الهنود وكذلك تولى العمال الهنود المهرة أعمال النقش والنحت ممزجة بين الزخارف الحلزونية الوردية الهندية لأصل وزخارف خطوط الكتابة العربية. وبذلك بدأت تظهر ملامح فن جديد من تلك الفنون ذات السمة الخاصة التى تتميز عن غيرها من الفنون استمرت أجيالا امتزج فيها الفن الهندي بالفن الإسلامى امتزاجا يصعب معه القول بأيهما هو المسيطر أو المؤثر فى الآخر ولم يعد ممكنا تمييز أحدهما عن الآخر.

وخلاصة القول نجد الحضارة الإسلامية خلال هذه الأدوار الكبرى التى لعبها الإسلام على مدى عصوره الذهبية، تمثل بلاشك حقبة من النجاح والانتصارات العلمية مع إنعاش وإحياء فريد نادر للفلسفة القديمة فى الوقت نفسه وليست هذه الانتصارات هى الوحيدة إذا تمثلنا الأدب، بل كان نجاحها لكل تأكيد فى إسدال أستار الحجب على ما عداها.



الترك والمغول
في العالم الإسلامي

→ الأتراك السلجوقية
- - -→ المغول في عهد
جنگیز خان
.....→ مغول عهد تیمور لنگ
حوالی ۱۴۰۰

العلوم والفلسفة فى الإسلام

كانت الأولوية للعلوم، فقد كان العرب هم الذين ساهموا فى هذه العلوم وجلبوا فيها معارف جديدة وحديثه لم تكن معروفة من قبل ولنقصر حديثنا فى هذا المجال على حساب المثلثات والجبر وللعلم الأخير دلالة.. ففى حساب المثلثات اخترعوا (حاصل العمود على القوس) والد (خط المماس) وكان معروفا عن قدماء اليونانيين أنهم لا يقيسون الزاوية إلا بالخييط والدائرة وهو نصف هذا الخيط.

وفى عام ٨٢٠ يقوم الخراسانى الذى اتخذ لنفسه لقب محمد بن موسى دراسة جبرية تصل إلى معادلة الدرجة الثانية فصار بعد ترجمة هذه الدراسة إلى اللغة اللاتينية فى القرن السادس عشر المؤلف الذى لقن الغرب وأطلعهم على هذا العلم، ومنذ ذلك الحين تمكن علماء الجبر المسلمون من حل الجذور التربيعية.

ونستطيع كذلك الثناء على العلماء المسلمين الذين تخصصوا فى علوم الحسابات الجغرافية وعلماء الفلك وما اخترعوه ويسمى الاسطرلاب واستطاعوا قياس خطوط الطول وخطوط العرض وبذلك تمكنوا من تصحيح الأخطاء الفاضحة التى وقع فيها بطليموس كما يجب أن نعترف لهم بأستاذيتهم فى علوم الزوايا البصرية وعلوم الكيمياء (تقطير الكحول وإعداد الأكاسير) وحمض الكبريتيك، وفى علوم الصيدلة والعقاقير يجب أن نقر بأن نصف بل أكثر من نصف الأدوية المعالجة للأمراض التى يستخدمها الغرب إنما جاءت عن العلماء المسلمين منها

على سبيل المثال لا الحصر السنة (وهو نبات شجيري مسهل) وأعشاب الراوند والتمر الهندي وجوزة الطيب وجوز الفين والسنديان والكافور وعصائر السكر والجلاب (شراب منعش مهدئ) من الماء المقطر والمراهم الدهنية وتقطير المياه ولا جدال في أن الطب لديهم كان ممتازا كما استطاع العالم المصرى ابن النفيس اكتشاف الدورة الصدرية والدورة الدموية، وهو وإن لم يستخدم فإن اكتشافاته قد سبقت ميشيل سرفيه بثلاثة قرون.

وعلى سعيد الفلاسفة كان للمسلمين باع طويل فى تطوير أفكار وأبحاث الفيلسوف اليونانى أرسطو طاليس.

ولم يقتصر التطوير على مجرد إعادة النقل أو التناول من جديد فحسب وإلا لما استحق الإشادة إلا عن جدارة هزيلة؛ لذا وجب أن نذكر أن التطوير الذى حققه العلماء المسلمون كان مجالا للتفسير والتوضيح والخلق والإبداع أحيانا، فلسفة أرسطو التى وجدت جذورها فى وسط الإسلام كانت بمنزلة تفسير قسرى خطير للإنسان والكون فى آن واحد وذلك فى مواجهة دين موحى به كالإسلام وهو تفسير عام شامل للكون وهو دين شديد الصرامة إلا أن الفيلسوف أرسطو كان إذا استحذت عليه فكرة أخضعها لمنطقه قمعا وقسرا وكان ذلك شأنه فى كافة الفلسفات (أى أتباع الفلسفة أى الفلسفة اليونانية) أما الفلسفة فى الإسلام فقد اتخذت اتجاهات إنسانية لعلها متعرجة وإن كانت ذات قيمة وقيم إنه تيار فكرى معتد فى الزمان والمكان معاً ولسوف يقتصر مسلكنا هنا على خمسة أسماء رئيسية من الفلاسفة المسلمين: الكندى والفارابى وابن سينا والغزالى وابن رشد. وأشهرهم ابن سينا وابن رشد وكان هذا الأخير يقينا هو الأهم نجد ما تركت بصماته من آثار ضخمة على الحياة عبر أوروبا مما استدعى الوصف موجة ابن رشد.

ولسنا نعرف سوى تاريخ وفاة الكندى عام ٨٧٣ وأنه ولد فى العراق حيث كان أبوه حاكما للكوفة ومن ثم أطلق عليه بحكم الوسط الذى ولد فيه اسم فيلسوف العرب. أما الفارابى وهو من أصول تركية فقد ولد عام ٨٧٠ ويعد من أبناء الجيل التالى وعاش فى حلب ومات فى دمشق حيث كان فى صحبة راعيه سيف الدولة حين الاستيلاء عليها عام ٩٥٠ بعد الأستاذ الثانى بعد أرسطو بطبيعة الحال.

أما ابن سينا فقد ولد في مدينة أصفهان قرب بخارى عام ٩٨٠ وتوفي عام ١٠٣٧ في مدينة حمدان.

أما الغزالي فقد ولد قريبا من طوس عام ١٠٥٨ ومات عام ١١١١ في طوس وأصبح أواخر أيامه الفيلسوف المناهض والمدافع بحماس عن العقيدة التقليدية.

وأما ابن رشد فقد ولد في قرطبة عام ١١٢٦ وتوفي في مدينة مراكش في ١٠ نوفمبر ١١٩٨.

وما سر هذا التدقيق الجغرافي والتسلسل الزمني للتاريخ إلا لنوضح أن التطور الذي نشأ كان سباقا عبر المكان والزمان في كافة أنحاء العالم الإسلامي على حين تجمعت حول كل هذه الشخصيات السابقة انتقاؤها طوائف أقل أهمية من الفلاسفة والقراء المتحمسين والمنشدين.

وتشير هذه القائمة إلى توقع اندلاع شعلة الفلسفة الإسلامية الأخيرة في أسبانيا التي لم تكن سوى المكان الذي انبثق منه التيار الذي عرّف الغرب بالفلاسفة العرب بل وعرف الغرب كذلك بأرسطو ذاته وفي هذا السياق الطويل يبرز السؤال الذي أثاره بقوة لويس جاردييه.

أكانت هناك فلسفة إسلامية؟ وكان رده مع ذلك بالنفي أي أنه وضع التساؤلات التالية: هل كانت لدى الكندي وابن رشد فلسفة متصلة؟ وهل يمكن لتلك الفلسفة تقديم تفسيرها من خلال مناخ الإسلام؟ أم هي فلسفة أصيلة؟ فإن الرد على هذه التساؤلات الحذرة المبهمة حيث الرد عليها بنعم أولا إنما تبدو ضرورة أكثر منها فطنة. نعم كانت هذه الفلسفة إحدى الفلسفات الفعلية ولكن كانت متغلقة في يأس بين الفكر اليوناني من جهة والوحي القرآني من جهة أخرى، فقد اصطدمت بهذه الحوائط ولكنها كانت دائما تتردد إلى مبتدئها ومطلقها دوما للتعود وتشبث بتعاليم الإسلام في العلم إذ هي تلك التعاليم بما لها من نزعاتها واتجاهاتها ومنهج عقلاني واضح ولكنها ليست هنا بالتعاليم المطلقة.. فجميع الفلاسفة أقرب إلى العلماء ممن يشغل بالهم وتفكيرهم علوم الفلك والكيمياء والرياضيات وكان شغلهم الشاغل الطب دائما فعن طريق الطب تمكنوا من كسب ود الأُمراء وتأمين معاشهم فقد كتب ابن سينا موسوعة في الطب باسم «القانون».

وكذلك ابن رشد كتب موسوعته فكان أن ظلت لعلوم الطب الإسلامى الكلمة الأخيرة فى أنحاء أوروبا بما فيها الأطباء الذين ذكرهم موليير.

وقد منح النفوذ اليونانى العلوم الفلسفية الإسلامية وحدة داخلية إذ كتب ابن رشد فى مقدمة مؤلفه عن الفيزياء أن الفصل فى هذا الكتاب إنما يعود إلى أرسطو ابن نيكوماك أكبر عقلاء اليونان فهو الذى أسس وأكمل علوم المنطق وعلوم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) التجريدية. وإنما أقول إنه وضع أسسها لأن كافة ما صدر من المؤلفات من قبله فى تلك العلوم لا تساوى مشقة الكتابة عنها. فما من أحد ممن تابعوها حتى زماننا هذا أى خلال ١٥٠٠ سنة استطاع أن يضيف إليها شيئاً أو أن يجد فيها خطأ ذا أهمية تذكر كان الفلاسفة العرب من أشد المعجبين بأرسطو وكانوا مضطرين إلى الدخول فى حوارات أدت بهم إلى آلاف الوثبات والقفزات متنقلين بين تفسيرات الوحي الإلهى كما ورد فى القرآن، وبين التفسير الفلسفى الإنسانى أى تفسير اليونانيين وهو تفسير أدى فى خضم نزاعات قلقة إلى تنازلات متبادلة بين العقلانية والإيمان فقد كان الوحي الذى نزل على محمد إيماناً نقل إلى الناس رسالة سماوية ومن ثم فالمفكر وحده كشف حقيقة الكون وينصب نفسه حكماً على قيمه بأركانها العقائدية فى مواجهة هذه المعضلة ويبدو فلاسفتنا جدليين مهرة أو لعلهم كانوا ذوى مهارة مفرطة ويقول مكسيم رونسون متسائلاً: إن ابن سينا لم يكن عبقرية بلا جدوى فقد اهتدى وهاهى آراؤه التى قد لا تكون نابعة منه شخصياً: أن الرسل بينوا الحقائق السماوية فى شكل أساطير وحكايات ورموز وتصويرات مجازية وهى هنا تتفق مع لغة الجماهير وتؤمن لهم السعادة.

وأما الفيلسوف فإن له الحق فى الذهاب إلى أبعد من ذلك، إلى أبعد من نطاق هذه اللغة وهو بذلك يحتفظ لنفسه بحرية تفكير كبرى وحرية اختيار أوسع عند ظهور تناقض قطعى أو صورى غير قابل للتبسيط.

مثال ذلك أن الفلاسفة شأن الإغريق يؤمنون بخلود الكون وأزليته فإذا كان خلود الكون عندئذ قائماً منذ زمن بعيد فإن أزليته الكونية ثابتة بالوحي ثم هل من الممكن إذن إدراك كنه هذه الأزلية الخالقة؟

فإذا ما ذهبنا إلى أقصى ما ذهب إليه منطق الفارابى، فإن الفارابى يؤكد بذلك أن الله لا يعرف الأشياء أو الكائنات بخصائصها بل بالمعانى المجردة والكليات ليس غير ومن ثم فإن رب القرآن كرب العهد القديم يعلم كل مافى البحار والأرضين فما تسقط من ورقة إلا يعلمها كما قيل ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين..

القرآن من واقع ترجمة ر. بلاشير

ثم إن هناك تناقصنا آخر فالفارابى لا يؤمن بلاشك بخلود الروح وإن كان ابن سينا يقف فى صف هذا الخلود لولا أنه لا يؤمن ببعث الجسد الذى يؤكد القرآن عليه. فالروح بعد الموت تلحق بعالمها عالم الكائنات اللا مادية غير الحسية أى المعنوية فليس هناك إذن منطقتين عقاب ولا ثواب خاصين ولا نار ولا جنة...

فالله والكائنات المعنوية والأرواح هى العالم المثالى الذى تقف المادة فى مواجهته خالدة لا يصيبها الذبول.. ذلك لأن الحركة لم تسبق السكون ولا السكون سبق الحركة.. فكل حركة هى امتداد لحركة سابقة ولذا فإن الله ليس ممكنا بالفعل أن يكون جديدا وتكفى كل هذه الآراء التى نستعيرها من كتابات رينان لإثارة فضولنا مجرد إثارة لإشباع حاجتنا إلى المعرفة فالأمر لا جدال يقتضى كثيرا من الاهتمام وكثيرا من الجهد لإدراك معانى هذه المداخلات وكلها تظل دائما قابلة للجدال والنقاش حول أساليب التفسير تلك، ثم إن الفلاسفة أنفسهم منذ رينان قد اهتموا اهتماما كبيرا بهذه المسائل القابعة فى ذاكرة الماضى ولكنهم لا يبتون فيها بمسألة، فمن واقع ميولهم ونزعاتهم عقلانية كانت أو مثالية تتبع تفسيراتهم الخاصة أو لنقل ما يتوصلون إليه من إثارة لهذا الأمر أو ذاك وأغلبها مآثر لهذا الفيلسوف أو ذاك، فالكندى يبحر فى عباب مياه دينية لا تثير عواصف وابن سينا لا جدال مثالى وابن رشد فيلسوف من أقصى الأرض، والغزالي المدافع عن الإيمان والتقليد أخذ على عاتقه فلسفة أرسطو المدرسية وشرحها كما فسرهما أوائل علماء اللاهوت المسلمين فهو يريد أن يتجاهل فلسفة أرسطو بل وتدميرها وذلك لأن فكره إنما يودى به إلى طريق مختلف جدا هو طريق «الصوفية»، إنه

يهجر الدنيا ليرتدى ملئز الكتان الأبيض (صوف) الذى تتخذة الصوفية وأتباعها وذلك عن إيمان روحانى أكثر منه عقلانى وقد قيل عنهم إنهم مجانيب الله.

أما ابن رشد طبيب قرطبة فقد جعل من نفسه الفسارح المعلق والناشر الأمين لمؤلفات أرسطو حتى كان من مزاياه ما ذكر من شرح وترجمة عربية وفيه للنص المكتوب باليونانية مضييفا إليها حواراته وملاحظاته فى شكل مفسار عن النصوص، ثم تكون ترجمة النص وما دونه من ملاحظات وتعقيبات من العربية إلى اللاتينية فى طليطلة وهكذا انتقلت إلى أوروبا مثيرة الثورة الكبرى (ثورة القرن الثالث عشر) الكبرى. وهكذا نجد أن الفلسفة الإسلامية لم تمت إثر الضربات الشديدة البائسة من جانب الغزالى على الرغم مما يقال أحيانا فى هذا الموضوع ومع ذلك فقد انقضت الفلسفة الإسلامية وكذلك العلوم الإسلامية كما ينتهى القرن الثانى عشر، فكان أن عمد الغرب عندئذ إلى استرداد.

رأينا فلسفة الإسلام بعد حقب من مظاهر البذخ غير العادية هذه تنقطع فجأة وتتوقف مع اقتراب القرن السابع حتى فى أسبانيا فلم يعد يتلاحق التقدم العلمى والفلسفى فضلا عن قدرات الحياة المادية وقلما تلاحقت أبعد فى العقود الأخيرة فى ذلك القرن. وقد بدأ هذا التوقف المفاجئ كمسألة لها شمولها.

هل كان ذلك نتيجة النزاعات الحماسية كما أسلفنا فكانت مفرطة فى أثرها حيث شنها الغزالى ضد الفلسفة والفكر الحر، لم يكن لأحد أن يعتقد ذلك بحق.

كان الغزالى ثمرة زمانه ونتاج عصره كأنه ثمرة استنتاج ومحصلة بقدر ما كان قضية وعموما فإن ردود الأفعال ضد الفلسفة كانت ماثلة دائما ومنذ خطواتها الأولى كما ثبت ذلك على مر الزمان كانت الإدانات وفورات الشغب التى لا تعد ولا تحصى حيث نصبت محارق الكتب، لم تكن لتقع دون أن تواكبها فورات شعبية عدائية وتتلاحق معها أحداث الغضب ضد الفلاسفة المغضوب عليهم واضطراهم إلى النفى متريصين طبعا للعودة حين تتغير الظروف كما تؤكد تلك الفترات التى تربعت فيها العلوم القرآنية فى الحقوق، الفقه، إذ أجبرت الفلسفة على الصمت ومع ذلك ظلت الفلسفة بعد الغزالى تسطع لا مع ظهور ابن رشد فقط

وهل كان ذلك خطأ البربر^(١) أو بمعنى آخر هل كانوا هم السبب رغم أنهم هم الذين أنقذوا بجهاد الإسلام حيث كان سيهدده الغرب في كل مكان كما كانت تهدده آسيا التي تمكنت من اغتياله من الداخل كان هؤلاء المنقذون الخطر والمرابطون في أسبانيا، ثم المهاد^(٢) وهم سلالة من البربر عاشوا في شمال أفريقيا. أما المرابطون فكانوا من قبائل السودانيين البربر الرحل وفي الشرق الأوسط نجد الأتراك من سلالات السلاجقة وهم البدو الرحل من سكان السهوب الباردة في آسيا الوسطى أو العبيد القدماء المنحدرين من بلاد القوقاز. وقد بدأت عصور الانحدار والتدهور منذ استطاع هؤلاء الدخلاء الجدد الاستيلاء على مقاليد الحكم والسلطة (هذه الفقرة مكتوبة باللغة الإنجليزية وهي) عندما استولى هؤلاء البربر وهم من الجنود وأغلبهم من العبيد، على الولايات الإسلامية انفرط عقد عالم البحر المتوسط وكسرت وحدة الإسلام التي أمدت الإسلام بالقوة وكانت تجهلها شعوب البربر تلك التي لم تكن لها أية تقاليد كتناليد شعوب سواحل البحر المتوسط. ومن المستطاع رد تلك الحجة ونقول إن هؤلاء البربر القادمين من الغرب ومن الشرق لم يكونوا في أغلبهم سوى عرب رسل الفتوحات ومن الشرق لم يكونوا في أغلبهم سوى عرب رسل الفتوحات الأولى فتأقلموا بسرعة مع المدينة والتحضر قدر ما كان من تواصل واتصال حين وطدت أقدامهم بلاد الإسلام القديمة فخلفاء المهاد (سلالة من بربر شمال أفريقيا) كانوا الحماة المدافعين عن ابن رشد. وفي تاريخ الحروب الصليبية يقال إن صلاح الدين الخليفة الأكبر وهو من أصل كردى وغريم ريتشارد قلب الأسد بدا في مظهر طيب في عيون البربر على الأقل المسيحيين وأخيرا وبفضل مصر عزز مركزه واستعاد سلطانه عندما سحق المغول في معركة عين جالوت في سوريا في الثالث من شهر سبتمبر ١٢٦٠ واستيلائه على عكا آخر معقل مسيحي في الأرض المقدسة عام ١٢٩١.

أم هو خطأ البحر المتوسط ؟

فمع نهاية القرن الحادى عشر استعادت أوروبا فتح «البحر الداخلى» (أى البحر الأبيض المتوسط) وبذلك أقلت زمام الأمور من يد الإسلام على هذا البحر الخصيب الذى أمده بحاجاته الضرورية فى التوسع والانتشار، ويرى بعض

المؤرخين من أمثال بيرين أنه انكفأ على نفسه منذ فتوحات الإسلام الغربية وفقده حرية المرور في مياه البحر المتوسط فيما بين القرنين الثامن والتاسع وعلى العكس من ذلك أغلق في القرن العاشر البحر المتوسط على الإسلام وحده حيث وجد نفسه يواجه مضايقات يصعب معالجتها في مسيرته وانطلاقه بل وفي تحركاته اليومية، ومن الغريب أن ف حديبيه أول من تكهن بالتوقف المفاجئ للحضارة الإسلامية لم يستخدم تفسير المؤرخ هنري برين وهو الذى تكهن في الوقت نفسه بهذا التوقف وكان لآرائه صدق عال بعيد وربما كان ذلك اليوم في مبلغ علمنا على الأرجح أفضل تفسير لظاهرة الانهيار المفاجئ للإسلام.

ومع ذلك كله فقد تمكنت الحضارة الإسلامية من تجاوز مرحلة الانطواء هذه ... صحيح أنها لم تعد بعد تعرف عهود الازدهار وقطاف الثمار التي كانت لها من قبل، غير أنها على الرغم من ذلك ظلت حبة قائمة. وفي عام ١٩٢٢ وصف بول فاليري الحضارات بأنها كيانات قابلة للفناء ومن المؤكد أنه كان بكلامه هذا مددفا في التهويل الدرامي فالفناء عبر فصول التاريخ أمر نسبي إذ تذبل الأزهار والثمار أما الشجرة فباقية أو فلنقل على الأقل إنها أكثر صلابة في مواجهة الفناء.

ومن المؤكد أن الإسلام بعد القرن السابع تعرض لأوقات عصيبة وتعرض في القرون الثامن والتاسع والعاشر لمواجهات طويلة بسبب الحروب الصليبية من ١٠٩٥ حتى ١٢٧٠ خرج الإسلام منها بعد فتح عكا بنصف انتصار فاستعاد القارة وإن فقد زمام البحر حيث واجه حيال بلدان آسيا غارات رهيبة وحشية طويلة شنتها قبائل الغول ١٢٠٢ - ١٤٠٥ واكتسحت نصف أراضيها ولم تستطع تركستان وإيران وآسيا الصغرى التي دمرت جل أراضيها النهوض بصورة كاملة واعتبر الاستيلاء على بغداد عام ١٢٥٨ عنوانا على تفكك الإسلام وخرابه وإن اتضح أن الإسلام سوف يشفى من جروحه ولو شفاء جزئيا.

ومن جهة أخرى برزت على السطح في هذه العصور المظلمة في القرون السابع والثامن والعاشر الصعوبات المتمثلة في الأزمات الاقتصادية وهي وإن

كانت أزمات عالمية فقد جاءت تزيد من الأزمات الخاصة بالإسلام، وهكذا انقضت أزمة طويلة المدى وقعت على العالم القديم من الصين إذ انهيار كل شيء على توالى القرون (العصور) فبدأت فى أوروبا الأزمة متباطئة من عام ١٣٥٠ أو عام ١٣٧٥ وكانت قصيرة الأمد وانتهت بالفعل فيما بين عام ١٤٥٠ و ١٥١٠ ولكن عاد ظهورها إثر حروب المائة عام ١٣٣٧ - ١٤٥٣ وكانت بمنزلة علامة على سلسلة من حروب خارجية ومدنية واجتماعية، سلسلة من الانحطاط والتفكك والشقاء والمصائب على أنه يجب الفصل فيما لحق الإسلام من كوارث، وبين ماهو «كوفى عالمى، وماهو إسلامى خالص». ومع ذلك يمكننا فى هذا الجو العام المشحون بالكوارث والمآسى والتشاؤم الأسود أن ندرك أفكار ابن خلدون التى أوردها فى استعلاء لمن أرادوا أن يروا فيه على غير بيئة ولا تعقل آخر عمالقة الفكر الإسلامى، ولئن قيل عن ابن خلدون المؤرخ اليوم أنه عالم اجتماع أندلسى الأصل فلقد ولد فى تونس عام ١٣٣٢ وكان رجل دولة ودبلوماسياً مارس حياة صاحبة قلق فى غرناطة وتلمسان وبيجايا (مدينة ميناء فى الجزائر، وفاس إلى سوريا ثم استقر آخر الأمر فى القاهرة يعمل قاضياً حتى توفى عام ١٤٠٦، أى بعد عام واحد من عهد تيمور لك الذى كان قد أرسل إليه سفيرا. ومن بين مجموعة المرسوعات التاريخية التى ألفها وتركها وراءه «كتاب البر» الذى يعالج بطريقة فريدة مبتكرة تاريخ البربر مع مقدمة له ترجمت فى القرن التاسع عشر إلى الفرنسية تحت عنوان المقدمات المطولة بمعنى أنها وحدها تعد مؤلفاً قائماً بذاته فى علم المنهج أو العلم المنهجى كما يعد فى مجموعه بحثاً اجتماعياً للتاريخ الإسلامى.

وقد استطاع الإسلام مع عودة الزمن اللطيف والذى انتعشت خلاله اقتصاديات العالم وفى ذروتها فى القرن السادس عشر أن يستخلص الفوائد من جديد بفعل موقعه وسيطا بين الشرق والغرب حيث تدوم العظمة التركية حتى عصر زهور الخزامى أى حتى القرن الثامن عشر.

وتمثلت عودة الروح هذه على الصعيد السياسى فى تلك الغزوات المتلاحقة السريعة التى انطلق بها الأتراك العثمانيون قبيل سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣.

حيث اعين هذا النصر المدهى عن تلك الانتصارات المقبلة فجعلت من تركيا
أحدى القوى الكبرى فى حوض البحر المتوسط فى القرن السادس عشر فإما
الإسلام يجد نفسه وقد استجمع أو صالته تارة أخرى بفضل آسيا وبيزنطة الجدد
والأراضى المقدسة فى المملكة العربية بحيث أصبح السلطان العثمانى من بعد عام
١٥١٧ السيد الأعظم، وخليفة المسلمين ولم تغفل من قبضة الأتراك سوى بلاد
التركستان البعيدة والمغرب وما وراءها من ولاية الجزائر وفارس الشيعية بوطليتها
الطاغية إذا شئنا الوصف وسلالة أنصار سيف الدين مؤسس المذهب الشيعى، غير
أن جماعة من المرتزقة المسلمين والمغول والأتراك استطاعوا بقيادة باير وهو من
سلالة تيمور لك الاستيلاء على إمبراطورية دلهى وأسسوا عام ١٥٢٦ إمبراطورية
المغول الكبرى التى قدر لها أن تفرض سيطرتها على الشطر الأكبر من بلاد الهند
وفى العام ١٥٢٦ نفسه والأتراك يدقون أسوار هنغاريا المسيحية (معركة الموهاك)
حدث بحث جديد شامل للإسلام تحت راية الأتراك وأتباع المذهب السنى وتحقق
لهم النصر فى كل موقعة دون مقاومة أورد فعل من لدن الديانة التقليدية أو
الأزودوكسية كان ذلك انطلاقة كبرى من السلطة والنفوذ وإرساء قواعد نظام
حديث حيث تواكبت الهيمنة التركية فى بقاع البلقان والشرق الأوسط مع انتعاش
مادى واضح وانطلاقة ديموجرافية ونشأة مدن صناعية فمدينة القسطنطينية التى
كان تعداد سكانها عام ١٤٥٣ ٨٠ ألف نسمة أصبحت تعرف باسم اسطنبول
ويقطنها ٧٠٠ ألف نسمة فى القرن السادس عشر وتزدهر هذه المدن وتزخر
بمظاهر الثراء وبمظاهر الفقر معاً وكانت مظاهر هذا الفقر فظيعة إلى حد ما وبهذه
السمات قدمت هذه المدن النماذج المشتبهة للحضارة المسيطرة التى ترسل
أضواءها ما استطاعت إلى بعيد على عصر العثمانيين وهى ترسخ معانى المساجد
الضخمة ومن أشهرها مسجد السليمانية لسليمان العظيم ثم تنشأ رويدا رويدا من
جديد تلك العظمة التركية التى جمدت بعد فوات الأوان بفضل أبحاث المؤرخين
وثرأ سجلات المحفوظات التركية والتى آخر الأمر أمكن ترتيبها وتبويبها فبدأت
أسرارها ومعلوماتها القيمة تتكشف أمام الباحثين وتفسى سجلا سجلا عن مكنونات
تلك البير وقراطية المتعددة الدقيقة ومنها ما تعبر عن تقدمية وسلطة قادرة على

إنجاز وإعداد الإحصاءات المفصلة وإدراك تلك السياسة الداخلية المتמסكة المترابطة وكان من أهدافها تجميع احتياطات ضخمة من الذهب والفضة والاستعمار على منهج برسوم (بتوطين البدو الرحل) وتنظيم بلاد البلقان ليكون درعا واقية للإمبراطورية في مواجهة أوروبا بنظام الأعمال الشاقة وتكوين جيش يثير الدهشة في قوته إثر فترات تدريب شاقة مكثفة وفي الحقيقة وبإيجاز خلق أوضاعاً حديثة غريبة.

ويتعكر صفو تلك الآلة على المدى الطويل وإن لم يحدث ذلك قبل القرن السابع حيث كانت في نهايته آخر الانتفاضات بحصار مدينة فيينا عام ١٦٨٧... ونستطيع أن نتساءل عندئذ هل ماتت الإمبراطورية التركية بالاختناق البحري لانطلاقها في المساحات البحرية الكبرى الحرة كالمحيط الأطلنطي الذي تفصله المغرب وفي المحيط الهندي بسبب سوء الاندفاع في البحر الأحمر وخليج فارس حيث لقيت الإمبراطورية معارضة شديدة من قبل الفرس فضلا عن معارضات القادمين الجدد الأوروبيين المزودين بأساطيلهم الكبرى المتفوقة وشركاتهم التجارية ونسائل كذلك هل ماتت الإمبراطورية التركية لتسرعها في التهيؤ للتكيف مع التقنيات الحديثة؟

هل ماتت كما يتضح بشكل جلي إذ قامت في مواجهتها روسيا الحديثة الهائلة القادرة؟ مع بداية القرن الثامن عشر خاصة في القرن التاسع عشر، ذلك أن انتصارات الخيالة النموسيين بقيادة الأمير أوجين لم تتمكن إلا من تقليص أطراف تركيا الأوروبية (١٧١٦ - ١٧١٨) وبالتدخل الروسي أصبحت المواجهة بين عملاق حديثة وعملقة (في النزاع الأخير) أو أنهكه التعب على الأقل.

ومهما يكن من أمر فإن الإمبراطورية التركية لم تعد قائمة. وتحولت إلى ذلك الرجل المريض، الذي طفق بالأحياء يسىء معاملة القوى العظمى الدبلوماسية في القرن التاسع عشر. إذ قام الإسلام التركي أحقابا بدور متآلق رهيب وفي أحيان أخرى كان هذا الدور باهرا ساطعا على غرار فارس في القرن السابع وما فعل كبير المغول في بداية القرن الثامن.

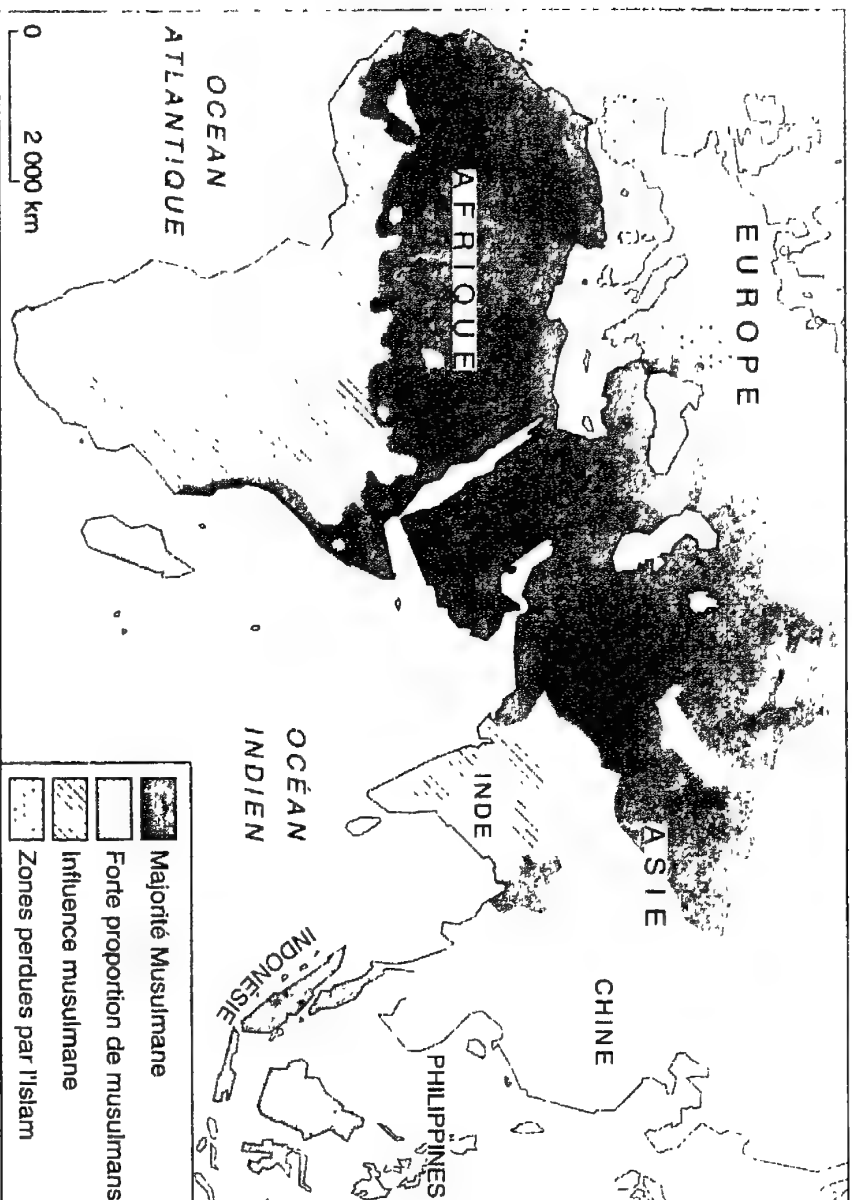
ولنحذر ونبعد عن تلك الأحكام العديدة المتسعة التي وصفت التدهور المبكر للإسلام... علينا ألا نستبق الأحداث. ففي اسطنبول في القرن الثامن كان عصر زهور الخزامي على الخزف والممنمات الدقيقة والطور المزركشة حيث ظل لباعث بعامة كما هو كلال أو ملل.. عصر الخزامي عصر زهور الخزامي اسم جميل لعصر لم يخل من فضل أو قوة.

الهوامش :

- (١) سلالة من البربر، حكمت بلاد المغرب من الجهة الغربية وجزء من أسبانيا من ١٠٥٥ حتى ١١٤٧ ومؤسسها هو عبدالله بن يس
- (٢) سلالة من البربر أزاحت الموراقين وحكمت شمال أفريقيا ونصف أسبانيا من ١١٤٧ حتى ١٢٦٩ ومؤسسها محمد بن Tumart

نهضة الإسلام المعاصرة

دخل الإسلام مرحلة التراجع فى خضم هذا الحجم الذى نطلق عليه العالم الثالث وكانت رحلة التراجع هذه لما قد سبق له من حياة أفضل لا جدال فيها وقد جاءت تلك المرحلة من الارتداد رغم وضوحها إلا أنها متأخرة بعض الشيء وكلفته خلال القرن التاسع عشر سلسلة من المهانة والمرارة والآلام ومكابده، ثم واجه آخر الأمر شمولية السيطرة الأجنبية فى وقائع معروفة غير أن تركيا استطاعت الإفلات من المصير العام المحتوم ومن ثم تستطيع إدراك مقدار رد الفعل وعنفه وروعته فى الوقت نفسه عشية ما كان محتملا بل محتوما من أحداث. كان ذلك مع بزوغ نجم مصطفى كمال باشا ١٩٢٠ - ١٩٣٨ حيث كانت المشكلة الرئيسية التى واجهته تأمين استقلال وطنه وكان أمرا عسيرا شاقا وأعسر منه مسامرة الدنيا الجديدة والنظر إلى المستقبل فبدت نظرة الدول الكبرى وقتئذ .



عالية إسلامية
 نسب مرتفعة من المسلمين
 للنزول الإسلامي
 مناطق فقدها الإسلام

الفصل الثالث

أقول عصر الاستعمار ..
وبزوغ شمس الحركات الوطنية

أفول عصر الاستعمار وبزوع شمس الحركات الوطنية

ليس أسهل اليوم من تسجيل المراحل التاريخية لمسيرة الحقبة الاستعمارية ثم مرحلة احتلال مختلف بلاد العالم الإسلامى التى وقعت واحدة بعد أخرى باستثناء الجمهوريات الإسلامية السوفيتية التى تتمتع بالاستقلال المصنوع .

ويتناول حديثنا فى هذا الفصل حركات الاستعمار الإنجليزى الفرنسى والبلجيكى والألمانى والهولندى . إذا التابت أن دورها فى احتلال بلاد الشعوب الأخرى قد كان كبيرا ومع ذلك فقد كانت هناك حركة استعمارية روسية ثم سوفيتية لا يتحدث عنها كما نتحدث عما عداها فلم ترفع روسيا يديها عن ٣٠ مليون مسلم على الأقل أى ما يفوق نصف سكان المغرب الآن ثم هل يليق لفظ استعمار فى هذه الحالة ؟ هذا هو السؤال فمئذ الثورة الروسية عام ١٩١٧ بذلت جهود ضخمة هدفها التخلص من الاستعمار وتوزيع السلطات . وقد منح الحكم الذاتى لكثير من المقاطعات والولايات المحلية وتحقق نجاح مبدى كثير واليوم تخطو كل الأمم الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى وخاصة شعوب التركستان والقوقاز بسلوكها الإدارى والفنى والسياسى الخاص وأجهزته الاستخبارية وجمهورية المثقفين فقد استطاعت هذه الشعوب اللحاق بالتأخر وسد الفجوة التى كانت تباعد بينهم ولم تعد هذه الشعوب فى حاجة إلى اللجوء إلى خدمات المثقفين من قازاخستان .

وكانت هذه الجمهورية المستقلة تمثل المركز العلمي للثقافة الإسلامية في روسيا فيما مضى من أزمان ومع ذلك ضعفت في تلك الفترة عوامل التماسك الطبيعي التي كانت سائدة بين مختلف الجمهوريات الإسلامية في روسيا وأصبح من الأفكار البالية ذلك المشروع الذي كان يستهدف إنشاء دول طورانية واسعة في محيط النظام الاتحادى السوفييتى الحالى إذ تبدو الثقافة وطنية مشكلا كانت في المضمون عمالية اشتراكية السمات فكان من ثم أن بدأت ظاهرة «علمانية» تبرز على حساب القيم الدينية والروحية التى بشر بها الإسلام مع ظهور نزعة وطنية منذئذ. محدودة من الآن وذات ميل وآفاق «إقليمية» دون أدنى تفكير فى الالتجاء إلى «أمة» الأخوة فى الإسلام وتعبّر عن نفسها عادة بثورات وانتفاضات ذات نفس قصير تهذب إلى إندخاّن تحسينات على المؤسسات القائمة أو تحقيق متطلبات الشخص أو الطائفة.

ويجب أن شديداً تبدو مشاكل المسلمين فى الاتحاد السوفييتى اليوم فيما لا يجاوز فعلا انتفاضات بعيدة كل البعد من تلك الانتفاضات الإسلامية المعروفة وتعبّر عن نفسها على (الصعيد العالمى) - بصوت مرتفع ليس غير. فالجمهوريات السوفييتية الإسلامية جمهوريات مستقلة ولكنها مرتبطة بسائر الجمهوريات السوفييتية (من سياسة خارجية مشتركة وتضامن فى شئون الدفاع الوطنى المال والتعليم العام والسكك الحديدية، وهكذا نجد أننا بعيدون بعدا شاسعا عن أحلام السلطان جاليف تلك هذه الشخصية الشيوعية البارزة ١٩١٧ - ١٩٢٣ قد صار فيما بعد المحرض والمعادى الثورى حتى حكم عليه بالإعدام عام ١٩٢٩ فقد كانت خلاصة حلمه تجميع كل مسلمى البلاد السوفييتية فى دولة واحدة ونشر التعاليم الإسلامية ولو بالقوة حتى قلب القارة الآسيوية مستغلين سابق أمجادهم وفتوحاتهم لهذه البلاد... هذه القارة الآسيوية الواعدة القابعة فى سبات عميق على حين لا تنظر إليها دول أوروبا الصناعية والعمالية (روسيا) إلا أنها مقرا وإن كان ثوريا فهو هامد خامد... فهل يستطيع الإسلام أن يكون فى مسيرته نحو الشرق... ذلك المشعل المضئ؟

إن الوحدة العربية وتعد اليوم نجم الإسلام السياسى تحل محله فى التعبير عن التيار الإسلامى كل فلم نعد نرى ولا نسمع سواها. فالعالم العربى التام هو قلب

الإسلام بكل وضوح وملفتقى طريقه. ومن هنا تجيء الخطط بين الشرق الأوسط وامتداده المغربى والمزج بينهما لدرجة لم تعد ترى صورة عداها وبالطبع نجد انفسنا إزاء الجزء فى سبيل المجموع فهل خرجت السمعة الرئيسية اليوم فى الإسلام عن تلك الانقسامات الخادعة وهذا التقسيم لوحدة أراضيه ووحدته الذاتية؟ بسبب الواقع الجغرافى والسياسى فهناك قطاعات معينة من بلاد الإسلام تخضع خضوعاً شاملاً لحضارات أخرى أو لنظم اقتصادية أخرى.

ففى ربوع شبه جزيرة الهند وهى الجزء الجنوبى الشرقى لقارة آسيا وفيها أندونيسيا والفلبين نجد أن الثمانين مليون مسلم الذين يعيشون مختلطين معاً مع اختلاف العقائد بين المذهب الإحيائى المؤمن بحياة المادة وبأن النفس مبدأ الفكر والحياة الفكرية فى وقت واحد وبين العقيدة الهندوسية أنها شعوب امتزجت فى نظام اقتصادى خاص جداً وتعتبر كأطفال شبه تائهين وفى نطاق الهند نجد باكستان وقد انقسمت قسمين ضخمين تتهددهما المساحات الواسعة والتعددية المتفشية فى الهند ذاتها. وفى الصين يعيش عشرة ملايين من المسلمين فى شبه عزلة مآلهم الضياع حتماً وفى أفريقيا السوداء نجد الإسلام الفاتح بالأمس وقد خضع اليوم لموجة عقائدية مشوهة ومشوهة وهى عقائد متعددة الأشكال راسخة حيث دينية يلجأون إليه من حيث هو عقيدة دينية كنوع من المقاومة والصمود إلا أنهم يعيشون مدركين أن مصيرهم هو الضياع إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب ولم تعد كل البلاد الإسلامية تولى وجهها نحو مكة كما كان الحال من قبل ولم تعد شعائر الحج تمارس كمظهر من مظاهر التماسك والتضامن الإسلامى، فابتعاد الشعوب بعضها عن بعض مع ما تساهم به موجات الإلحاد والاتجاهات اللا دينية بشكل كبير فيما صار عليه الإسلام اليوم فلم تعد مكة منذ عام ١٩١٧ ترى سوى بضعة مئات من الحجاج السوفيت كل عام.

ونرى الإسلام اليوم يتخذ نفس الشكل الذى كان عليه عصر غربياً لمدى حيث تصطدم الوحدة الإسلامية فى قلب البلاد الإسلامية وفى الشرق الأوسط بقدرات وانتفاضات وطنية محلية حادة وهائلة.

(فى شهر سبتمبر ١٩٦١ حدث الانفصال)

واقعة الانفصال الغربية بين مصر وسوريا مثل ناطق على ما آلت إليه أمور العالم الإسلامي من باكستان وأفغانستان وإيران وتركيا ولبنان وسوريا والعراق والأردن والعربية السعودية وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا واليمن، وكل منها تتمتع بخصايص ذاتية وما أكثر النزاعات التي تنشب بين كل منها وغالبا ما تكون نزاعات وصراعات يحاولون إلباسها أقنعة مقنعة مستترة كي تبدو من ثنائياها مظاهر وحدة «وقفية»، كلما نشأت أو اشتد الصراع مع العالم الخارجى وما يمثله من مخاطر. تدفع هذه الانتفاضات الوطنية المثيرة للناس والطلبة فى المقدمة خاصة إلى إتيان تحركات درامية استعراضية غالبا وهى تحركات بالية وليست عدوانية كما يراها الغرب بمنظار ظالم، ثم أليس لنا نحن أيضا نفس الظروف؟ ألم نأسف كثيرا بالأمس على حركاتنا الوطنية التى دفعت أوروبا فيها ثمنا عاليا؟ وعلينا ألا ننظر فى زمن السوق الأوروبية المشتركة إلى هذا الازدهار فى الحركات المحلية دون أن ننقصنا النظرة التى تفتقد البشاشة ولنكرر قولنا إن هناك ظلما ما يحيق بالعالم العربى من واقع منظورنا له إذ ليس لتلك الانتفاضات الوطنية مواقف عنيفة ضد الغرب... ظلم فى الواقع هو اللفظ الذى استخدمه نجم الدين عام ١٩٥٩ وهو يصف موقف الغرب فى الإسلام إذ قال: إن على الإسلام اليوم أن يعيش ثورة دينية تقارن بالإصلاحية... ثورة ثقافية روحية فى الوقت نفسه تشبه الا «أوفكلارونج»، وهو اللفظ الألماني الذى يتطابق اليوم ما نطلق عليه الإشاعات والاستبداد المثير فيما وقع فى القرن الثامن عشر من ثورة اقتصادية واجتماعية وتلك التى عرفت فى أوروبا فى القرن التاسع عشر تحت اسم الثورة الصناعية وذلك فى زمن تعاصر فيه تلك النظم الإقليمية الكبرى بين الكتلتين الشرقية والغربية وكان من الضرورى أن ندرك أسباب تلك الثورات والانتفاضات الوطنية الصغيرة فى عصر نرى فيه كيف تنشط الحركات والتحالفات والمواثيق العالمية إذ كيف يقف الإسلام اليوم فى مواجهة أوروبا التى أصبحت أباحثا غريباً لدى المسلم لتوحيد أقطاره المشتته وليس من العجيب أن نجد فى بعض المصنعة لغاريبالدى إذ كان لحروب الوحدة الوطنية التى جرت فى أنحاء أوروبا تداعيات رهيبة مسروقة. فهل يكون تقسيم... هو كائن لصالح

الإسلام؟ أو أكثر ملائمة له؟ ألا يحتمل أن تعود الدول الإسلامية إلى طريق مسدود؟ وذلك في عالم اقتصادى لم يعد يسمح بمثل هذه التجزئة ثم أليس ذلك مما يثير ويولد النزاعات الخطرة إذ لكل دولة مستقلة قوتها الحربية المتواضعة وتعتبر عن رأيها في الوحدة الإسلامية، أو الوحدة العربية، بما يعين لها من رأى في نطاق ما تمليه مصالحها الذاتية وطموحاتها. وتتخذ هذا الحظ كل من الباكستان والعراق ومصر ولاشك أن الباب مفتوح أمام الآخرين، ومثل تلك النزاعات الوطنية ليست مرحلة ضرورية أو اضطرارية ولا هى ثمن للدور الذى لعبته خلال حقبة الاستقلال الصعبة فكل نزعة وطنية كانت ولا زالت «معادية، للاستعمار تمارسه كنوع من «الترياق، الواقى من السيطرة الأجنبية يهدف التحرر النهائى التام ثم إن إلتقاء كل الحركات الوطنية العربية فى تجمع فى مواجهة إسرائيل عدوهم القديم وصراعهم معه أمر لا يثير دهشتنا ولا نستغربه فإسرائيل التى قامت غداة الحرب العالمية الثانية أليست هذه الدولة الإسرائيلية ثمرة الغرب نفسه.. الغرب الممقوت الكريه؟ ونجاح وتفوق إسرائيل وتفوقها على صعيد التقنيات الحديثة الرائع.. أليس هذا النجاح وهذا التفوق هما ثمرة لرؤوس الأموال التى انهالت على إسرائيل من كافة أنحاء العالم كله؟ واستعراضات القوة هذه ضد مصر عام ١٩٤٨ وأيام أزمة تأميم قناة السويس والمسيرة الزاحفة المنتصرة بجيش صغير عبر صحراء سيناء عام ١٩٥٦ ألا يثير كل ذلك الخوف والعداء والغيرة؟ وكلها إضافات تنضم إلى الصراع القديم.

كتب جاك بيرك يقول: بحق إن العرب واليهود إذا ما سمحت لنفسى أن أقول هم شعوب الله فهما الاثنان معا شعوب الله وهو أمر صعب جدا بالنسبة للمفاهيم الدبلوماسية والدول الرشيدة. وما الصراع بين الشعبين إلا صراع يستحيل تفسيره ولا سبيل لأحد أن يغتفره ويكمن هذا الصراع فى تجاوزهما فى الموقع معاً وهما الشعبان من صلب إبراهيم ويشتركان فى «وحدانية الله، ألا نجد أن كلا منهما اتخذ فى مواجهة الغرب طريقاً معاكساً إذ عاش أحدهما فى الدياسبورا أى الشتات واستطاع بالرغم من ذلك الاحتفاظ فى عناد بمثاليته الجماعية المتصلبة وإخضاعها للتقنيات المتقدمة لدى الدول المتميزة وظلت الشعوب الأخرى قابعة

فى أراضىها ولكن بعد اجتياحها وتفتيتها فلقد صادفتهم مزايا أو أعطى مساوى البقاء ولو شكلا فيما يشبه الاتحاد بما يوضح ويفسر ما نراه حاليا من تباعد السمات والمظاهر وقد فكر أكثر الباحثين استنارة من العرب مليا ويمرارة شديدة فيما أطلقوا عليه «كارثة عام ١٩٤٨» وهو ما دعاهم إلى تقديم النصائح إلى مواطنيهم بضرورة إحكام وضبط وتعديل الأوضاع الكفيلة بتفادى العودة إلى مثل تلك المغامرات والكوارث. وللنزعات الوطنية دور عليها أن تؤديه فى المستقبل القريب فسوف تواجه كل الدول الإسلامية بغض النظر عن كافة الظروف آجلا أو عاجلا برامج ذات أبعاد متسلطة دقيقة تمثل مواجهات محتومة.. وهى فى الواقع برامج تضامن وبرامج لنظم اجتماعية جديدة وسوف تساعد الروح الوطنية القومية فى هذه البلاد الفتية على مواجهة الصعوبات الاقتصادية الشديدة والتي تضغط عليها وفى الوقت نفسه تساعد على تقبل التحديات اللازمة وهى تحديات تجابه أركاننا دينية قديمة وموارث قبلية وعشائرية وعائلية بالية تعود غالبيتها إلى عادات إسلامية قديمة ترسخت فى الحقب الإسلامية السابقة وكلها من الجائز أن تثير ردود أفعال عاتية.

وعلى أى حال ومهما تكلف الأمر سيجد الإسلام نفسه مضطرا إلى تحديث نفسه ومسايرة قدر كبير من تقنيات الغرب حيث صارت اليوم أساس الحضارة العالمية فلا تستطيع التقاليد رفض الأخذ بها ذلك أن المستقبل رهن برفض أو تقبل تلك الاتجاهات الحضارية الدولية رغم ما للتقاليد الموروثة من وزن طاغ أحيانا وذلك على الرغم مما قد يدفع الشعوب من كبرياء وطنى إلى تقبل ما تميل بالفطرة إلى رفضه.

وكثيرا ما أنكروا على الإسلام المرونة الضرورية للتكيف مع الضرورات العنيفة الملحة بحيث حملت عددا كبيرا من المراقبين على التأكيد بأن الإسلام بماضيه وروحه وأقطاره بل وحضارته وهى سمات عنيدة يصعب النفوذ منها فهى عنيدة متصلبة ولذلك يقول هؤلاء المراقبون إن الإسلام فى سياق «ضرورة التحديث» سيجد نفسه محاصرا بما يمكن من تدمير كافة جهوده للتحديث لمسايرة العصر... فهل الأمر بمثل هذا التأكيد؟ فى الواقع ليس الأمر كما يتصور المراقبون فلقد سبق للإسلام أن تقبل وبالتالي يمكنه اليوم أن يتقبل المزيد فى هذا العالم المتحضر الذى

بحاصره ثم يجب ألا ننسى أن المسيحية بالأمس كانت كالإسلام لم تقبل كذلك كل ما هو «حديث»، دون معارضة وتصادمات وتحفظات ولم تفقد شيئاً من أصالتها وهي تتنازل طواعية عن بعض ما كانت تتمتع به من مزايا. فإذا ما نسبنا إلى الإسلام التصلب والعناد العقائدي والفريد فمعنى ذلك أننا ننسى تلك المرطقات التي تبرر وحدها مخاوفه واحتمالات نجاح محاولات لى طريقة (لى مساره) فإن القرآن ذاته على أى حال يفتح أمام المنادين بالإصلاح الباب الذى لا يخلق أبداً وهو ما يسمى «بالاجتهاد» ويقال إن النبى كان قد بين أن القرآن والسنة قد لا يتناولان كل شىء صامتين ولذلك يدعو القرآن عندئذ إلى الاستدلال بـ «القياس»، وسوف يتخذ هذا الاجتهاد وصفاً متميزاً ويلعب دوراً كبيراً فى إرساء قواعد حديثة للإسلام والفكر الإسلامى ويتجاسر دعاة الإصلاح والتحديث اليوم على فتح أبواب الاجتهاد وبالعقل يطوفونها فهى بالنسبة لهم أبواب النجدة ذلك أن كل الديانات تمتلك أبواب الإسعاف والنجدة، والإسلام قادر على كبح محاولات الإصلاح والتصدى لها وفى الوقت نفسه قادر على الاستدارة أو على الأقل على التعرض للإستدارة، وعلماء الاقتصاد المتأثرون بهذه الحقائق اليومية لا يفتأون يعترضون على هذه التفسيرات وهذه السمات الراسخة فى المفاهيم الإسلامية وحياتهم اليومية إذ تصدر المشكلة فى رأيهم فى واقع الأمر عن اتساع الوثبة المطلوبة إذ تأخر الإسلام فى مسيرته قرنين من الزمان عن الغرب وهو الزمن الذى بدل وحوّر وغير من شكل أوروبا عما كانت عليه فيما بين القرن الثامن عشر وبين ما سبقه من أزمنة سحيقة، فكيف يستطيع الإسلام فى قفزة واحدة عبور تلك المرحلة من الأزمنة القديمة والسحيقة، وأن ينجح فى هز وتعديل مسار مجتمعاته الجاهلية القديمة على حين لا يمتلك إلا غطاء زراعياً فقيراً وغير ثابت الأركان وغير قابل للتغيير وصناعة منغلقة كمكومة (منغلقة ومحفوظة فى أكياس) منعزلة كأنما هبطت فرق اقتصادياتها وكذلك غير قادرة على مواجهة أعباء كتل بشرية ولود كثيرة النسل ثقيلة الخطى كشأن كل مجتمع فإن فى المجتمع الإسلامى أثرياء وهم قليلون رغم ضخامة ما يمتلكون ويغلب ألا تكون المعتقدات أو التقاليد غير ضمانات وبراهين على تلك التى يتمتع بها سعداء الحظ الذين يجدون من

مصلحتهم الإبقاء على رفق أفراد فى مجتمعات تعيش حقيقة فى العصور الوسطى كالتى نجدها فى اليمن والمجتمعات الإقطاعية فى إيران أو المجتمعات الجاهلية فى العربية السعودية رغم توفر البترول أو بسببه .

وفى مواجهة تلك الصعاب تبدو جهود المصلحين وكأنها امتحان يتعذر الاعتراض عليه ... جهود تذكرنا بتلك التى بذلها مصطفى كمال فى تركيا وما اتسمت به من عنف وكان ينوى بذلها قاسم فى العراق أو تلك التى اتسمت بتصلب الرأى والعناد من جانب ناصر فى مصر وتلك التى اتسمت بمهارة بورقيبة وفطنته فى تونس، ومهما كانت الظروف فإن العقبات التى واجهت جهود الإصلاح تكاد تكون كلها عقبات واحدة متشابهة حيث إن محاولات الإصلاح كثيرا ماهاجمت بطف معتقدات تدعى لنفسها الألوهية «كمحرمات» لا تستطيع المساس بالمعتقدات الإسلامية الحضارية وهنا التجربة التى لا تخطئ هى قبل أى شىء تحرير المرأة وهى التى تسير فى خطوات بطيئة وإن تأكد أن التجربة سوف تتحقق . كما أن تجارب كمحاولات القضاء على تعدد الزوجات أو قصر الطلاق على طرف واحد يحقه الإسلام للزوج وإلغاء الحجاب وحق دخول الجامعات والحقوق الثقافية وحقوق العمل وحق التصويت فى الانتخابات لكل هذه الأمور اليوم آثارها الضخمة مما يدل على أن محاولات الإصلاح ليست قضايا خاسرة مسبقا بل فى حاجة إلى مدافعين ومقاتلين يتسمون بالتصميم والعزم وتواجه أكثر ما تواجه من خطر انقيادها ودونها وعى للتوقف إزاء الإغراءات أو الوقائع السياسية المعارضة والواقع السياسى يميل فى جميع الأوقات وفى غيرها إلى التهويل بهدف بث الإحباط والتوقف . فالأمر المثلالى هو أن نقوم بعمل شىء واحد كل مرة وتختار فى كل مرة الأهم فالمهم، ولكن السياسة كلها حسابات وأمور منهجية وعقلانية فالتقدم والنمو الاقتصادى وحده بالنسبة إلى الإسلام وغيره ليس بأى حال ولا يمكن أن يكون محاولة تفضيل قيمة بين مواقف عدة لا ... بل وبين أمور مطلقة لأن فى العالم حيث يضطر المرء إلى العيش كثيرا، يجبر الإنسان على مواجهة الصعوبات القديمة والصعوبات الحادثة والطارئة بترتيب وقوعها فكل تلك البلاد المزهوة والفخورة باستقلالها إنما تواجه متطلبات سياسية ملحة وهائلة .

فى كل زمان ومكان وعلى هذه البلاد عبء إرضاء تلك المطالبات وغض الطرف عن مشاغل ليس لبعضها علاج وتبدو هذه الدول فخورة بعلاج مثل تلك المشاكل والعقبات. والإسلام كأوروبا نراه يضم تلك الجماعات من شباب نغد صبره يعيش فى قلق ويحرص على النجاح والاحتفاظ بخطوات وئيدة على طريق التقدم وهم اليوم يشبهون جماعات البولنيكديك التى عرفتها مجتمعاتنا عام ١٨٣٠ وللإسلام كذلك رجاله المسلحون القادرون على القيام بأعمال طائشة وكذا القيام بانقلابات عسكرية كما حدث من العسكريين فى أمريكا اللاتينية قبل عام ١٩٣٩ كما أن لدى الإسلام أحزابه السياسية ذات الأتياب الطويلة والأطماع فى الحكم ولديه كذلك رجال السياسة المخدوعون حتى فى أنفسهم ويدفعون ثمن خطبهم تمثل آراءهم العنيفة... ثم ألا يجب رفع الصوت للتعطية على صوت الدنيا؟

وبالطبع فإن الخارج مائل، ففرنسا فى شمال أفريقيا وإنجلترا فى الكويت وفى السعودية جنوبا والولايات المتحدة فى كل مكان رابطة الجأش تعمل فى رصانة وهذوء متعدهدة بتقديم المعونات والقروض والنصائح، وروسيا المتحفظة تتعامل بكياسة فى معطياتها وفق ما تقتضى الحالة ولكنها دائما يقظة متنبهة لأية حركات من هنا أو هناك فى حلبة الصراع الواسعة تلك وفى كل ركن أخيرا تطل الثورة الاجتماعية برأسها معبرة عن متطلباتها الضرورية وهى انتفاضات اجتماعية تمتلك رياح التاريخ توجهها لصالحها، ففي تركيا كم انبعث إثر الانقلاب العسكرى فى ٢٧ مايو ١٩٦٠ من آمال عديدة فى تحقيق إصلاحات اجتماعية غير أن تباطأت إيقاعات الثورة بالقياس لما حدث فى إيران رغم مجيئها من أعلى وكانت محافظة تقدمية وحققت بعض النقاط رغم الشباب ذى النزعة العدوانية وأنصار الوزير السابق مصدق حيث اللعب الصامت المكتوم من جانب حزب «توده» الشيوعى وفى الأردن حيث واجه ملك شجاع كل المخاطر التى تحيط به وفى لبنان وطموحاتها فى أن تصبح سويسرا الشرق الأوسط وفى العراق حيث الثورة شكلية أكثر منها فعلية وحيث يمثل الأكراد جرحا عميقا فى جسد الأمة العراقية. وفى مصر غداة الانفصال مع سوريا اختط البكباشى الحاكم طريق الاشتراكية التى لم يتحقق سوى نصفها ذلك أنها كانت حركة نصف شيوعية اجتماعية من

الممكن أن تنتشر بالتدريج ولاشك يظل الاستعراض ناقصا ما لم نذكر ما يعتلج في نفوس الباكستانيين الذين تنتابهم المخاوف من الهند بتعاظم قدراتها العسكرية بأكثر مما كان مقدرا لها بالأمس، تريد أن تستحوذ على كشمير، ثم أندونيسيا التي شجعها انتصار الهند في منطقة جوا على القيام بالمثل فتستولى على غينيا الهولندية في إيريان لتضمها تحت حمايتها وشمال أفريقيا بأسرة حيث ينتظر بعد حل المأساة الجزائرية تحديد الطريق الذي يسلكه ويختاره ليعيش في هذا العالم. تشغل كل المشاكل والمسائل بال الحكومات الإسلامية وتؤرقها وتضغط بشدة على سياساتها وتعرضها لردود أفعال وانفضاضات وثورات خطيرة غير متوقعة وتجلت لها كل مرة ضربات شديدة لها بدون شك ردود أفعال جسيمة بالنسبة إلى البلاد الأخرى ممن كان بمقدوره شهود مدى ما كلفته مشكلة بنزرت العاطفية ودفعت ثمنها فرنسا، غير أن فرنسا غنية وتونس فقيرة ومن هذه المشكلة هل كان مصير بنزرت وحده عن المجازفة والرهان أم كان الأمر عاملي زهو وكبرياء جرح أحدهما الآخر فعمد الطرفان إلى تعقيد المشكلة بسرور وهدوء؟ ولكن فرنسا شعرت بالمرارة لأنها قدرت أنها فعلت الكثير للإسلام وتلك حقائق الواقع ولكن الإسلام يجد نفسه يشعر بالمرارة لاعتقاده بأن الاستقلال الذي منحوه إياه ليس كاملا. صحيح أنه من بلد مستقل استقلالا تاما مادام اقتصاده يلفظه ويلقى به إلى متاحات العالم الثالث ومن واقع تلك التبعية الاقتصادية فإن الدول الاستعمارية القديمة مسئولة مسئولية جزئية إذ أن هذا النقص وهذا التدهور إنما يعود كذلك لأسباب خاصة ترجع إلى ماضى العقيدة الإسلامية ذاتها وفقر دوله الطبيعي كثرة أبنائه المفرطة وهذه كلها أمراض رهيبة ولو لم تكن بدون علاج.

الدول الإسلامية المختلفة فى مواجهة العالم المعاصر

يكون النمو أحيانا كثيرة مبعث قلق وصعوبة بالقياس إلى الإسلام فهو يواجه ذات المآزق الذى يواجه عادة كل بلاد العالم الثالث فيلزمه فى سبيل الاندماج فى حياة العالم الاقتصادية ليحقق بأسرع ما يمكن ثورته الصناعية .

وتلك مهمة من السهل صياغتها شكلا ولكن تطبيقها يستدعى دفع الثمن الباهظ وتحمل أعباء عمل شاق مع توقع ثمار آجلة لا تأتى فورا أو تتوقع بسرعة ولا سبيل لردود أفعالها وآثارها أن تنعكس على مستويات المعيشة بسرعة فالأمر إذن يحتاج إلى وقت طويل ويجب أن نعترف بأن الاستعمار قبل هذه المشكلة لم يعمل بالفاصل الزمنى الذى استغرقه على مواجهتها كما ينبغى ومن هنا تكمن المسؤولية الضخمة التى تتحمل مسئوليتها وآثارها الدول الاستعمارية ويجب فى الوقت نفسه ألا نقلل مما أدخل الاستعمار على البلاد التى احتلها من ميزات واضح أنها كانت هامة جدا فقد جعل منها - وكانت شعوبها تحيا حياة جاهلية تقبع فى عصور قديمة ولم يطرأ عليها شىء من التقدم منذ قرون فأتاح لها الاستعمار المشاركة المفاجئة والاتصال بحضارات متقدمة متطورة ولا شك أن تلك المشاركة أو هذا الاتصال قد أعطيا شيئا ما لتلك البلاد ولشعوبها ويأتى من بين هذه المنافع فى المقام الأول مبادئ ونظم صحية وعلاجية حديثة مما أدى إلى انخفاض كبير فى معدلات

الوفيات وإلى نظم تعليم هامة ما استطاع وفق الأحوال (وفى هذا السياق بعد الاستعمار الفرنسى من أقل من يقع عليهم اللوم من المستعمرين وذلك فضلا عن إدخال تحسينات أساسية عديدة كالموانئ والطرق والسكك الحديدية وتحديث وسائل الرى بما يصاحبها من إقامة السدود والخزانات وضرورات الرى الحديث وإرساء قواعد سليمة لمشروعات التصنيع .

أكان ذلك كثيرا أم لم يكن، يجب الاعتراف فى الواقع بأن ما جلبه الاستعمار قد دمر جزئيا البنية الأساسية والدعائم القديمة ليحمل محلها دعائم للأسف لم تكن كاملة التشييد فجاء بناؤها بأسلوب ناقص ذلك لأنها لم تشيد على ضوء احتمالات المستقبل وضروراته واحتياجاته فى إطار اقتصاد وطنى محلى ولكنه ربط كل المشروعات الاقتصادية فى البلاد المستعمرة بنظائرها فى البلاد المستعمرة وهو ما يسميها البلد المتروبول وجعلها رهينة بصفة دائمة تخضع لرغبات الدولة الحاكمة الأم وأهوائها وتسيطر عليها فتسلط أحيانا ظروف حياة العالم المتقدم، ويتضح ذلك مما نراه اليوم من تفاوت كبير فى خطط التنمية وفق القطاعات ووفق الضرورة مما دفع شباب الدول المستقلة حديثا إلى إعادة تخطيط وسائل التنمية والإصلاح لتتوافق مع دعائم بنيان اقتصادى هيكلى يناسب ويحقق احتياجات بلادهم الحقيقية الوطنية بدلا من تلك التى خطط لها الاستعمار تخطيطا عشوائيا أو ما يقترب من العشوائية ولاشك أن إعادة النظر هذه إنما تمثل عبئا ثقيلا ومهمة شاقة تضاف إلى عديد من مشاكل شعوب هذه البلاد وأقلها فقر الأراضى القابلة للزراعة .

ولمواجهة التصدى لهذه المشاكل كان على الدول الإسلامية أن تدرك أن التحدى يجب أن ينبع منها ذاتها وألا تخطط أبدا اعتمادا على الآخرين ويجب أن تنجح هذه البلاد فى التأقلم مع سياسة متذبذبة للأسف ومعترسة أحيانا تمارسها حكومات ومجتمعات الدول المتقدمة «المحظوظة»، وعموما فإن البلاد الإسلامية لا ينقصها ما تحتاج إليه اليوم من الذكاء أو الدهاء السياسى لمسيرة سائر دول العالم المتقدم، كما يجب عليها ألا تنسى أن تتمسك بتقاليدها مع التكيف فى الوقت نفسه مع أساليب الحياة العصرية وهو ما يمثل أصعب مهام تلك البلاد الناهضة .. وعموما فمعروف أن هذه مهام تبلغ ضخامة هائلة ولكن لا نقول «مستحيلة» .

وليس الاقتصاد المتقدم ولا البترول المتدفق هما الحل فليست الحلول أمرا سهل التحقيق ولو ساندته تدفقات البترول السخية الكريمة ولاشك أن البترول يمثل الثراء حيث نلاحظ آثاره الطبية فيما تفعله بمستوى المعيشة وكذلك قدرات الدول البترولية الاقتصادية اليوم، ومعروف أن تلك الثروة هبطت على بلاد الشرق الأوسط بسخاء ولكن لم تستطع سوى الشركات العالمية الكبرى تحمل أعباء استخراج هذه الثروة واستغلالها ومواجهة ضخامة ما يتفق عليها في عمليات التنقيب ثم الاستخراج ثم الاستغلال ثم التسويق وتظل هذه الشركات العالمية الكبرى أكثر المستفيدين لتحملها هذه المهام ضد القائم من الملكيات.

أى تلك الأسر الملكية الوراثية ثم محاولة الاستئثار الوطنى كما حدث يوما في إيران عام ١٩٥١ وكما ترنو العراق اليوم عام ١٩٦١ بأبصارها لتحقيقه وهى محاولات بلا طائل فاشلة مسبقا إذ لا قيمة لبترول بغير تسويقه وبيعه ولذا فلم تعد هناك اليوم أزمة بترول أو نقص بترول فى العالم الآن بل على العكس بدأ عصر البترول وزمن سيادته فى الأفول وأوشك على الدخول فى مرحلة «عدم الدوام» الأبدى وخصوصا فى عصر الذرة، ومن المفيد أن نضيف ملاحظة عابرة فنقول أن الاستغلال الأجنبى المكروه ليس وحدة القضية فقد وطدت الملكيات أى الأسر الملكية فى البلاد الإسلامية أركان امتيازات اجتماعية فلا يوزع العائد بعدل ولا إنصاف وربما بدت أحيانا كثيرة مظاهر البذخ الذى تبدو على طبقة من الناس دون غيرها بفضل ثروات مفتعلة إذ لم تسهم فى التنمية المحلية حيث يبعثرها ملاكها فى شراء ملاك ومنافع تقتنى فى الخارج ولن تكون أبدا إنتاجية لو أنفقت محليا (فى موقعها) فالبترول سبب إنشاء هذه المدن الجديدة التى تشاهدها فى العربية السعودية وكذلك تلك الحديثة والرائعة والسكك الحديدية والمطارات ولاشك أن كل مظاهر التقدم هذه واضحة وملموسة غير أن مظاهر هذا الثراء الجامح ربما ينطوى عليه من مفارقات ومغالطات تاريخية من جانب العائلة الملكية ورؤساء القبائل الأساسية.. لا تروق للشباب المتحمس المتأثر بالثورة المصرية كما لا يروق لطبقة بورجوازية (طبقة متوسطة) تطمح فى المشاركة ونيل دورها فى الأمور العامة ويبدو البترول فى عيون المراقبين كالفصنة فى أمريكا فى القرن السادس عشر حيث تدفقت على أسبانيا وغيرها لتستقر فى أوربا فتزدهر وينمو اقتصادها.

وعلى العموم فإن البترول وسيظل أحد أسباب الصراعات في منطقة الشرق الأوسط وكان آخرها وأقربها ما نشب من نزاع في مواجهة ثمانى شركات البترول العالمية في العراق بين رئيسها الجنرال قاسم (الزعيم) وبين ممثلها المحلي شركة بترول العراق ميكافيل وهامى المباحثات والمناقشات التي دارت خلال ثلاث سنوات مرة أخرى تتوقف إذ سحبتها من الشركات الأراضى غير المستغلة من بين أراضى الامتيازات السابق منحها ولاشك يظل احتمال التوصل إلى صيغة «توفيقية» قائما فيحصل العراق على بعض الفوائد ويتجاوز حصة الخمسين في المائة لكل من الطرفين ثم هاهو يتمكن من إدراج بعض المؤسسات الأجنبية في مجال التنقيب واليوم نرى فوق عباب مياه الخليج العربى ناقلات بترول يابانية وإيطالية أقدر وأكثر استعدادا على التكيف لأنها آخر من دخل حلبة السباق إلا أن على البلاد المنتجة للبترول في الشرق الأوسط رغم امتلاكها كثيرا من الأوراق الرائجة ألا تجازف بالوقوع فى حسابات خاطئة مخيبة للآمال. واليوم نجد كل البلاد الإسلامية تخطط لمشروعات تنمية حقيقية ونفذت بعض الإنجازات فالتنمية فى مجالات الإنتاج تنمية عامة لولا أن ازدياد عدد السكان بلا انقطاع إنما يعقد كل الأمور وكثير عديدا من القضايا فكل البرامج مع ذلك عرضة لإعادة النظر.

وفى مقال نشر فى جريدة الموند الفرنسية عن الشرق الأوسط قال الفريد سوفى يوم نشر المقال فى ٧ أغسطس ١٩٥٦: «العالم العربى كله - وكان واجبا قوله العالم الإسلامى - يعيش اليوم فى حالة من الفوران الديموغرافى (الشعبى): ففيه أعلى نسبة مواليد فى الكون (حوالى ٥٠ لكل ألف) أى ما بين سنة مواليد وسبعة لكل أسرة وليس ثمة مؤشرات تدل على احتمال انخفاضها ولكن هذه البلاد استفادت من تراجع وارتداد تعدد الزوجات وما طرأ من تحسن وتقدم فى الأساليب الصحية وفى مواجهة هذه النسبة المرتفعة فى المواليد نجد نسبة الوفيات فى انخفاض شديد بسبب تراجع الأوبئة وارتدادها وانعدام الحروب القبلية وليس معروفا اليوم يقينا نسبة الوفيات ولكن المعروف أنها تنخفض إلى ما يقرب من ٢٠ لكل ألف وتصاحب كل ذلك نسبة ما بين ٢,٥ إلى ٣٪ ارتفاع فى زيادة السكان كل عام، مثال ذلك فى الجزائر وتونس ولاشك كذلك فى مصر ويعد هذا التضاعف السكانى

فى جيل واحد معدلا مرتفعا بأكثر مما أوقع أوروبا فى فورة غليان فى عنفوان شبابها إلى ١,٥ ٪ كل سنة ولا يتمتع بمنافذ كتلك التى تتيحها الهجرة واستعمار بلاد الغير.

والعالم الإسلامى يمزج نسبة الوفيات التى وقعت بأوروبا عام ١٨٣٠ نسبة مواليد لم تتح لها فرصة الوجود إلا أحسن حقب القرون الوسطى.... ولكن هذا المزج إنما ينبئ بالانفجار ومن ثم فإنه من السذاجة الاعتقاد بأن هذه البلاد التى ترتفع فيها نسبة المواليد وبالتالى تزداد احتياجاتها، حيث تمتلك إحداها البترول والأخرى خطوط الأنابيب الناقلة ويمتلك غيرهما زمام القناة (قناة السويس) سوف تكفى بما تملكه قانعة بما يتدفق عليها من ثروات سواء من داخل أراضيها أو غيرها دون أن نتوقع أن تطالب بحصة أهم ثم إن نقطة التقاء التصاعد الديمغرافى أمر يعنى قبل كل شيء ارتفاع مستويات المعيشة وبخاصة أو بتعبير أفضل هذا الركود المتكرر فى مستويات المعيشة لدى سكان البلاد الإسلامية رغم ارتفاع معدلات الإنتاج والتنمية وهى ظاهرة تتكرر فى بلدان العالم الثالث.

ومع ذلك فقد اتخذت عدة إجراءات إيجابية فى كل مكان وبذلك انخفض حد العاطلين وفى تونس كى لا نأخذ سواها مثالا وبإمكانياتها الذاتية دون الحاجة إلى استثمارات ضخمة التحق بالعمل ما بين مائتى ألف وثلاثمائة ألف متعطّل سابق أو نصف متعطّل وذلك بفضل مشروعات بناء طرق ومشروعات لردم المستنقعات وافتتاح عديد من المشروعات الحضرية وزراعة الأشجار وقد ذكر مؤخرا من واقع حسابات أحد خبراء الاقتصاد أن الإنتاج الزراعى فى الشرق الأوسط حقق تقدما فى مجملة يطابق المعدلات العالمية فيما بين عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٨ فإذا أخذنا مصير مثالا وجدنا أن المؤشر العام للصناعات إذا قدرناه مائة عام ١٩٥٣ كالاتى ٩٥ عام ١٩٥١ / ٩٨ عام ١٩٥٢ / ١٠٠ عام ١٩٥٣ عام القياس ويصعد المؤشر إلى ١٠٧ عام ١٩٥٥ وإلى ١٢٥ عام ١٩٥٦ و ١٣٢ عام ١٩٥٧ و ١٤٣ عام ١٩٥٨ وهكذا نجد أن هناك تقدما حدث وكذلك الأمر فى باكستان فمن ١٠٠ عام ١٩٥٢ قفز الإنتاج الصناعى إلى ١٢٨ عام ١٩٥٤ و ٢١٥ عام ١٩٥٨ ومن

الواضح أن هناك تقدماً وتضاعفاً في مستوى الدخل القومي مما يساعد على نمو القدرة على مزيد من تكريس للاستثمارات، ومع ذلك يواجه ذلك النمو المسار العكسي للصعود الديمغرافي إذ يتضاعف عدد السكان والكتل البشرية على ازدياد الموارد الوطنية ومن ثم ينخفض مستوى معيشة الفرد مثل كل حاصل قسمة فمقام (عدد السكان) إذا ما ازداد أسرع من البسط وكالسباح الذى يواجه الأمواج المتلاطمة فكلما ازداد تمسكه بالتقدم واستمافى محاولاته ازدادت الآمه لينخفض بالتالى تقدمه أما فى بلاد الإسلام حيث كل شىء فى تقدم فإن مستويات المعيشة فى تراجع مع صعوبة الاحتفاظ بمستواها ونضيف إلى ذلك أن حساب الدخل القومى هذا مقسماً على كل رأس (من السكان) ليس حساباً دقيقاً دقة مطلقة حيث لا يكون عدد السكان ذاته فى أحيان كثيرة عدداً مؤكداً بل يخضع كثيراً لصدف وظروف تجعل حسابه صعب التحقيق فى مثل ظروف غياب أنظمة حسابية عالية الكفاءة ... وبعد فكيف السبيل إلى تقدير أو تقويم دخل حرفية مشتته وموزعة متناثرة هنا وهناك فى إطار ضارب فى القدم وغالباً وزراعة تضم مناطق شاسعة بدائية ذاتية الاستهلاك؟ وعقد فى مثل هذه الحسابات وتقديرات ذات ترتيب تصاعدي دائماً اليوم كافياً.

وبما أن هناك صعوداً ديموغرافياً فإن مجرد الاحتفاظ بنفس المستوى فيما يختص بالدخل قياساً بالفرد إنما يعد دليل حيوية اقتصادية معنية قادرة على مجابهة الصعود البيولوجى

وإجمالاً فإن لدى البلاد الإسلامية الدليل على توافر هذه الحيوية فإذا حدث أحياناً تراجع ما ظل الوضع مع ذلك معتدلاً بغير تطرف. فالناس هناك يعيشون فى المتوسط بما يقرب من ٢٦٠٠ سعر (كالورى)، (وحدة حرارية) يومياً وهو ما يقترب من الوضع المعيشى فى البلاد الميسورة ولكنهم بصفة عامة فوق المستوى/ المتوسط الحيوى فى كل مكان باستثناء تلك المنطقة الصحراوية خارج نطاق الجوع القاسى إذ بما يعنى أقل من الحدود فيما بين الثراء والفقر وأعلى من حدود الفقر والبؤس. وهذا فى حد ذاته يعد نقطة محققة.

وفيما بين هذين الحدين يختلف وضع البلاد المختلفة من بلد إلى آخر، فإذا ما أردنا بترتيب البلاد بقياس نصيب الفرد من الدخل القومي مقسما على السكان وجدنا البيان من أسفل إلى أعلى كما يلي: ليبيا / ٣٦، أفغانستان / ٥٠، نيجيريا ٦٤، باكستان ٦٦، أندونيسيا ٨٨، الأردن / ١٠٠، سوريا / ١١٠، إيران / ١١٥، مصر / ١٢٢، تونس / ١٣٢، العراق / ١٤٢، المغرب / ١٥٩، الجزائر / ٢١٠، وتركيا / ٢١٩، ولبنان / ٢٤٧، دولارا لكل فرد، وهذه الأرقام متواضعة إذا ما قورنت بالأرقام في البلاد الأوروبية فهي فوق ١٠٠٠ وفي الولايات المتحدة فوق ٢٢٠٠ وهي مقارنة ساحقة وإنما يمكن مقارنتها وتقويمها بالأرقام المتدنية في القارة السوداء على سبيل المثال.

وسوف نلاحظ أن البلاد التي كانت بالأمس أو اليوم على اتصال مع فرنسا مثل لبنان وسوريا والمغرب والجزائر وتونس تتساوى تقريبا وتحتل أفضل ترتيب. ولا يعود ذلك بالطبع إلى الاستعمار الفرنسي في ذاته حتى برغم ضرورة الاعتراف له بأنه تمكن من توطيد أركان طبقة من المثقفين ومستويات من الموظفين الأكفاء لا مثيل لهم في حضارات أخرى. ويرجع ما تتميز به لبنان إلى قدرة سكانها على الهجرة التجارية والثقافية والرأسمالية معاً عبر كل بلاد الإسلام، ويعود شمال أفريقيا وأمريكا اللاتينية إلى تساوى حدى التعارض بين العقيدتين المسيحية والإسلامية. والجزائر بفصل الاستثمارات الفرنسية والاستثمارات الدولية ونجاح خطط الزراعة وإقامة السدود والطرق وإنشاء المدارس وتنظيم الخدمات الطبية العلاجية وما تحقق من إنجازات بترولية في الصحراء وتدفق أفواج الهجرة إلى فرنسا من العمال «الشغيلة»، وهي الهجرة التي لم تتأثر ولم تتوقف على الرغم من الحرب التي نشبت عام ١٩٥٤ وفي خضم ما يفرض على كل حركة اقتصادية في مجال نضالها «للتنمية»، فإن لكل اقتصاد أوراقه المحكمة الحاكمة وكذلك فرصه السعيدة فلدى كل من العراق وإيران و المملكة العربية السعودية والجزائر بترولها ولدى مصر مياه النيل التي تخصب الأرض وقناة السويس وقطنها ذو الشهرة العالمية وجودته المرتفعة ولديها كذلك مصانعها للنسيج ولدى

كل من تركيا والمغرب نهضة صناعية وليدة ولكنها ماهرة أحيانا كثيرة وتتمتع أندونيسيا بتوافر خام الكاوتش والبتروول ومناجم القصدير وتمتلك الباكستان موارد ضخمة من القمح والحبوب.. كل ذلك يعد أوراقا حاكمة إلا أن الأمر يظل مع ذلك مهمة صعبة ومباراة غير مضمونة.

أماما يجب إيجاد الحلول له من المشاكل فعويص صعب وهى مشاكل اقتصادية واجتماعية معا وهى تتشابه الواحدة بالأخرى حتى ليبدو من المستحيل مواجهتها كل على حده وهى كلها فى حاجة إلى خطة وبرنامج هائل للعلاج. ويحتاج الأمر فى الواقع إلى:

(أ) تحسين ظروف الزراعة وطرقها قبل كل شيء أى المساس بعنف لنظام قديم فى الملكية ثم معالجة عصرية لمشاكل الري ومواجهة مشاكل تجريف الأرض أى وضع خطط فنية وسياسية فى الأراضى الزراعية.

(ب) إقامة منشآت صناعية (خفيفة أو ثقيلة أو خاصة بل وتابعة للدولة وربطها بقدر الإمكان بالموارد الاقتصادية الكاملة للدولة ويجب أن تركز على الدعائم الإجمالية لهذه الموارد الاقتصادية وتعمل على تنميتها بما تحدثه من تحركات.

(ج) تسوية مشكلة الاستثمارات وهى مشكلة ساخنة لاستنادها على الإعانة الخارجية (رؤوس الأموال الدولية الخاصة عن طريق تمويل المصارف السويسرية والمساعدات الحكومية السوفيتية والأمريكية أو الفرنسية وقريبا ستكون رؤوس أموال أوروبية من السوق المشتركة.

(د) إنشاء سوق - وهذا تتضاعف الصعوبة فليس هنا مجال لقيام سوق إلا بتوفر مستوى معيشة معين وذلك ما يحيلنا إلى المشكلة المطلوب بالضبط إيجاد الحل لها وليس هناك مجال لوجود سوق فعلى مقبول.. إذا ما امتد إلى أبعد من السوق الوطنية ومن هنا تجيء تلك الأفكار التى تطلق بكثير من التصميم لا بعوامل النجاح كالسوق العربية المشتركة والسوق المغربية والسوق الأفريقية وهى أحلام حكيمة عاقلة إلا أن تحقيقها عسير.

(هـ) نشر التعليم وتوفير الأيدي العاملة الماهرة فى الوقت نفسه حيث تنشأ فيه الميكنة المتاحة فى مجال صناعة تبدأ من الصفر متجاهلة ما يسود حالياً من عمالة وهو موضوع أساسى يجب استخلاص حل له قبل أى شىء .

(و) إعداد شخصيات من الفنيين والمهندسين والمدرسين والإداريين والتعليم والتشكيل التقنى والفنى .

على جدول الأعمال .. وعليه تبرز هنا مشكلة ذات نفس طويل . فإذا ما قصرنا نظرنا على الحماس الشعبى الجارف إزاء التعليم ألقيناه قادرا على تخطى عقبات ضخمة ، وعموما تبدو أهمية الاستثمارات الضخمة المطلوبة التى لا تدر ربحاً إلا بعد آجال طويلة . ولا شك أن أجيالا عديدة سوف يضحى بها سلفاً وهذه أمور تعرفها من الناس قلة ذات بصيرة نافذة وتعرف آثارها المحزنة . وهناك جماعة من شباب الشعراء السوريين ، اللبنانيين شبهوا هذه الظاهرة رغبة منهم فى تفسيرها بأسطورة ناقوس الرب الشرقى الذى أنذر بموت اليم مع وعد بالبعث من جديد وهكذا يدركون حجم المرارة والمأساة المتوقعة لشعوب بلادهم .

ومن الضرورة الاختيار الأمثل إزاء وضوح المشاكل بين صعوبتها والمتطلبات الملحة للحلول وحول التضحيات المطلوبة التى لا سبيل إلى تفاديتها فنجد من بيدهم شئون إدارة هذه البلاد يترددون فى اتخاذ الاستراتيجية الواجب اتباعها والاختيار الذى يقع ويتحكم فى بل يتجاوز كل مصير للإسلام .

فأما البقاء ضمن إطار رأسمالى تابع خاضع للغرب نصف ليبرالى (حر) ونصف ميال إلى التدخل تحت مظلة ليبرالية سياسية (تحررية سياسية) أو الاتجاه إلى خضم تجارب اشتراكية تكون إما سوفيتية أو يوغوسلافية أو صينية وأكثر بساطة كذلك وبإيجاز فإن المراد هو الاحتفاظ بالمجتمع والحكومة كما هم مع برامج تحسين مهما تكلف الأمر أو طرح البناء كله أرضاً بضربة واحدة لإعادة تشييده على أساس آخر جديد وليست هذه الخيارات مجرد خيارات ثقافية للأسف بل ولا اختيارية وإنما تخضع كلها لعدد من آلاف العوامل بعضها داخلى وآخر خارجى .

ففى كل مكان أو بالتقريب فى كل مكان فيه طبقة بورجوازية صاعدة مثقفة أغلبها من الشباب المتعلم تشعر بمشاعر الإحباط الأليمة التى عايشوها من تجارب تقليد الغرب فعلى الصعيد السياسى على سبيل المثال تتمتع كل البلاد الإسلامية باستثناء أفغانستان واليمن ببرلماناتها ولكن التساؤل هو ماذا أكسبتهم هذه البرلمانات؟ فهذه الجموع من الشباب الياثس المحبط الذى خابت آماله يتجه اليوم لا إراديا نحو الشيوعية حيث يجد فيها الوسيلة التى يتمكن بها توكيد أركان سيطرته ومساهمته فى الحياة العامة إذ يبدو النظام البيروقراطى ونظم التخطيط فى العالم السوفيتى فى أعين هؤلاء الشباب ضمانات أكيدة للاستقرار ووسيلة فعالة فى علاج المشاكل الاقتصادية شبة المعقدة وكثيرا ما تبهرها طبقة المثقفين الأنتليجانسيا (الشباب المثقف) فى البلاد الإسلامية مظاهر التحديث التى تنادى بها التعاليم والأفكار الماركسية وليست كل هذه الانتقاضات والعيول سوى ردود أفعال مؤكدة ضد نظم القرون الوسطى التى لازالت الصلة فى شل حركة الفكر الإسلامى إلا أن خطورتها قائمة طالما وجد فيها مستيروها طريقا إلى حلول عقلانية حديثة كما فى الغرب. ومع ذلك فلازالت الأفكار الماركسية حتى اليوم تبدو فى عيون هذه الطبقات المثقفة الوسيلة الوحيدة الممكنة ويميل الغرب كثيرا إلى تفسير تلك الظواهر المتعلقة بالاتجاهات فى البلاد الإسلامية فى إقامة علاقات مساومة مع الاتحاد السوفيتى (علاقات على أساس مبدأ الأخذ والعطاء) على أنها بدافع مهارة للحصول على بعض الأسلحة والآلات الصناعية ولكن الأمر فى الواقع أبعد من ذلك كثيرا، فالتجارب الاشتراكية تسحر ألباب شباب البلاد الإسلامية وتثير إلهاماتهم فالغرب غالباً يستند فى دعائمه على أرستقراطيات رجعية فى إطار اجتماعى «مسرحى من الورق المقوى» (أى هشّة) فهو فى نظر هؤلاء الشباب مفلس لا يملك سياسة كونية لائقة، وليس الأمر فى الواقع إقناع الدول الإسلامية بأفضلية الحى الغربى مقارنة باتجاهات أخرى بل وليس أمر فتح خزائن الاعتمادات المالية بالمعونات بل هو بإيجاز أن يقدم للدول النامية نموذجا صالحا للتخطيط يكون قابلاً للتنفيذ ومتوائما يفتح لها طريق الأمل وطريق المستقبل الأفضل.

الحضارة الإسلامية في مواجهة القرن العشرين

ذكرنا في الفصل السابق أن الإسلام يواجه أزمة عميقة وتساءل الآن هل تعرض هذه الأزمة العميقة للخطر حضارة الإسلام ذاتها؟ ويمكن طرح السؤال بعدة وسائل .

هل في خضم هذه التقسيمات الهائلة لجنسيات الأرض وخضم تلك المنافسات السياسية من دول العالم .. هل هناك في هذا الزمن حضارة إسلامية حقة معروفة أو معترف بها؟

فإذا كانت ما تزال قائمة أليست تلك الحضارة مهددة بذلك الرداء الكرنى من التقنيات وهذه السلوكيات وأى ضرورة كما يقول جاك بيرك في إفساح المجال للحضارة الصناعية الناتجة في الغرب وتمتد اليوم آفاقها إلى العالم كله؟

ثم أليست المخاطر أكبر إذا حدث وكان على الإسلام أن يبلغ أعتاب تلك الحضارة الصناعية؟ للوصول إلى ذلك فإن الإسلام مجبر على سلوك طريق ملركسية كفيلة بتدبير فضل عوامل تماسكه وأفضل عناصر ترابطه وعقيدته الدينية ذاتها؟ ولنا أيضا أن نتساءل أما زالت هناك حضارة إسلامية؟ إذ يبدو أن الانقسامات في البلاد الإسلامية سوف تفقد ولمدة طويلة آمال أنصار توحيد الدول

الإسلامية، وعموما فالواقع يقول إن توحيد البلاد الإسلامية حقيقة واقعة اليوم،
تماما كما كانت بالأمس.

ففى الحياة اليومية تجد سمات الحضارة وتلمسها بلا جدال وذلك فى نظرنا إلى
مظاهر توافق المعتقدات وتطابق العادات وتماسك الصلات العائلية ووحدة الميول
والأذواق والتصرفات بل وحتى الأطعمة نفسها.

لو تنقلت فجأة وأنت أوروبى تقطن بلدا أوروبيا من مدينة إلى أخرى من مدن
العالم الإسلامى لأصببت بالدهشة من كثرة التطابقات أكثر مما تتوقع رؤيته من
الاختلافات بين مدن الساحل الشمالى للبحر الأبيض المتوسط فإذا ما انتقلت إلى
الباكستان أو شبه القارة الهندية وجدت الاختلافات تبدأ فى الازدياد، وأكثر من
ذلك أيضا إذا ما انتقلت إلى أفريقيا الإسلامية تصطدم هنا بتيارات حضارية أخرى
قوية أحيانا وأحيانا أخرى أقوى منها ذاتها فلم تعد الروابط داخل أفريقيا السوداء
سوى ارتباط دينى وكذلك تجد برامج الوعظ والإرشاد تجرى كثيرا باللغة الفرنسية
فى البلاد الفرنكو فونية حيث بادرت مصر باسم التضامن العربى بتجربة تبشير
فى مبادرة من أدهى المبادرات؛ لأنها تجرى بطرق غير مباشرة وذلك فضلا عن
أن هذا التبشير لن يكون ذا فاعلية بين كتل الشعوب الأفريقية التى تحول «تبدل
وتعدل» إلى مدى أفرقة عقيدة محمد الدينية تماما بمثل حرية تعديل ديانة المسيح
وبإيجاز شديد نجد النفوذ الإسلامى إذا وجد إما سياسيا أو اجتماعيا على أكثر تقدير
وهو نفوذ لا يرقى تماما إلى مستوى واقع حضارة ما. أما باكستان فتعد جزءاً من
حضارة سميت بحق هندوإسلامية وتضم اللغة الوطنية - الأردية خليطا من
مفردات جذور إيرانية أو عربية لكلمات مشتقة من السنسكريتية وهى كاللغة
العربية تكتب من اليمين للشمال ولكن لا تشبهه إلا نادرا؛ لذا فإن إحدى السمات
الأكيدة فى البلاد التى تنتسب بصورة فعلية إلى الحضارة الإسلامية هى وما تزال
اللغة تلك اللغة التى كانت فيما مضى أوثق روابط الإسلام إنها اللغة العربية
«الفصحى» التى صانها القرن العشرون فهى لغة الكتابة المشتركة التى تستخدمها
المدارس والصحف والكتب أما اللغات الوطنية فليست سوى لغة التخاطب، وثمة

سمات أخرى من سمات الترابط هي المشاكل الاقتصادية والاجتماعية وكلها تقريبا وفى كل موقع متشابهة إلى حد كبير ففى الأساس نجد أن السبب إنما يعود إلى الصدام الناشب بين حضارة إسلاميه بدائية وحضارة عصرية تحاصرها وتجاوبها من كل جانب ومن هنا تبدو المشكلة كأنما هي إجمالية. ومن هناك تقوم مشكلة تهاجم بصلابة كل هذا لا يغير من الواقع شيئا فقد يتصادف فى الحلول التى تفرض نفسها أن تتطابق وتتماثل وذلك بمنطق الأشياء نفسه بسبب تطابق وتماثل فقط الانطلاق: البلاد المتقدمة فى برنامج الإصلاح الذى تعده لنفسها تجسد فى تصور مسبق مستقبل البلاد الأخرى. وهنا كذلك نجد أن الإسلام المبعد فى أفريقيا السوداء (بقصد الغريب) وفى شبه القارة الهندية وفى الصين يخالف من المجموع لأن مصيره يرتبط بحضارات مغايرة ويبرز أمامنا تساؤل ثانٍ: هل يستطيع الإسلام أن يتخلص من حضارته التقليدية كرداء قديم أولا بأول كلما اقترب من عصر التصنيع والتقنيات المعاصرة المدنية؟ ليس هذا التساؤل خاصا بمصير الإسلام بل المعنى المقصود فى الحضارة العصرية الحديثة، حضارة الآلة ثم حضارة العقل الإلكتروني والآليات وعصر الذرة، هل الحضارة فى طريقها إلى توحيد أنماط الدنيا لتتماثل النظم؟ هل يكون ذلك لخيرها أم لشرها؟ ذلك أنها فى سبيل القيام بهذه الخطوة سوف تزيح حضارات أخرى لها سماتها الخاصة. فالآلة وآثارها بكل تأكيد قادرة على تدمير دعائم الحضارة وإعادة بنائها. لا كل الدعائم لأنها وحدها لا تمثل حضارات وتأكيد ذلك يعنى الادعاء بأن أوروبا اليوم قد ولدت من جديد فى زمن ثورتها الصناعية وهى الثورة التى بدت أحيانا كثيرة كأنها صدام عنيف وهى تغرس بذورها إلى آفاق بعيدة. إن مجرد التفكير فيما وقع لأُم أوروبا يجعلنا نشك كثيرا فى قدرة الآلة على تنميط الكون فإذا ما ألغينا نظره فاحصة على شعوب قارة أوروبا وأممها وجدنا أن عصر الآلة لم يستطع تنميط هذه الشعوب وتلك الأمم فنحن نتحدث حتى اليوم عن حضارة فرنسية وحضارة ألمانية وحضارة إنجليزية وحضارة بحر أوسطية وإن كانت شعوب وأمم تشترك فى مجموعها وتنسب حضارة واحدة (مشاركة) ونقصد بها الغرب المسيحي الديانة يتسم بنزعة إسلامية يعيشها منذ أكثر من قرن من الزمان فى ذات المغامرة

الصناعية المزودة بنفس التقنيات ونفس العلوم ونفس المؤسسات المتشابهة فى كل الأشكال الاجتماعية. لم يستطع كل هذا التطابق إزالة النزعة الفردية لدى كل شعب يريد أن يتمسك ويحافظ على هويته المميزة الخاصة ويكفى أى فرنسى يتمكن من عبور المانش أو أى إنجليزى تطأ قدماه أرض القارة أو أى ألمانى يتوجه إليها أيضاً كى يوقن كل هؤلاء. وبدون أى عناء إن التصنيع الآلى لا يعنى التقييد لأن الآلة ليست قادرة على تدمير النزعات الإقليمية كما لا تستطيع التقنيات محو الشخصيات القوية التى رسختها حضارات قادرة قوية مؤسسة على دعائم من عقائد دينية وفلسفات وقيم إنسانية وأخلاقية فى غاية الاختلاف ؟

ولكن هل تواجه المشكلة الإسلام بصورة مختلفة إذا ما عرضت عليه التقنيات بصحبة الماركسية أى مع قيم مغايرة متعارضة مع قيمه وتعاليمه الإسلامية ؟ والرد على مثل هذا السؤال الذى يطرح كثيراً ليس سهلاً ولا ممكناً تماماً.. هل نتجراً فنقول إن الماركسية ليست وحدها حضارة بديلة بل اتجاهات لا إنسانياً إرادياً ونهجاً عقلانياً إذا ما طبقت يوماً على الإسلام فمما لا شك فيه أن المآل سوف ينتهى إلى نوع من التعايش أو المشاركة فى الوجود وقطعا كنوع من التقسيم كما هو الأمر فى البلاد السوفيتية بين كل من الحضارة الروسية والماركسية ومثل ما هو قائم فى الصين بين الحضارة الصينية والماركسية فالماركسية بالرغم من أنها تمكنت من تحويل الاتجاه تحولاً قوياً إلا أنها لم تتمكن من إلغاء أى من هذه الحضارات. وعموما فليس ذلك من أهدافها ولا شك أن مبارك يحق له أن يقول: فى تجربة كهذه، يستطيع الإسلام المقاومة بأقل سهولة من المسيحية فى مواجهة النفوذ الماركسى وذلك من واقع لا يميز بين ما هو روحانى وما هو مادى. فالروحانى يجازف بالمرور أسهل من مجتمع يتحول إلى الماديات التقنية وكان فى الأصل مجتمعاً إسلامياً يتحول إلى النظام الشيوعى ولكن لم يحق له قول ذلك ؟ ذلك أن المسيحية كادت تتمكن إجمالاً فى كل مكان من الصمود «قبل» صدمة الثورة الصناعية من مقاومة الانطلاقة العلمية العقلانية العلمانية والتى تغلغت فيها خلال النكريس الطويلة محتفظاً بتوازنه متخلياً عما كان واجب التخلي عنه فقد بدا مجتمعاً متسلحاً إزاء التقنية وأمام العلمانية بل وفى مواجهة

الماركسية ذاتها .

أما للإسلام حيث تتحكم الحياة الدينية فى كل حركة من حركات الحياة فإن التقنيات الماركسية أو غير الماركسية تبدو كطرق من النار عليه أن يعبرها طفرة واحدة حتى يتوقف بحيث يوصف بأنه إحدى الحضارات القديمة البالية ويتوصل إلى تجديد شبابه على صورة مشاعل الزمن الحاضر ويعود الطريق الذى يسلكه الإسلام إليه ويتوقف على العالم المزدوج الذى يهتز ويتقلب كأن ميزان ضخم يتأرجح فى ميله أحيانا إلى جهة وأخرى إلى جهة أخرى ويوشك الإسلام مثله مثل سائر شعوب العالم الثالث أن يتجه لا إلى الوجهة التى يريدتها ولكن فى اتجاه أثقل الكتلتين أو الكفتين .

الهوامش :

(١) ايفيان مدينة فرنسية دارت فيها محادثات الاستقلال بين فرنسا دييجرل والجزائريين الثوار .

حاشية عام ١٩٦٦

يكفى توالى الأحداث التى وقعت فى البلاد الإسلامية ، وحدها فيما بين عام ١٩٦٣ ، وعام ١٩٦٥ لوضع مجلد منفصل إذ تظل على جدول الأعمال ضد المغرب حتى شبه القارة الهندية مجموعة معينة من صور العنف أبرزها النزعة الوطنية وهى بالأحرى ظواهر إرادية تهدف لإخفاء الطابع الاشتراكى فى مجال الاستثمارات البترولية والأعمال الكبرى ضد الرأسمالية العالمية ومثال ما حدث عام ١٩٦٠ / ١٩٦١ فى مصر ويعد تعبيراً دقيقاً عن تلك الظواهر والأحداث يصلح نموذجاً لها كما يشابه ذلك التأميمات التى وقعت فى العراق (١٤ يوليو ١٩٦٤) أو أحداث الصراع والنزاع وسياسة العداء ضد الامتيازات والاحتكارات البترولية فى سوريا (٢ يناير ١٩٦٤) .

أ- تظل الجزائر تحتفظ بمركز النجومية خلال هذه السنوات الأخيرة إذ حصلت على استقلالها منذ اتفاقيات إيفيان^(١) الموقعة بين فرنسا وثوار الجزائر فى ١٩ مارس ١٩٦٢ والاقتراع على الحكم الذاتى وتقرير المصير فى أول يوليو ١٩٦٢ .

واتسمت أولى لحظات الاستقلال بعدد من مظاهر الانفصال والفتن والانتفاضات الثائرة والفوضى واستطاع الجيش الشعبى الذى كان يعسكر فى

المغرب وفي تونس على الحدود في مواجهة الجزائر فرض الأمن واستقراره واستتباب النظام. وقام بن بيلابتشكيل أول وزاراته في ١٥ سبتمبر ١٩٦٢ فاستطاع طوال عام ١٩٦٣ المصنى في الإجراءات الاجتماعية لبرنامج ما سعى باتفاقية طرابلس وأهمها تأمين الأراضي التي أهلها المستعمرون الأوروبيون وإعداد برامج تنميتها على يد لجان إدارية واستندت الحكومة منذ تلك اللحظة على ديمقراطية قروية (من الفلاحين) ظلت تمثل عنصرها الرئيسى في الحكم. ومع ذلك ظلت الصعوبات تترى عديدة من واقع تعميم التأمينات وحركة الرحيل الكبير المكثف من جانب الأوروبيين والنقص البادى فى رؤوس الأموال وجماعات الفنيين المطلوبين. فأثارت الصعوبات السياسية كثيراً من الانشقاقات والاضطرابات الجماهيرية بصورة دائمة مستمرة لا تتوقف حتى بين خلاص ورجال المقاومة السرية السابقة وكثرت الاتهامات والإدانة ورغم كل هذا الخليط من المشاكل بدا بن بيللا وكمين سيطر على مقاليد الأمور. تلك الأمور الصعبة والحاله الخطيرة التى كانت عليها البلاد فانتخب رئيساً للجمهورية فى ١٥ سبتمبر ١٩٦٣ وانتخب فى ١٦-٢٠ أبريل ١٩٦٤ أمينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطنية. غير أن الثورات والاضغوط الاجتماعية والاقتصادية ازدادت تفاقماً وكانت النتيجة: سخطاً واستياء من جانب طبقة بورجوازية بدا فرحات عباس من بعيد أنه قائدها وممثلها ، و ساد جمود اقتصادى صاحبه ارتفاع فى تكاليف المعيشة وازدياد حدة البطالة وزيادة عدد العاطلين واستقر النظام رويداً رويداً بين مختلف القوى ظهر بن بيللا قائداً للجيش وقائداً لجبهة التحرير الوطنية أما على الصعيد الخارجى فقد كانت العلاقات مع فرنسا حاسمة فيما يختص بالمعونات الاقتصادية والثقافية ووافقت فرنسا على تشغيل ما يقرب من نصف مليون من الأيدي العاملة فى فرنسا رغبة منها فى تخفيف حدة البطالة وآثارها.

وأرادت الجزائر أن تبدو محايدة إلا أن هذا الحياد لم يمنعها من قيام عاطفة وأهواء سياسية ودينية واشتراكية وقيام اتجاهات معادية للاستعمار وقبل كل شئ ويظل موقفها من البرتغال بسبب الكونغو البلجيكي سابقاً برهاناً.

وقد بدا في ١٩ يونيو ١٩٦٥ أن سلطة بن بيللا قد تعززت منذ عام ١٩٦٢ ووضح أن كافة أجهزة السلطة والحكم قد تركزت بين يديه بفضل استبعاد الحكام الآخرين الوطنيين الجزائريين ففي ١٠ أبريل حكم على آية بالإعدام لأنه كان قائدا لما سمي بالفتنة المسلحة التي قامت بها القبائل (ثورة القبائل) وإن عدل فيما بعد حكم الإعدام وصدر قرار العفو عنه ثم يحدث تغيير مفاجئ في نظام الحكم إثر اندلاع انقلاب فجر يوم ١٩ يونيو قامت به مجموعة من الضباط يقودهم رئيس الأركان الكولونيل بومدين وكان حتى ذلك الوقت نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للدفاع، وباستيلاء بومدين على مقاليد الأمور اعتقل بن بيللا معه عديد من الشخصيات التي كانت تتصدر مراكز الحكم والنظام.

وأطلق بومدين على مجموعته مجلس قيادة الثورة ويكشف صورة «الطاغية» الذي حيد «اليوم» وإدارته السيئة الفاسدة للتراث الوطني ويضيف بومدين في بيانه ويجب أن نؤكد أنه لاساس بمكتسبات الثورة!!!

وفي ٤ يولييه تعلن أسماء أعضاء مجلس الثورة ويشمل أساساً عسكريين من الجيش القديم ورجال المقاومة.

وفي ١١ يوليو تشكل حكومة جديدة أغلب أعضائها من معاوني بن بيللا، وفي ١٤ يوليو تم توقيع اتفاقية هامة جدا بشأن مشروع هيدروكاربور (لاشك يقصد مشروع الكهرباء من مساقط المياه) وتعد هذه الاتفاقية مدأ للعمل بأحكام وقواعد ملصوص عليها في إيغيان عام ١٩٦٢ ويتكهن مسبقا بنظام جديد للشركات القائمة بأعمال الاستغلال وبصفة خاصة نظم محاسبتها وتنظيم المشاركة الواسعة بين فرنسا والجزائر للتنقيب وإنتاج البترول واستغلاله وتجارته وتسويقه وكان ذلك بمنزلة إقرار نظام جديد تماماً بين بلد نام منتج للبترول ودولة صناعية متقدمة هي من أكبر الدول استهلاكاً لهذه الخامة تم انعقد الاتفاق أخيراً على إنشاء نظام مشترك يهدف إلى تصنيع الجزائر باستخدام أرباح شركات البترول. وكان التوقيع على هذا الاتفاق في حفل أسطوري في ٢٨ يولييه بالجزائر وفتح الاتفاق كذلك صفحة جديدة من العلاقات بين فرنسا والجزائر ولم تتوان الجزائر فيما تلا ذلك من انتهاز كل فرصة لمساندة سياسة ديغول الخارجية وتأييدها.

(ب) المغرب اندلعت ثورة الطلبة والعاطلين في الدار البيضاء يوم ٢٣ مارس ١٩٦٥ قاوها مقاومة شديدة العنف الجنرال أوفقيير وزير الداخلية وفي ٢٨ مارس صدر حكم بالإعدام على أربعة عشر مغربيا بسبب دسائس «سرية» هدامة قاموا بها في العام السابق ونفذ إعدامهم ثم يصدر الحسن الثاني في الثالث عشر من أبريل قراراً بعفو شامل ويتعهد باستشارة كافة الأحزاب للتوصل إلى حكومة وحدة وطنية وتفشل هذه المفاوضات في يوم ٧ يونيو حيث يضطر الملك إلى وضع حد للنظام البرلماني الذي كان قد بدأ إثر الانتخابات الحرة التي أجريت عام ١٩٦٣ وتعلن حالة الطوارئ الاستثنائية ويحل البرلمان ويمنح إجازة ومنذ ذلك الوقت تقلد الملك مقاليد الحكم المطلق دون رقابة ثم يقع اختطاف أحد قادة المعارضة المهدي بن بركة في باريس ليثير أزمة بين فرنسا والمغرب وتعلن فرنسا صراحة اتهامها لوزير الداخلية الجنرال أوفقيير وليحتضن الملك وزيره ويتصدى لتغطية موقفه وتبدو العلاقة بين فرنسا والمغرب كأنما تتعرض للخطر.

(ج) الجمهورية العربية المتحدة

كان في ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ أن وقع كل من ناصر وملك العربية السعودية اتفاقية هدنة لوضع نهاية للحرب في اليمن حيث كان الأول يساعد أنصار الجمهورية على حين يمول الثاني - أي ملك السعودية - كل أنصار الملكية ويسلحهم ولا شك أن الشطر الأكبر من هذه الاتفاقية كان بإيحاء من الدبلوماسية الأمريكية التي بدأت تحقق نجاحا آخر في القاهرة بعد الدستور. كان ذلك في أول أكتوبر كان تشكيل حكومة جديدة برئاسة زكريا محيي الدين ويتبع إعادة المعونات الغذائية الأمريكية لمصر غير أن هذا التطور لم يدم طويلا فتوقف فجأة حيث ناصر رفض مساندة سياسة الولايات المتحدة الخارجية . وتعد زيارة رئيس مجلس الوزراء السوفيتي كوسيجن للقاهرة بمنزلة دخول إيجابي للدبلوماسية السوفيتية في الشرق الأوسط حيث تعلن موسكو عن إعانات واعتمادات جديدة لاستكمال أعمال سد أسوان ثم تكثف بشكل ضخم مساعداتها للجمهوريين في اليمن، وعلى أي حال فقد عادت الحرب تنشب من جديد في ربوع اليمن .

(د) وفى مارس ١٩٦٦ يقع فى سوريا انقلاب تولى به الحكم الجناح اليسارى لحزب البعث ويدخل الحكومة عضو الحزب الشيوعى واثنان من المتعاطفين معه .

(هـ) وفى يونيو ١٩٦٦ يتوفى إثر حادث الماريشال عارف رئيس الحكومة العراقية فيتولى شقيقه السلطة وكان من قبل رئيس الأركان فيوقع بتحريض من الاتحاد السوفيتى وإغراءاته اتفاقا من شأنه فيما يبدو وضع حد ونهاية لثورة الأكراد الناشبة منذ سنوات فى شمال البلاد . كما تمنح موسكو فى الوقت نفسه مساعداتها الضخمة لبناء سد على نهر الفرات .

الجزء
الثاني

القارة السوداء

الفصل الأول

المباحث

الماضى

تتحصّر أو تكاد أفريقيا السوداء أو بالأحرى بلاد أفريقيا السوداء بين محيطين وصحراويين أى بين الصحراء الكبرى فى الشمال وصحراء كالهارى فى الجنوب والمحيط الأطلنطى فى الغرب والمحيط الهندى من الشرق، ولا شك يعد ذلك حواجز ذات شأن سيعا وأن أفريقيا القبلية (ذات الطابع الغالب على سكانها) بصورة غير مريحة على مساحات المحيطات المجاورة فلا هى تتمتع بموانئ جيدة أو أنهار سهلة المزال حيث السيول والمسايط والشلالات وتراكم الرمال عند مصباتها.

ومع ذلك فليست تلك الحواجز عسيرة وعبورها إذ يعج المحيط الهندى منذ زمن مبكر بالمراكب الشراعية بفضل الرياح الموسمية ذهابا وإيابا، أما المحيط الأطلنطى فقد غزته الكشوف الأوروبية العظمى منذ القرن الخامس عشر على حين لا تعلق صحارى كالهارى سوى نصف المدخل إلى الجنوب.

أى إن أفريقيا السوداء مما يستخلص من ذلك إنما انفتحت على العالم الخارجى. على أن من الخطأ أن نتخيل أن مداخل أفريقيا ومنافذها قد كانت كلها مغلقة محكمة الإغلاق على مر العصور فقد قلنا من قبل إن صحراء كالهارى إنما تسد نصف الباب الجنوبى كما كان عبور الصحراء الكبرى واختراقها منذ القدم

حيث اجتازت إليها قوافل الإبل وحيدة السنام مع القرون الأولى من عصرنا وبذلك فازدادت أضعافاً مضاعفة حركة مرور القوافل الصحراوية ونقل الملح ثم الأنسجة من بعد الأقمشة الصادرة من الشمال مع الانتقال بالرقيق من الزنج والتبر الذهب من الجنوب. وكان جلياً أن الطبيعة بسلطانها المطلق لم تكن وحدها فيما تفرض من إرادتها، بل كانت للتاريخ كلمته كذلك.

موقع الأراضى (المكان)

ولا خلاف على أن الحتم الجغرافى لا يهيمن وحده لذلك ندرك من دراسة بسيطة للحدود والتخوم وحواف القارة السوداء أنها ليست سوى جزء من أفريقيا.

ففى الشمال والشمال الشرقى والشرق تقوم الصحراء حاجزا عازلا يفرض حدودا مميزة للعالم «الأسود» أى أفريقيا السوداء كما تذكر تقارير لإحدى لجان السوق المشتركة عن أفريقيا جنوبى الصحراء من حافة البحر المتوسط حتى الساحل السودانى. نجد أن السكان فى هذه المناطق من أفريقيا من سلالة بيضاء ولا شك يجب إلى جانب هذه البقعة من أفريقيا البيضاء إضافة أثيوبيا ففيها عناصر من عرق أبيض لا يقبل الجدل، انصهروا فى مجموعة من السكان الملونين المهجنين يختلفون تماماً عن هؤلاء الأفارقة الزنوج (صفة للأجناس السوداء البشرية) وذلك فضلا عن حضارتهم ومسيحيتهم منذ عام ٣٥٠ الميلادى وصفات غيرهم فى الزراعة التى عرفت من قبل التريبة والتدجين والمحراث البسيط والقمح والكروم فأثيوبيا عالم «خاص» فريد منفصل عن غيره استطاع فيما سلف من أزمنة مقاومة الغارات الإسلامية التى تمكنت من محاصرته كما استطاع هذا الشعب فيما بعد التصدى للقوى الأوروبية التى أرادت عزله عن البحر الأحمر فالمحيط الهندى

ويميل مؤرخو الأجناس إلى الاعتقاد بأن أثيوبيا فى الأزمنة السحيقة كانت تمثل مركزاً ثانوياً لنشر استخدام المحراث والحيوانات الأليفة والتى نشأت فى الهند ويعتقدون كذلك أنه لولا قيام أثيوبيا بدورها الوسيط هذا ما عرف الفلاحون ذو البشرة السوداء تربية المواشى وهو بالنسبة إليهم من أهم المميزات غير المتوقعة



= سدود شيدت سافانا
 او لازالت مشروعات صحارى كثيفة
 اراضى زراعات بحر أو سطحية زراعات رى
 صحارى مراكز صناعية

وهم الذين كانوا يستخدمون فى سابق عهدهم المعرفة وفى الواقع فما من منطقة شاسعة من أفريقيا الشرقية إلا تمثل أثيوبيا منها القلب وممتدة من وادى النيل شمالا عند الشلال السادس وشرقاً حتى المناطق الصومالية الصحراوية وجنوباً حتى كينيا بل وأبعد من ذلك تلك هى أفريقيا الوسيطة اللا بيضاء واللاسوداء بل الاثنان معاً التى تمتلك وكما تمتلك أفريقيا البيضاء أسلوباً للكتابة ولها تاريخ وحضارة مرتبطة بمراكز الإشعاع الشمالية فى موقعها هذا بين قارة آسيا والبحر المتوسط وأوروبا وسنلاحظ أخيراً أن الصحراء تمتد شرقاً من أثيوبيا مروراً بأريتريا وبلاد الصومال أى فى تلك المنطقة الطويلة الفاصلة المقفرة والتى تمثل كذلك حدوداً للقارة السوداء. جنوباً، أحداث تاريخية وقعت وسوف نتصف طويلاً الامتداد الطبيعى لأفريقيا السوداء. فى القرن السابع عشر أراد بعض الهولنديين إقامة مرسى على الطريق إلى الهند، فاستقروا عند الطرف الجنوبى للقارة فى بلد غير أهل عملياً وفى عام ١٨١٥ استولى الإنجليز على هذا الموقع الاستراتيجى وسرعان ما انطلق المستوطنون الهولنديون والبوير (فلاحون هولنديون) مهاجرين نحو الشمال ووصلوا حتى السهول المعشبة حيث أقاموا تربية وتجارة مزدهرة للمواشى وهكذا ورويدا استطاعت أفريقيا البيضاء أن تنشأ فى جنوب القارة كما فى شمالها وكانت ناجحة ومزدهرة ثرية بمناجمها من الذهب والماس وبصناعاتها وخاصة برغبتها فى الدفاع عن نفسها ضد المد الأسمر (مليون من البيض و ١٠ مليون من السكان ذوى البشرة السوداء ومليون ونصف من الملونين خليط وتصلبت جنوب أفريقيا فى سياسة عنصرية ميلوس منها (الأبار تابد التمييز العنصرى) وهى السياسة التى أدت بها إلى قطع علاقاتها بالكومونويلث عام ١٩٦٠ وما هذه المأساة إلا حلقة أو لعلها نوعاً من القطيعة النهائية؟ قد لا تتوقف ولعلها تعجز عن التوقف برغبتها ولكنها لا تستطيع وقف عجلة التاريخ.

ومن الاستثناءات التاريخية جزيرة مدغشقر الكبرى التى يمكن وضعها خارج القارة السوداء حيث سكانها - كما نعرف - عن البيض «البانتوس» القادمين من الشمال فى موجات متلاحقة ومن بين هذه العناصر كان المختلطون أعداداً كبيرة ولكن الجزء الغربى من الجزيرة أكثر احتشاداً بالبانتو وأكثر الجزء الشرقى من

جزيرة ملقا والأغلب من واقع الاستكشافات لرغم نقصها مهجنة ويمكن في خصم هذا المزيج من الأصول والأعراق الأندونيسية والإفريقية توزيعهم بنسبة ١ إلى ٢ حيث الأعراق الإفريقية هي الأغلب.

ومع ذلك نجد هذا الخليط من مختلف العرقيات المختلفة وحدة ثقافية، تمنح الأقلية نوعا من الميزة ونقصد بها الأقلية ذات الأعراق والأصول الأندونيسية حيث تمتلك الأساليب الزراعية الفنية والحرفية وكلها مميزات لا جدال أندونيسية الجذور من حيث إتقان استصلاح الأراضي بالنار واستخدام المعازق ذات الأيدي الطويلة وغمر حقول الأرز وزراعة القلقاس والأزليام، وهي نباتات معمرة، والموز وتربية الكلاب والخنازير السوداء والدواجن والطيور وصيد الأسماك بالعنبر (نوع من الحيوانات الثديية البحرية) والصيد بالسلحفاة والعصى الطويلة وصيد الوحوش والحيوانات بالرماح والأنابيب والسبطانة والمقلع وجدل السلال وتضفير السجاد والحصائر وكلها حرف يتقنونها. وكانت السجاد والسلال والحصائر (جمع حصيرة) تمثل أسس تأثيث المنازل ولا شك جاء هؤلاء الملاحون من الشمال ولم يجيئوا عن طريق رحلات تتبع خطوط مستقيمة والدليل وإن كان هشا وهو دليل على كل حال أن جزر الأرخبيل بالمحيط الهندي ويضم جزر موريس والريونيون وروندنج.

كانت حتى القرن السابع عشر أراضي مهجورة خاوية في حين كان من الممكن والجائز أن تكون الطرق الطبيعية، الاضطرابية، رحلات في خط مستقيم بشرط سلوكها بحراً بين الأنسولند وجزيرة مدغشقر^(١).

وباختصار فإن تاريخ وحضارة المحيط الهندي هما اللتان ألحقنا الجزيرة الكبيرة وانتزعاها من القارة الأفريقية وإليها إلا أن موقعها إلى جوار القارة قد أسهم اليوم في ضم مصيرها وإحاقه بمصير جمهورية مالايا^(٢).

ولفهم العالم الأسود نجد أن الجغرافيا تتفوق على التاريخ فالحدود الجغرافية هي السمات الأكثر تعبيرا والأكثر دلالة، وعموما فهي ليست الوحيدة التي يمكن حصرها. ويفسر لنا المناخ تتابع تلك المساحات الشاسعة من المناطق المليئة بالأشجار والأعشاب التي تضم أنواعا من الحياة مختلفة اختلافات ضرورية لا إرادية فنحو الغرب نجد الأمطار الاستوائية التي تظل في مواقعها مكونة تلك الكتل

الضخمة من الغابات البكر الكثيفة وتشبه الغابات الأمازونية أو الأندونيسية التي تمتد حتى خطوط عرض مشابهة إنها تلك التي يطلق عليها الغابات الإسفنجية (المتفخة) المعمورة بالمياه الكثيفة المرتفعة المليئة بالأشجار العملاقة وكذلك ما يليها من أشجار قصيرة متشابكة في صمت وظلام تفادى أى عمار بشرى بل تعوق حركة التنقل خارج نطاق التنقلات والانتقالات التي تجرى باستخدام مياه الأنهار، وهى منطقة حياة بكر منعزلة يعيش سكانها على القلص وصيد الأسماك إنها المأوى الممتاز حيث يعيش الأقزام من سلالة النيجريل الذين عاشوا فى غابات وصحارى أفريقيا الاستوائية وهم بلاشك أوائل سكان قارة أفريقيا - وهذه الغابة تكتمل أكثر فأكثر شمالاً بأفضل مما تنمو جنوب خط الاستواء وتحيط بخليج عينيا على جانبها الشمالى ومن ليبيريا حتى الكامبيرون . وبها قطاع أوسط تنمو بها أشجار عشب كثيف ومهول بها زراعات النخيل من داهومي الجنوبية حتى الشرق إذ تنوق حتى حوض الكونغو عند حواف تضاريس أفريقيا الشرقية العالية وصول الغابة الكبيرة تمتد بصورة اندفاعية نحو المركز حيث تجمعات الغابات الاستوائية الجافة أكثر فأكثر نحو السهول ذات الأعشاب المشجرة العالية على طول مجارى المياه وأخرى جرداء وأخيراً السهوب

كما أن هناك منطقتين تتميز إحداهما عن الأخرى وتتعاقب عليهما فترات الأمطار وفترات الجفاف فيصاحب الأولى تربية المواشى على حين لا يمكن فى الأخرى عمل شيء خلالها بسبب ذباب التسي تسمى المسماه ذبابة النعاس وتزدهر مواسم الزراعة بالنباتات المعمرة ذات الدرنات النشوية والذرة والأرز وتعد أغلب هذه المحاصيل للتصدير ثم القطن والفول السوداني والكاكاو دون أن ننسى نخيل الزيت من أهم محاصيل نيجيريا بالذات ويدر عليها أرباحا وثروات ضخمة ومن الواضح أن التقسيم الأكبر بين نوعين من الحياة الريفية للقرويين مع حيوانات أليفة وبدونها وأن المنطقة الخارجية باتجاه كل من الشمال والشرق حيث تمارس تربية المواشى هى بالتالى الأكثر ثراء والأكثر توازناً والأكثر انفتاحاً كذلك على العالم الخارجى ومنذ عهد طويل . وكانت مسرحاً لكثير من أحداث التاريخ .

ومع هذا التقسيم للمكان تتطابق وتتوالى المناطق العرقية ومن بينها الأفارقة الميلانو ذوى البشرة السوداء .

ومن الحكمة ألا نعتقد لحظة واحدة أنهم من سلالة واحدة بل ينقسمون إلى أربعة أعراق وأصول مختلفة: الأقزام وهم بقايا سلالة متأخرة جداً أجبرتها الظروف على التوحش ولا تكاد لغتهم تتضح وتفهم ويعيشون على حافة صحارى كالهارى: المجموعات القليلة العرقية الهوتنتوت والبوشمى والشعوب السودانية من دكار حتى أثيوبيا والبان্তু وأكثر هذه المجموعات عددا هم السودانيون وقبائل البان্তু ذلك أنهما قبل كل شيء متحدان فى اللغة والثقافة ومما لا شك فيه أن قبائل البان্তু من أصول أفريقية البحيرات الكبرى وجذورهما واحتفظت قبائل البان্তু بنوع من التماسك أكثر من السودانيين إلا أن كلا منهما يتم عن اختلافات عميقة تعود إلى التحولات التاريخية والاختلافات البيئية ويجب بالنسبة للسودانيين كذلك إثارة قضية الشعوب الإسلامية السامية بفضل تسرب شعوب جزر موريس وشعوب البربر المسلمة رعاة الأغنام الذين ازدادوا حضارة كلما زادت تنقلاتهم إلى خارج حدودهم. ولقد تعرفت كل تلك القبائل والشعوب المختلفة لأنواع عميقة من التجارب الانصهارية بسبب عديد النزاعات والتحركات والهجرات وغزوات البعض ودفع الآخرين وطردهم ومن هنا ولهذه الأسباب نجد هذا المزيج الغريب من التوترات والضغط التي تحدث كثيرا فى ربوع هذه القارة السوداء ذلك أن تعمير هذه الأراضى قد وقع فى الأزمان الغابرة ووقع بالأمس القريب من قبل تلك الموجات المتدافعة إذ تدفع إحداها الأخرى أو ترددها حسب مقتضيات الظروف، ولهذه الأسباب التى أملت الطبيعة لا تجد حتى اليوم شيئا مستقرا وليس عسيرا على أى محقق واع يسعى إلى معرفة حقائق موجات الهجرات وتواريخها واتجاهاتها وسرعة الانتقال والتبرحال من موقع إلى آخر ذلك لأن من النادر أن نجد قبيلة لا تعرف جذور مؤسسها وأصوله وستجد أكثر النزاعات فيما بين خط ١٢، ١٥ من خطوط العرض شمالا حيث تقيم الشعوب السودانية ولا أول مما تفصح عنه هذه الشعوب (الجنس الزنجى الأول) وجذورهم البدائية القديمة حيث تعيش على القنص، وجنى الثمار كما تضم جماعات من الفلاحين الحريصين على إخصاب الأرض وتسميدها وهى فى الغالب أراضى جبلية فقيرة تتخللها قطاعات قليلة من البساتين لا تكاد تقيم أود خمسين فردا على الأكثر لكل كيلو متر مربع وكان الناس يختارون محال إقامتهم فى مواقع يسهل الدفاع عنها من الجهات الغازية.

كان ذلك مصير شعوب من قبائل الدوجون القادمة من أقصى الشمال ذات الجذور الأعمق مما سواها من الشعوب الأفريقية العارية من أمثال قبائل كونييا جيوس وقبائل البشارين من غينيا وقبائل البوبوسى وقبائل اللويس من ساحل العاج وقبائل النانكاس من غانا الحديثة وقبائل كابريتى وقبائل سامباس من كل من توجو وداهومى وقبائل فابس وأنجوس من نيجيريا وكلها تجمعات عرقية صغيرة .

ومن الأفضل فيما يختص بالمواقع المكانية فيما بين الغابات الاستوائية والصحراء ذكر أسماء قبائل التدكو لدر أى كل الألوان وقبائل المانديجز وقبائل البيمباراس وقبائل الحوصة اليوريا وقبائل الأيبوس ومن القبيلتين الأخيرتين تتألف أكثر الكتل كثافة من سكان نيجيريا وهى البلد الثرى الأكثر إعماراً فى كل أفريقيا السوداء ولكل من تلك القبائل والأجناس أسلوب حياتها المختلف وكياناتها الاجتماعية ومعتقداتها وثقافتها وتختلف كذلك الواحدة عن الأخرى وكذا المزيج المتنوع الذى يعطى الأهمية لأفريقيا حيث تتبدل التجارب والمصائر واضحة متعددة بلا توقف، وبالتالي فقد كان طبيعياً ومنطقياً أن تنشأ الصعوبة فى توحيد مصير هذه الشعوب القبلية فى بوتقة واحدة .

ونجد أحيانا كثيرة مناطق اللجوء الملاذى التى يقطنها الأهالى (أى المناطق الآمنة) وفى خضم ما يعترضهم من نزعات للمقاومة فهم لا يتقبلون «أية سلطة، نفد عليهم من الخارج إلا أنهم يجدون أنفسهم يجاورون عواصم حضرية من مدن متقدمة وعصرية السمات وأكثر أخذاً بالأساليب الحديثة .

ويمكن القول بإيجاز أن هذا الخليط المتنوع من ألوان البشرة من الأسود الداكن للسودانيين إلى الفاتح الأقرب إلى الاصفرار لقبائل الهوتنتوت البوشمن ليس هذا الخلط المتنوع من ألوان بشرة الجلود سوى علامة مميزة للأجناس البشرية الأنتروبولوجيك (الأجناس البشرية) والطبيعة العضوية وظائف أعضاء الجسم لسكان مواقع ومناطق جغرافية لمجتمعات بشرية وهى تنوعات وتعددات ترجح من حيث الجوهر والأساس على ألوان البشرة .

وقد عانت هذه القارة ولا زالت تعاني أزمت عديدة من القحط كما عانت وتعانى من أسباب الضعف الجماعى الشديد . وليس من السهل تعدادها كلها

تفصيلاً بل ولا كيف كانت تلك الأزمات عبر العصور ثقيلة أو خفيفة وكيف نشأت وكيف انقضت وقد سبق أن أوضحنا مساوئ انفتاح العالم الأسود على الخارج وهو انفتاح يمثل عبئاً حقيقياً إذ أن كل تقدم حضارى إنما يأتى عن تدخلات وعلاقات من حضارة إلى أخرى يفسر ويبين هذا السياج النسبى فجوات وثغرات هامة لم تسد ولا زالت من قبل وصول الأوروبيين وإقامة المستعمرات الكبرى، ونلاحظ على سبيل المثال غياب العجلة المحركة. والمحراث وحيوانات حمل الأثقال والكتابة باستثناء أثيوبيا وهى لا تعتبر على أى حال جزءاً من قارة أفريقيا السوداء ما عدا البلاد التى دانت بالإسلام مبكراً على الساحل الشرقى للبلاد السودانية فإن الكتابة تعود إلى الإسلام.

تلك الأمثلة كفيّلة وحدها بأن تثبت غالباً أن النفوذ الخارجى لم يتسلل إلا قطرة قطرة نحو قارة أفريقيا الشاسعة جنوب الصحراء.

وذلك فضلاً عما أثير كثيراً أن المسألة لم تحسم على الإطلاق فى أحقاب نفوذ مصر الفرعونية على المجتمعات السوداء فقد اكتشفت أحجار من زجاج اللؤلؤ فى الجابون وتمثال صغير للإله أوزوريس (أوسير) فى مدينة مالونجا فى الجنوب الشرقى من الكونغو البلجيكية السابق وتمثال آخر جنوب نهر زامبيزي.

وكلها براهين مع ضعفها إنما تفتح المجال على كل حال لاحتتمالات ولوج الفراعنة هذه الأراضى حيث تركوا على الأقل آثارهم فى الفنون والتقنيات الأخرى كالسباكة وتذويب المعادن بل يجب على العكس أن نعترف أن وصول النباتات الخارجية مثل الأرز من الشرق الأقصى والذرة وقصب السكر والمانيوك، نبات النشا، وهى لا شك مقتنيات وردت فى عصور متأخرة وهى بعامة ليست من إنتاج القارة السوداء القديمة بل الأرجح كانت تجهلها وهناك أيضاً من مظاهر الضعف الأخرى وتشمل رقعة سمك الأراضى الصالحة للزراعة حيث أغلبها (صلبة أحمر اللون) ويدل اللون الأحمر الصارخ على أرض تصلح للحرث وهى وعادة كثيفة لولا ضآلتها وقتلتها فضلاً عما يؤدى إليه المناخ من قلة الأيام الملائمة للزراعة ثم نقص اللحوم فى التغذية حيث يبدو كأنما حرمت منها الجمهرة الكبرى من السكان لا يذوقها الأهالى فى أغلب التجمعات القبلية إلا فى الأعياد والأعياد

الكبيرة وحيث يحتفظون بقطعان الماعز والخراف التي يربيها المزارعون الكيكايوس من قاطنى كينيا فى بعض الأراضى البور حول حقولهم للتضحية والحفلات ذات الطابع العقائدى ويعيش جيرانهم من البدو الرحل ورعاة الأغنام على منتجات قطعانهم من الماشية لولا أنها غالية نادرة لذلك يحافظون عليها ولا يذبحونها وتقدر اللحوم المشتهة التى تغطى القوة والبأس فى كل مكان.

ويعبر عن هذا الوضع أغنية الملحمة الشعبية من أغانى الأقزام عند قيامهم بالفنص: لا أحد يعبر الغابة سواك.

يا صياد قم واتعس فلباسك انزلق، اجروا قفز

فاللحوم أمامك، اللحوم الضخمة المفرحة

اللحمة التى تمشى كالتل

اللحمة التى تفرح القلب

اللحمة التى سوف تحمص بيتك

اللحمة حيث تتغرس فى أسنانك

اللحمة الجميلة الحمراء والدم الذى نشره (يغلى).

ومع ذلك يبقى علينا ألا نأخذ بكشف الحساب السلبي هذا، إذ حققت أفريقيا السوداء مظاهر تقدم قديمة فى زمن قصير سريع بل يفوق بمراحل مظاهر تقدم أوروبا القديمة فعلى سبيل المثال نجد وفى وضوح تاما باهرا فى مجال الفن لا فى روائع البرونز والعاج من بنين فحسب (القرن الحادى عشر، القرن الخامس عشر) بل ومن منتجات أقل شهرة من أقمشة منسوجة من مختلف الألياف النباتية كما عرفت أفريقيا ومارست أخيرا وفوق كل شىء عمليات استخراج المعادن منذ زمن مبكر جدا يمتد ٣٠٠٠ قبل الميلاد بالنسبة للحديد ولذلك فمن غير المعقول أو المنطقى الادعاء بأن الأفارقة لم يعرفوا الحديد إلا بعد وصول البرتغاليين من كاب بوجادور والأسلحة النارية الحديدية فى زمن مبكر جدا ومن المقطوع به أن تحسينات أدخلها سكان روديسيا على أساليب استخراج المعادن منذ القرون الوسطى

وكان خام التصدير معروفاً احتمالاً في بلاد نيجيريا العليا منذ ألقى عام (٢٠٠٠ عام). وأخيراً تذكر تفصيلاً له دلالاته إذا ما نحينا الإعداد والتنظيم إذ نجد في مجتمعات السود طبقات من الأهالي قوية ماهرة من الحدادين لاشك ينتمون إلى تقاليد سحيقة القدم.

عبر ماضى القارة السوداء

ليس يعرف الماضى الطويل الذى مر بأفريقيا تماماً شأن الشعوب التى لم تعرف الكتابة فتاريخ تلك الشعوب لا يصلنا إلا عن طريق نواتر شفهى واكتشافات علماء الآثار حيث تجيء الشواهد مصادفة. وعلى الرغم من ذلك تبرز من هذا الماضى الغامض ثلاث مجموعات من الأحداث .

(أ) بزوغ المعدن والممالك والإمبراطوريات وكلها حضارات دماء مختلطة (خليط من دماء).

(ب) تجارة الرقيق التى أخذت أبعاداً شيطانية جهنمية مع مستهل القرن السادس عشر وبداية ازدهار القارة الأمريكية بعد اكتشافها وقد كان نجاح أوروبا منها مهمة شاقة جداً.

(جـ) وأخيراً الاستقرار الوحشى العنيف لأوروبا والقوى الأوروبية انتهت فى مؤتمر برلين ١٨٨٥ الوضع بالاتفاق على تقسيم الأراضى المتبقية بدون سيد نظرى، يسيطر عليها من كل ما تبقى من القارة الفسيحة المجهولة والغير مطروقة حتى وقتئذ وأصبحت منذ ذلك التاريخ مستعمرة كلها.

والتاريخ فى أفريقيا السوداء لم يساند ظهور الأشكال السياسية والثقافية الممتازة إلا فى المواقع التى كانت فيها من جهة تلك الموارد المشتركة من زراعة

وتربية مواشى وفيها من جهة أخرى مسالك اتصال بالعالم الخارجى أى بطول
حواف شواطئ المحيط الهندى حيث الإمبراطوريات القديمة والمدن المزدهرة
القديمة.

وهنا تظهر لنا أفريقيا ذات سمة خاصة معروف ماضيها ولو نسبيا بمجتمعاتها
وثقافتها منتظمة فى أمم فى مواجهة قارة أفريقية صناعية نجلها تاريخياً وأما
أهل القارة «الوطنيون» من سكان الصحراء على سواحل الأطلسى. وقد قال فيهم
بازدراء مستكشف برتغالى: «إنهم حتى بغير ملك» ويعنى ذلك إن أن هناك
أفريقيا ذات ملوك عرفناها نسبياً فى التاريخ وأفريقيا إحدى أتى عليها النسيان ومن
ثم نمت أفريقيا السوداء على حقبتي الأولى: إذ قدر لها أن تدخل فى اتصال
بالإسلام ولم يكن اتصالاً سلمياً أو هادئاً أو مقبولاً دائماً، إذ كان نوعاً من الاستعمار
على أن أفريقيا السوداء مع هذه السمة الاستعمارية قد تمكنت من التنفس على
الخارج والتعبير عن ذاتها فالفترات التى لمع فيها الزمن للساحل الشرقى لأفريقيا
خلال قرون العصر المسيحى إنما كان حين الاتصال مع الأمة العربية (أى
الحجاز) وشبه جزيرة الهند ومع ذلك فمع الانتشار الأول للإسلام فى القرن السابع
انطلقت موجات الاتصال المتوالية من جهة مع المملكة العربية وممالك الفرس
ومع أفريقيا الشرقية من جهة أخرى كما نشأت مواقع تجارة وتبادل بضائع منذ
عام ٦٤٨ فى مقديشو، سوفالا وميلند - ومومباسا وبراغا وزنزيبار التى أسسها
عرب جنوب شبه الجزيرة العربية على حين أنشئت كيلفا فى القرن العاشر أسسها
قوم من شيراز من بلاد الفرس واسمها يقال لهم الشيرازيون وقد عرفت كل هذه
المدن بصفقات تجارية كبرى وحركة تبادل سلع وبضائع بسبب تجارة الرقيق
والعاج والذهب وكانت السلعة الأخيرة وفيرة فى الموقع داخل سوفالا حيث وجدت
آثار لبعض الجغرافيين العرب كالمسعودى ٦١٦ وابن الوردي ٩٧٥ ويبدوا أن
مناجم الذهب وغيرها من المناجم كانت تقع فوق هضبة ماتا بيلييه بين الزامبيز -
وليمبويو - وبلا شك وبالرغم من ذكر نقيض ذلك فلا بد أن كانت هذه المناجم تقع
فى منطقة الترانسغال الحالية (إحدى مقاطعات جنوب أفريقيا) والمقصود بخام
الحديد هو تبر الذهب وكتله أيضاً وكانت تلك التجارة كلها فى أوج نشاطها فى
مواسم الرياح «الموسمية» مع بلاد الهند حيث يجىء الحديد والأقمشة القطنية.

ولم يكن فى هذه المدن سوى أقلية صغيرة من المستوطنين العرب والفرس وترتكز فى معيشة أهلها مع الاتصالات مع شبه القارة الهندية والمملكة العربية وقد ازدهرت تعاملاتها ومبادلاتها التجارية فى القرن الخامس عشر، على أن اقتصادها فى ذلك الوقت ظل بدائياً شديداً ما أسسه على الأقل «المقايضة» فى مجال التبادل التجارى مع داخل البلاد الأفريقية التى حققت فى الأخرى الاستفادة من هذا النوع من المبادلات التجارية، ولأنك أن هذه الاتصالات قد أتاحت الفرصة لرسوخ بعض النظم الأولية فى السياسة والتنظيمات السياسية مثل مملكة مونوموتابا فى جنوب روديسيا والاسم مشتق منونين موتابا وكان سيداً على المناجم شهوراً أكثر من مجرد معروف بلاشك وفى القرن السابع عشر دمره المامبو ملك قبائل الرندى.

ونتساءل هل وجهت إقامة البرتغاليين فى المحيط الهندى بعد رحلة فاسكو داجاما (١٤٩٨) ضربة قاتلة للمدن التجارية على الساحل الجنوبى الأفريقى؟

لم يحدث شئ من ذلك حيث يثبت الواقع حالياً أن تلك الحاضرة المشتركة خليط نصفه عربى ونصفه أفريقى واستمرت تسطع نحو الداخل ولم تحاول المدن الساحلية إخضاعها لسيطرتها وقد ظهر أنها من إطلال سواحل كينيا وتنجانيقا وكنا حتى الأمس القريب نرجعها إلى القرن الوسيط إنما تعود فى الواقع إلى القرن السابع عشر والثامن عشر بل إلى القرن التاسع عشر كذلك ولنذكر من التفاصيل واحدة لها دلالتها قبل الانتهاء من هذه الفقرة عن هذه المدن ونقصد بها أن أهلها كانوا يشتركون جميعاً فى استعمال أوانى من الخزف الصينى الأزرق والأبيض.

وانتقلنا من إمبراطوريات منعطف مجرى النيجر إلى نحو حدود ثقافية أخرى مع الإسلام وهى فترة كانت مع اضطرابها ذات ازدهار ونجاح مثمر. ولقد سبق القول إن الاتصال مع المدن الساحلية والمبادلات التجارية مع مدن الصحراء.

١ - اتخذ أبعداً كبيرة وازدهاراً فى مستهل العصر المسيحى وبعد وصول الإبل وحيد السنم إلى شمال أفريقيا والمناطق الصحراوية وصعود تجارة خام الذهب وتبره والرقيق. وقد أحدثت القوافل وزيادتها وتعددتها أثراً بالغاً تمثل فى تعديت من جانب غارات أفريقيا البيضاء (الحامية السامية) على أراضي السكان السود «بلاد السودان».

ويبدو أن أول الإمبراطوريات إنما نشأت حوالى عام ٨٠٠ (غانا) فى تاريخ معاصر لتاريخ شارلمان وعاصمتها غانا ومعناها الثراء والغنى وتقع بين كرمبى صالح على بعد ٣٤٠ كيلو مترا شمالى باماكو على حدود الصحراء هل أنشأ هذه الإمبراطورية ذو البشرة البيضاء القادسين من الشمال؟ ربما كان ذلك وهذا احتمال قائم على كل حال إذ سرعان ما دخلت ممتلكات قبائل السوفنك وهم نوع من شعوب الماندو. وقد هاجم المسلمون العاصمة واستولوا عليها ودمرت عام ١٠٧٧ ولكن تجارة خام الذهب وتبره من مناجم السنغال والنيجر العليا (أى أعالي نهر النيجر) استمرت وترسخت.

وسرعان ما بزغ نجم إمبراطورية أخرى هى إمبراطورية مالى وامتدت حدودها بطول ضفاف نهر النيجر تحت حكم الخانقان موسى من عام ١٣٠٧ حتى عام ١٣٣٢ الذى حج إلى مكة وقد تدفق عدد كبير من التجار والمثقفين وصارت مدينة تومسيوكتو عاصمة تشع أضواؤها حيث يتجه أفراد القبائل الرحل من الطوارق وقد استولى هؤلاء فيما بعد على المدينة وساهموا فى تداعى الإمبراطورية وسقوطها ثم انطلاقة أخرى نحو الشرق حيث ازدهرت أوضاع إمبراطورية سونجهاى عواصمها جوا وتبكتو حظيت بميزة ارتباطاتها مع برقة بفضل مآثرسونى على ربما يقصد (السنى على أو على السنرى) ١٤٦٤ - ١٤٩٢ ويعد من أقوى الشخصيات التى أنشأت الإمبراطوريات ولم يكن هو نفسه مسلماً بل كان مسيحياً خالصاً إلا أن هزيمة وريثه على يد الغاصب محمد دسكيا سجلت انتصار الإسلام الفاصل فى تلك الإمبراطورية الوليدة.

وعلى أى حال فقد ولى العصر الذهبى للإمبراطوريات النيجيرية حيث جذب اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى الذهب ليتدفق من مناجم بلاد السود نحو الأطلسى وعلى الرغم من عدم إلغاء طريق التجارة عبر الصحارى إلا أن هذه الطرق الصحراوية قد أصابها الوهن وضعفت ضعفاً شديداً. وفى إطار هذا الانكماش يقع غزو رسمبكتو وتنهار إمبراطورية السونجهاى (السنغاي) مالى عام ١٥٩١ إثر حملة مغربية يقودها بعض المرتدين من (أصول أسبانية ولاشك يرجع إلى انتصارهم اللقب الذى أطلق على سلطان المغرب مولاي أحمد المنصور) أى الذى حقق الانتصار والذهبي، ولم تدم فترة الزهو طويلاً فانتكست إلى خيبة

الأمل بالنسبة لأبطالها الذين كانوا يعتقدون أنما يخرجون فى غزوة أسطورية إلى بلاد مناجم الذهب حيث لم يستطع السلطان الاحتفاظ بسيادته المطلقة إلا فترة وجيزة وذلك سيادة شكلية وقائية على هذه البلاد الفقيرة حيث تتوالى عليها من ١٦١٢ إلى ١٧٥٠ مالا يقل عن ١٢٠ باشا مائة وعشرون باشا كانوا بمنزلة دمي فى أيدى جنود الحاميات المغربية إذ أقصاهم جنودها واحداً تلو الآخر أو تخلصوا منهم كلهم عند الضرورة. وفى القرن الثامن عشر تقاسم السلطة فى البلاد النيجيرية كل من البدو الرحل وقبائل البامباراس من سيجو ومن كارنا (ربما يقصد الخارطة) أو ربما يقصد الكعرتة وزال عصر الإمبراطوريات الكبرى وإن بقى ودام طريق التجاره الثرى عبر الصحراء حيث أثار وضغط ووطد أركان سلطانهم المبكر المتألق ولقد ماتوا معه، وما ينبغي أن نخدعنا هذه الدول الكبرى فقد كانت استثناءاً فلم تعرف الدولة العادية فى أفريقيا السوداء الازدهار إلا فيما ندر كدولة بنين التى عرفت الازدهار منذ القرن الحادى عشر ووصل فى القرن الخامس عشر إلى نوع من عصر الاتقان الفنى إلا أنه كان ذا مدى متوسط وهو أساساً ثغرة أسبئ تنظيمها عبر الكتل الصحراوية الاستوائية الكثيفة حيث تشملها الرياح المعطرة فيما بين مياه الخليج الغنى والهضاب الداخلية وهى تقع فى بلاد اليوروبا من دلتا نهر النيجر فى موقع مدينة لاجوس الآن وفى منطقة أضيفت عليها الحضارة المدنية فى زمن مبكر جداً وتفوق شهرتها مساحتها إذ تميزت عن غيرها بالدخول فى اتصال مباشر مع طريق الشمال مع تجار القاهرة الأثرياء وفنانيها وكذلك تميزت فيما بعد باتصالها بالبرتغاليين بأن صارت مركزاً فنياً مدهشاً فى نحت العاج وصهر البرونز ويعود هذا النجاح الذى يثير الدهشة كما قال بول ميرسييه إلى أسباب كثيرة منها ماتثير قضية كثافة السكان فى بلاد يوروبا عامة وبنين خاصة وبنيانها الحضارى وأخير ما يسمح به مناخها وجوارها من غينيا والاعتماد على موسمى أمطار ووقوعها أخيراً فى مسارين للشمس، باختصار محصولين اثنين بدلا من محصول واحد كل عام.

كما أن تجارة الرقيق مرت بواقع أساسى مع بداية القرن الخامس عشر وأكثر من ذلك مع القرن السادس عشر وعلى الرغم من التحريم الرسمى لها فقد استمرت فى شمال الأطلنطى حتى عام ١٨٦٥ تقريبا ثم فى جنوب الأطلنطى فيما بعد وأخيرا استمرت تعبد الطرق المؤدية نحو الشرق إلى البحر الأحمر. ولم تكن تجارة

الرقيق اختراعاً أوروبياً شيطانياً ذلك أن الإسلام كان أول من مارس هذه التجارة في زمن مبكر مع أفريقيا السوداء فيما بين النيجر ودارفور وعن طريق مواقعه التجارية في أفريقيا الشرقية ومارسها بحارة جملة وهو ما اتبعته أوروبا ولجأت إليها فيما بعد بسبب نقص الأيدي العاملة لأداء مختلف الأعمال الشاقة غير أن تجارة البشر كانت ظاهرة عامة من مظاهر البشرية المبكرة ولم يخترع الإسلام المتشيع الجيد للرق تجارة الرقيق فقد تركت تجارة الرقيق وراءها عديداً من الوثائق في سجلات أوروبا التجارية في سجلات العالم الجديد^(٣) حيث يمكن استخراج إحصائيات مستويات أسعار، وما تارخ تجارة الرقيق هذه والمؤيدة بالوثائق الرقمية إلا قصة كريهة في ذاتها وعموماً فهي ليست قصة تجارة الرقيق بأسرها إلا بمنزلة إجراء ضروري.

ففي القرن السادس عشر وصل مجموع ما وصل من الرقيق سنوياً رقماً يترواح بين ١٠٠٠ (ألف) وألفين وفي القرن الثامن عشر رقماً بين عشرة آلاف وعشرين ألفاً سنوياً ووصل الرقم إلى أعلى مستوى في أعوام القرن التاسع عشر خلال أواخر أعوام السماح المحتمل ووصل إلى ما يقرب من ٥٠ ألفاً كل عام وليس هذا الرقم دقيقاً وغير مؤكد وكذلك الحسابات الإجمالية التي يمكن الارتكاز عليها والتعرض لها بهدف تقدير الرقم الإجمالي لعدد السود الذين رحلوا إلى العالم الجديد.

أما الرقم الإجمالي كما ذكر بـ رينشون وهو حوالي ١٤ مليوناً وهو بلا شك رقم أكبر مما قدره عام ١٨٤٢ مورو روجونس وحدده بانثي عشر مليوناً وأقل من الرقم الذي حدده أخصائي الشعوب كارل سامندرز الذي يميل إلى تقديره بعشرين مليوناً من الرقيق وهو رقم غير دقيق بلا شك إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه قدر متوسط ٦٠ ألفاً من الرقيق كل عام من أعوام القرون الثلاثة والنصف من ١٥٠٠ حتى ١٨٥٠ وهو رقم لا يتناسب مع إمكانيات وسائل النقل ويجب أن نضع في الحسبان كذلك تلك الخسائر في الأرواح وكانت كبيرة لوقوع السفن في الأسر أو عمليات النقل التي كانت تجري في ظروف شديدة الوطأة ورحلات شديدة الخطورة محفوفة بالمخاطر وعلى العموم كان نزوح الرقيق من قارة أفريقيا السوداء فاجعة وكارثة بشرية بالنسبة لها مما أتاح الفرصة لابتزاز الإسلام بانفراده بالادعاء بالبعد عن الرق ووصل الأداء إلى قمته حوالي نهاية القرن الثامن عشر

حين كانت القوافل القادمة من دارفور تصل إلى مشارف القاهرة محملة بما بين ١٨ إلى ٢٠ ألفاً من الرقيق فى مرة واحدة وفى عام ١٨٣٠ كان سلطان زنزيبار يجبى رسوماً (جباية) على ٣٧ ألف رقيق سنوياً (من العبيد) وفى عام ١٨٧٢ يغادر عدد يتراوح بين ١٠ آلاف و ٢٠ ألفاً من العبيد سنوياً، ميناء سواكن متجهين إلى المملكة العربية فتجارة العبيد الإسلامية تعد إذن من النظرة الأولى أكبر حجماً من تجارة العبيد الأوروبية وتسبب أحد الرحلات البحرية عبر مياه المحيط الأطلنطى فى وقتها والحد منها وسعة السفن المحدودة ثم وانطلاق إعلان إلغاء تجارة الرقيق فى عدة مناسبات وفترات عديدة خلال القرن التاسع عشر مما يؤكد أن تجارة العبيد استمرت على الرغم من التجريح والتجريم والصعوبات التى كانت تواجه المهرين.

وفى عام ١٨٧٧ قدر ف. ل كامبيرون هذا الرقم بـ ٥٠٠ ألف هى القيمة الفعلية لخسائر الإسلام وأردف يقول: إن أفريقيا تنزف دماً من كيانها كله ولا يمكن تقبل هذا الرقم الهائل إلا بمواجهة ما يقابله من أرباح غير أن تجارة العبيد كانت ذات أبعاد قصوى أما الخسائر فى عدد سكان القارة فكانت خسائر فادحة وذات أبعاد مخيفة شنيعة.

والسؤال الذى يطرح نفسه كيف عالج الشعب الأسود هذه الكارثة أو كيف وازنها؟ عالجها ووازن آثارها بنمو ديمغرافى فى عدد السكان ففى عام ١٥٠٠ كان عدد السكان بين ٢٥, ٣٥ مليون نسمة بما فيها أفريقيا. السكان من بيض البشرة.. قدر العدد برقم تقديرى يصل إلى ١٠٠ مليون على الأقل وإذن وعلى الرغم من نزوح العبيد فقد وقع تطور ديمغرافى فى زيادة عدد السكان ولا شك أنها إنسانية فى نمو مستمر تلك التى تحملت أعباء تجارة الرقيق البشعة ولنعترف دون مبالغة بالقول أن تجارة العبيد الأوروبية توقفت فى ذات الوقت الذى لم تعد فيه أمريكا فى حاجة ماسة إليهم وتم استبدال العبيد السود فهجروا من أوروبا مع بداية منتصف القرن التاسع عشر إلى أمريكا الجنوبية. ومن الحقائق الثابتة لاشك وتعد إبراءً لذمة أوروبا بالنسبة إلى العبيد السود بفضل المشاعر الغاضبة التى اجتاحت الممالك الأوروبية وأدت إلى بزوغ حركة ويلبير فورس فى إنجلترا منادية بتحرير السود وإلغاء تجارة الرقيق ودون ميل إلى وصف أى من تجارتي العبيد سواء فى نزوحهم

نحو قارة أمريكا أو نزوحهم إلى البلاد الإسلامية، وهل هذه التجارة أكثر إنسانية من تلك فلا بد من الاعتراف بالواقع السائد حاليا في ربوع مدن القارة الأمريكية وهو قيام أصول عرقية نمت وتنمو ودامت حتى يومنا هذا في شمال أمريكا وجنوبها في وقت لم تدم أو تستمر تلك العرقيات والجنور التي رحلت إلى بلاد الإسلام سواء في بلدان أفريقيا أو بلدان آسيا وليس الأمر هنا نصب محاكمة. أو مدح الاستعمار الأوروبي لأفريقيا ولكنه ببساطة تسجيل ما تركته حركة الاستعمار هذه من كشف حساب بشقيي السلبي والإيجابي في المجال الثقافي. كما أن الأمر ليس دفاعا عن الاستعمار ولا عن مساوئه، بل ولا عن فظاعته أو مهازله في شراء الأراضي مقابل بعض لغائف من الأقمشة أو مقابل قدر زهيد من الكحوليات (الخمور) ولكن ما يعنينا في هذا المقام ذكر ما نتج عن تصادم الحضارتين من نوع من ومضات الاستنارة، ليس الأمر كذلك فيما نحن بصدد الآن من الإقرار بأن التصادم الحضاري كان في أغلب الأحيان حاسما ومكسبا للكيانات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعوب السوداء التي استعمرت فقد كان ذلك في الواقع عقب الفصل الأخير من مؤتمر برلين المنعقد عام ١٨٨٥ وهو آخر كبريات مغامرات الانتشار الأوروبي. وإذا كانت اتجاهات الوضع تحت الوصاية قد دامت فترة زمنية قصيرة (أقل من قرن) فقد كانت المواجهة حامية وأوروبا والاقتصاد العالمي في كامل الازدهار.

إنه مجتمع صناعي راشد فارض لمشينته مالك وسائل عصرية في العمل وفي الاتصالات وهو ذلك الذي احتل واستثمر العالم الأسود الذي ارتضى التأثير والتأقلم مع ما يعرضه الغرب من مستحدثات العصر والأخذ بها وتطويرها باستمرار للتواءم مع تقاليده وثقافته وحتى في جنوب أفريقيا حيث خضع شعب البانتو إلى نوع من موجات التأقلم الاجتماعي بأسرع من موجات التصنيع والتحديث العصري فالرجل الأسود المتطور إذ يحيا على النمط الغربي يظل وينوى البقاء مرتبطا بمحرمات ورثها عن ماضيه وتقاليده وخاصة على الأقل فيما يتعلق بالزواج والأسرة ودور الأشقاء والابن الأكبر أو الابن الأصغر ولكي نقتصر على مثل واحد هو أداء المهر لوالد الخطيبة ويقدم اليوم نقدا وكان من قبل يسرد برؤوس المواشي وفق التقاليد الموروثة فإذا ما تحدثنا عن الجانب الإيجابي في كشف الحساب فلن نتكلم عن تلك المزايا من المظاهر المادية كالطرق والسكك الحديدية

والموانىء والسدود وإنجاز عمليات استقلال الأراضى والمناجم مما أقامه المستعمرون مستهدفين صراحة مصالحهم قبل أى شىء ومع ما يبدو من أهمية تلك المشروعات أحيانا فإنها ذات فائدة ضئيلة أما النظم الصحية والطب والإدارة فتعد أفضل ما جلبه المستعمرون ويقابل الوجه العكسى ويشمل عوامل الهدم التى أحدثها الاستعمار الأوروبى فى تقاليد وعادات قبلية قديمة وكذا تقاليد الأسرة الاجتماعية وعليها تستند كل أنواع الثقافة. وليس من السهل أن نفصل الآثار التى لحقت بالمجتمع من مستحدثات عصرية فى أجور الأعمال واقتصاديات النقد والكتابات والملكية العقارية الفردية وكلها مستحدثات أصيغت إلى نظام اجتماعى قديم. ولكن هذه المستحدثات ليست بالضرورة لازمة لمناهج التطور الجارية اليوم. وعلى العكس فإن من المساوئ الأخطر تلك التى كانت بسبب استعمار القارة وأدت إلى تلك السلسلة من تقسيمات الأراضى والمقاطعات فرنسية وإنجليزية وألمانية وبلجيكية أو برتغالية وتتوالى اليوم فيما كان من تلك المجموعة المزدهرة من الدول المستقلة الحرة العديدة ما سعى أحيانا بلغة القارة الأفريقية

ونتساءل هل نستطيع أن نقول أن ما وقع من تلك التقسيمات فى القارة الأفريقية بحكم تدفق المستعمرين كان شراً لا علاج لهم حيث إنها تقسيمات قطعت بها شعوب بطريقة عشوائية اصطناعية لم تراعى فيه مجرد التكتلات الثقافية والعرقية. ولا شك أن تقسيمات كانت عقبة أمام تحقيق حلم رواد البعض وهو توحيد القارة الإفريقية أو إنشاء السوق الأوروبية المشتركة على الأقل حتى مع العلم بأن قارة أفريقيا لم تكن ناضجة بما يكفى ليتحقق لها الوحدة السياسية بل ولا الوحدة الثقافية إذا لم تكن الحدود الإقليمية القديمة هى التى حددت تلك التقسيمات المتناثرة بل لضم إليها تلك المتنوعات العرقية والجذور المختلفة والاختلافات القسائدية والدينية بل وحتى اختلاف اللغات واللهجات والمأخذ الرئيسى الذى قد توقع اللوم عليه اليوم بشأن تلك التقسيمات الوطنية هو أنها لم تأخذ فى اعتبارها ضرورة تلاؤمها كى تتطابق مع خطط سابقة الإعداد يراعى فيها تنوع الثقافات ولكن هل كان ذلك ممكنا منذ قرن أو يزيد؟ وثمة ملاحظة أخرى قد تعد مأخذاً أخطر وهو ما هبأه الاستعمار للشعوب السوداء على صورة أداة لتوحيد لغة مشتركة دولية السمة حديثة المظهر وهذا هو بالضبط ما يمكن تسميته بالحيلة السيئة التى لعبها المستعمرون فى شكل توطيد لغتين على الأقل هى الفرنسية والإنجليزية وما

عسى أن يتجه ذلك من محتوى هدفه التأثير على التعليم والعادات والأفكار بل وأكثر من ذلك كان يذرع إلى فصل وتغويق وحدة أفريقيا بتمزيقها إلى كتلتين فرنسية من جهة وإنجليزية من جهة أخرى وكاد واضحا أن لا أمل لأى من الكتلتين أن تكتسح بل تسيطر على الأخرى أو تؤثر فيها بسهولة سوى ما تتمتع به كتلة اللغة الإنجليزية من انفرادها بميزة التعددية، مما قد يوحى بأن فى استطاعتها تحديد النفوذ والسيطرة على كتلة أفريقية ناطقة باللغة الفرنسية تبدو ثقافيا من زمن طويل متمتعة بأصول وقواعد ونظم ثقافية ذات قيمة مما وفر لها (مطبقات) سياسية وإدارية صلبة ومتمرسة ويضمن لها اليوم النجاح والتقدم .

وليس هناك ما عساه يزيد الأمر سوءا كالعقبة فى مواجهة الوحدة الأفريقية أكثر مما قام به ورسخ أقدامه نفس جغرافية أفريقيا وتاريخها وقد ساهما بكل سخاء فى توفيره لها مسبقاً.

الفصل الثاني

**أفريقيا السوداء
اليوم وغدا ..**

مقدمة

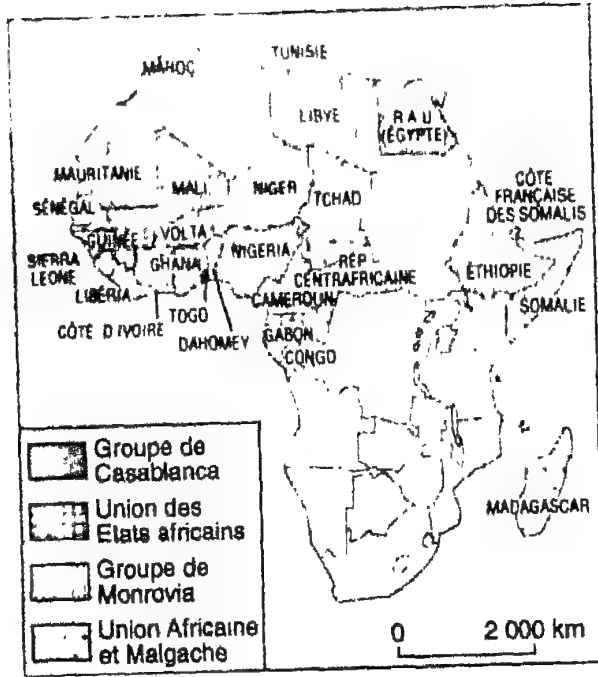
يجد الباحث فى دراسة إحدى الحضارات أن قارة أفريقيا تتيج حالة فريدة له فمع تلك الحركات والتطورات التى انتهت بالاستقلال لطائفة كبيرة من البلاد الإفريقية امتدت هذه السنوات الأخيرة لتشمل الجزء الأكبر من أراضيها مع تعاظم زنجيتها وتلك النزعة الإنسانية الوليدة التى بدأت بالكاد تشعر بقيمها الذاتية وإمكاناتها وقدراتها، ومع الدوافع المتحمسة لإرساء قواعد لتاريخ لها تبنيه إن أمكن تخلفه خلقاً أو تبدعه ليميزها عن غيرها.

ومع ذلك تبدو القارة الأفريقية كعالم ثقافى فى مرحلة الانصهار فى بوتقة المسار المؤدى إلى الظهور. فى كيان ملموس. والمظاهر أمام عيوننا من كافة الأشكال عديدة منذ أقدم مظاهر جذور العرقيات الصارية فى أغوار الزمان حتى مظاهر التمدن العصرى فى أوج تقدمه وأكثر مظاهر رفع المستوى الثقافى والتأقلم الاجتماعى العصرى .

نهضة أفريقيا

تستيقظ قارة أفريقيا والأفارقة كلهم متفقون على ضرورة الوثوق في المرونة الفائقة التي يتمتع بها الإنسان الأسود وتتسم بها ملامحه وما يحظى به من سجايا وكذا إمكانياته اللامحدودة في التأقلم والتكيف مع كل ماهو عصري، بالإضافة إلى مايتحلى به من صبر وجلد وإن كل هذه المزايا والصفات ماسوف يكون لازمة له لعبور ذلك الطريق الشائك الطويل الذى عليه أن يختاره فى سبيل استكمال دعائم متينة لاقتصاد عصري بكل ماتعنيه الحداثة وعليه وحده أن ينجح فى هذا المثار بما لايزال فيه من شوط طويل وشاق بحكم صعوبة الانتقال من اقتصاد بدائى فطرى إلى اقتصاد عصري وإن لم يكن بحال مستحيلا وذلك رغم معوقات تقيد مجتمعات ضاربة جذورها فى أغوار ماضى عقدي لتتحول إلى مجتمعات عصرية تسائر التطور العالمى وعليه كذلك القضاء على جذور النظام القبلى المعوق وماتركه فى نفوس الأفارقة من آثار صارت بحكم الزمن لصيقة بموروثات قديمة لم تعد صالحة لعالم اليوم الذى ينجبه إلى التحول الصناعى والتحديث ويدرك الرجل الأسود أن عليه اليوم أن يبدأ من جديد وأن يخلق كل شئ بما فى ذلك المفاهيم والعقليات، وماينبغي أن ننسى أن أفريقيا السوداء تواجه اليوم هذه المشاكل وهذه التجربة وهى تعلم أنها تجربة طويلة المدى وأنها تواجه هذه المشاكل

افريقيا وكلافتها الداخلية
كلافتات وطنية ذات علاقات
غير وطنية بين مجموعة دول
القارة السوداء



افريقيا والغرب



بلاد مشتركة مع أوروبا
دول الكومنولث

وهى متفرقة مع ماتملك من إمكانيات قليلة ضعيفة بل وتعلم أن الطرق الواجب اجتيازها مختلف المسارات باختلاف المناطق والشعوب.

١- أولا لازالت قارة أفريقيا قليلة السكان النسبى محرومة من وفرة الأيدى العاملة التى على أكتافها تتحقق التنمية ولعلها كذلك وفى الوقت نفسه ترهقها كما هو الحال فى البلاد النامية . وفى زمرة هذه البلاد النامية تأخذ القارة مكان القاع الأوفى وهو بلا أدنى شك يسمح بظهور الدجاج المظهرى وإن كان فى الوقت نفسه يبين ماينبغى اجتيازه من مسار طويل للوصول .

٢ - وليس فى لباب قارة أفريقيا ما يختص بثقافتها القديمة ولا سيما حضارتها التقليدية بمعتقداتها الكثيرة وعاداتها البدائية وذلك فضلا عن أنها ذات حيوية متدفقة إذ تقبلت مادخل عليها من إسهامات عقائدية على رأسها الإسلام بما يتمتع به من نظم اجتماعية وثقافية وتجاوزته الهائل عن الديانات البدائية وما هو الدين الإسلامى يعبرها ويخترقها ولكن لا يقصدها أو يستيعدها وكذا المسيحية التى ازدهرت عموما حيث تجرى المبادلات الاقتصادية فارضة نفسها على ما كان سائدا قبله من مجموعة المعتقدات والعادات القديمة .

٣- نضيف إلى ذلك الاختلافات التى يخلقها الاقتصاد والفوارق بين المناطق المفتوحة وتلك المغلقة وبين الريف والحضر .

وفى هذه الكتلة الشاذة الغريبة من المشاكل التى تنتوى القارة السوداء التغلب عليها رغم المعوقات فى مسارها المتقد وخطواتها الحثيثة نحو الغد، يواجه السكان السود مع جماعة المثقفين بكل ثقة وشجاعة ونظرات واضحة وإيمان أنهم إزاء مغامرة حتمية أساسية أعمق تفكيرا من تلك المعارضات التى تبديها، جماعات من الشباب لمواجهة الدنيا أو لمواجهة مشاكل لأوطانهم ملحة وتفرض نفسها على أفريقيا بأسرها كقارة تريد النهوض والتطور. كل هذه المشاكل والصعاب التى وضحت (أمكن حصرها) من خلال جلسات مؤتمر الدار البيضاء عام ١٩٦١ / يناير ومؤتمر مونروفييا (مايو ١٩٦١) ومؤتمر لاجوس (فبراير ١٩٦٢) ولا يجب يقينا إهمال السياسة إلا أن السياسة ليست سوى أداء أو أسلوب فهمي تتلون وتختلف

عند أول «نسمة رياح مفاجئة، ولو كانت نسمة خفيفة فالسياسة قبل كل شيء لا تتحكم ولا يمكنها أن تتحكم في مصائر الشعوب بل يمكن القول إن مصائر الشعوب هي التي تقود مسارها وقد تجرفها أحيانا.

والعقبة التي تواجه الثقافات والديانات البدائية هو ماضيها التقليدي الذي يعوق الانطلاق نحو التقدم أو يؤخر على الأقل التوصل إلى التأقلم مع الظروف الضرورية العصرية. ثم إن الجزء الأكبر من سكان أفريقيا السوداء وخاصة في المناطق الريفية حيث الغالبية لأزال مغلقا في إطار تقاليد وديانات وعقائد بدائية يركز عليها كل كيانه ونظامه الاجتماعي وهذه العقائد الدينية تأخذ أشكالا متغيرة حسب ماتقضى به مواقع إقامة القاطنين فيها وكذلك حسب مقتضيات الجذور العرقية الروحية التي تعيش في وجدان كل البشر وتظل واقعا حتى بعد الموت وكذا الإيمان بالآصنام وعبادة الجماد والسحر في كل موقع تقريبا وعبادة الأجداد الأولين أو أبطال أساطير يتمتعون بلوع من الإجلال ينتهي بالتقديس بحيث يختلط الأمر بينهم وبين الأرباب والآلهة الأفريقية ، وينضم إلى هؤلاء غالبا الإله الأكبر رب السماء والأرض أورب الكون والإله والأرباب وأرواحهم لا تنجلي فقط للأحياء ولكن المعتقدات تقول بقدرتها على العودة لامتلاك أرواح الموتى وهذا ما يفسر لنا الدافع لمثل هذا الجديد من الرقصات المقدسة وعلى سبيل المثال نجد في داهومي تلك الرقصات التي تعتبر طقوسا شعائرية حيث تهبط الإلهة فودون أو الإله أوريشاس على رؤوس بعض معارسي الرقصات فسرعان ما يبدؤون في نوبة من الارتعاش بتأثير العاطفة في نفس اللحظة التي تسكن الآلهة أجسادهم وفي مثل هذه الشعائر وأمام ما يسمى بالمحراب أو الهيكل الإلهي أو مذبح الأقدمين يجب تلاوة الصلوات والابتهالات ثم إجراءات لتقديم الصدقات والهبات من الأطعمة وزيت اللخيل والغذاء ببعض الحيوانات «لإطعام» الآلهة أو إطعام الأسلاف وتغذيتهم وفي المقابل توقع تدخلهم وذلك لحماية الأتباع في مختلف الشئون وهذا النظام العقائدي هو الضمان بالنسبة للمجتمع الأفريقي والمؤسس على نسبة القرابة الأبوية وهي مرتبة اجتماعية صارمة تقديس وتمنح لرب العائلة سلطة تامة يمارسها على جميع أبناء القبيلة أو العشيرة وانتقال هذه السلطة ينتقل عادة حسب

أوبزید وعدد سكان مدن حضرية يبلغ مائة ألف فقط لذا نجد أن المجموع الحقيقي للنخبة لايزید فقط عن ألف شخص ينتمون إلى ثقافة حقيقية وكم من صعوبات ووجهت لتكوين تلك النشرة الاجتماعية الضئيلة التي لا يكاد يشعر بها أحد. وفي مدينة مثل بورتونوفو مايقف التقدم ممكن أن نتخيل مسبقا إلا وهو جمود المجتمع التقليدي، المتنوع، أعلى الأقل ثلاثي الإصلاح منها قبائل الجون المنحدرون من جذور فلاحی ناهومی الوافدين على المدن وقبائل الباروبا وهم تجار من جذور نیجیریا المجاورة وأخيرا السود العائدين من البرازيل وغالبا من المسيحيين وأحيانا يكونوا قد تم تحويلهم إلى العقيدة الإسلامية على أثر مغامرات تأثير الدهشة ولكل مجموعة من هذه المجموعات أنماطها الخاصة في جميع المجالات مثل لون البشرة والمعتقدات المؤثرة وأشكال المقاومة وكل واحدة منها لديها نسلها ونسبها ولنتخيل أنه على أساس من هذه الأنساب والأنسال تتحدد وتتجمع مواقع الإمامة والمنازل وعلى أساسها تتم زيجات الزواج بل وتمارس العقائد الدينية. وعلى هدى هذا الرباط الاجتماعي الذي هو الديانة نذكر ما أورده بشأن هذا النوع من الترابط واحد من المبشرين الموفدين إلى مدينة بورتونوفو: نحن أمام مؤسسة منشأة جميلة في طريقها إلى الزوال ويضيف لكي لأقول ديانة جميلة. وكانت المرأة أول من ثارت على قاعدة الأنساب والنسل وهي اليوم تتمتع بالارتباط الزواجي باختيارها إلا أن هذا التحرر مازال قابعا في ماضي تعدد الزوجات ومحافظا عليه بشدة. ولقد ذكرت إحدى النساء وهي تبوح بسرها عندما فكر زوجها في الارتباط بالزواج بزوجات أخريات: «عهد إلى بالنقود لأنني كنت الزوجة الأولى وكنت أقوم بتوزيع النقود على شريكاتي الزوجات، وقد كنت أنا التي اختارت لزوجي زوجتيه اللتين اتخذهما زوجات بعد سنوات من زواجنا وشريكاتي يحيونني بالانحناء على مفاصل أقدامهم ويقومون بأداء كل ما أمرهم به من أعمال». وامرأة أخرى تقول: «إنني أقوم بتحبة زوجي بالانحناء أمامه على ركبتى وكذلك أفعّل أمام حماتي والأعمام والخالات والأشقاء والشقيقات الأكبر لزوجي ولكن لا أحنى أمام الإخوة والشقيقات الأصغر إلا أنني أكن لهم الاحترام وأنا أقوم بخدماتي لكافة أفراد عائلة زوجي فأنجز المشاوير وأعمال البيت وأجلب

أويزيد وعدد سكان مدن حضرية يبلغ مائة ألف فقط لذا نجد أن المجموع الحقيقي للنخبة لايزيد فقط عن ألف شخص ينتمون إلى ثقافة حقيقية وكم من صعوبات ووجهت لتكوين تلك النشرة الاجتماعية الضئيلة التي لا يكاد يشعر بها أحد. وفي مدينة مثل بورتونوفو مايقف التقدم ممكن أن نتخيل مسبقا إلا وهو جمود، المجتمع التقليدي، المتنوع، أعلى الأقل ثلاثي الإصلاح منها قبائل الجون المنحدرون من جذور فلاحى ناهومي الوافدين على المدن وقبائل الباروبا وهم تجار من جذور نيجيريا المجاورة وأخيرا السود العائدين من البرازيل وغالبا من المسيحيين وأحيانا يكونوا قد تم تحويلهم إلى العقيدة الإسلامية على أثر مغامرات تثير الدهشة ولكل مجموعة من هذه المجموعات أنماطها الخاصة فى جميع المجالات مثل لون البشرة والمعتقدات المؤثرة وأشكال المقاومة وكل واحدة منها لديها نسلها ونسبها ولنتخيل أنه على أساس من هذه الأنساب والأنسال تتحدد وتتجمع مواقع الإمامة والمنازل وعلى أساسها تتم زيجات الزواج بل وتمارس العقائد الدينية. وعلى هدى هذا الرباط الاجتماعى الذى هو الديانة نذكر ما أورده بشأن هذا النوع من الترابط واحد من المبشرين الموفدين إلى مدينة بورتونوفو: نحن أمام مؤسسة مشاة جميلة فى طريقها إلى الزوال ويضيف لكى لأقول بيانة جميلة. وكانت المرأة أول من ثارت على قاعدة الأنساب والنسل وهى اليوم تتمتع بالارتباط الزوجى باختيارها إلا أن هذا التحرر مازال قابعا فى ماضى تعدد الزوجات ومحافظا عليه بشدة. ولقد ذكرت إحدى النساء وهى تبوح بسرها عندما فكر زوجها فى الارتباط بالزواج بزوجات أخريات: «عهد إلى بالنقود لأننى كنت الزوجة الأولى وكنت أقوم بتوزيع النقود على شريكاتى الزوجات، وقد كنت أنا التى اختارت لزوجى زوجتيه اللتين اتخذهما زوجات بعد سنوات من زواجنا وشريكاتى يحيوننى بالانحناء على مفاصل أقدامهم ويقومون بأداء كل ما أمرهم به من أعمال، وامرأة أخرى تقول: «إننى أقوم بتحبة زوجى بالانحناء أمامه على ركبتى وكذلك أفعّل أمام حماتى والأعمام والخالات والأشقاء والشقيقات الأكبر لزوجى ولكن لا أنحنى أمام الإخوة والشقيقات الأصغر إلا أننى أكن لهم الاحترام وأنا أقوم بخدماتى لكافة أفراد عائلة زوجى فأنجز المشاوير وأعمال البيت وأجلب

الماء للجميع وأذهب للسوق وأقوم بطحن التوابل (الفلفل) وعندما أقوم بتحضير الغذاء أقوم من وقت لآخر بتقديم بعض من الأكل الذى قمت بطهوه إلى واحدة من الخالات أو واحد من أشقاء زوجى وإلى حماتى وحمائى . ولنتصور أحد «المتطورين» وسط مثل هذه التقاليد والعادات ويظل نصف قروى وهو يغمس فى هذه العادات الجديدة العصرية المكتسبة من الخارج وتلك الطقوس التى لم تفقد كل معانيها بالنسبة له بين ارتباط عائلى والإذعان المستحيل .

والذى يدفع كل شىء أمامه هو المحيط العصرى للمدن والعمل والمدرسة بل وحتى المشاهد فى الشارع بينما وعلى مبعده من المدينة نجد أن كل شىء يظل قابعا بغداد وإصرار لا يتحرك ونذكر أقوال واحدة من «المنطورات» وتعمل خياطة تدرت على الحرمة عند راهبات مدينة كوتونو وبعد ذلك تزوجت موظفا إداريا وهى سعيدة بورشتها وعملاتها (زيائنها) وبعد عام من الزواج تم نقل زوجى إلى شمال البلاد حيث لم يعد لى عمل أقوم به لأن النساء هنا يرتدون أوراق الأشجار أرمشون عرايا وأخيرا تبدلت مشاعر زوجى العاطفية وأقطن منذ عام فى مدينة بورتونوفر واشترى زوجى لى ماكينة خياطة أخرى . وفى سياق مثل تلك الاعترافات لتتخيل تلك النساء الأنقيات من قاطنات المدن أمام رجل من دكاك ملتف فى متكور فى قماش أبيض رائع . ترى مثل تلك الجريئات العصريات قاطنات المدن ولاشك أقل شاعرية من قاطنات المساكن القديمة فى جزيرة جورية المواجهة ولكن يتبعن الموضة فتتابعهم النظرات . وانطلق الحوار بين الريف والحضر (القرى الريفية والمدن) وهو حوار قديم قدم الزمان بين الحضارات الرفيعة والثقافات الدنيا ولكن لا تمثل المدن سوى قشرة رقيقة أو كسرة صغيرة من العالم الأسود وستكون سرعة تطوره نحو التقدم آخر الأمر مرتبهة بقوة الدفع لدى تلك المظاهر الحضارية العصرية ومرتبهة كذلك بما يحتمل أن تثيره من معوقات . وقد أثبتت الحكومات المستقلة صلاحيتها وتماسكها المتوقع إزاء انتقالها من الاستعمار إلى الاستقلال . كما أن الظاهرة عامة تجد الواقع يسفر عن أن هذه الحكومات المستقلة وجدت صبرا غير محدود من جانب المحكومين يكاد يفوق مظاهر خضوع رعايا لويس الرابع عشر بالأمس وهو الذى لقب بالملك الشمسى

ذلك أن الحكم وممارسته فى أفريقيا السوداء إنما يعنى بالضرورة السيطرة والتعبيد ومن كان يصدق أن الحكم وممارسته لا يحدث التآكل بل يجدد الشباب وينعش ولاشك، فالرئيس تومبار رئيس دولة ليبيريا فى موقعه سيدا للبلاد منذ عام ١٩٤٤ ويحكم حتى عام ١٩٦٢ إن ذلك يعد استثماراً طيباً لصالحه ولاشك أن السلطة هنا جوهراً منفرداً يحميها من مثل تلك الانتفاضات وعدم الاستقرار الذى تزخر به المجتمعات الأوروبية وقد نقول إنه جوهرة سنة ملكى.

وعلى أى حال نجد على قاعدة تمثال أو ساجتيفو ومغايا الملتصق دائماً فى غانا وعن الرئيس نيكروما نقرأ تلك الحكمة التى تقول «ابحث أولاً عن المملكة السياسية أما الباقي فسوف يأتيك من تلقاء نفسه، أى باختصار يعنى: السياسة أولاً، إذن فالأمر هو الاستحواذ على السلطة ثم المحافظة عليها والسلطة لا تتجزأ ومن النادر السيطرة عليها ولا مسوغ لقيام المعارضة على الإطلاق فإذا ما حاولت التعبير عن نفسها فإنما يعنى ذلك أنها تجرى وراء حثفها.. هكذا تقول لنا تجربة كل من غانا وسيراليون وغينيا بكل قسوة وهانحن اليوم نرى جماعات من الشباب المثقف عارضوا الحكومات الدكتاتورية فى بلادهم سائرين فى شوارع أوروبا وأتراههم متفرقين على مدرجات الجامعات الأمريكية اللهم إلا إذا ما كانوا من السفراء المفضوب عليهم ورأوا من الأسلم ألا يعودوا إلى بلادهم وتلك حالة لا توافق أذواقنا ولا طبائعنا نحن الغربيين ومن هنا نجد كلمة رئيس وزراء السنغال فى نفس السياق. إن الغانوقراطيا (مشقة من ديمقراطية غانا) لا تثير اهتمامنا بأى حال. وهذا مثل واضح يدل على أن أفريقيا ولو على الصعيد السياسى ليست متماثلة. غير أنه يجب علينا الاعتراف بأن على أغلب الحكومات التحلى بقدر كبير من الحكمة حتى لا تستسلم أمام ما يفرض نفسه عليها ويكاد ينبع من تلقاء نفسه، فإذا ما أردنا نحن الأوروبيين أن نكون عادلين نحو هذه الحكومات التى تضللنا وتحيرنا وجب علينا أن نتنبه إلى محدودية الطبقة الحاكمة حول سادة أفريقيا السوداء إنهم نفس الرجال القلائل الذين يتحركون مثيرين للقلق وهم أقل عددا بكثير ممن كانوا حول رينيه دانجو أوفيليب الطيب فيما مضى، فبلد مثل ليبيريا يديرها فى الواقع ٢٪ من «الأفرو اميريكان، أى أفارقة متأمريكون أو

أمريكيون عاشوا في أفريقيا ولا يمكن الجزم بأنهم كلهم كانوا موظفين مشغولين ويظل أغلب السكان ما بين خمول خارج ما نطلق عليه النطاق الشرعى ولا يعنى ذلك أن هذه الجماعات المحدودة تظل غير منقسمة فهم فى الواقع فى تشابك دائم ذلك أن التحركات النشطة والانتفاضات غير المتوقعة لها عذرها ومسوغاتها. ومن جهة أخرى إذا كان الحكم يواجه قليلا من المشاكل السياسية فإن مشاكله الإدارية ليست قليلة، منها مثلا تهئية السكان لمسار حضارى يستوجب بدايةً اقناعهم به ثم تدريبهم عليه ولما حاولت بعض الحكومات المعنية ممارسة هذه التجربة وهذه هى المهمة الشاقة انزلقت أقداهما فى اللعبة، وهى لعبة الريماجوبية (الغوثمانية) ذلك أنها لى تدير شلون الحكم بصورة فعالة تحتاج إلى رجال وتحتاج إلى كادرات (مستويات عاملة) وتحتاج كذلك إلى إخلاص لا تشوبه شائبة ونظام دقيق لى تعيد البناء من جديد كما تحتاج إلى رؤوس أموال وإلى استثمارات معدرة على أسس حسابات معدة إعدادا دقيقا وكل ذلك فى إطار من «التعقل» والأخير هو الأكثر ندرة فى كل بلاد الدنيا ففى غينيا التى تعد من أقدم الممتلكات الفرنسية التى اختارت الحرية والاستقلال حين حققت حكومة الجنرال دي جول هذا الاختيار لغينيا عام ١٩٥٨ لم تكن اللحظة الثلاثية التى أعدتها حكومة سيكوتوريه ذات الاتجاه الاشتراكى هى الخطأ أوهى بالخطأ الرديئة وإنما كان الخطأ يكمن فى أنها خطة جاهزة أعدت إعدادا مسبقا على ضوء معايير اقتصادية ومجموعات أرقام بينما المجتمع التقليدى هو العنصر الذى كان من الضرورى أخذه فى الاعتبار دائما قبل التخطيط له . فإذا ما ذكرنا كيف فشلت الواحدة تلو الأخرى من تلك المؤسسات الحكومية المكلفة بعمليات استيراد المنتجات الخارجية إذ تخصصت اليعاج فى استيراد المواد الغذائية عموما وتخصصت مؤسسة ليبرايرور فى استيراد الورق والأدوات المكتبية ومؤسسة إيمانيك فى المواد والأجهزة التقنية. وتخصصت مؤسسة فرما عيينا فى استيراد المنتجات الطبية والصيدلية وكما كان نفس الحال بالنسبة إلى باقى الشركات الشقيقة، ولحق بكل منها الفشل وتراكت خساراتها فضلا عن الفضائح الداخلية (أو الخارجية) كل ذلك راجع إلى أن النظام ذاته لم يكن محسوبا على أساس العنصر البشرى الغينى، ولم يكن الأمر افتراضا بوجود

رجال أمناء ومتقنين بل كان يحتاج إلى طبقة وبصفة خاصة قادرة وذات كفاءة بأعداد وفيرة حسب المقتضيات.. وهنا تبرز الحاجة الضرورية لتشكيل وإعداد كل هذه العناصر اللازمة لنجاح نقل أى مجتمع نحو النظام الاشتراكى.. ومرة أخيرة تشكيل وإعداد مسبق لهذه العناصر.

تجارب المخاطر الاقتصادية والاجتماعية

لا يزال مصير الدول السوداء غير معروف لسوء التخطيط المرسوم فما زالت على رقعة شطرنج العالم مباريات تجرى بكل همة وتحوطها الخدع والأوهام . ومن بين تلك المباريات الناجحة يقينا نضع النزعات التوسعية والاستعمارية ذات المرمى القصير تجاه الجار المباشر. وقد ذكرنا تلك التقسيمات والمقطعات الاصطناعية كما سبق أن شبهناها ولم نؤيدها على أى حال ويقدر ما فالمغرب تطالب بكل أراضي موريتانيا كما تطالب بـ «ريودي أورو» وإفتى وجزء من صحراء الجزائر ترنو وغينيا التي تحكمها سيكونورية نحو سيراليون المكتظة بالسكان ، كما أن لدى غانا المشتق اسمها من اسم الامبراطورية الكبرى المفقودة ادعاءاتها التاريخية لتسوية رغبتها فى التآلف وضم توجو وساحل العاج ونجد مالى ذات الاسم المعبر تراودها الأحلام لضم قولتا العليا فى دولة فيدرالية مشتركة مع النيجر وكذا الاستيلاء على جزء من الصحراء الجزائرية وكل واحدة من هذه البلاد يستطيع تقديم البراهين الدالة على «حقوقه» فيما يطالب به، كما أن هناك مباراة أكثر ضراوة ونقصد بها ماأسفر عنه مؤتمر عام ١٩٦١ من روح عدائية بين مجموعتين من الدول ثم مؤتمر الدار البيضاء حيث كان المغرب وغانا والجمهورية العربية المتحدة وانفصال سوريا بعد وحدتها مع مصر وغينيا ومالى ووصفوا بكل تأكيد «بالمطرفين» ومن جهة أخرى فى المواجهة مجموعة مونروفيأ أى: تونس وليبيا وموريتانيا والسنغال

وسيراليون وليبيريا وساحل العاج وفولتا العليا ونيجيريا والنيجر وتشاد والكاميرون وأفريقيا الوسطى والجابون والكونغو برازافيل وأثيوبيا والصومال ومدغشقر وفيما ما يطلق عليهم بالدول المعتدلة «العقلاء أو الحكماء» . وليس من دليل على أن هذه التصنيفات سوف تظل متماسكة فسوف يتحقق استقلال الجزائر القريب ويجلب معه عنصرا جديدا كعامل لا يمكن التكهّن بآثاره ونتائجه ، ولا تزال حلية الصراع مفتوحة بما فيها من رغبة فى الوحدة أو البحث عن الوحدة على الأقل وكان ذلك على أى حال ما أسفر عنه مؤتمر ثالث انعقد فى لاجوس فى بداية فبراير ١٩٦٢ وقد أساءت حكومة نيجيريا إعداده فلحقه الفشل حيث اصطدمت مجموعة «برازافيل» الاثنتا عشرة وفوجئت بمعارضة مجموعة الدار البيضاء التى وجدت فى (عدم دعوة) موسوغا قويا لموقفها .

ولاشك أن ما يحدث لا يعدو أن يكون مجازفات خطيرة معقّدة فما من مجاهر بالمطالبة بتوحيد أفريقيا كلها من حيث المبدأ ولكن هذه الوحدة تظل موضوعا يمكن التفاهم عليه بشتى الطرق فالرئيس نكروما يرغب فى إنهاء الاستعمار الأوروبى أو ما تبقى منه مع آخر ديسمبر ١٩٦٢ وفى الوقت نفسه يرغب فى الاستحواذ بهذه المناداة على «موقف زعامة» لشخصه تظهره بمظهر الرجل القوى إلا أن الدول الأخرى تبدو غير مستعدة لمنحه هذه الميزة وقد وضح ذلك خلال المباحثات التمهيدية لتوحيد كل من غانا وغينيا ومن الصعب اليوم التكهّن بأى من المجموعات يمكنها أن تفرض على غيرها الوحدة المشتركة . وعموما فإن السيطرة وهى بقدرها مشكلة قدرة وقوى حقيقية وفاعلة تستطيع أن تفرض رغباتها على الآخرين بقدرها هى مسألة حكمة أكثر مما هى مسألة خشونة وعنّف وإملاء وإذا ما طرّقنا أمر توافر الرجال وما تمثله من ثراء فى توازن قارة قليلة السكان فسنجد بكل تأكيد أفريقيا الناطقة بالإنجليزية هى الفائزة بفضل وفرة الكثافة السكانية والمدن فى غانا وسيراليون ونيجيريا حيث يكمن النجاح والتقدم فى المدن فنجد مثلا أن أكبر مدن أفريقيا السوداء هى مدن نيجيريا حيث تستوعب مدينة لاجوس أكثر من ٣٠٠ ألف من السكان ومدينة كايبادان أكثر من نصف مليون نسمة أما الدول الإفريقية الناطقة بالفرنسية ماعدا غينيا فهى قد رأينا مالى تعقد اتفاقا مع باريس بشأن برنامج اقتصادى يتركز على مقدرة السوق المشتركة

وهو ما لا تقبله دول مثل نيجيريا أو غانا ولو انضمت إنجلترا نفسها إلى هذه السوق المشتركة الأوروبية وتتفوق دول أفريقيا المتحدة بالفرنسية رغم ضعف كثافة سكانها ويطبقات وشخص (وكادرات) من المثقفين لها قيمتها حيث نجد التعليم مزدهرا ويمتلك أكبر الدفعات - ولنعد إلى حديثنا السابق عن المدن وعلماء وخبراء الجغرافيا إذ يقولون ويكررون بأن أى مدينة وحدها هى مركز قوة بما تتمتع به من «موقع جغرافى»، يطلقون على سبيل المثال على مدينة راكار ذات الطابع الإمبراطورى المدينة الدولية فهى تطل على المحيط الأطلنطى جنوبا وتتحكم فيه كما تقع فيما وراء المدار الجوى المستعرض الأفريقى ولاشك أن هناك احتمالا بأن كل ذلك يتغير بإيقاع الاتصالات الدولية وقد يتأكد. وأليست المبراة الحقيقية هى التطور على صعيد القوى والعدد والتقدم الاقتصادى؟ ذلك أن اقتصاد القارة الأفريقية الذى يعد متخلفا جدا إنما ينتج منتجات مناجم ومنتجات بدائية (غير مشكلة وذلك إذا ما استثنينا معاصر الزيوت السنغالية أو مصانع الألمنيوم فى غينيا وتشتري دول القارة المنتجات الصناعية وكل شىء يخضع وهذا بدهى لرغبات المشترين والموردين ومطالبهم وفق الظروف القياسية والعادية للموازن التجارية وإمكانيات التنمية والاستثمارات السنوية، وهى عوامل تظل متواضعة جداً ويصبح مانحرزه من تقدم بطيئا ويوقع محاولة التغلب على هذا البطء بعض الدول فى أسر الاعتمادات والفروض التى تفتح الباب إلى الوقوع فى نطاق التبعية المباشرة أرادت تلك الدول أم أبى، فإذا ما قام الاتحاد السوفيتى بتوريد القرضات اللازمة للطريق بين «كوناكرى وكان، كان هو يحتاج إلى إعادة كاملة لإقامة برزت فورا مشكلة الفنيين اللازمين لتشغيله، ومشكلة عمال السكك الحديدية ونقاباتهم. وإذا ما أرادت داهومى إنشاء كلية كبيرة لا يستطيع إنشاءها إلا على أساس المقاييس التعليمية الفرنسية وسرعان ما تجد نفسها فى ميسس الحاجة إلى أساتذة لملىء الجهاز التعليمى وإلى الاعتمادات التى ترد من فرنسا لتسيير العملية التعليمية كما هى العادة فيما تعودته داهومى منذ بدأت نظم التعليم فيها تماما كحاجتها إلى خبراء التقنيات والمدرسين المعلمين للمدارس الثانوية.

وعليه فإن أفريقيا السوداء لا تستطيع الكف عن استجداد العون والمساعدة من الكتلتين الصناعيتين ولا تنسى الكتلة الثالثة ونقصد بها كتلة الدول الصيفية التى

تقدم وتعرض خدماتها أشبه بروح «صليبية»، تصحبها دائما إرساليات بشرية كثيفة ولعل في وفرة عدد سكان الصين مايفسر ذلك الجموع الكثيرة التي تصاحب كل معونة تقدم. وإذا أخذنا أحد هذه الحلول أو أخذناها كلها معا باستثناء كبرى مشروعات في الأشغال العامة حيث يفتقد ماقد نسميه خططا اقتصادية منظورة فلن تكفى هذه التصحيحات شبه المذهلة التي وافقت عليها النيجر مؤخرا بمناسبة عيدها القومي (١٩ ديسمبر ١٩٦١) عيد استقلالها ومنها: تخفيض مرتبات أعضاء الحكومة وإلغاء استخدام السيارات في الشؤون الإدارية ووقف أجور ساعات العمل الإضافية وزيادة الضرائب وكل هذه التصحيحات فالأمر يحتاج إلى خبراء تسيير دولاب العمل. وقد اضطرت دول كدولة مالي بعد انفصالها بالأمس عن السنغال إلى الصمود فأنقذتها جمهورية بون بكميات هائلة من الشاحنات التي أمنت الطريق المؤدى إلى كانكان وفيما بعد المحيط سكك حديد كوناكرى وبعد فإن كل معدات الدنيا لاتعنى شيئا بالنسبة إلى تلك الدول دون وجود الشخوص (الكادرات طبقات) من العمال الفنيين القادرين على استخدامها وترتبط هذه المشكلة بتطور داخلي مسبق مصحوبا بمجهود واع فعال.

وقد قام صحفي سويسرى بنقل حديث دار بينه وبين أحد الخبراء الفنيين التشيكوسلافكيين في غينيا تحت حكم نظام الرئيس سيكولوزى ذى الميول الاشتراكية: قال الخبير إن الفرنسيين كانوا يتفوقون علينا بميزة خلاصتها أنهم كانوا يستطيعون إصدار الأوامر وقد وقع مثالا بالأمس لسيارتى طارئى فجائى يعطل فى البطارية.. عطل بسيط ولم يستمعوا إلى الإدارى فى الجراج فأسرع العامل الإفريقى الأسود بلعس الكاربيراتير.. إنها عادة غير معقولة لديهم تدفعهم إلى الانقضاض فورا على كل ما هو دقيق والنتيجة أنى منذ ذلك الوقت أسير على قدمى ويبدو أن تلك الحالة ستدوم وقتا طويلا أما لوقوع الحادث لفرنسى لأسرع يجنح صائحا بصوت مرتفع بينما لا يحق لنا ذلك وإن كان مفيدا يقينا تحت هذه السماء. وفى تلك الأجواء المشبعة بالرطوبة ولست أدرى أو أستسيغ كيف تمسكت إنجلترا وفرنسا وارتبطت كل منها وتشبث بمثل هذا العبء الثقيل، وعموما فدى التزامات بعقد لمدة عام وسوف أكون سعيدا عندما ينتهى العقد إذ سيكون فى استطاعتى المغادرة دون إبلاغ أحد بذلك إن الأمر بكل تأكيد ومستحيل وفوق كل

احتمال وعموما فليس ما يحدث سوى دراما اجتماعية صغيرة مغزاها فقط في كلمتين، مامن ثقافة تفيد إلا إذا تقبلها المثقلى بحماس وترحاب. وصورة أخرى يجب علينا وضعها فى مقابل الصورة التى ذكرناها حتى لانتهم بتحريف المعنى: اكتشف مدرس فرنسى من الموفدين إلى الكوت دى فوار (ساحل العاج) فى أكتوبر ١٩٦١ وهو منبهر وفى نشوة هذا الظما غير العادى للتعلم والثقافة وسرعة التطبيق التلقائى الذكى لدى طلبة من الصف الرابع والثالث أنهم يعرفون أبناء أفريقيا الغد.

الفنون والآداب

ترى أية دلالة وأية علامة مميزة يضيفها الفن والأدب على هذا العالم الذى تدب فى أوصاله الحركة وفى خضم تلك التمزقات والتقسيمات التى تدفع به إلى هنا وتبعده إلى هناك.. اليوم وغداً.

يلحظ المراقب أن الفن الأصيل الذى لم يطرأ عليه تغيير ويتباهى به الغرب كالأفنتة والبرونزيات والعاجيات والأخشاب المنحوتة .. يتدهور اليوم تحت أعيننا بل يمكن القول إنه فن اندثر وكما يقولون وهو فى جزئياته صحيح أن الطبقات الاجتماعية والدينية منها خاصة ينبع فيها ومنها الفن.. كل الفنون ومنذ الأزمنة السحيقة ولكن هذه الطبقات كلها إما اندثرت أو فى طريقها إلى الاندثار تحت وطأة الصدام العنيف المتكرر الذى جاءت به الحضارة العصرية.. الحضارة الصناعية؟ وعلى أى حال فإن الواقع يشير إلى أن قارة إفريقية تبتعد عنا بأزهار زيجها وأغانيتها ورقصاتها ومفاهيمها الفنية وعقائدها الدينية وأحاديثها الشعبية التى تتغنى بها أحياناً ويتناولها الرواة أحياناً أخرى ومأثوراتها من الزمن الذى ولى .. الزمن المفقود الزمن الضائع.. زمن الرجال وعصره وعالمه، عالم النباتات وعالم الحيوانات وعالم الأرباب والآلهة وإجمالاً.. حضارة تقليدية بكل ماتعنيها.. حضارة سوف تكتسح كلما تسارعت خطوات التدهور السارى وهو

بالاشك مانعرفه نحن في الغرب من واقع التجارب بفضل تمكن أوروبا بماضيها التقليدى من الاحتفاظ بأكثر من أثر من آثارها وما تزال على الاعتزاز والتعلق به فى قلوب أبنائها دون أن تعى أو تعرف ذلك أحيانا كثيرة ونسأله بدورنا عما عسى أن تتمكن أفريقيا من الاحتفاظ به من ماضيها السحيق التليد.. من حضارتها السابقة؟ ذلك أن يرجع بنا إلى حضارة مفقودة عتيقة أقدم من تلك التى نرى اليوم بأعيننا بعض آثارها وكذلك ما تبقى من آدابها هذه الآداب التى نرى اليوم كيف حلت محلها محاولات أدبية شابة غربية السمة على الأقل باستخدام اللغات الأوروبية فى كتابتها ونجد فيما ندر بعض تلك المحاولات الأدبية الإفريقية باللغات الإفريقية الشفهية حيث لازالت صعوبات النسخ الذى تأخر لصعوبة تدوين هذه اللغات الإفريقية القديمة وتعود بنا هذه التطورات فى مجالات المحاولات الأدبية إلى الطرف الآخر لمرحلة التطور الأسود أو ما سوف تكون عليه هذه الموجة من التطور عند ما يتمكن أغلب الإفريقيين من رؤية النور، أى حين يتمكن يتقدمون أشواطاً كثيرة تطويراً وتنمية ولاشك أن هذه المحاولات الأدبية الناهضة إنما تعكس الواقع الإفريقى فى نظر هذه الفئات المتطورة من المثقفين الأفارقة اليوم وهم يلقون بأنوارهم الذاتية على تلك المحاولات من مضامين أصيلة كامنة فى أعماقهم يصوغون منها القصص والحكايات الزاخرة بكل ما هو مستخلص من جذورهم ومفعم بالحياة والجمال.. أنوار جديدة علينا نحن.. طبعاً لكنها بالنسبة إليهم بمنزلة استعادة لمشاعرهم نحو جذورهم وأسلافهم الأوائل.

وذلك إذا ما قرأنا على سبيل المثال القصص الجديدة لأما دوكومبا وكتب ذلك الكاتب المشهور بيراجو ديوب ونجد أن مادة كتبهم يعود للأمس على حين يتحصر الشكل بين سرد جاف ولكن متوازن وحيوى طبقاً لقواعد الفن الأدبى وليست مؤلفاتهم كما كتب جان ديغورجند يقول: هذه الجثة المفقودة للحكايات والقصص الشعبية وحتى أشكالها ذات السمات الغربية تعبر وحدها عن مشاعر وأحاسيس أدب مقتطع من جذور هذه المجتمعات طالما ظلت تحلم بهذه الجذور كأحلام أوائل الكتاب اللاتين فى زمن الغال حيث تتحدد ساعة انبثاق حركة أدبية جديدة للسود أو الكتاب إفريقياً وللعالم الجديد بسمة من سمات واحدة أى بلغة غربية من

الفرنسية أو الإنجليزية أو الأسبانية أو البرتغالية بقلم لانجستون وريتشارد رانب وإيميه سبزار وسنجور (رئيس جمهورية السنغال) وديوب وقانو وجليسان وأيونو وديوليه وكامارالي أوأين تدق هذه الساعة حيث يجب ألا نتحدث عن الخيانة بل على العكس من ذلك الارتباط العاطفي فوق المسافة الاضطرابية بالمراحل التي أجتيزت. لقد عدلوا المسارات العميقة لشخصياتهم كما ذكر جاد دافنيو بالقدر الذي تصبح فيه إحدى اللغات مثلاً واحداً من التياتات ونمط من أنماط البقاء وفي نطاق هذا التحول تذبل وتموت إلى الأبد: قصص الأساطير، ولكن ليست اللغة التغيير الوحيد الذي عاناه هؤلاء الرجال في دوامة التشابكات كما جاء في قصة «الصبي الأسود» للمؤلف كامارالي وهي قصة قروي شاب وابن أسرة كبيرة من الحدادين درس في باريس ووالدته ظلت عاجزة عن التعبير بسبب أسفاره المتلاحقة وتداعى أفكارها بين مدرسة كوروسا مدرسة القرية والطريق منها إلى كوناكري ثم إلى باريس وفرنسا. وعلى مدى ذلك الوقت إذ كثيراً ما ناسلت وكافحت ودفعت أمامها تلك العجلة ثم عجلة أخرى وثالثة عجلات أخرى لم يرها أحد.. ماذا فعل الناس لوقف تلك العجلات من الدوران والتشابك ونم يكن في مقدورها غير النظر إليها وهي تجرى وتحرك كما يتحرك ويجرى مصيرها، مصير ابنها الذي كان عليه أن يسافر.

نعم هنا حضارة جديدة تبرز مهما كان هذا البرزخ صالحاً أم طالحاً حضارة هاشة أو آمنة مؤمنة إزاء مستقبل حياة قديمة: تابعة من حضارة قديمة تقليدية مفعمة بالحياة ودائماً مغذية مطعمة وهنا تكمن النقطة الهامة: ذلك أن أفريقيا في طريقها إلى إهمال حضارة عمرها ألف سنة ومع ذلك فلن تفقد إفريقيا حضارتها الخاصة والتابعة من جذورها وستظل دائماً حتى مع انقساماتها وتمزقاتها إحدى تلك الحضارات الخاصة ذات الخصوصية التي تتميز به شاعر سيكولوجية ذاتية وأذواق وذكريات خاصة بها مشاعر عميقة الجذور تضم ما هو صالح كي يكون مذاقاً خاصاً سيكولوجية كما يقول سنجق: فإرضة نتحكم في مواقف عاطفية في مواجهة عالم يجعل من العالم الأسطوري أكثر واقعا من العالم الظاهر في عيون الإفريقي الأسود وأكثر واقعية من هذا العالم المرأى أمام النسيم، ومن المثير للدهشة أن

الغالبية العظمى من الكتاب الأفارقة ذوى الميول والسمات الغربية هم أكثر المتعلقين بخدورهم بإصرار مذهل. ولأخذ بعض سطور قصة الطفل الأسود حيث نقرأ فيها، وهو يتحدث عن العطايا الباهرة شبه الأسطورية التى وهبتها له أمه فيقول: هذه العطايا العجيبة التى تتراءى لى اليوم كأحلام أسطورية لماضٍ «حقيق.. وبرغم ذلك فهو ماضٍ أشعر بأنه قريب منى بل ويعود إلى الأمس ومع ذلك فالعالم يتحرك والدنيا تتغير وعالمى يتحرك ولعله أسرع مما تتحرك العوالم الأخرى بحيث أحس أننا لم نعد من كنا بالأمس ولم نعد حقاً كما كنا بالأمس إذ بينما تتجمع فيه كل هذه المعجزات أمام عيوننا وتحت أبصارنا، تراودنى الأحلام فى شعار قبيلتى .. قبيله أجدادى إذ برغم أن لى طوطمى (العلامة والرمز الوثنى المميز للقبيلة) فأكاد اليوم لأعرفه.. هل هناك أفضل مما ذكرنا لشرح هذا التمزق وهذه الانفصالية عن الجذور وبالعراية الأمر مع التمسك والتشبث بها؟ يسترسل الكاتب فى سياق سطور قصته: إننى أتردد فى ذكر تلك القوة الروحانية التى كانت تتدفق من أعماق أمى ولست أرغب فى وصفها كلها وأن أعرف أن روايتى ستكون موضع كثير من الشكوك بل حتى أنا نفسى عندما أستعيدها لأعرف كيف أتقبلها أو كيف يجب على أن أتلقاها ذلك لأنها تبدو لى اليوم كأنما لاتصدق.. أمور غير قابلة للتصديق ومع ذلك يكفى أن أتذكر ما رأيت.. مارأته عينائى.. هذه الأشياء التى لاتصدق.. رأيتها وأستعيد رؤيتها كما كنت أراها ثم أليس هناك دائماً أحداث وأشياء لايمكن وصفها أو تفسيرها؟ وعندنا كثيراً مانجد أشياء لايمكن وصفها وكانت أمى تعيش فى صحبتها الودودة اللصيقة.

حاشية (١٩٦٦)

خفت حدة الصراعات بين التكتلات السياسية الأفريقية على أثر استقلال الجزائر الذى تم باتفاقيات إيفيان فى ١٩ مارس ١٩٦٢ وقبول عضوية موريتانيا فى الأمم المتحدة فى ٢٧ أكتوبر ١٩٦١. وقد كان لذلك ثماره الإيجابية التى اتضحت عام ١٩٦٣ فى مؤتمر أديس أبابا الذى عقد فى ٢٥ مايو من نفس العام حيث كان التوقيع على إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية والاعتراف بكل الحدود السياسية الموروثة عن الماضى الاستعمارى وفى هذا المؤتمر اتخذت عدة قرارات بإجراءات معينة ضد البرتغال. وفى المؤتمر الذى عقد بدار السلام (فبراير ١٩٦٤) بمناسبة نشوء حركة التمرد فى نيجانيا والمؤتمر الذى عقد بالقاهرة (يوليو ١٩٦٤) بدت منظمة الوحدة الأفريقية الوليدة قادرة على توحيد مجموعات الدار البيضاء القديمة فى نوع من الإنتاج بين مونروfia والوحدة الأفريقية وما لاجاش وقد أحرز ذلك بضرورة حظ سعيد إلا فيما يتعلق بالكونغو البلجيكي السابق وربما تحقق له هذه الخطوة بسرعة شديدة عام ١٩٦٠ مما جعله منذئذ يعانى أزمات وعدم استقرار وتسوده حياة معيشية مأساوية مما أدى إلى تدخل من جانب الأمم المتحدة واغتيال لومبا وانفصال إقليم كاتنجاه وظهور تشومبى على مسرح الأحداث المتلاحقة التى صاحبها حركات التمرد من جانب القبائل. وفى الوجه المقابل

اندلعت ثورة فى زنجبار فى يناير ١٩٦٤ .. ثورة على النمط الصينى مما يثبت أن المشكلة الأفريقية ذات أبعاد دولية يشترك فيها العالم كله .

وفى أبريل ١٩٦٤ تتحد كل من تنجانيقا وزنجبار فى دولة واحدة ومنذ نوفمبر اتخذت الدولة الجديدة اسم تنزانيا حيث يتصارع فيها كل من النفوذ السوفيتى والنفوذ الصينى للفوز بالمكانة الأولى .

كما نشأت دولة مستقلة جديدة وهى نياسالا التى أصبحت مالاوى فيما بعد .

وكانت التحركات البارزة حالياً على السطح (فبراير ١٩٦٥) (٢) هى مابرز خلال مؤتمر نواكشوت وتتلخص فى محاولة تجميع دول أفريقيا الناطقة بالفرنسية . وهى الدول التى تكافح من التسلل والتسرب الصينى المتزايد والانفتاح على الدول الرأسمالية وهو ماكان رغبة لم تتقرر بعد بشكل حاسم . أشبه بالقلق المستتر .

وتضافرت أحداث كثيرة كالصعوبات والعقبات التى تواجه أنظمة الحكم ذات الميول (التوجهات) الاشتراكية وكندهور المجتمعات الأفريقية وتخلقها المستمرين والتخلى عن الآمال والطموحات الثورية التى كانت فيما مضى مشاعر حية تراود النخبة من المثقفين الأفارقة السود كل هذه المشاكل والتحركات أثارت انعكاساً وردود أفعال عديدة خلال أعوام ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ أعقبها موجة من الانقلابات العسكرية فينهار فى غانا نظام حكم نكروما الصالح مجلس عسكرى ويختفى فى نيجيريا نظام الحكم البرلمانى الفيدرالى الذى ثبت أقدامه مع أحداث الاستقلال ويختفى إثر انقلاب دبره وقاده الجنرال إيرونسى كما تندلع أزمة مفاجئة فى جمهورية وسط أفريقيا ليلة ٣١ ديسمبر ومع تباشير الساعات الأولى لعام ١٩٦٦ يستولى على مقاليد الحكم أحد جنرالات (كولونيل) الجيش ويقوم فى داهومى الجنرال سوجلو بطرد كل الحكام السابقين الذين تعاقبوا على السلطة من المدنيين منذ الاستقلال وتنتهار الحكومة فى فولتا العليا بعد ستة أعوام من الاستقرار تحت حكم الرئيس ياميجو أمام فريق من الضباط العسكريين . وفى الكونغو البلجيكي السابق قام قائد الجيش الجنرال موبوتو بإرساء قواعد حكمه الديكتاتورى . وقد أدى ذلك كله بهذه الدول الإفريقية فى ظروفها الراهنة وفى مواجهة القلاقل والاضطرابات والفوضى السياسية إلى عجز أغلبها عن مواجهة الأحداث أو علاجها .. ولم تستطع المساهمة فى إحياء منظمة الوحدة الأفريقية التى نشأت فى

الخامس والعشرين من مايو ١٩٦٣ فى مؤتمر أديس أبابا فلم تتمكن الدول الأفريقية بسبب هذا الواقع الأليم من الوقوف فى وجه حكومة الأقلية من المتمردىن البىض فى روديسيا برئاسة أيان سميث وكذلك لم تستطع الدول الأفريقية المستقلة تقديم العون وانتقاد جيرانهم الأفارقة فى صراعهم مع السيطرة البرتغالية وكان صراعاً صعباً لا ينبئ بفوز عاجل فى كل من أنجولا وموزمبيق إلا أن الصراع كان أفعل وأكثر حزمًا فى غينيا.

الهوامش :

- (١) من الأحياء الشهيرة فى باريس حيث نجد تجمعات المثقفين والجامعات.
- (٢) مرة ثانية نذكر أن الكاتب ألف كتابه عن تاريخ الحضارات فى مستقبل الستينيات لذا لزم التنويه واعتقد أنه كتبه فى ١٩٦١ / ١٩٦٢ على وجه التقدير ونشر عام ١٩٦٣ .

الجزء
الثالث

الشرق الأقصى

مدخل إلى الشرق الأقصى

نهدف هنا إلى الاقتصار على استعراض السمات المميزة لقارة آسيا وخطوط التقارب بين بلادها باستعراض جغرافية الموقع من الكون ثم التاريخ ثم استعراض جذور الحضارات البعيدة مغرقة في القدم ولازال جزء كبير منها حيا نعاصره تحت عيوننا ولانزاع في أن هذا العصر الأخير عنصر الحضارات وحضارات آسيا أهم تلك الملامح.

الجغرافيا .. ماذا نعى

سوف ندرك إذا ما ألقينا نظرة على هذا المسرح الشاسع الذي تحتله آسيا على أرض الكون الذي نعيش فيه ونفهم مصيرها وحضاراتها الغربية. وليس أفضل من خبراء الجغرافيا والصحفيين والمسافرين إذ يستطيعون من كتاباتهم توجيه خطواتنا في البحث والتتقيب مستهدفين فهم كيانات هذه الأمم التي عاشت في آسيا على ألا يتصف سرننا لتلك الحتمية الجغرافية المطلقة، ولم تعد قائمة في آسيا ولا في أوروبا أو أي بلد حركته أحداث التاريخ وتقلباته طويلا وصاغت ملامحه جهود البشر فيه والشرق الأدنى في مجموعه عالم استوائى المناخ شبه مدارى ومن عوالمه مرخل الهند وغاباتها وأدغالها، ومنها الصين الجنوبية بغزير أمطارها وحرارة مناخها وجنوب شرق القارة (أندونيسيا والفلبين) الاستوائيتين بغابتهما

ذات الأشجار العملاقة ونباتاتها الغريبة ومانعيز به بعضها من سرعة النمو (ترتفع مترا كل يوم) يويتنزورج فى جزيرة جاوا. ومع ذلك تظل الهند بنهر الاندوس ونهر الجانج المتوسط والديكان الأوسط الجاف على مبعده من الغات الغربية الجافة المجدبة، والصين كذلك هى الصين الشمالية بمواسم شتائها القارص وأراضيها الغاصة بالطين والغرين ومنشوريا المزدحمة بالأشجار وصحارى الشمال الثلجية وعلى طرفها بكين العاصمة الإمبراطورية والتي تعيش تحت سياط البرد حتى قيل إن الفلاح فى تلك المناطق ينام فى الشتاء فوق فرن ويقول المثل: «مطلوب من كل إنسان أن يزيح ركام الجليد أمام باب بيته ولايعير التفاتا للصقيع المتجمد على القمرمد الذى يكسو منازل جيرانه». ولقد قرأنا لأحد مثقفى القرن الثامن عشر يصف ماكان يحدث فى الشتاء أيام تراكم التجلد عند زيارة بعض أهاليها وأقاربنا وأصدقائنا الفقراء ويطرفون بأبنا يسارع أهل الدار إلى طهو قصعة كبيرة من الأرز وتوضع كميات الأرز فى راحة كل منهم ونضيف فوقه ملء قصعة من زنجبيل منقوع فى الملح والتوابل. كانت هذه الوجبة أفضل وسيلة للتدفئة خصوصا لكبار الس والفقراء. كنا نطهو العصيدة ونرتشفها ونحن نطبق بأيدينا على القدر وكانت رقابنا أثناء الارتشاف تدخل بين أكتافنا وكانت أوصالنا (أجسادنا) تسرى السخونة فيها فننفس وتذب الحياة فى أوصالنا من جديد. حدث عام ١١٨٩ أن كان الجليديكسو «هانج تشو» عاصمة «سونج الجنوبية» وقع على مقربة من «يانج تس كيانج» فكانت فروع أشجار البامبو تنكسر محدثة أصواتا غريبة.

وهكذا نجد أن الجغرافيا - للوهلة الأولى - خير شاهد على تنوعات هذه البلاد ذات الوجود المتعددة ولكن هل نترك الجغرافيا تخدعنا وتضلل خطانا؟ فإن الوسط الجغرافى فى ذاته هو الذى منه نشأت وحدة جنوب شرق آسيا ومع ذلك تبقى حضارة مادية رتيبة تفرض وجودها فى كل مكان وتضاف إلى العوامل الجغرافية والطبيعية والبشرية وهى حضارة قديمة جدا تمتد جذورها إلى عصور سحيقة فى التاريخ وهى نتاج تطورات سيكولوجية فردية وجماعية معاً بحيث يجوز القول إنها مشتقة من نفس الوسط المحلى الطبيعى فهى كائنة بذاتها جزئيا كقوة مستقلة ويدورها حاسمة قاطعة.

وتتضح هذه الحضارة بغير لبس وبصورة رتيبة حيث سبرت الأغوار كما تتفاعل النباتات ذاتيا وسجل تلك الحقيقة ملاحظات المسافرين من الغرب ما أن

تطأ أقدامهم أراضى تلك البلاد. فأهل اليابان لا يأكلون من اللحوم سوى ما يحصلون عليه من القنص كما ذكر أحد الأسبان عام ١٦٠٩ وفى حوالى عام ١٦٩٠ ذكر أحد الألمان بأنهم لا يعرفون الزبد واللبن ويقتاتون على الجوكورت كالصين على الأغذية الخمسة فى الأرض. إذا يعد رقم الخمسة مقدما فى اليابان وهى: الأرز الأبيض كالجليد والساكى وهو شراب مسكر من الأرز نقض الشعير على الماشية ومنه يصنع أحيانا الدقيق وقطع من الحلوى وسنابل الشعير فى الحقول كما ذكر الزائر الألماني نفسه ذات لون أصفر عجيب يمر الناظرين ويقول بيضاء تشبه الفول لدينا ويضاف إليه الدزة البيضاء والخضروات والأسماك وقليل من اللحم، قليل جدا من اللحم دائما وفيما بعد ذلك بعشرين عاما يصف طبيب فرنسى الزحام الشديد الذى يصاحب مركب المغول الكبير كما أوردنج ذيب فى رحلته من دلهى إلى كشمير إذ لاحظ الهزال الذى كان عليه الجنود وما اتسموا به من قناعة فى غذائهم فليس هناك ضمن هذا العدد الكبير من الفرسان من يأكل اللحم طالما حصلوا على الكشرى وهو مزيج من الأرز وبعض الخضراوات الأخرى يصبون فوقها نوعا من الزبد الصفراء الغريبة من اللون الأحمر وهم سعداء مسرورين من طعامهم هذا وكذلك أمالى آشيم فى جزيرة سومطرة فهم متواضعون وقنعون فالأرز غذاؤهم الوحيد كما ذكر أحد الرحالة عام ١٦٢٠.. والذين يتمتعون ببعض الثراء منهم يضيفون إليه بعض الأسماك وبعض أعشاب المراعى. ويجب على المرء أن يكون سيدا كبيرا فى سومطرة للحصول على دجاجة مثوية أو مسلوقة.

وتعيش الصين على الشعار نفسه قال بابا لاس كورتس عام ١٦٢٦: لو أكل الصينيون قدر ما نأكل نحن فى أسبانيا من اللحوم فإن تكفيهم أية خصوبة للمراعى وربما تمتع الأغنياء بشيء من اللحم فوق مواثد يثرونه قطعاً صغيرة لفتح الشهية ليس غير مع قطع صغيرة مما يمتلكون من لحم الخنزير أو الدجاج وكلها مما نطلق نحن عليه بفاتح (للشهية) مجرد فاتح للشهية وهى الملاحظات التى ذكرها رحالة إنجليزى فى القرن الثامن عشر حتى فى بكين التى تصلها حيوانات مضيق المحيط الهادى ذلك أن الشعب لا يأكل سوى قليل من اللحوم يعزجها بالخضراوات لإعطائها بعض الطعم أما اللبن والزبد والجبن فيعرفها الصينيون

معرفة قليلة وليس معنى ذلك أنهم ينفرون من اللحوم بل على العكس تراهم إذا نفق حيوان إثر حادث أو مرض بقرّة أو جاموسة أو جمل أو خروف أو حمار سرعان ما يأكلونه ولا يفرق هذا الشعب بين اللحوم الجيدة واللحوم القذرة (الصالحة وغير الصالحة) ويضيف هذا الرحالة الإنجليزي باشمئزازاً؟! قائلاً: فى الصين يأكل الناس الشعابين والضفادع والجردان والكلاب والجراد وإلى جانب هذه المشاهد كلها نجد عدداً من المؤشرات التى تعرفنا بالأداب الصينية الرائعة الدقيقة وفق المراد وهى تصف موضوعات الحياة اليومية لهذه الشعوب ومن بينها شخصية تلك القصة التى تحكى عن أرملة ذات شخصية مثيرة للسخرية إذ تريد يوماً على الغداء بطّة واليوم التالى سمكا والذى يآيه خضروات طازجة وحساء من براعم الخيزران المستخرج من أشجار البامبو كما تحب على مائدتها البرتقال والبسكويت ونباتات النيلوفر (السوش) وهى تشرب كثيراً من نبيذ الأرز وتأكل كل مساء طيور المقلبة (المعكرة) ومحاررات السرطان المملحة كما تعب لثراً من رحيق الزهور. وما من شك أن كل ذلك مظهر من مظاهر الفساد والزهو الكاذب وما إلا نزوة من نزوات الأثرياء.

وكتب تشيخ بان كيا وهو من المثقفين الشعراء ورسام وخبير نسخ (١٦٩٣ - ١٧٦٥) يقول: كنت أتمنى أهل بيتى يشاركون فى أيام الأعياد وأن تحتوى المائدة على الأسماك والأرز والفواكه والحلوى وتشمل الأطعمة التى يشير إليها فى مصنفاته حلوى الحنطة والعصائد الكثيفة والأرز الساخن وهذا هو المعيار القياسى لمظاهر الثراء والواسع الذى يمتلكه واحد من أصحاب دار الرهونات الذى يتاجر ويقرض أمواله بالربا شأن هذه القصص التى تروى عن بخلاء العصور الوسطى ممن يغتبطون لرؤية كل ضروب المال، يجدونه فوق الأرض ويتغذون بطبق من الأرز البارد يرشونه بالماء المثلّى لتدفئته ولم يتغير شيء حتى اليوم ولقد كتب صحفى عام ١٩٥٩ مشيراً إلى ما يتمتع به المخبّخ الصينى : أعرف أن المطبخ الصينى كان دائماً يقنع بالكفاف وبأقل التلّيل حتى يتمكن من إطعام عدد هائل من السكان حيث لا يسمح بتبديد هذا المقدار من السعرات الحرارية التى تحتويها الأبقار وهو شعب يجاهد بالانتفاع بما نلقيه نحن فى سلة المهملات ويظل الشعب

الصيني نباتيا يستخلص ٩٨ ٪ من السعرات الحرارية من الحاصلات النباتية ولازيد ولاجين ولاالبان وقليل جدا من اللحم وقليل جدا من الأسماك ويحصلون على هيدرات الكربون جزئيا من الذرة البويضاء والقمح الآتى من الشمال ومن الأرز السائد بكثرة فى الجنوب ويحصل على البروتينات من فول الصويا ومن حبوب الخردل ومن مختلف الزيوت النباتية.

بلد واحد فقط فى آسيا يتغير اليوم فى هذا المجال ويتشكل وذلك بالزيادة المطردة فى استهلاك مقادير هائلة من الأسماك وخاصة ما أخذ به من الاعتماد على اللحوم .. ذلكم هو اليابان .

إن توفر الأرز فى كل مكان من الجنوب الشرقى لآسيا وتصديره إلى المناطق الشمالية هما - فى رأينا - علة هذا النظام النباتى الذى عرف عن سكان هذه المناطق .

والمعروف عن الغرب أن سكانه يتغذون بالقمح أو الحبوب البديلة ولهذا اضطروا الغرب إلى التزام نظام تعاقب دورات الزراعة مع فترات راحة يتيحها للأرضى الزراعية (وهو ما عرف بالزراعات الموسمية) وبدونها تفقد الأرضى ماكانت تغله من محاصيل وكان جزء من الأرض قد ترك تلقائيا للمراعى والمروج والكأ ذلك أن إنتاج القمح يحتاج إلى معاونة حيوانية كبيرة وعلى العكس من ذلك نجد أن زراعة الأرز تجرى على مساحة الأرض نفسها كل عام على التوالى دون توقف وتجرى النسبة الكبيرة من العمل بالعمل اليدوى أما الجاموس فيستخدم فى حرث مزارع الأرز المليئة بالطين وهناك فى كل مكان فلاحه دقيقة للبساتين وكلها تفلح بالعمل اليدوى وفى مثل تلك الظروف يكون استعمال اللحوم للتغذية تبديدا غريبا غير واقعى ذلك أن الحيوانات تتغذى على الحبوب أما الإنسان فيفضل أكلها بنفسه وقد أدى هذا النظام إلى صعود ديموغرافى كبير نسبيا (زيادة فى عدد السكان) بأكثر من أى نظام غذائى آخر يعتمد على لحوم الحيوان فى التغذية ومن المعروف أن عدداً يتردد بين ستة وثمانية من الفلاحين يستطيع إعداد وتوفير ما يحتاجون إليه من غذاء من غلة هكتار واحد من الحقول إذا كانوا يعتمدون فقط على التغذية النباتية .

ويقدر متساو نجد أن إنتاجية البشر النباتي أعلى بكثير من إنتاجية الآخرين وهو ما يفسر تلك الوفرة المذهلة في مجال «تفريخ» البشر ومما لا شك فيه أن الزيادة المطردة في عدد السكان في الهند ومثلها في الصين أمر واقع حديث ذلك أن نقطة البداية كانت في الجنوب الصيني حيث تسمح أراضيها بما يسمى بالمحصول الثنائي السنوي بحيث في القرن الثامن عشر وصل مقدار الزيادة في عدد السكان على الأرجح إلى ما يقرب من ١٠٠ مليون في القرن الثالث عشر وابتداء من القرن السابع عشر فقد أصبحت تلك الزيادة تثير العجب بحيث يستحيل على هذه الجموع الغفيرة ولو أرادت أن توفى غذاءها إذا غيرت النظام النباتي الذي تعودته ولذلك فالسكان مرتبطون بقوة بنظام حضاري صارم لا يستطيعون منه فكاً ولا يستطيعون سوى السير في الطريق الذي رسمته لهم تلك الحضارة .

ونجد منذ القرن الثامن عشر أن عدد سكان الهند قد تخطى المائتين مليون وحسب نظرية ويتفوق جيل فإن حضارة الأرز تستتبع نظام ري اصطناعي مثقل بنظام انضباط . صارم في أبعاده الوطنية الأهلية وتنعكس آثاره على التوجهات الاجتماعية والسياسية .

فبالأرز ارتبط سكان الشرق الأقصى ارتباطاً وثيقاً وبالماء ابتداء من «خزانات» مياه الهند الجنوبية إلى مياه وادي الهندو جانجيتيك كما يعتمدون كذلك على آبار وقنوات تتدفق من مجارى المياه .

وفي الصين نجد الأمر نفسه حيث يتخذ نظام الري كافة الأشكال فهو مرتبط بالأنهار الساكنة في الجنوب وبمواسم الفيضانات المألوفة المنتظمة لبحيرات بويلخ وكوتج تلج على أطراف نهر اليانج تسد وكذا آبار وقنوات كالقناة الرئيسية وهي القناة الممهدة لتكون وسيلة انتقال من جهة وتستخدم للري من جهة أخرى والأنهار المتوحشة المنحدرة من الشمال مثل نهر بوى هو ونهر هوانج والأخير كان من الضروري حجز مياهه بالسدود ثم ترويضه وقهر نزواته في الفيضان المدمر وهي نزوات تحدث في مواسم معينة ولا زالت تقع حتى اليوم ولذا تجرى نظم الري في كل مكان من أراضي القارة سواء في أطراف جزر الفلبين أو شواطئ جاوة أو الصين الكانتو فيه (مقاطعة كانتون) وكما في اليابان بالقنوات التي تعد من أعواد البامبو (الخيزران) أحياناً كثيرة وكذلك بالمضخات البدائية أو الحديثة

حيث فرضت نظم الري هذه نظام انضباط صارم فى العمل والطاعة كما كان النظام فى مصر القديمة وهو نظام رق تفرضه احتياجات الري.. وقد مهدت وسويت الأراضي الواطئة ورفع منسوبها لتصلح لزراعة الأرز التى امتدت رويدا رويدا لتشمل كافة الأراضي التى يمكن ريها بالمياه فتتحسن تربتها بفضل الحبوب المنتفخة بعناية تسمح بظهور محاصيل سريعة مبكرة وتزدت زراعة الأرز منذ ذلك الحين إلى ظهور نظم حكم بيروقراطية مستبدية وإلى بروز عدد وفير من ممثلى الدولة ومدوبيها لتنفيذ أوامر الدولة ومتابعتها هذا التقسيم الذى يقبل الجدل فى أكثر جوانب تفاصيله كما أثاره معارضوه بصورة أدق فى ظل مبدأ الحماية التى تقول بأن أفعال الإنسان والتغيرات الاجتماعية عوامل لاسلطة للرد عليها وتقصد بها حتمية ماتفرضه المياه وترويقيها .. المياه الضرورية لزراعة الأرز بل للأرز ذاته.. كل تلك الضغوط لاتمثل سوى عامل واحد من العوامل الضرورية لتوطيد نظام اجتماعى أعقد من ذلك بكثير .. كل هذا يمثل حقيقة يجب ألا تغيب عن بالنا وأنظارنا وعلى ذلك فلا ينبغى كذلك لضغوط حضارة الأرز وحتمياتها أن تغيب عن أبصارنا وإن كانت دائما ولازالت فى الحساب كما أن هناك مناطق شاسعة تظل مهجورة وموحشة (برية) فى الشرق الأقصى .

تنمو وتزدهر خاصة حضارات السهول والأراضي المنبسطة المرتبطة بنظم الري كما تظل حقول الأرز المغمورة بالمياه والواقعة فوق سفوح الجبال إحدى الحقائق وقد نشاهدنا فى مساحات ضيقة نسبياً أو فى مناطق مكتظة بالسكان حيث صار العمل الشاق الكبير على تلك السفوح بنظام مستوى المياه ممكناً . وهكذا كان الوضع فى جزيرة جاوة حيث أثمرت الدقة والدأب زراعة كثيفة إذا لا يمتلك الإنسان المتمددين فى الشرق الأقصى سوى قطعة زهيدة من الأرض أما سائرنا خصوصاً فى العروض العليا (الشمال) والمناطق المعزولة وذلك فضلاً عن جزر معينة هى مأوى لسكان وزراعات بدائية وينقلنا كتاب جورج كوندوميناس إلى القرب من سايجون خلف المصيف المشهور الدالات القريب من موقع إحدى القبائل البدائية التى تعيش على ماتتيحه لهم غابة تمكنوا من زراعة جزء منها كل عام حيث تطوق الأشجار ثم تقطع وتزرع الأرض بعد تنظيفها مما عليها بإعداد

حفرة سرعان ما تفتح لغراس الحب بضغطها فى الأرض بإيهام القدم أما المحصول الرئيسى فهو بالطبع الأرز المزروع بالطريقة البعلية (أى بدون رى الأرض) وتزرع رقعة من أرض الغابة كل عام ويعودون بعدما يقرب من عشرين عاما إلى الرقعة التى بدأوا بها، سارت الأمور على مايرام أى بمعنى أن تكون الغابة التى تركت هذه المدة الطويلة نسبيا قد «استراحت»، ويسمى هذا النوع من الزراعة المتجولة والمتنقلة «لاونج باللغة الماليزية، ويمكن مشاهدتها فى كل مكان تقريبا وتحت مسميات متنوعة وهى أسلوب من الزراعة البدائية من الوجهة العملية دون عون الحيوانات الأليفة ويكفى إنتاج هذا النوع من الزراعة لإقامة أود آلاف من سكان هذه المناطق المتخلفة تخلفا كبيرا ومن الطبيعى أن الأزمنة الحاضرة لم تعد تشجع على بقائها بل ولا وجودها... ومع ذلك نجد أنها لازالت صامدة فى مناطق تعيش على هامش الحياة.

هذا على عكس الغرب حيث استطاع فى زمن مبكر دمج سكانه البدائيين ممن كانوا على الفطرة وإن لم يعدم مناطق متخلفة فى شبه عزلة يسهل التعرف عليها حتى اليوم، غير أنه استطاع ضمها وتعليمها الدين المسيحى بل ونقلها إلى مواقع المدن واستمالة قواهم الحيوية وترويضها. ولكن شيئا من ذلك لم يحدث فى الشرق الأقصى وهذا الفرق الشاسع توضحه حقيقة شعوب كثيرة فى الصين لم يدمجوا إلى اليوم فيها كما نرى فى الهند قبائل عديدة تعيش خارج المناهج التى تعودها الأهلون فى معيشتهم بحيث يمكن القول إنهم خارج نطاق الحضارة الهندية وفى تفاصيل مآزونه كتابات الماضى والحاضر، ما كان عام ١٥٦٥ وفى ساحة القتال فى تاليكوتا مملكة الهند وفيد شايناچار فى منطقة الدوجان رانو بالرغم من مليون محارب فقد تعرضوا لضرب الخيالة حتى الموت فضلا عن مدفعية سلاطين الإسلام وإذا المدينة الرائعة الواسعة تصير فجأة بغير دفاع. وما من سبيل لسكانها إلى الهرب حيث انسحبت المركبات والأبقار المعدة للحرب مع فلول الجيش غير أن المنتصرين لم يكونوا هم الذين نقصدهم بأعمال النهب والسلب إذ تباطأوا فى ملاحقة المنهزمين وذبحهم بدلت من اقتحامها عشائر البدائيين وقبائلهم من سكان الضواحي فاندفعت عشائر البدائيين من سكان الضواحي نحو المدينة فأعملوا

السلب والذهب. وتركوها خاوية، أولئك هم سكان برنزشايس المشهورون بجسارتهم وجراتهم وقبائل لامباديس وكورومباس.

وكلهم انقضوا على المدينة فنهبوها وسلبوها كل شيء وحدث أن تاجراً ألمانياً كان في طريقه إلى سيام فقابلته تاجر ياباني كان قد غرق منذ بضعة أعوام سابقة عام ١٦٨٢ قرب جزيرة قفر قرب ساحل لوسون وباح له بأسراره فقال: «كنا عشرة نجونا من الغرق فوق هذه الجزيرة الفاصلة وكان علينا أن نتغذى على بيض الطيور وهو هناك بكثرة والطيور هذه متوحشة وكذلك كنا نقنات على المحار ومحتويات الأصداف التي كنا نجدها على الشواطئ والصخور الكثيفة وبعد مرور ثماني سنوات في هذه الحياة الشاذة التي تكاد تكون خارقة لغرابتها تمكنا من صنع قارباً أقلعنا به وأخيراً وصلنا إلى جزيرة هاينان منهوكى القوى وهى جزيرة فى خليج تونكين وقد نجوا من موت محقق». وهذه الجزيرة الأخيرة سكانها صينيون والنصف الآخر بدائيون متخلفون وقد كان من حسن حظهم أنهم نزلوا على شاطئ الجزء الصينى وإلا كان نصيبهم القتل.

وفى عام ١٦٨٣ قام الصينيون بغزو جزيرة فورموزا حيث ظلت منقسمة جزء صينى وآخر غير صينى مثلها مثل بقية أجزاء القارة واليوم نجد أن تعداد الصين حالياً، ومنها شعوب غير صينية وتظل الصين بلداً مثيراً للدهشة والنسبة المئوية للسكان غير الصينيين ٦٪ فقط أى مايقرب من ٣٦ مليون نسمة ٦٠،٠٪ من الأراضى الصينية بما فيها تلك المناطق «الشاردة» مثل كوى والتركستان والتبت التابعة للصين على مستوى الموقع الجغرافى ومع ذلك تظل تمثل الغالبية.

وتضم الصين أربعة شعوب هى تشدوانج كوانجس ومياوس وشعوب الليس وشعوب القاييس والبيس وهى شعوب متناثرة موزعة بكثرة فى أراضى الصين من منطقة يونان حتى كان سو وشعوب هوفيس سكان كان سو والياوس وفى مواجهتهم كلهم نجد أن سياسة الدولة الصينية الإمبراطورية وبالأمر صين تشانج كاي تشيك كانت سياسة تمييز عنصرى صارم وللتدليل نذكر أن المرء يقرأ على أبواب مدينة بيس «ممنوع على سكان مدينة بيس التجمع أو السير فى مجموعات تزيد على ثلاثة أفراد فى الشارع» وكذلك نقرأ «ممنوع على سكان مدينة بيس

المرور فوق الجياد، وقامت الصين الحالية بتحسين أوضاعهم فملحتهم نوعاً من الحكم الذاتى وهو نمط يغاير شبه الاستقلال الذى منحه السوفيت للأقليات العرقية .

وعموماً فإن أفراد هذه المجتمعات المتأخرة بما فيهم عبيد قبائل اليبس من لانجهان وبما فيهم كذلك من عبيد أولاً لدى سكان النبت، انقلبت أوضاع تلك الشعوب حيث شرع فى أعمال حاسمة تستهدف توفير حياة كريمة ومن بينها توفير الدولة لهم لغة يكتبونها . وهكذا نجد الصين اليوم تهتم بمصالحهم ولكن المؤكد أن هذه الشعوب تشعر بدلاً من الارتياح والغبطة بالانزعاج وهى ترى انحسار التخلف الذى عاشت فيه وتظل فيما بين أحضان الشعوب المتأخرة بين فلول الحيوانات المتوحشة بجوار المناطق التى لحقت بها مظاهر التمدن العصرى .

بتلك السمة الأخيرة يتميز الشرق الأقصى فى مجمله إذ تتكاثر الحيوانات المتوحشة بوفرة عجيبة منها الأسود من منطقة البنجاب والخنازير البرية من سواحل سومطرة وتماسيح الأنهار فى الفلبين وتتجد فى كل مكان تلك الوحوش النمر اللص آكل البشر وتلك هى إحدى حقائق اليوم كما هى إحدى حقائق العهود الغابرة فى الحكايات التى تروى . ومنها كارواحد من المبشرين وهو الأب اليسوعى الأسباني وكان زورقه قد تعرض للغرق عام ١٦٢٦ قرب سواحل مقاطعة كافتون فتحدث عن هذه النمر الكثيرة المنتشرة فى الحقول الصينية وقد تصل إلى أطراف المدن وتدخلها بحثاً عن فريستها من البشر . وفى عام ١٦٦٠ قام طبيب فرنسى وهو فرانسوا برنييه بزيارة دلتانهر الجانج وقال فى سياق حديثه عن البنغال وعن النمر فيها بأنها المنطقة الأكثر ثراء والأكثر اكتظاظاً بالسكان وهى هبة الجانج تماماً كما أن مصر هبة النيل وهى منطقة عامرة بزراعة الأرز والسكر وبين ما تتمتع به من عوامل الازدهار نجد أمثال هذه الجزر القاحلة حتى بين فرعى النهر يعج بالنمر ويؤمها القراصنة ويضيف برنييه قائلاً : « ليس بهذه الجزر من السكان سوى النمر التى تسبح أحياناً بين جزيرة وأخرى قد تعثر على الغزلان والخنازير بل وعلى مجموعات من الدواجن التى توحشت بحكم البيئة (فصارت متوحشة) فمن الخطورة بسبب هذه النمر أن يحاول الإنسان وضع

أقدامه فى الأرض عندما يقرر السفر والترحال بين هذه الجزر كما يجب الاحتياط
بالأ ترابط المراكب قرب الشواطئ فى جذوع الأشجار إذ لابد أن نجد بعض الذين
يقعون فى القفاخ يدعون بأن بعض النمرور الجسورة قد توغلت بين الزوارق
والتهمت البحارة أثناء نومهم، وتضيف القصص بأن النمرور كانت تختاز فريستها
من بين الرجال «السمان» الممثلة أجسادهم بالشحوم!!

التخلف فى مواجهة الحضارة شهادة التاريخ

كان ممكنا للحضارات العظيمة لكل من الهند والصين أهم بلاد الشرق الأقصى أن تعيش فى سلام وهدوء ما لم تنغص عيشها تلك المناطق القابعة فى عهود همجية متوحشة داخل أراضيها ويعيش قاطنوها على نظم الزراعة «آكلة الغابات» وأبرز أوجاعهم إنما تصدر عن هذه الصحارى الشاسعة غرب الصين وشمالها وشمال الهند وغربها حيث المناخ الملتهب تحت شمس الصيف وتحوطهما فى الشتاء الثلوج وتكاد كتل الجليد تدفن سكانها وفوق هذه الأرضى القاسية المتوحشة اللا إنسانية تعيش شعوب من أجناس متعددة من رعاة أغنام كالأتراك وقبائل التركمان والقرغيز لإحدى الجمهوريات السوفيتية الآن، والمغول وحشود من الفوارس يعرفهم التاريخ وهم اليوم على فطرتهم كما كانوا قديما بما يكشف عما هم عليه من طبائع عنيفة وميل إلى غارات السلب والنهب على جيرانهم وتمتعهم بهذا النوع من الشجاعة والجسارة الطائشة التى تصل أحيانا إلى حد الجنون محتفظين بآخر ما جبلا عليه من عظمة تاريخية حتى منتصف القرن السابع عشر حيث استطاعت الشعوب الحضارية منذئذ بفضل «بارود» المدفع أن تتغلب عليهم فكان أن انكمشوا واستكانوا وقبعوا فى مواقع بعيدة فصاروا كمأ مهملا قليل الأهمية ولكنهم صمدوا صمودا بائسا مخلدين إلى معيشة كلها تقتير حتى عصرنا هذا ولا تعتبر بلاد المغول

اليوم بشقيها الداخلى والخارجى أى الصين والسوفيت وبلاد التركستان كذلك بشقيها الصينى والسوفيتى بلادا رئيسية أو أساسية بمقياس شعرب الدنيا وإنما ينصرف الاعتبار إلى مساحات بلادهم ومطاراتهم التى ليست ملكا لهم.

ولكن لماذا نهتم بهذه الشعوب من رعاة الأغنام الرحل فى حديثنا عن أحداث الحضارات ووقائعها ذلك لأن ترفاتهم المؤثرة كانت عنصراً فاعلاً تمكن يقيناً من تأخير يدعو حضارات كبرى مجاورة وتطورها. يقول هيرمان جوبتز فى موسوعته الصادرة عام ١٩٢٩ عن عصور الحضارة الهندية عن الهند بما يصدق. كذلك بغير شك عن الصين: إن الهند لم تنفتح فعلاً على عالم البدو الرحل إلا عند ممر خيبر الضيق عبر الجبال الأفغانية حيث كان من حظها السيئ وقوعها على حواف منطقة جوبى الشاسعة بدعما سور الصين المشيد منذ القرن الثالث قبل الميلاد وبعد عائقاً حربياً هاماً أكثر منه رمزا مؤثراً إذ أتيح اجتيازه آلاف المرات ويقول أودين لاتييمور من علماء الحضارة الصينية: إن هؤلاء البدو الرحل غلا حوض قدامى أبعدهم نظام زراعة متميز متقن نحو الشمال إلى بلاد الشعوب «آكلة الغابات»، وخاصة نحو أطراف الفيافى والغابات الصحراوية فلم يجد هؤلاء الفلاحون المبعدون عن المناطق الثرية ملائماً يؤوبهم إلا تلك المراعى الشاسعة المتواضعة ولنا من ثم أن نتساءل هل كان ذلك حضارة أم تخلفاً همجياً إذ جعلت من الزراعة القدامى رعاة أغنام رحل؟ ومع ذلك فمن هذه المآرى يعود الهمجى بلانهاية إثر الأزلمات الداخلية والثورات الاجتماعية وتزايد السكان إلى حد الانفجار والهرب إلى مواقع الحضر ولما كان هذا التدفق نحوها يتم بهدوء وسلام بل يقبل المتخلف فى صورة الفتسلط ومظهر المنتصر وما هو إلا ناهب ينقض للسلب. وهكذا نرى راعى الأغنام يحتقر ويزدرى ساكن الحضر المسكين المقهور. ولنستمع إلى حديث بابر إذ استولى عام ١٥٢٦ على شمال الهند على أن الهندوستان إن كانت بلاداً ذات سحر فقد كان سكانها يفتقدون البهجة وسعة الصدر فلا تجد فى المعاملات التجارية معهم ليونة أو نوعاً من التراضى والرضا بل ولا حتى الرغبة فى تواصل علاقات تجارية وهم ليسوا على قدرة فى العمل ولا لهم تلك البشاشة الاجتماعية المحببة ولا هم كرماء أو أذكفاء ولا فيهم مشاعر الرجولة

ولا هم كما فى مداركهم وأعمالهم يرتدون ملابس ذات مظهر لائق وذلك فضلا عما ينقصهم من المبادئ والقواعد فى العمل وما يفقدون من خيول جيدة أو لحوم شهية ثم لا عذب ولا شمام ولا شىء من فواكه لذيدة الطعم والمذاق وهنا لا نجد الثلج وتفتقد الماء الطازج ولا تستطيع فى الأسواق الحصول على أطباق الأطعمة المرغوبة ولا الخبز الجيد ولا يعرفون معنى الحمامات ولا الشموع ولا المصابيح ولا الشمعدانات... كل هذا ليس معروفا لديهم.

وفيما عدا الأنهار والينابيع والجداول التى تنحدر فى الأودية والوهاد وتجاويف الأراضى فليس لديهم سواء فى حدائقهم أو قصورهم المياه الجارية وتفتقد معانيهم الرونق والجمال والتهوية والنظام والفخامة ونرى القرويين والطبقات الفقيرة عراة يمشون عادة وكل ما يرتدونه فوق أجسادهم لباس يطلقون عليه اسم لانجوتا لا يعدو قطعة قصيرة من قماش تتدلى من أجسامهم تحت السرة ومن تحت هذه القطع الصغيرة أخرى يثبتونها بين الفخذين كجدائل اللانجوتا يدخلونها فيها لربطها من الخلف وتربط النساء حول الجسم رداء اللانج يتكون نصفه متدليا على الخصر والنصف الآخر فوق الرأس.

وأهم ما يتميز به «الهندستان» بالإضافة إلى مساحة أراضيها الشاسعة، مقادير الذهب الكبيرة سواء سبائك أو مسكوكة نقودا به وهكذا نجد هذا المسلم من التركستان ومن أعلى قمة انتصاره ابتداء من صحرائه ومرورا بخيلانه بوصفه راعى غنم رحال ومن غلو عظمته الإسلامية التى ينتمى إليها، نجده ينظر إلى الحضارة الهندية القديمة وفنونها وفنون عماراتها، تلك النظرة غير المستحبة.

أما غزوات المغول الكبرى فلا يهمننا هنا الإشارة إلى تفاصيلها إلا فى نطاق ما أثارته من قضايا بين كل من الهند والصين وذلك فى نزاعات تدمى ضرياتها قلبيهما كل مرة.. ومع ذلك على أثر موجتى الغزوات الكبرى وكانت الأولى بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر والثانية بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

وربما كانت علة ذلك بما قيل منذ بداية القرن الخامس عشر من وصف الصين «بالرجل المريض» الذى يجتذب المغامرين من معتادى السلب والنهب الطامعين فى أراضيها وقد توفى عام ١٤٠٥ تيمور لذك.

ويعد الهجوم على الصين وغزوها تيمورلنك. ولد عام ١٣٣٦ بمدينة كيش قرب سمرقند ملك على ما كان يسمى دولة ترانتسوكيان منذ عام ١٣٧٠ حتى ١٤٠٥ ثم اجتاحت أراضي إيران ودمرها وأشاع فيها الخراب ومات أثناء إعداداته لحملة حربية يغزو بها أراضي الصين. وعلى كل حال ففي كل مرة يهب فيها عالم البدو الرحل، المقاتلين بطبيعتهم فإن أراضي كل من الصين والهند هي التي تتحمل الضربات القاتلة العنيفة بحيث يطرق أبواب عاصمتها المغيرون وهناك أربعة تواريخ تكررت اثنتين اثنتين كما قيل: ففي عام ١٢١٥ عام الأبقار استولى جانكيز خان على بكين وفي عام ١٦٤٢ اندفع المانشو (شعوب مقاطعة منشوريا) تعززهم جحافل المغول يستولون مرة أخرى على بكين عام ٥٠ ثم يعاود تيمور لنك عام ١٣٩٨ الاستيلاء على دلهي، وفي عام ١٥٢٦ يتمكن باير من الاستيلاء على دلهي تارة أخرى.

وكل هذه الأحداث كوارث لا توصف إذ تفنى كل مرة ملايين من الأرواح. الغرب بعيد لا يقدم على مثل تلك الأحداث حتى في حروب القرن العشرين التقنية فلم يعرف الغرب موجات المجازر هذه ولا تعميم انتشارها وقد وقعت في الهند حيث تندلع تلك الحروب المتعددة وينشب الصراع بين حضارتين حكاية رهيبة خلالها لم تصمد فيها إلا بفضل ما أوتيت من قدرة عظمى على الحياة والبقاء ولا ننسى أن قبائل البربر الذي اجتاحتها الهند كانوا قد تحولوا إلى دين الإسلام، كما أن صمود بلاد الهند حيال تلك الغزوات إنما يعود كذلك إلى أن اكتساح أراضيها لم يكن تاما حتى لسان رأس كوزموران وربما عاد إلى موجة من موجات النزوح (الهجرة) المرتبط ببلاد المحيط الهندي.

وكان تلاطم أمواج البحر بالنسبة للهند كما هو بالنسبة للصين إنما يعنى خاصة موجات تدميرية وعوامل تكبح جماح المغيرين وتمتصهم ولكن كم كان الثمن؟ تراه المفتاح الرئيسي لمصير الشرق الأقصى وقدره... يصعب الحكم وربما استطعنا تأييد هذا الرأي بالنسبة للهند ونسأل هل المغير (الهمجي) هو المتسبب والمستول؟ عن التنقلات في الموقع والزمن وهي أمور كانت تتلاحق وتتصاعد إذا

قورنت بأحداث الغرب، فالهند إنما تتبع جذورها منذ ألفى سنة قبل الميلاد حيث يماثل الآريون من البنجاب أسلاف اليونان القدماء شعوب الكلت والأثيواليين والجرمان كما تماثل الإلياذة والأوديسة تلك الروح الفروسية التي تنبثق من روايات مهاباراتا التي ألّفها في القرن الخامس قبل الميلاد في عصر بوذا حيث يمجّد حروب شعوب الهند في مقاومة الغزاة الطامعين في سهل سهر الجانح الأعلى ويعج شمال الهند بالجمهوريات الأرستقراطية والممالك الصغيرة التي تضارع ممالك هيل وهيلاس وهي المقاطعات الوسطى لليونان القديمة مع مشروعات لخطط تجارية مع جيرانها. وفي القرن الثالث شبه تشاندراجونيا ومعه أزوكا أول إمبراطورية قدر لها أن تضم أفغانستان والهند كلها باستثناء الجرف الجنوبي الذي لا يخضع بظروفه دائما إنه العصر الذي بدأت فيه تظهر ملامح الإمبراطورية اليونانية المقدونية التي سيدها الاسكندر. ثم كان مع ميلاد المسيح وعن طريق بداية الشمال الغربي أن بدأ غزو شعوب السكيثيين. وهي من أصل إيراني وأدت إلى ظهور إمبراطورية جوتبا العظمى فيما بين القرنين الثالث والرابع وتجدد في عصرها القتال اللانهائي بسبب الهند وكان رجال هذه الإمبراطورية الوليدة خليطا من مقاتلين ذوى بشرة فاتحة وآخرين ذوى بشرة قاتمة وسرعان ما ظهرت جحافل الفلاحين المستعبدين، وفيما بين القرنين العاشر والثالث عشر ظهرت الدول الإقطاعية كما وقع في الغرب في القرون الوسطى وقد لا يكون هناك وجه شبه وخاصة من ناحية أشكال الإقطاعيات والمجتمعات هنا وهناك ولكن لم يكن في كل من الجانبين فروق في المستوى حتى القرن الثالث عشر حين انطلق إعمار المغول الرهيب.

وهنا بدأ التحول التاريخي الكبير يثبت لنفسه موقعا بالتدرج المتصاعد. وقد واجهت الصين بالتدرج المتصاعد القضية نفسها بالقياس إلى تأخر نموها وتأخر تطورها بتأثير غزو المغول عام ١٢٧٩ وغزو قبائل المانشو (من أقاليم منشوريا) من ١٦٤٤ حتى ١٦٨٣ وكانت الصين فنياً وعلمياً على درب التقدم حتى القرن الثاني عشر على الأقل ثم تبدأ الصين في الابتعاد عن مسار التقدم والتطور... بعيدا عما وصل إليه الغرب.

ولا سديل على كل حال يقيناً أن نحمل المغيرين من السهوب والفيافي كل المسؤولية عن المصير المضطرب الغامض... مصير الشرق الأقصى صحيح أحدث المغيرون دماراً رهيباً ومع ذلك أمكن إصلاح كل شيء وأمكن مع الزمن للنجروح أن تلتئم التئاماً قد نقول تاماً وكانت الغزوات التي وقعت في الغرب تعني هلاك حضارات وميلاد حضارات جديدة. فقد كانت هذه الغزوات بالنسبة للصين والهند بمنزلة كوارث مادية، لا أكثر. ولكن دون أن تغير من الحقيقة شيئاً فلا هي على الصعيد الشكلي في قوالب التفكير وأشكاله ولا هي أدخلت تعديلات على الأسس الاجتماعية السائدة ولم يحدث أبداً مثل تلك القفزة الهائلة التي تضاهي، بتلك القفزة التي نقلت الحضارة اليونانية القديمة إلى روما ومن روما إلى المسيحية أو مضاهاتها بعبور الإسلام بلاد الشرق الأوسط.

هذا النوع من الإخلاص للذات في بلاد الشرق الأقصى ومقاومة كل جديد ودخيل لدرج الجمود إنما يعودان من غير شك إلى عوامل وأسباب داخلية لعلها تفسر ولو جزئياً علة تأخر بلاد الشرق الأقصى وهو تأخر نسبي على كل حال وذلك أن الشرق الأقصى لم يتراجع في الواقع إذ صمد في موقعه كما كان على مدى قرون وقرون على حين ينمو العالم ويتقدم مبتعداً عنه يوماً أكثر فأكثر.

جذور سحيفة أسباب الجمود الثقافي

مما لاشك فيه كل شيء استقر قرونا قبل التاريخ ومنذ بدء الحضارات إذ تبدو حضارات الشرق الأقصى مجموعات خليفة أن تتضح نضوجا جد مبكر ولافت للنظر فى إطار يجعل من أسسها وأركانها الرئيسية شيئا شبه ثابت ولا يتغير إذ جنت منه ما قد نطلق عليه «وحدة» وتماسكا وتلاحما وكلها عوامل بل حقائق تثير الدهول ولكنها على المقياس نفسه صعوبة قصوى فى مجال التطور الذاتى بل وفى الرغبة والقدرة على التطور، كأنما كانت هذه الشعوب ترفض أو ممتنعة فى عناد عن التغيير والتقدم.... وعمر كل من حضارتى الشرق الأقصى الكبيرتين أكثر من ألف عام وذلك ما يجب ألا ننساه وعلينا محاولة فهمه متجاهلين تجاربنا فى الغرب.

فالإنسان فى كل من الصين واليابان غير قابل للهدم رغم بلادهم المشيدة من خفيف مواد البناء فهم ليسوا بشر الأس بل بشر ماضٍ سحيق شأن مصر الفرعونية مع الإقرار لهم بالتمكن فى الاحتفاظ العجيب بجذورهم كما نجحوا فى الوقت نفسه فى التأقلم على نمط الحياة العصرية كلها مع الحفاظ على عقائدهم القديمة وبعض من آدابهم وسلوكياتهم وصيانتها ولازالت الهندوسية حية وهى الأساس الثابت للحضارة الهندية كلها ولم يطرأ عليها تغيير منذ أكثر من ألف عام

قبل الميلاد قد تواصل خلودها وهى الديانة الشعبية عن طريق الآلهة تاو وكذلك عبر الكونفوشية والبوذية التى لم تستطع يقيناً إبطال هذه الشعائر إذ هى حية حتى اليوم وبهذه الأشكال الدينية والعقائد المتنوعة القديمة والحية ترتبط كيانات اجتماعية عانت كذلك قسوة الحياة مثلها ونقصد بها نظام الطبقات الشعبية والروابط الأسرية والاجتماعية فى الصين ويبدو فى الحالتين أننا إزاء نوع من الدوام اللانهائى والخلود وثيق الارتباط أحدهما بالآخر. ويظهر طابع هذه السمة من تلك الثقافات الأولية البدائية التى تتداخل فيها تداخلاً كاملاً كل أنماط الحياة والفكر وأشكالها وذلك فيما قد نطلق عليه إلهام ما فوق الطبيعة، أو الوحي بما قد يعد مثيراً للبلبله إذا تعلق الأمر بحضارات متطورة فى مختلف مجالاتها إلا الصين والهند ومع ذلك يظل هذا الإلهام لافتاً للنظر إذ يتجاهل الشرق الأقصى على عكس الغرب الذى يحتم الفصل بين ما هو بشرى إنسانى وإلهى ربانى تلك التفرقة وذلك التمييز، فالدينى يتمازج ويختلط بكل أشكال الحياة البشرية، فالدولة هى الدين والفلسفة هى الدين والأخلاق هى الدين والعلاقات الاجتماعية هى الدين يسهم الدين ويشترك فى كل هذه الأشكال تماماً وتتبع من المقدس.

ولا شك تستنتج منها ميولها نحو الثبات والبقاء والخلود وعلى عكس يثير فضولاً لا يسهل إدراكه، نجد أن هذا الإلهى الربانى يمتزج بكل تصاريف الحياة بل ويمتزج فيها بالمتبدل والأشد ابتدالاً وذلك فى الغالب بالنسبة للغربى الذى اعتاد الدين على قمة روحية ما يعطى انطباعاً بغياب المشاعر الروحانية وتستبدل بها مناسك وشعائر ذلك لأن الإنسان فى الغرب يصعب عليه فهم كنه هذه الشعائر وهذه العادات. ومجرد ملاحظة ذلك يعنى الالتزام بنظام إلهى يدبر ويسوس أمور الإنسان إنه العيش بتدين فى ورع وتقوى.

وهكذا تشمل الهندوكية كذلك أساس الاعتراف بالقيم التى تتيحها نظم الطبقات الدينية على مثال المعتقدات الروحية وشعائر الأرباب وهى ليست سوى جزء منها. وكذلك الأمر عند الصينيين إذ لا يعيرون اهتماماً كبيراً للتمييز بين خلود الآلهة فالمهم عندهم ممارسة فروض الشعائر وأن يعيروا للآلهة القديمة كل ما تستحق ويجب من مظاهر الولاء والتقديس ثم تطبيق دقيق فى مجالات الحياة والعلاقات

العائلية آخر الأمر لمناسك تلك العبادات والشعائر المعقدة حقا إن المفهوم الروحي في كل من الصين والهند مختلف تماما عما يرتبط بها من أنماط الديانات والأشكال الاجتماعية ولما تتشابه فإذا ما حاولنا أن نقيم مواجهة بين الغرب والشرق الأقصى فسوف نجازف بإغفال رؤية النناقضات المتعارضة التي تدفع إلى تقسيم الشرق الأقصى، فالهند ليست الصين وإذا بدت الصين تجاه أوروبا تبدو علامة على حياة دينية غازية ومكتسحة فهي بالمقابل تتأكد تجاه الهند من حيث هي بلد عقلاني انطبع بالقضية الثقافية الكبرى التي خاضتها وفاقته بها الممالك المعاتلة (القرن الخامس - القرن الثامن) قبل الميلاد يشبه كما قيل تلك الأزمة الفلسفية الأساسية التي عاصرت في اليونان مولد الروح العلمانية فقد جمعت الديانة الكونفوشية كما سنرى ميراث تلك الأزمة أزمة العقلانية وظهر مذهب إنكار العقل والتشكك في قدرته على المعرفة ثم تولت الكونفوشية إخضاعها للضرورات السياسية وأتاحت لها اجتياز الأزمتان الدينية الطاحنة التي انبثقت فيما بين القرن الثالث والقرن الخامس لإعادة تشكيلها فيما يسمى بالكونفوشية الجديدة وكان لها سبق الظفر والسيادة ابتداء من القرن الثالث عشر.

وفي الصين نجد أن هناك تيارين متوازيين كل من جانب ويرجع عمود المجتمع ويمتد إلى كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية بقدر ما هي عقائد دينية. وعلى حين يلعب ما وراء الطبيعة في الهند الدور الرئيسي - وهنا يبرز التساؤل : كيف يمكن أن يتطور المجتمع وكيف يمكن إعادة طرحه للبحث والمناقشة مادام النظام المرتكز عليه ذاتي الجوهر؟ جوهر إلهي.

الفصل الثاني

الصين التقليدية

الصين التقليدية

أخذت الصين الكلاسيكية التي نتحدث عنها ولم يحدث أن اختلفت تماماً زمناً طويلاً حتى تكتسب وتحدد بدقة سماتها الأصلية، وتبدو اليوم كمجموعة متماسكة فى اللحام اندماجى عبر قرون عديدة وعبر زمن توالت عليها فيه كوارث وغزوات تبدو الآن كوجه ثابت لا يتغير.

ومع ذلك فعلى الرغم من بطء عملية التطور حيث تبرز كحقيقة على السطح فلم تكن أبداً حقيقة جامدة أو ثابتة فالحضارة الصينية مثلها كمثل كل الحضارات كدست تجاربها وجمعتها واختارت اختيارات لا حدود لها وجددت هذه الخيارات أحياناً فيما بين ثرواتها واتجاهاتها، وأخيراً وعلى عكس ما تبدو المظاهر لم تغلق أبوابها على العالم الخارجى المحيط بها إذ هبت كثير من الرياح عليها آتية من الخارج وتمكنت من إدراكها وفرض وجودها عليها.

الأبعاد الدينية

وأول تلك الأبعاد وأهمها وأصعبها كذلك على الفهم وإدراك أبعاد الحياة العقائدية التى ليس لها حدود فاصلة واضحة ذلك أنها تتسع لترضى بالتصوف والعقلانية معاً، وللتخيل أحد الأوروبيين وهو يتنقل متردداً دون أقل عائق ثقافى أو

دينى بين إصلاح الكنيسة الكاثوليكية وبين موجة الإلحاد والزندقة ويتخذ فيما بين الاثنين ما يراه لصالحه . ويعج المجتمع الصينى بمن يلتصقون التصاقا ظاهرا بمذهب «اللا إرادية» أى ذلك المذهب الذى ينكر قيمة العقل وقدرته على المعرفة وكذلك نجد الأكثر امتثالا للنزعة الامتثالية للتقيد بالأعراف التى استقر عليها المجتمع، كما أن هناك الفوهنوى أو الصوفى المستتر وكذلك يؤمن أهل الصين بالخرافات، ومن يؤمن بمذهب اليقين الإيجابى أو بالأحرى بمن يؤمن بالاثنتين معا وهو ما يبدو لإنسان من الغرب أحيانا أمرا لا يدرك أو يفهم، تلك ملاحظات عما يسيطر على كيان المجتمع الصينى الحالى عامة من مشاعر يجب التذكير بها ونحن نخطو عتبة الاستعراض التاريخى فهى تفسر لنا قبل كل شىء تلك الحقيقة الجوهرية ونقصد بها أن شيئا لم يستطع إقصاء مذاهب الكونفوشية ولا التاوية ولا البوذية عندما تأصلت فى الأراضى الصينية وكلها متعاصرة أو تكاد. وآخرها البوذية رغم الصراعات التى نشبت بينها وليس سهلاً التمييز بين مذهب وآخر منها إذ جاءت كلها لتضاف إلى سالف حياة عقائدية دينية بدائية موعلة فى القدم ولكنها ذات قدرة جبارة ويقال إن هذه المذاهب الثلاثة ويطلقون عليها «العظماء الثلاثة» أبحرت فوق مياه هذه الديانة القديمة وفى الحقيقة والواقع أن هذه المذاهب الثلاثة قد غرقت تماما فى مياهها المتلاطمة . وللحياة الدينية فى الصين أسس أقدم جذورا من التيارات الروحانية الثلاثة فجذورها بأشكالها المتعددة والمتأصلة صامدة فى مواجهة كافة الممارسات العقائدية . إنه ميراث قديم قائم قبل ألف سنة من ظهور المسيح فى فجر الصين الأولى المتماسكة دون أن يعيبرها شىء رأسا على عقب . ثم إن ظهور المحرث أتاح توفر أعداد كثيفة من السكان تجمعوا فى قرى أو مقاطعات سيادية وكانت الصين الأولى هذه تمارس العقيدة المزدوجة عقيدة الأسلاف وعقيدة تربة الأرض الإقطاعية .

يتوارثها الابن عن الأب ومن فوق تلك الأسر هناك الطبقات الواسعة من البشر ويسمون باللغة الصينية السيخ ويتمثلون من سلالة وأصول واحدة متشابهة القسمات بما فيهم عائل عشائر السوسو الأعظم ويو الأكبر البطل الأسطورى الذى أفاض الطوفان .

ينبع هذا النظام وما يرتبط به من عبارات الأسلاف أساساً من أسر النبلاء (الأشراف) وهى أسر النبلاء الوحيدة ثم ظهرت فيما بعد الأسر العامة بتقليد هذا النمط السلفى واتجهت كذلك إلى توفير أسلافهم واحترامهم كما كانوا يوقرون ويبجلون أربابهم مع الأسلاف ثم يجيء على مستوى مختلف قليلاً وضع أرباب الإقطاعيات المحلية من أرباب كل منزل وأرباب التلال وأرباب مجارى الماء (ينابيع المياه) وأرباب كافة القوى الطبيعية المحصورة فى أى بقعة من الأرض حتى رب التربة الإقطاعية والرب تشو المسيطر عليهم أجمعين، حين قامت الوحدة السياسية بإخضاع السيادة الإقطاعية للسلطة الملكية فرض رب التربة الملكية نفسه على كل الأرباب المحليين وصار رب الأرض وكان طبيعياً أن يكون هناك رب للأموات حيث يحتفظ بهم فى سجونهم المظلمة فى غياهب الظلمات التسع قرب الينابيع الصفراء، كما كان هناك رب للسماء الذى فوق، وأرباب الجبال وأرباب البحار الأربعة وأرباب نهر هوانج هو، الرهيب وهكذا نجد بقدر أعداد الأرباب الكثيرة آلاف الطبائع والأمزجة والسمات التى يتحلى بها الصينى ونقصد به الصينى التقليدى (الكلاسيك) ويؤمن هذا الاتجاه فى الشرك وتكاثر الآلهة بخلود الروح أى يؤمن «بالمنايا الصفراء» ويقائنها الجهنمى أى دنيا السماء ورب العالم الأعلى «ما فوق» أو الأرض فى معابد الأسلاف وكثيراً ما تنطبع هذه المعتقدات فى البقاء فى العالم الآخر على الطبقات الاجتماعية فى هذه الدنيا (على الأرض) حيث يعرف الأمراء والوزراء وكبراء هذه الدنيا ما ينتظرهم من سعادة فى السماء حيث يجد أهمهم العون من خدمهم، أما عامة الموتى فيتجهون إلى «المنايا الصفراء» إلى الظلمات «التسع» فالنار مثوهم وإنصاف المحظوظين العيش فى القبور... قبور الأسلاف وكل هذه المعتقدات ضبابية إلى حد ما، طالما أن لكل إنسان عدة أرواح وأن ما بعد الحياة ليس مستحيلاً بفضل القرابين والأضاحى التى يقرّبونها للأرباب، ذلك الأموات والأرباب يأكلون وتقول أغنية عقائدية سوف تملأ الأقداح الخشبية بالقرابين وكذلك تملأ أقداح الطين ما فاحت الرائحة وصعدت إلى السماء، بادر رب السماء يتناول الطعام...

أما فيما بين الأرباب والأحياء، فالأسواق هى القاعدة حيث توفر القرابين الحماية كما يقول أحد الأرباب بقدر ما تقدمون لى من أضحية وقرابين أعطيكم

من السعادة، وصرح أحد الأمراء بقوله: لسوف تساندنى الأرواح على ما أقدم من قربابين كثيرة نقية، ويشكو أمير آخر قائلاً ما هذه الجرائم التى ارتكبها البشر هذه الأيام حتى أرسلت السماء هذا السيل الأحزان والكوارث! كم من أطباق الحب والخضروات أعددتها وما من رب لم أقدمه وقدمت إليه فروض الإجلال بل ولم أقتر على الضحايا!

وفيما بين القرن الخامس والثالث قبل الميلاد تفككت الصين الإقطاعية فى فترة التقلبات الصاخبة، فترة الممالك المتحاربة واختفت الإقطاعيات يومئذ لصالح الإمارات التى كانت أقل أهمية من الإقطاعيات لولا أنها كانت على الأقل مستقرة بين تلك المعارك والحروب المتصلة ثم توطدت فيما بعد أركانها وفرضت السلام الذى وحد إمبراطورية الهند وصاحبت هذه الأزمنة الطويلة العنيفة موجة من القلق (الاضطراب) النفسى مما رفع المفكرين الصينيين فى خلال مجادلاتهم الأيديولوجية والمذهبية إلى ردود أفعال ضد ديانة العصور الأولى ومعتقداتها الشكلية (مذهب الاعتداد بالشكل وليس الجوهر) وظل المصير الثقافى للصين كلها تهيم على إرهابات تلك الفترة التى تردنا إلى المقارنة بينها وبين يونان القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أو إيطاليا عصر النهضة بمناسبة السياسية والاجتماعية حيث اتضح أن القضية الكبرى بالنسبة للطغاة المستبدين وأعوانهم ورعاياهم هى البقاء أو العيش على الأقل.

وهكذا كان لصين القرون من الخامس حتى الثالث قبل الميلاد (سياستها فخطباؤها) (علماء البلاغة والبيان) مشغولون بحساب وتقدير مذهب (ينادى بأن المخلوقات وأفعالها) (إنما هى مناسبات) وهو ما يمكن اختصاره بين الحظ والفرصة أو الفرجة والمناسبة أى مبدأ أو نزعة كما كان للصين فى هذه العصور خطباؤها وصوفيوها ممن اهتموا «بالصالح العام» وهؤلاء الصوفيين ينتمون عادة إلى مدرسة الماوتى القديمة أو الموتسو أو الموهيزميه وقد أقام أنصار مذهب الموهيزميه المشار إليه من قبل أمداً قصيراً نسبياً نظاماً فروسياً فى خدمة المعدمين والمظلومين كان تجمعاً عقائدياً للإخوة المبشرين وتتضمن التسمية إلى حد ما نشاطهم وتعهداتهم تجاه المجتمع. أما ما وصفهم به المؤرخون بعد قوات الأوان بأنهم «الصوفيون» إنما

فيفسر لنا كذلك ميولهم الخطابية وكلامهم المطلب والفوز والإقناع بالكلمة والمجادلة بلا نهاية كل فيما تخصص فيه وكلها فكر نسبي (مذهب النسبية) وفكر عقلاني كذلك منفصل عن أوامر الدين القاطعة ومنبثق من بين ثنايا هذه المحاولات الحيوية ومن هذه الحداثة الفلسفية لم يحتفظ عصر الهون بغير جزء سيصبح فيما بعد مذهب الكونفوشية (نسبة إلى فيلسوف الصين كونفوشيوس وأشهرهم عاش من عام (٥٥١ - ٤٧٦) قبل الميلاد ومؤسس النظام الذي يضع في اهتمامه الأول الجهود المتصلة المستمرة لتثقيف الذات حتى يمكن إرساء قواعد التوازن في الكيان الاجتماعي الواسع وكان هذا المذهب سببا في بقاء نوع من الاتجاه شبه العقلاني في الصين ليواجه هجمات النابوية واندفاعاتها العقائدية وبالذات مذهب البوذية التي دامت سطوته حتى القرن العاشر وفي القرن الثالث عشر تشكل من جديد وبصلابة مع مذهب الكونفوشية الجديد.

ولمست الكونفوشية محاولة للشرح العقلاني للعالم فحسب، بل هي نوع من العلم السياسي والاجتماعي إن لم يكن ديناً حقيقياً أو على أقل تقدير هي موقف فلسفي يتأقلم فيما بين نوعية معينة من التدين وبين مذهبية الشك والارتياب: الشك في مبادئ الدين الأساسية كالخلود والوحى أو مبدأ اللاإرادية أى إنكار قيمة الفعل وقدرته على المعرفة. ولم يترك الفيلسوف كونتوسيس أو كونفوشيوس الذي عاش فيما بين ٥٥١ و ٤٧٩ قبل الميلاد وراءه شيئا مكتوبا وإنما قام مريدوه وأتباعه بنقل ما نادى به من مذاهب وهو بالفعل مؤسس ذلك النظام وتلك العقيدة التي سرعان ما ستكون مبدأ تعتنقه حتى طبقة المثقفين الصينيين (أنثيليجانسيا) ومن جهة أخرى فإن الكونفوشية قبل كل شيء هي التعبير عن طبقة من المجتمع، طبقة المتعلمين معثري النظام الاجتماعي الجديد وما أطلق عليهم المانداريون وهم مجموعة كبار موظفي الإمبراطورية القديمة في الصين، وكان هذا النظام السياسي والاجتماعي قد بدأ يتبلور رويدا رويدا بعد تفكك نظام الإقطاعيات أى بظهور مجموعة الموظفين الإداريين في هذه الصين الحديثة وقتئذ، واجهة تعبر عن سلطة الدولة، ثم بدأت أعداد الموظفين المثقفين تتكاثر مع بداية ظهور الإمارات الكبيرة فأصبحت القدرة على الكتابة هي الشرط الذي يفرضه نظام الحكم في

مجال الإدارة أو إصدار الأوامر. وكان العبء الأكبر يقع على عاتق الأسر الأرستقراطية، أما الأعمال الأقل أهمية فقد نيّطت بالمرؤوسين التابعين وكانت وظائف ثانوية وتأكدت سلطة مجموعة كبار الموظفين المثقفين وكبر نفوذهم مع نشأة الإمبراطورية العظمى إمبراطورية الهند ٢٢٠/٢٠٦ قبل الميلاد وجاء تطوير مذهب الكونفوشية ونماؤه وثيق الصلة بتطور التعليم المعفى منه المثقفون. وكانت المدرسة الكبرى التي تأسست عام ١٢٤ قبل الميلاد وأنشأها الإمبراطور ونتولى تلقين مبادئ مذهب معقد يركز على قراءة وتفسير خمسة كتب كلاسيكية (تقليدية) كل ما فيها طقوس وعادات وهى التحولية (نظرية التحولية التى تنسب إليها الدور الأساسى فى ظهور الأجناس البشرية وكتاب القصائد الغنائية وكتاب الوثائق وكتاب فصول الربيع وفصول الخريف وكتاب الطقوس والشعائر وهى كتب نسبت إلى الفيلسوف كونفوشيوس ولكنها فى الواقع إنما تعود إلى تاريخ سابق ولاحق معاً ثم روجعت ونقدت وأعيدت صياغتها بتفسيرات واضحة وأكثر فهما على يد مثقفى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد. وكل مدرس لا يكلف إلا بتدريس أو تعليم كتاب واحد بصورة دائمة وتفسير لا يتغير، وهكذا ضمت المدرسة الكبرى عددا من كراسى أستاذية متخصصة فى واحد من التفسيرات الممكنة ولا يكلف كل مدرس إلا بالتدريس لعشرة من المعاونين الذين يتولون بدورهم تعليم التلاميذ وفى العام ١٣٠ من عصرنا كان عدد الطلبة بالمدرسة ١٨٠٠ دارس و٣٠ ألف مستمع وفى هذه الدراسات كانت تتحكم امتحانات شاقة عسيرة حيث تدون الأسئلة على جذازات (ورقات) خشبية كان الطلبة يقتطعونها بالأمواس والأسهم رمزا للسؤال المطلوب ردهم عليه.

وقد ظل هذا النظام باقيا فى مجموعة حتى يومنا هذا تقريبا ولكن حدثت (وهذا طبيعى) تعديلات وأدخلت تنقيحات عبر العصور، كما أعدت عدة ملخصات بعناية فائقة بحيث يمكننا وصفها بأنها أصبحت مؤلفات وكتبا موجزة حقيقية، ومع أكثر ما أدخل من تنقيحات (تهذيب) فيما بين القرنين الثامن والثانى عشر تولاهما الأساتذة الخمسة مؤسسوا ما سمي بالكونفوشية الحديثة وأشهرهم تشو هوى الذى أعد عام (١٢٠٠) المذهب الذى صمد ودام حتى سقوط الإمبراطورية الصينية (١٩١٢) وظل طوال هذه المدة المذهب الرسمى للحكمة الصينية.

والكونفوشية من حيث هي فكر مهذب منتقى محاولة لشرح الدنيا وتفسيرها وتستهدف القضاء على المعتقدات الشعبية البدائية وفي الوقت نفسه احترام القواعد العامة للتقاليد الموروثة ومن ثم نجد تلك المحاولة لاستبعاد الديانة الشعبية وإقصائها إقصاء أشبه متعال بل بصورة محتقرة إقراراً في الوقت نفسه لمذهب الشك والريبة بوضوح وجلاء ولم يتكلم كونفوشيوس أبداً عن الأرباب وفي ذات الوقت، يحترم نفحات العقل ويحترم الأسلاف ويفضل إيقاعهم على مسافة بعيدة منه وكان يقول كيف يستطيع من لا يقدر على خدمة الناس أن يقوم بخدمة النفوس ومن لا يعرف الأحياء كيف يعرف الأموات، ولدى أتباع المذهب الكونفوشيوسي مفاهيم عن قوى الطبيعة والعلاقات بين الناس وارتباطهم بالظواهر فوق الطبيعية.

ولهذه المفاهيم تفسيرات، ودلالات متنوعة تصل في مجملها إلى ما قد نطلق عليه بالنظرية العامة للكون ومن معتقداتهم أن ما يهيمن على الحياة في الدنيا ليس نزوات الأرباب ولا نزعاتهم أو غضبهم أو حتى حسناتهم وإنما يعود إلى القوى اللا فردية فتفاعلاتها هي المسئولة عن كافة الظواهر والتحوللات، وهكذا نراهم يقولون الرب الذي فوق ومع ذلك احتفظ أنصار المذهب الكونفوشيوسي ببعض مفردات وكلمات قديمة بل من جذور وأصول شعبية ريفية كان يستخدمها القرويون وحملوها معاني فلسفية جديدة ومنها البين واليانج.

والأول: في الأدب الشعبي، يعنى الظل. والثاني: الشمس، والأول هو الطقس البارد المطير أى الشتاء والثاني الجو الحار الجاف أى الصيف والبين كل ما هو أنثوى وكل ما هو سلبى واليانج كل ما هو مذكر وكل ما هو إيجابى وقد أخذت الكونفوشية هاتين الكلمتين لتعمل منهما رمزاً لمظهرين من مظاهر الكون وهما يتعارضان في المكان ويتعاقبان في الزمن ومن تضادهما تنبثق كل قوى الكون وهما البين واليان لا يتصاحبان في الوجود أبداً ولكنهما يتتابعان أبداً (بلانهاية) الواحد إثر الآخر ويتحكم تتابعهما في كل الأمور وخاصة المواسم فالبين الخريف، والشتاء فى أعقاب اليانج (الربيع والصيف) وهذا ما يفسر كذلك تعاقب النهار والليل والبرد والحر ويتحول هذا التصارع الثنائى داخل الإنسان إلى الحب

والحق أو إلى السعادة والغضب... أما الإيقاع الذى يتولى هذه التحركات التناوبية للبين واليان فهو التناوية أى مبدأ التعاقب وبالتالى وحدة كل كائن وكل تطور والمثل يقول: مرة بين ومرة يان وهما وحدة التناو ولكن للأسف إذا كانت كل الأشياء فى مجال الطبيعة تجرى على طريقة فلسفتهم التناوية طريقهم المستقيم وإذا كان اليان من السماء والبين من الأرض يتعاقبان بدون نقاط ضعف وبلا خطأ للتحكم فى كافة أمور الطبيعة والبشر فالإنسان فى هذا الكون يعد عنصراً مميزاً خاصاً وذاتياً وكثيراً ما يثير القلق والارتباك فى محيطه، وهو الوحيد فى الكون الذى يملك حرية عدم اتباع التناو فى طريقه ويحيد عنه فى اتجاه معاكس والإنسان بهذه الأفعال والتصرفات الرديئة إنما يقوم بتدمير الإيقاع الذى سبقت نشأته ويعتقد أتباع الفلسفة الكونفوشية أن الإنسان هو الذى يثير كل القلاقل وكل إخلال بالنظام المادى ككسوف الشمس وخسوف القمر والهزات الأرضية والزلازل والفيضانات والسيول والنظام البشرى (الإنسانى - من صنع البشر) كالتمرد والعصيان والثورات والفتن والمصائب والكوارث والنكبات... إلخ وعلى العكس نرى أتباع الكونفوشية الجديدة وقد انتقصوا من قدرة الإنسان ينسبون إثارة القلاقل إلى الإنسان نفسه لأنه بفقدانه للفضيلة يدين نفسه بنفسه ويعترف بذنوبه ويقر بانحداره إلى أسفل وهو كما سئرى نفس المبدأ المنادى بالسلطة العليا، ذلك أنهم يعتقدون أن الأسىاء والعظماء مرفوعون لأعلى ذاتياً أى «مودعون» أى محتجزون بقدرما يتبعون المعايير السماوية أو الضوابط السماوية.

وعن الكونفوشية تتوالد إحدى قواعد الحياة... نوع من الأخلاقيات يهدف إلى الحفاظ على الطبقات والنظام فى المجتمع والدولة وهى التى تهب لمواجهة الفوضوية الثقافية والاجتماعية التى يدعو إليها الصوفيون وعلماء القانون، وانطلاقاً من الممارسات الدينية السلفية (القديمة) أن الضار أتباع المذهب الكونفوشى وقد أدخلوا سلسلة من الشعائر هى ممارسات ومواقف اجتماعية أسرية وهى نوع له دوره الهام فى بناء التوازن النفسى والسيطرة على العواطف والشعائر تنظم حياة كل إنسان وتحفظ له بمرتبته والطبقة التى ينتمى إليها ويستحقها وحقوقه وواجباته أما من ينتمى إلى مذهب التناو فإن أتباع طريقه الخاص

(مساره) أو بالأحرى المسار الذى يخصصه إنما يعزى كذلك المسار الذى يجدر به ويرون وقبل كل شىء المسار المحدد له فى سلم النظام الطبقي الاجتماعى.

وهذا هو المعنى العميق لتفسير كونفوشيوس الخالد المشهور عن الحكومة الفاضلة، فيما ينادى: أن يكون الأمير أميراً والمواطن (رعية) مواطناً والأب أباً والابن ابناً، وطبيعى أن الطاعة والاحترام الواجبين نحو الأمير وكبار موظفى الامبراطورية ينبع من مراتبهم العليا، ففضيلة الأمير كالريح وفضيلة أهل الطبقات الدنيا كالعشب الذى ينحنى دائماً وأما الفضيلة الرئيسية الأصلية التى يجب أن يتحلى بها الرعايا فهى الطاعة المطلقة شرطاً أساسياً للتوازن فى المجتمع أو فى الطائفة. ومن هنا يمكننا تفسير الأهمية لدى مذهب الكونفوشية فى المحافظة على طقوس الأسلاف القدماى المجردة من كل ما هو دينى عفائى إلا أنها ملزمة بتوطيد أركان نظام الطبقات والمراتب الاجتماعية ذلك أن الطقوس لدى الأسلاف القدماء تصون فى المحيط العائلى المراتب الاجتماعية والطاعة المطلقة. وكان واضحاً أن ما بشر به أتباع الفلسفة الكونفوشية من فضائل من بينها: الاحترام والتواضع والخشوع والخضوع والطاعة ونظام التبعية لأهل الطبقة العليا وكذا أصحاب المنزلة والطبقة والعمر كل ذلك إنما يقوى ويدعم بقدر كبير السلطة السياسية والاجتماعية لطبقة المثقفين. أى بمعنى آخر للطبقة التى ينتمون إليها. وهذه النزعة الأخلاقية الشكلية التى تعتبر عرفاً تقليدياً مألوفاً قامت بتدعيمه وكان لها حساب كبير فى بناء المجتمع الصينى واستمراره وثباته.

وبالتقريب كنزعة معاصرة للمذهب الكونفوشى التى جاء ميلادها من ثنائى الأزمة الممتدة فإن المذهب الطاوى الفلسفى بحث صوفى وعقيدة فردية للخلاص، والطاوية فى شكلها الشعبى مرتبطة بالحياة التى لها أهميتها فى الصين كشكل من إشكال الجماعات السرية تعود أصولها من الناحية النظرية إلى لاونسو الشخصية الخرافية من القرن السابع قبل عصرنا ولكن الكتاب المنسوب إليه ويحتوى على مذهبه يعود إلى ما قبل ذلك (القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد فقط) والطاوية بحث صوفى للمطلق والخلود وقد قام أنصار المذهب الطاوى وكما فعل أنصار وأتباع مذهب الكونفوشية أو التاوى كما تراءى بإعادة تفسير المفاهيم والأفكار

العامة للبين ومفاهيم الطاوية وهم يرون أن التاوية تعنى المطلق الصوفي (الزاهد) وتعنى كذلك المقدرة الأولى للحياة ويصير كل شئ عن طريقها أى يحدث كل شئ (الصيرورة) ولا جدال فى أن محاولة تفسير هذا المطلق نادر تحقيقه أو التوصل إلى معناه ولنستمع إلى نص قديم منسوب إلى الفيلسوف مؤسس مبدأ التاوية: إن التاو الذى تسعى إلى التعبير عنه ليس هو التاو ذاته أما الاسم الذى ترغب فى إطلاقه عليه فليس اسمه الملائم وهو يمثل بدون اسم رمزاً الأصل الكون فإذا ما أطلقنا اسماً عليه فإنما يعنى أم كافة الكائنات (البشر) ولكى ندرك سمه نجأ إلى اللاوجود وبفضل الوجود نلج إليه، والعدم والوجود يخرجان من قاع وحيد لا يختلفان إلا فى اسميهما وهذا القاع الوحيد يسمى العتمة (الظلام) وتعتيم هذه الغمة أو هذا الظلام ها نحن أمام باب الأعاجيب... كل ما هو عجيب والكمال والطهارة (القدسية) التى يبحث التاويون عنها هى التوحد الصوفي مع التاوى الأبدى... هو الاندثارحيا فى ذلك الوجود الأصيل السامى الذى يغلف كل شئ ولا يغلف أبدا... فى اللاشكل الذى تتوالد منه كل الأشكال... فى التاو الذى تمتع بحياة خالدة وفى الوقت نفسه بلوغ الخلود الأمر هنا أننا بإزاء تجربة صوفية ليس يسيراً إدراك معناها بغير الاستلهام والتفكير والتأمل... لا تسمع بالأذن ولكن استمع بالقلب أى ما يعنى الروح للإنسان الصينى... ولا تسمع بالقلب وإنما استمع بالتنفس (ربما يقصد النفثات) (وإنما استمع بالنفثات والتنفسى) ذلك أن النفثه إذا خلت (لا هواء فيها) أدركت الواقع .

والتوحد مع التاوى (التاوية) لا يمكن الحصول عليه إلا بالفراغ... بالخواء وهذا هو صيام القلب والهدف هو ما يستطيع واحد من الممتازين الموهوبين المحظوظين التوصل إليه بعد أعوام طويلة يقضيها فى التأمل والتطهر وبالأعمال الطيبة المتكررة أو كما يقولون لنا فى بضعة أيام، وفى مدى ثلاثة أيام استطاع الانفصال عن العالم الخارجى وفى مدى سبعة أيام تمكن من الانفصال عن الأشياء القريبة وفى تسعة أيام استطاع الانفصال عن وجوده الذاتى ثم حظى بالاختراق الواضح، فقد عاش ما يسمى بالأوحد وبعد أن رأى ما هو أوحد تمكن من الوصول إلى حالة اللاحاضر واللاماضى وأخيراً استطاع بلوغ المرحلة حيث لا حياة ولا ممات...

وبهذا يكون مذهب الناولية قد انضم إلى كافة التجارب الصوفية الكبرى سواء كانت مسيحية أو إسلامية أو بوذية ولكن الخلود الذي يبحث عنه الماويون ليس خلاص الروح فقط بل خلود الجسد بفضل سلسلة من وصفات إطالة العمر والتطهير والنخف من الجسد وممارسات عديدة منها رياضة التنفس التي تتيح التدفق الطليق للدم وبغادى العوائق والتجلطات وكثير العقدة ومنها ما هو متعلق بنظم التغذية وأساليبها كأن تهمل الأغذية المعتادة وخاصة النباتات الموسمية واستبدال الأقراص أو الأعشاب وعقاقيرها سواء منها ما هو نباتي أو معدني وأخيرا طقوس وممارسات خيميائية (الخيميائية هي الكيمياء القديمة وتتدرج هذه الأخيرة من الآنية الذهبية الذي تتطهر فيه الأغذية ويذوب الذهب، خاصة كبريتور الزئبق (وهو الزئبق المكبر) عندما يتحول إلى زئبق ومن زئبق إلى تسع مرات على التوالي تصنع منه أقراص الخلود الحمراء وفي نهاية هذه الممارسات تتحول العظام إلى ذهب ولحم الإنسان إلى شيب (حجر كريم) كما أن الجسد يصير غير قابل للفساد أو الفناء ويتخفف مثل قشة لا قيمة لها يمكن أن يعلو ويتسامى إلى نوع من التأليه الذين يسحران الأنصار بعد أن صاروا خالدين عند نعام الأرباب ولكي لا يعكرون صفوا الأحياء فسوف يتظاهرون بالموت كالأخرين تاركين كل منهم من ورائهم عصا أو سيفا يعطوها أو يصفى عليه مظهر الجثة وتعطى هذه الأبحاث الخيميائية (الكيميائية) عن إكسير إطالة الحياة معنى لقصة تشانج كشووين (الربيع الخالد) ذلك الناسك من أنصار مذهب التاوية الذي كان قد بلغ الثالثة والسبعين من عمره وينسبون إليه (أحيانا عمرا يصل إلى مائتي عام) حين أجبره جانكيز خان على مغادرة الدير الذي يقطنه ليلحق به في منغوليا ويأتي له بوصفة إطالة العمر معه ولما وصل الناس إلى نهاية رحلته في التاسع من ديسمبر عام ١٢٢١ سألته الإمبراطور: أى علاج أحضرته لى ويرد الناسك الصينى لا شيء فليس معى سوى ناوى ليضمن الحياة. ومات الإمبراطور والناسك بفارق زمنى بضعة أيام عام ١٢٢٧ .

كما أن هناك أخيرا ديانه شعبية تاوية تتجاهل كلا من طهارة الأسياذ والممارسات المتشابهة للبحث عن الحياة.. الطويلة وتفرق اللغة الصينية ذاتها بين الشعب التاوى أى التاو من الأنصار الحقيقيين التاوتشى وتكتلات التاوين الفانعة

من المساهمة فى عديد من المهام ومضاعفة القرابين نوبات الندم وهؤلاء الخلفاء المؤمنون لا يستطيعون ادعاء الخلود غير أن من كان منهم يمارس حياة نقية ومتطهرة يستطيع أن يضمن حياة أفضل فى الدنيا والأخرى... لن يفلتوا من الينابيع الصفراء (النار) ولكنهم سوف يستخدمون موظفين لآلهة رب الأرض وسيحكمون وسيسيطرون على حشد الأدوات البائس وتؤكد هذه التفاصيل الأخيرة تماماً العقيدة أو الفلسفة الناقية التى اضطرت لصالح الشعب إلى التلاؤم والإرتضاء بالمعتقدات القديمة فى هذا المجال كما فى غيره من المجالات. وقد مرت العقيدة الناقية بعدة مراحل تنظيمية من معابد طبقية وسلسلة من ملل وطوائف أشبه بالتجمعات السرية ذات الميول الصوفية والفروضية وكانت العقيدة الناقية فى الواقع وفى مواجهة فلسفة كونفوشيوس التقليدية ونصيرة النظام الاجتماعى دائما رمزا المبدأ الذاتية الفردية وللحرية الشخصية والتمرد والعصيان.

أما البوذية وهى نالفة وأخر المذاهب الكبرى ديانة، جلبها معهم المبشرون القادمون من الهند وآسيا الوسطى ولكنها بدورها تقتضى من أغوار الفكر الصينى وتشكلت بعمق من التأثير به وتشكلت البوذية فى الهند فيما بين القرنين السادس والخامس قبل الميلاد وازدهرت مع عصر الإمبراطور اكوكا (٢٧٣ - ٢٣٦) واستبعدت بشكل غير محسوس (بهدهوء) فترة من الفترات وما ثلت العقيدة الهندوسية وحافظت على حظوة معينة فى شمال وشمال شرق الهند مع مؤسسى السلالات اليونانية من قبول غزوة الإسكندر وبعد ذلك كان لها رواج فى وسط آسيا وبكتريانا وحوض تازيم (أحد أنهار الصين) وهنا تقابلت مع الغزو الصينى تقريباً فى القرن الثانى قبل الميلاد. واحتاجت إلى ثلاثة قرون لتنتشر فى ربوع إمبراطورية الهند فى القرن الأول الميلادى عن طريق مسارات آسيا الوسطى وكذلك طرق البحار المحيطة وطرق اليونان وفى القرن الثالث فقط بعد تأخير زمنى طويل انتشرت هذه العقيدة البوذية انتشاراً فعلياً بين المجتمع الصينى بشقيه من النخبة والكتل الشعبية وكان لها نفوذ واسع حتى القرن العاشر.

والبوذية من تعاليمها أن البشر بعد الموت يولدون من جديد فى أجساد أخرى ليعيشوا حياة أكثر سعادة تقريباً (ومن الأعمال والتصرفات التى كانت فى الحياة

السابقة) وكانت دائما مليئة بالآلام ولا مخرج من هذه الآلام سوى الطريق الذى يعلمه بوذا ويسمح بالوصول إلى النرفانا أى حالة الفناء المطلق أى بمعنى الامتزاج فى الحياة الأبدية المطلقة وغير المشروطة والخلاص من «عجلة» التناسخ من جديد وهو الطريق الشاق ذلك أن مايعيد الحياة للإنسان بعد موته إنما هو تعطشه للحياة وتلك مرتبة يبلغها المرء بالانفصام أو التجرد والزهدي ولذلك يجب إدراك أن «الأناء» الأنانية المحيطة به ليس كيان فعلى وإنما هو سراب خادع. وهذا المفهوم ليس من المعرفة العقلانية وإنما هى نوع من الاستشعار الحدسى^(١)... نوع من الاستنارة والوحي الإلهامى لا يتمكن العاقل من بلوغه إلا بالاستغراق فى التأمل وممارسة تمارين روحية متكررة فى واحد منها وفى عدة حيوات (جمع حياة) أحيانا كثيرة وكان النجاح الأولى والرئيسى لهذه الديانة الشاذة الغريبة عن الروح الصينية بوجهها الفعلى.... كان السبب ما نستطيع أن نفسره بسوء فهم طويل فهمي ديانته لم تتقدم للصينيين بوجهها الصحيح الواقعى وذلك أن طليعة أنصار المذهب البوذى ممن خرجوا من الأوساط التاوية اتخذوا من البوذية نوعا من التغيير عن عقيدتهم الذاتية وهما العقيدتان فى الواقع ليستا سوى ديانتين للخلاص. وتتماثل الممارسات فى التأملات فى وقت نجدها فى البوذية أقل مشقة للجسد مما جعلها ذات جاذبية أكثر أما النصوص الهندية القديمة (السسكريتية) وكانت خليفة أن تثير الجدل حولها فلم تعرف إلا ببطء ويصعب جدا ترجمتها إلى اللغة الصينية وقد توصل المبشرون الهنود إلى المساهمة فى الترجمة وكان من طلائع أنصار المذهب التاوى وكان طبيعياً أن تسود المفردات اللغوية التاوية ترجماتهم مما زاد فى غموضها وبهذا صارت البوذية ومحاولاتها للتنوير نوعا من التوحد مع التاوية وترجمت النرفانا.

الفناء المطلق بالكلمة الصينية التى تشير إلى البقاء الأبدى وقد انتشرت تلك العقيدة البوذية التى شوهت وحرقت بسرعة بفضل شبكة واسعة من طوائف الرهبان والراهبات وصارت إحدى الديانات الشعبية لتجميع المؤمنين الخلاء الذين يكتفون بالمساهمة فى الصلوات والأعياد وتلاوة الأدعية ومضاعفة

(١) الحدسى البديهي مذهب فلسفى يقدم الحدس على البرهان كشعور سبقي بما يحدث فى المستقبل.

الصدقات والدعوة إلى تجنب الآثام وخاصة الخطايا الرئيسية الخمسة وحضور جلسات الاجتماعات الأسبوعية حيث كان الراهب مكلفاً بإنقاذ الروح والتذكير بأرواح الأسلاف ومواقع النار (جهنم) وذلك هو ما كان «المؤمنون المخلصون» يستطيعون بعد أدائه زيادة إيمانهم وأملهم في كسب السماء والوصول إلى سماء الغرب بعد الممات بعد كسب شفاعة القديسين الذين يتوسطون لخلاص الأرواح الهالكة (الملعونة) .

ولم ينقش الغموض الذي أحاط بالبوذية إلا بعد أن تعددت الترجمات للنصوص السنسكريتية الأصلية أى متأخرا جدا ليس قبل القرن السادس والقرن السابع، وفي الواقع نجد أن مذهب الطاوية والبوذية يتعارضان ويختلفان اختلافا عميقاً، فأحدهما يبحث عن «عقار الخلود» ولافئائية الجسد والثاني يعتبر الجسد قيداً مفروضاً على البشر بسبب نقائصهم بل ويذهب إلى حد القول بأن لا وجود فعلياً له «فالآنا» ولدى البوذي إذ تتحلل في مرحلة الترفانا (الفناء المطلق) كل شخصية على حين يحتفظ التاوى الطاهر في الجنة الموعودة للخالدين بجثته إلى مالا نهاية، وقد أزعج بعض المفكرين الصينيين وفقط أنهم اكتشفوا متأخرين تلك الاختلافات والفروق من حيث استحالة استخدام المذهب البوذي لإدراك معنى التاوفقد كتب واحد منهم في القرن السابع أن البوذية صارت منذ ذلك التاريخ «صينية» وقد عاصرت فترات كانت فيها مذهباً يحظى بكل اهتمام ومفضلاً على ما سواه أعقبته فترة اضطهد فيها البوذيون بقسوة عام ٨٤٥ وانتهت بإغلاق كل معابدها وبقيت على الرغم من ذلك أعداد معينة من المعتقدات المنتقاة أدخلتها الصين في تراثها دون تعديل وهكذا نجد أن الاعتقاد في ترحال الأرواح قد انتشر في ربوع الصين وكذلك الميتافيزية ما وراء الطبيعة تفسير فلسفي لنظرية عامة ومجردة وهي إحدى فلسفات المذهب البوذي وهما نظريتان نفذتا بقوة في مذهب الكونفوشية الجديدة في القرن الثالث عشر ولذلك لا يمكن القول إن الحضارة الصينية قضت على البوذية وإنما الحقيقة أن البوذية انضافت وانتجت إلى الحضارة الصينية ذاتها وطبعتها ببصمات لا تمحى ويكفى أن نتذكر آثار فنونها واستسلمت في نفس الوقت لتلك الحضارة بصورة نهائية وعموماً كان ذلك مصير كل

الديانات فى الصين وقدرها . وإذن ما هو دين غالبية الصينيين بعيداً عن تصحيحات المذهب الكونفوشيوسى الجديد منذ القرن الثالث عشر حتى اليوم كذلك ؟ بعبارة أخرى ماذا تعنى هذه المعابد المشيدة بقوالب القرميد ذات الألوان الصارخة التى تفوق البيوت العادية ذات اللون البنى أو الرمادى وحوائطها الخشبية أو المقامة من الصلصال ؟ ليس ثمة ديانة معينة ... ومع ذلك نجدها كلها معاً ... فكل واحد من المخلصين يتوجه إلى الرهبان البوذيين أحياناً أو يتوجه إلى رهبان التاو أحياناً أخرى ونجد فى المعبد نفسه كلا من الفريقين يقوم بعبادته ونجد تمثال بوذا منتصباً كهيكل الإله المحلى (الشعبى) . أو اكتمال كونفوشيوس المعبود تقريباً . وتقدم القرايين لكل منهم وفى أثناء الحرب الأخيرة أقيمت صلاة مشتركة فى أحد المعابد الصينية كانت موجهة إلى ٦٨٧ من الأرباب المعبودة ومن بينهم المسيح ، والمثير للدهشة أنه نلاحظ أن هذا الجمع من الآلهة جاءوا من آفاق وآماد سحيقة وأن الصراعات العقائدية القديمة لم تؤثر المحاباة عقيدة أو أخرى وفى زمن ماركوبولو^(١) وفى بلاط الخان الأعظم الذى كان مسيطراً على الصين وإمبراطورية المغول نشبت زوبعة دينية كادت تعصف بكل سئ حيث تمكن المغول من إزاحة أتباع العقيدة الكونفوشية وإبعادها مع الاحتفاظ بوظائفهم فى خدمتها وقام هذا الإمبراطور الخان باضطهاد أتباع مذهب التاو^(٢) حتى الموت مفضلاً عليهم المغول الإتيמיست وهم أنصار الإحيائية مذهب حيوية المادة والاعتقاد بأن النفس هى مبدأ الفكرة والحياة العضوية بل وأكثر من ذلك حابى البوذيين من أصول أسلاف التبت واستقبل فى بلاط اللاماس وهم طائفة تدعى المعجزات ومن السحرة واستفادت إحدى النحل المسيحية من طائفة التسطوريين من هذه الفرصة وبعد فترة قصيرة من مغادرة ماركوبولو تمكن أحد رهبان الغرب فراجيو قانى من مونتكور فينو من بناء أول كنيسة كاثوليكية فى كامبالو (بكين) بالقرب من قصد الإمبراطور الذى قدر عليه سماع أجراس الكنيسة كما سطر

(١) الرحالة الإيطالى ولد فى فينيسيا فى ١٢٥٤ وتوفى فى ١٣٢٤ وكان قد قام برحلة عبر فيها كل قارة آسيا عن طريق منغوليا بعد أن حدم فى بلاد كويلاي خان ١٦ عاماً .

(٢) الذين يعبدون الطبيعة والقوى الخفية فى آسيا الوسطى .

فراجيو فانى فى مذكراته وكان لهذا الأمر وقع عظيم لدى شعوب الصين كلها ولكن ليست آمال هذا الراهب ولا آمال اليسوعيين (الجزوت)^(١) وتمكنا فيما بعد من توحيد أهل الصين فى عقيدة دينية واحدة وخاصة فى ديانة غريبة واحدة وافدة عليهم من الخارج .

(١) جماعة الجيزويت : أسسها إيناس دى لا يولا ظهرت فى ق ١٧ .

الأبعاد السياسية

يجب فى مجال الأبعاد السياسية ألا نتابع مسيرة التطور البطيء المتعدد ولا نقتصر على إعطاء لمحة عن كتلة العادات والطقوس التى تحتويها هذه المؤسسة الإمبراطورية الهائلة ولكن الأمر يحتاج إلى أن نشرح العلة فى ارتكاز قوتها على أكتاف مجموعة من الموظفين المتعلمين وهم طائفة الماندارين (طبقة الموظفين العموميين) وكانوا حتى أمس أقوى الدعامات التى ارتكزت عليها قوى المجتمع الصينى وحضارته ويجب أخيرا أن نسجل عن هذه المؤسسات أنها أثبتت فعاليتها بالنتائج التى نجحت فى تحقيقها وهى توازن يسود أراضى مجتمع ضخم وصيانة نوع من الوحدة السياسية، هذا التوازن وتلك الوحدة هما علة كيان هذا الكيان الإمبراطورى الضخم وبقاؤه حيث تمكن من تجسيد البقاء والصمود العينييين ويمكن طبقا لكتابات المؤرخين الصينيين أن ترصد أربعة آلاف عام من التاريخ مع تعاقب ٢٢ سلالة من الحكام فى تسلسل تاريخى دون أقل توقف أو انقطاع على ألا ننخدع إذ وقعت توقفات وقلائل فضلا عن بضعة أحداث فرضت نفسها كما لم تكن هناك وحدة حقيقية ولا مؤسسة إمبراطورية إلا منذ الوحدة الصينية التى أرسى قواعدها أول الأباطرة من سلالة التسى إن تسى وهو الإمبراطور تشيه هوانج تى (٢٢١ - ٢٠٦) تلك الوحدة تواصلت وتوطدت بفضل سلالة الهن عام

٢٠٦ قبل الميلاد و٢٢٠ بعد الميلاد، فإذا ما تقبلنا نقطة الانطلاق هذه لمعقوليتها وجدنا أن المؤسسة الإمبراطورية استمرت من عام ٢٢١ قبل الميلاد حتى عام ١٩١١ - ١٩١٢ حيث حدث سقوط سلالة المانشو التي تسمى كذلك سلالة التسنج (١٦٤٤ - ١٩١١) مما يوحى بخط زمنى طويل لمح دار حوله على امتداد قرون تاريخ الهند فى دوران هادئ بطيء وكان مستطاعا لنا منذ ذاك اهتمام فلاسفة الصين ومؤرخها لو أن اهتمامهم انصب على المؤسسة الحاكمة وشرعيتها بنظرة إلى الماضى فى تسلسل تاريخى وذلك لأن التاريخ أهمل هذه الناحية ولم يوفيهما ماى يكفى من وضوح كما أن النظام الإمبراطورى الحاكم لم يكن إنسانيا فحسب بل كان كذلك دينياً مؤسساً على قيم غير طبيعية أى قيم إيجابية (من الوحى) والنظام الاجتماعى ونظام ما وراء الطبيعة ظاهراً وباطناً من نسيج واحد وكل ما يصدر عن الإمبراطور ينحدر من كل ما هو دنيوى وقدسى وليس لأفعاله صبغة علمانية واضحة إذ يشرف الإمبراطور فى الواقع وفى الوقت نفسه على النظام الروحى والنظام الطبيعى فى عالمه ويحتفظ بهدوء ويصون هذين النظامين ومن واجباته ودوره أن يعين كبار الموظفين الإداريين ويشرف على نظام طبقات المعابد أو خلع لقب على (فلان، من قدامى الحكماء حين يؤله أو يرأس حفل الافتتاح طبقاً للطقوس عند بدء موسم الزراعة يشق الخط الأول للمحراث فى عيد الربيع ويقول الخبراء والعلماء ممن تخصصوا فى الشئون الصينية أن سلطة الإمبراطور ليست نابعة من حق إلهى من غير شك إذا ما تذكرنا الملكية الغربية فى العصور الوسطى وأول العصور الحديثة وسنلاحظ بين السلطة الحاكمة الإمبراطورية الصينية والسلطة الحاكمة كما عرفت روما نلاحظ أكثر من شبه فيما يشتركان فيه من ملامح فلم تعتمد السياسة الصينية قط إلى نشر ما يشبه المذهب الغربى عن حق الملوك الإلهى وهل كان ذلك ضرورياً إذا كان الإمبراطور حقا ابن السماء وكان يحكم بمقتضى تفويض سماوى أو كما قال فلاسفة صينيون بمقتضى عقد لا يكافئ سوى الفضيلة.. ودورها ضرورى إذا ما أردنا تفسير تلك الكوارث التى لا يستطيع الأمير أن يجنبها إمبراطوريته أو حتى يتجنبها هو نفسه كالسيول والفيضانات ونوبات الجفاف المفجعة ورفض سداد الضرائب وهزائم الحدود فى مواجهة الهمج وعصيان الفلاحين. وكل هذه الفوضى إنما تعود إلى

توقف العقد الأساسى أو نقص فى الفصيلة من جانب الإمبراطور وعندئذ يفقد صفة «الوكيل السماوى»، وتلك نذر لا تخدع ولا تخطئ أبدا وإنما هى بمنزلة إعلان عن تغيير سلالة. وتعد انتفاضات العصيان والتمرد الشعبى فى الصين القديمة على الأقل نذيراً يسبق سقوط إحدى الإمبراطوريات وفى قول قديم مأثور كمقولة الغرب - أى صوت الشعب هو صوت الرب - مائصة: السماء ترى كما يرى الشعب، وهكذا وببساطة شديدة ينتقل التوكيل السماوى شرعا من أيدى أسرة فقدت كل أهلية إلى سلالة جديدة تتملكها بالضرورة إذا ما تسلمت التوكيل ولفظ الصينى الذى يعنى الثورة فى لغتنا وتبنته الصين الجمهورىة يعنى حرفياً «سحب توكيل، وعلى كل حاكم فقد تلك الحماية الضرورية أن يتخلى عن موقعه فهناك إذن حاجة إلى صيانة استمرار الإمبراطورية (الحاكمة) ووحدة الصين وضبط السلالات الحاكمة فى تعاقب تاريخى سليم مع استبعاد الدخلاء ولنقل عنهم أنهم «اللاشرعيون، أو معارضو العدالة، وعندما تنتهى سلالة من السلالات فلا بد لأخرى أن تتسلم من السماء التوكيل المخول وتبدأ حيرة المؤرخ واضطرابه حين يجد فى فترة من عهود سادتها القلاقل أن السلطة تنازعتها عدة أيادٍ ونقاسمتها فيما بينها فيصعب على المؤرخ الصينى تحديد هذا، استودع توكيل الاستمرار التشنج كونج ويقول عنها فى الغرب «جائز الشرعية، فيعتمد المؤرخ فى مواجهة هذه الحالة إلى اختيار الذين يبدون من وجهة نظره «أجدر، من غيرهم ويخلع عليهم إذن وبصفة سلفية كل الاعتبار الواجب لابن السماء وهذه الشرعية المعترف بها بحق لمن أولى القدرة على أخذ السلطة إذ لا بد جاءتته القدرة من السماء، إنما يفسر لنا سر تلك الاستمرارية الصينية على الرغم من الكوارث المأساوية السياسية التى لحقت بها.

ثم إن عظمة هذه الحاكمة المستقرة عظمة عجيبة بكل مظاهرها عظمة البلاط وعظمة القصور التى يسكنها الوزراء والمثقفون والعلماء وحرس القصور والخصيان والمحظيات والخليات والقصور المخصصة للحفلات والأعياد وكان الإمبراطور سونج^(١) يتجه جنوب عاصمته هانج تشو يقدم القرابين للسماء وللأسلاف فى

(١) إمبراطور رومانى ابن أخت يوليوس قيصر ولد عام ٦٣ ق ٢٠.

المعبد المقام فى الضاحية الجنوبية حيث مهدت أرض الطريق وفرشها بالرمال قبل مسيرة الإمبراطور عليه وكلف الجنود بإقامة سياج يكتنف الطريق وأعدت مجموعات من الفيلة مكسوة بملاءات مزركشة تسبق العرية الإمبراطورية فإذا مابداً المسير انطلقت كل المشاعل التى كانت أضئنت فى المساء أسفل جانبي الطريق فى مشهد رائع فيه من الفخامة الكثير يجرى فى جو مشحون بالعواطف الشعبية الجياشة وتستند الملكية الحاكمة فى الصين إلى جذور عميقة فى القدم وكان لاحتفالاتها الرسمية المعقدة بما تتسم به من الدقة المتناهية والبذخ الأسطورى وما كان لها كذلك من مظهر دينى وحسبنا أن ننخيل على سبيل القياس ما كانت تعنيه فى أوربا تعاقب سلالات أباطرة منذ عهد أوجست حتى تاريخ الحرب العالمية الأولى وما عساها تتحمله شعوب أوروبا؟

ويتعايش نظام الحكم هذا البدائى فى جوهره مع تمدن وحداثة هيلته من قادة مثقفين هم طبقة الماندارين أى كبار الموظفين الإداريين وقد استغرب الغرب وجودهم مخطئاً فهم مراكزهم باحثاً بلا جدوى فى الصين على عهد المنج (سلالة حاكمة) أو فى عصر المانشو (سلالة أخرى) عن أفق اجتماعى يذكرنا من قريب أو بعيد بما كان إلى جوار الملكية من طبقة الكهنة والنبلاء وكانوا بمنزلة دولة ثالثة وكانت أهمية طبقة الماندارين تضافى عليهم مظهر النبلاء فى مفهوم شعوب العرب ولكن لم تكن جماعات الماندارين كما سبق أن أوضحنا من النبلاء بل طائفة من كبار موظفى الدولة لم يكن عددهم أو كانوا يجندون ويختارون بدقة بعد اختبارات عديدة معقدة بل حتى ثقافتهم كوظائفهم كانت عن تسلسل طبقي ضيق لا دخل للميلاد فيه وقد لايزيد عددهم جميعاً على العشرة آلاف من الأسر بمصر القرن الثالث عشر وهم طبقة اجتماعية غير منغلقة عن الشعب بلاشك لولا صعوبة الولوج إليها أو الوصول إلى حدودها إذ كانت حكرًا على المثقفين دون سواهم فى أفراد يتقاربون بفضل لهجاتهم واهتماماتهم وأفكارهم بل واتجاهاتهم الذهنية فيجمعون فيما قد نطلق عليه «التواطؤ» مما كان يدفع بهم إلى نوع من العزلة عن سائر الرجال. ونركز على القول بأنهم لم يكونوا قطعاً كالنبلاء ولا السادة كطبقات محدودة أو حتى كأثرياء الحظوظ (ملاك الثروات) وذلك إذا ما

أردنا نوعاً من المقارنة وكما يقول اتنين بلزاس مؤكداً أن أحداً لا يشبه هذه الطائفة من الماندارين سوى هؤلاء التكنوقراطيين في مجتمعاتنا الصناعية هؤلاء الذين يعدون في أيامنا بصورة غير مباشرة ممثلي الدولة القوية وهم بطبيعتهم «متدخلون» بشدة مهتمون بقيمة الإنتاج أوفياء لفكر عقلاني ويتعلقون به بشدة.

والمندريون يشبهونهم في :

١ - ألقابهم الثقافية التي تعود إلى حقوق اجتماعية يتمتعون بها بفضل مكانة نادرة واستثنائية.

٢ - ويشبهونهم في أنهم طبقة تتمتع - على قلة عددها بنفوذ واسع وقدرات لا يستهان بها تتيحها مكانتهم ومواقعهم ونفوذهم.

٣ - ويشبهونهم في أنهم لا يتقنون غير وظيفة وحيدة هي أن يحكموا ويقودوا، وفي فترة ساقها منسيوس الفيلسوف الصيني ٣٧٢ - ٢٨٩ كان يعد على رأس كبار الكتاب ممن أرخوا للعقيدة الكونفوشية من حيث هي فلسفة في معرض المقارنة بين من يفكرون ومن يشقون وليست اهتمامات المتميزين ذوي المراتب العليا الرفيعة هي ما يهتم به عامة الرجال إذ ينكب الأولون على ما يحتاج إلى العقل من أعمال والآخرين على ما يحتاج إليه الجسد من مهام، فأما من ينكبون على المهام والأعمال العقلية فيحكمون الآخرين، أما من يستخدمون قوتهم فيحكمهم الآخرون والمحكومون يكونون في خدمة الآخرين ومن يحكمون يكون الآخرون في خدمتهم - والعمل اليدوي الرهيب مسمى فخري أما يد العالم المثقف بأظافرها حيث يتركها تفرط في النمو لا نستطيع أداء سوى عمل واحد هو تناول البرقاش / الريشة التي ترسم الحروف.

ولكن ترى ما معنى الحكم في الصين القديمة يكاد يكون كما يجري في دوله من دول اليوم.. الإضطلاع بكل مهام الإدارة والعدل، فالمانداريون يتولون جباية الضرائب ويتصدون لإقرار العدل ويؤمنون الشرطة وقد يكلفون بقيادة عمليات حربية ويعدون سجلات التقويم (تقسيم الأزمنة) وتوزيعها بمعنى توزيع الأعمال على مواقيت معينة ويباشرون إنشاء الطرق والقنوات والسدود ونظم الري فدورهم

تصحيح مسار الطبيعة القاسية واثار الجفاف والسيول والفيضانات وتوفير احتياطات غذائية... وبإيجاز.. تأكيد سلامة سير العمل وانتظامه فى مجتمع زراعى معقد يتطلب نظاما دقيقا يتبعه الجميع واجبا مقدسا وخاصة فى سبيل الترفيق فى مراقبة نظم الأنهار وحركتها والإشراف عليها وانتظام الرى. وطبقة الماندارين هى هذا النظام الدقيق وهى الاستقرار ورسوخ المجتمع والاقتصاد والدولة والحضارة إنهم النظام فى مواجهة الفوضى ومما لا شك فيه لم يعرف هذا النظام سوى آثار ونتائج سعيدة ولكن ثمن التجانس ودوام الحضارة الصينية وحيويتها كان كبيرا فقد كانت أيدى طبقة المندارين الحديدية قادرة على صيانة وحدة إمبراطورية شاسعة فى مواجهة الإقطاعيين من جهة وفى مواجهة مجتمع زراعى (القاعدة هنا بدون استثناء) وقع فى براثن الفوضى من جهة أخرى كلما أهمل وحيدا يواجه الطاوية خصم كل قهر جماعى وخصم أنصار المناداة بالعودة إلى الطبيعة، وكان على المثقفين أن يمجّدوا فضائل الفوضوية ومفاهيم الروح الكونفوشية.

وبهذا المعنى نجد طبقة المندارين (كبار موظفى النظام) مسئولين مسئولية تامة عن الجمود الاجتماعى الصينى فقد تمكنوا من صيانة نوع من التوازن بين كبار الملاك وأصحاب الأراضى المتمسكين بمواقعهم وبين الفلاحين البائسين القانعين مع ذلك بأراضيهـم البائسة (القليلة) وقد تمكنوا كذلك من حماية الرأسماليين المرتقبين والتجار والمرابين والأثرياء الجدد وهؤلاء لم يفلتوا من أن تقهرهم وتخضعهم لمكانتهم طبقة الماندارين، ومن يوم لآخر كانت تداعب آمال خلفاء التجار من محدثى الثراء وتجرفهم نزعة الإغراء فى بلوغ مستوى معيشة المثقفين وجاذبية السلطة وبهذا يمكننا أن نوضح ولو جزئيا على الأقل لم لم تتطور المجتمعات الصينية كتطور المجتمعات الغربية... نحو نظام رأسمالى فظلت المجتمعات الصينية واستمرت حبيسة تتشبث يعقيلة أبوية سلفية تقليدية أما الوحدة الصينية أى الشمال إلى الجنوب فلم تعرف الأراضى الصينية وحدة حقيقية إلا مع بداية القرن الثالث عشر فى ذلك الزمن الذى تعرضت فيه الصين بأسرها لكثير من الكوارث الأرضية التى أصابتها وانتهى الغزو المغولى (١٢١١ - ١٢٧٩) بغزوة قبائل السونج الزاحفين من الجنوب حيث عاصمتهم هانج تشو التى زارها

فيما بعد الرحالة ماركوبولو فيزداد إنبهاره بجمالها وازدهارها ولم يكتف حكام الصين الجدد بمد حدود سيطرتهم إلى أراض أخرى ما استطاعوا بل تمكنوا كذلك من أن يوفرُوا لتلك البقاع الساحقة القوة والبقاء وسبل الحياة ولئن كانت قبائل عصور الهن والتانج والسونج قد ربطوا حقا بين تلك الأراضي فقد كان ذلك بداية التطور الحقيقي وإن سبقت محاولاته منذ أمد بعيد وهو التطور الذي أدى إلى اتساع رقعة البقاع الجنوبية وثرانها وتفوقها لتشمل كل الصين وكل أطراف الإمبراطورية فقد ظل الجنوب قرونا ويشبه المغرب الأقصى في أمريكا شبه بدائي همجي قليلا سكانه وأغلبهم من سلالات بدائية كان حتما طردهم قسرا وقد كان، ولكن بسىء من الصعوبة ومع ذلك بدأ الجنوب ينهض من سباته وركوده في القرن الحادي عشر على الأقل حين عرف سر إنتاجية محصولي الأرز في كل دورة زراعية وانتشرت في ربوعه تلك المعجزة العجيبة وأصبح الجنوب منذئذ بمنزلة مخزن غلال الصين، فإذا كانت سيطرة رجال النهر الأصفر هي التي سادت في الأعوام الألفين الأولى فقد انتقلت السيطرة والسيادة في الألفية الثالثة وحتى يومنا هذا فيها لرجال اليانج تسوكيانج وما وراء ذلك نحو الجنوب حتى كانتون ثم استبعدت رويداً رويداً عاصمتها بلاد النهر الأصفر وهما هانج تشو وتانكين لصالح العاصمة الجديدة بيكين وهي المدينة التي انشئت في الشمال لأسباب جغرافية بديهية لمواجهة خطر غزوات الهمج وبدو الشمال الرحل وكانت مواجهة غاراتهم تحتاج إلى الاحتفاظ بتحصينات قوية وسرعان ما وضحت سيادة الجنوب عدداً ففى القرن الثالث عشر كان هناك عشرة صييين من الجنوب مقابل صيني واحد من الشمال ولم تشمل السيادة والأولوية للناحية العددية فحسب بل كذلك للنوعية والفعالية إذ نجد غالبية المثقفين العظمى حتى يومنا هذا من أحفاد القرون الثلاثة الأخيرة وهم من جذور مقاطعات كيانج سو وتشوكيانج ويتحدر أغلب قادة ثورة القرن العشرين من إقليم هوتان وقد كانت لتحولات مراكز النقل موقع إلى آخر آثار بعيدة المدى فيما بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر، ويمكن القول إن رقعة الرمال الصينيين الشاسعة المترامية الأطراف انقلبت لصالح رقعة أراضي الأرز مع نقص الذرة والقمح ولكن الصين الجديدة هذه تظل هي الصين القديمة فهي

الجديدة ساعدتها على الامتداد والنمو والثراء والجنوب هو بقدر أمريكا والصين كما سوف تكون عليه منشوريا فيما بعد منذ القرن العشرين.

الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية :

نلاحظ في شبه خمود الصين الكلاسيكية (التقليدية) شبه جمود دعائهما الاقتصادية والاجتماعية فهما دعامتا البيت الهائل مثلها كمثل كل مجتمع متكامل يبدو والمجتمع الصينى كأنه عدة مجتمعات أشبه باندماج جزء فى آخر احدهما تقدمى والآخر قديم بال و يرتبط مصيرهما بحركة تطور بطىء غير منظور . ففى أعماق هذا المجتمع الصينى نجد مجتمعا زراعيا وعماليا على أوسع مدى وذلك بسبب كتل ضخمة من الفلاحين والمزارعين الفقراء وسكان مدن حضرية بائسين ولا يكاد أفراد هذا المجتمع الفقراء يشاهدون سادتهم أما إمبراطورهم فنادرا ما يشاهدونه هو أو الأمراء من نسله وهو مجتمع يضم عدداً قليلاً من أصحاب الثروات الأغنياء أو كبار ملاك الأراضي ويمثلهم وكلاء اعمال مكروهين يحكمون عليهم ويقدرّون مجهودهم عن قرب اثناء ممارسة العمل أو من كبار الموظفين الموهوبين الذين يحكمون البلاد من بعيد وبأيديهم عصى الخيزران لزوم الطاعة وعلى العكس يتمتع صغار البيروقراطيين بقدر من التعاطف والمحبة وأخيرا نسمع كل يوم الابتهالات بالموت والنهاية المفجعة للمرابين ولمقرضى الأموال مقابل رهان .

وقد حفلت القصص الشعبية على كل حال بكل تلك الأوضاع ولعلنا نصف تلك المجتمعات بأنها مجتمعات أبوية (السيادة للأب أو رب العشيرة) ومجتمعات قائمة على الرق ومجتمعات من فلاحين ومنها الحديثة والبعيدة بعداً شاسعا عن المجتمعات الغربية فهى أبوية عشائرية بحكم سطوة الأنساب والنسل والأبناء غير القابلين للإنكسار حسب طقوس المذاهب القديمة والتضامن الأسرى والعائلى إذ يمتد ليشمل أبعد الأقارب بل ويشمل كذلك أصدقاء الطفولة والأمـر هنا ليس نوعا من البر أو الإحسان أو المحبة وإنما هو نوع من العدالة فالمحظوظ الذى ينجح فى مهنة من المهن يستثمر فضائل الخلية الأسرية أو العائلية وعليه تتدفق بركات الأسلاف المشتركة . إن من العدل وعلى من يستنفد فرص العائلة أن يعكس على أهل الرخاء الذى يستحقونه منه والواجب عليه نحوهم .

وهذه المجتمعات كذلك مجتمعات ذات جذور تتصف بالعبودية أو كانت على أقل تقدير العبودية سارت فيها، أحياناً كثيرة ما لم تكن سادتها كلها والعبودية هي الشكل الثلقائى للفقر المستديم. إذ تؤدى كثافة أعداد السكان وشدة تزايدها بحيث يبيع الإنسان نفسه فى الأوقات العصيبة ويعمد الأهل كما هو مألوف فى كافة بلاد الشرق الأقصى إلى عرض أولادهم للبيع، وقد استمر هذا السلوك سائدا فى الصين حتى صدور المرسوم بقانون عام ١٩٠٨ فى نهاية عصر سلالة المانشو إذا ألغى الرق وحرم بيع الأولاد ومع ذلك فقد كان يسمح للأهل فى بعض أوقات المجاعة والقمط بالتوقيع على عقود طويلة الأجل لاستخدام أولادهم فى العمل قد تمتد ٢٥ عاما.

وليس مجتمع الصين الريفى إقطاعيا بالمعنى المفهوم حيث لا إقطاعيات بالتكليف ولا إقطاعيات مملوكة أو موهوبة وليس هناك مزارعون أرقاء ويمتلك كثير من الفلاحين قطعاً من الأرض صغيرة جداً لولا أن فوقهم وجهاء من عليّة القوم القرويين التشى تشى يستأجرون أراضيهم وعند الحاجة يصبحون أقرب إلى المرابين حين يقدمون القروض لقاء أعمال شاقة أقرب إلى السخرة أو مقابل استخدام القرن أو السطحن يكون المقابل فى أغلب الأحيان عينا عن مكيال عشرة أرتال من حبوب أو وعاء من الدهن ويرتبط عليه القوم هؤلاء فى الوقت نفسه بالمتقنين وهؤلاء كذلك بالمناسبة من كبار ملاك الأراضي ويمثلون كما قلنا من قبل الدولة والسلطة ومصلحة الدولة قبل كل شئ وفى هذا الإطار يبذلون كل جهد لمنع أدنى محاولة متجاوزة لسيطرة طبقة على أخرى وخاصة وأد أية محاولة من طبقة إقطاعية قادرة على منافسة السلطة المركزية ومزاحمتها.

هذا النسيج الاجتماعى متعدد الجوانب يحافظ على النظام بين الجماعات الأربع القديمة بجذورها السلفية وعلى رأسهم طبقا لطقوس المراتب الاجتماعية القديمة المثقفون ثم الفلاحون الـ نرنج يليهم الصناع المهرة أو الحرفيون الكونج والتجار التشانج وهاتين الفئتين الأخيرتين كان ممكناً أن تلعب دوراً محركاً لكبح جماحهما كسائر الطوائف بفضل حكومة يقظة ولم يكن دورهما لينمو ويضطرد بغير انتفاضات اقتصادية وكانت انتفاضات منقطعة لا سبيل إلى تشخيص ما حدث فى الصين على أن حالة من النقص مقارنة بأوروبا فالنقص إنما يتعلق

بالكيانات وبالأسواق المفتوحة وشخص رأسمالية تجارية فليس هناك منذ البداية مدن حرة ولا أسواق تسيطر عليها تلك الرغبة الجامحة لتحقيق الربح الذى كان سببا للتقدم الحاسم فى بلاد الغرب مكروها كان أو محبوبا وكان التجار الصينيون منذ القرن الثالث عشر على استعداد للتضحية بكثير من مظاهر الكبرياء والزهو والخيلاء وحب الظهور ولكنهم كانوا يتحلون بالذوق والعاطفة وحب الثقافة والعلم كنجل تاجر كان يقرض الشعر وكان التجار من واقع تاريخ القصص الشعبية فى عصر السونج يحرصون على كسب الأرباح التى تكفل لهم حياة رغدة وأداء واجباتهم الاجتماعية والأخلاقية وخاصة الوفاء بما عليهم نحو عائلاتهم وأهلهم جميعا وكان ممن هم أكثر ثراء مما أتاح لبعض أهلهم وأقربائهم إمكانية الانتقال إلى طبقة المانداران الساحرة ذلك فكر يشبه ما كان يسود المجتمعات الغربية الرأسمالية من فكر بل كان هناك أكثر من ذلك ما لانهاية له من طبقات التجار الحرفيين الرحل وكان هذا التشرنم وحده علامة على اقتصاد لم يتضح بعد. وفى القرن الثالث عشر فقط تخلصت أوروبا جزئيا من هذا النوع من التجارة المتجولة التى كانت سمة مطالع عصورها الوسطى وتعددت بعد ذلك بيوت التجارة ذات المواقع الثابتة (المحلات) فما كان أسوأ حال هذا التاجر الذى يصطحب كل بضائعه وليس لديه موظف يأتمنه ولا فرع لنشاطه ويفقد قدرة إنهاء تعاملاته بالخطابات ويمائلة ذلك الحرفى الذى يحمل على كتفيه أدواته وبعضاً منها على ظهره يترجل متجولا بين المدن والقرى بحثا عن عمل وقد سمعنا فى القرن الثامن عشر عن هذه الطبقة من العمال ممن كانوا يصنعون السكر فى ربوع الصين يجيئون إلى ملاك الحقول ومعهم معداتهم ليسمح لهم بقوة أذرعتهم يقطع قصب السكر لاستخلاص عصيره والسكر المشوب (المخلوط) ولذلك كانت التجمعات الصناعية وتمركزها نادراً. وهناك بعض مناجم الفحم لازالت حرفية فى الشمال يتولاها صناع مهرة وتكثر فى الجنوب تلك الأفران الشهيرة حيث نلقى صناع الأوانى الخزفية المشهورة.

كما لم يكن البيع أو الشراء بالأجل معروفا حتى بداية القرن الثالث عشر أو القرن التاسع عشر ومن ثم قد تغير دور المرابى المندس المغرور كأنه شوكة تدمى

جسد هذا المجتمع القديم وفيما كانت عليه الشعوب الصينية مما يتيح وحده دلالة واضحة من هذا المرابى على اقتصاد متخلف جدا يتنفس بصعوبة. وعلى الرغم من الأنهار والقنوات، وتلك السفن ذات الأشرعة العالية المشهورة المعروفة فى بلاد الشرق الأقصى ذات القلاع والزوارق ذات المجاديف والأخشاب العائمة كالقطارات والإعفاءات الممنوحة بين المقاطعات وكثرة الحمالين وقوافل الجمال فى المناطق الشمالية فقد كانت رغم كل وسائل النقل تلك بلدًا سيئ الروابط سيئ الانفتاح على أطرافه وعلى بعضها البعض كما كانت الصين كذلك سبب الانفتاح على العالم الخارجى ثم كانت آخر الأمر وخاصة الصين القديمة التقليدية (الكلاسيكية) تخرج كثرة بالسكان لا نظير لها فى أى مكان.

ولما لم تكن مفتوحة (منفتحة) على العالم الخارجى فقد عاشت متوقعة على نفسها لا انفتاح فيها على خارج حدودها إلا عن طريقين وحيدتين: طريق البحر وطريق الصحراء ومع ذلك فقد انتظرت رغم هذين الطريقين حتى تجد شريكا يقبل تبادل التجارة معها قادراً عليها.

ففى عصر المغول ١٢١٥ - ١٣٦٨ وعلى مدى قرابة قرن من الزمان (من ١٢٤٠ حتى ١٣٤٠) افتتح الطريقان معاً إذ بذل الإمبراطور كويلاى كل جهده لإنشاء قوة بحرية للتحرر من السفن المسلمة فضلاً عن حماية بلاده من منافسة اليابانيين ومزاحمتهم وقرصنتهم كما أنه حرر الطريق المنغولى الطويل الذى يمر إلى ما وراء بحر قزوين للوصول إلى البحر الأسود حيث مستعمراً جنوا المزدهرة ومستعمرات الفينقيين.

وجاء انفتاح الصين ليجعل منها يقيناً بلداً مزدهرة يفد إليها التجار من الغرب يتاجرون معها فى مبادلات مثمرة مقابل نقود من الفضة وتعرفت الصين إلى أعجب الأعاجيب إذ عرفت للمرة الأولى النقود الورقية وإن لم تدم طويلاً.

وعلى أى حال فإن الثورة الوطنية الكبرى لسلالة المنج هى التى أُلقت بالمغول إلى الصحراء (١٣٦٨) وأتاحت للأراضى الصينية أن يؤمها الأجانب ولم تكن الصين «الجديدة» وفى ذلك الوقت قادرة على تخطى العائق الضخم فقد حاولت

من جهة البحر شعوب سلالة المنج أن تفتح دون جدوى هذه الطرق الرئيسية إذ تولى الأميرال تشيخ هو قيادة سبع حملات بحرية متتالية ضمت إحداها ٦٢ جونكا ضخما في الأعوام من ١٤٠٥ حتى عام ١٤٣٢/٣١ وهى السفن ذات الأشرعة الطويلة وعلى متنها ١٧٨٠٠ جندى وغادر هذا الأسطول البحرى كل أراضى تاتكين لتجديد الحماية الصينية على جزر السوند التى كانت توفر للصين التبر والفلفل والبهار. وتقدمت سفن الأسطول حتى سيلان وفيها أبقوا إحدى الحاميات مندفعين حتى بلغوا سواحل البحر الأحمر والخليج الفارسى والساحل الإفريقى ومن هذه الرحلة جلب الصينيون معهم قطيعاً من الزرافات أثار منظرها بمالها من عنق طويل دهشة السكان وذهولهم. وكان عصراً أثار دهشة العلماء الصينيين كما أثار اهتمامهم كذلك وتعود سفن الأسطول تارة أخرى مشرعة قلاعها فتصل إلى سواحل رأس الرجاء الصالح قبل البرتغاليين بنصف قرن واكتشفوا أورربا بل وقارة أمريكا ذاتها، وانتهت المغامرة عام ١٤٣١ - ١٤٣٢ لم تترك آثاراً أو توابع.

وقامت الصين الشاسعة المترامية الأطراف بحشد قواها فى المناطق الشمالية فى مواجهة خصومها الخالدين.

فى عام ١٤٢١ أهملت تانكين وصارت بكين هى العاصمة وقام الأباطرة من سلالة المانشو فيما بعد بإعادة افتتاح طريق الصحارى فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وتمكنوا من احتلال أراضى شاسعة امتدت حتى بحر قزوين والتبت حماية لبلادهم من غارات البدو الرحل وأبعادهم حتى الغرب واستتب الأمن والسلام للصين الشمالية بفضل تلك الغزوات بل وأمكن للصين فيما وراء منشوريا.. الاستيلاء على سيبيريا حتى الأمور^(١) (معاهدة نيرتشينسك) عام ١٦٨٩ وقد تداعت عن تلك الغزوات نتيجة أخرى هى فتح إيركونسك جنوباً منذ النصف الثانى من القرن الثامن من عشر على أسواق كياتكا الكبرى حيث الغراء النادر المقبل من الشمال مقابل الأقمشة القطنية والحريرية والشاى من الصين أما باب البحر فقد حاول الأوروبيون فتحه فى القرن السادس عشر.

(١) نهر شمال آسيا يفصل بين الصين وشرق شمال سيبيريا.

ثم أعادوا فتحه فى القرن السابع عشر ثم القرن الثامن عشر وتمكنوا من
افتحاحه فى القرن التاسع عشر.. وكان ذلك لصالحهم.

والصين المكتظة بالسكان لعلهم ١٠٠ مليون صينى (٩٠ مليوناً فى الجنوب
وعشرة فى الشمال) وقد تناقص هذا الرقم فى نهاية الهيمنة المنغولية وفى ثورة
المنج الوطنية عام ١٣٦٨ وفى عام ١٣٨٤ انخفض عدد السكان إلى ٦٠ مليوناً ثم
عاد السلام فبدأ العدد يسترد صعوده القديم. ثم تراجع من جديد مع غزوة المانشو
١٦٤٤ - ١٦٨٣ ثم عاد إلى الصعود مع السلام الذى ساد البلاد مع التوسع الضخم
فى القرن الثامن عشر وأصبح معدل زيادة السكان مذهلاً مخيفاً ومما لا جدال فيه
أن هذا الارتفاع فى المعدل الديموغرافى (عدد السكان) انعكاساً فى المقابل، فهذا
الثراء البشرى كان سبباً عاق بعض الشئ التقدم التقنى الممكن إذ يتكاثر البشر
تكاثراً يجعل استخدام الآلات أمراً لا ترجى منه فائدة.

كما كان الأمر من مثال قديم فى اليونان وروما وكان كل منهما يحج بالعبيد:
أن الإنسان قادر على كل شئ.. وفى عام ١٧٩٣ شاهد رحالة إنجليزى ومستغرب
أدهشه كيف تمكن قوم بسواعدهم من حمل سفينة بسواعدهم لنقلها من مياه إحدى
القنوات لترسو فى مياه قناة أخرى مستعيلين بهويس. وورد فى مذكرات القس
لامس كورتس. (١٦٢٦) كيف تمكن جماعة من الحمالين الصينيين من رفع حزمة
ضخمة من جذوع الشجر. وعلى الجملة فما من عمل لا يقدر البشر على أدائه
بنجاح مذهب والبشر فى الصين ثمنه زهيد جداً.

ولكن هذه الوفرة البشرية أثارت الضيق فى الحياة الصينية وجعلت الإنسان فى
الصين يبدو جامداً لا يتحرك كمن أصابه الشلل وفى عنقه هذا الطوق الحديدى
الذى تفرضه إدارة حاكمة غير تقدمية بحال وخاصة إدارة حاكمة أغلقت الباب
فى وجه انطلاق التقنيات العصرية والعلم الصينى فى الواقع بل مجموعة من
العلوم متوفرة يكتشفها الخبراء والباحثون كل يوم ويكتشفون ما تتطوى عليه من
ثراء وتفتح مبكر ومهارة بل وعصرية كما يقول المؤرخ جوزيف نيدهام ومفهومه
«العضوى» للعالم هو ما ينزع إليه العلم الحديث متعارضاً مع المفهوم الآلى وكان
منذ نيوتن حتى نهاية القرن التاسع عشر هو المحور الذى ارتكز عليه العلم فى

الغرب... وأما فى الصين وبالغربة ما فى الصين فقد حدث أن التقية لم تتعقب العلم ومازادت على أن رسمت له الخطى، والسبب الرئيسى لاشك تلك الوفرة الزائدة فى الأيدى العاملة حيث لم تكن الصين فى حاجة إلى تخيل آلات لتفادى مشاق الإنسان... وكانت البلاد الصيدية دائما ضحية من ضحايا الفقر الذى جرفها نحو هذا المرض المتوطن... مرض الاكتظاظ السكانى الرهيب.

الفصل الثالث

الصين بالأمس
واليوم ..

الصين بالأمس واليوم

لم تضمحل الصين التقليدية (القديمة) بين يوم وليلة بل تدرج اضمحلالها فلم يبلغ غايته قبل اكتمال القرن التاسع عشر ثم تبدأ الأحداث تتلاحق وقد تم فتح البلاد الصينية بالقوة وتبع ذلك فترة خضوع طويلة وظلت تعاني من الإذلال زمنا طويلا حاولت فيه جاهدة إيجاد العلاج لهذه الفترة من تاريخها وتمكنت من الخروج منها بفضل جهود خرافية لم يذكر التاريخ شيئا لها.

زمن المعاهدات غير المتكافئة

الصين الذليلة الشقية الخاضعة والمريضة (١٨٣٩ - ١٩٤٩) :

لم تحتل الصين كما احتلت الهند ولم تتحول مثلها إلى مستعمرة ولكن الأراضي الصينية اغتصبت ونهبت بالقوة وتقطعت أوصالها. وكل القوى الكبرى حصلت واحدة إثر أخرى على نصيبها من الأراضي الصينية ولم تستطع الخروج من هذا الجحيم إلا بإنشاء الصين الشعبية عام ١٩٤٩ وكانت التجارة الأوروبية منذ القرن السادس عشر قد اقتربت منها إلا أن الحدث الأهم جاء بعد ذلك من المعاهدات غير المتكافئة ففي عام ١٥٥٧ استقر البرتغاليون في ما كادى مواجهة كانتون ولعبوا دورا مهما كبيرا بين الصين واليابان إذ استولى كل من الهولنديين

والإنجليز في القرن السابع عشر على أفضل الأراضى وأخيرا ومع بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر حيث بدأ العصر الذهبي لنوع من المبادلات التجارية مع الصين ومع ذلك ظلت مقتصرة على ميناء كانتون دون سواه .

لم تكن هذه التجارة غير المشروعة في جملتها ذات أثر يذكر على كثافة سكانها . فقد أقام التجار الأوروبيون وخاصة الإنجليز منهم علاقات مع شركة محظوظة من التجار الصينيين يحتكرون كافة المشتروات والتوريدات ويؤلفون ما يسمى بالكوهونج وتتصاعد تلك العمليات والمبادلات خاصة حول الذهب الرخيص في أسواق الصين لندرتة وسعره المرتفع مقابل الفضة إذ تتضاعف أسعاره تقريبا مرتين عنه في أوروبا، كما تركزت التجارة على الشاي حيث يتصاعد الطلب عليه في الغرب بشكل يثير الدوار وكذلك على القطن والأقمشة القطنية المستوردة خاصة من الهند وأخيرا تركزت معاملات الغربيون على لعبة الأموال والتجارة والائتمان والقروض إذ يقرض التاجر الأوروبي التاجر الصيني الأموال والسلع لتوزيعها بدوره مقرضا إياها لقاء سلع ومنتجات من المقاطعات حتى من تلك النائية في أنحاء الإمبراطورية منشأ لذلك شبكة متداخلة من الشبكات المالية وتلك وكانت الطريقة التي يلجأ إليها الأوروبيون للفوز بتدخلات تجارية: إقراض التاجر المحلي في كل رحلة ما يلزمه لتجميع حمولات الرحلة القادمة والشراء قبل الآخرين من الأسواق .

ومما لا شك فيه أن التجارة مع الصين بهرت الأوروبيين أيما إبهار (أعجبهم إعجابا شديدا) وحققت لهم دائما أرباحا طائلة كما كانت أرباح الصينيين كذلك حقيقة خصوصا أن الصين لم تر في هذا النوع من التجارة صعوبة ولم تشعر بهذا التدفق المتطفل من السلع والأساليب الغربية الأجنبية . وكان الأمر محصورا على مستوى هذه البلاد الشاسعة ثم تغير مع بداية القرن التاسع عشر كل شئ فقد أصبحت أوروبا قوية تتشدد في مطالبها وتفرض رغباتها ...

وساعد على هذا الجو غزو الهند واستعمار الإنجليز إياها واستخدم كمحطة وثوب بما يفسر قسوة التدخل الغربي العنيف وما أحدثه من دمار . وفتحت حرب الأفيون (١٨٤٠ - ١٨٤٢) أمام الغربيين خمسة موانئ من بينها كانتون وشنغهاي (معاهدة نانكين) ثم جاءت ثورة الثاني بينج .

فأتاحت للغربيين (الأوروبيين) تدخلا بغير حق جديدا عام ١٨٦٠ كما كانت السبب غير المباشر فى ظهور سبع موانئ إضافية ثم تنازلوا للروس عن إحدى مقاطعات بحرية أنشأوا فيها فلاديفوستك وبدأت مصائب الصين تتراى بحرمانها باندلاع الحرب بينها وبين اليابان ١٨٩٤ - ١٨٩٥ من كوريا وانتهاز القوى الكبرى يومئذ الفرصة للاستفادة من جديد باقتطاع أجزاء من أراضي الصين فاستقر الروس فى منشوريا ثم كانت حركة البوكسرز^(١) الوطنية سببا فى بدء حركة التطور (١٩٠٠) وكانت الحرب التى اندلعت بين الصين واليابان عام ١٩٠٤ سببا فى حصول اليابان على بعض المزايا التى كان الروس قد انتزعوها من الصينيين ثم جاءت الحرب العالمية الأولى تمنح اليابان بعض ما كانت ألمانيا تمكنت من الإستيلاء عليه ومنها شانتونج.

وبدت الصين عام ١٩١٩ كمن اقتطعت من أراضيها أجزاء هامة حتى داخل أراضيها ذاتها تمكن اليابانيون والغربيون ودخل حدودها من الاستحواذ على مزايا وتنازلات وامتيازات وصلاحيات عديدة أشهرها ما أطلق عليه امتياز شنغهاي الدولى إذ أتيح لهم الإشراف على جزء من السكك الحديدية والجمارك كنوع من الضمان حتى سداد الفوائد التى فرضت على القروض الأجنبية وعمدوا منتهزين هذا الوضع إلى إنشاء مكاتب للبريد تابعة لهم وإنشاء مصارف ومكاتب قضائية قنصلية وزعت هنا وهناك بالإضافة إلى ما سبق من مؤسساتهم التجارية والصناعية والتعدينية فى المناجم وبلغت استثماراتهم فى عام ١٩١٤ (بليوناً و ٦١٠ ملايين دولار لليابانيين منها ٢١٩).

ومنذ الحملات التى شنتها القوى الكبرى الثمانية واحتلال العاصمة الإمبراطورية عام ١٩٠١ أصبحت منطقة المفاوضات الأجنبية داخل بكبد منطقة عسكرية محاطة بمنحدر قوى للدفاع ضد أى محاولة للتدخل وحرّم على الصينيين إقامة أية مبان فى هذه المنطقة وقام أفراد الأجهزة الدبلوماسية بالفعل إن لم يكن بحق بممارسة نوع من الوصاية القاسية الشديدة على كافة الشئون

(١) اسم أطلقه الإنجليز على حركة صينية سرية أثارت التدخلات من جانب القوى العظمى بالاستيلاء على تياننين ويكين.

الصينية وعلى الأقل على كل ما كان من نتيجته الإشراف على حكومة بكين وتوجيهها.

وفى هذه البلاد باقتصادها المهلهل بدأ نوع من الغزو الجديد كان هذه المرة غزوات ثقافية ودينية فغمرت الصين بالغزوات الحسية والمعنوية بل والروحية وذلك فى زمن المعاهدات التى أطلقت عليها بحق المعاهدات غير المتكافئة.

كانت العبودية للغرب وتحكمه يعنى للصين الأخذ بنوع من التغريب المسبق.. نوع من التحديث أى إعادة التشكيل الإصلاحي والتحرر وهما مهمتان غالبا متعارضتان ولكنهما مع ذلك فروكبان. وكان متوقعا أن يستغرقا وقتا طويلا ومشقات كبيرة وتجارب مريرة قبل أن يتضح المعنى الحقيقى للنضال القادم. ولم تستمكن الصين بين يوم لآخر من استيعاب درس الغرب كاليابان وقت ثورة الميدينجى^(١) وكانت مهمة عسيرة شاقة وكانت الثورة القوية المزدوجة التى شنها التاى بنجى من القرويين والكلاسيكيين ١٨٥٠ - ١٨٦٤ أقاموا فى ثانكين حكومة منشقة انفصالية ذات نزعة ثورية وطنية وتحمل الكره للأجانب كما أرادت فى الوقت نفسه مهاجمة المعتقدات القديمة من سياسية أو اجتماعية حيث استطاع التاى بنجى بمدة نجاحها القصيرة إلغاء نظام الرق وتحديد المرأة وإلغاء تعدد الزوجات وعادة ربط الأقدام.

مع السماح للنساء بدخول الامتحانات وممارسة الوظائف العامة بل وذهب تفكيرهم إلى حد إدخال نوع من الحداثة التقنية والصناعية ولو كانت بصورة سطحية، كانت ثورة تستهدف أساسا الأراضى الزراعية خاصة كما حدث كثيرا فى الصين القديمة وبصورة منتظمة عشية تغيير السلالات وبحثت ثورة التاى بنجى فى هذا الاتجاه موضوع إلغاء ملكية الأراضى فى مشروع تأميم تجميى للأراضى الزراعية ولكن الثورة فشلت وفشل مشروعها بسبب المساعدة التى منحها الغرب لسلالة حكم المانشو للمحافظة كذلك على امتيازاته التجارية كما أن مشروعات التحديث والاتجاه العصرى لم تكن دقيقة ولا واضحة والأشخاص فى

(١) ولركيونو (١٨٥٢ - ١٩١٢) امبراطور يابانى العلى النظام الإقطاعى وأقام طوكيو عاصمة له وفى عام ١٨٨٩ أعد لليابان دستوراً وأدخل فيها مبادئ الحضارة الغربية.

الصين من النضوج بحيث تتقبل مثل هذه المشروعات أما جمعية البوكرز السرية التي عكفت على طقوس غامضة مرعية فلم تلق قبولا ولا تشجيعا إلا لدى حركة الغضب على الأجانب وكانت قد بدأت تجتاح كافة أراضي الصين ابتداء من الإمبراطورة المخيفة العنيفة تسي هوى^(١) التي أعطت الإشارة لحركة معاداة الأجانب وكرهم بالاتفاق فيما يحتمل مع جماعة البوكرز مما أدى من ثم إلى سحقهم بل وسحق الصين كلها، وعلى أي حال فإن الإمبراطورة تسي - هي كانت في الوقت نفسه عدوا شرسا عنيفا لكل تقدم فتمكنت بذكاء ومهارة من إفشال حركة إصلاح مستثيرة قامت عام ١٨٩٨ وعرفت باسم المائة وأرست نظريا على الأقل قواعد ثورة حقيقية شبتها المؤسسات القائمة كما كانت ثورة لإرساء قواعد سليمة لاقتصاديات الصين وباختصار لم تكن ساعة العمل لأنصار الإصلاح قد دقت بعد في بداية القرن العشرين، فقد اصطدموا بالتصميم العضوي من جانب المانداران (طبقة كبار الموظفين) والتي قيل فيهم إن آذانهم كان من الصعب فتحها كالموانئ الصينية تماما، كما واجهتهم اللامبالاه من جانب الشعب الذي بدا كمن يحاول قبول ثورة الإصلاح ظاهرا فقط حيث لم يكن يستطيع التخلص والتحرر من عقدة كره الأجانب وإن كان في قرارة نفسه يريد أن يتعلم من الأجانب وسائلهم الماكرة واكتساب فعاليتهم.

وظلت المشكلة صعبة الحل في جانبها المزدوجين - إقصاء برابرة الغرب بلاشك، ولكن لتحقيق هذا الهدف كان لابد من التدريب على أساليب وتقنيات الغرب وكان هذا التدريب البطيء جدا محور اهتمامات بعض شباب المثقفين المنتمين إلى طبقة بورجوازية متصلة بتعاملاتها التجارية مع الغرب وتنتقل إلى بلاد الخارج وكذلك انضم إليهم الطلبة وكان عددهم يزداد بسرعة وكانوا من الطبقات الفقيرة التي تلتحق بالمدارس والجامعات التي أنشأتها الحكومة على أحدث النظم العصرية وكان ذلك في أواخر أعوام حكم سلالة المانشو، وبدأت جمعيات سرية تتألف علانية بعضها ذو اتجاه جمهوري وأخرى لازالت تداعبها أحلام ملكية حكم السلطة.

(١) إمبراطورة صينية روصية على العرش ١٨٣٤ - ١٩٠٨ قامت ببعض الإصلاحات في الداخل إلا أنها كانت تشجع الجمعيات السرية مثل جماعة البوكرز وحركة إثارة كره الأجانب.

وكلها برغم التناقض جادة فى مساعيها للنهوض بالصين وإدخال الإصلاحات الجذرية عليها، وهكذا تكونت فى الصين أول حركة ثورية حقيقية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً تحت طبيب من صلب قرية كوانج تونج اسمه سان يات ش ١٨٦٦ - ١٩٢٥ كان قد عاش طويلاً خارج الصين وانضم إلى عدد من الحركات الثورية. وفى طوكيو ١٩٠٥ صار رئيساً لإحدى الروابط الجمهورية سرعان ما أحرزت اهتماماً كبيراً من جانب سكان كل الأراضى الصينية وأعدت برنامجاً رزينا وكانت هذه الحركة على اتصال مباشر بثورة عام ١٩١١ التى أطاحت بسلاسل المانشو ووضعت صن يات ش على رأس حكومة جمهورية ولكن سرعان ما أجهضت هذه الثورة وتنازل صن يات عن صلاحياته الرئاسية للجنرال يوان تسيه كانى (١٩١٦) الذى حاول أن يعيد إقامة أركان النظام القديم لصالحة. وعطل الدستور الليبرالى الصادر عام ١٩١٢، وتغوص الصين فى ديايز الفوضى وسرعان ما تحالفت الحكومات العسكرية فى الأقاليم مع «وجهاء» المدن بغية استخلاص أقصى الفوائد وأصبحوا الأسياد القمء للصين ويقوم صن يات صن - وكان قد هاجر بتأسيس حزب جديد أطلق عليه اسم كومين تانج، ومعناه حزب الثورة، فى تلاعب بالألفاظ ومعانيها وذلك أن كومنج بمعنى الثورة وكيومن بمعنى الأمة لتصبح الكومين تانج حزب الأمة الأكبر المؤسس عام ١٩١٢ فى غمرة السعادة التى انتشرت فى شهور الجمهورية الأولى غير أن الحزب لم يحقق رسالته فكان لابد من إعادة صنع الثورة من جديد . ولم تتمكن الصين من التوصل إليها دون عبور وتخط قاسى وأحداث دامية متكررة فلم تتوقف أو تنته إلا بقرار صدر عام ١٩٤٩ مع انتصار الشيوعيين وإقامة الصين الشعبية وبالمناسبة فإن للتواريخ مغزاها (من حزب الأفيون ١٨٤٠ - ١٨٤٢) (إلى عام ١٩٤٩) إذ كان على الصين أن تقضى قرناً مليئاً بالجهود المضنية الشاقة وتحمل الآلام حتى تتمكن فى النهاية من استعادة استقلالها وفخرها. ويصرح أحد الأساتذة عام ١٩٥١ بقوله (نستطيع نحن الصينيين اليوم أن نشعر من جديد بالزهو..!).

وكان وعلى مدى هذا القرن المفعم بالانتظار والجهود المضنية أن طفق نظام الحكم القديم يتحلى، ويتلاشى فى كل مظاهر التقليدية وحموده واندثرت طبقة كبار موظفى النظام (الماندارين) بأزرارهم الصوفية أو بأزرار قمصانهم من اللؤلؤ كما تلاشت طقوس انعروس الإمبراطورية المذيلة بالرياش القرمزية والفصية بأيدى

أبناء السماء وتلك الجلسات التي أنت تتردى خلالها ثياب البروكا المقصب بالخيط الفضية وبدأت تتلاشى أخيرا تلك الامتيازات الفادحة التي كان يتمتع بها الغربيون واليابانيون وعلى الجملة ما قد بدأت الصين بعد تجربة قاسية طويلة تواجه لحظة من اللحظات حتى الآن أساسا لدى الشعب الصيني ومما زاد في صعوبة الاتجاه هذه الدعامات كانت أعمارها آلافا من سنين ومن ثم يشير الواقع إلى أن دمارها لم يكن كاملا وسظل الصين الجديدة مرتبطة بأنماط فكرية ومدارك حسية مادامت عنوانا معبرا عنها وعن شعوبها ويحتاج الأمر بغير أدنى شك إلى بعض العقود الزمنية حتى تثبتق هذه الحضارة الصينية الجديدة الوليدة تماما ولا نستطيع سوى محاولة التمييز بين معانى التجارب السارية ومفاهيمها ولم نكد نبدأ.

الصين الجديدة

ليس الأمر هنا إطرء للصين الشعبية وإن كان ممكنا ولا هو كذلك بالقدر نفسه إدانة لها وهو الأقل ممكن، ولكن ما يعيدنا فى المقام الأول تسجيل ما أرادت أن تحققه ثم نرى أو نحاول بعد ذلك رؤية ما أصبحت عليه اليوم الحضارة الصينية فى صراعها مع التجربة الإنسانية العنيفة الهائلة ولم تعرفها الإنسانية حتى اليوم على امتداد مسيرتها التاريخية الطويلة وهى تجربة متعددة الجوانب لتنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ثقافيا وروحيا. وكان الأمر إخضاع البشر والأشياء والعالم الخارجى إذا أمكن لحالة مستجدة خلقتها الإرادة الصينية وساهم معها شئ من كبرياء هى على الأقل وسيلة لاستئناف الارتباط مع صين قديمة جدا واثقة من قدرتها على وسط قلب الكون فالصين الشعبية مساحة شاسعة مكتظة بالبشر وثرهات بعضها حقيقى فعلى وبعضها الآخر افتراضى تقديرى يتيسر تحقيقه، ومن هاتين الحقيقتين ينبثق النمو الاقتصادى ولم يتوقف التصاعد فى عدد سكانها حيث كان ٥٧٢ مليوناً عام ١٩٥٢ نما فى الأعوام التالية كما يلى:

٨٥٢ مليوناً عام ١٩٥٣ و ٦٣٥ مليوناً ١٩٥٧ و ٦٩٥ مليوناً عام ١٩٦١

٥٩٤ مليوناً عام ١٩٥٤ و ٦٥٠ مليوناً ١٩٥٨

٦٠٥ مليوناً عام ١٩٥٥ و ٦٦٥ مليوناً ١٩٥٩

٦٢٠ مليوناً عام ١٩٥٦ و ٦٨٠ مليوناً ١٩٦٠

ولنتسارع بالقول بأن ذلك ليس إحصاءاً دقيقاً ماعدا إحصاء عام ١٩٥٣ مع التحفظ على هذا الرقم أيضا وهو حال طاقة الدول النامية وكانت الصين عام ١٩٤٩ أكبر الدول النامية ذات النسبة العالية في زيادة عدد السكان تصل إلى ٤٠ في الألف مع انخفاض في نسبة الوفيات ما أثار أمامها مشاكل جمة وهذه النسبة الرهيبة في زيادة عدد السكان إنما تحول دون ارتفاع مستوى المعيشة ويهدده بصورة جادة وعلى الرغم من ذلك كانت نسبة النمو الإقتصادي من عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٦٢ أشبه بالمعجزات وليس لها شبيه تاريخي معاصر. إذ لم تحقق الخطة الخمسية الأولى في الاتحاد السوفيتي نموا شبيها كما تحقق للخطة الخمسية الأولى الصينية ٥٣ - ١٩٥٧ وتتعلق هذه النسبة باقتصاد ينطلق في مجمله من الصفر وهي ميزة تتحلى بها الدول المتخلفة حيث تبدأ وهي في أشد حالات الفقر بتخصيص مضاعف لما تملكه وهو قليل فتكون النتيجة تضاعف أصولها دون أن تكون من الأثرياء وليس ثمة ما يمنع وقوع ما يقع في دول العالم الرأسمالي للدول ذات النظام الاشتراكي، وهو ما يقع عند بلوغ مستوى تنمية معين إذ يميل قانون الإنتاج إلى الانخفاض ويجب لقياس غرابة التنمية في الصين الشعبية ألا يفوتنا إدراك ما هو ثمن تلك الإرادة المتشددة بلا رحمة ومجهودات الكتل الكثيفة من البشر في مجموعات لا شبيه لها في الدنيا وأن الإقتصاد المخطط علم راود السوفييت في تجربتهم القديمة بل راود الرأسمالية المعاصرة ولستأ بصدد مناقشة موازين ضيقة ويكفي أن نورد فيما يلي الأرقام والمؤشرات دون غريلة حيث كانت نسبة النمو كالتالي:

١ - ١٠٠ عام ١٩٥٢

٢ - ١١٤ عام ١٩٥٣

٣ - ١٢٨ عام ١٩٥٤

٤ - ١٢٨ عام ١٩٥٥ .

٥ - ١٤٥ عام ١٩٥٦

٦ - ١٥٣ عام ١٩٥٧

٧- ٢٠٦ عام ١٩٥٨ و ٢٤٩ عام ١٩٥٩ ونسب الارتفاع عامى ١٩٥٨ و ١٩٥٩ هي ٣٤٪ و ٢٢٪ وهو ما يمكن أن نصفه بنسبة خرافية مما يثبت قفزة عجيبة حدثت.

سيحكم المراقب الذى ليس عالما اقتصاديا بسهولة أكثر على هذا التقدم بأرقام أكثر واقعية وسيرى أن إنتاج الصلب على سبيل المثال كان وفق الأرقام الآتية مقدرة بمليون طن:

عام ١٩٤٩- ٣٢ مليون طن فحم، عام ١٩٤٩- ١٦٠ مليون طن صلب
عام ١٩٦٠- ٤٢٥ مليون طن فحم، عام ١٩٥٢- ١٠٣٠ مليون طن صلب
عام ١٩٦٠- ١٨٠٤ مليون طن صلب، عام ١٩٤٩- ٢٥٠ مليون طن جديد مذاب (زهر)، وعام ١٩٦٠- ٢٧٠٥ مليون طن، والكهرباء بمليار كيلومترات ساعة عام ١٩٤٩- ٤٠٢، وعام ١٩٦٠- ٥٨٠.

والقطن بمليون متر عام ١٩٤٩- ١٠٩١، وعام ١٩٦٠- ٧٦٠٠. والغلال بالإضافة إلى البطاطا (الحلوة) والبطاطس بوزنها وهى طازجة بالأطنان

عام	عام
١٩٥٧- ١٨٥ مليون طن	١٩٥٩- ٢٧٠ مليون طن
١٩٥٨- ٢٥٠ مليون طن	

وكذلك خطوط السكك الحديدية عام ١٩٤٩ وتلك التى صدرت قبل ١٩٦٠ وتلك التى تحت الإنشاء. وكذلك الإنشاءات الضخمة فى محطات الكهرباء من مساقط المياه القديمة والحديثة تحت الإنشاء كلها، وكذلك معامل الطاقة الحرارية أو تلك المشروعات الضخمة للسيطرة والتحكم فى مياه يانج تسوكيانج عند تدفقها من حوض يس تشود بن فى منطقة المنحدرات ومضايق خبسى لينج، وتستطيع هذه المشروعات الجسورة جدا أن تنجح فى حفظ مقادير هائلة من الطاقة تسمح برى مساحات شاسعة من الأرض فى اتجاه الشمال كما تنظم مسار النهر الأزرق المنفج بالفعل على آلاف الكيلو مترات لسفن البحار مما يشجع على إنشاء أحدث

المصانع وكل هذه النتائج كانت ثمرة جهود بشرية (جمهورية جبارة فوق قدرة البشر) بفضل تهيئة المجتمع الصينى لا بالقهر والجبر وحدهما ولكن ببعث الحماس السياسى والإقبال على العمل الهائى بهدف إعادة تشكيل الإنسان الصينى وليست هذه المهمة وحدها وسيلة لتحقيق إنجاز نادر ولكنها هدف ورهان يجازف به نظام الحكم حيث يدرك أن بقاءه مرهون بالنجاح فى هذه المهام التى يقبل عليها بلا توقف ويقابله نوع من الرضا من جانب الجماهير الصينية يتمتع به نظام الحكم الحالى وحسبه فى عيون هذه الجماهير نجاحه فى وأد فساد النظم الحاكمة السابقة المروع وخاصة التى سادت أعوام تشانج كاي تشيك الأخيرة . وقد استطاع نظام الحكم تحمل المسؤولية ونجح فى لملمة وتجميع قلوب الشعب المتناثرة فى بوتقة واحدة ضمت الفلاحين والعمال والمثقفين وأعضاء الحزب، أما الطبقة البرجوازية ذات الثراء الكومبرا دورية التى كانت تشعر بنوع من «رفع المقام» بفضل تمثيلها حركات الوساطة بين التجار الأوروبيين والتجار الصينيين ولقد أقل نجمها عام ١٩٤٩ فى حقائب تشانج كاي تشيك وأمكن امتصاص البرجوازية الصناعية وقت تغيير المنشآت الخاصة وتحويلها إلى منشآت مختلطة ومنشآت عامة عام ١٩٥٦ ولم بعد باقيا فى الساحة سوى بورجوازية من بعض رجال الأعمال وفى جزء فقط من القطاع التجارى فى وضع مؤقت لن يدوم طويلا.

وفى الريف كان الإصلاح سريعا متقدما بخطى ثابتة طبقا لقانون ٣٠ يونيه ١٩٥٠ الذى أطاح بشكل عنيف بالملك وكبار الفلاحين المزارعين والفلاحين المتوسطين حيث تركوا فى أراضيهم مع انقطاع جزء منها يقدر بـ ١٥ آر (الآر ١٠٠ متر مربع) هذا بيانا للمساحات الهائلة من الأرض المقتطعة (٦٠٠ مليون صينى وأكثر من ٥٠٠ مليون من القرويين) ولم تكن تلك القطع الصغيرة من الأرض سوى البداية المؤقتة لنوع من الملكية الصغيرة (الميكرو) المتساوية للكل.

وفى عام ١٩٥٦ وفى شهر أكتوبر بدأ الاتجاه التعاونى الجماعى إنشاء مزارع جماعية، فى خطوة جديدة إلى الأمام حدث بعد ذلك عام ١٩٥٨ بإنشاء الكوميونات القروية تضم ما يقرب من ٢٠ ألف فلاح دفعة واحدة على حين لا

نضم المزرعة الجماعية سوى بضعة مئات فى نظام كان فريدا مبتكرا ولعله أكثر جرأة مما كان متوقعا بحكم ما اتسم به، إذ الفلاح كذلك جندى، وبعض الفلاحين مزودون بالسلاح وذلك فى سياسة زراعية صناعية حربية معاً مما أتاح لنظام الحكم ضمنا إضافيا يتمثل فى احتياطى من «القوة» الحربية المسلحة مستعدة دائما للتدخل ولكن كان فى العشرين من نوفمبر ١٩٦٠ أن بدت الكوميونات كأنما جردت من امتيازاتها وسلبت سلطاتها ومهامها لصالح الوية انتاج يصعب اليوم الحكم على ما إذا كان مصيرها النجاح أو الفشل ولكن المؤكد أن نظام الحكم يسوده نوع من تردد لا يتعلق بالطبع بالهدف المرجو بلوغه ولكنه تردد إزاء الحلول حيث النمو الزراعى هو المؤشر الوحيد فى تحديد الممار تحديد حقيقيا. ويضف العمال عند الوضع نفسه وعدهم لا يفتأ يرتفع وتسيطر الثقافات عليهم بالتعاون مع الحرب وقد طالبتهم الحكومة كما طلبت من الفلاح بضرورة بذل جهود خارقة بعد الخطة الخمسية الثانية حيث قامت دعاية واسعة بهدف احراز قفزات انتاجية بأكثر ممارسته الخطة مما يفسر لنا هذا التزامم المثير للشعارات التى أطلقت أمثال: نحو الأكثر، نحو الأفضل، نحو الأسرع، نحو الأكثر اقتصادا، يوم مثل عام، وعام يساوى ألفا، ويحل عام ١٩٥٨ ليصبح أول ثلاثة أعوام من النضال المضنى ألف عام عشرة قرون.

وسيكون من السهل أن نورد آلاف الأمثلة عن هذه النزعة إلى التصفانى والإخلاص البطولى الذى يرقى إلى مرتبة الملاحم... كل هذا على الرغم من سوء أحوال العمل وظروفه والأجور المتدنية ووجبات الغذاء غير الكافية ونقص أماكن السكن (المنازل) ولنتذكر تلك المهام الإضافية التى يكلف العمال بأدائها فى المصانع حيث يبللون وجوههم بالمياه الباردة وهم فى نوبات عمل ليلية.

أما طبقات المثقفين والطلبة وأعضاء الحزب فإن «البطولة» بعيدة عن مفاهيمهم قليلا أو لعل البرامج المقترحة عليهم أكثر تعقيدا أو أكثر التواء وأكثر أسى فأعضاء الحزب ليسوا دائما بعيدين عن حملات التطهير والنقد الذاتى. وهكذا سمعنا قصة الثلاثة ثم قصة الخمسة المعارضين. كانت الأولى فى يناير وفبراير ١٩٥٢ ضد الفساد (الإسراف والتبديد) من جانب بعض كبار الموظفين حيث كشف عن

فضائح واسعة نصنحت فيما بعد عمدا وعن قصد ضد «رفاق» في المدن من
شخص الحزب فقدوا مواقعهم التي لم يكونوا على مستوى استيعابها، وفي العام
نفسه كشف اللقاب عن الخمسة المعادين وما أقرقوا من فساد وتهرب ضريبي
وغش وتحايل على القانون وبيع ممتلكات الدولة وسرقة أسرارها الاقتصادية مما
أدى إلى وقوع انتفاضات شعبية ضخمة وحوادث انتحار واتهامات متعددة قاسية
ثم حملات تطهير جديدة وحملات نقد ذاتية تبتعتها حوادث انتحار.

أما عدد الطلاب المتزايد فلا تكاد تمضي لحظة واحدة لا تضمد الأيدي
الممسكة بزمامهم إلى هزم وإعادتهم إلى إطار الخضوع والاحتفال للنظام
وإجبارهم على القيام بأعمال ومهام يدوية شاقة في الحقول والمصانع، أما المثقفون
والأساتذة (البروفيسور) فلم تنقصهم حملات اللوم والإزعاج إذ منحوا حق النقد
زما وفي اليوم التالي لأحداث هنغاريا^(١) سحب منهم هذا الحق فورا وقد سميت
تلك الفترة الزمنية القصيرة بفترة المائة زهرة إذ يمكن للفكر أن يفتح كالورد في
ملات الأشكال والأنماط وأصبح المثقفون عند تخديرهم من تفسير أفكارهم
ومعتقداتهم إنذارا ودهم التردد خوفا واضطروا للإذعان يقفون وسط حالة غريبة
خصوصا وأن أقوالهم وتصريحاتهم كانت تنشر في الصحف ولقد قال واحد منهم
إن الماركسية اللينينية نظرية قديمة بالية عديمة لا تصلح للصين وهي في حاجة
إلى مراجعة، ويبدى أستاذ عجزه عن الحكم على بعض الأمور فيقول: إنني
متخوف من الحرية الحالية إذ أن أساس هذه الحرية وجوب الكلام علينا والضغط
مؤلم لي وأوفق لذلك أن نتراضى قليلا، وسوف نرى ما حدث فيما بعد. ومن
الأساتذة من ذكر: إن الشعب لم ينجح في أن يتزود بقوته بنفسه. والبعض يقول:
إن مستوى المعيشة ارتفع، ضجيج رخيص ومبتذل من جانب أساتذة لم يستفيدوا
جيدا من إعادة التثقيف الماركسي ورغم ذلك كان كل ذلك أمورا جادة فلم تدم
المائة زهرة حتى ولو في ربيع واحد بل ولا شهر واحد من ٨ مايو إلى ٨ يونيو
١٩٥٧ فسرعان ما ذبلت بصورة عنيفة وتبعثها حركات قمعية طائشة وهكذا فقد
المثقفون مكانتهم فقداناً تاماً شاملاً وذلك لكي نتذكر أن لا حوار مفتوحاً في

(١) ثورة اندلعت في مدينة بودابست ضد الوجود السوفييتي وقد قامت الدبابات الروسية بقمعها بوحشية.

الصين وإنما هناك نضال للحياة فالمشكلة هي كيف يعاد تشكيل المجتمع .. وإعادة روح جماعية وتنقية المجتمع الصينى من أخطائه وموروثاته وحمايته من نوبات الندم المحتملة وشحنه حتى الثمالة بعوامل الزهو ومشاعر الفخر وبث روح العمل فى أوصالة والطمأنينة فى نفسه وخاصة أسلوب قيادته والأخذ بيده حتى ينخفض شعوره بكره الطاعة وتتأقلم روحه عليها فإذا أمكن إجبار ٦٥٠ مليون صينى على التفكير السليم فسوف يقودهم ذلك إلى التصرف السليم وفق المعايير اللازمة التى وضعها الحزب الشيوعى الصينى حتى تصبح مسيرة هذا الشعب الهائل مسيرة سليمة لتحقيق الصين الاشتراكية ولتحقيق هذا الهدف بدأت حملة دعائية لا تتوقف عن طريق الإذاعات والصحف والخطب لا مثيل لها فى أى تجربة اشتراكية أو أى نظام شمولى وسلاح هذه الدعاية النقد المنظم كل يوم فى كل مواقع العمل .

وخلال المناقشات والمجادلات الإجبارية تحقيقا لما هو أفضل للجماعة أما تلك التى يتعذر تحقيقها فيجب اعداد وسائل مكافحتها حتى تخضع للحل وللتغلب عليها من جانب كل فرد فى المجتمع .

وما حملة توشج الشفوية إلا مزيج من النقد المهنى العنيف والسخرية والتهكمات والصفعات ونادرا جدا أن تقتصر نوبات العنف على واجهتها يسيره أو معقولة وهذه النزعة الأيديولوجية مصممة بحيث تكون طويلة الأنفاس معقدة مركبة هائلة (ما وتسى تونج) وقد تكون ضيقة فى الأوساط الاجتماعية ووصله سقيم بما يكفى فيما يخص الفلاحين وعلى العكس كانت متقدمة جدا فى محيط التجمعات العريضة كالمصانع والمكاتب والجامعات والمدارس ووحدات الجيش وتواجه تلك الظاهرة المذهبية بعض المقاومة وبعض العقاقب ولم تكن الأخيرة دامية كما كانت فى أول الثورة ومع ذلك تظل صدمة .

ففى مجال الآداب والفنون نجد عضوا مفوضا ثقافيا يمثل الحزب ومكلفا بالنظام ومكافحة أية تسريبات بورجوازية أو رجعية قد تتبع وسائل مأكرة ومفروض على كل كاتب أن يكون نموذجا يحتذى ليس فى الفاظة فحسب ، ويحكى عن أحد المؤلفين كان يعيش فى القرية ويكتب كل يوم عن مفهوم الزراعة الجماعية ويقوم فى نفس الوقت بزراعة حقل بطاطة ويرعى قطيعا من الخنازير ،

أما الكتاب الذين ينحرفون يمينا (الزرعة اليمينية) فيتموضون للعقاب كما وقع للروائي تنج لتج الذى أوفد إلى المناطق الشمالية لينلقى دروسا فى إعادة التدقيف بالعمل حيث كان عليه البقاء عامين فى منشوريا، وبالطبع تعد مثل هذه العقوبات غير ذات قيمة إلى جانب أحداث الإعدام الرهيبة الجماعية التى وقعت فى للشهور الأولى للثورة التى قام بها الفلاحون وبالطبع أيضا ما حدث من مقاومات وأعمال تخريب كشفت عنها الوثائق الرسمية ذاتها رغم قتلها وصاحب كل هذا موجات عديدة من الرغبات الجادة والحماسية للانضمام تحت لواء هذه الأفكار (الأيدولوجية) الظافرة .. وكانت بمنزلة للانضمام تحت لواء وطن وأمة .. بمنزلة الإيمان بمستقبل... الإيمان بالصين.

وتجربة الإصلاح الزراعى كانت تمثل الفشل الحقيقى الوحيد بالنسبة للصين الشيوعية حيث استطاعت الأرقام القياسية المعلنة عن المحاصيل فرص الإخضاع الساذج للإحصائيات ومظاهر التفاؤل الرسمى حتى ١٩٥٨ ... ولكن ذلك كله لم يكن بمقدوره اخفاء الحقائق عن كارثة محاصيل عام ١٩٥٩ وعام ١٩٦٠ وعام ١٩٦١ فقد وجهت تلك الحقائق ضربة قاصمة ظالمة جرتنا إلى موجات التفاؤل إذ نتج عما حدث من تدهور فى الإنتاج وصلت إلى دول الغرب إخباره بأنه لأسباب طبيعية مما يتعاقب مع الصين منذ القدم كوارث طبيعية متزامنة متناقضة من سيول وفيضانات إلى فترات جفاف وخاصة فى مقاطعات الشمال الشاسعة، ففى عام ١٩٦١ أن تلف أكثر من نصف المحصول وأصابت الأعاصير والزوايع فضلا عن الفيضانات ملايين الضحايا على حين كان ممكنا من شهر مارس إلى يونية من العام نفسه قطع المسيرة على الأقدام عندحافة نهر هوانج هو الذى تحول إلى شبكة مياه مضحكة حيث لم يلق حشود الأعداء من الجفاف، الأعاصير والسيول والحشرات الضارة أسلحتها أمام الصين الجديدة، وهل يمكننا التعقيب كذلك أن الصين شأن كل الجمهوريات الاشتراكية تدفع ثمن نجاحها الصناعى ولعلها راهنت كثيرا على مجال الصناعة وأهملت الزراعة حيث أشارت الصحافة الرسمية إلى الآفات والنكبات الطبيعية التى لا نظير لها منذ قرن من الزمان بإصبع الإتهام إلى الناس وتحدثت عن أعمال تخريب وقع، فقد تفجر من أوفد من العمال المعاونين

(أغسطس ١٩٦٠) إلى المزارع لمساعدة الكوميونات الشعبية إنقاذ المحاصيل عن الوفاء بالتزاماتهم وواجباتهم وخافوا أوامر الحكومة وتعليمات الحزب بالتواطؤ أحياناً مع عناصر رجعية من الأهلين وهنا لا يجب أن نسكن إلى تقشير كيس الغداء فمن المحتمل أن يصدم نظام الجماعية أى شيوع الأراضي هنا بين أيدي الجموع أو النظم الجماعية كمثيلها فى غيرها من البلاد أكثر ما تصطدم بطبيعة الفلاحين وهم عادة أشد تمسكا بالتقاليد والموروثات عن مسائل فئات المجتمع ويرون فى بعض الإجراءات المعينة نوعاً من التنازل عن امتيازات يتمتعون بها لذا وجب التنويه هنا على الكنائس الإنتاجية الصغيرة لا على الكنائس الكبيرة . عموماً وبإيجاز لما حدث من كوارث المحاصيل آثار كثيرة إبطأت النمو ومعدلاته وأجبرت الصين الشعبية على خفض صادراتها من المواد الغذائية إلى روسيا وكانت مقابل منتجات وخدمات روسية، بل وأدت بها إلى التماس العون من الدول الرأسمالية للحصول على شحنات من الحبوب بلغت ما بين تسعة ملايين طن وعشرة طلبتها الصين كذلك من كندا وأستراليا والولايات المتحدة وفرنسا وبورما بل طلبتها كذلك من فور موزا وقدر فى لندن حيث جمعت تلك السلع لتنظيم نقلها بحراً، ما كان على الصين سداده ما بين ٨٠ مليون جنيه سنوياً ولمدة ٣ سنوات قادمة.. كيف؟ من المحتمل أن يكون السداد مقابل كميات من الزئبق والمعادن الثمينة . من ذهب وفضة ولاشك كانت ضريبة للاقتصاد فى سبيل الانطلاق ويمثل علامة استفهام عن مستقبل الصين . ومع ذلك فإن الجانب المظلم لكل نجاح جانب أكيد ناصح لا يقبل الجدل وجدير بالملاحظة .

الحضارة الصينية في .. مواجهة الدنيا المعاصرة

لم يكن ممكنا تحقيق هذا التقدم الضخم دون موافقة وقبول وتأيد النزعة الوطنية الخاصة ودورها الفعال ذلك أن لفظ الفن الزراعى أو النظام الزراعى يبدو لفظا غير مقبول، أما تلك النزعة الوطنية فشعور بالفخر ونزعة زهو ثقافية لا وطنية أو إن شئنا نزعة وطنية حضارية قديمة لازالت حية، ويجب توضيحها، ذلك لأن الصين اليوم التى تبدو من أول نظرة ضالة جديدة ترتبط هنا بما لها من الزهو، آذاها ومس مشاعرها قرن ككيب (١٨٤٠ - ١٩٤٩) سبق التجربة الشيوعية .

وترنو الصين بأبصارها لتكون قوة عظمى وحضارة كبرى كانت تؤمن دائما بتفوقها على سائر الكون وأسبقية حضارتها حيث لم يكن بعدها فى الكون كلمة سوى الهجمية والوحشية . وفيما مضى من أزمان شمل الصين نوع من الفخر ساد الغرب بالأمس وكان قرن المعاهدات غير المتكافئة قرنا قاسيا مشوها مضاعفا حيث انسلكت الصين أمة بين الأمم وكان ذلك أول بواعث الإذلال . أمة تسيطر عليها شعوب همجية . أجنبية طاغية وكان ذلك ثانى دواعى الإذلال خصوصا وأن المنقصين سيطروا على مقدراتها وأخضعوها لأسلحتهم وعلومهم ومفاهيمهم وليست النزعة الوطنية الحالية سوى حركة ملوثة بالحدة والاحتداد معاً وكانت

قبل كل شيء انتقامية «ثأرية»... تهدف إلى أن تصبح الصين مهما كان الثمن دولة وأمة كبرى ومن هنا نستطيع إدراك سعيها الحثيث العتيد لأخلاق الثورة لا تترك لها فترة وللانقضاء على كل الخبرات والمزايا العصرية الجديدة مثل تعاليم ماركس ولينين والكتيبات الروسية المترجمة، كما انقضت بالأمس على النصوص المقدسة في كتب البوذية وعبرت عن رغبتها في معرفة أسرار الديمقراطية وتعاليمها وأسرار العلوم الحديثة وكما نوجه اليوم نحو التاريخ والعلوم الاجتماعية والايثنوغرافيا أى علم البحث فى خصائص الشعوب وعراقها.

وليس هنا من شك فى أن الصين فى عهد ماوتسى تونج لاتشعر بأى ميل إلى قيادة الشعوب الكادحة ولذلك كانت الإغارة على الدول الغنية وتوضيح لهم وسائل إعداد ثورة سريعة تعد الصين صفاتها بإعاناتها السخية ومع ذلك فلم تتوان الصين على أن تقدم على الرغم مما تعانيه هى من متاعب الغذاء ورؤوس الأموال إذ قدمت فيما بين ١٩٥٣ و ١٩٥٩ (١٩١ مليون مساعدات وإعانات) وزعت على كل من ألبانيا ويورما وكمبوديا وسيلان وكوبا ومصر وغينيا وهنغاريا واندونيسيا وكوريا الشمالية ومنغوليا ونيبال وفيتنام الشمالية واليمن ولا تتضمن هذه الإحصائية ما منح للوار الجزائر كما لا تتضمن كذلك الاتفاق الموقع مؤخرا مع غانا عام ١٩٦١ (يلاحظ أن ٤٠ ٪ من هذه الإعانات منحت لدول وبلاد غير شيوعية) ثم إن هذه الإعانات تثبت نية الصين الشعبية فى أن تلعب دورا عالميا قد يكون أكبر من قدراتها الحالية ولكن المؤكد أنه أقل من طموحاتها.

وقد رأينا كيف قامت بشن غارة لاحتلال التبت عام ١٩٥٠ فكان منذئذ أن بدأ النزاع المستتر بينها وبين الهند ثم بمطالبتها بجزيرة فورموزا حيث يعسكر جيش تشانج طاي تشيك ورغبتها فى استعادة علاقات طبيعية مع اليابان ومع الدول الغربية ذات النظم الاقتصادية التى بأكثر مما يحظى به الاقتصاد السوفيتى (وعمليات التهريب السرى تقريبا للآلات والعدد عن طريق ما كاد^(١) وهونج كونج ثم الرغبة أخيرا فى دخول الأمم المتحدة حيث يحتل مقعد الصين، يحتله بصورة

(١) أراضى صينية الأصل يحتلها البرتغال

متناقضة وبشكل مخالف من يطلق عليهم الوطنيون فى جزيرة فورموزا... كل ذلك يترجم نزعتها ورغبتها فى السيادة والنفوذ وكذلك التصدع والقطيعة شبه الكاملة بين الماركسية الصينية والماركسية السوفيتية فى آخر مؤتمر عقد فى موسكو عام ١٩٦١ حيث ترغب الصين وتراودها أحلام العظمة والسيطرة مثال ذلك هنا أن الصين عام ١٩٤٥ لم تكن قادرة على صنع الموتوسيكل ثم هاهى عام ١٩٦٢ على وشك صنع القنبلة الذرية (واليوم تمتلك القنبلة الهيدروجينية) ولم تكن الصين فى ثنانيا هذه الثورة قد استعادت مجال ذكرى مجدها اللئيد السابق زهو أسلافها الأقدمين وجدادتها بصفتها إحدى الحضارات الكبرى. ويوجز ما يلى من قول ايبين بالزاس وهو من الاخصائيين فى العلوم الصينية الرأى فى موضوع الحضارة الراهنة التى استعادتتها الصين فى المجال الثقافى الطويل الذى ملكته.

أن تنجح التجربة الصينية بطريقة مقنعة وأن تجازف الدول النامية باتباع طريقها فإن ذلك وحده عطاء ضخم يثير المخاوف والفرع (فرع أعداء الصين وفرع أصدقائها) معا إذا ما طرحنا السؤال الآتى:

هل تنجح التجربة الصينية؟ أليست فى طريقها إلى الفشل؟ ولنقول بصراحة إن محاولة سبراغوار ما نتيجته الأرقام لا يجدى وكذلك الإحصائيات ذلك لأن الأرقام إنما تعد لإحتياجات القضية وضرورتها وفضلا عن ذلك فإن أرقام الإحصائيات الصينية نتمس طريقها وتغوص هى نفسها سابحة فى مسالك ودروب من التجريبية.

وليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة من أن إحصائيات الصين ليست مؤكدة تماما إلا أنها كافية للسماح بإعداد الخطط والتقدم دون أخطاء كثيرة وتقدير التجارب الجارية وتقييم نتائجها للتمييز بين التحركات واختيار الأفضل وهذه التحركات فى مجموعها تحركات إيجابية بكل تأكيد.. ومن الممكن أن نستعثر بفشل بعض الخطط الخمسية كأفران الجيب العالمية وضعت محصول الغلال والكوميونات الشعبية إلا أن العناصر الأساسية الثابتة التى تتمحور حولها التجربة الصينية أو فى لمعان الفكر من السخرية والإستهتار أو النقد ما دامت محسوبة بعناية ودقة:

١ - أن معدل نمو الصناعة يتصاعد وسوف يستمر في التصاعد خلال سنوات قادمة ولا شك سوف يتفوق على المعدل في الاتحاد السوفيتي ودول الديمقراطية الشعبية الأخرى والدول المتخلفة بمتوسط ٢٠ ٪ مقابل ما بين ١,٧ ٪ .

٢ - الإدارة الصادقة والرغبة الواضحة في المسير على القدمين أطول زمن ممكن بمعنى الاحتفاظ بإيرادات الصناعة من أجل الاستثمارات في سبيل المحافظة على معدلاتها في النمو وإيقاعها المتصاعد والتصرف في القطاعات الأخرى بالإمكانات المتاحة وتقوم جماعات الحرفيين الذين يعملون في القرى تحت إشراف الإدارة لتوفير ما تحتاج إليه الجماعات الضخمة من الفلاحين بكل ما تحتاج إليه من أدوات أساسية ومعدات يستلزمها العمل في الحقول وكذلك الأدوات الاستهلاكية.

٣ - نقشف عام وغير محدود مما يعنى مطالبة التكتلات الضخمة من أفراد الشعب بتضحيات جسيمة ثقيلة.

٤ - أن يتحلى المديرون بمرونة وشفافية تتيح لهم النقد الذاتى والإقرار والاعتراف بأخطائهم ومعالجتها فوراً وتصحيح المسار بلا إبطاء وكل ذلك يتركز على حقائق أساسية تنطوى عليها الحياة والحضارة الصينية ولم يكن مستطاعاً بدونها عمل شيء أو تحقيق تقدم.

(أ) وأولا العدد لا يجب بأى حال من الأحوال إذا ما وقعت تضحيات ضرورية فى عدد الرجال بسبب مشاق التجربة أو تضحيات عددية كثيرة تعريض نجاح التجربة للخطر والمجازفة بنجاحها ذاتها لأن الناس كثيرون ولقد اكتظت الصين دائماً بكثير منهم.

(ب) ولكن بصفة خاصة فيما تحوطه التجربة من إطار غير مسبق فيه تتكثل كثافة سكانية عددها أكثر من ٦٠٠ مليون نسمة يشرف عليهم عشرة ملايين من أعضاء منظمين منتظمين مخصصين كرسوا حياتهم وجهودهم للحزب يجلس على قمته بعض الاستثناءات تقريبا من «الحرس القديم» الرؤساء انقضى ثلاثون عاما من حروب أهلية واضطهادات ومقاومة مسلحة ضد اليابان وعديد من

التقدمات والتراجعات فى مجال الإستراتيجية العسكرية والتكنيكات السياسية... فى حقبة تجربة لا مثيل ولا شبيه لها فى إدارة البشر والأعمال ولا يمكن أن ننصوهم إلا خلفاء تقاليد بيروقراطية راسخة لإمبراطورية عمرها يقدر بعشرات القرون والسنين وهم فوق ذلك موظفون مثقفون اعتادوا حكم بلد ضخم بيد حاشمة حازمة جدا... كنوع جديد من الطبقة المثقفة يجيدون التصرف بحساسة وحسم أطاحوا بما فى الكتب من لغو وآراء متحجرة وأخيرا فهم يمسون فى أيديهم القوة بمصير الصين ومصير الكتل الشعبية فى الصين وكانت دائما خاضعة للنظام.

وترى هذه الكتل الضخمة من الشعب الصينى اليوم تتابع هؤلاء الرؤساء الجدد بكل مظاهرو الطاعة لعل هذه المنظومة الفعالة دون أى مظهر من مظاهر الضعف المصممة على الإستمرار من القمة حتى أسفل القاعدة وتستطيع تشغيل وتحريك كل الناس بصرامة هو سر هذه التجربة الفريدة فى زمن قصير فمن أقدم الحضرارات السابقة صارت الصين اليوم القوة الأنصر شبابا والأكثر تقدما بين كافة البلاد النامية ولكن ربما كان ذلك لاستطاعتها الارتكاز على واحدة من أقدم وأرسخ أصالة نابعة من حضارتها القديمة: ونظامها البيروقراطى.

قصة أخرى تواجه

مصير الصين... نزاعها

الصراع الصينى السوفيتى

ترى هل كشفت المجادلات التى وقعت أثناء انعقاد المؤتمر الثانى والعشرين فى ١٩٦١ وضريات وتلميحات جريدة البرافدا وتلميحاتها (جريدة الشعب اليومية) فى مقالات ملبدة مغلقة وكذلك الصحف الرسمية الروسية والصينية عن صراع حقيقى بين الدولتين؟ أو أن المظاهر خادعة بحيث ينتهى التضامن الاشتراكى دائما بالفوز لأن التضامن هو العنصر الأقوى. والحق يقال إن الطلاق بين الدولتين يكاد يكون مستحيلا فلو قد حدث لكانت له آثار دولية خطيرة جدا بالنسبة للشريكين ومع ذلك تبدو العداوة عميقة الجذور حيث نجد أن الأسباب هنا كذلك تغوص فى أعماق التاريخ... تاريخ الحضارات الحاضرة ولاشك أن للنزاع أسبابا

حالية فالنزاع بين شعبين كبيرين حاولا التجربة الشيوعية بهدف مسايرة العصر الحديث حيث لا يزال أحدهما يلهث بعد أربعين عاما من الإملاق والحرمان وحيث يفتح الثانى أو واجه فى مجهود يفوق طاقة البشر وتكشف بانس على حين يجلس الثرى الجديد على مائدة المفاوضات مزهوا مثيرا للجلبة والضوضاء ويجد القريب الفقير فى المحافل الدولية أن لا صوت له فى الاجتماعات التوفيقية .

كما يجد نفسه مبعدا عن الحلبة الدولية كأنه مصاب بالطاعون، وأحدهما محكوم عليه بالتقدم مهما كان الثمن حتى لا يتراجع والآخر أصبح متعقلا متيقظا حذرا فى خطواته كما تمثل كذلك بينهما محالات للاحتكاك ولكن أليس الصدام نابعا من نزعة وطنية عميقة الجذور مع رغبتها فى الثأر من الغرب ومن روسيا إشتراكية كانت أم غير إشتراكية كذلك .

أما الغرب فلا يزال بالنسبة إلى الصين ذلك العدو الهمجى البربرى ولا تحرص الصين على شىء أكثر من حرصها على محو ماضيها وأن تصبح هى بذاتها عاصمة العالم الثالث وهكذا تعتقد أنها عندئذ صائرة من جديد إلى تكوين «إمبراطورية الوسط» .

حاشية ١٩٦٦

تفاقم النزاع الصيني السوفيتي منذ عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤ سقط خروشوف وغاب عن الساحة ولم يؤد سقوطه إلى حل للنزاع وكان الحدثن البارزان منذ ذلك التاريخ:

١ - استخلاص نتائج من اعلان الصين عن توصلها لأسرار القنابل الذرية «الصينية»، في ٦ اكتوبر ١٩٦٤ و ١٥ مايو ١٩٦٥ ثم ١٩٦٦، مما يدل على تقدم تكنولوجيا ضخ لم يكن يتوقعه أحد أو كان أمراً مستحيلاً في زمن قصير كهذا خاصة بعد انقطاع المساعدات الروسية في المجال النووي في عام ١٩٥٩ وهكذا وجدت الصين الطريقة التي توقف بها كل الادعاءات والتهديدات من جانب الولايات المتحدة الأمريكية.

٢ - عودة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والصين في ٢٧ يناير ١٩٦٤ مما كان يعد اعترافاً بالصين الشيوعية وكان هذا الحدث الثاني بمنزلة بادرة سياسية من الطرفين تحقيقاً لأسباب اقتصادية أملت احتياجات الطرفين ذلك لأن حجم التجارة مع إنجلترا التي اعترفت بالصين منذ ٦ يناير ١٩٥٠ وحجمها وكذلك مع ألمانيا الاتحادية كان يفوق حجمه مع فرنسا.

ويعتقد الصينيون أن بلدان العالم غير الشيوعي ينقسم إلى ثلاثة إلى ثلاثة مناطق هي:

١ - بلاد العالم الثالث .

٢ - بلاد الدول الرأسمالية التي لا تسير في فلك الولايات المتحدة الأمريكية .

٣ - الولايات المتحدة الأمريكية .

كما أن بلاد النظم الرأسمالية التي لا تسير في فلك الولايات المتحدة الأمريكية في خلاف مع الأخيرة في بعض الأمور، كما يعتقد الصينيون أن دول العالم الثالث تعد منطقة وسيطة. ولذلك يعدون بلادهم هي المنطقة الوسيطة الثانية كما أن دول العالم الرأسمالي التي لا تسير في فلك الولايات المتحدة الأمريكية هي دول أوروبا خاصة واليابان وهي بالنسبة للصين تعد أمامها مجالات متفتحة يمارسون فيها ومعها حركتهم ونشاطهم.

الفصل الرابع

الهند بالأمس
واليوم ..

الهند بالأمس واليوم

تبدو الهند كتجمع متقارب من الأراضى ومثله عديد من الأزمنة الماضية المتعاقبة تحاول التوافق بلا جدوى وهى أراضى شاسعة جدا (٤ أربعة ملايين كيلو متر مربع) وتقدر مع أراضى باكستان لثلاثة أو أربعة أصناف مساحة قارة أوروبا وهى مكنظة بما يصل عددهم اليوم إلى ٤٣٨ مليون من السكان (ماعددا سكان الباكستان). ولم تعرف الهند هدوءاً فى ماضيها بين الديكان فى الجنوب وشعبها المحافظ، بشرا وحضارة ومقاومة عنيدة وفى الشمال الشرقى حيث تمتد بلاد الأندوس حتى تلتحم بإيران، وفيما وراء معر جيير حتى أراضى التركستان ومنها حتى أراضى آسيا الوسطى (وسط آسيا) المفتوحة أمام الغزوات وتعد أخطر المناطق فى الأراضى الهندية وأكثرها إثارة للشفقة المثيرة وأخيراً (باستثناء حقبة الاستعمار الإنجليزى) لم يحدث أن استطاعت سيطرة سياسية أن تفرض نفسها على تجمع بلاد شبه القارة لا الأمس ولا اليوم بعد التقسيم المفاجئ العنيف الدامى بين كل من

الهند وباكستان عام ١٩٤٧

الأراضى الهندية القديمة

حتى قبيل الاحتلال الإنجليزى

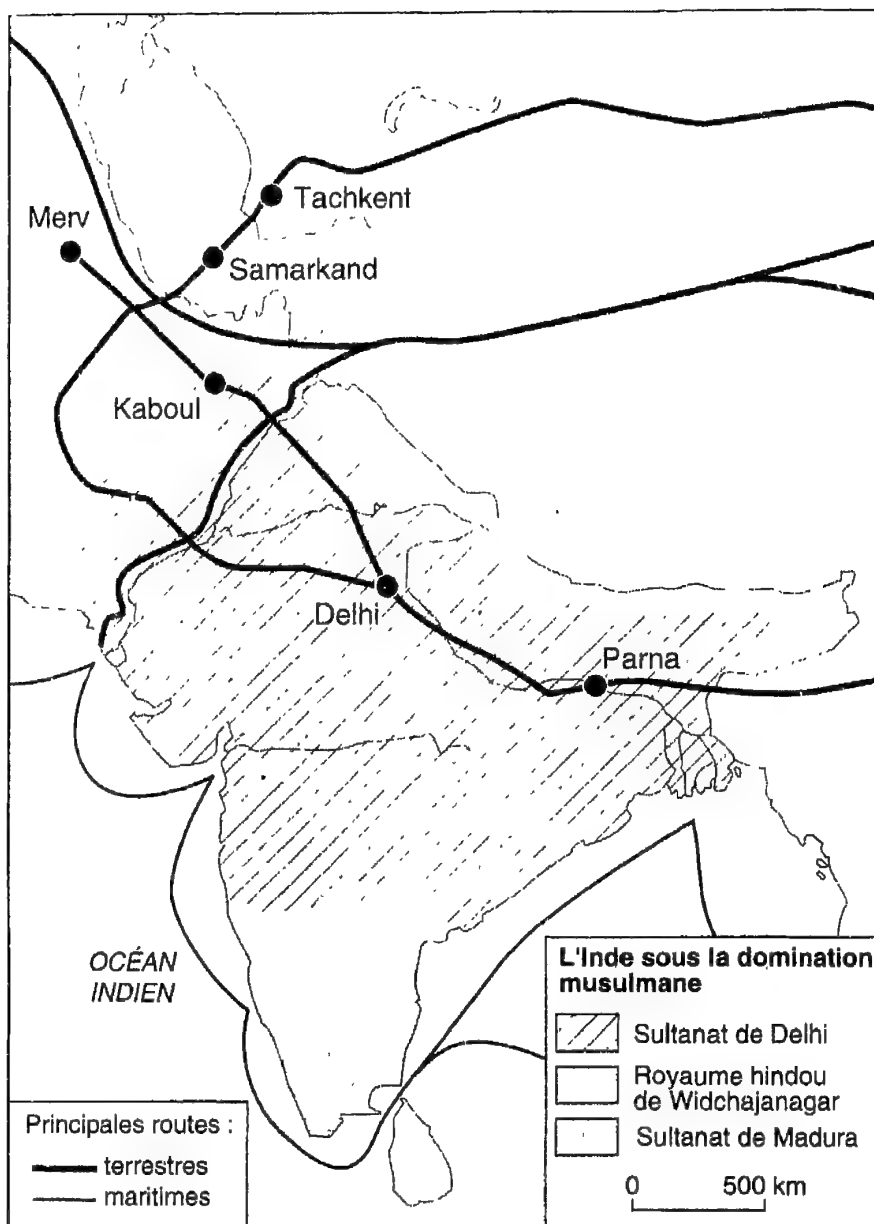
نستطيع القول إذا لم نرجع إلى حضارة بلاد الأندوس الغامضة أى ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف سنة قبل الميلاد أن ثلاثة بلاد هندية تكونت ببطء واستبدلت دون التسرع بالامتداد أحدهما نحو الأخرى:

١- حضارة آرية هندية تسمى حضارة فيدا^(١) وذلك من قبل الميلاد - ١٤٠٠ سنة حتى القرن السابع بعد الميلاد.

٢ - حضارة إسلامية هندية فرضها الغازى المسلم فارتدت شعوبها القميص المفروض اتقاءً للشرور وكان ذلك ما بين القرنين الثالث عشر والثامن عشر وخلال تلك الفترة الزمنية الممتدة من الغزو حتى تنوديه بدوره ولم تتمكن منذ القرن الثامن عشر أى زمن الاستعمار الإنجليزي أى من تلك الحضارات المتمثلة فى هذه الإمبراطوريات العالمية التى كانوا يحتلونهم من قمع سكان شبه القارة كلهم حتى القرن الثامن عشر فلم تخضع خلال هذا الزمن أراضي الهند لنظام موحد كما وقع لماضى الصين إذ مرت ببلاد الهند فيدا بثلاث أو أربع مراحل كبرى من ١٤٠٠ عام قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد حيث وقع خلال الألفين من السنين غزو واستقرار من قبل شعوب آرية اقبلت من التركستان إلى الأراضي الهندية من جهة الشمال الغربى متسللة فى هدوء عبر أودية بلاد الأندوس الوسطى ثم عبر الحانج الأوسط ولم يتأثر بحضارتهم سوى جزء من وادى الهند - جانح غير أن السبب إنما يعود إلى حيوية قلب الهند. وحضارة ما يسمى بحضارة الفيدا نسبة إلى فيدا حيث تألفت من تقاليد الوافدين على الأراضي الهندية ومن طقوس الشعوب التى استقر بها المقام فى الأراضي الهندية وتعنى حضارة فيدا هذه المعرفة المقدسة وسوف تتبلور فى ببطء طويل كما صطدمت بالشعوب الأهلية السابق توطنها هذه الأراضي ومنهم رجال ذو بشرة سمراء أو سوداء من جذور مختلفة: أقزام قدموا مبكرا من افريقيا وأقوام من سواحل البحر الأبيض المتوسط وصلوا فيما بعد من بلاد العراق احتمالا واحتفظت نماذجهم بميزات مثل شعوب الدراويد ذوى السمات المنغولية التى تقطن شمالى الهند^(٢)

(١) فيدا أحد كتب الهندوس الدينية الأربعة.

(٢) شعوب هندية من جذور من أوروبا.



الهند تحت السيطرة الإسلامية
الهندوكية ودشاجانجار
سلطنة مادورا

خطوط / طرق رئيسية
خطوط أرضية
خطوط ملاحية بحرية

قادمين من الجنوب وجذورهم من آسيا الوسطى وخاصة البنغال وهؤلاء الآريون السابقون ملتصقون بالأرض أى مزارعون يربون الحيوان وهم من سكان مناطق حضرية يتجمعون فى القرى فى المدن على ضفاف نهر الاندوس معقل حضارة قديمة من أهل المدن والتجار وتتعدد هذه الشعوب الآرية السابقة وستظل من الأمس إلى اليوم تمثل العنصر البشرى الغالب فى بلاد الهند وأغلب الهنود من السلالة الآرية من رعاية الأغنام الرحل ذو بشرة فاتحة وشعر أشقر ينتمون فى أصولهم إلى شعوب عديدة اجتاحت الوديان والهضاب ومن إيران وآسيا الوسطى وكذا الأراضى الأوروبية الثانية وغزاة اراضى الهند هؤلاء أشقاء للإغريق وسكان الجزر الإيطالية الأوائل وشعوب السكان والجرمانيين الصقالية .

٢ - المرحلة الأولى : العام الألف : الغزو : وقعت الغزوة الآرية الأولى من التركستان نحو إيران والهند وولقت من العراق حتى الأندوس وبحضارة متجانسة مشعة مزدهرة بمدنها ومنازلها العالية وفلاحيتها ذوى الجذور المتأصلة وكانت هذه الحضارة القديمة فى فترة تراجع وتفسخ عندما وصل الغزو أراضى الأندوس حيث قاوموا طويلا فى سبيل استقلالهم ضد الطارئين الجدد واستطاعوا تأخير تقدمهم نحو الشرق . وتحكى النصوص الآرية المقدسة باللغة السنسكريتية عن هذه المعارك ومراحل الكفاح المستمر الذى جمع البشر والآلهة والعصاة لله والأزورا والمؤمنين بالألوهية الحامية للخصوم ثم انتشروا قبل العام الألف فى منطقة البيجاب وروافد نهر كابل وتتجلى هذه المرحلة الطويلة فى أغلب الكتب المقدسة أمثال زى الفيدا الشعرية وتسمى كذلك بكتاب الأناشيد حيث تفسر روايات الأساطير والخرافات المتصلة بالآلهة وكذلك المعتقدات فى أول من ديانات الفيدا وهم ثلاثة وثلاثون ربا على الأقل منهم أرباب الدنيا وأرباب الفضاء الوسيط أى أرباب الفضاء والسماء ، ومن هذه الأرباب «الناهضة» بيزفارونا يتولى صيانة القوانين الكونية والروحية ورصد المذنبين الذين يقيدهم بالحبال ويبدد كذلك اندرا وهو رب أهم وهو حامى الأبطال من ذوى الشعر الفاتح سعداء آلاف المعارك قاهر الشيطان فيترا وهو محرر ماء السماء التى تعمّر الأرض منذ ذلك

التحرير وترويتها وتخصبها وتمتزج كل هذه الآلهة والأرباب بالناس كأرباب لأوليمب من قادة المحاربين الذين تلاهموا عند حوائط طروادة وكلهم يطالب بقرابين وأصاصى من لبن وقمح ولحم حيوان وأشربة مخمرة «سوما» من نبات غامض فهي باختصار ديانه تعددية قطعية تخضع لطقوس وهكذا أثبت هؤلاء الآريون الرحل أنهم لم يتنازلوا بعد عن معتقداتهم القديمة للتأقلم على حياة حضرية نظامية حتى فى المحيط الدينى.

(ب) المرحلة الثانية من العام الألف حتى عام ٦٠٠ قبل الميلاد مرحلة الفتح والانتقال من الترحل إلى الإقامة والاستقرار.

كان استقرار الغزاة قد تحقق فيما بين العام الألف والعام الستمائة قبل الميلاد فى المناطق التى توسعت نحو الشرق ولعبت فيها مدينة دلهى دور المحور الرئيسى وقد امتدت هذه الغزوة نحو الشرق حتى بناريس الحالية عبر معارك قتالية هائلة أو هكذا أوصفت لنا على الأمل وحوالى عام ٨٠٠ بلغت البنجال .

وربما أواسط الهند كذلك وتفسر لنا التغيرات والتحولات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية هذه التجديدات الدينية المستحدثة مع ظهور عديد من كتب مقدسة جديدة ثم تفسيراتها من أمثال البراهمانية أو الأوبانيشايدية التى تفتح الأبواب المقدسة فى التأمل الدينى (الوص) مع الإحتفاظ بعمق الجذور ثم تبدأ هذه الديانة فى دخول مرحلة التعقيد رويدا رويدا ولذلك بدأت تظهر وتتأصل اتجاهات نحو «الوحدانية» على حين تظهر بفضل امتزاج شعوب غازية وأخرى مغزوة كتلة ضخمة من العقائد غير الآرية انتشرت عبر كل النظم الدينية الأخرى فيها اليدجا (أى السيطرة والتحكم الذاتى) التى تحتل ممارساتها وطقوسها مكانا بارزا فى الديانة الفيدية (نسب للآلهه فيدا) إلى جانب قرابين شعائرية. ثم بدأت هذه المعتقدات والطقوس الدينية تمر بمرحلة القيام والضجر الميزان للكآبة، ذلك أن لا تكف عن التفكير فى أن الأرواح إنما تتناسخ مجددة خلق أنماط جديدة من الكيان الأرضى دون نهاية محزنة البتة ثم فى الوقت نفسه تعزز تلك التقسيمات الاجتماعية (قارتا) فى مجتمع سحرى شبه اقطاعى مركب يقينا حيث لا مجال لشيء يصبح قابلاً للإدراك الحسى بمجرد الإتصال وإقامة العلاقات بين شعوب

بلاد غازية وأخرى غزيت ومن أوائل تلك التقسيمات (فى المقام الأول) نجد طائفة البراهمة وهم كهنة الروحانيات ثم يأتى من بعدهم المحاريون والملوك والأمراء والسادة الكبار الكشاترياس وتقف فى المقام الثالث صغار الفلاحين ورعاة الأغنام والحرفيون والتجار الفايساس وفى الصف الرابع والأخير السودراس أو الكودراس ويمثلون أصلا على الأقل الأهالى المستعبدين ثم بدأت بعد ذلك ملامح هذا المجتمع تتأكد ببطء بمحرماته وفروضه المتعددة وانقساماته حسب الأصول النقية وغير النقية وتجزأة الدينوى والروحى حيث تتعامل بين أرباب الطبقات العليا وسرعان أن وجدت النظم الحاكمة البدائية نفسها مجردة من كل احتكار وامتياز دينى مع الفارق الذى كان بمنزلة القاعدة فى الصين كما فى مصر القديمة وارتباط المبدئين الروحانى والسياسى للأمبريوم (السيادة الحاكمة) الفريدة لم يكن كافيا فى الواقع أن يستخدم الملك براهاميم للطقوس الشعبية إذ كان عليه أن تكون ناصلة شخصية مع واحد برهمى وبروهينا بمعنى ذوالمكانة المقدسة وقد تترجم إلى الكاهن ومع ذلك فما ينبغى أن يغيب عن بالنا فكرة وجود وقد أوطليعة روحانية وليس فقط لا لأن الآلهة لا يأكلون قرابين الملك دون بروهينا .

ولكن لأن الملك يعتمد على هذا الأخير فى تصارييف الحياة التى تنجح بغير معونية فهو للملك ما للإرادة فى علاقة عريضة كأنها علاقة قران بإيجاز كما يقول الإلهة فيدا إنه يسكن فى موقعه ويزدهر وينمو حيث وفر له الأرض كل عطاياها والشعب بطبيعة نفسه.. الملك الذى يسير البراهمانى نحوه أولا وكما وصفها لويس ديمون فإن فصوص المذهب البراهمانى التى تشبه سيادة إلهية دينية وترتبط بالسلطة دون ما امتزاج بينهما هى السبب الجوهرى لهذا المجتمع المجزأ الذى يشبه تلاحم تلك الأجزاء كارتباط الواحد بالآخر فتعارض الطبقتان الأوليان مع بقية الكتل الشعبية وكذلك الثلاثة الأوائل معا مع باقى الكادراسى (الكودراسى تنطق السودراس) وعمد البراهمة إلى تأسيس رفع شأنهم اعتبارا من المخاوف الوالهة المضطربة التى يوحون بها: طقوس متداخلة ومتشابكة إذ سرعان ما يتوارى الرب المرجو هاربا فيتولى الفارونا ممارسة نزعاته الإنتقامية بصورة قاسية شرسه ويستطيع الكهان المؤتمنون الحافظون لأسرار الطقوس عندئذ

التصرف حسب رغباتهم وأهوائهم وشن الهجوم على المذهب الآرى القديم^(١) وإنقاص قيم الآلهة أندرا وكل الأرباب أبطال الأناشيد القديمة ويخلقون لاستخدامهم الذاتى إلهاساميا هو «براهما» يقرأس قرايبهم وأضحيتهم ولن يتميز هذا الرب مطلقا على أى حال بأية شعبية وفى المقابل سيقوم الهامه اثنان بإثارة حمية المؤمنين المخلصين وهما سيفارودرا لدى السكان الفلاحين والفيشنو المتشبه لدى الطبقات الأرستقراطية بأبطال كرشنا فاسوديفا بالإضافة إلى المحاربين والفلاحين (الطبقة الثانية والثالثة) وسيتجهون طواعية نحو اليوجا التى يمارسها البراهمة بدورهم وتجاه مذاهب أخرى تمارسها طبقة الأهالى وأخيرا اتجاه فكر فلسفى حر تولد منه منذ القرن السادس والخامس ديانتان اثنتان الجايزميه والبوذية.

(ج) المرحلة الثالثة وتتضمن إشراقات المذهبين البانية^(٢) والبوذية

كانت أولى عهود ازدهار هاتين العقيدتين نابعا من نظم حكم طبقات صغيرة جدا ثم من ثنانيا مدن أرستقراطية مرتبطة بالتجارة وأصبحت هذه المدن آهلة بالسكان تستفيد من حيلها للبدخ وثروات بورجوازيها من ملاك المصارف ورجال البنوك والتجار يجنون أرباحا ضخمة من تجارة القوافل والمبادلات التجارية عبر البحار وهكذا ظهرت تلك الأقمشة القطنية الرفيعة وكذا الأقمشة الكتانية والحريرية الفاخرة ومنذ العام ٦٠٠ قبل الميلاد تأكد قيام صناعة الحديد بفضل ما عثر عليه من أسلحة فى أضرحة الموتى وكان ميناء عدن البعيد هو المركز الكبير حيث تنعقد صفقات إعادة شحن الحديد إلى البحر المتوسط وفى هذا الوسط النشط الذى يكاد يماثل اليونان التى عاصرتها فى القرن السادس والقرن الخامس قبل الميلاد ازدهرت ونمت الديانتان الكبيرتان المنفذتان البانية والبوذية المتساويتين فى السمات وإحدهما كالأخرى من الديانات خارج الإطار علمانية، تمارسهما الطبقات المسيطرة خارج نطاق البراهمة وينتشر بها التجار وكل منهما تهتم بتشديد المعابد وعرض قواعد الخلاص الفردى، فالبوذية تنوع من أفكار الرغبة فى الحياة

(١) خلق صفات البشر على الله وتشبيهه بالإنسان.

(٢) البانية إحدى ديانات الهند تركز على تطهير النفس باللاعنف .

ومعناها تبحث عن وسيلة لكسر دائرة التناسخ الملعونة للوصول إلى النيرفانا، أما البانية فعلى العكس تجد فى العذاب الشخصى وسعيه طريقا سليما فعلا للخلاص وأمس الديانتين سادة كبار احدهما سيد هارتا جوتاما ولعله نجل ملك (٥٦٣ - ٤٨٣ ق.م) ويسمى كذلك ساكيامونى وحكيم الساكيا أو بودا المستنير ثم فارها مانا ماهاتر (٥٤٠ - ٤٦٨ ق.م) قاهر الدنيا (جينا) وتوصلت البوذية وأصلها من تيبال لوجبها عام ٥٢٥ وانتشرت منذ ذلك التاريخ خلال ما تبقى من زمنها عبر وادى نهر الجانج وتقوم ديانتته المدعوة إلى تعديل مسارها بعد وفاته على أحاديثه وكلامه طبقا لما جمعه أتباعه ومريدوه ولا تأكيد بشأن الله إنه صمت لا إنكار لولا أنه يظل علامة بارزة على مذهبه كرفض كل وحدانيات الوجود.

وعلى وفاق مع الأفكار السائدة فى زمانه كأفكار الأوبانيشاد فهو ينكر واقع الدنيا والإنسان العام الشامل وليس ثمة ماهو حقيقة خارج ضميرنا ويقول: لقد عدت نحوى كعصفور على ظهر سفينة يطير مستقبلا الجهات الأصلية باحثا عن أرض ذلك أن هذه العناصر (التراب والنار والماء والهواء) فى ثنايا الضمير نقطة ارتكاز وتفقدتها فى الضمير الوافد الحس، الناقص الشعور وكلما توقف الضمير عن كينونته (لم يعد كائنا) بادت عناصر الكون كلها.

وفى الحقيقة كان بودا واحدا من الزهاد أى سنايازى والزاهد هو الإنسان الذى يغادر المجتمع هائما على وجهه منذ بداية زهده يعيش على الصدقات باحثا عن مطلق روحانى قادرا على تحريره وخلاصة وهو ليس منشغلا بإعادة تشكيل المجتمع الذى يتصرف عنه ولكن لتأمين خلاصه الذاتى الشخصى فالبوذية إذن لفرد أو رجل انقض عن مجتمعه وارتبط بالبدع التى تدبثق بصورة منتظمة فى الهند وتوفر طرق كثيرة للخضوع لديانه البراهمة بالتقشف والزهد الشخصى وقدسية المطلق والزاهد البراهمى بخلاف المسيحى الذى يحاول التهرب من الموت بجاهد فى التهرب من الحياة بحلقات درورية من عودة الحياة وظمأ السعادة هاهى: أيها النساك الحقيقة المقدسة لأبطال الألم: إطفاء هذا العطش بوأو الرغبة وإقصاء الرغبة بالزهد فيها وعدم ترك مجال لها وبهذا الثمن يمكن تحطيم دائرة عودة الحياة ولبلوغ مرحلة النيرفانا وعلى الإنسان الحق لبلوغها أن يتبع الطريق ذا

الأفرع الثمانية وبها يبلغ العلم الذى يخلص الإنسان من كل غرور ويتجنب المحرمات الخمسة (القتل، السرقة، الزنا، السكر، الكذب) والامتناع عن الخطايا العشر المحرمات وهى : السب والثروة والحسد والغيرة والحقد والخطأ العقدى، وممارسة الفضائل السنة السامية وهى: حب الجار والصبر والنقاء الروحى والحمية والإحسان والطيبة أما بلوغ الكمال فمعناه وصول المرء إلى أبعد من ذلك أى يصبح بوديستافا قديساً ثم بوذاً ومعنى الحصول على الإشراقات الصوفية الزاهدة وتقبلها والبوذيون وحدهم هم الذين يذوبون فى النير فانا.

خلال ما سمي بعصر الامبراطوريات الحاكمة من عام ٣٢١ ق.م حتى عام ٥٣٥ بعد الميلاد إذ حققت كل من البانية والبوذية. انتشاراً واسعاً فقد سيطرتا على السفن والفكر دون أن تستبعد لحظة واحدة الطقوس والممارسات السارية النابعة من شعائر فيدا وفى سبيل الدفاع عن مواقعهم استندوا أكثر فأكثر إلى الشعائر الشعبية التى جمعوها فى شكل معقل أو منراس ويؤدى هذا السياق البطئ إلى الهندوسية والستكريتية (١) على أقصى اتساع وبهذا تراسخ التدرج المسلسل الكهنوتى واكتمل خاصة تلك المنظومة منظومة نظام الطبقات الاجتماعية وهو نظام أساسى للهند وبدأت ملامحه ترسم فى الأفق بين عام ٣٠٠ ق.م وعام ٧٠٠ للميلاد وهو تكوين متأخر نسبياً لا يجب الخلط بينه وبين نظم الفارنا القديمة.

فهذه تشبه طبقات المجتمع فى إيران قبل دخول الإسلام أما المنظومة الطبقيّة وهى إحدى الحقائق فى الهند المعاصرة فقد تشكلت فى حقبة طويلة (بضعة آلاف من السنين) وكان تشكيلها قد جاء صدقة عند امتزاج العرقيات والثقافات وبفضل التمايز المتصاعد للمهن والحرف ومن هنا نشأت عدة آلاف من الطبقات أصبح فى الهند ٢٤٠٠ طبقة اجتماعية ويجيء فى أدنى هذا السلم الطبقي فى المجتمع دور الطبقات المحرمة البارياس والمنبوذون.

واستفادت هذه الحضارة المتعددة العناصر من نشأة الإمبراطوريات (النظم الحاكمة والسلطات السيادية) الشمولية (سلالة الموريا من ٣٢١ حتى ٣٨١ ق.م

(١) مذهب الثاليفيّة أى التوفيق بين المذاهب المتعارضة.

وأكثر من ذلك سلالة كونييا من عام ٣٢٠ حتى عام ٥٢٥ بعد الميلاد حتى امتدت حدود الهند إلى الشمال حتى نيبال والهملايا والتبت وسيام وإلى اندونيسيا خاصة بعد اضمحلال سلالة كويتا لتسرب إلى جزيرة سيلان التي تستعمرها خاصة فى المنخفض الدراوويدي من الدوكان ونشرت فيه بالقوة اللغة السنسكريتية التقليدية والأخرى المعقدة التى سوف تصبح عبر كل انحاء الهند مركبة الحضارة الباذخة التى تعارضها الكتل البشرية السكانية . وقد فازت العقيدة البوذية مع بزوغ نجم إمبراطورية موريا .

وحكم أسوكا الرائع (٢٦٤ - ٢٣٢ ق.م) ولكن بدأت تتأكد بعد قرون أركان هند جديدة تقليدية وذلك بانتصار الهندوكية التى قبل عنها عودة الروح للهندوكية إذ صاحب هذا الزمان الازدهار الفنى وبذلك صارت الهند سيدة على ما تمكنت من افتراضه أو استيعابه عن الآخرين وبالأخص من الفن اليونانى الذى أتى إليها منذ غزا الإسكندر الأكبر أراضيها بلاد الهندوس وظل فيها من ٣٢٧ - ٣٢٥ ق.م حيث تمكنت الهند كذلك من تثبيت قوتها ونقائها بل ابتعدت المعبد الهندى السكارى .

فى الإتجاه الذى سيطر على مقدراتها وعلى مصائر القرون القادمة ويشبه كاندرانيات الغرب فهو مشيد على مسطح عريض واسع تحوطه سلالم الدخول وتحقق به أماكن للصلاة (محراب) وفى قمته يبدو جبل ميرو وهو بمنزلة الأوليمبد (محراب أسطورى استقر فى عقيدتهم أن الآلهة تسكنه .

وكذلك كانت هذه الحقبة مزدهرة بأدائها ففى بلاط الإمبراطور تشاندر جويتا ٣٨٦ - ٤١٤ يقال أن ما سمي بالأحجار التسعة الثمينة التى عاشت فى هذا البلاط وخلال هذه الحقبة تفاعل الشعراء وأروع المفكرون فألقت الكتب الشهيرة وهى (نشا كبتالا) وهى القصة المأساوية التى ترجمت إلى الإنجليزية عام ١٧٨٦ وإلى الألمانية عام ١٧٩١ ويقال إن تأثيرها كان واضحا على فكر هردر^(١) وجوته ومن حيث ورقت الهندوكية عن تقاليد قديمة موروثه فليس من السهل تحديد تاريخ بدايتها وهل كانت عند زوال سلالة كوتيا أو عند تفكك الامبراطورية ؟ وكلها كانت

(١) ١٧٤٤ - ١٨٠٣ كاتب ألماني باسم برحان جوتفريد هردر .

عرضة لزوال أو مع هارشا (٦٠٦ - ٦٤٧) ومع ذلك فمن المؤكد أن أركانها توطدت بشكل واضح خلال هذا العصر الوسيط الهندي ومذ موت هارشا إجمالاً إلى وقت سلطنة دلهي عام ١٢٠٦ والهندوكية أكبر من ديانة وأكبر من نظام اجتماعي إنها جوهر الحضارة الهندية قديمة الجذور جداً وظلت حية نشطة حتى أيام البانريت نهرو على أن تفسير هذا التطور بكل ما عندنا من مفرداتنا التي تشير إلى شبيه لها أو نموذج أوروبي من القرون الوسطى : من الإنقسامات الإقطاعية لن يلقى الأضواء متواضعا خطراً في آن واحد فقد يشن عن غير قصد بحقيقة هذه العقيدة وسوف تلجأ مع ذلك إلى استخدام هذه المفردات دون أن نأخذها حرفياً إذ أن للهندوكية في هذا العصر الوسيط أهميتها كما كانت المسيحية في أوروبا في عصورنا الغربية الوسطى وسوف نلاحظ أن الهند لم تكن تشبه أو تماثل سلالات أوروبا أيام الميروفنجيون^(١) أو الكارولنجيون^(٢) ولا عصور الإقطاع المضمون والسياق التاريخي لهما أهميتهما: لعل انحسار أصاب حجم المبادلات التجارية قبل اندثار عصر جوتيا.

وقد أضرت فترة الخمود الاقتصادي هذه بالتجار وكذا بأنصار البانية والبودية.

فقد عرفت هاتان الديانتان أو قاستهما العصبية حيث تعرض أتباعهما للنوبات التعذيب والاضطهاد والرفع على الخوازيق والتنكيل وتدمير معابدهما، ومن جهة أخرى فإن الإمبراطوريات الكبرى ذات الأغراض التوحيدية كانت سرعان ما تنهار دون أن تعير طبقات الشعوب أدنى اهتمام بها ولا بمصائرها.. كان ذلك يقع كل مرة تنحسر فيها تجارة أكثر المناطق شراءً ابتداءً من شواطئ نهر الجانج وجود جيرات إلى بحر عمان ولا تعود فيها هذه الحركة التجارية المزدهرة. وكانت تحكم هذه الإمبراطوريات الضخمة حقنة من الملوك تابعه لمذاهب اجتماعية مغايرة لمذاهب رعاياهم، وكان من الطبيعي أن تتجزأ الأراضي الهندية إلى ولايات مستقلة وتنقسم كل ولاية بدورها إلى سلسلة من الإمارات والإقطاعيات والسيادات المتطاحنة فيما بينها. ويزدهر العصر الهندي الوسيط بظهور المحاريين

(١) سلالة ملوك فرنسا الذين هزمهم الكارولنجيون.

(٢) السلالة التالية للأولى وإمبراطورهم المشهور حتر امان.

والقصص والحكايات الإقليمية المتعددة وتتقاسمها بدورها أناشيد وترتيلات محلية يتوه فيها بسهولة من كثرتها وتنوعاتها العلماء المتخصصون وليس مهما متابعة تاريخ هذه الولايات واحدة تلو الأخرى ولا التذكير بما كانت عليه من ازدهار وحيوية كما كان فى مناطق البنجال أو الجود جيرات أو الدوكان (بيزنطة الهندية) كما أسماها مؤرخون آثارهم خاصة مصيرها وقدراتها على الصمود وازدهارها البحرى ثم زمن إمبراطورية تشولا أخيرا (٨٨٨ - ١٢٦٧) ولكن الأهم هو نكر ذلك الازدهار الأدبى فى كل من البنغال ومناطق الجود جيرات ومناطق الخليج من كامبى وشبه جزيرة كانافيا باللغات الدراوودية وهى اللغات السائدة فى الديكان، وكان من أهم هذه اللغات لغة التامول وباختصار فإن العصر الوسيط رغم الانحسار الاقتصادى الذى صاحبه قد أعاد القوة والحيوية إلى كافة التقسيمات الجغرافية والإنسانية فى الهند وهذه التقسيمات تفيض وتنمو وتزدهر كنمو النباتات الاستوائية وذلك كله بمنزلة سمات عميقة للهندوكية التى سوف تستمر لتتوارثها الهند الحديثة العصرية... على أنها مع هذا التعدد فى اللغات وما يسبب لها من مضايقات كبيرة وبغض النظر عن هذا التنوع اللغوى قد تبلورت فى النهاية فى وحدة دينية وثقافية دقيقة وجلية.

وحدة نابذة من السنكريتية البرهمية

إن العقيدة الهندوسية فى المناطق الشمالية هى هذا التجمع العقائدى الذى حققه البراهمة اعتبارا من العناصر التى كانت تؤمن بالآلهة فيدا ومن تجمعت من بعدهم من عناصر غير آرية منذ قرون ثم من عديد من المذاهب المحلية الخاصة التى احتضنت عقيدة دينية أرادت الارتباط بكل ما هو قائم. فماذا كان دور مناطق الجنوب؟ استطاع الجنوب تدريجيا ربط الشمال بالتناوب فى السياسة وفى الفنون وكذا فى الانطلاق والفكر العقائدى وحققت مناطق الدوكان ذرا النجاح فيما بين القرن السابع والقرن الثانى عشر وكان من أكثر الفنون ازدهارا فن بالافا الخاص بالماما لابارام التقليدى البارع وفنون أيللورا العنيف السامى وفنون كوناراك الغنائى الشفاف ولنلاحظ كذلك أن الجنوب قبل تلك الفنون قد ذهب للهند أكبر وأقدم فلاسفتها مع سانكارا ورامانوجا وذلك أن الهندوسية كان مقدرها لها أن تشيع وتنتشر تحت آلاف الأشكال فهذا رب الرحمة سهلة المنال التى تعير وتغيث كل من

يناديهما والتي تستسلم للتغير. فالتصورات تتغير ولكن المضمون يظل كما هو ضد البوذية والبانية وقد انتقلت الديانة الكلاسيكية القديمة وأخذت بثأرها ولكن بالنسبة والتناقل بمبادئ الطهارة ونبذ العنف بل وبالزراعة النباتية الخاصة بالملتين أو الطائفتين إلا أنه أعماق شعبية قديمة سوف تعبر عنها اللغة الجديدة وهكذا انتهت الهندوسية إلى التعايش السلمى مع ثلاثة آلهة عظام فى القمة وهم:

براهما الذى يتلقى خاصة الفضائل الثقافية وهو خالق الدنيا والآلة فيشنو الحافظ والآله سيفا المدمر وكل واحد منهم متلازمين أو منفصلين هو التعبير عن الخالق أو الكائن الأسمى، ودوره تحريك العناية الإلهية بين البشر وذلك ما يفسر إلى حد ما ما قيل عن الهبوط عدة مرات إلى الأرض وإفاناراس الإله فيشنو وهو بمعنى آخر تجسيدات المتعددة فى خدمة السلام فى الدنيا فقد تجسد فى هيئة سمكة أو سلحفاة أو خنزير بربرى ضخمة أو هيئة رجل أسد بل وفى الهيئة التاسعة للآفاترا فى شكل بودا أما الإله سيفا المدمر فقد تجسد فى هيئة الموت فهو تارة هارا الآخذ أو الخاطف وتارة مثل فيشنو يفوض سلطانه أحيانا كثيرة إلى ربات رائعات الجمال وكانت له فى جنوب الهند وجه ميناشكى ابنة ملك (تلك التى وصفت بذات عيون السمكة) وليس من اليسير التجول فى خضم هذه الخرافات الحافلة الثرية كما أن من المستحيل التوقف عند عديد الطقوس الدقيقة فى الصلوات والقرايين وطقوس الأموات وإعادة التجسيد وقد ظلت طويلا من مميزات أغلب أتباع المذهب الهندوسى والأطفال والنساء المتقشفون هم الذين ينفذون فى مراسم وطقوس مطولة معقدة وكذا حفلات الزواج، إذ كانت الهند وستظل محافظة بشكل مخيف فى مجال الطقوس والشعائر فإن مشكلة المؤمن الأساسية تخليصه وإنقاذه فإذا ما حوكم بشكل محترم فاز بالجنة بفضل أشعة الشمس أما إذا أدين وحكم عليه فمصيره إلى الجحيم فلن يتمسك المستقبل بهذه النتيجة براءة كانت أو إدانة فسوف تتجسد الروح حسب مصيرها التغش ويمكن للإنسان أحيانا بفضل الصلوات والطقوس والحج بفضل طلاس لغوية وكذلك فال سعيه بأن يهرب من الخارقان^(١). أو الكهرمان أى القدر الجبرى وهو العمل الذى يؤدى إلى مضاعفات

(١) عقيدة أساسية فى الديانات الهندية تقول بأن كل عمل وتصرف يصدر من الإنسان هو مقدر له.

دائماً وخاصة فيما يتعلق بالتناسخ والمقصود نوع من الخلاص السلبي مختلف تماماً عما تقول به البوذية من تحرر روحاني يستدعى التمتع بالطهارة والتقشف والزهّد الفردي والعدول عن القدسية ومن تحت المياه الكثيفة للهندوسية، مياه حضارة الهند ذاتها فإن الديانة الهندوسية مثلها مثل العقيدة اليابانية اندمجتا في أشكال معينة تاركة روحها حتى في أقاليم البنغال حيث تأصلت جذورها العميقة ولكنهما خلفتا فراغاً لم يملأ وفي الهند ودائماً يحوز الناسك الزاهد المتخلى عن المقدس الدجاج وتحت ثقل مجتمع متماسك متصلب لا يسمح بالحرية الفردية في المجتمع الهندي إلا في التجرد والحرمان والسلبية لذلك تكتظ الطوائف والنحل ذاتياً وتتكاثر فهي إيماءات وتحركات تأخذ شكل التحرر الثقافي والمعنوي وقد تفسر هذا الفراغ الذي خلفته البوذية وراءها هو هذه التحولات الهائلة إلى الإسلام في مناطق البنغال نفسها بعد هذه الموجات من التعذيب والاضطهاد من البوذية في القرن الثاني عشر وقد عايشنا مثيلاً لها في البلقان فالمسيحيون أسلاف البلغار في البوسنة وكثيراً ما تعرضوا للتعذيب يتحولون إلى الإسلام عند وصول الأتراك في القرن الخامس عشر والهند الإسلامية (١٢٠٦ - ١٢٥٧) التي بدأت منذ القرن السابع بتأسيس المستعمرات التجارية على سواحل الملبار وتجسدت عام ٧١١ - ٧١٢ بغزوة قادمة من بلاد السند ثم ارتكاز بعض المستعمرات القارية ٠ قارة من سنة) فقد اتسعت الهند الإسلامية اتساعاً بطيئاً جداً عبر تلك الأراضي المؤدية إلى الأندوس والجانب ثم حاولت فيما بعد الامتداد دون جدوى بسبب غزوة القارة... وكانت غزوة كبرى شاملة بامتلاك الأراضي شبه الصحراوية في الشمال حيث نشب النزاع بشأنها مع المسلمين. وفي مستهل القرن الحادي عشر عام ١٠٣٠ بالتحديد وقعت أراضي البنجاب في أيديهم واحتاج الأمر إلى قرنين من الزمان لتأسيس سلطنة دلهي (١٢٠٦) حيث امتدت حتى أراضي الهند الشمالية التي هي بمنزلة مفتاح يفتح سائر الأراضي أو كلها وقد أدت هذه الغزوة التي وقعت للمرة الثانية إلى احتلال عسكري واسع النطاق فالمسلمون وعددهم قليل نسبياً قد استقر مقامهم في المدن الهامة ولم يتمكنوا من الإمساك بمقاليدهم إلا بسياسة بث الرعب والخوف فكانت الوحشية يومية ومن ذلك إشعال الحرائق والقتل الجماعي

والحكم بالصلب أو التعذيب بالخازوق والتقلبات الدامية، ودمرت المعابد الهندوسية لتفسح المجال لإقامة المساجد والتحول إلى الدين الإسلامى بالقوة فإذا ما هبت انتفاضة فالردع والعقاب جاهزان فوراً بصورة وحشية فتحرق البيوت وتجتاح البلاد ويصرع الرجال وتسبى النساء عبيداً، وكانت مناطق السهول الوسطى تترك عادة لإدارة الأمراء المحليين أو المجتمعات قروية حيث يفرض على هذه الإمارات الأهلية دفع الضرائب والجزية فى مقابل نوع من الحكم الذاتى كما حدث لأراضى رجوات سلالة راجى بوتانا.

ولكن الهند بفضل ما تتمتع به من كثرة العدد وفخامته وتحليها بالصبر والاتساع الشاسع لأراضيها تمكنت من الصمود والنجاة من الاندثار وكما كانت الجزية والغرامات ثقيلة لا تحتمل فقد كان المحصول القليل يؤدي إلى المشاكل وإشاعة المجاعة والأوبئة التى تطيح بملايين البشر وكانت مظاهر هذا الفقر المدقع المخيف تمثل ما يواجهها من بذخ السلطات المنتصرة الحاكمة وروعة قصورهم وفخامتها والاحتفال بالأعياد فى دلهى حيث استقر مقام السلاطين وفيها شيدوا عاصمتهم لبث الإعجاب فى نفوس القادمين من الرحالة من أمثال ابن بطوطة وكان من حسن حظ سلاطين دلهى أن أقلتوا تقريباً من غزوات المغول الأولى التى قادها جنكيز خان وورثته المباشرون فى القرن الثالث عشر بل لقد انتهزوا الإكتساح المغولى وما نتج عنه من فواجع وهم شديد فى توسيع دائرة غزواتهم نحو الجنوب وهو الذى استطاع الوقوف فى وجه أطماع السلاطين المسلمين، وفى المقابل كان زحف تيمورلنك واكتساح أراضيهم، وقاد غارة ناجحة عام ١٣٩٨ حتى مدينة دلهى التى سلبت منازلها فى غير شفقة ونهب ثرواتها دون رحمة وسرعان ما انسحب الغازى بالثروات الطائلة التى سلبها من غنائم وأسلاب حتى تمكنت السيطرة الإسلامية القديمة من الاستقرار فى ربوع الهند، ومهما حدث وبأى ثمن ولكن بدون أن تستعيد عظمتها السابقة ثم كان بعد ذلك الزمان بمائة وثلاثين عاماً أن بدت الهند إمبراطورية مريضة بل مجزأة فى الواقع بين عدة أيدى حاكمة سيادية متنازعة يمكن باير من غزوها عام ١٥٢٦ فى ساحة القتال فى بانيبات بجيش مؤلف من مغامرين أشداء وقال عن نفسه أنه خليفة جنكيز خان (أو

هكذا ادعى) وكان جيشه على صفه مزودا بالبنادق والمدافع على عجلات من حوامل المدافع مرتبطة بعضها ببعض بسلاسل غليظة فى ساحات القتال تتحمل ثقل الخيالة المحتمل، واتسعت دائرة هذا الجيش بفضل جنود مرتزقة أقبلوا من إيران وكشمير ومن بلاد الإسلام ثم من الغرب (أوروبا) وكان باير^(١) مسلماً على مذهب السنة وكان انتصار هؤلاء القادمين الجدد انتصاراً للإسلام الحنيف أى إسلام هؤلاء الرجال ذوى البشرة البيضاء الذين يحوزون نخيرة المدافع (يقصد بارود) كانت سبباً فى نشأة إمبراطورية المغول الكبرى ودامت أكثر من ثلاثة قرون حتى عام ١٨٥٧ وهو تاريخ قمعها بيد الإنجليز عند وقوع تمرد السبايز فكان أن انطفأ بريقها بعد وفاة أكبر قادتها أورينج ذيب ١٦٥٨ - ١٧٠٧ قبل احتلال الإنجليز للبنغال عام ١٧٥٧، وقد عاصرت الهند منذ عام ١٥٢٦ حتى وفاة أورينج ذيب عظمة اسلامية جديدة تذكر بالسنوات السعيدة من عهود سلاطين دلهى وصراعاتها بل وتعايشاتها بالقوة ونالت وحقت النجاح نفسه فى صراعاتها لأن الإسلام بحكم بإثارة الخوف ويقيم بذخه وترفه على أنقاض إفقار شامل للهند والسؤال هو: هل كان يستطيع أن يفعل غير ما فعل؟ هناك هذا الثراء الأسطورى الذى يسلب لب المسافرين والرحالة القادمين من الغرب ثم هناك كذلك سلسلة المجاعات وكثرة الوفيات الأسطورية وهذا الكم الغفير من الأولاد الذين تركتهم أسرهم المشردة أو تبيعهم أسرهم وكذلك هناك هذا التعايش السلمى بالقوة المفروضة عن الروابط المتكاثرة كلما مرت الأزمنة والعصور ١٥٥٥ - ١٦٠٦ بأكبر سلاطين المغول طوال تأسيس منظمة إدارية أقل نزعة إلى التحكم وتأسيس ديانة جديدة تحاول فى نظام عقائدى واحد ربط الدين الإلهى الإسلامى والهندوسى معاً فلم تجد هذه الديانة لها أتباعاً خارج نطاق الدوائر الضيقة التى تحوط الإمبراطور ولم يقدر لها البقاء بعد موته وتبقى للمحاولة مع ذلك دلالتها.

وفى واقع الحال لم يكن الغازى يستطيع إهمال رعاياه من الهندوس حيث ظلت مناطق شاسعة من الهند شبه مستقلة تسدد أولاً الجزية والضرائب. كتب فرانسو

(١) ١٤٨٣ - ١٥٣٠ أخضع التركستان وجزء كبير من الأراضى الهندية وأسس إمبراطورية المغول الكبرى بعد مزيعة لسلطان دلهى عام ١٥٢٦.

بترتيبه الطبيب الفرنسى فى خدمة المغول العظيم عام ١٦٧٠ يقول: «فى هذه الأراضى الشاسعة ذاتها عدة أمم وعدة بلاد لم يتعرض ولم يستطع المغول فرض سيادته عليها فلكل منها سيدها أو رئيسها الخاص لا يؤدون الضرائب أو الجزية إلا خوفا من بطشهم وكثيرون لا يدفعون شيئا على الإطلاق». وكانت الضرورات الناشئة عن الحروب والصراعات المستمرة قد ساهمت فى الحد من السيادة المطلقة فى المبدأ فبلاط المغول الكبير إنما كان جيشا كبيرا من ٥٠ ألف إلى ٢٠٠ ألف من المقاتلين الأشداء المرابطين فى مدينة دلهى منهم الفرسان وحاملوا البنادق ورجال المدفعية الخفيفة وفرسان الخيول الذين يقال لهم مقاتلوا الركاب.

وكذلك عدد وفير من احتياطى الخيول والبقيلة وإجمالا مجموعة ضخمة من المحاربين ومن سواس الدواب والخدم. وينعم الرؤساء والقادة بالحصول على النفقات والمعاشات ومن بينها أراضى توهب لهم مدى الحياة، وهم غالبا من المغامرين من جذور وأصول متواضعة ولم يمنعهم ذلك من السير فى استعراض فى الشوارع بأزياء رائعة وأحيانا فوق الأفيال أو ممتطين الجياد وفى أحيان أخرى فوق مركبة البالينكى، وهى كرسى محمول، يجرى دائما وراء عدد لا بأس من فرسان الحراس مع عدد وفير على أقدامهم من الخدم إلى جوارهم وأمامهم لإفساح الطريق ومطاردة الذباب والترباب بريس من ذيل الطاووس وربما يحملون السواك لتنظيف الأسنان أو المباحصن وأوانى المياه للشرب أى أن هناك لأى حاكم مسلم مئات من الوثنيين كما ذكر برننيه.

ولم تستطع الجيوش أن تضم إليها المغول ذوى البشرة الفاتحة وكانوا خوفا من ضياع هذا الامتياز على ذريتهم يتزوجون أو يفضلون الزواج من نساء ذوات بشرة بيضاء من كمشير وكان فى دلهى دائما جنود راد جيپوت من سلالة رادجيپوتانا^(١) يقودهم عادة راجاتهم وكان الصراع محتوما ضد المرتزقة من المسلمين أنفسهم أو ضد الفرس الشيعة وهم الجيران الخطرين أو ضد الباتان مسلمو البنغال، أو كذلك ضد أمراء الهندوس أو الأمراء المسلمين من الديكان وهم

(١) إقليم شمال شرق الهند حيث كانت امبراطورية راغلستان .

بطباعهم عدائيون. وكل ذلك يقوم بسداد ثمنه ثراء المغول العظيم لما يقوم به من تحويل تجارة بلاده الشاسعة التي تحقق له أرباحا وفوائد طائلة وهذا الثراء فى حقيقة الواقع مركز بحركة تلاقى هذه الأموال وتبديدها كذلك فكل قطعة نقود تدخل الخزانة العامة تثقب بخرم واسع وربما تثقب قطعة النقود ثقوبا عدة وهكذا ساهم جزء كبير من الهند غير الإسلامية فى هذه التوزيعات وعلى مر السنين فإن التعايش السلمى فرض نفسه على هذه التجمعات الممتزجة بفضل نويات التسامح المتبادل النسبى وقد سبق أن نوهنا بالفنون المهجنة من خليط من الفن الإسلامى والفن الهندى الذى ازدهر فى كل من دلهى وعواصم المغول الأخرى وهناك حقيقة وواقع أكيد وهو أن هذا الفن خليط هندى إسلامى ومع ذلك فقد ظلت الهند على المستوى الثقافى وكذا المستوى الدينى العقائدى كما هى لم يدمغها الإسلام على الرغم من كل شيء بطابعه إلا قليلا هكذا قال تولسيداس أكبر شعراء الهند من أصل برهمى عاش من عام ١٥٣٢ حتى ١٦٢٣ .

وهكذا كانت سيطرة الإسلام رغم مآثره وما تركه من بصمات على الأراضى الهندية استبدادية إلى حد ما ولكنه لم يتمكن من التأثير فى كيانات المجتمع الهندى ولا فى الاقتصاديات الهندوكية كما أثر ما كان مع بلاد الغرب من اتصالات وروابط بدأت منذ نهاية القرن الخامس عشر وتضاعفت فى القرن السادس عشر فلما تمكن الغرب فى القرن السابع عشر أطاح بتفوق بارود المدافع جانباً تفوقت بلاد المغرب هذه فور انطلاقة القرن الثامن عشر، وقد ذكرنا أن تدفق الغرب أراح تفوق بارود المدافع من موقعه وكان سببا فى انتصار الإسلام عام ١٥٢٦ ومع ذلك تدفقت على الأراضى الهندية بلاد الغرب ودولة الأوروبى مع السقوط المدوى لسلالة فيدشنيساجار عام ١٥٦٥ .

وعندئذ لم يعد الإسلام يمتلك تفوقاً على الهند الخاضعة المشهوره، وكان عام ١٧٠٧ أن ترنحت الامبراطورية عند وفاة أورانج ذيب وفى مواجهة الأخطار المحدقة بها من الغرب ومن الجنوب وفى عام ١٧٣٨ استولى الأفغان على مدينة دلهى وبدأت منذ عام ١٦٥٩ الغزوة الكبرى من جانب المهرات وأمكن وقت تقدم هذه الغزوة فترة قصيرة فى أورنج ذيب .

وسوف تزدهر أيام تلك الغزوة فى القرن الثامن عشر وعلينا عند وصولنا إلى هذا القول أن نحذر المتعجل فى الحكم على الأسلمة الهندية فليس عدلا أن نحدد مكانتها من حيث هى تجربة استعمارية عفيفة ممتدة بين عديد من التجارب الأخرى من النوعية نفسها وسادت عالم ذلك الزمان وعلى أى حال فقد تركت هذه الموجة الاستعمارية التى تحدث كل قرن كتلا من المؤمنين المسلمين فى أراضى الهند المكتظة بالسكان حيث قدر المسلمون طبقا لإحصاء عام ١٩٣١ (٢٤%) من جملة السكان مقابل ٢٣٩ مليون من الهندوكيين أى ما يقارب مسلما واحدا لكل ثلاثة من الهندوسيين واليوم فى ظل التقسيم السياسى عام ١٩٤٧ للهند ولم يكن تقسيما دقيقا، قدر عدد المسلمين فى الهند به ٤٤ مليون نسمة مقابل ٤٣٨ مليون من الهندوكيين وإلى جانب ٨٥ مليوناً هم عد سكان باكستان بعد التقسيم ويعيش فيها كذلك من غير المسلمين ما قد تتردد اليوم نسبته بين ٢٠ و ٢٥% وقد تطرح من ثم بكل وضوح ماهو من الحقائق أن الهند الإسلامية قد دامت بأعجوبة مثيرة وهامى بصعوبة تنفصل عن الحضارة المشتركة... الحضارة الإسلامية الهندوكية.

الهند تحت الاستعمار الإنجليزي اقتصاد قديم يصارع الغرب الحديث

احتل البرتغاليون في القرن الخامس عشر من الشرق الأدنى طائفة من المواقع التجارية فقد تمكنوا من احتلال جوا ٢٥٨ عام ١٥١٠ كان الرحالة فاسكو داجاما في السابع عشر من مايو ١٤٩٨ قد وصل كاليكوت التي عرفت يومئذ نوعاً من العظمة والازدهار طوال قرن من الزمان وسرعان ما عمدت المصانع الإنجليزية والهولندية والفرنسية إلى إنشاء فروع لها في الأراضي الهندية، وفي عام ١٧٦٣ تمكن الإنجليز من إزاحة الفرنسيين بانتصار روبرت كلايف في موقعة بالاسي القريبة من كلكتا وأسس منذ ذلك الاستعمار الإنجليزي للأراضي الهندية الذي دام ما يقرب من قرنين حتى إعلان استقلال الهند عام ١٩٤٧ وكان احتلالاً على مراحل يتسع حثيثاً رويداً رويداً ولم يكتمل في صورته النهائية التامة إلا في القرن التاسع عشر بعد غزو البنجاب عام ١٨٤٩ وقد أسفر هذا الاحتلال عن نشأة طائفة من الولايات الوطنية تحت إمرة السلطة الإنجليزية في استقلال شكلي بأكثر منه حقيقى وواقع الأمر أن صدمة كبيرة وقعت في ربوع القارة (آسيا) كلها بسبب هذا الاحتلال الذي قامت دعائمه على تفوق اقتصادى هائل حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى وأصبحت إنجلترا البعيدة أكبر قوة اقتصادية وتجارية ومصرفية في العالم وشملت سيطرتها كل كيانات البلاد الهندية وصارت الهند سوقاً منتجة للمواد

الأولية حيث يتسع الاستغلال المتنمى بشركة الهند التى لم تخل إلا عام ١٨٥٨ بسبب فساد اللورد كلايف الذى هوجم فى مجلس العموم ثم انتحر على إثر ذلك عام ١٧٧٤ وكان هذا الاستغلال ذا ثلاثة أفرع هى النقوذ المحلى والتجار والفلاحين . عمليات الإستغلال فى أكبر المقاطعات ثراءً كالبنجال التى احتلت مؤخرًا ومقاطعة بيهار ومقاطعة أوريسا لم تقم نظم معتدلة على شىء من الإنصاف إلا منذ ١٧٨٤ وفى هذه السنة أقيم نظام أكثر أمانة واعتدالا وكانت عمليات الذهب والاختلاس خلال تلك السنوات الأولى على أشدها مما الحق بالمقاطعات كوارث مروعة ولقد كتب اللورد كورتوا اليس حاكم الهند يقول فى تقريره المؤرخ ١٨ سبتمبر ١٧٨٩: أستطيع دون أى تردد أن أؤكد أن على الأقل ثلث الأراضى المملوكة للشركة فى الهندوستان غابة لا يسكنها إلا الحيرانات المفترسة نراه مبالغ فيما كتب ؟ لقد كان المسئولون السادة الجدد يقينا ألعبوة وضحايا لأحداث لم يكونوا مستعدين لمواجهة أو السيطرة عليها فمهمتهم الأولى إنما كانت السلب والذهب والهند التى تتحكم فى كافة أسواق المنطقة وما يجاورها من أقاليم وتسيطر على حركة التجارة فى شبه القارة الهندية وبلاد أخرى عرفت هذه الهند وبهذا التاريخ المعروف بسبب استغلال المؤسسات الإنجليزية فعرفت المصائب والكوارث التى لا مثيل لها إذ جلب القانون الإنجليزى والمفاهيم الغربية لملكية الأراضى كوارث فظيعة لا إرادة أحيانا .

وعموما فقد أصبح التوازن القديم التابع من جذور وماضى الهند فى خطر وانقلب وضعه إذ صارت الهند فى القرن الثامن عشر حتى نهايته بلداً ريفياً تنتشر فيه قرى عديدة .. بأسة .. يقطنون أكواخا كتلك التى نراها اليوم عام ١٩٦٢ قرب مدراس أو غيرها ، جدرانها من الطين الجاف وأسقفها من سعف النخيل المجدول وأبوابها واطئة صغيرة وينبعث منها دخان نار موقدة بروث البقر المجفف ومع ذلك فقد كانت ترى ريفيه فيها مجتمعات متماسكة فيما بينها متوازية بذاتها يحكمها رئيس أو جماعة من الشيوخ وأحيانا كان للرئيس أو مجلس إدارته فى بعض المناطق الحق فى إعادة توزيع الأرض بصورة دورية منتظمة . وكان يلتحق بالقرى جماعة من أهل الحرف من حدادين ونجارين وفحامين وصباغة

يتوارثون هذه الحرف عن آبائهم منذ قرون ويحصلون مقابل أعمالهم على نصيب من محصول الفلاحين بل ضمت هذه القرى كذلك عدداً من العبيد يمتلكهم بعض الفلاحين الأثرياء أو ميسورى الحال، وكان سيد هؤلاء العبيد يمتلكهم بعض الفلاحين الأثرياء أو ميسورى الحال، وكان سيد هؤلاء العبيد مكلفا بتوفير مأكلاتهم وملبسهم ومأواهم والقرى مسئولة مسئولية جماعية عن الضرائب وعن أعمال السخرة التى تفرضها الدولة أو أقرب السادة فى الحى ويسلم جزء ما يحصل عليه هؤلاء السادة من الفلاحين إلى سكان المناطق النائية من الهند ممن يعيشون فى مدن حكومية أما الضريبة فكانت الرابطة الوحيد بين المدينة والقرى الريفية التى لم تكن تستطيع شراء شىء مما كانت هذه المدن تشتريه من بضائع تستوردها أو تنتجها أو تصنعها إذ كانت هذه المصنوعات ترفاً يقتصر على فئات محددة من أهل المدن أوللتصدير ولكن امتيازات هؤلاء المحظوظين إذا اشتدت وطأتها وأصبحت فوق احتمال سكان القرية لم يستطع تغيير موقعها بحثاً عن أرض أخرى جديدة فى سبيل مصير أفضل وبدأت هذه الأنظمة الظالمة المستبدة تتآكل باقتراب سنى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر إذ بدأ الإنجليز فى جباية الضرائب إلى قدماء محصلى الضرائب بعد أن اعترفوا لهم بنوع معين من حق الملكية على هذه القرى وهو حق لم يتمتعوا به من قبل وهكذا أنشأ فى البنغال أولاً هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم الزامنداريين وهم ملاك الأراضى مدعون مكلفون بتسليم السلطة الإنجليزية حصيلة الضرائب المحددة مع منحهم حق جباية المزيد لصالحهم وسرعان ما وضح أن هؤلاء الملاك الأدعياء لم يعودوا يقيمون فى الأراضى المكلفين إذ لجأوا إلى وكلاء لهم وعلى أراضى مقاطعة البنغال الشاسعة نشأ أعجب وأغرب احتكار مرخص به يضم آلاف من الوسطاء والطفيлийين أما الإنجليزى الذى لم يلجأ إلى زامندار فكان يتولى تحصيل ضريبته مباشرة ونقداً وكان الفلاح إذا أعوزه المال السائل لجأ إلى المقرضين الذين حققوا ثروات طائلة ثروات فريدة . وكانوا من قبل يحسبون ألف حساب لغضب القرى وثورة الفلاحين ومقاومتهم أما وقد أصبح من حقهم القانونى محاكمة المدينين إذا عجزوا عن السداد فقد كان من سلطتهم ومن حقهم أن يستولوا على ما فى المزرعة من دواب وأنعام أى على

رأس المال الحى ثم الاستيلاء بعد ذلك على الأرض نفسها وما أتعس الفلاح الفقير الريبوت (أى الفلاح الفقير المعدم) وهو يرى أسعار الأراضي ترتفع بصورة دائمة وأمام المرابى فرص كثيرة يصبح فيها مالكا للأرض ومهما يكن من شىء فإن هذا النوع من المضاريات فى الأراضي وخصوصا بعد تصاعدها قد جذبت انتباه نظام توظيف رؤوس الأموال التى يضمنها ريع الأرض وبذلك نشأت طبقة من كبار الملاك لم يكن يعينهم كثيرا استصلاحها اكتفاء بريعتها. وفى نهاية القرن التاسع عشر كان من بين ١٠٠ مليون فلاح ثلثهم من صغار الملاك ومتوسط ما يمتلكه الفلاح أقل من عشرة أفدنه^(١) وهى أدنى مساحة تسمح للبقاء والمعيشة وكانت قد تلاشت واختفت عند تطور الأمور إلى هنا الحد... تلاشت واختفى ما للأسلاف القدماء من نصائح حاولوا استعادتها...؟ وتدهورت الأمور أيضا بسبب:

(١) الخراب الذى لحق بالصناع المهرة الحرفيين فى القرى حين نافستهم الصناعات الإنجليزية بل والصناعات الهندية الوليدة فكان أن انضموا منذ ذاك إلى الزراعة حيث كان الضغط عليها مرتفعا، ازدواجية النظم الرأسمالية الإنجليزية التى اعتبرت الهند:

(أ) سوقا لتصريف منتجاتهم الصناعية تمكنوا من وأد الصناعات القطنية الهندية القديمة وكانت قد حققت شهرة مدوية فى القرن الثامن عشر فى الوقت الذى اتسعت فيه آفاق الأقمشة الهندية سواء المطبوعة والمصنوعة.

(ب) وسوقا تشتري فيها المواد الخام كالجوت من البنغال والقطن من أراضى الريحور المقابلة لمدينة بومباى لتغذية المصانع الإنجليزية فى لانكشاير حيث تنقل هذه المواد الأولية الخام المخصصة للتصدير إلى الموانى بالسكك الحديدية التى أنشئت وكانت قدرة حقيقية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنسبة للأراضى الداخلية منذ نشأت المدن العديدة وكل عملها تجميع البضائع وشحنها وصار الفلاح الهندى يزرع منتجات ومحاصيل لغير إطعام أسرته أو قريته بل للتصدير مما أشاع المجاعة والكوارث بين السكان خلال الثلاثين عاما الأخيرة من

(١) يساوى حوالى أربعة آلاف متر مربع.

القرن التاسع عشر (ماعد البنباب التى تنتج الحبوب ولكنها تصدر قمحها على حساب قوتها المعيشى) ثم جاءت الأزمة العالمية عام ١٩٢٩ وانهار أسواق المواد الأولية مما أدى إلى تمركز الملكيات بين أيدي ملاك الأراضى والمرايين وأدى بدوره إلى هبوط حجم الزراعات الحرة ومستواها وتراكم ديون القروض التى تجاوزت حد المعقول والاحتمال وصار الفلاحون فى موقف أصعب من موقف العبيد الأرقاء حيال سادتهم وهم يواجهون دائنيهم الذى يستأسرونهم بديون باهظة متراكمة وأصحاب الريوت (أى الفلاح المعدم) الذى صار أكثر فأكثر حرأ من الناحية الاقتصادية وله أيضا حريته فى مواجهة القانون. ولقد بدأت تباشير صناعات حديثة فى زمن متأخر مع بداية التعريفات (السعر الحماية) عن أعوام سنة ١٩٢٠ فقد انتعشت موجة الصناعات الأهلية المحلية وتشجعت بفضل وفرة الأيدى العاملة الرخيصة وكثرت الطبقات البروليتارية نتيجة لغزارة المواد الأولية ثم بفضل تدخلات الرأسمالية الهندية ودخول هؤلاء البارسس من سلالة الزادتشية وأتباعها (ديانة فارسية قديمة منسوبة إلى الحكيم زرادشت الذى هرب من فارس منذ أكثر من ألف عام) حيث تجمعت صفوفهم فى منطقة بومباى أو الماروايس من سلالة إحدى الطبقات الاجتماعية من مقاطعة راد جيبوتانا وكانوا دائما آمليين بعيدين عن المنافسة الإنجليزية بسبب تخلف منطقتهم أو من اليابانيون من سلالة جودجارات.

وكانت تتحكم فى حركة التصنيع هذه ثلاث مدن منها كلكتا التى اختصت بالصناعات المعدنية وتصنيع الأقمشة من خامات الجوت وأشهرها عائلة بارسيس، وبومباى ركزت على صناعة القطنيات وتركيب أجزاء السيارات، وأحمد أباد على بعد ٥٠٠ كيلو متر شمالا وكانت مركزا قاصرا على القطن والأقمشة القطنية. وقد شملت هذه المصانع وغيرها وخصوصا الغذائية منها موجة تنمية صاخبة غير منتظمة خصوصا فيما بعد عام ١٩٤٢ مع نقص المواد الغذائية وأزمته والأقمشة التى ارتفعت بسببهما الأسعار ارتفاعا خياليا فى السوق السوداء ما أثار المخاوف على الهند خصوصا مع بداية التهديد اليابانى الذى يمثل إن حدث تدميرا شاملا وتخريبا لكل الأراضى الهندية.

وفى عام ١٩٤٤ قرر أرباب الصناعات الاتفاق لصالح خطة بومباى (وهو

مخطط شبه رسمى متفائل أكثر مما ينبغى) وكان يتكهن باستثمار ضخمة مع سداد الديون الخاصة بالتعاقدات المبرمة تجاه الهند عن طريق بريطانيا العظمى، خلال الحرب العالمية الثانية وكان المشروع يشجع التفاهم مع الرأسماليين والشركات الإنجليزية، ومن المشروعات التى أبرمت اتفاقية بيرلا - نايلد بشأن صناعة السيارات وذلك فضلا عن أنه ورغم رؤوس أموال انجليزية مازالت ورغم الاستقلال حتى اليوم مستثمرة فى عديد من المشروعات التى تشرف عليها مصارف شارع كليفر فى كلكتا وقد أدت هذه الإنطلاقة الصناعية إلى التعجيل بموجات الهجرة والنزوح من القرى نحو المدن. ويقول مثل من التامول^(١) بعد أن سارع الخراب إلى المدينة وتسببت فى هذه الموجات من هجرة الريف والمصانع وخدم المنازل حيث الأجور النقدية زهيدة تكاد تهوى إلى حفيظ العدم. وتنشأ علائق غير متوقعة بين بعض الطبقات الاجتماعية من سكان شبه جزيرة كانافيار، وموجة تجنيد الطباخين العاملين فى منازل أثرياء بومباى أو بين أدنى طبقات المجتمع السكاني جنوب شرق الدوكان وهؤلاء الصناع المهرة وحرفتهم لف السجائر يدويا فى مصانع بومباى.. كل هذا النقل الناتج عن التنقل من موقع إلى آخر وما كان يثيره من بلبلة بين الأهالى أضاف كثيرا إلى معاناة الإنسانية الهندية مما ضاعف من تحركها الاجتماعى.

وهكذا عرفت الهند حتى قبل الاستقلال بوقت طويل المدن العصرية الحديثة التى تكنظ بحشود سكانها فى نطاق حاراتهم القذرة القاصرة على طوائفهم وخاصة فقراء بوسنيز كلكتا وشد الزبومباى الأشهر. أو هؤلاء الشيريز من مدارس من قاطنى المآوى الطينية الشبيهة بمساكنهم فى الأرياف.

وقد أعادت إنجلترا النظر فى سياستها فى الهند وفكرت مليا فى تعديلها غداة ما وقع فى سيبايس عام ١٨٥٧ - ١٨٥٨ من تمرد جنودها من السكان المحليين كانت هى المناسبة التى فيها راجعت إنجلترا سلوكياتها تجاه الهند ووضعت نهاية وحد التحكم شركة إريست إنديا (أول سبتمبر ١٨٥٨) واستبدلت بها مكتب الهند فى لندن فى شكل وزارة ذات نفوذ وفى كلكتا كان مقر النائب للملك حل محل حاكم

(١) منطقة وسط الهند وسيلان

عام الشركة السابق . ومما هو جدير بالذكر أن انجلترا فكرت فى فك ذلك الارتباط الذى كان قد فرض فرضاً على أراضى الدولة (الأراضى الأميرية) فاعترفت منذ ذلك التاريخ باستقلال سلطة مايسود فيرو^(١) وكان قد سبق ضمها كعنوان على الاتجاه الجديد... هذا الاتجاه الماكر الذى كان يلجأ عند استحالة الحكم المباشر إلى الإصرار الشديد على استبقاء الخلافات المحلية السائدة وإذكائها وسيلة إلى ضم كتف الكتلتين العظيمين من السكانية الهنود والمسلمين وبداية الإبقاء على التقسيم فى نطاق الجيش . وفى هذا المجال نورد مثالا على ما عمد إليه اللورد ابلفينتون عام ١٨٥٨ مما له مدلوله من سوء استخدام السلطة فى سبيل الحفاظ على السلطة الانجليزية وقوتها حيث أحاطت لذلك بتأمين سلامة السفن التجارية بتجزئة هيكل السفينة أجزاء بالفواصل والقواطع والحواجز ، ويقول: أرى تأمين إمبراطوريتنا فى الهند بتعبئة جيشنا فيها على ذات النهج... أى التجزئة بالفواصل المحددة من هندية وإسلامية ومسيحية من الهيمالايا ولم تكن دخلت الخدمة فى نفس الوحدات . ولكن تلك التفرقة سرعان ما تجاوزتها الأحداث إذ كان منذ عام ١٨٧٠ أن وقعت الأزمة الإقتصادية العالمية الطويلة ووصلت آثارها إلى الهند محدثة المجاعات والأوبئة والانتفاضات الشعبية وخاصة من فلاحى القرى . ومالت أفكار بعض ذوى العقول المستنيرة إلى أن الأمر يقتضى إطلاق حرية النظام الحاكم (أى تحريره) وإشراك بعض الهنود فى الإدارة بل فى الحكومة وعلى أى حال فقد تشكل عام ١٨٨٥ ببركة من نائب الملك حزب المؤتمر الوطنى الذى سوف يكون الصارخ المعبر عن النزعة القومية مع أقلية ضئيلة جدا ظلت وإن كانت مؤثرة من السكان بدأ عددها ينمو فيما بين الطبقات المتوسطة النشطة التى غزت المدن ودخلت الجامعات وذلك بعيدا عن الطبقات الأرستقراطية أو الثرية المترفة أو طبقة ملاك الأراضى المرتبطة ارتباطا عميقا بالماضى التقليدى وسيطر عليها ذلك التحفظ الاجتماعى والنزوع إلى الإبقاء على ما هو قائم ومقاومة التجديد وحصرتها همها فى إرضاء سادة الهند وإثارة إعجابهم ، أما الطبقات الوسطى بجذورها المتنوعة المدفوعة بظروف الحياة الجديدة من الرأسماليين قبل البارسيين

(١) إحدى مقاطعات جنوب الهند وعاصمتها بانجالور

والماراريسيين واليانيين بل فضلا عن الإسماعيلية من المسلمين وأصحاب النزعات السياسية كالباندريت من أهل كشمير الملقبين بالبرهمية فكان منهم عدد من رجال السياسة أيام المغول ينحدر منهم جواهر لال نهرو والذي يتولى حكم الهند اليوم وغاندى سليل أسرة كان منها خلال عصور وأجيال وزراء للإمارات الصغيرة فى شبه جزيرة كاتافيار وجوجيرات .

وهؤلاء الرجال ممن اجتذبتهم الحضارة الغربية وشعروا بفضائلها وخيراتها ورأوا مميزات أفكار غاندى وخواطره ومنها على سبيل المثال مبادئ اللاعنف والمسالمة والنزعات الحادة المعروفة عن تولستوى ومواعظ المسيح التى القاها على الجبل ... هم طبقه الانتيجانسيا المثقفة فى الهند والتى تسبح فى مياه مختلطة وتحكم بسنكريتيه دينية ونقاء هندوسى وكلها أفكار ومفاهيم راودن النفوس نابعة من جذور طبقات شعبية قديمة من ماضى الهند المتعدد المزحوم بالبدع والخرافات ومن المكن ذكر عشرات من الأسماء: من ديانندسار اسفاتى ١٨٢٤ - ١٨٨٣ الذى أسس مذهبا جديدا من الهندوكية تستبعد الإسلام كما تستبعد المسيحية وتعترف بانجذابها نحو الغرب وتجاهد فى سبيل العثور فى ثنايا الفيدا^(١) العصرية العلمية والكهرباء فضلا عن الآلة التجارية ذلك النموذج الذى استوحاه غاندى جوبال كريشناجو كاليه ١٨٦٦ - ١٩١٥ أورابندرانات طاغور ١٩٦١ - ١٩٤١ الحاصل على جائزة نوبل عام ١٩١٣ وأحرز بشعره شهرة عالمية ومن وصفه قصيدة جانا مانا التى أصبحت النشيد القومى للهند المستقلة ثم كان أن انتهت اللغويات من الهياج الشعبى والكثرة الطائرة من اجراءات القمع إلى إعلان استقلال الهند وكذا التقسيم الذى كان فى ١٥ أغسطس ١٩٤٧ وفى ظل موجات من النشرة وحصافة وتعقل ومراوغة وخبث وادعاء ومكر لم يكن حوار إزالة العهد الإستعمارى مثاليا إذ يصير العقل اليوم غباء الغد ولا تأتى التنازلات إلا متأخرة جدا بالإضافة إلى ما كان يرتضيه المسلمون (فصل البنغال وتجزأتها فى مقاطعتين انضمت الشرقية منها إلى أسام لتكوين مجمع عرقى عام ١٩٠٥) وكان هذا يثير سخط الهندوكيين وغضبهم وكذلك يثور المسلمون إذا استقر الأمر للعودة إلى عام ١٩١١ وكان من

(١) الأربع الثابت المقدسة من وحى براهما أحد آلهة الهند مجد المطلق مدب الكون

الصعاب التي لا حل لها توحيد الهندوس والمسلمين حيث تجمع هؤلاء في الرابطة الإسلامية عام ١٩٠٦ ونأى الصعاب الكبرى وسيلة التوصل إلى عقلية الكتل السكانية الكثيفة وهو ما نجح فيه الزعيم غاندى ١٨٦٩ - ١٩٤٨ وكان طالبا يدرس الحقوق في بمباى وأكمل دراسته في لندن ثم أصبح محاميا في النائال مسقط رأسه للدفاع عن مواطنيه من المهاجرين إلى جنوب افريقيا وتمكن عند عودته إلى الهند عام ١٩١٤ من فرض شخصيته على القوميين ثم سيطر عليهم ودفعهم إلى الإمام وكانت حركته : استخدام دينى عقائدى للقوة السياسية وصار اسمه المهاتما، أى النبيل الثائر الوقر، أما القوة الوحيدة حسب تعاليمه فهي القدرة على كبح رغبات الغير وهي: الحقيقة واللاعنف فى مواجهة أى إنسان حى والنقاء بالتعبير السلمى العقائدى لنداءاته بالمقاومة السلبية استطاع غاندى استثارة (ال جماهير) ولقد لاحظنا عند إعلان أول مقاطعة فى ٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ أن إنجلترا أرغمت على منح الهند دستورها فى ديسمبر ١٩٢١ عندما أصدر نداء مجمله عصيان صامت فلما اندلعت المظاهرات الصاخبة والإضطرابات التي ارتكب حوادث اغتياالات خلالها أوقف غاندى حركته فكان صادقا مع نفسه . وقامت الحملة الثانية بعد ذلك بثمانى سنوات أى من السادس والعشرين من يناير ١٩٣٠ وتركزت فى مقاطعه الملح الذى تحتكر الدولة ببيعه وتلا ذلك عديد من حملات الاحتجاج والإعتراض، وطالت الحملات بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٣٤ حتى أعلن الدستور الجديد للهند أخيراً (مرسوم عام ١٩٣٧) وهكذا نصبح استقلال الهند قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية التى عجلت به وفى ٨ أغسطس ١٩٤٢ انضم المؤتمر إلى نداء غاندى: على الإنجليز مغادرة الهند وفى عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ومع اندفاع الجيوش اليابانية فى بيرمانيا (بورما) والأخطاء التى تهددت أسام والبنغال أصبح الموقف محفوفاً بالمخاطر حيث دمرت محطات للسكك الحديدية ومباني عامة كثيرة ولما عاد السلام تصاعدت التوترات، وفى ١١ يونية ١٩٤٧ إذا بالبرلمان الإنجليزى أخيراً.. يمنح الهند استقلالها ولتن تقطعت الجسور مع إنجلترا فقد كانت الهند المتحررة تتمزق فيما بينها وفى ١٥ أغسطس انقسمت وتجزأت إلى دولتين: الهند وباكستان الكومنولث البريطانى فكان الاتحاد الهندى من جهة والباكستان

من جهة أخرى وقد انقسمت كذلك إلى جزأين وكان التقسيم سيئاً للغاية فقد ترك على أراضي الهند أقلية تعدادها ٤٤ مليون مسلم كما نزعّت الحدود السياسية في الشرق مناطق إنتاج الجوت الخام لباكستان وصناعات النسيج بطول أو غلى للهند وبدأت موجات هروب الناس من موقع إلى موقع وكانت بشعة صاحبها اغتيالات عديدة لا حصر لها من كلا الجانبين وحاول غاندى دون جدوى أن يجد أرضاً للإتفاق والتفاهم مع الإسلام وفي ٣٠ من شهر يناير ١٩٤٨ قام متعصب من الهندوس تحت وهم الإعتقاد بأن محاولة التفاهم خيانة للهندوس، باغتيال الماهاتما وتم الانفصال أو تحت التجزأة فيما يشبه جو الحرب الأهلية وسط موجات العنف الغريب.

كانت الحصيلة مليونين أو ثلاثة من القتلى ولقد قيل إن السياسة الإنجليزية هي المتسببة في هذا التقسيم... فهل هذا صحيح؟ من الصعب أن نغير آذاناً صاغية ونولى اهتماماً بتحركات سياسية أو مواقف تأمرية واضحة المكر، والدهاء مرض، فقد قاصى الهند نفسه تارة أخرى على حاضرها أو بمعنى آخر انتقم من نفسه فهو المسئول عما وقع. وفي الرابع من فبراير ١٩٤٨ إذا بسيلان بحضارتها الأصلية الخاصة وعالمها البعيد عن خضم الأحداث أو الارتباط بالهند المستعمرة الإنجليزية... تصبح بدورها من دول الكومنويلث البريطاني وفور تحرير الأراضي الهندية واستقلالها تقطعت قطعتين اثنتين بل ثلاثاً إذا ما وضعنا في اعتبارنا استقلال بيرمانيا (بورما) وانشقاقها عام ١٩٤٧.

هل تستطيع الهند إقامة اقتصاد ثورى كما فعلت الصين؟

تمكنت الهند منذ ذلك العام ١٩٤٧ من تحقيق تقدم صناعى كبير يفوق ما حققه خلال المائه والخمسون عاماً السابقة وهكذا استطاعت التكيف والتطور بأكثر مما استطاعت تحقيقه الباكستان منذ الإنقسام عام ١٩٤٧ فقد أقامت دعائم نظام داخلى (فقد قبلت فرنسا فى اتفاق بينهما على تصفية وكالاتها التجارية) كما استطاعت تصفية هذه الإمارات السيادية وإقطاعيات المهرجات (خاصة إقطاعية حيدر أباد ٠ سبتمبر ١٩٤٨) واستعادت بالقوة مقاطعة جوأ من أيدي المستعمرين

البرتغاليين عام ١٩٦٢ وأسست واحتفظت بحقوقها فى كشمير وقاومت الإدعاءات الصينية بشأن الحدود الغامضة فى الأراضى بمقاطعة هيمالايا (أى المتنازع عليها) وبالفعل خيبت الهند أمل كثير من أصدقائها بسبب العنف الذى وقع عند احتلال جوا لما كانت مشهورة به عن تعقلها السياسى ومع ذلك يظل البانديت نهرو رجلاً عظيماً فهو دائماً المحامى المدافع البارز عن بلدان العالم الثالث فإذا أضفنا إلى ذلك ما يتمتع به النظام البرلمانى الهندى ودقته كما أظهرته انتخابات عام ١٩٦٢ (البرلمان المركزى) لوك سابها وما وقع فى انتخابات ١٤ ولاية والحل المنعقل والتقسيم الحكيم للهند ١٤ ولاية لغوية.. كل هذا إنما يدل على نجاح وتقدم مثير بكافة المقاييس وليس هنا مع ذلك تكمن أصولية الجذور الهندية فى مواجهة الدنيا ودنيا البشرية التى تمثلها وحدها فهذه الجذور الأصلية إنما تعود إلى عمل حكوماتها الدؤوب إذ أرست خطط الخطة الخمسية الثالثة عام ١٩٦١ - ١٩٦٥ للخروج من مشاكلها الرهيبة... سكان هذا المجتمع الذى يسرع الخطى نحو نصف المليار من البشر وبدون اللجوء إلى العنف ولا إلى تلك الشعارات الجوفاء الصاخبة وهى تترك الطبيعة والناس والأمور تسير سيرها المعتاد الطبيعى دون التدخل للإسراع فى المسار إلا حين تجد ممكناً لتحقيقها أى حين يبدو النجاح محتملاً قابلاً للتحقيق. وفى ١٨ أبريل ١٩٦٢ شرح نهرو سياسته لصحفى فرنسى: لسنا متمسكين بعقائد اشتراكية إنما نريد ببساطة قيادة مسيرة هذه الأمة نحو التقدم والازدهار بخطوات متتدة واثقة وتخفيض الفروق الاجتماعية هاهو نظامنا الاقتصادى وفى سبيل تحقيق هذا الهدف يترك مساحة معقولة للقطاعات الخاصة جنباً إلى جنب مع القطاع العام الحكومى فجزء من قطاع الصناعات الثقيلة وكل الصناعات الصغيرة الخفيفة والصناعات المتوسطة الوسيطة وكل المشروعات الزراعية يتولاها القطاع الخاص وتحرص المزارع بالقرى على تشجيع التعاونيات وليست لدينا نية الوصول إلى ما يسمى بمبدأ الجماعةى ولسنا كذلك ممتن يتمسكون بعقائد اشتراكية بحته إذ نسير خطوة خطوة ونناضل للتوصل إلى حلول سلمية للمشاكل وخذ على سبيل المثال حين قمنا بعزل المهرجات عن عروشهم فقد تركنا لهم قصورهم وحصاناتهم واميتازاتهم حتى توفوا ونحن دائماً نترسم الطريق

الديمقراطى بل هو الطريق بكل معانى الكلمة الطريق التحررى والقضية واضحة على أى حال لقد سككت الهند الطريق واتخذت نهرا سالها النظريات والآراء السائدة فى العالم الحر وتريد الهند ما يجب عليها من تحقيق ثورة... فهل فى استطاعتها ذلك... بتحقيق ثورة اقتصادية على الطريقة الصينية؟ ولنقل بصراحة إن المهمة قاسية والمجازفة خطيرة.. لإيجاد علاج للفقر المخيف الرهيب وهو يمثل السمة الغائطة دون شك ولكنه واقع أليم ويجب ابتداء المسيرة. والهند بخلاف كثير من الأمم والدول تتحلى بفضيلة عدم اخفاء جروحها لا على نفسها ولا على الآخرين وهذا الفقر كان دائما هنا عرفنا به حتى قبل العصر المسيحى وسمعنا عن المجاعات المذهلة التى نلاحظها حتى فى المدن الكبرى كمدن كلكتا وبومباى الضخمة ونيودلهى العاصمة فعلى مسافة قصيرة من أحيائها الراقية الجميلة نشاهد مناظر البؤس وبؤس الملابس والأردية وبؤس الأجساد والمساكن وبؤس الطعام، وأكبر الظواهر كثافة السكان والأيدى العاملة، ففى أيام عصر المغول العظماء وكانت هناك أعداد من الأطفال باعهم أهلهم عبيدا أرقاء وإذا استطاع أهلهم بينهم لمشتريين كان ذلك فضلا يتكرم به المشترون برقة قلوبهم وتقسيم العمل قائم إلى أبعد الحدود. كتب أندريه شيفريون عام ١٩٢٣ يقول: لا بد من هذا الحوذى لقيادة المركبة وهذا السائس لفتح الباب وهذا المنادى ببيون ليصيح بصوت مرتفع حاسب... احذر، وعلى الأوروبي أن يتحمل هذه الآلة وهذا النظام فإذا ما راودته فكرة المشى على قدميه فذلك عمل مخيف وكذلك إذا حمل طردا بين يديه ولا يستطيع الضابط الانجليزى تغيير مكانه دون أن يجد وراءه جماعة من الرجال يحملون الحقائق، والعام الماضى وفى لندن اعترف لى جندى عريف انجليزى بأنه فى الهند كان يثق الجرس مستدعيا خادمه يلتقط منديله الذى وقع على الأرض تماما كما كان فى روما حيث يجرجر الشريف الرومانى وراءه جيشا من الخدم والعملاء والعنفاء تلك واحدة من حقائق الأمس ولا زالت من حقائق اليوم. ما ذا نفسر هذه المنازل البورجوازية المتواضعة وبها ما بين عشرة وأثنى عشر من الخدم... وهؤلاء الرجال والنساء وأطفالهم التوسع على ضفاف نهر كلكتا (١٩٦٢) حيث ترتدى النساء السارى والرجال شبه عراة والأطفال فى أسما لهم الرثة البالية

والكل محاصر بجيوش من الذباب لا يأبهون بمجرد طرده سواء عن وجوههم أو عن أجسادهم وكلهم بعد أيديهم للمارة ثم ماذا تقول عن تلك الورش المتخصصة في أعمال الصيانة والترميمات الخطرة على الطرق فنذكرنا بالجحيم إذ فيها نجد الرجال والنساء والأطفال يحملون بأيديهم القار الذى يستخدم لإيقاد النار فى مراحل وقدور كبيرة وإذا ما أعدت هذه الورش ليكون أكثر عصرية ازداد عدد العاطلين وفى بنخالور فى مقاطعة الدوركان نجد مصنعا عصريا على أحدث طراز مخصصا لصناعة حافلات القطارات (عربات) مليئا بجيوش من الذباب البشرى (عمال) انهمك كثير منهم بعمليات الدهان هذه الصور البائسة المضجعة التى تشغل بال مسئولى حكم الهند اليوم إنما ورثته من هند الأمس... هند كل العصور وكل الأزمنة فمن واقع الإحصائيات نجد من بين ٤٣٨ مليون نسمة هم عدد السكان أن نسبة الوفيات مرتفعة جدا فتصل إلى رقم يترد بين ٢٥ و ٣٠ لكل ألف نسمة فى مواجهة نسبة تبلغ ٤٥ لكل ألف أى ما يقرب من ثمانية ملايين زيادة فى عدد السكان كل عام وهذا الرقم مخيف حيث أن معناه كل قبل شىء وقف ثمرات أى تقدم يحرز على كافة الأصعدة وكافة المجالات وعلى الرغم من ذلك فقد لاحظنا ارتفاعا طفيفا فى مستوى المعيشة والدخل القومى وعلى العموم نجد أن الأجر اليومى فى الورش يصل إلى روبية . والسؤال هو كيف السبيل إلى وقف الزيادة السكانية وتنظيم الأسرة؟ كاد لاينجح تعقيم الرجال فى بلاد كالهند فهى ليست كاليابان يعتاد الناس النظام والطاعة وبرغم ذلك لم يكن تنظيم النسل هناك موضوعا سهلا أما فى الهند فالأمر مختلف تماما إزاء هذا المد البشرى الرهيب ومع ذلك فليست هذه المشاكل هى كل ما تواجهه الهند وليس ضروريا أن يكون المرء خبيرا فى الإقتصاد لادراك معنى الخطوات والإجراءات التى تضمنتها الخطة الخمسية الثالثة (١٩٦١ - ١٩٦٥) إذ تستهدف مثل ما سبقها من خطط تحقيق وفرة فى إنتاجية السماد الضرورى للزراعة ووسائل النقل والصناعات الثقيلة والصناعات الميكانيكية ولقد ساد المسئول نوع من التفاؤل الحذر حتى تأتى التدخلات من كل الجوانب الممكنة ولم تعط الحكومة أذانا صاغية للتوصيات التى أشار بها خبراء مؤسسة فورد حيث أوصوا بضرورة التركيز على الزراعة فهل كان

صواباً ما رأى بعض الخبراء الآخرين من أن خطة الحكومة لم تتخل عن ضرورة بذل الجهود فى التصنيع وفق توقع الخبراء توقياً من كارثة غذائية عام ١٩٦٥، ولكن على أن الواقع إن أشار إلى هذا الاحتمال فلقد عايش الهند أمثال هذه المحن والتجارب واستطاعت الخروج منها أو السيطرة على آثارها على الأقل ومن بينها ضرورة تجنّب احتياطات من الدخل القومى للإستثمارات الضرورية حتى ولو أدى ذلك إلى اختلال التوازن فى ميزان المدفوعات الذى يعانى عجزاً من قبل حقا هناك ضرورات ملحة لاستيراد سلع ضخمة من الخارج يستدعى اللجوء إلى القروض الخارجية وأغلبها من مؤسسات خاصة ولا يتوقع منحها بدون مقابل ولكن كانت كثيراً ما تقدم شبه مجانية فإن فوائدها باهظة فى ظل الصراع المسرحى بين كل من الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتى حيث تستهدف مساعداتهم نتائج استعراضيه كمساعدتهم لمصنع فولاذ سهيلاي وقد بعثرت الولايات المتحدة مساعداتها بتدخلات هنا وهناك لا فائدة منها.

ولكن لا أهمية لهذه الصراعات «بين الكبار» واهتمام أحدهما بمصنع الفولاذ والصلب والآخر بإنشاء مصنع لإنتاج الأفلام السينمائية وتوضح أهمية كيلو مترات الأفلام أن الهند تأتى فى المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة فى إنتاج الأفلام السينمائية فى العالم. والمثير للإهتمام هو أن تصبح انطلاقة الهند حقيقة واقعة سواء لتأتى بعد اليابان فى الترتيب أو أقرب إلى الصين إحدى القوى الصناعية فى القارة الآسيوية ولا يمكن أن ننسى على الأقل انطلاقتها الصناعية المبكرة عام ١٩٢٠ وهكذا نجدها اليوم وقد استفادت إلى حد بعيد من ماضى صناعى واليوم نجد أن السباق قائم بين النمو الإقتصادى والنمو البشرى إذ يبدوا اليوم وقد تحقق الفوز فيه للنمو الإقتصادى ومن الجدير بالملاحظة أن نذكر أن الدخل القومى لكل فرد من السكان عام ١٩٧٠ قد تضاعف وليس معناه أن الهند تحققت لها «الأرض الموعودة» وإن أمكن القول أن الهند على أى حال عرفت مسارها... عرفت الطريق وهو طريق سليم إلا أنه محفوف بالعقبات بعضها عقبات سياسية وبعضها الآخر عقبات وحاجز اجتماعية وثقافية ودينية .

ومن بين المصاعب السياسية : دكتاتورية البانديت نهرو الروحية فلا يمكن أن
تعد دون أن تفرض فى طريقها مسائل الوثانة حيث يقارب عمره اليوم الثانية
والسبعين وحزب المؤتمر على الرغم من مكانته الرفيعة إلا أنه ينقصه النظام
والمنهج التأسيسى فهو يسمح ولكن بشكل سيئ بمعارضات متعقلة خصبه ويمين
رجعى وما قد سمعنا أنه يتهم اليسار الشيوعى أو المتشيع (مجدد للشيوعية) بأنه
حلل أكل لحم البقرة مما يدل على أنه نوع الجدلية الخادعة فهذا اليسار الشيوعى
لم يحقق سوى ١٠ ٪ من الأصوات خلال انتخابات عام ١٩٦٢ ولكنه حقق نجاحا
ظاهرا فى الحكومة المحلية لمقاطعة كيلا را قبل ازاحته عن الطريق بشكل تعسفى
ويتصرف تحكمى جائر كما أن هناك حالات كثيرة من النزاهة والفعالية وعناصر
اشتراكية تتهم من جانبها الرئيس نهرو بأنه يحمى نظاما متهاالكا فاسدا متعفنا .
ومع ذلك تظل كل تلك الأصوات المعارضة هامشية .. إذ من ذا الذى يسمعها أو
يهتم بسماعها؟ ومن المصاعب الإجتماعية ما يسهل التطرق إليه كالتوزيع العادل
على سبيل المثال للثورات وهومسألة أساسية تتشعب منها مشكلة تعددية قوانين
الأراضى الزراعية والملكية العقارية التى تحكمها وربما تصدر عن تنافس بين
مختلف الولايات ومع ذلك تظل بلا فاعلية تذكر حيث تمكن كبار ملاك الأراضى
بعد طردهم منها من استعادة نفوذهم وامتيازاتهم تدريجا على فقراء المزارعين ولو
كانوا أحرارا وكان تحريرهم فى ذاته تقدما كبيرا ولكنهم ظلوا يعيشون فى البؤس
ويغير سند تنظيمى يجمعهم ولا تزال مساحات شاسعة من الأرض بدون عناية
لإستصلاحها لتكون قابلة للزراعة حتى نظام الرىيجابى كبار ملاك الأراضى
فى حجز المياه لأراضيهم عند احتياجها ولا يساهم الفلاح الفقير فى التمتع بهذه
الميزات ومما يزيد الطين بلة ويضاعف من شقاء الفلاحين المعدمين أن كبار
ملاك الأراضى لا يعينهم فى قليل أو كثير إدخال التحسينات والتقدم الآلى
العصرى مما يمكن أن نقول عنه أننا نعيش فى نظام فاسد متعفن .. موقف أو حالة
ما قبل الثورة وأخيرا هو أمر عجيب نجد أن حضارة الهند التقليدية لازالت
تحتضن جماهير السكان فى شبكتها الدقيقة الصارمة فإن الإنسان الهندى يرى فى
التخلّى عن موقعه من سلسلة النظم الطبقيّة الإجتماعية وقبول معيشة مغايرة

لمعيشته الحالية وتسمى الحداثة العصرية نوعاً من التخلي عن جذوره الأصيلة. تلك حقيقة تثبت أن المذهب الهندوسى عقيدة دينية تمثل العقبة الرئيسية أمام كل تطور جاد يستهدف تحديث الهند لتدخل فى عصر جاد ولقد كان مستحيلاً تقدير كثافة مالا يكاد يصدق عقل من عطايا وقرايين هائلة مكدسة أمام المعابد وحولها عام ١٩٦٢ يوم شاع خبر اقتراب نهاية الدنيا (القيامة) قرايين وعطايا من طعام يضحى بها شعب فقير مصاب أغلبه بسوء التغذية يقدمها للآلهة وكنت ترى الأبقار وهى مقدسة فى الهند تجلو الطرقات تلتقط هنا وهناك غذاءها المتواضع القليل وأسراب الغريان تلتقط الحبوب وتكاثر الحشرات التى لا تطارد ولو دمرت المحاصيل... عديد من الطقوس والتعاليم الهندوكية منها: تقديس الأبقار كما ذكرنا حين يجب احترام كل مخلوق حى وتوقيره فى صيانة ولا جدال فى أن أسوأ ما ينطوى عليه المذهب الهندوكى نظام الطبقات المجتمعية حيث يضيع السكان سجناء تقاليد وموروثات قديمة كما أن الجمود الاجتماعى ليس مطلقاً حيث يشير الماضى إلى أن المصير محتوم عليه إلا أنه ظل واستمر قائماً رغم وجود عديد من طبقات المنبوذين^(١) والهاريدجائز ٥٠ مليوناً من البشر على الأقل أعلن غاندى من نفسه مدافعاً عنهم وأصبحوا اليوم أمام القانون مثلهم كمثل أقرانهم الآخرين أحرار حيث ألغى الدستور الهندى كل تفرقة قانونية بين المواطنين فضلاً عن أنه علمانى ولكن المسافة بين النظرية حتى التطبيق تظل طويلة ذلك أن التطور ليس يسيراً إدراكه والإحساس به إذ لا يلحق التطور بغير الصفوة المثقفة كما تتكون طبقة من البسطاء (طبقات متوسطة) فى المجتمع الهندى بفضل ٤٦ جامعة أنشئت ومازال فريق من خريجها يعانى من البطالة ويطلق عليهم «البطالة المثقفة» وهى التى توفر احتياجات الإدارة من الشخوص وتوفر المحامين والأطباء ورجال السياسة. وهذه الطبقات الجديدة بجذورها المتباينة مفتوحة أمام سائر الطبقات الاجتماعية وتجهر بالإعلان عن نفسها بأزيائها وسلوكياتها ذات الطابع الإنجليزى ومع ذلك تظل الحياة والمحيط الأسرى لهذه الطبقات الملجأ والملاذ حيث يتناولون الطعام التقليدى ويرتدون ملابس أسلافهم بما يتح لهم نوعاً من الراحة النفسية إذ يعيشون

(١) طبقة من سكان الهند تسمى بالمانبوذين ويحذر التعامل معها

طقوسهم العقائدية القديمة ويعاودون الارتباط بجذورهم التي ترمز في الحياة
 العصرية نوعاً من الانفصام عن هذه الجذور العميقة القابعة في وجدانهم العقائدى
 فمياه شبكة المياه العصرية مياه نقية غير ملوثة ولا أمسكت بها في مسيلها أيد غير
 نقية وتقبل رغم تحريم الأسماك ابتلاع زيت أكباد أسماك المورة من أسماك البحار
 حين يصفها الطبيب بل يصل الأمر إلى الإعلان في الصحف عن رغبة في
 الزواج والتدبیه بأن الطبقة الاجتماعية ليست بذات أهمية أو سكن مهندسين
 وموظفين وعمال في منزل واحد قرب مصنع جديد دون اهتمام بعادة تحريم
 بعض أنواع من الجوار تفرض على البعض والبعض لا يفترض على الآخر...
 كل هذا التغيير يدل على نشأة نوع من التقدم الناجح في سبيل ماقد نطلق عليه
 «اصلاح أو إعادة تشكيل العقيدة الهندوكية، حورب تمسكها بالشكليات دائما منذ
 عصر بوذا من لدن أكبر التيارات الفكرية الدينية الهندية... ويمكن القول أنها اليوم
 في طريق الانحسار فمنذ عام ١٨٠٠ جاهد رام موهان روى مؤسس مذهب جديد
 باسم البراهمو ساماج كثيرا لدفعها للسیر في هذا السبيل وكذلك في طريق
 الوجدانية (الإله الواحد) وسوف يحاول مصلحون قادمون وسوف يتبعهم الكثيرون
 ذلك أن الهند أدركت قيام هذه العقبة وكان ذلك منذ زمن غاندى وكان يقينا
 الملهم العظيم للهند اليوم بما كان يتمتع به من حماس ويتحلى به من صمود مثالى
 بعثتهما في نفوس مواطنية الهنود وفي الواقع استند غاندى في نداءاته على كافة
 التقاليد الروحانية الزاخر بها تاريخ الهند ليدفع بها نحو التقدم وفق تصوره في
 إطار من التمسك بالإباء الوطنى وهكذا استطاع بحس مرهف صادق أن يثير
 حماس الجماهير نافخا فيها ذلك الانفعال الوجدانى الشعبى ومع ذلك كانت هذه
 التقاليد التي حاول إحيائها من جديد تعنى في كثير من الأمور ألا تتوصل الهند
 إلى حد معين من التحديث العصري وهذا تفسير لكنه النزاع الذى نشب بين كل
 من الزعيمين في كفاحهما المشترك الزعيم بكلمات نهرو: هناك هوة تفصل بين
 من تميل نزعاتهم نحو المستقبل وهؤلاء المدفعين إلى الماضى فقد ابعدت مبادئ
 غاندى حتماً عن كل تطور اجتماعى إذ الثورة في مفهوم غاندى إنما تتفاعل ذاتيا
 فى القلوب وليس ثمة ما يسمى بملائمة النظام القائم وإنما دفع الناس مهما كان
 ثراؤهم أو نفوذهم إلى تكريس حياتهم لخدمة أقرانهم وأن يتقبلوا وفق كلام غاندى

التشجيع والاقتناع بالفن والجمال اللذين ينطوى عليهما المد الثقافي وإنكار الذات وكذلك الفقر الإرادى... أى الإنقطاع لهذه الأنشطة التى هى أساس بنيان كل أمه حين يلتزم الناس فيها بغزل أريدتهم ونسجها وحياتها بأيدهم وإقصاء كل نزعة طبقية من قلوبهم بكافة إشكالها وقيادة حملات للإقناع بضرورة التقشف والزهد والإقلاع عن المشروبات الكحولية والعقاقير ورعاية ونقاء الكائن الحى عامة، هذا طرق لتقديم الخدمات التى توفر وسائل المعيشة على مستوى الفقير ومن الأفضل أن تكون هذه المعيشة فى الإطار التقليدى للحياة الريفية وباختصار كما أنهى نهرى كتابه «حياتى وسجونى»، وهو يتحدث عن موقع غاندى يقول: أما غاندى فليس لدى من كانوا يرغبون فى خدمة الجماهير ما يدعوهم إلى التعلق بشأن رفع المستوى المادى للحياة بل عليهم هم أنفسهم التواضع للنزول إلى مستوى الجماهير والامتزاج فيها بشكل متساو... هكذا كانت نظرة غاندى للديمقراطية الحقيقية ومهما كانت مظاهر الإعجاب والتقدير من جانب نهرى وأصدقائه وعبروا عنها تجاه تلك المعانى التى تنطوى عليها هذه المشاعر الأخلاقية الفردية فقد بدا لهم أن محاولة إبدالها أو تشكيلها إلى مثالية جماعية كانت محاولة تتعارض مع المفاهيم والمدارك المنطقية لدى كل ديمقراطى وكل اشتراكى بل وكل رأسمالى كذلك من أهل العصر وكان بمنزلة العودة إلى روح باليه متخلفة من الأبوية الأسرية الرحيمة وهى رجعية لا شعورية لا إرادية وكانت خاصة اتجاها بتجنب مواجهة الحقيقة بأن الأراضى الهندية قد تجزأت وتقطعت مع بعض مظاهر من ماضيتها اللازمة الضرورية هذا إذا ما رغبت فى الخروج من موقع الدول النامية والخروج من فقر تلك الجماهير. وعلى أى حال فإن الهند اليوم سواء مالت أكثر تجاه مفاهيم نهرى أو جلحت نحو مفاهيم غاندى فإن ذلك ملحوظ مما منى به من فشل ذريع فينو بابيهاف - أحد أتباع غاندى - إذ قام عام ١٩٤٧ قبل وفاة غاندى البابواى الأب بتأسيس حركة أطلق عليها اسم بهودان كان هدفه منها حل مشكلة الأراضى الزراعية التى تثير الجزع والغم حيث يتأتى الحل من وجهة نظر مؤسس الحركة تقطع الأرض بتنازل ملاكها عنها طوعية وإعادة توزيعها على الفقراء بصفة فردية أو جماعية مشتركة ويجب لكى ندرك مغزى هذه الحركة التى تشبه الجهاد الدينى أن نعرف أن مؤسسها فينو بابيهاف سليل عائلة طيبة مثقف وعالم رياضيات عمد عام ١٩١٦ بإحراق شهاداته الدراسية على مشهد من أمه تمهيدا

للدخول فى زمرة النساك الزهاد المثقفين الهندوكيين وكان قد أسهم فى كل معارك غاندى ونضاله وصاحبه فى السجن، وحسب تقدير حاجته إلى ٢٥ مليون هكتار من الأرض الصالحة للزراعة لحل مشكلة الفلاح الهندى ولكنه بعد عشر سنوات من انطلاق جملته لم يكن قد جمع سوى مليونين .. وبدأ واضحاً فشل الحركة من ناحية الرقم المطلوب. وكان خلال عشر السنوات هذه ينتقل من قرية إلى أخرى ماشياً على قدميه بقطع آلاف الكيلو مترات بفئات الكفاف زهيد ويغزل القطن كل يوم طبقاً لتعاليم غاندى غير أنه لم يدرك أن زمان غاندى الموصى الملم زمان آخر وما كان ممكناً أيامه قد أصبح نوعاً من المغالطة التاريخية فى هند اليوم ولئن استطاع فينو بابيهاف إثارة حماس فئة معينة من الأنصار فلكم قول بصيحات الاستنكار والسخرية كانت قرى مزارعى الجود جيرات تستقبله فى قراهم بدلائل واضحة على بزوغ عصر جديد، عصر من الإدراك والفهم الحسى الظاهر، وفشل هذا القديس يعد تعبيراً عن يقظة الهند بحثاً عن حلول حقيقية معقولة وعصرية ضد نظام قديم متهاك نخر فيه السوس. وينهى نهرو حديثه فى كتابه فيقول: استخدمت التربية الثقافية القديمة فى الهند ذاتيتها إذ تصارع فى هدوء وصمت يائس خصماً جديداً قوياً جداً... هو حضارة الغرب الرأسمالى وسوف تتعثر خطاها وتستسلم أحياناً، ذلك لأن الغرب يجلب معه العلم والعلم هو الخبز لملايين الجياع ولكن الغرب يجلب معه تريباقاً مليئاً بسموم مهلكة... خطيرة تفرزها حضارته وهذا التريباق هو مبادئ الاشتراكية وفكرة التعاون لخدمة المجتمع لصالح الكافة وهى أفكار لا تبعد كثيراً عن منالى براهمانى قديم ومفاهيمه فيما يتعلق بالخدمات والنفع ولكن هذا هو ما تعنيه كذلك يقينا تلك المذهبية البراهمانية فى المفهوم العلمانى لدى الطبقات وكل الجماعات وإلغاء التمييز الطبقي ولعل الهند وهى تغير رداءها وذلك مالا مفر منه ذلك لأن القديم ثوب رث بال فهل تقوم بإعداد رداؤها وحياكته حسب هذا (النموذج) بحيث يظل منطبقاً على الظروف الحاضر ووفق افكارها القديمة ومبادئها وجذورها .. تلك المبادئ والمفاهيم التى ستنضوى تحت لوائها... ولا بد أن تكون مرتبطة بأعماق تربتها وأرضها.

حاشية (١٩٦٦)

مع وفاة البانديت نهرو فقدت الهند بموته شعاعاً من النور كان ساطعاً في سمائها كما فقدت أملاً كانت ترجمته الكثير (٢٧ مايو ١٩٦٤) إذ تتصاعد سياسة الهند بعدم الانحياز والحياد ولكن خليفة نهرو ل. ب. شاستري يجد نفسه مضطراً إلى التعامل مع ضعف حزب المؤتمر الذي يركز عليه التوازن البرلماني وانحلاله، ولم يكن لدى السيدة أنديرا غاندى التى أدارت البلاد بعد وفاة السيد شاستري مفاهيم أو آراء خير مما كان لديه.

أما على الصعيد الاقتصادى فالأمور اليوم كما كانت بالأمس وقبل الأمس حيث لازالت المواجهة محتدمة حيال تصاعد رهيب فى عدد السكان يلتهم وبوازى فى إيقاعه كل ما تحقق من تقدم مادية ضخمة كثيف، أما على الصعيد الدبلوماسى فما زال النزاع الداخلى محتدماً حاداً فى موضوع الحدود الصينية الهندية وأبرمت اتفاقيات شاقة عسيرة مع باكستان بشأن مسألة كشمير والأقليات الهندية التى تعيش فى باكستان الشرقية .. وفى ٢٤ أغسطس ١٩٦٥ تمخص النزاع المستتر بين الهند وباكستان بشأن كشمير عن نشوب حرب عننية وقد سارع الصين إلى جانب باكستان وتطلق إنذارها للهند تلزمها بفك تحصيناتها المقامة على الحدود الصينية الهندية وفى ٢٢ سبتمبر يصدر قرار مجلس الأمن بوقف

إطلاق النار يلتزم به الطرقات وتظل المشكلة قائمة كما كانت قبل اندلاع القتال كما
يظل الطريق الذى يؤدى إلى الحفاظ على توازن متساو بين المعونة الأمريكية
البريطانية من جهة والمعونة السوفيتية من جهة أخرى... صديقا صعبا وتقف
الهند اليوم فى موقع عسير فإذا ما رغبت الهند فى تسليح نفسها إزاء ما تسببه
القنبلة النووية الصينية لها من قلق واضح حيث أثرت اعتمادات الأسلحة الحربية
تأثيراً خطيراً على ضرورات التنمية الاقتصادية... وهكذا تتفاقم وتشابك مشاكل
الهند....!

الفصل الخامس

الشرق الأقصى الساحلى
الهند الصينية - أندونيسيا
الفلبين - كوريا - اليابان

مقدمة

فى بداية الأمر سيكون من التعسف أن تمنع كل هذه البلاد جنباً إلى جنب^(١) الهند الصينية أو ما عرف فيما بعد بـ بورما وتايلاند وماليزيا وكمبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية وكذا أندونيسيا والفلبين وكوريا واليابان. ذلك أن هذه المناطق النائية وإن بعدت إحداها عن الأخرى فهى قريبة تاريخياً بعضها من بعض حول البلدين الزاخرين بالبشر، الصين والهند فلم يتوقف إشعاعهما الحضارى عن السطوع إلى ما وراء أراضييهما، ولقد لعب الحوار أدواراً كبرى بسبب سهولة الدخول والخروج التى تتيحها الطرق البحرية إبحار الشرق وجنوب شرق آسيا وبحر اليابان والبحر الأصفر وبحر الصين الشرقية وبحار الباندا وجولو، وتكاد كلها أن تكون رفائق ضعيفة من المياه لبحار سجيئة القارة القريبة وخارج نطاق الجوار، جوار الفلبين واليابان.

ولابد للوصول إلى الأعماق البحرية من الانتقال تجاه الشرق أو الجنوب حيث الجزر المتناثرة المتعرجة وكلها بركانية تفصل البحار المحصورة بين المحيطين الهندي والهادى وهى بهذا الشكل قد تعد بحارا مشابهة للبحر المتوسط، أى

(١) منطقة جنوب شرق آسيا بين الهند والصين وتشمل بورما وتايلاند وماليزيا وكمبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية.

اتساعات بحرية تتناثر فيها تلك الجزر،.. وكل شيء يجعل منها موقع يقطنها الناس كما أن هناك سمة مشتركة بينها فالرياح الموسمية كثيرا ما تكتسحها وتجتاحها بعنف رأسا على عقب فى أول الصيف وأول الشتاء وتهب الأعاصير فى كل موقع بأنوائها وعواصفها المدمرة وإن كانت رغم آثارها لا تمكث إلا زمنا يسيرا. وعلى العموم فقد عاصرت الملاحة مواسم مفاجئة كما عرفت رحلات هادئة بين الجزر على امتداد السواحل بريح آمنة.. فمعنى الملاحة هنا التنقل من جزيرة إلى أخرى مع البقاء بعيدا عن ضربات الرياح على ألا يغيب الساحل عن الأنظار بأشجار المانجروف الاستوائية فإذا ما بدأ البحر يهدأ أنزلت المرساة سريعا لتثبت بالقاع.. كثيرا ما تكون الأرض قريبة وهكذا نجدها جزرا سواحلها أرض بحرية مما يسهل على القوارب الشراعية والزوارق الخيزرانية الصينية أو المراكب الشراعية الهولندية المخصصة لنقل الشحنات أن تتحمل تلك العواصف ثم تعاود الرحلات سيرها، تلك هى مميزات وإمكانات هذه البحار الداخلية أو البحار المطروقة، فالبحار يكثر تواجده فوق مياهها ويجد فى عباها راحته فى المبادلات التجارية. وقرأنا كثيرا عن مغامرات سكان ملقا وأسفارهم البحرية حتى جزيرة مدغشقر ومغامرات البحارة البولونيزيين بقواربهم من جذوع الشجر يتهادون فوقها حتى جزر هاواي وجزيرة عيد الفصح وجزر نيوزيلاند، ثم تبقى بعد ذلك قصص وحكايات هذه الشعوب التى تفضل الحياة البيئية كاليابانيين والصينيين. ففى عام ١٦٢٦ قال عنهم كورنيس القس المبشر فى لاوس: لا يمارس الصينيون الإتجار فى أعالي البحار.. هذه الملاحة فى أعالي البحار التى قادت إلى هذه الجزر النائية العرب ثم البرتغاليون والهولنديون والإنجليز فيما بعد، وقد أسهمت هذه الرحلات الملاحية كثيرا فى ملء هذه الجزر بالناس وقاربت بين سواحلها ومزجت بين حضاراتها وتاريخها وهنا يجب دوما أن نضع فى حسابنا أن هذه المياه.. مياه البحار قد أسهمت فى التأثير والتأثر العرقى وتشابه قسمات الوجوه فيما بين سكانها مع احتفاظ كل بقعة بجذورها الأصيلة التى لا تمحى...

الهند الصينية

(١) بلاد الأندوشين^(١)

سبق أن أوضحنا أن هذه البلاد بهذه التسمية تضم الدول المعروفة اليوم بـ بورما وتايلاند وماليزيا وكمبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية وتشملها شبه الجزيرة الواقعة جنوب شرق قارة آسيا بين الصين والهند.. وهى من جملة مرتفعات أطلق عليها عالم الجغرافيا الدانمركى مالميتابرون اسم أندوشاينا - الهند الصينية - ثم شاع الاسم بعد ذلك

وتتخلل شبه الجزيرة جبال مرتفعة تخترقها أودية عريضة من الجنوب إلى الشمال كأنها أصابع اليد المتباعدة ويزداد صغرها جنوبا. أما من الشرق والغرب فتحوطها البحار وكانت هذه الأراضى فيما قبل التاريخ ممرا دائما لعدد من السلالات البشرية التى تركت فيها آثارها كالأسترايين والميلانيزيين والمغول وهؤلاء من أصل صينى، وتمثل هذه السلالات المتعددة أصول السكان الحاليين وجذورهم، ويلحظ النموذج الميلانيزى لدى الشعوب الجبلية التى لازالت شعوبا بدائية، ومع تطور الزمن التاريخى وصل إلى هذه الأراضى أربع غزوات كبرى

(١) ومطاهها جزر السود وتشمل غينيا الجديدة سولومندث وكاليدونيا وجزر قبجى

إحداها جاءت من الصين بالقوة، والأخرى اتسمت بالسلام سالكة طريق البحار قادمة من الهند، وأخيرا غزوتان بهريتان أولا هما إسلامية استولت على شبه الجزيرة الماليزية والأخرى من أوروبا - فرنسية إنجليزية - اتسمت بالشدة وازداد بطشها فى القرن التاسع عشر نكتسح كل شىء فى طريقها ولكن ذلك اليوم يكاد يتلاشى عن آخره فى مخب الغد حين يبدأ عصر الاحتلال فى الزوال.

تلك الحضارة القديمة التى كانت سائدة فى هذه البلاد - أى الهند الصينية - فالحضارة الصينية التى نجدها فى تونكين وفى أنام (أى فيتنام الشمالية والوسطى) اتسمت بالقوة وجرت وقائعها منذ ما يقرب من عشرة قرون بعد غزوة احتلالية استعمارية المظهر، وكانت غزوة حربية إدارية دينية كونفوشية تاوية بوذية معاً وتعتبر نقطة بارزة فى التاريخ الصينى وأبعدت أو اكتسحت جموع الأهالى الأصليين وحل محلهم الغزاة الطارئون وهكذا برزت هذه الشبه حضارة الخاصة بالشعوب الأنامية (نسبة إلى بلاد أنام) وقد انتشرت فيما بعد نحو الجنوب.. جنوب الهند الصينية.

وتمثل النفوذ الهندى فى التجار الذين أسسوا وكالاتهم لتبادل التجارة متحدين فى أغلب الأحيان مع الرئاسة المحلية والتى جنت من وراء هذه العمليات ثروات ضخمة مما أتاح لهم فرض إرادتهم ثم تمكنوا بعد ذلك من تأسيس الممالك بجذورها الهندية المهجنة وهكذا أنشئت مملكة تشامبا على ساحل فيتنام الوسطى أو عند الطرف الغربى جنوب شرق فارة آسيا وكذا مملكة المونز فى دلتا نهر الميكونج مملكة فونان التى اندمجت فيما بعد فى تشيلا وبامتزاجهما معا نشأت إمبراطورية الخمير (كمبوديا حالياً) التى سيطرت على جميع أراضى جنوب شرق القارة الآسيوية فى القرون من التاسع حتى الرابع عشر وتظل بما فيها فى عظمة آثار أنجور (جزء من غرب كمبوديا) وأطلالها.. ولقد نشأت إمبراطوريات أخرى من شعوب المنطقة وأهلها ممن يطلق عليهم الشعوب البرلمانز أو الشعوب الثائية ومعناها الشعوب الحرة نكاية فى إمبراطورية الخمير ومملكة المونز فيما بين القرن الحادى عشر والقرن الرابع عشر وكانت هذه البلاد أساسا لميلاد الدولة البرمانية والتى حملت فيما بعد اسم لاوس وتمثل الجزء الشرقى والجزئين المندمجين سيام أو

تايلاند أو «أرض الأحرار»، ولم يحتل الأوروبيون هذه البلاد إلا زمنا يسيرا موقوتا من القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ومع ذلك فقد تأثر الجنوب الشرقي من قارة آسيا تأثرا بالغيا بهذه الغزوة الاستعمارية الإنجليزية غربا والفرنسية شرقا وقد تركت هاتان الغزوتان الاستعماريتان بينهما دولة سيام المستقلة بلاد حاجزة (تحول دون التصادم) وعرفت كذلك منذ ١٨٩٦، وقام الفرنسيون بضم بلاد تونكين وأنام وكوشنشين وكمبوديا ولاوس فيما أطلق عليه اتحاد الأندوشين سنة ١٨٨٧، وقام الإنجليز بربط بيرمانيا (بورما) إلى إمبراطوريتهم في الهند أيام احتلالهم لها وفرضوا سيطرتهم على أطراف شبه جزيرة ملقا في البلاد الماليزية وسنغافورة التي تمثل واحدا من أهم موانئ الشرق الأقصى، وفي خلال الحرب العالمية الثانية امتدت السيطرة اليابانية فترة من الزمن على جنوب شرق آسيا وأدت تلك السيطرة اليابانية إلى تدمير هذه الكيانات الاستعمارية السابقة وحصلت دول ماليزيا وسنغافورة وبيرمانيا (بورما) على استقلالها بدون صراع بفضل حكمة إنجليزية، ونشبت حرب طويلة ممتدة بين الفيتناميين والفرنسيين، ولم تحصل الهند الصينية الشرقية على استقلالها إلا في ٢١ يوليو ١٩٥٤ بمقتضى معاهدة وقعت في جنيف ومنذ ذلك التاريخ وجدت بلاد الهند الصينية السابقة نفسها مقسمة إلى أربع مناطق حيث قسمت معاهدة جنيف بلاد أنام إلى قسمين عبر خط عرض ١٧ شمالا، فكان الشمال مع تونكين وكونا جمهورية فيتنام الديمقراطية والجنوب لبلاد كوشنشين جمهورية فيتنام. وفي عام ١٩٤٩ اعترفت فرنسا بمملكة لاوس المستقلة في ١٩ يوليو، ثم مملكة كمبوديا في ٨ نوفمبر وظلت لاوس وكمبوديا دولتين على الحياد بين الكتلتين اللتين تتصارعان على الدنيا (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي) واندمجت فيتنام الشمالية في العالم الشيوعي المرتبط بالصين التي تمارس ضغطاً شديداً عليها وكذلك ارتبطت بالاتحاد السوفيتي وبالدولة الصناعية البعيدة تشيكوسلوفاكيا وأصبح جنوب فيتنام تحت إشراف الولايات المتحدة الأمريكية وكان أمامها في مستهل استقلالها - وكان استقلالها هشا - تواجهه مشاكل جسيمة وصعبة أشبه بما تعانيه كافة البلاد النامية. ونجد أنها في حاجة إلى الإسراع في تحديث صناعاتها وزراعتها وموازنة ميزان

مدفوعاتهما كما تحتاج إلى دفعة ديموغرافية (عدد السكان) ولقد تحقق بعض النجاح والتقدم في فيتنام الشمالية بفضل نظام الحكم الشيوعي (الاشتراكي) على حساب الانتقاص من الأساليب الحرة وعموما فليس من يستطيع اليوم الحكم على فعالية نظام بالقياس إلى غيره، إذ نجد فيتنام الشمالية على سبيل المثال تمتلك سلاحا من بقايا الأسلحة التقليدية الروسية كما تتولى تصدير الحبال من صناعة كمبوديا، وليس الوضع بالنسبة لهذه البلاد الفتية يسيرا سهلا فمع ما تحصل عليه فيتنام الجنوبية من معونات ضخمة من الولايات المتحدة الأمريكية فما زالت أراضيها ساحات للقتال المقنع مع قوات شيوعية تتسلل إليها ولم يكن سهلا أن يحتفظ نظام استعماري على الطراز الأمريكي بموقعه دون أن تواجهه موجات من معارضة السكان، ومن ثم كان التوازن الحاضر توازنا عارضا (مؤقتا)، ومع عدم حياد لاوس وكمبوديا فالمصالح عديدة متضاربة بحيث لا يسهل التكهن بتداعياتها بشكل معقول أو بما عسى أن تسفر عنه هذه الصراعات وتظل قضايا الثقافات من وراء هذه المشاكل الملحة على قدميها قائمة إذ تتعارض كثرة سكان الوديان دائما مع المناطق الجبلية ونصفها تقريبا فراغ تام كما أن هناك عصران تاريخيان يتواجهان حيث كثرت مع زراعات الأرز حشود السكان بدلنا النهر الأحمر ونهر الميكونج وفيتنام وإيروايدى إذ تركز في هذه الأراضي الزراعية بكتلتها البشرية دعائم الحضارات السائدة المسيطرة فسلالات الأناميون من آنام (فيتنام الوسطى) من أبناء الحضارة الصينية يحتلون منذ القدم أراضي دلتا النهر الأحمر الواطئة واستطاعوا في القرن السابع عشر الحاق الدمار بأراضي مملكة تشامبا، وغزوا في القرن الثامن عشر دلتا نهر الميكونج بانتصارهم على قبائل كمبوديا وسكانها وهو انتصار لا تزال أصداؤه تتردد حتى اليوم. أما ناحية الشرق فقد تهددت (أى من الهند) هذه الحضارات المتماسكة حضارات وديان كمبوديا، سيام، بيرمانيا (بورما) بشكل قوى وتركت العقيدة البوذية بصماتها واضحة.

ومع ذلك نجد في الطرف الأعلى لهذه البلاد أى في الجبال سكانا من البدائيين شبه مستقلين يؤمنون بمذهب حيوية المادة^(١) وهم قلة تمارس زراعة

(١) مذهب اعتقاد بأن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد

الوقود (أى حريق شجر للزرع) حيث يحرقون الأشجار عمدا فى قطع من الأرض لزراعتها مؤقتا. وهكذا يحيون حياة بدائية بسيطة وفى هذه البلاد المتناثرة فى الهند الصينية حقق المبشرون المسيحيون نجاحا كبيرا دائما خارج نطاق البلاد التى يقطنها البوذية والمسلمون وهؤلاء استولوا على شبه جزيرة مالانيزيا (ماليزيا)، وبعد عام ١٩٥٤ ارتد الفلاحون المسيحيون فى تكتلات بشرية (٣٠٠ ألف شخص) واليوم يحتفظ السكان الكاثوليك بسلطة الحكم فى سايجون. وكان طبيعيا أن تحقق الرعاية التبشيرية المسيحية أكبر انتصاراتها بين جماعات من السكان الإحيائيين (الذين يؤمنون بحيوية المادة)، وهكذا وجدنا فى بلاد اتحاد برمانيا (بورما) أن تحول جزء كبير منها إلى البروتستانتية كان من شأنه أن قويت شوكة هذه الجموع مما أثارها ضد السلطة المركزية التى يملك زمامها البرناميون سكان بورما من أصحاب المذهب البوذى.

ولا تهيمن هذه التفاصيل على مصير جنوب شرق هذه الأراضى وهو مصير غامض متعدد الجوانب وإنما ينشر فوقها الضياء بالطريقة ذاتها التى نرى فيها نشأة المدارس الفرنسية أو الإنجليزية حيث يظل جنوب شرق القارة الآسيوية منطقة عبور تفتح نراعيها لكل التيارات قد تحتفظ بها أحيانا أو تلتفتها أحيانا أخرى ولكن بصورة تختلف حسب تقاليد الجذور العرقية الأصيلة التى تتألف منها كياناتها.

٢ - أندونيسيا

فبما وراء شبه جزيرة ماليزيا تسبح قارة آسيا فى مياه المحيط الهادى وتمتد أندونيسيا بطولها نحو الشرق بالآف جزرها حيث تعد أكثر الأرخبيلات اتساعا فى العالم. وكانت أندونيسيا من قديم الزمان إلى يومنا هذا ملتقى طرق متعددة الألوان ومع ذلك وعلى الرغم من عديد هذه التنوعات فهى تتمتع اليوم بنوع من الوحدة كما كانت بالأمس تحافظ عليها وقد تستعيدوها. عاشت الجزر الأندونيسية وسط دوامة رياح عاتية كما لاحقتها أحداث كثيرة تقبل من بعيد.. كذلك كان مصيرها فى عصور ما قبل التاريخ. وفى بداية القرون الأولى من عصرنا حين وفد عليها البحارة والتجار من الأراضى الهندية ينشئون مستعمرات لهم كما نشأ فى أراضى بورما وسيام وكمبوديا حيث جلبوا معهم المذاهب الهندوكية والبوذية حيث ازدهرا

معا وتأقلمنا مع ثقافات تلك الجزر وكأنتا بمنزلة مرتكزات للممالك الجديدة الناشئة فاستقرت الممالك الأولى فى سومطرة ولكن فى جاوة كان أشدها ازدهاراً وكما كان نفوذها محدوداً شأن الحضارة المستوردة (الدخيلة)، ومن بعد ازدهار جاوة بجبالها العالية وغاباتها البكر الشاسعة وزراعتها المنتظمة فى نطاق تقاليد حية مكتفية بسكانها بها، تأتى الحضار المشتركة الهندية الجاوية ويظل تكونها نابعة عن طبيعة الأرض وأوديتها كما اشتقت لغة السكان من لغة الباليهى الهندية بأشعارها وحكاياتها الشعبية على النمط الهندى شأن معابدها وأضرحتها التى يتشكل منها الفن المعمارى حيث يضم تل بوربودور (القرن الثامن) صورة مطابقة للنموذج البوذى الخاص بالمهايانا (العربة الكبرى). ثم تندلع الحروب المتصلة بين ملوك الكراتون ويبزغ أواخر أعوام القرن الثالث عشر نجم إمبراطورية هندوكية دولية.. إمبراطورية (المادجا باهيت) التى انطلقت من جزيرة جاوة تخضع سائر الجزر بفضل شبكة من أراض تابعة وخاضعة وفق ما تملك من سفن بحرية نشطة ثم تسيطر على سنغافورة، مدينة الأسود.

ومن جزيرة ملقا تبلغ غينيا الجديدة شرقاً تلامس جيوشها، وشمالاً جزر الفلبين ثم تتمكن عام ١٢٩٣ من تجريد الأسلحة لغزوه من قبائل المغول قادمة إليها من الأراضى الصينية غير أن هذه العظمة لم تدم طويلاً إذا استطاع المسلمون عام ١٤٢٠ احتلال ملقا وتمكنت هجماتهم عام ١٤٥٠ من تفكيك أوامر الإمبراطورية أو ما تبقى منها حيث تنضم السياسة والحروب الدينية لتدمير البنيان الشاسع الذى لم يعد منه اليوم سوى أطلال وآثار وذكريات، حين جاء البرتغاليون فى بداية القرن السادس عشر ولكن جزيرة بالى وحدها استطاعت الاحتفاظ بسالف موروثاتها البرهمية وتقاليدها من عصور وأزمنة قديمة ويحتل البرتغاليون ملقا عام ١٥١١ وجزر الموليك عام ١٥١٢ حيث اجتذبهم سحر القرنفل ورائحته وبلغوا سواحل سومطرة عام ١٥٢١ حيث جاء هذا التوغل نتيجة الصراعات السياسية المحتدمة التى مزقت أشباه الجزر، وظل الاحتلال البرتغالى فترة قصيرة على أى حال ولم يقدر على أن يترك بصماته، وعند مغادرته ترك وراءه سكان الأرخبيل على حياتهم القديمة وتياراتها السلفية كما هى كما ترك المبادلات التجارية التى

تستغل بها السفن العربية فى آستم عند الطرف الغربى من جزيرة سومطرة حيث تشحن البهارات والتبر إلى البحر الأحمر من موانئ الصين الجنوبية فى رحلات بحرية منتظمة وكانت فى زمن ماركوپولو بل قبله بأزمان يقينا، أى منذ القرن السابع، وكانت السفن من شمال شرق جزيرة بورنيو تتردد على الجزر الأندونيسية بحمولاتها من لعب الأطفال والأوانى الخزفية (الصينى) والحرائر وقطع النقد الثقيلة من النحاس أو الرصاص والسايك (وهى ضرب من نقود الصين) مقابل الأخشاب الثمينة والفلفل والبهارات والتبر من جزيرة بورنيو وجزيرة سيليبس. ولأشك أن التدخل البرتغالى المتطفل كان بمنزلة استغلال قسرى لتلك التبادلات التجارية القديمة التى كانت سائدة بين جاوه وماكا وقرب كانتون وفيما وراء ذلك حتى اليابان. ومع بداية القرن السابع عشر وقع تدخل آخر شرش هو تدخل الهولنديين فقد جاءوا إلى امبون فى جزر الموليك عام ١٦٠٥ ثم تقدموا حتى جزيرة سيليبس فى جزر الموليك عام ١٦٠٥ ثم تقدموا حتى جزيرة سيليبس عام ١٦٠٧ وأقاموا مدينة بتاوه عام ١٦١٩ (١) وظلوا يسيطرون على جزيرة جاوة حيث أدركوا أن عليهم أن يتمكنوا من الإمساك بمقاليد الحكم وأن يوقعوا بين سلاطين الجزيرة وأمرء القرون الوسطى ومنهم الكرانو القابعون على المرتفعات فى قصورهم المحصنة وأصبح القادمون الجدد سادة لأراضى الأرخبيل بكافة جزره منذ أن تمكنوا من طرد البرتغاليين من جزيرة ملقا عام ١٦٤١ وتحققت لهم وقتئذ السيطرة على طريقين ملاحيين من أطول وأهم الطرق الملاحية: طريق مضيق سلفابين سومطره والساحل الماليزى غربا ودولة سيام والهند. وطريق مضيق السوند بين جزيرة جاوه وسومطرة، المدخل الرئيسى للسفن الشراعية الكبرى القادمة رأسا من رأس الرجاء الصالح دون الاضطرار إلى إلقاء مراسيها فى الموانئ الهندية وكانت هذه السفن تعود إدراجها متجه إلى أوروبا بحمولاتها الثمينة. وأدى تنافس السفن الإنجليزية أن أسرع الهولنديون إلى تأسيس الشركة الهولندية للهند الشرقية عام ١٦٠٢ التى ظلت أمدا بعيدا من الزمان أروع أعمال الرأسمالية الغربية حتى إخفاقات ١٧٩٨ المزرية وذلك بسبب الاختلاسات

(١) الأسم القديم لجاكارتا عاصمة أندونيسيا

وضخامة ما أهدر المهيمنون على أمور الشركة وأنشطتها، وذلك بالإضافة إلى أخطاء كثيرة وقعت يومئذ كذلك ساهمت ظروف سياسية استثنائية في التعجل باحتلال الإنجليز للأراضي الهندية التي كان الهولنديون يسيطرون عليها، وجاء احتلال الإنجليز زمنًا ثم عادت هذه الأراضي بعدها عام ١٨١٦ إلى أيدي هولندا فتعمدت إلى إرساء قواعد نظام منهجي للسيطرة من جديد على جزر الأرخبيل دام حتى ٢٨ فبراير ١٩٤٢ حين نزلت القوات اليابانية على سواحل أندونيسيا، ثم إنهار هذا النظام النموذجي بعد هزيمة اليابان عام ١٩٤٥ وقيام أعضاء حركة القوميين في أندونيسيا إذ تعاونوا مع الغزاة ودخلوا كذلك في صراعات معهم فانطلقوا بقيادة الرئيس سوكارنو إلى إعلان استقلال بلادهم بين موجات الفرح والحماس الشعبي الجارف في ٧ أغسطس ١٩٤٥، ثم نزلت بعد ذلك بشهر أي في ٢٨ سبتمبر قوات الحلفاء على شواطئ جزيرة باتافيا (بثاوة) وكانت من الإنجليز والهنود حيث وجدت جدران المدينة غاصة بالعبارات المعادية للهولنديين . وكانت ردود أفعال الهولنديين مقبجة وهي ترى جهودها في تأسيس نظام للبلاد محكم نموذجي ينهار، وجهودها تذهب أدراج الرياح، وتهب عاصفة مأساوية بانحسار الاستعمار عن هذه الجزر- عاصرت فرنسا شبيها لها مؤخرًا- فإذا كان المستعمرون قد نجحوا بسهولة في احتلال الجزر قليلة السكان في سيليبس وبورتو وبريجاز فيما سمي بأندونيسيا الفارغة فقد واجهوا واصطدموا من أهل جزيرة سومطرة وجزيرة جاوة.. بمعارضة عاتية ذلك أن قوات جيش الاحتلال القديم كانت قد اتخذت قرارا مسبقا إلى جانب المتمردين فقام رجال العصابات بشل حركة القوات الهولندية وأبطال أثر نجاحهم الذي حققوه حول المدن الكبيرة وتصاعدت المشاكل إثر العملية الكبيرة التي سميت بمعركة الشرطة التي بدأت يوم ٢١ يوليو ١٩٤٧ وبدأ اقتحام هذه المشاكل صعبا ولا سبيل إلى التغلب عليها. كما كان أن تفاقم المجاعات التي يعجز المرء عن وصفها إثر حصار مواقع التمرد في جزيرة (جاوة) وهكذا بدأ التدخل الهندي مع قوات من أستراليا والولايات المتحدة الأمريكية، وفي ١٧ فبراير ١٩٤٨ أمكن التوصل إلى اتفاق «ناقص» قامت على إثره شرطة جديدة لم يقدر لها النجاح كسابقتها، وفي ٢٧

ديسمبر ١٩٤٩ وفى مدينة لاهاي الهولندية تضطر ملكة هولندا إلى إعلان تنازلها عن السيادة على أراضي الهند الهولندية السابقة ويرتفع العلم ذو اللونين الأبيض والأحمر علم أندونيسيا فى مدينة بتاوة التى أصبح اسمها جاكارتا (العاصمة) وينزل العلم الهولندى عن ساريتته.

هذه التفاصيل الأليمة التى تلخص أحد الصراعات الدرامية المعقدة لا شك لها أهميتها لفهم الأمور فى أندونيسيا اليوم فهى لم تخرج بعد من مشاكلها بل تعيشها إلى اليوم ولا يزال الحقد على الهولنديين ومشاعر الضغينة ضدهم يستغل كثيرا لصرف الأنظار عن مشاكل أندونيسيا الحقيقية .. ويبدو أن كره الهولنديين ضرورة لازمة تحتاج إليها الجمهورية الأندونيسية الوليدة لتأجيج المشاعر فى صراعها على جزيرة ايربان (غينيا الهولندية الجديدة) فهى تمثل آخر قطعة أرض من أراضي أندونيسيا يقيم سادة الأمس فوقها ويتمسكون بها تمسكا تحكيميا تعسفيا فهى جزيرة برية متوحشة بدائية إلا أن ثرواتها بلا حدود ولا شك أنها فوق قدرة هولندا الاحتفاظ بها وكذلك قدرة أندونيسيا ذاتها، أما سكانها وهم بدائيون منهم البابوازيون^(١) لا تميزهم سمات مشتركة سواء مع الهولنديين ولا مع سكان أندونيسا ذاتها... ولكن من ذا الذى يعير ذلك انتباها...؟

فإن جزر الأرخبيل تعج بمختلف الجذور الأصلية والعقائد الدينية والثقافات، ومستويات المعيشة وتتجاوز السمات الجغرافية فيما بينها فى واحدة من أكثر الحضارات امتزجا، ففي كل الجزر حتى جزيرة جاوة سكان بدائيون لا يزالون يعيشون العصر الحجري مع اختلاف جذور أسلافهم، ففي جاوة تجد ثلاثة جذور هى: الماليزية والسوندانية والمادورائية أى الجاويين الأصليين، أما فى سومطرة فنجد الماليزيين والمينا ثيجانوس وهم سلاسة شديدة الغرابة، ثم البانكاس الإشواه هذا فضلا عن ذرية التجار الصينيين المكروهين ولا غناء عنهم فى الوقت نفسه فهم جامعوا البضائع يقرضوا الأموال والمرابون، وكذلك يقومون بأدوار الباعة الطفيليين الذين لا يستغنى عنهم ويستندون منذ ١٩٤٨ فى بقائهم على نفوذ الصين الشيوعية... عديد من الشعوب وعديد من اللغات واللهجات والألسن،

(١) اسم أطلقه الفرنسيون على غينيا الجديدة وأراضي بابوا جنوب شرق فينيا الجديدة، وهى أراضي كانت محمية من ممتلكات استراليا وحصلت على الحكم الذاتى عام ١٩٧٣.

وكانت الضرورة تحتم توافر لغة مشتركة للتفاهم بين هذه العوالم التى تعيش منفصلة بحواجز وقامت بذور هذه اللغة منذ القرن السادس عشر بل مثل ذلك لا شك أحد يعيد لغة الملايو البولينية والأفضل تسميتها باللغة الماليزية ومنها اشتقت اللغة الأندونيسية «بهازا أندونيسيا» صارت لغة الوطنيين قبل أن تصير اللغة الرسمية فى الجمهورية الوليدة وكان لا بد من استخدام هذه اللغة فى كافة الشئون وفى المهام العلمية خاصة. ثم ماذا عسى أن يقال فى هذه اللجنة المؤلفة من خبراء المصطلحات اللغوية التى عمدت وبضربة واحدة... إلى ادماج ٣٧٧٩٥ مصطلحا جديدا لتضاف إليها...؟ ومهما قيل فى هذه اللغة الجديدة فليس يمكن مقارنتها ومقارنة دورها بدور اللغة الهندية فى الهند حيث لا تزال تلعب دورها إلى جانب الإنجليزية الشائعة فى كثير من الطبقات ولم تكن للغة الهولندية هذه المكانة فى ربوع الأراضى الأندونيسية لعدة أسباب منها أن هولنديى الأمس أساسا لم يهتموا بتنمية تعليم التقنيات الحديثة ماعدا بعض الحالات المتأخرة، وكما قال واحد من خبراء الاقتصاد: أراد الهولنديون أن يفرضوا سيادتهم ونفوذهم على أساس جهل الأهالى الوطنيين وبمساعدتهم اللغة الهولندية لو كانت استعملت على التقليل من المهرة التى تفضل الأسفل والأعلى وتعالج هذا التنوع اللغوى وكذا تنوع الثقافات بل وفوضى الثقافات المختلفة المتباينة، لذا مرت بالعقائد الدينية الكبرى مغامرات غريبة فلم تستطع منفردة تحقيق أى نجاح إذ كان عليها أن تتعايش جنبا إلى جنب مع المعتقدات الشعبية التى تطوقها وتحاصرها إلى جوار ديانة كبرى منافسة. نجد على سبيل المثال سكان قرية تبعد عن جاكرتا ٢٥ كيلو مترا فى حوار مع الرحالة الأوروبيين... قائلين كلنا هنا مسلمون والقائل كارجوديكرو هو أحد القرويين قالها بغير تردد فيجيئه الرد.. إذن لماذا تتحدثون عن أربابكم.. ومبلغ علمى أن المسلمين لا يؤمنوا إلا بإله واحد.. ويحرج القروى أیما إحراج ويسارع أبوه إلى إنقاذه من ورطته فيقول بصوت هادئ: نحن لا نستطيع أهمال الأرباب الأخرى فهم يستطيعوا إفادتنا أو الإضرار بنا فأرزننا متعلق برضاء ديقى شرى زوجة فيشنو (تیبور منذ) وليس فى البلاد مسجدا واحدا والقرويون المسلمون يقدمون الفاكهة والمشروبات المنعشة على مذبح هيكل ديقى شرى التى تطرد الأرواح الشريرة

وينصبون فى أراضيهم الزراعية هذه الآلات «النأى» من غاب البامبو فتصغر من ملامسة الرياح.. ومن عاداتهم التقطيع فى صمت وبلا صوت إلا أنى أنى وهو الشفرة الصغيرة التى يخفيها الفلاح الذى يعمل بالحصاد فيقوم بالتقطيع المطلوب لسيقان الأرز بسرعة وفى هدوء وصمت حتى لا تطير الأرواح الطيبة.

ونفس الملاحظات يمكن حصرها فى الجزيرة الرائعة.. جزيرة بالى حيث يحافظ حتى اليوم (ولا أحد يدرى إلى متى) على ميراث الإمبراطورية الكبرى الهندية الجاوية ومعتقداتها الهندوسية فالموتى تحرق أجسادهم لتتمكن أرواحهم من اكتساب النور السماوى.. حصيلة من المعتقدات القديمة الإحيائية (المؤمنة بمذهب حيوية المادة والاعتقاد بأن النفس هى مبدأ الفكر والحياة العضوية) وكذلك الطقوس الحية لأسلاف الأقدمين.. كلها لا زالت ماثلة مسيطرة على أفكار الناس.

وليس من السهل إيجاد نوع من الوحدة أو التوحد لهذه الشعوب ولم يعد كره الهولنديين كافيا لكل المشاكل كما أن تنمية وتقديم اقتصاد بدائى بائس فقير ليس بالأمر البسيط خصوصا بين سكان أغلبهم من الفلاحين القادرين على تحمل المشاق. وكان من أكبر خدمات الاستعمار الهولندى أنه لم يسمح أبدا بوجود إقطاعيات زراعية كبرى بل سمح بملكيات زراعية صغيرة ولذلك لم يضطر نظام الحكم فى الجمهورية الأندونيسية الوليدة إلى مواجهة مشاكل الإقطاعيات الزراعية الكبرى وصعوبة توزيعها أو التخوف من نشوء انفجار زراعى.. فالمزارعون الفلاحون فى القرى ينفون عند خط فقر واحد..

هم فى الواقع على المدى البعيد تعساء وأسرى إنتاجية تقيم الأود أو تكاد من زراعة الأرز على حساب زراعات غذائية أخرى كالقمح والبقول كالقلقاس ونخيل النشاء أساسيات التغذية السليمة كما أن تربية المواشى وقف على أعمال الحرث ونقل المعدات والمحاصيل أما تناول اللحوم فشبه منعدم بل وشبه مجهول تماما وطعام الأسماك متواضع جدا وباختصار فإن اقتصاد هذه البلاد يظل على هامش السوق حيث المبيعات البسيطة من مقدار كمية قليل من الأرز وقطعة من قماش ولعبة مصنوعة فى المنزل. وفى المدن الفرص لكسب من المال الزهيد لمشتريات

أزهد بما فيها من سجناء رخيص طباقها معبأ برائحة القرنفل فى شكل مخروطى طويلة (كالأقماع) أما الصناعة فمازالت مبتدئة باستثناء المنشآت البترولية ومزارع الكاوتشوك ومنتجاته من المواد الخام ومناجم الفحم والقصدير وأغلبها فى سومطرة أو فى بانكا أو بيليتون، أما خام القصدير بأشراف الشركات الإنجليزية الأمريكية - فيقال إن سوكارنو أهمها مؤخرًا - وعلى كل حال فإن الأنشطة الصناعية سواء كانت أوروبية أو صينية أو وطنية تظل بعيدة عن مساهمة النمو الاقتصادى لأندونيسيا وفى ذات الوقت فإن المنتجات الكبيرة المعدة للتصدير كالكاوتشوك والبن والتبغ والكوبرا (وهو لب النارجيل يعصر منه دهن النارجيل) والسكر وهى محاصيل نماها الهولنديون على حساب المنتجات الزراعية التى تحتاج إليها معيشة السكان. هذه المحاصيل التى كانت تمثل ثروات تصديرية كبرى لم تعد اليوم كما كانت بالأمس منذ قطع الاتصالات بهولندا ومع ذلك فإن هذه المواد الأولية كالكاوتش والبترو والقصدير هى التى تألف منها حصيلة صادرات الأرخبيل فلا زالت مع أنها مستغلة لتفادى الموقف الذى تفقه البلاد المستعمرة تحت رحمة تقلبات السوق الدولية الخطيرة، وكان لتوقف الحرب الكورية ارتفاع أسعار المواد الأولية عام ١٩٥١ آثار مدمرة على ميزانية أندونيسيا صاحبها تضخم نقدى سريع وتضاعف ديموجرافى رهيب فى عدد السكان بمعدل مليون نسمة كل عام ولا تزال الحالة فى تدهور مستمر، وتقع جزيرة جاوة فريسة لأزمة طاحنة حيث لا تتمكن من استيراد الأرز من الخارج بكميات كبيرة بالإضافة إلى نقصان الشخوص المؤهلة لإدارة الأعمال وتكاثر الإدارات البيروقراطية وانعدام الأمن وتنامي قوة الجيش بشكل غير نظامى.. فهل يمكن استعارة جملة قائلها سياسى من رجال المعارضة الأندونيسية يصف فيها الحالة السائدة يقول: نحن نعيش زمن الشعارات والحركات الفكرية والحملات المسرحية التى تشبه ما يحدث فى إيران.. فليس هناك خطط على أسس منهجية سليمة.. تلك الخطط ذات الضرورة القصوى ولا شك أن مشاعر الناس بالحرية التى حصلت عليها البلاد والسعادة التى تغمر الجميع تداعيا لتلك الحرية لم تترك للجماهير ضرورة الالتزام ببذل جهود كبيرة لحل المشاكل التى تعانىها أندونيسيا بالإضافة

إلى ما يؤرقها خاصا بوحدة أندونيسيا نفسها ويجب تحقيقها. فماذا تعنى الوحدة الملاحية دون بحرية وطنية؟ أو افتقاد طيران قومي وطني؟ أما كثافة سكان جاوة على سبيل المثال فيضعها فى بوتقة نظام شمسي نادر فقد كان عدد سكانها خمسة ملايين عام ١٨١٥ ارتفع إلى ٥٠ مليوناً عام ١٩٤٥ ثم إلى ٦٠ مليوناً عام ١٩٦٢ ويتجمع فوق أراضيها ثلثا سكان أندونيسيا وفيها ثلاثة أرباع موارد البلاد كلها.

ولم يعد هناك مجال لاكتساب مساحات من الأراضي من الغابات التى تقلصت إلى الحد الأدنى.. والانتقال إلى مكان آخر. معناه تخطى الحاجز الحرج، ففي جزيرة اسبيرانس التى أصبح اسمها سومطره ثلاثون نسمة لكل كيلو متر مربع (٤٠٠) إنسان لكل كيلو متر مربع فى جزيرة جاوة) كما تتمتع سومطره بمواردها المعدنية وأراضيها الوفيرة وهى ليست أراضي غنية كأراضي جاوة وتحتاج إلى إصلاحات لايقدر عليها جماعة الفلاحين الفقراء.

وتتفشى المركزية فى جاوة مغذية حركات انفصالية قوية رغم وجود حركات تنادى بنظام فيديرالى فعال. وخلال السنوات الأخيرة تصاعدت انتفاضات الانفصاليين بشكل سريع منها: حركة جمهورية المولوك فى إمبوان، وحركة دار السلام غرب جزيرة سومطرة وحركة بانسودان فى جاوة، وحركة دكتوراهات فى منطقة بادانج، وفى سومطره، حركة انشقاق الكولونيالات فى جزيرة سيليبس وآخر هؤلاء الكولونيالات مسيو سمبولون الذى استسلم فى ٢٧ يوليو ١٩٦١. كما تواجه البلاد صعوبات أخرى حيث اتضحت ضرورة وضع حد لحرية الأحزاب الشيوعية والأحزاب الاشتراكية وحركات المسلمين الأحرار السوكار (نسبة إلى الرئيس سوكانو) تطفو على السطح كأنها الحزب الوحيد وبرنامج وأهدافه تحقيق ديمقراطية موجهة رشيدة، إذا ما وضعنا جانباً هذه الحريات وهؤلاء الرجال خارج الملعب.. المعفى عنهم.. هذا صحيح إلا أنهم يظلوا «مباعدين».. كل شيء يدفع «الرجل القوى، يانج كارتو أى الرجل الأخ كارتو (سوكارنو) إلى اتخاذ موقف سياسى مسرحى (شكلى) وهكذا رأينا بالأمس خلال مؤتمر عدم الإنحياز للبلاد المحايدة من بلاد العالم الثالث عقد مؤتمره فى عناية ملحوظة فى باندونج عام ١٩٥٥... رأينا سوكارنو كيف يستमित صارخا ومطالباً باستعادة غينيا

الهولندية.. جزيرة إيربان وما هذه المطالبة.. وبهذه الصورة إلا ضرورية لإزكاء الشعور الوطنى وقد تتخذ سندا لحكومة ليس أمامها سوى حتمية مواجهة مشاكل جمة ثقيلة على كافة الأصعدة وفى جميع مجالات الحياة.. وهو ما سوف تواجهه حتما خلال السنوات القادمة.. مشاكل.. فى الحقيقة.. كئيبة.. كريهة.

٣ - الفلبينيين

بلاد لا تستثنى من مجموعة القواعد والأوضاع التى تحكم جنوب شرق القارة الآسيوية فقد كانت هذه الجزر ملتقى مثيرا للدهشة والذهول، فسكانها منذ عصر السياسة الحديثة الـ(نيوبوليتيك) وصناعة الحديد معروفة من قبل عصرنا الحالى فى جزر الأرخبيل كلها منذ القرن الخامس قبل الميلاد وهى تطفو فى بحار تضم شبكة الحضارة المشتركة الهندية الماليزية التى تسطع أضواؤها بداية من جزيرة جاوة وقد بدأ اندماجها منذ أشرقت إمبراطورية المادجابهيت ثم وصلت إليها من جهة أخرى حركة التجارة القادمة من الصين فى وقت مبكر جدا مما أدى إلى تكوين طبقة من التجار والبحارة سادت فى كل الأمور ونجدها دائما فى المقدمة ويخضع لنفوذها فلاحو الجزر وهم رقيق الأرض.

وينزع الإسلام فى القرن الخامس عشر فى جزيرة ماندانا الكبرى ويكتشف الأسبان فى القرن السادس عشر جزر الأرخبيل إثر رحلات ماجلان^(١) وانتهت حياته هناك عام ١٥٢١، ثم استقر مقام الأسبان بعد ذلك فى جزيرة لوسون عام ١٥٦٥ وبه إحدى أكبر جزر الشمال وبدأت المسيحية تعاود صراعها الدائم ضد الكفار الموروس.

وظلت الجزر تحت التبعية الأسبانية رغم كثير من الثورات وانتفاضات التمرد والعصيان لسوء معاملة أسياد مانىلا وحكامها وظلت خاضعة لأسبانيا حتى عام ١٨٩٨ وإذا بحركة تمرد عارمة تنتشب داخلها فجأة فيدخل على أثرها أسطول الولايات المتحدة الأمريكية ولم تحصل الجزر على استقلالها فورا ولكنها وضعت تحت سلطة الولايات المتحدة الأمريكية (معاهدة باريس فى ١٠ ديسمبر ١٨٩٨)

(١) فرناندو ماجلان رحالة برتغالى ولد عام ١٤٨٠ اكتشف مضيقا حمل اسمه عام ١٥٢٠ وقتل فى جزر الفلبين عام ١٥٢١.

على أثر انتهاء الحرب بين أسبانيا وأمريكا ما أثار حفيظة الوطنيين الفلبينيين وعمد الرئيس الأمريكى وليام ماكينلى^(١) فى محاول لتهدئة ضميره مع تهدئة نفوس سكان الفلبينيين فتبنى مشروعا لتعليم أهالى الفلبينيين وتثقيفهم وتهديتهم للحضارة ليصبحوا العرجاك الذين صلب المسيح وعذب من أجلهم.. كان ذلك شعاره الذى أطلقه .

وفى عام ١٩٤٦ فقط نالت الجزر استقلالها نظريا على الأقل وعدد سكانها بعد ماضى متقلب غير مستقر ٢٥ مليون نسمة، وهو كثير جدا، ويزداد بمعدل ٧٠٠ ألف نسمة سنويا على مساحة أرض لا تتجاوز ٣٠٠ ألف كيلومتر مربع أى أكثر قليلا من نصف مساحة فرنسا والسكان هناك خليط مهجن من جذور ماليزية نسبتهم ٩٥ ٪ مع عدة جذور وأسلاف متباينة يضاف إليهم ما يقرب من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ألف بدائى يصعب تصديفهم، ومائتى ألف صينى مهاجر فضلا عن أقلية من الليجر يتوس تبلغ ٧٠ ألفا سلالة من ذوى البشرة السوداء. وإجمالا فإن فى الفلبين ٢٠ مليون مسيحى كاثوليكي ومليونى كاثوليكي من المنشقين (الأجليبا يانين) نسبة إلى مؤسس مذهبهم القسيس القديم أجليبا وهو الذى قام بثورة ١٨٩٨، كما أن من بين سكانها ٥٠٠ ألف مسيحى بروتستانى ومليونى مسلم ونصف مليون وثلى، ونضيف فنقول إن اللغة الإنجليزية حلت فجأة محل اللغة الأسبانية التى ظلت لغة الأسر القديمة فضلا عن لغة التاجال وهى لهجة عامية محلية ماليزية الجذور أبقى عليها احتراما للمتحدثين بها وعديد من اللهجات الشعبية.. كلها منتشرة بين أجناس وشعوب وسكان نصفهم.. على الأقل من الأميين.

أما البلاد فهى فقيرة بل بائسة ومن القرويين أساسا وكان طبيعياً أن ترتفع الملكيات الكبرى على حساب الفلاج الصغير المعدم تقريبا أو كما وصف الوضع مراقب أمريكى (برازيتو فيودال):

«إنه إقطاع طفيلى تفشل إزائه كل محاولة للإصلاح الزراعى بمعونة من الخارج حيث لا يتداول المال إلا فى مدينة مانिला وحيث لاتعرف سائر البلاد سوى

(١) حكم رئيسا لامريكا من (١٨٤٣ - ١٩٠١) وكانت له نزعة امبراطورية وقد اغتاله أحد الفوضيين.

التروك^(١)، وقد أدى فقر الفلاحين إلى قيام ثورة شيوعية شبتها جماعة الباكس، وهم جماعة المتقدمين أيام الاحتلال الياباني وقامت السلطات عليهم بحملات قمع واعتقال بعد التحرير ولكن النار كما يقول، المثل الصيني: كامنة تحت الرماد. وتراود حلول فيديل كاسترو في كوبا أحلام وخيالات.. حيث لا تحظى مع المعونة الأمريكية ولا الاحتلال أو الإشراف من بعيد بشيء ولا يحدث فيها تقدم يذكر ما دامت نسبة الزيادة السكانية ثلثهم.. ومسبقا.. التحسينات الزهيدة التي أمكن الوصول إليها!!!

٤ - كوريا

لعبت كوريا بالأمس منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٣ دوراً مأساوياً كانت ولا زالت ضحيته، ذلك أن الحرب الكورية كانت في الواقع حرب القوى العظمى وكانت معركة رهيبة دامية بين الشرق والغرب، كان واضحاً خلال الحرب العالمية الثانية وفي مؤتمر بالتا المنعقد في فبراير ١٩٤٥ ثم في موسكو بعد ذلك في ديسمبر من العام نفسه أن استقلال كوريا أمر مسلم به حيث حررت القوات السوفيتية الشمال وحررت القوات الأمريكية القادمة من اليابان الجنوب، ولم يكن يفصل بين القوتين المحتلتين سوى خط عرض ٣٨ شمالاً، وعلى الرغم من تدخل الأمم المتحدة فقد ظلت الأراضي الكورية مقسمة تقسيماً تعسفياً وظهرت في الجنوب دولة كوريا الديمقراطية المستقلة في ١٥ أغسطس ١٩٤٨، كما نشأت في الشمال جمهورية ديمقراطية ذات انتماء شيوعي. وفي عام ١٩٥٠ قامت قوات كوريا الشمالية الشيوعية باجتياح أراضي كوريا الجنوبية تلاه رد فعل عنيف مسلح من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، وإلى جانب الكوريين الشيوعيين جاء التدخل الصيني التطوعي ليقم توازناً بين القوتين، ثم انعقدت هدنة في يوليو ١٩٥٣ تقر بأن خط عرض ٣٨ درجة بمنزلة حدود للدولتين إلا أن هذا الخط وهذه التجزئة لم تسهل الحياة لافى الشمال ولا فى الجنوب حيث كانت تجزئة غريبة غير معقولة.

(١) نظام المقايضة القديم.

الجغرافيا أولاً:

كانت كوريا ضحية موقعها الاستراتيجي بين الأرخبيل الياباني وإقليم منشوريا وسيبيريا والصين.. حيث كانت تمثل المخاطر التي تتهدد دول الجوار الصغيرة للدول الكبيرة التي اعتقدت أن كل شيء مسموح به لها اليوم كما كان الحال بالأمس. وتبلغ مساحة الأراضي الكورية مائتي ألف كيلو متر مربع أغلبها في اتجاه شمالي جنوبي من شبه جزيرة يفصلها عن منشوريا وديان نهر يالو الضيقة ونهر تومين حيث يجريان بالتوازي على جبالها العالية التي يغلب عليها اللون الأبيض وكانا في الواقع الحاجز الذي حماها بل خلق استقلالها خلقاً من خط عرض ٤٣ حتى خط عرض ٣٤ درجة توازيا فإن كوريا تشبه المد طولها من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ كيلو متر يبدو للوهلة الأولى أشبه بشبه جزيرة إيدناليا.

ويشاء خطها التعس أن تكون طريقاً طبيعياً تماماً كإيطاليا إذ ترى الصين في هذا الطريق باباً من أبوابها تجب مراقبته كما ترى على الأسلوب نفسه التركستان أوفيتنام الشمالية على حين تقف اليابان قابضة في بحارها حيث لا تملك سواء بالتراخي أو بالقوة مدخلا تجاه هذا الحاجز الذي يبدو وكأن الجغرافيا أبعدت جزرها بعيداً عنه فإذا ما شعرت اليابان بأى رياح تهب تهددها أو شعرت بقوتها أو بهما معا فقد كان على كوريا أن تتحمل صدمات رد الفعل. وقد تحملتها بالفعل أكثر من مرة منذ الحملات الفاشلة التي قادها هايد يوشى من عام ١٥٩٢ حتى عام ١٥٩٨ للاستيلاء على شبه الجزيرة حتى كان النصر الذي حققه اليابانيون واستقروا على أثره في شبه الجزيرة الكورية محتلين إياها من عام ١٩١٠ حتى عام ١٩٤٥.

وتكمن ذروة مآسى كوريا كذلك عندما تتطلع روسيا إلى أراضيها فتري فيها المخرج من حصار الثلوج لميناء قلاديفوستك حيث يتجمد بحر اليابان فلا مفر من ثم أمامها من النظر إلى الجنوب.. إلى خط عرض ٣٨ درجة وقد حدث بالفعل في بداية القرن أن حالف روسيا القيصرية إلى الإهتمام بهذا الطريق الحاسم وكان امبراطور كوريا يسارع إلى اللجوء إلى مبنى السفارة الروسية عند أول بادرة تهديد من جانب اليابانيين، والبلاد فقيرة يسودها مناخ بارد على رغم ما فيها من ثقل

الأرز إلى ما وراء سيول، وتغطي أشجار الخيزران مساحات شاسعة من غاباتها الصنوبرية ولا تتمتع كوريا بسواحل ولاوديان إلا نحو الغرب والجنوب وهذه الوديان لا توفر الغذاء الكافى لواحد وثلاثين مليوناً من السكان أى بنسبة تجاوز ١٤٠ للكيلومتر المربع. أما الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة فينغمس عميقاً فى البحر ممتداً بسلسلة من الجزر أشهرها جزيرة تسوشيما التى تفصل مضيق كوريا إلى جزئين وتبلغ المسافة بين شبه الجزيرة واليابان أكثر قليلاً من ١٠٠ كيلو متر فى خط مستقيم، وتقع كوريا على بعد ٥٠٠ كيلو متر من مصب نهريان تسيه كيانج. وهكذا تعيش كوريا مغمورة فى عمق البحر ولا يقتصر شعبها على الفلاحين الذين يعيشون على محاصيل زراعاتهم وغاباتهم ومناجمهم بل هو شعب من الصيادين والبحارة الملاحين والتجار وكانت منذ عصر باكر قد أرست قواعد لعلاقات واتصالات مثمرة مع الصين واليابان وكانت همزة الوصل منذ العصر الوسيط بين الصين الجنوبية التى ترد إليها قوافل التجار العرب وتجارة فارس فى مناطق الشمال، ومن حيث هى «معبر» أو طريق عبور كانت بلاد النازحين المهاجرين والتجار. وهى شبه جزيرة منغلقة بإرادتها على نفسها ولكنها منفتحة طوعاً أو كرهاً على العالم الخارجى.. الذى تغذت منه بالثقافة. وفى تاريخ الممالك الثلاث البعيدة بين (القرن الأول ق.م) والقرن الخامس بعد الميلاد ما كان فى هذا الزمان من غزو الحضارة الصينية لهذه البلاد.. أما هذه الممالك الثلاث التى ظهرت تباعاً على مدى أقل من خمسين عاماً فى مملكة سيلا عام ٥٧ ق.م. ومملكة كولو ريو عام ٣٧ ق.م. ومملكة بابكيش الهشة التى لم تدم طويلاً التى ساندتها اليابان. وفى عام ١٨ قبل الميلاد حاصرت هذه الممالك بعضها بعضاً ولكن سرعان ما انتهت الحضارة الصينية واحدة تلو أخرى فاستقرت العقائد البوذية أولاً فى كولوريو ثم فى بابكيش عام ٣٨٤ وأخيراً فى سيلا عام ٥٢٧ وكانت سيلا هذه أقدم قدماً إذ سيطرت على الآخرين، ومنذ عام ٦٦٨ حتى عام ٩٣٥ استطاعت ترض سيطرتها على كوريا جميعاً وتمتعت هذه المملكة النامية بازدهار تجارى ملحوظ فى عهد سطوع نجم إمبراطورية التانج فى الصين من ٦١٨ إلى ٩٠٧ وعاشت فى أحضان ما كانت تشعه هذه الإمبراطورية من أضواء

باهرة، ثم عادت نزعة وحدة الأراضي الكورية تتمحور وبعد تفكك مملكة سيلا الكبرى وحول دولة جديدة هي مملكة كوريو ومنها اشتق اسم كوريا وعندئذ عرفت الحضارة الكورية نوعاً من الازدهار بفضل نماء حركة الطباعة التي اخترعتها الصين في القرن التاسع، وإن الكوريين هم الذين اكتشفوا عام ١٢٣٤ حروف الطباعة المعدنية وعندئذ بدأت العقيدة البوذية تنتشر بين المثقفين بين الكتل الشعبية معاً بتقبل الشكل المبسط دتشلن بالصينية.

وتزين باليابانية ثم استقرت بل ازدهرت العقيدة الكونفوشية وبدأ ظهور التماثيل من الحديد المنصهر ثم ظهرت كذلك تماثيل من البرنيق^(١) الصيني المجفف ومن السيراميك - أى الخزف الفخارى البراق - حيث يلاحظه الذوق الكورى التقليدى فى فنون الصياغة وكان هذا الازدهار فى الفنون انطلاقة عامة سادت بلاد الشرق الأدنى إذ كانت كوريا مثلاً بمعزل عن نوبات الإحصار التى تنطلق بها جماعات من قبائل متوحشة فى الأراضي الصينية (برير) إلا أنهم لم يمسوا شعوبها إلا مساً يسيراً، ولكن حين عصر المغول التى حاولت ونجحت فى فتح كل أبوابها عصر امبراطورية الوسط^(٢) وفشلت ضد اليابان ونجحت ضد كوريا التى اجتاحتها من عام ١٢٥٩ حتى ١٣٦٨ على مدى قرن من الزمان أو أكثر قليلاً. ولما استردت استقلالها تولى آخر سلالاتها الحكم.. سلالة اليبى التى دامت حتى الاحتلال اليابانى عام ١٩١٠ إلا فى سنوات صاخبة فيما بين عام ١٥٩٢ وعام ١٦٣٥ حيث كانت الأراضي الكورية فى هذه الفترة قد تعرضت لغزوات حكام من سلالة الصين المنبج، ومن جانب اليابان العدوانية واستمر عصر سلالة اليبى مثمراً زمناً بفضل استتباب السلام والاستقلال وكان من أبرز سمات هذه القرون ميلاد طبقة وسطى وبالتالى انبثاق حضارة قدر لها أن تستمد جزءاً من مطامحها التى يفيض بها خيالها الشعبى وقد ساعدت نظم الكتابة الجديدة (الصينية حتى ذلك الوقت) على نشأة نمط من الثقافة الشعبية إذ كانت الكتابة بالصينية قاصرة على المثقفين دون سواهم وترجمت قصص وروايات إلى اللغة الكورية واستطاعت طبقة شعبية

(١) برنيق صيغة مصنوعة من بذر الكتان تدهن به المصورت.

(٢) اسم أطلق على الصين قديماً باعتبارها منتصف الكون.

جديدة المساهمة والمشاركة فى إرساء قواعد نهضة ثقافية. وفى القرن الثامن عشر تبلورت تلك النهضة بفترة شبيهة بعصر التنوير ومع ذلك فقد استقرت فى الطبقة العليا من المجتمع الكورى حضارة أرسقراطية ثمينة تتميز بانتصار نوع جديد من العقيدة الكونفوشية تنطلق من اتجاه عقلانى واضح ومن اتجاه نابع من آراء المذهب الرواقى للفيلسوف الإغريقى زينون من حيث قولها إن كل شىء فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى ويتقبل أفعال القدر طوعا. وهكذا استقرت الشعائر الأسرية والمعنويات الخلفية التى أصبحت أساس المبدأ الكونفوشى الجديد ومازال أهل كوريا وحتى اليوم ورغم مما يعانون من شقاء ومآسى من أخلص أتباع هذا المذهب بدون شك.

واليوم

ليس من السهل فى زماننا هذا التحدث بعقلانية عن أى شىء فمن بلاد هياتها الطبيعية وأعدتها للوحدة كما وحدها التاريخ عبر قرون فإن الوضع الحالى للأسف قد جعل منها قطرين منفصلين وقوتين عدوتين يتربص كل منهما بالآخر.. شقيقان يتصارعان فلم تعد العاصمة القديمة هان يانج باسمها المؤلف سيدويل بمعنى العاصمة وهى فى أراضى كوريا الجنوبية تستحوذ أو تمتلك حرية توفير ضرورات كيائها الأساسى ولكى تقرب الوضع للأذهان فإننا ندعو إلى مجرد التفكير عما سيكون عليه الأمر لو قسمنا إيطاليا إلى جزئين وحررنا روما من الطريق المؤدى إلى أنسون حيث يهيمن الجزء الشمالى على صناعات الصلب والمعادن والكهرباء وللجنوب الأرز والأملاك العقارية الكبيرة.. والبحر الواسع... كوريا اليوم دميّتان اثنتان لا تتحركان فلقد أهملنا على كل حال منذ عام ١٩٥٣ .. ولم تعودا تتحركان إلا إذا جذب أحد خيوطيهما.

حاشية

خلال الأعوام الأخيرة كانت أندونيسيا محط الأنظار وبضغوط من الولايات المتحدة الأمريكية غادرت هولندا الأراضى الأندونيسية فى ٣٠ أبريل ١٩٦٣ وكذلك غينيا الغربية الجديدة وجزيرة إيريان وكانوا قد حاولوا الدفاع عنها بقوة السلاح طبقا للقانون الدولى. واعتقدت الولايات المتحدة بذلك التدخل أنها اكتسبت

ود دولة محايدة وعطفها، وكانت عن طريق الأمم المتحدة قد ساهمت كثيرا في مساعدتها وتحظيهم بمعاونتها... وتفشل كل هذه الجهود بسبب إقامة دولة جديدة باسم ماليزيا تحت رعاية بريطانيا وفي كنفها وهي دولة ماليزيا (اتحاد ماليزيا) وشمال يورتيو وساراواك وسنغافورة الفيدرالى فى ٨ يوليو ١٩٦٣، وفى ١٦ سبتمبر من العام نفسه تهب المظاهرات العدائية ضد بريطانيا فى جاكرتا وتبدأ سياسة المواجهة من جانب ماليزيا ويعلن الرئيس سوكارنو قبول المواجهة وتجرى زيارة ميكويان ٢٢ يونية - ٢ يوليو ١٩٦٤ والاشتراك فى الحكومة من جانب الحزب الشيوعى المتعاطف مع الصين لتزداد الأمور تدهورا ويتضح منذ أغسطس ١٩٦٤ أن تغييرا كبيرا يلوح فى الأفق.. وأخيرا تعلن أندونيسيا انسحابها من الأمم المتحدة بموافقة ووليعاز من الصين ومن كوريا الجنوبية والتهديد بإنشاء أمم متحدة ثورية، وتعلن أندونيسيا عن أنها تخطط لتصبح ديمقراطية وطنية إلا أن ذلك لم يدم طويلا، وفى ٣٠ سبتمبر وأول أكتوبر ١٩٦٥ تقع محاولة لانقلاب يقوم بها قطاع من الجيش الأندونيسى مما يثير حنقا ورد فعل عنيف من بقية قطاعات الجيش وبأوامر صادرة من الجنرالين ناسونيو وسوهارتو يستولى الجيش على زمام الحكم ويعزل الرئيس سوكارنو وينتزع منه كل سلطة حقيقية وتندلع واحدة من أكبر المذابح مات خلالها عدد قدره المراقبون ما بين مائتى ألف وخمسمائة ألف نسمة.. وأصبحت أندونيسيا تحت حكم العسكريين وتقطع علاقاتها مع بكين وتوقف كل صراع مع ماليزيا التى كانت بريطانيا أنشأتها بهدف الحد من نفوذ الصين فى منطقة جنوب شرق القارة الآسيوية وتشمل شبه جزيرة ماليزيا وسنغافورة وبعض الأراضى البريطانية فى جزر يورنيو وساراماك وساباه، ولم يستطع هذا البيان المصطنع الوقوف ومقاومة الصراعات السياسية إذ فى التاسع من أغسطس ١٩٦٥ تنشق سنغافورة وتعلن استقلالها، أما الانقلاب السياسى الذى وقع فى أندونيسيا فلم يحقق لهذه المنطقة من العالم سوى هدنة مؤقتة، وكان لهذه الأحداث وقعها وثقلها فى هذه المنطقة من العالم.. أشبه برقعة الشطرنج ومثل ذلك وقع فى كل من فيتنام الجنوبية وفى لاوس، وتتوالى الاضطرابات وتتأرجح المشاعر الوطنية على صورة تصعب متابعتها وتندلع الاضرابات وتتوالى

صراعات العالم المستترة والظاهرة، وسرعان ما تقع الانقلابات دون توقف في فيتنام في انعكاس للقلق الداخلى الذى لا يمكن التكهن مسبقا بردود أفعاله منذ بداية عام ١٩٦٥ وتدهور الموقف السياسى والعسكرى جنوب فيتنام بحيث عمدت الولايات المتحدة إلى شن عملياتها العسكرية بغارات على فيتنام الشمالية.. وتتصاعد هذه الغارات وبرغم هذا التصاعد وحلول فترات توقف قصيرة إلا أنها لم تؤد أبدا إلى حل للنزاع.. ذلك أن حرب فيتنام زادت من تطور الأحداث ووطأتها..

الفصل السادس

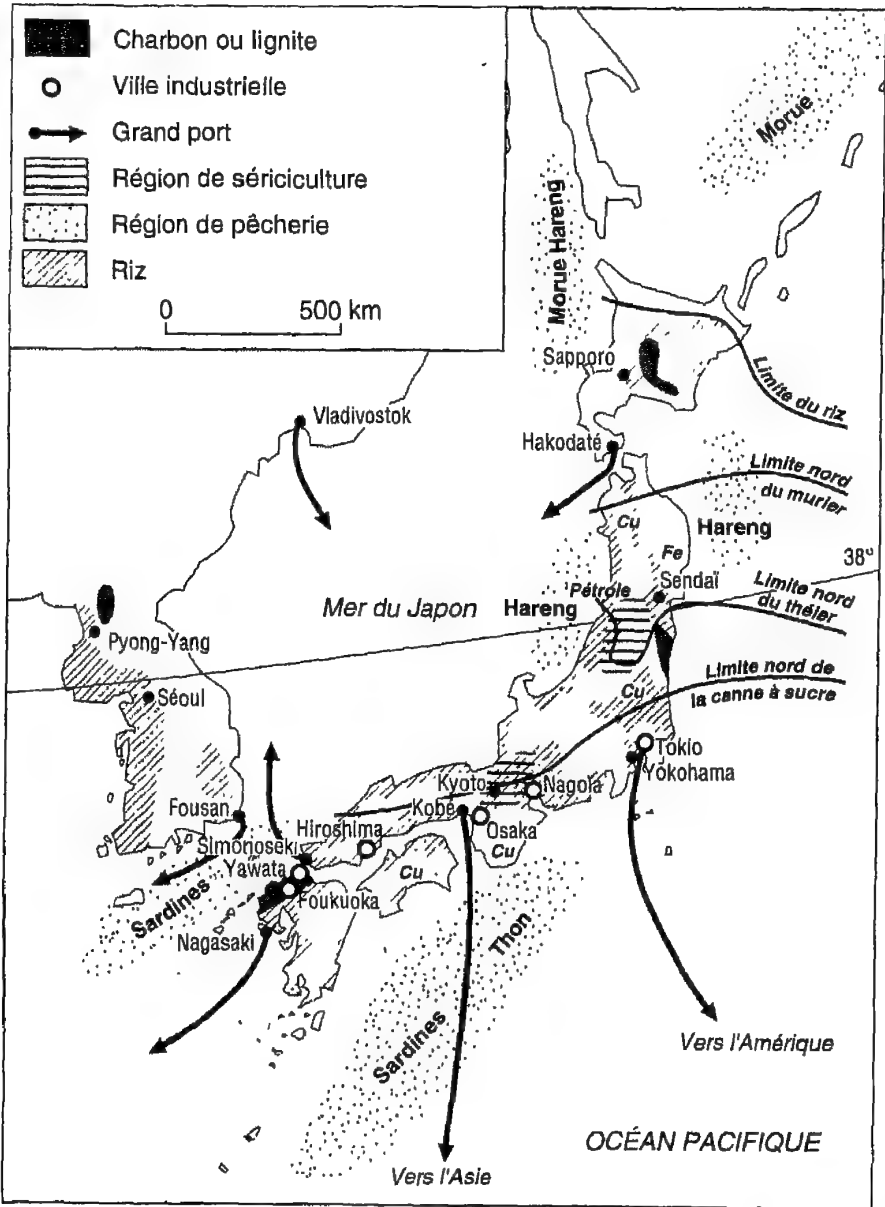
اليابان

اليابان

تقع اليابان فى أقاصى بلاد الدنيا، حيث يغوص مع جزيرة يوزو فى دياجير العزلة الباردة الزاحقة من الشمال تجاه الشرق، حيث يقع أهم موانئها، فهى تنفتح على امتداد المحيط الهادى الغربى تحوطها ومن الغرب والجنوب البحار التى يغشاها الضباب غالبا وتضيق عند الأراضى الكورية وعند الجزيرة الغربية كيوشيو.

وقد وصف الأرخبيل أى اليابان بأن جزره فى مجموعها تشبه الجزر البريطانية لولا أن الأخيرة تكاد تلتحم كلما اقتربت منها القارة الأوربية ولكن الجزر اليابانية أكثر عزلة منها فهى رغم عزلتها متفوقة على نفسها متروكة لمصيرها، ولذلك اضطرت اليابان لكسر هذا الانعزال إلى الانفتاح على الغرب الخارجى، ولقد صرح يابانى بقوله: إن كل ما يبدو يابانيا فى حضارتنا لابد أن نجد له مدخلا أجنبيا .. آتيا من الخارج، وهذا فى الواقع حقيقى حيث ظهرت فى عصور مبكرة يابان صينية منذ القرن السادس، كما تجلت منذ عام ١٨٦٨ يابان غربية .. حققت نجاحا واضحا، غير أن كل هذه الأنواع تبلورت أخيرا فى يابان «يابانية» الشكل والمحتوى ولا مجال للشك فى جذورها النابعة من كونها جزرا، ففى بلاد الحدائق الصغيرة الضئيلة وطقوس شرب الشاي وزهور أخشاب الكرز وحتى الديانة البوذية التى جاءت بها بحكم التتابع الصينى على أراضيتها .. كل هذه الأمور

والأحداث صيغت على النمط اليابانى الفريد، ولاشك أن هذه العقيدة البوذية المنسوخة يابانية ذات جذور مغايرة لجذورها الصينية. وواضح أن اليابان التى بدت طبعة قابلة للتكيف والتأقلم مع كل ما طرأ على أراضيها استطاعت من هذه القروض العديدة أن تنشئ لنفسها اختيارات خاصة، بها فهى مخلصة لكافة التيارات والتقاليد الموروثة وقادرة على التعايش جذبا إلى جنب مع موجة من التحديث العصرى على النمط الغربى المتقدم حيث استقبلتها منذ قرابة قرن من الزمان ويدون تحفظ؛ بل وباندفاع أحيانا بمبادرات متسارعة، عدوانا على مقدراتها وقوتها الذاتية وتفسر لنا هذه الثنائية الغريبة ما كتبه صحفى عام ١٩٦١ .. أن أكثر ما يمكن لليابان أن تعرضه من أمور خارقة غريبة وغير مألوفة .. هم اليابانيون أنفسهم .



اليابان بلاد الشمس والبحر

فحم ولانجو (خشب فحمي)

مدن صناعية

ميناء كبير

مناطق إنتاج حرير

مناطق حديد

أرز

اليابان الأصلية (الأولى) قبل الحضارة الصينية

كانت اليابان بجذورها العميقة الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد وحتى القرن السادس من عصرنا الحالى مع دخول طلائع الحضارة الصينية تعيش حضارة شبه فظة غليظة لولا أنها حضارة قوية نشطة ظلت تنمو ببطء، وهذه اليابان الأولى غير معروفة بحيث يقول المتخصصون بأن اليابان ليس لها تاريخ قبل وصول العقيدة البوذية عام ٥٥٢ ق.م وفى الحق يبدو أن مصيرها كان ولا يزال مرتبطا بصدمات الغزوات ووصول المحدثات الخارجية بما يمكن من القول بأن اليابان نشأت دائما أو أعيد إنشاؤها على صورة الغير.

من أول أسلوب جومون

حتى شارع يايوى والأرز

ومنذ القرن الخامس حتى بداية عصر المسيحية لم يكن هناك سوى منطقة مميزة بالوادى الأوسط الذى تقبع فيه اليوم مدينة كيوتو، وكانت تسمى طبقا للوثائق القديمة كينكى، أو فى اتجاه الجنوب الشرقى الـ «ياموتو» وهو بمنزلة قلب جزيرة هوندو الكبرى وعلى مبعدة قصيرة من ذلك المضيق الشبيه بالبحر المتوسط اليابانى المسمى لوسوتونو أو وشى، والذى يربطها بالجزر الغربية

سيكوك وكيوسيو، وفوق هذه البقعة تتابعت ثلاث متغيرات كبيرة واحدة إثر أخرى.

من المؤكد وعلى وجه التقريب أن أوائل سكان الأرخبيل كانوا من قبائل الإينوس البدائيين والشاهد آثارهم في جزر يوكيو حيث استقر بهم المقام اليوم في جزر ييزوستمالين . إذن .. نجد أن أول ما يذكره علماء الآثار يتعلو مع قطعة خزفية (سيراميك) بدائية مزينة برسوم حبال مطبوعة على الطين الطرى ومنه اشتق اسم حضارة أو ثقافة الجومون تماما كترومات جاء من كوريا من منشوريا ومن بحيرة بايكال البعيدة في سيبيريا.

ومن ذلك يمكن أن نستخلص الموجة الأولى من القادمين من قلب القارة وبداية الصراع الذى اشتد زمناً طويلاً فى الأراضى اليابانية ضد الإينوس

وفى القرنين الثانى والثالث قبل الميلاد وقعت غزوة جديدة جاءت من الصين الجنوبية خاصة، ومن أندونيسيا البعيدة، ومنذ ذلك الوقت ظهرت الأدوات الجديدة كالأدوات الفخارية والبرونزية ومرايا البرونز والأجراس والحديد ونقود الصينيين من قبائل الهان، وأخيرا الأرز والمنازل الضيقة المفتوحة والتي سميت حضارة شارع يابوى؛ حيث كشفت الحفائر التى أجريت فى هذا الشارع نفسه النقاب عن أدوات مميزة لهذا العصر. وكان الأرز الذى حل محل الذرة البيضاء القديمة يمثل وحده ثورة غذائية ثم فكرة الملك الرب الحى التى لزمته التاريخ اليابانى كله وقد جلبتها معهم قبائل طلائع الماليزيين، فهل من تفسير لها؟ لا أحد يدرى.

ويكشف حوالى القرنين الثانى والثالث من عصرنا بعد الميلاد عن عصر تميز بمقابر سادة حفظت حتى أيامنا هذه، وعن فرسان يقودون قبائل فلاحين وحرفيين كانوا أنصاف عبيد وأنصاف أحرار، وذلك فضلاً عن جمع غفير من العبيد ورقيق الأرض، وكان السادة يدعون أنفسهم أبناء الآلهة المحليين وأطلق على تجمعات الحرفيين لقب بيه بمعنى مجموعة أو قسم يسبقه اسم صناعتهم وعلى ذلك كان هناك النساخ ويسمون فومابيه، والنساجون أورى بيه والسروجيون (صانعو السروج) كورا تسيكوريب بيه، والرواة القصصا صون كاتارى بيه وكان هؤلاء الرواة يتناقلون أحاديث الأبطال وأساطيرهم وسيرهم، كما نشأ كذلك نظام

سياسى ودينى وخاصة عقيدة دينية بدائية تتصدى وتتحدى قوى الطبيعة العديدة التى لم تستطع اليابان - المحافظة بطبعها - التخلص منها وسوف يطلق عليها فيما بعد فى القرن التاسع عشر الشنتو (طريق الأرباب الآلهة) وفى الغرب نحن نطلق عليها ديانة الشنت^(١) و ثم بدأت تظهر عندئذ فى مواجهة بلاد الإينوس من مناطق قبائل الياموتو القديمة تابشير إمبراطورية اليابان وهى متصلة بالجذور الأسطورية للسلالة الإمبراطورية اليابانية المتحدة من ألوهية الشمس أما تيراسو من مآثور دينى متوارث كانت معابد الشنتو تحتفل بذكره حتى قبيل هزيمة ١٩٤٥ وتحت ضغوط المحتل الأمريكى اعترف إمبراطور اليابان الحالى^(٢) بعدم انحداره من جذور إلهية.

واستقر المقام بطيئا بهذه الإمبراطورية حتى القرن الثانى مع بداية أحداث اليابان الأولى كما تسطرها الوثائق، فاليابان ليست موحدة تماما إذ كان توحيد البلاد عملا بطيئا إذ كان من السلالة الإمبراطورية وعشائر اليوجى المجاورة قادتها وأراضيها ومزارعوها وحرفيوها تماما كالسلالة الإمبراطورية ما دام هؤلاء السادة الحكام من جذور أجنبية (كورية وصينية) وربما شجع التوحد والانصياح للنظام ضرورة الصراع المشترك ضد قبائل الإينوس برابرة ما وراء حاجز الشرق وقد بدأت ملامح هذه الملكية المتصقة بإقطاعية ظاهرة قوية تتبلور حين أدخل الكوريون الحروف الصينية فى النسخ والطباعة وكذا المذاهب الكونفوشية والبوذية فى القرن السادس وصارت قوة الأفكار والمفاهيم الكونفوشية واضحة المظاهر منذ بدأ تحرير مراسيم الأمير شرتوكو الذى أعلن حقوق السلطة المركزية دون تقسيم فليس للبلاد كما نادى هذا الأمير سيدان... ولا قائدان.. وهكذا بدأت اليابان التاريخية تظهر بطبقات مجتمعاتها ومنسوجاتها وكتابها وأحداثها وسفرائها المبعوثين إلى أباطرة الصين (أولى السفارات كانت عام ٦٠٧) ومن حول الأمير تشكلت طبقة النبلاء، الكوج، فهو موزع الأراضى والأرباح الشويين والمزايا كذلك ويجاهد الكل فى تحويلها إلى أقطاعات وستنمو هذه اليابان الإمبراطورية وتزدهر

(١) ديانة الشنتو وهى ديانة أهالى اليابان التى تمجد الأجداد وقوى الطبيعة

(٢) هيروهيتو وقد توفى

بإشعاعات جديدة تهب عليها من جانب الصين ذات النفوذ المتصاعد والحضارة
المسيطرة القومية إلى أقصى مدى، ومن آثار هذا النفوذ أن أطلقت الصين اسمها
على الأرخبيل وهي تباشر مراسم تسميته .. ببلاد الشمس المشرقة، باللغة الصينية
جوبين ومنه اشتق اسم اليابان واليابانية نيبون وفق نطق الكلمة ذاتها.

اليابان فى مدرسة الحضارة الصينية

سطعت خلال عدة قرون أنوار الحضارة الصينية أحيانا على جزر الأرخبيل اليابانى وهى تغير من شكل المعطيات حتى ليبدو وما حدث للعقيدة البوذية غربيا وهى تتشكل فيما عرف بزين .

بتناسخ دينى فريد سيصبح مذهباً لجماعة من الديمويين «الساموراي» منذ القرن الثانى عشر وكانت معطيات أخرى تتمسك أحيانا بأشكال قديمة لم تعد الصين ذاتها تتمسك بها أو تذكرها ومنها هذه الموسيقى الصيدية المفقودة فى الصين واحتفظت بها وحافظت عليها اليابان وإن أقامت اليابان على تعديل أشكال الموروثات وتغييرها تحت نفوذ نزعة إنسانية ومجتمعية وتقالييد مغايرة تماماً للنمط الصينى خصوصاً وأن هذا النموذج الصينى كان ينتشر فى أراضى اليابان محملاً بالشكل الكورى الذى لم يكن يشكل دائماً الجذور الأصلية .. وكانت أولى الحضارات اليابانية الصينية هى العصر الذهبى لليابان القديمة فخلال هذه الحقبة الطويلة من التألف (التأقلم الاجتماعى والثقافى) كان كل شىء موضع تحول وانتقال من تقاليد فى نسخ الخطوط وفن الرسم وفن العمارة وإقامة المنشآت والحقوق (حقوق عشيرة الناتج)

(١) ومعاها جزر السود وتشمل غينيا الجديدة سولومند وكاليدونيا وجزر فجي

وتنقسم اليابان كالصين إلى مقاطعات ليست بالطبع بتلك المساحات الكبيرة التي عليها المقاطعات الصينية، وفي عام ٧١٠ شيدت العاصمة «نارا» ومعناها العاصمة باللغة الكورية وكان بناؤها - طبقا للنموذج الصينى - شبيها بمدينة لويانج فى كوريا كهية رقعة الشطرنج مع إقامة القصر الإمبراطورى فى الشمال. وفى عام ٩٩٤ عندما انتقلت العاصمة إلى مدينة هانكيو بمعنى عاصمة السلام أو كيوتو (ومعناها باليابانية العاصمة) أعيد بناؤها على النموذج نفسه ومنذ ذلك التاريخ توقف انتقالها كما كان يفعل كل إمبراطور يشيد عاصمة خاصة له ومنذ عصر «نارا» أصبح العرش والمكاتب أثقل من أن تنقل هكذا دائما عدد كل حكم جديد وظلت كيوتو العاصمة التي صمدت قرونا. وظل النفوذ الصينى سائدا كل شىء حيث كتب ما يروى النساخون من أحداث كبرى على نموذج الماندراران (كبار الموظفين فى الإمبراطورية الصينية) لدرجة استعمال أمور صينية لنسخ الكتابة اليابانية ويجب ألا ننخدع على أى حال بهذه الاستعارات العديدة ذلك أنها كانت فى محيط ضيق هويلاط الإمبراطور الذى كان يحاول نشرها فى سائر أنحاء البلاد بأساليب سيئة لم تستطع أن تطفى شعارا باهرا قد تشويه بعض الظلال.. استتبعها عصر ذهبى مبكر من نهاية القرن العاشر حتى القرن الثانى عشر، إلا أن تصاعد الحياة المادية لم يتح لهذا العصر الذهبى الدوام إلا أمدا محدودا جدا إذ تلتها عصور مظلمة وعاش عصر كيوتو الزاهر فى الكتابات الشعرية والأدبية الثمينة فى المونوجا تارى (حكايات شعرية) نصفها حكايات ونصفها روايات أشبه بقصص سندريلا وكذلك فى صحف نيكي (صحف شعرية كانت تكتبها سيدات القصر باللغة اليابانية)، أما الرجال فكانوا يسجلون أشعارهم باللغة الصينية حيث تشرح لنا الأدبيات النسائية أفراح البلاط والحفلات الموسيقية والرقص والمحاورات الشعرية ومسابقاتها وكلها بادرات إمبراطورية فى محيطهم ومباهج تخضع لمراسيم دقيقة تجعل من الحياة فى القصر عرضا منظماً كالباليه، ولاشك يمكننا أن نتخيل فى ثنايا هذه المعيشة أحداث الدسائس السياسية والعاطفية التى تقع دائما فى أمثال الاختلاط الذى يسود هذه المجتمعات الضيقة وأبوابها الرفيعة التى تشف بسهولة عما وراءها.. عالم تافه.. عاطل أفسده الأدب، إذ تميز بين المقبول السائغ

والمستحب وبين المستهجن القبيح والكريه تكتب تقول فالأخيرة وهذا طبيعى عددها أكثر من الأولى كشجرة علقت بريشة الكتابة أو حبة رمل تعلقت بالريشة تصدر صريرا كلما احتكت، إنها شخصية تافهة لا وزن لها ويثرثر ضاحكا بشدة لحظة.. تود تستمع شيئا رضيع ينبج كالكلب حين يبصر رجلا يريد اللحاق فى سرية بك ليلا فيبدأ فى العواء... الرجل الذى استعصى إخفاؤه على أى صورة والذى يبدأ الشخير، أو هذا الذى يقبل عليك خلسة وعلى رأسه قبة عالية ظاهرة للعيان ثم يحاول عدد مغادرته جاهداً ألا يراه أحد ولكنه يصطدم فى أى جسم يصدر صوتا عاليا، وعلى أى حال لو صح أن هذا كان نمط حياة المحظوظين فقد عزت البوذية الأراضى اليابانية ببطء وهى تمقطر (تنشر الديمقراطية) وظهر من رجال الدين المستبشرين من اتصل بالطبقات المتوسطة ومهرة الصناع وصغار الملاك وطقوسه مبسطة، وتدور فقط حول المنقذ بودا، بودا أميدا الذى يضمن للمؤمن به ولوج السماء الغربية فإن الإمام وطبقا لتطور مشابه للصين وأفكار البوذية الحقيقية وعقائدها سرعان ما تصبح ما يميز علماء اللاهوت (الدينيين) أو رجال الصفوة على حين تأخذ البوذية الشعبية على عاتقها سائر ما تبقى بما فى ذلك من معتقدات الشنتو القديمة بحيث تكاد تصبح ديانة حقيقية مشتركة.. إنها عقيدة الشيوخون التى يصبح الأرباب المحليون لديها تجليات ربانية خاصة ومؤقتة من الألوهيات البوذية.

وتصبح المعابد الصينية المقدسة تحت إشراف هيئة العقيدة الوليدة أى ما يسمى الشنتوية الثنائية. وتقوم إحدى الأنقونيات (عبادة الأيقونات) البوذية وتبدأ فى الانطلاق مع ظهور أميدا.

وفى هذه الأزمنة تزدهر أطر الطبيعة اليابانية الرائعة فى لفائف وصور وتمائيل وإشارات وحركات طبقات المجتمع المختلفة فى مشاهد مفعمة بالدعاية، كما شاعت وانتشرت على نطاق واسع حروف كتابة هجائية مبسطة (تشمل ٤٧ مقطعا لفظها فقط) ثم بدأ نظام الحكم الإمبراطورى منذ القرن الثانى عشر ينهار فقد ظل طويلا يعبر عن ضعفه فإذا كان قد نسخ صورة من صور الصين المزدهرة أيام التانج إلا أنه لم يعرف أو لم يقدر على خلق طبقة المثقفين القائمين لخدمة

البلاد الذين كان باستطاعتهم كسر قوى طبقة الأرستقراطيين القدامى وتطلعاتها وكان مقدرا عليه أن يترك مكانه لنظام حكم الشوجوناي خلال عصر وسيط طويل امتد قرابة أربعة قرون من عام ١١٩١ حتى ١٨٦٨ إذ كانت جماعات الإقطاعيين منذ نهاية القرن الثامن وحتى عام ١١٨٦ تحاصر السلطة الإمبراطورية؛ حيث كان الأباطرة يملكون ولا يحكمون حكماً فعلياً، كانوا أسرى وألعوية في أيدي الفوجاوارا الذين تقلدوا مناصب القيادة فيوفرون للإمبراطور نساءه وعشيقاته يختارونهن من محيط أسرهن، وهم الذين يخلعون الملوك ويختارون خلفاءهم، ولقد قال أحد المؤرخين بحق: إنما سلطة الميكادو عليه فارغة يحتفظ الفيجاوارا - بعناية - بمفتاحها وفي نهاية عصر الفيجاوارا الطويل بدأ يتفتح عصر الشوجينو في تجربة غير متوقعة أضفت نوعاً من الرسمية على شخص الشوجان؛ حيث كانت سيطرة الإمبراطور عن طريق السادة الإقطاعيين بفضل تلك الأسر العديدة، وأغلب أبنائها من صلب الأباطرة وتمثل نوعاً من طبقة النبلاء ممن منحوا إقطاعيات، فالشوجونو بمنزلة حكم دائم لهم خلاله تتدافع الجماعات وتتبدل ولكنها تتفق على الأقل في النهاية لتحقيق بقية السكان من الأهلين المنقسمين طبقات اجتماعية متعددة، ويمارس السادة - دون جموع الفلاحين والحرفيين والتجار - حياة مترفة كما يحلو لهم وفي قاع السلم الطبقي أبرز الطبقات هم بخاصة عمال الجلود وهم المنبوذون وإن كان عددهم أقل من أمثالهم في الهند. وبانحسار الحياة الاقتصادية تتوالد في عصر الشوجونات أنواع من ردود الأفعال الإقطاعية والعسكرية في شكل تراجع مادي عام كأنهم طبقة أرستقراطية متصارعة تقطع بعيداً عن أعين البلاط الإمبراطوري ساحات شاسعة من الأراضي الزراعية في المناطق الجديدة شمال وشرق جزيرة هوندو خارج السور يمارسون فيها تربية الخيول وحرص النظام في مواجهة كيوتو وأمرائها المختئين بما يتسمون به من الطيش والدناءة والمكروهين على حكومة من الجنود الباكوفو (حكومة الخيام) على رأسها القائد العسكري الشوجان تناصر مبدأ المساواة شبهت بالحكام الميروفنجيون (أوائل ملوك فرنسا) عند زوال عهدهم وإن اختلفت اليابان حيث لا يستبعد الملك الخامل الكسول فالميكادو إذ يستمر يملك ولا يحكم إلى جانب الشوجان الذي يتلقى

منه التكليف بصفته الإلهية كما كان يفعل البابا للأباطرة واستقر أوائل الحكام الشوجان فى أطراف جزيرة توكايدو فى الطريق من كيوتو إلى ييودو وفى كاما كورا العاصمة الفعلية وقد ظل الأمر كذلك حتى عام ١٣٣٢ ثم عاد فاستقر فى ضاحية كيوتو فى موروماتشى من سنة ١٣٩٣ وحتى ١٥٧٦ ليستقر أخيراً فى ييودو التى كانت حتى ذلك الوقت ميناء للصين (١٥٩٨) وظلت العاصمة فيها حتى عام ١٨٦٨ ويتحدث المؤرخون تطوعاً من عصور كاما كورا وموروماتشى ويبدو بما يمكن بتجميع هذه العصور جنباً إلى جنب من تغطية حقبة الشوجانات الطويلة (١١٩٢ - ١٨٦٨) ومهما كان تفسيرنا لهذا العصر فقد كان واجهة مسرح الأحداث عن الطبقة المسيطرة من المقاتلين والفرسان البوشى، فقد فرضوا آراءهم وأذواقهم وخشونتهم فى بداية عهدهم فكان لديهم نوع فريد من البساطة فى الحكم كبساطتهم فى فرض أشكال المنازل وطرز الملابس، كالملابس المبسطة السويكان أو الهينانارا استبدالاً بما كان من الملابس المتنقخة المعوقة عن السير النوشى أو السوكاتاي وكانت مسابقة مراسم تلك العصور، وحلّ الصيد ومبارزات الفروسية وسباق الخيول محل ألعاب تسلية تلك الأيام الخوالى وكلها ألعاب مزعجة. وكان خلال إقامة الشوجان فى كيوتو من (عام ١٣٩٣ حتى عام ١٥٧٦) أن بدأت المدنية تأخذ حقها ودورها فلم يتلاش العصر الذهبى الكلاسيكى فى عصر الجنود والفرسان ثم جاءت أواخر أعوام القرن السادس عشر وأوائل أعوام القرن السابع عشر لتقطع بعنف عصر الشوجان الطويل إذ نشبت ثورة التوكيجاوا التى تتمكن على مدى أكثر من قرنين من عزل اليابان عن سائر بلاد العالم كما تفاقمت النظم والسلوكيات الإقطاعية، وبالفعل استطاع أحد أبناء الفلاحين هايد بوشى ممن لا يحملون اسم الشوجان أن يرد النظام إلى البلاد وينشر السلام فى ربوعها فاستتب له الأمر ثم شن على كوريا حرباً طويلة لم تكن بحال معقولة أو مسوغة ولم يضع حداً لها إلا موته فعمدت على ذلك جماعة من توكيجاوا ففرضت سطوتها على يد هايد يورى وكان عبقرية صبوراً أضفى عليه الإمبراطور اسم شوجان وقد استقر رأيه على الإقامة فى ييودو التى كان رأى فيها عن فكر عاقل أفضل موقع يستطيع فيه حكم الجزر اليابانية الصاخبة لا من مدينة كيوتو وكان حين تخلى عن الحكم

لأبنة قد استطاع جعل الشوجانات توارثيه فى أسرته وبذلك تمكنت من حكم اليابان حتى عام ١٨٦٨ ومن أكبر قرارات حكومة بيدو، هذه طوكيو الحالية كانت عام ١٦٣٩ حتى تقرر إغلاق اليابان فى وجه الغرباء (الأجانب) لا يدخل جزرها سوى السفن المسموح بها من الصين وهولندا التى لم يكن مسموحا لها بأى حق إلا استيراد الذخائر والأسلحة والقطارات والتبغ أما سائر جزر الأرخبيل فتستطيع، وقد استطاعت العيش على مواردها الأصلية وكان الحظر مفروضا كذلك على السفن اليابانية شأنها شأن السفن الأخرى بل لقد بدأ بها الحظر (١٦٣٣) فهل من تفسير لهذا التصرف الذى صدرت عنه ردود فعل كثيرة...؟ ويبدو أن حكام اليابان قد بدأت تساورهم المخاوف من الغربيين البرتغاليين الذين سبقوا إلى المجئ، كانوا قد وصلوا إلى كيوسيو عام ١٥٤٣ بمدافعهم وبنادقهم على سفنهم التى بهرت سكان الجزر مع موجة التحول إلى المسيحية التى تمكن الدخلاء الجدد من تحقيقها فهل تشجع هذه الديانة عصيان الكبار (كبار الحكام) وثوراتهم فضلا عن الفلاحين كما وقع عام ١٦٣٨ وكانت الصين من جهة أخرى قد نظمت فى منتصف القرن السابع عشر عادات المجتمع وكانت الهند البعيدة قد أسمعت كذلك صوتها وران على كل الأفق انحسار اقتصادى هائل، فهل أصاب اليابان الذعر من هذا الانحسار العام فقررت الاحتماء منه فكان خاصة وقف خروج معادنها الثمينة، فمنذ عهد ما بديوشى البطولى وبداية العداء ضد كوريا والصين كان تصاعد أعمال القرصنة ضد الصين بلبئى بانطواء اليابان على نفسها وبدأ إشعاع الصين فى عصر سلالة المنج ينحصر عن جزر الأرخبيل ثم تعاظمت الرغبة أخيرا فى تجميد مجتمع كان على استعداد للتحرك بما يضم من فلاحين حريصين أشد الحرص على نيل حريتهم رغم ما خضعوا له كثيرا من اليأس وبدا أن الانغلاق قد حَجَرَ واستمر حتى وصلت سفن الأميرالاي بيرى السوداء واليابان حتى ذلك الوقت تعيش على مواردها وتصون عشائرها وطبقتها النبيلة وكل ما يخضع لهذه الطبقة الأساسية وفى ذلك ما يشير إليه نجاح الديهايانا والزين وهما المذهب (فكرة / الشكل) الشاذ فى البوذية وربما كانت هذه اليابان التى آثرت الانغلاق على نفسها أقل إحساسا بالبووس وأقل تجردا مما نظن للوهلة الأولى فقد كان عليها أن تنمى

مواردها المادية وغيرها من موارد كانت حقيقية ودليلا على القيمة حتى تصل إلى مستوى مرموق، فكان منذ القرن السادس عشر أن انتقلت من أدبيات عامية اللهجة خشنة إلى نهضة مسرحية حية نصف غذائية ونصف راقصة كالكا بوكي ومن ثم لم يكن عصر الشوجونات كله مظلما، ولا سبيل إلى تصور تجربة الشوجونات أو إدراكها إلا فى إطار نظام دقيق قد نطلق عليه شرطة الدولة إذ كان للسادة الكبار رساء العشائر والمقاطعات «الدايمىوس» (وهم حوالى ٢٧٠) أتباع ومريدون ضمن جمهرة من «المؤمنين، والساموراي ممن يخدمونهم بالمال ويقروض ومقايضات عينية ولايجرى كما فى الغرب أى تبادل للأراضى الموهوبة التى تمثل لهم نوعا من الاستقلالية فقد كان محتوما على الرونان أو الساموراي الذى تخلى عنه أو هاجر سيده أن يموت جوعا أو يلقى به مع قطاع الطرق ليصبح مخلصا جسداً وروحاً، كل يقول وكل يكرر ويعلن، هكذا تنادى العقيدة الدينية وهكذا ينادى الشرف.. شرف الساموراي.. وطقوس البوشيدو الشفهية رقصة الـ ٤٧ من أتباع الرونان الذى انتحر رئيسهم بالهارا كيرى إذ ينتقمون للميت ثم بدورهم ينتحرون فوق قبره (وقعت هذه الحادثة فى شتاء عام ١٧٠٣) وقد ظلت هذه القصة تروى كثيرا وقد شكلت شريعة الشرف العنيفة، هذه مدرسة العنف فى غير رحمة من سلسلة الحروب الأهلية. واليابانيون يتقاتلون ويتعاركون فيما بينهم وضد بعضهم البعض غالبا، ولقد حاولت الصين أيام المغول مرتين عام ١٢٧٤ و عام ١٢٨١ أن تطلق أسطولا من سفنها على جزر أرخبيل اليابان ولكن «ريحا إلهية، أثارت عاصفة هوجاء (مرت سفن الغزاة ولم تدم الحرب اليابانية ضد كوريا سوى ستة أعوام. وهكذا يمكننا أن نقول: إن اليابانيين استخدموا السيوف والرماح ضد بعضهم البعض وقد شكلتهم هذه الحروب المتصلة وغرزت فى أعماقهم تبجيل قيم رسخت فى نفوسهم فكانت اللغة اليابانية حتى عام ١٨٦٨ تحدد بمفرداتها وأفعالها بدقة موضع الفاعل والمفعول، على سبيل المثال: إن استخدام الفعل المساعد يدل على أن الفعل المعبر عنه بالفعل الأصلي مكتمل بفعل أذن لى لصالح فعل أعلى والنتيجة.. كانت على هذه اليابان ذات النظام الصارم الشاذ المنقسمة طبقات ذات سيطرة دقيقة حازمة وبائسة معاً ومن هذه الأوضاع المزدوجة واجهة تعبر عن

عظمة البعض وروعتهن، وأخرى تعكس الفقر المطلق يعيش فيه آخرون وصدق في ذلك بتعبيره الرائع طبيب اسمه «كامبفر» كان يعمل في الشركة الهولندية (١٦٩٠) ولا يمكن لمن يقرأ كتابه أن ينسى الرحلات الصعبة وهذه الأنهار التي كان عليه المرور فوقها بطول معابرها العميقة تحميه حبال السفن لكبح جماح تيارات المياه المتدفقة وتوفير العبور المحفوف بالمخاطر وهذه القرى ومنازلها البائسة والفلاحون الراكعون في حقولهم عند مسار المراكب الباذخة للسادة الإقطاعيين .. هذه الطرق التي يسلكها الكثيرون من كيوتو إلى ييدو حيث يقيم الشوجان وتجع بمراكب الدايميوس ممن فرض عليهم الانتظام في زيارة الشوجان مع أتباعهم من حملة الطبر نوع من الرماح من الجنود وحملة البنادق ومن خدم يصاحبون في ركاب السيد وفي طريقه إلى العاصمة، وكان يجب على هؤلاء الإقطاعيين الأثرياء أن يقطنوا في قصورهم ويقيموا بمدينة ييدو ستة أشهر كل عام ذات الواجهات المعمارية الفنية إلى جوار قصر الأمير، وكان هؤلاء الإقطاعيون - بعامه - بمنزلة المساجين ولو كانت إقامتهم في قصور باذخة فهم دائما موضع رقابة. وأسرههم رهائن، ويستحيل عليهم غالبا مجرد أفكار الهروب فلا يستطيع أحد منهم الإفلات إذا ما تقرر محاكمته فيلاحقهم المراجعون والمشرفون عليهم في كل مكان حتى في الطرق وفي المدن حيث يشكل كل شارع وحدة على الطراز الصيني مغلق من طرفيه بأبواب تغلق عند وقوع أى حدث من سرقة أو اختلاس، فيعتقل مرتكب الحدث فورا ولا يتأخر عقابه عادة فهو الإعدام. ويمارس الإشراف الدقيق القاسى على من يسمح لهم بالمرور مع بعض القيود بالطبع. وبعد عام ١٦٣٩ أصبح الصينيون وكذلك الهولنديون الذين عرضوا بلا حياة مساهمة مدافع سفنهم لقمع انتفاضة اليابانيين المسيحيين عام ١٦٣٨ . وكانت سفن شركة الهند الهولندية كلما جاءت إلى موانئ الجزر اليابانية وضعت في الحجر الصحي في جزيرة ديشيما، وفي ميناء ناجازاكي حيث تفحص بعناية شديدة البضائع والبحارة والوكلاء وكل موظفي الشركة وممتلكاتهم .. كل ذلك بما يعطى الانطباع بأن هناك نظام حكم مرتاباً حذراً بحيث يدلف المرء إلى بلاد زاخرة بالقلاع مزدحمة بجنود صاروا لكثرتهم معوقين أكثر مما نجده في الغرب

حيث العدالة أكثر حزماً، وأكثر مرونة، فكل مسافر هنا يشاهد ما يذكره بمشهد صلب المسيح؛ إذ ينكل بالأجساد، وتخضع للعذاب، وعلى مقربة من بعض التلال قرب كيوتوما أطلق على أحدهما.. للتذكير والتحذير .. جبل الآذان المقطوعة.

وقد تطورت اليابان الإقطاعية على الصعيد الثقافي بل وعلى الصعيد الدينى كما كان فى كوريا والصين، وعرفت البلاد أنماطاً متعددة منها النزعة المتزمتة ومعناها السوسن حسن النية، وتنادى بأن اليابان هى بلد يودا الحقيقية وكذلك بلد الإله زين القادم كذلك من الصين، وسوف يكون منذ القرن الثانى عشر مآثرة الساموراي على حين تتأكد الكونفوشية الجديدة العقلانية بأنها العقيدة الملائمة لاتباعها من الشوجونات، وتصير هذه البوذية الخاصة العقيدة للجنود الدينية وهى بعيدة كل البعد عن معناها الأصلى: الأمل، دين المحبة، واللاعنف، وما كان هذا التحول إلا تعبيراً عن عصر.. وعن مجتمع وتجرى نصائح الآله زين فى أوصاف قصيرة جداً باسم الـ كوانز ذات الروحانيات والسلوكيات الأخلاقية الغربية ذلك لأنها تبشر بالخلاص بأى ثمن للإنسان الذى لايعى، ولا يشعر الغريزى بالفطرة ويكون عادة نصف نائم: دع روحك وكن كالكرة فى خضم السيل الجارف المنقض من الجبل.. جهد غريب يكلف به الإنسان لحل هذه الغرائز وفكها ثم إيقافها بعد ذلك ثم التواكل على انطلاقها.. تبدو لنا هذه اللهجة فى تفسير التعاليم كنوع من التأمل فى التحليل النفسى.

دون أية مركبات نقص ومثل: هل يبدو يصيح؟ إذا تسيرت فسر إذن.. تجلس كن جالساً.. خصوصاً لا تتردد.. ونصيحة لا تتردد تكون حياء أى شىء وتصلح غالباً للجندي أزح عن طريقك كل المعوقات. فإذا ما تقابلت وأنت فى طريقك على الـ بودا.. اقتله وإذا تقابلت مع سلفك (جداك الأول) اقتله، وإذا تقابلت مع أبيك وأمك فاقتل أباك واقتل أمك، وإذا ما تقابلت مع قريبك فاقتل قريبك، كذا فقط تصل إلى خلاص نفسك.. هكذا فقط تهرب من النيران وستصير حراً، ومما لاشك فيه أن هذا الكلام لا يؤخذ بحرفه قيودا السلف (جد الأب) والأهل هم رمز كل الواجبات الاجتماعية فى مجتمع ذى فروض مرهقة يجد الإنسان نفسه فيه منذ الطفولة فتاة أو فتى، فكل ولد يحوطه هذا القيد الحديدى من نزعات تعليمية لا

تهاون فيها.. وكل شيء حوله يجبره على اتباع أسلوب ينظم أسلوب تناوله الطعام وأسلوب التحدث وطريقة الجلوس، بل أسلوبه فى النعاس حيث يضطر إلى اتباع قواعد اللا حركة والرأس موضوعة على وسادة صغيرة من خشب.. أى باختصار ألا يفقد السيطرة على روحه أو جسده بفضل حركات وسلوكيات تبحث عن إنجاح انعكاسات أكثر طبيعية مثل الحديقة المنمنمة، حيث تنمو النباتات والأشجار نموا طبيعيا ويبدو كأنما توجه كل التعاليم المخصصة للجنود ضد المحرمات والفروض لما يمكن أن نسميه نظام الأدب اليابانى، ولئن كانت الحياة كما فى كل مجتمع تؤثر المرونة فاليابان هى بلاد الشدة والحزم وبلاد المرونة والتساهل فى الوقت نفسه.. وما للآلهة زين إلا مقابل ضرورى.

اليابان الحديثة

استمرت القطيعة بين اليابان والعالم الخارجى أكثر من قرنين حتى الثورة التى فتحت عصر المبحى (١٨٦٨) الذى أعقبه تصنيع البلاد تصديعا كبيرا يمثل ظاهرة مستقلة بذاتها.. إنها معجزة حيث أضفى التصنيع على الحضارة اليابانية أضواء ساطعة حيث لا يمكن تفسير نجاحها غير الطبيعى حسب تقديرات علماء الاقتصاد، وهى تقديرات ليست بغير جدوى، ولكنها وحدها لا تكفى للدلالة على أن سنوات التوقع والانغلاق من عام ١٦٣٩ حتى ١٨٦٨ كانت حقبة حققت اليابان خلالها تقدما كبيرا ملحوظا منذ القرن الثامن عشر، فترى ازديادا فى عدد السكان إثر ازدياد إنتاجية الأرز وإدخال أنواع أخرى من المحاصيل واتساع المدن، وكان يعيش فى مدينة ييدو وحدها مليون نسمة ولم تكن هذه الزيادة السكانية ممكنة لولا زيادة الإنتاج الزراعى وخاصة الأرز وفرفته فى الأسواق دون إتاحة نوع من الوقود من الفحم النباتى وكميات كافية عند الحاجة.

وكان المجتمع نفسه متقبلا لهذا التطور بأكثر مما وقع فى المجتمع الصينى بكثافته السكانية حيث أجبر المجتمع الزراعى السادة على الاتجار فى كميات كبيرة من محصولهم من الأرز وجلبه إلى الأسواق والمساهمة فى منح القروض بتسهيلات أكثر مما كان معروفا من قبل منها نظام الصكوك كما لم يكن مسموحا

للسادة بالاتجار حتى لطائفة الساموراي، فصاروا أقرب إلى الهشيم أى لا حول لهم ولا قوة وهكذا تكونت طبقة من التجار تقرض النقود إلى الدانيموس ليقوموا هم بأعمال التجارة، يتسللون إلى أوساطهم وسرعان ما يرتدون ملابسهم ويدخلون بناتهم وأولادهم فى محيط هذه الأسر الرفيعة ويصاهرونها، ويتخذون عاداتهم وكلها مظاهر مسرحية، مما كان يتيح للحكومة القيام بمصادرات مثمرة، وكان هؤلاء التجار بعامه يقضون حياتهم فى الظل وكانت أهميتهم خاصة فى مدينة أوزواكا مركز اليابان التجارى وقتئذ فى هذه المدينة عاش الـ نانتس كلهم سادة ورجال أعمال فى «حارات الزهور» وهى مواقع للترف فى المدن ذاتها حيث تقيم شرائذ العاهرات من بنات الجيشا ذات الثقافات العالية وتولين الدور الذى كانت تتولاه نبيلات بلاط إيان فى كيوتو. وكانت أحداث حارات الزهور هذه من فضائح وحوادث انتحار أو قتل تلهب مشاعر الكتاب وتغذيههم لإبداع نوع من الأدب المسلى الساخر مما كان يقبل عليه أفراد الشعب قليل الثقافة، ذلك أن المثقفين الحقيقيين كانوا يفضلون هذا النوع من الثقافة العامة (الرخيص) مباحج عقيدة الكونفوشية وملذاتها. وكان هذا كله يكشف من قبل عام ١٨٦٨ عن حركة حياة منتعشة سادت مجتمع اليابان من طفرة اقتصادية أدت منذ القرن الثامن عشر إلى نشأة باكورة رأسمالية نشطة جاهزة للازدهار. وعند حلول القرن التاسع عشر ازداد نشاط هذه الرأسمالية النشطة ولم يكن عصر المبجى قادرا على تفسير تطوره دون أن ندرس آثار هذه التراكمات الرأسمالية وتجمعها وتدفقها فى شرايين المجتمع اليابانى ومرافق أحيائه مما أدى إلى عديد من التطورات وردود الأفعال، فقد أدت مظاهر الترف والثراء إلى خراب كثير من الدانيموس، ويمتلئ اليابان رويداً رويداً بطوائف الساموراي دون قادة وطوائف الرونان والفرسان دون جذور أصيلة.. كان الوضع شبيها إلى حد ما بألمانيا القرن الخامس عشر وحق القبضة^(١) .. وسرعان ما يتحقق الفوز لطبقة المجتمع المهمل من الثورة التى تندلع، ثم كان وصول الأسطول الأمريكى عام ١٨٥٣ بمنزلة الشرارة التى أشعلت النيران، وفى عام ١٨٦٨ عندما أمسك الإمبراطور ميتسو هيتو بالسلطة أطاح بنظام حكم

(١) لاشك يريد أن يصف الحالة بالضعف / الشلل العام.

إقطاعى قديم متهالك بطبقاته التقليدية.. أى لم يُسقط سوى زخرف لا قيمة له، ولم تكن حركة التصنيع ظاهرة اقتصادية فقط وإنما كانت تحولا اجتماعيا تدفع بها أو تعوقها المسارات الاقتصادية ولم تكن هناك فى حالة اليابان معوقات من جانب المجتمع. ومما هو جدير بالملاحظة أن التصنيع يهز أركان المجتمع عادة، ففى الغرب وفيما يختص بحركة التصنيع حدث وفق مفاهيم كارل ماركس أن بدأت الطبقات البروليتارية فى الثورة وبدأ صراع الطبقات ثم قيام الثورة العمالية الاشتراكية.

وكانت اليابان حالة فريدة إذ حققت ثورتها الصناعية وتكيفت من جديد مع الأنشطة التى تحدثها حركات التصنيع عادة فى أى مجتمع ولكن المجتمع اليابانى لم يهتز ولم تصاحبه ثورات أو إنقسامات إذا أمكن دمج هذا التحول الهائل فى ثقافة سائدة واتبع طريقا جديدا جديرا بالتفكير قد يكون للأسباب الآتية: فربما يتعلق الوضع بمجتمع منتظم مطيع احتفظ وحتى فى تجربة عام ١٨٦٨ بنزعات النظامية والطاعة القديمتين وكانت هذه المجتمعات المطيعة التى تحترم الموروثات السلفية قد ظلت تتقبل أن يكون الثراء والبذخ من نصيب البعض.. وكان قبولا يخلو من مجرد الهمهمة وتقبلت فى الوقت نفسه على غير دراية كبيرة أن الرأسمالية الحديثة إنما تنشأ من جذور إقطاعية، وهنا نتذكر هؤلاء الصناعيين الروس فى القرن الثامن عشر الذين كانوا قد استقروا فى منطقة الأورال بين عبيدهم وتمثلوا بالقول السائد (١) وهذه هى الصورة التى قدمتها المنظمات الصناعية اليابانية الكبيرة وحققت خلالها نجاح التصنيع وجنوا من ورائها الأرباح دون إثارة ردود أفعال من جانب العمال. وكانت فى اليابان خمس عشرة أسرة قبل حرب عام ١٩٤٢ تمثل ٨٠٪ من رؤوس أموال اليابان أصبحت تعرف اليوم بمسمايتها الكلاسيكية سايباتسو وهى من أشهرها: ميتسوى وميتسوبيشى وسيميتوقودياسودا وأكثرهم ثراء الأسرة الإمبراطورية... من بعيد وهذه العائلات من كبار رجال الأعمال: هى المماثل لما كان يسمى فى الماضى الدايمىوس وفرق عمال هؤلاء هم عبيدهم أولئك ورؤساء العمال والمشرفون على الأعمال أى

(١) مثل لاتفى يعنى تغيير ما يجب تغييره

المهندسين أو من عسى أن نسميهم جموع الساموراي اليوم.. وتظل المنشآت ذات صيغة أسرية.. فريق من الإقطاعيات والأبوات الرحيمة (نوع من الأساليب الأسرية العائلية في إدارة الأعمال) وفي هذا الوسط بدت المفاهيم والأفكار الشيوعية والمنشآت الخاصة غريبة دخيلة على المجتمع وأفكار أجنبية تستهدف التدمير.. تدمير الكودو وهو النهج والطريق الإمبراطوري في المجتمع الياباني.. وبين جموع هذه المجتمعات المطيعة والماهرة الصابرة الراضية بأدنى الأجور، استطاع الحكام والمديرون بالأمس بل اليوم أن يحققوا ما يرغبون.. وبهذا يمكن فهم معجزة ١٨٦٨ أو التغيير المفاجئ، فالشوجان يترك مكانه للإمبراطور أى طبقا للمبدأ السائد، يخلو موقعه لأكبر قوة تقليدية في البلاد أو نتخيل الحبر الأعظم (البابا) أو بالتفسير الغربي يأخذ بين يديه الحكومة العلمانية التي تتحكم في الناس وفي أحوالهم. وتتولى هذه القوة التقليدية اختيار الثورة وتلغى طبقة الإقطاع وتصدر المراسيم لإقامة الصناعات وتطلق الاستثمارات اللازمة وتنشئ بنفسها المصانع ثم تعمد بعد ذلك غالبا إلى التنازل لأشخاص أو منشآت خاصة تختارها بنفسها وهكذا نشأت المؤسسات وكأنما تتنازل عن إقطاعيات شاسعة، وفي الوقت نفسه تفرض على الطبقات الوطنية برنامج عمل جاد، وقد تحقق بالفعل ذلك أن ابن الشمس المبجل في المعابد بفضل أصله وجذوره إلى أميراتسو إله الشمس وبعدها انتقل إلى كل خلفائه وسلالته المنحدرين منه (أبنائه).

وعلى أثر كارثة ١٩٤٥ باستلام اليابان بعد إلقاء القنابل الذرية فوق هيروشيما في ٦ أغسطس ١٩٤٥ وفوق نجازاكي في ٨ أغسطس وقع في البلاد اليابانية انهيار لم يسبق له مثيل فقد ضاع منها الجنوب الشرقي الذي كانت قد فقدته مؤخرا، وأسوأ من ذلك انهيار كل ما تحقق من إنجازات منذ بداية العصر.. عصر سلالة الميديجي ١٨٦٨ تلك الإنجازات التي جعلت من البلاد اليابانية ظاهرة شاذة فريدة في الشرق الأقصى في مطالع القرن العشرين. وكانت معجزة اليابان الثانية (منذ ١٩٤٥) وعلى غرار كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا أن استطاعت إعادة بناء أسس انتعاشها من جديد ووصلت أندفاعاتها إلى مستوى تنمية لم يسبق تحقيقه من قبل كان بمنزلة إفاقة من الدواء.. إذ لم تعد اليابان هذه القوة العسكرية قبل عام

١٩٤٢ ولكنها أصبحت بإعجاز قوى اقتصادية رهيبة تتوقع الخطة الموضوعية
للعشر سنوات ١٩٦١ - ١٩٧٠ فى نهاية أعوام الخطة مضاعفة الدخل القومى
وارتفاع هائل فلو قدرنا الأساس افتراضا مائة عام ١٩٥٥ لكان الإنتاج الصناعى
وانتاج المناجم للسنة المستهدفة ٦٤٨ وعلى المقياس نفسه تصل صناعة الصلب
إلى ٢٩٦ وصناعة الآلات ٤٤٨ والصناعات الكيماوية ٣٤٤ وطبيعى فإن هذه
التوقعات ليست مؤكدة إلا أنها ليست فى الوقت نفسه مبالغاً فيها فالماضى القريب
يؤكد امكانية تحقيقها.

فقد عرفت اليابان معدلا للنمو بمتوسط ٤٪ كل سنة من عام ١٩٤٦ حتى عام
١٩٥٦ وكان هذا المعدل ١٠,٦٪ (فى فرنسا ٤,٣٪) وكان عام ١٩٥٧ حتى عام
١٩٥٩ بمعدل ٩,٢٪ ويظل هذا المعدل من عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٦٢ مرتفعاً
جدا وكلها معادلات تقارب فقط كلا من المانيا الغربية والاتحاد السوفيتى وتركز
خطة الأعوام ١٩٦١ - ١٩٧٠ على ارتفاع متوسط قدره ٨,٣٪ وليست أسباب هذا
التقدم والارتفاع أسبابا غامضة إذ تتمثل أكثرها فعالية لاشك فى تصريح سلطات
الاحتلال الأمريكية لليابان بإعادة تأسيس التروست أى اتحاد الاحتكارات الذى يقع
بين عدد من الشركات، وكانت تبدو فى البداية كمن لا أمل فيها فلم يكن ممكنا
إعادة احتكار الزايباتسو التى عمد المحتل إلى جعلها كما كانت على الرغم من
تدخل بعض المؤسسات الكبيرة ذات الشهرة الواسعة، ولكنها أنشأت مؤسسات تعد
اليوم بحق من أهم مؤسسات العالم فقد ساعد وأنجح رأس المال اليابانى هذه
المؤسسات وبارك تقدمها المتنامى غير المسبوق كما حدث تماما فى الولايات
المتحدة الأمريكية من نجاح رأس مال ضخّم بوحداثه العديدة التى تفوق بحسن
استخدام الأيدى العاملة ورأس المال على ما تستطيعه تلك الوحدات المتفرقة
وكذلك ما ينجز فى محيط شبه أسرى وبأيدٍ عاملة زهيد أجرها، ومن جهة أخرى
حيث لم يعد تمويل المؤسسات كما كان عام ١٩٤١ تمويلا ذاتيا فقد انطوى نجاح
الصناعة على مساندة من بنك اليابان لإعداد نظام متكامل من مؤسسات مصرفية
وشركات استثمار تتمتع بحرية وحركة أكثر مما هو فى فرنسا وكانت هذه

المؤسسات الكبيرة فى الواقع أكثر قدرة على اجتذاب رؤوس الأموال من صغار المودعين بطاقة الوسائل والدعايات على النمط الأمريكى .

وكانت النتيجة حركة مضاريات فى البورصة حتى بين أوساط الفلاحين الحذرين بطبعهم، فالكل بسبب الأرباح التى تتحقق مندفع إلى بورصة طوكيو عند الارتفاع المفاجئ فى الأسعار. ثم كان منذ يونيه ١٩٦١ حين بدأ فى البورصة «الانحسار» أن أعاد التعقل وعادت المدخرات إلى خزائن البنوك وخزائن التوفير، وهذا ما يفسر صعود الاستثمار صعودا عاليا لأكثر من ٢٠% من الإنفاق الوطنى عام ١٩٦٢ وصعود معدلات الفائدة التى تحصل عليها رؤوس الأموال الأجنبية خاصة الأمريكية منها وهى فوائد مثالية حتى الآن (وقتئذ) ذلك لأن اليابان لم تكن قد حررت بعد مبادلاتها فأرباح رؤوس الأموال المستثمرة لم يكن من السهل تحويلها إلى الخارج، وفى مواجهة الأحداث كتبت إحدى صحف سويسرا نقول: إذا ما استعرضنا الأوضاع فإننا نفضل اليابان عن جنوب أفريقيا حيث لازالت رؤوس أموال أوروبية كثيرة ترقد فى نعاس، ولاشك أن هذه البلاد اليابانية تمر بمرحلة تصاعد مستمر وتزدهر بأيد عاملة ذات مهارات تفوق المستوى المتوسط ولا يتميز حكامها بإيمان عجيب فى تحقيق النجاح فحسب بل بما لديهم من قدرات مدهشة كذلك، وبامتزاج رأس المال الأجنبى تحقق لليابان صعود ونمو عرفت بفضلهما أسعد أيامها .

فهل تدرك العناصر التى حركت هذا التصاعد وهذا التقدم؟ ذلك أن الأرقام فى اقتصاديات متحركة قائمة.. تشيخ بسرعة وتخون تقديرات المراقبين غير أن من المؤكد أن وفرة الأيدى العاملة (حتى الأشهر الأخيرة) كانت عوننا ضخما إذ تقول الإحصائيات أن عدد سكان الأرخبيل بلغ ٩٤ مليون نسمة عام ١٩٦١ وارتفع إلى ١٠٤ ملايين عام ١٩٧٠ أى بمعدل مليون كل عام، وهذه الزيادة السكانية لا تقف عثرة فى مسار النمو الاقتصادى ماداموا يتوقعون، ونكرر يتوقعون تضاعف الدخل القومى فى ١٩٧٠ . ومن جهة أخرى فإن رقابة أعداد المواليد تتوقع انحساراً فى تزايد عدد السكان وبالإضافة إلى ما سبق فقد حدث عام ١٩٦٢ أن سوق العمل وفدت عليه طبقات متخلفة من الحرب الأخيرة تتخطى عروض العمل وبالذات

للأيدى المؤهلة الطلب، ولذلك لاحظنا مؤخراً ارتفاع مستويات الأجور بالنسبة إلى المهندسين والمدرسين، ومما لا شك فيه فإن مستويات الأجور ومستويات المعيشة تظل أقل كثيراً من مثيلاتها في الغرب في الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى أى حال فإذا ما وضعنا في اعتبارنا الفروق في السلوك والعادات وكذلك في الاحتياجات لوجدنا الأمور أبعد من أن توصف بالكارثة، فلا زالت الأكواخ القذرة منتشرة حول أوزواكا وضواحي طوكيو حيث يزداد في هذه المدينة الأخيرة عدد السكان سنوياً بـ ٤٠٠ ألف نسمة منهم ٣٠٠ ألف من المهاجرين وإن كانت الحصة الغذائية ٢١٠٠ سعر في المتوسط وتصل الموارد بالدولار إلى ٢٠٠ و ٣٠٠ أى أربعة أمثال الهند مع تنمية عمليات صيد الأسماك الضخمة التي تضع اليابان على قمة دول المنطقة وحتى المحيط الأطلنطي ومياه الكاريبي (الإنتاج ٦ ملايين طن سنوياً) ومع تحسن طراً على إنتاجية الأرض الزراعية بحيث قررت الولايات المتحدة الأمريكية ونصحت بإلغاء وبيع كل ملكية تجاوز هكتارين ونصفاً (ومع ذلك حققت الزراعة في الأحواض الزجاجية (الصوبات) محصولاً إضافياً مع إعداد نظام لزيادة محصول الأرز بعيداً عن آثار الأعاصير الصيفية ولا شك أن البدايات كانت متواضعة بطيئة، وأصبحت النتائج اليوم بما أمكن من تهينة وإعداد جزيرة بيزر الواسعة وجوها البارد مشجعة مثمرة، كما يساند السوق الداخلي الانطلاق الصناعى، ويلاحظ من المشروعات الجديدة ارتفاع مستوى المعيشة كغسلات الملابس وأجهزة الترانزستور والتلفزيون وآلات التصوير؛ إذ تعتمد الشركات الكبرى ومصانعها أولاً إلى إغراق السوق الداخلى حيث بدأت الأنواع والأذواق تكثر، مما ينبئ عن تصاعد معدلات الاستهلاك في اللحوم والأسماك والمخبوزات والحلوى على الطراز الغربى عن المحفوظات من المواد الغذائية والأدوية وخاصة المهدئات والمشروبات الكحولية من الأرز في صورة الجعة وكذلك الشاي الأخضر وإنتاجية (٧٧ ألف طن كل عام) وكذلك الشاي المشابه لشاي جزيرة سيلان وقد بدأ التشبه بنماذج أوروبا في محتويات المنازل الداخلية والملابس ومن المؤكد أن الإنسان اليابانى - كما وصفه صحفى سويسرى - إنسان ثنائى الحضارة، قادر على ارتداء الملابس على الطراز الغربى فى الشارع ثم

العودة فى المساء إلى عاداته وتقاليده اليابانية، وواضح أنه يزداد التصاقاً وانجذاباً نحو النماذج والأنماط الغربية ومع ذلك تظل المشاكل قائمة .. فليس كل شيء فى الاقتصاد اليابانى على ما يرام فهو معجزة فى الجهد والعمل الدؤوب بصبر وذكاء وله فى الوقت نفسه حدوده وهشاشته وعثراته وأخطاؤه وأخطاره، ويجب ألا ننسى أن الإصلاح الزراعى خلق جماعات من الملاك الصغار جداً وأصغرهم مكرس لخدمة الأكثر حظاً وكلهم عاجزون عن أن يتجمعوا وخاصة ترك المكان للحرية فى إقامة زراعة عصرية وعلمية حديثة وكما نوه أحد الصحفيين فى تقرير له قال: كانت الاشتراكية هنا فقط تستطيع .. (كذا) ذلك أن كل التجارب والمحاولات الاشتراكية فى مجال الإصلاح الزراعى فشلت تماماً فى كل الأزمنة وفى كل المواقع، وكلما أرادوها إصلاحات سريعة جذرية (حاسمة) أحدثت خيبة أمل وحقت فشلاً تاماً، ذلك أن الكيانات الزراعية هى أكثر الكيانات مقاومة فضلاً عن أن اليابان التى تعيش بعدد من السكان يقترب من ضعفى عدد سكان فرنسا على مساحة نصفها القابل للزراعة بمقدار ١٥ ٪ فقط مقابل ٨٤ ٪ عندنا فتكون اليابان بلادا ذات موارد طبيعية بائسة.

ولا تدور الصناعة بغير الصوف والقطن والفحم والحديد الخام ويستورد النفط، كما يحتاج العمل إلى شراء كميات ضخمة من الآلات والمعدات من الخارج وقد اتضحت المخاطر منذ سبتمبر ١٩٦١ حين ظهرت المؤشرات المزعجة بسبب خلل الميزان التجارى على الرغم مما أطلقتته حكومة أكيدا من عوامل التفاؤل حتى أن التوازن لا يحدث على أقل تقدير إلا باحتساب تكاليف إقامة جيش الاحتلال الأمريكى، ومن ثم كان التسليم بضعف هذا التفاؤل المزعوم. والمشكلة بالنسبة لليابان المرتبطة بازدهارها الصناعى هو كيف تنتج وأكثر منه تبيع ؟ ومن هذه الناحية فإن الحالة تظل وقتية وعابرة ذلك أنها تعيش ولا تستطيع العيش بغير المبادلات مع العالم الحر، وذلك رهن بازدهار هذا العالم الحر نفسه ورغبته وهذا فى حد ذاته مشكلة .. ولازلنا نذكر اليابان قبل عام ١٩٣٩ وهى تمارس إغراق الأسواق دون تخطيط مدبر ثم حقيقة يابان صناعية قوية يشجعها تنافس الأسعار فى تحقيق إنتاجية بأدنى الأجور، ذلك ما دفع الغرب وخاصة فرنسا - الحريصة

جدا فى هذا الشأن- إلى سياسة من التخفظ والحذر أدت إليها ذلك البطء فى عقد الاتفاقيات التجارية الموجلة باستمرار.. أدى ذلك إذن إلى إثارة قلق اليابان قلقا جعلها أبعد من أن يغريها «حيا نهر»، وما يتيح لها ذلك الاندماج عمقا فى الاقتصاد الصينى وبلاد جنوب شرق آسيا، ومن ناحية أخرى نجد الاشتراكيين والشيوعيين اليابانيين مضطرين اليوم إلى تدبر يوم ينتهى فيه الاحتلال الأمريكى من انتفاضات تهب بين أفراد المجتمع منها على سبيل المثال لا الحصر عودة الدستورية البرلمانية لعام ١٩٥١ وعدوة المنظمات النقابية وهى البطيئة التكوين فى هذا المجتمع الهادئ المطيع مادام كبار الرأسماليين يبدون تساهلا تجاهها. وكل هذه الاهتمامات المتناقضة شملتها انتخابات عام ١٩٦١ التى لم تتح سوى بعض النجاح المتواضع لأحرار الوسط أى لكبار رجال الأعمال الذين قاموا طبقا لتقديرات بعض المراقبين بصرف مبلغ يقارب خمسة مليارات ين (١٠٠ ين تساوى تقريبا فرنكا واحدا) كى يحافظوا على الفرصة الأخيرة وقطع الطريق على الإشتراكيين. إلا أن المشكلة يستحيل تجنبها طويلا ذلك أن موجة الازدهار هذه إنما تفرض جوا من التوتر المستمر كما تفرض جهودا وواجبات والتزامات فوق ما يحتمله البشر فمدينة مثل طوكيو (١٠ ملايين نسمة) تختنق بسكانها حيث لا تتسع لأكثر مما يتيح ضيقها، وهى تحلم ببناء أحياء جديدة ورد جزء من خليجها وهو ما حققته مدينة أوزاكا كى تحتشد فوقها منشآت الصناعات الثقيلة إلى جوار «مستودع» الأيدى العاملة التى تحتاج إليها.. تفسر لنا تلك التفاصيل كيف يتعايش العرض المؤقت الزائل إلى جوار الفخم العظيم فى التجربة اليابانية، أما على المستوى السياسى وفى كلمة أشمل وأرحب فترسم عادة عوامل التشكك والريبة من أن تصبح اليابان بين يوم وليلة وبمرسوم وقرار أمريكى إحدى الديمقراطيات البرلمانية حيث تشير بعض العلامات المعينة إلى هذا الاحتمال فتثير المخاوف منه سلفا.. لقد كانت حاضرة ماثلة تلك النزعة الأبوية لدى رجال الصناعة.. حاضرين فى حذر ويتربعون ذلك أن موجات العنف الوطنية بالأمس لم تكن قد انطفأت بعد فاليابان تزخر بأحزابها وعنف اليمين المتعصب المستند إلى مالها من ركائز تقليدية موروثات ولايزال أثرها فى نفوس جماهير الشعب وعقلياتها وهكذا

رأينا الإمبراطور الذى ركع خاضعا ذليلا أمام المنتصر.. يظل إمبراطورا بحيث يجازف من يجرؤ على مقاومته أو يحتج عليه أو على إقرار أسرته بأن يقتله واحد من الناس.. فيابان الأس ويابان كل العصور تهب للدفاع عن نفسها وعن كيانها...

وفى يوم ١٢ نوفمبر ١٩٦٠ كان يتحدث أمام التليفزيون الزعيم الاشتراكى أنجييرو آرما الملقب بميراىو^(١) اليابانى وكان يحاول كشف زيف التحالف بين الولايات المتحدة واليابان بشأن الأمن ويصفه بآلة العنف الأمريكى «اليانكى»، وكان يشاهد ويستمع إليه ملايين من الشعب اليابانى وسرعان ما رأوا أحد دتلاميذ المرحلة الثانوية وعمره ١٧ سنة يندفع ويسدد إليه طعنة قاتلة وذراعا منعقدان مستندان إلى خنجره طبقا لتعاليم جودوكا حتى لا تنحرف الطعنة، ثم إذا به بعد عشرين يوما وهو قابع فى زنزانته سجيناً.. ينتحر، وفجرت الجريمة والانتحار موجات من الانفعالات إذ لا يمكن لليابانيين أن يحرموا أنفسهم من إبداء إعجابهم بمن يعرف كيف يموت فى سبيل آرائه ولو أثارت الجريمة عليه مشاعر السخط أو الغيظ، وهذه الوقائع والأحداث وغيرها.. ألا ترى فيها وفى مثلها ردود أفعال ونتائج نابعة عن عقيدة دينية؟ فاليابان بمقاييسنا بلد دينى قليلا.. مشغول بما وراء تناقضات الهند.. فإن ما يتولى القيادة والتوجيه هنا إنما هى رموز المجتمع والثقافة والشرق، ولم لا نقولها رموز حضارته!!

(١) ميرايوخبير وخطيب الثورة الفرنسية ١٨٤٨ - ١٩١٧ وكاتب مسرحيات وأديب كان يتأثر الجماهير بخطبه

حاشية (١٩٦٦)

تعطى اليابان - أكثر فأكثر - ١- الانطباع المعبر عن القوة المستردة أو التي عثر عليها وتتمتع بهذه القوة الذكية الواسعة إلا أن كل نجاح تتبعه توترات ولا يمكن لليابان الحفاظ على توسعاتها إلا إذا تأكدت من مفاذ لمطلقاتها وهي تزداد كل يوم إعجابا وانجذابا نحو سوق الصين الضخم القريب منها، وانجذابا نحو احتمالات اتفاقها مع الاتحاد السوفيتى ولو بإعادة بعض جزر الأرخبيل والتنازل له عنها فى جزر كوريل ومساهماتها فى تنمية إقليم سيبيريا الشرقية.. فهل تستطيع اليابان أن تؤمن بلادها إزاء جاريتها الصين دون اللجوء إلى التسلح النووى، وكذلك تجاه الإتحاد السوفيتى؟ فقد أعلنت اليابان اعتراضها على كافة التفجيرات النووية وأبدت غضبها وعدم تحملها للغواصات النووية الأمريكية فى مياهها إلا بشروط معينة محددة حتى فى نطاق المعاهدة الصينية الأمريكية فى هذا الشأن. ثم إن تجربتها الكبرى المستمرة على الصعيدين السياسى والاجتماعى هى من النمط والنموذج الشمولى «الجماعى»، وليس التحكمى المتسلط.

ومنذ أعلن رئيس الوزراء أيكيدا انسحابه لأسباب صحية فى ٢٥ أكتوبر ١٩٦٤ انتقلت أعياء هذه السياسة والتزاماتها لتقع على عاتق رئيس الوزراء الجديد ساتو منذ ٩ نوفمبر ١٩٦٤ وحزب الأحرار.

الجزء
الرابع

أوروبا

مقدمة

نبدأ مقدمين ببعض المعلومات التى نؤمن بفائدتها وإن كانت بديهية:

١ - أوروبا شبه جزيرة آسيوية هى رأس صغير من آسيا ومن ثم نجد تفسيراً للقول بأنها ثنائية النزعة: أ - كان اتصالها بالأمس بمساحة قارية وافرة نحو الشرق صعباً ثم أصبح سهلاً بفضل تطور السكك الحديدية واليوم بفضل الطيران .

ب - جعلها اتصالها من كافة الاتجاهات بالجهات ببحار الدنيا السبع أشبه بفن ورحلات سفن وقوافل وانتصارات تحقق كلها على مساحات المياه المالحة الشاسعة، ولم يخطئ بطرس الأكبر فى رحلته الأولى إلى أوروبا عام ١٦٩٧ فى قوله: سوف يعمل الإنسان فى مصانع السفن فى القرية المعجزة ساردام القريبة من أمستردام إذ تركت هذه النزعة البنائية منذ انتهاء أعوام القرن الخامس عشر وانفتاح أوروبا الغربية على بحار الدنيا مع بداية الاكتشافات الكبرى .

٢ - ثم تقع التعارضات بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب أو بين البحر المتوسط ويدعى كذلك البحر الداخلى الجنوبى ذو المياه الساخنة والبحار

(١) منطقة جنوب شرق آسيا بين الهند والصين وتشمل بورما وتايلاند وماليزيا وكامبوديا ولاوس وفيتنام الشمالية والجنوبية .

الشمالية الباردة بحر المانش وبحر الشمال وبحر البلطيق، انعكست كل هذه التعارضات والاختلافات - من أى نوع كانت - على الناس والأغذية والميول بل وعلى قدم الحضارة السائدة وقتئذ. كما كانت هنا خلجان لحضارات متميزة تربط الشمال بالجنوب منها الخليج الروسى والخليج الألماني والخليج الفرنسى تضيق كلما اقتربنا من غرب أوروبا بشكل فريد يوحى لأى عالم جغرافى بطرق القمع.. ثم تنفتح بسعة نحو الشرق.

ثم إن كل الاختلافات والتناقضات بين الشرق والغرب أو الشمال والجنوب كما فى الجغرافيا إنما يرجع إلى أسباب تاريخية . فالغرب يتجه نحو روما والشرق يتجه نحو القسطنطينية، ويقع الانفصال الكبير فى القرن التاسع من عصرنا إثر النجاح الحاسم الذى حققه كل من القديس ميثود^(١) (مبشر السلالة الصقلية ٨٢٥ - ٨٥٥ والقديس سيريل^(٢) وهما الشقيقان اللذان استطاعا تشكيل المستقبل الشرقى.. مستقبل العالم الأورثوذكسى. ثم وقع فيما بعد انفصال آخر بين الشمال والجنوب هذه المرة إثر مولد البروتستانتية التى يمكن أن نقول إنها مزقت المسيحية بصورة فضولية غريبة وبشكل يشبه بعض الشبه الليم الرومانى القديم.

مواقع الأراضى

والحريات

تحكم فى مصير أوروبا من أولها إلى آخرها التطور المتسمر للحريات الخاصة والصراعات التى تتميز بها بعض الجماعات المعنية فبعضها ضيق وبعضها فسيح وتتعارض هذه الدريات أحيانا كثيرة بل وتتباعد إحداها عن الأخرى.

(١) و(٢) قديسان بشرا بالإنجيل بين الشعوب السلافية.

الفصل الأول

ساحة الحريات

ساحة الحريات

تساعدنا الخريطة المرفقة فلا نعدّد سرد مجموع الأحداث والغزوات وكل ما بدا بانقسام الإمبراطورية الرومانية نصفين تحت الإمبراطور ثيودوسيوس .

١ - ومنحه كلا من ولديه نصفاً، ومنذ ذلك التاريخ كان هناك دائماً أو يكاد بحر متوسط شرقى كثيف السكان غنى ذو حضارة قديمة مزدهرة بصناعات، وغربى حسن إن لم يكن جاهلاً أمياً فظاً حيث أقامت روما حدثاً كانت تترك فيها أحياناً بعض يذابيع حضارتها أو الطابع المحرف لحضارتها ووقعت حين تم التقسيم عام ٣٩٥ سلسلة من الهزات الأرضية على الحدود الثلاثة التى تحيط بالجزء الغربى: فى الشمال الشرقى على امتداد نهر الراين ونهر الدانوب وجنوباً فى البحر المتوسط على حدود الأطلسية الطويلة من الدانيمرك حتى جبل طارق وكانت دائماً هادئة، وكانت هذه الكوارث والأخطار هى التى حددت رقعة الأراضى الأوروبية وهى:

حدود نهر الراين والدانوب من الشمال الشرقى، ولم يستطع هذا القطاع مقاومة ضغط قبائل البربر الفارين أمام جحافل الهن عام ٤٠٥ وهجماتهم التى بلغت مشارف إيطاليا وانتهى بها المطاف حتى توسكان وكان بعد ذلك بزمان يسير فى ٣١ ديسمبر عام ٤٠٦ أن عبرت جماعات عن البربر نهر الراين المتجمد قرب ماينس واجتاحت بلاد الغال وهكذا أمكن اختراق الباب الذى لن يعاود انغلاقه إلا

بعد فشل قبائل الهن على ساحات قطلونيا عام ٤٥١ وأمكن بسرعة إعادة الأمور إلى نصابها السابق فاستعاد الغالبون أيام حكم الميروفنجيين بلادهم على حدود الراين وقام الكارولنجيون فيما بعد بمد حدودهم إلى أبعد من النهر بعد إخضاع كل أراضي جرمانيا لسلطانهم بل وامتدوا كذلك حتى مشارف هنغاريا بشعوبها من الآفار (شعوب من أواسط آسيا) ويتعزز ويتوطد هذا التقدم نحو الشرق بالتحول إلى المسيحية على يد البابا القديس بوثيفاس وهكذا ينجح الغرب فيما سبق وفشلت فيه حكمة الإمبراطور الروماني أغسطى والإمبراطور البيزنطى تيبيريوس الذى عجز عن وقف زحف الآفار القادمين من أواسط آسيا وتمكنوا من اجتياح البلقان وفى مواجهة الغرب الآسيوى تصدت ألمانيا منذ ذلك التاريخ لحماية العالم الغربى وكان أهم إنجازاتها: تمكنها من وقف زحف الفرسان الهنغاريين فى ميرسبورج عام ٩٣٣ ثم استطاعت بعد ذلك دحرهم فى معركة أوجسبرج عام ٩٥٥ وبذلك استحوطت الإمبراطورية الرومانية المقدسة تدعيم بقائها عام ٩٦٢ حين أرادت دخول إمبراطورية الكارولنجيين التى أسسها شارلمان فى مولد العام ٨٠٠ ولم تعد الحدود الشرقية مهددة بل اكتسبت أراضي جديدة تجاه الشرق مع نشأة البلاد المسيحية: بولونيا وهنغاريا وبوهيميا مع تصاعد الاستعمار الجرمانى (القرن الثالث عشر) ثم تستقر الأمور فى هذه البقاع ويسود الهدوء حتى غزو قبائل المغول حوالى عام ١٤٢٠ والتمكن بمعجزة من وقف زحفها على حدود بولونيا والإدريانى وأصبحت روسيا كىيف هى الضحية الوحيدة.

وضحت فى اتجاه الجنوب خطورة الحدود الجنوبية منذ النجاح الذى حققته الغزوة الإسلامية، وعلى الأخص بسبب ما وقع من خيانات متتالية من بلاد شمال إفريقيا وكانت تؤمن حتى ذلك الحين بالمسيحية وكذا من شبه جيزو وأسبانيا وجزيرة صقلية. وبهذا صار غرب البحر المتوسط «بحيرة إسلامية» ودعت الضرورة إلى تكوين فرقة فرسان يكتب لها النصر مع قائدها شارل مارتل^(١) فى معركة، قرب مدينة بواتييه عام ٧٣٢ وبدأت تبشير النصر تهب على كل الأراضي إلى ما وراء نهر الراين حتى ساكس (منطقة ألمانيا الشرقية - شرق ألمانيا) حتى هنغاريا. وكانت تبشير قصيرة العمر. فمزال الإسلام هو الجار

القوى، وكان على المسيحية أن تشن حربا ضروسا دامية وتخدع مسوغها بأنها حرب مقدسة فإذا هي الحروب الصليبية التي استمرت زمنا طويلا وتندلع الحرب الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ ولم تكن بالطبع أولى المعارك ضد الإسلام ولكنها أول حرب جماعية واعية وآخرها ولم تضع حدا للصراع. حملة القديس لويس فى تونس عام ١٢٧٠ حين استعاد المصريون مدينة عكا عام ١٢٩١ توقفت مسيرة هذه المغامرات الشرقية وإن ظل نداء الحرب الصليبية يؤرق النفوس والقلوب مع الانتفاضات - بالطبع - هنا وهناك حيث وقعت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وقعت توابع الحروب الصليبية الانفرادية كما أطلق عليها المؤرخ الفونس ديبيرون الذى تتبع حتى القرن التاسع عشر هذه النزعة الروحانية المستبدة التى ترويه القصص بما فيها من مغامرات استعمارية بالأمس. وقد نتساءل هل كلفت الحروب الصليبية العرب بين (أعوام ١٠٩٥ و ١٢٩١ أربعة ملايين من البشر أو خمسة كما توقعت إحصائيات حديثة أجريت مؤخرا بالقياس إلى بلاد أوروبية عدد سكانها إبان بداية يوم اندلاع هذه الحروب قرابة خمسين مليون نسمة، تلك إحصائيات غير دقيقة لا يجزم أحد بصحتها وعلى أية حال كانت الحروب الصليبية مأساة لأوروبا الوليدة، أما نجاحها الأول الباهر والمزدوج فكان استعادة غزو قبر السيد المسيح المبكر فوراً، وأما النجاح الباهر النهائى فكان هذه المرة باستعادة السيطرة على البحر المتوسط حيث تتجلى وتنقل الثروات وأتمت هذه الحروب من ناحية أخرى تحديد المواقع الغربية لأراضى قارة أوروبا فوق الأطراف الجنوبية الأهم من كافة الحدود الأخرى حتى عصر الاكتشافات البحرية الكبرى فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر

٣ - فى مواجهة الغرب والشمال الغربى حتى البحر الأبيض المتوسط:

تأخرت ميول أوروبا البحرية باستثناء الأراضى المنخفضة (هولندا) أيرلندا وإيطاليا ولكن أصابها مفاجأة الغزوات النورماندية من قبائل الشمال، ولئن كانت أخذت على غرة وأقلقتها تلك الغزوات، فقد حققت على المدى الطويل من هذه الغزوات بعضاً من النجاح لم يكن متوقعا مع فوائد أخرى، وليس الأمر هنا الدفاع عن هذه الغزوات فهى أشبه بالقرصنة القاسية لا ترحم، إذ عمدوا إلى ابتزاز أوروبا

كلها وجعلوها - بصورة وحشية - كرهينة تحت أيديهم ومع ذلك فكيف لا ننظر بعين الإعجاب والإعجاب إلى جولاتهم عبر المساحات الشاسعة من الأراضي الروسية واكتشافهم القارة الأمريكية، وقال عنها هنرى بيرن لم تكن أوروبا فى حاجة إليها بعد، والمؤرخون الاقتصاديون أكثر تسامحا وتفهما تجاه قبائل الفايكنج (غزاة الشمال) أتاح ما سلبوا من كنوز كانت دفيئة نائمة وخاصة كنوز الكنائس حركة تداول أنقذت أوروبا من عزلتها الاقتصادية وانطوائها على نفسها، وهى الأزمان التى مرت بالغرب فى أعقاب سقوط روما: فقبائل الفايكنج - حتى بسرقاتهم هذه - كانوا هم الممولين الذين أتاحوا للاقتصاد الأوروبى انطلاقته

ويجب لكى نفهم أول حضارات أوروبا استرجاع هذه الكوارث التى حاقت بها وتخيل الليالى المدلهمة فى القرنين التاسع والعاشر وفقر قارة ناضلت وكافحت وكان ذلك كله لزاما عليها حتى تعيش... إذ كانت فى الواقع محرومة من الأسواق التى تنطلق فيها مكتفية باقتصاد ولا يكاد يقيم الأود... كانت كإحدى القلاع المحاصرة أو بالأحرى المحتلة تلك هى أوروبا البائسة التى لم تكن لتتحمل ثقل الدول الشاسعة فما تكاد تنشأ حتى تنهار أو تتفسخ فقد قامت إمبراطورية شارلمان بسرعة وانهارت إثر وفاة ذلك الإمبراطور الكبير عام ٨١٤ والإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يطل بها الزمن طويلا حتى صارت منزلا خربا متهدما، وتنقسم أوروبا الغربية فى عديد من السيادات الإقطاعية بما عليها من رقيق الأرض فإذا الأمور تودى إلى نشأة إقطاعيات أقل حجما لا تعدو صورة نظرية تجريدية فى مختلف الممالك الغربية حيث يتحضر بعضها وإن وقع بطيئا كمملكة، أما الممالك الأخرى فقد ظلت على العكس جامدة جدا (متشبثة بالماضى القديم) كالرايخ، وعلى الرغم من ذلك فإن هذا العالم الأوروبى المتألم بما تعرض له من سوء المعاملة فى الداخل وتريص الأعداء به من الخارج - على أهمية الانقضاء عليه - فقد صارت لهذا العالم حضارة ذات تجانس واضح ويجب أن نذكر بعيدا عن انقساماته واختلافاته أن حضارته مع ذلك الزمان كانت كما قال لوسيان فيبفر تواجه مشاكل عديدة ذلك أنها حضارة نشأت من بين امتزاجات عرقية متعددة وامتزاجات اقتصادية متنوعة وصراعات متكررة ومعتقدات دينية مشتركة

وعصبيات واضطرابات حاولت جاهدة أن تجد لها العلاج وكان النظام الإقطاعي هو الذى بنى أوروبا فوصلت أوروبا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مرحلة شبابها الأول بمرحلة عنفوانها تحت تأثير نظامها الإقطاعى الحى أى بما اختصت به من نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى المميز أصلى فى قوة... حضارة كانت قد بلغت مرحلة الاختمار الثانية أو الثالثة. ولكن كيف توصف هذه الحضارة «متعددة الألوان».

(١) لم تكن فى أوروبا ولا فى غيرها إقطاعيات لم يسبقها تفسخ وتحلل نظام سياسى عريض وفيما نحن بصددہ الآن، فإن هذا النظام السياسى كانت تمثله إمبراطورية.. الكارولنجيين الكبرى ومن هذه الكارثة كان النظام الإقطاعى النتيجة الطبيعية، كهذا الضابط الفرنسى فى هزيمة يونية ١٩٤٠ كان يحلم لوأن كل وحدة من وحدات القاعدة تمكنت - ولو بمعجزة - من استرداد إرادتها الذاتية لحظة، أى حق التصرف بما تراه دونما اعتبار أو احترام للأوامر التى تربطها بقيادة بدأت تفقد فعاليتها فكانت دون أن تدرى تدفع كل مجموع نحو الارتداد والتقهقر والهزيمة... وقد نشأ النظام الإقطاعى نتيجة رد فعل مماثل مع الفارق الأساسى بأنه لم ينشأ عن جراء كارثة عاجلة ككارثة عام ١٩٤٠ وكان لا بد من مرور قرون وقرون حتى تستقر وجاءت طبيعتها على أى حال نتيجة لرد فعل دفاعى ورد فعل محلى حيث القصر الحصين على صفوة من قطعة أرض قرية، القرية أو القرى التى يحميها... لم تكن هذه الصورة نظاما مجانيا بلا مقابل كما لم يكن تعبيرا عن رفاهية، إنما كان أداة دفاع، ومع ذلك فإن النظام الإقطاعى شئ آخر مجتمع مشيد على أساس علاقات الإنسان بالإنسان وعلى سلسلة من التبعات، على اقتصاد ولم تكن الأرض هى وسيلته الوحيدة وإنما كانت الوسيلة الشائعة التى يسد منها أثمان الخدمات، فقد حصل السيد من مليكه أو من سيد بعلمه مرتبة إقطاعية (أرض) تمثل سيادية على عاتقه (تفويض) أن يوفر له عديداً من الخدمات منها:

أ - سداد فدية السيد

ب - حفل تدرج الابن الأكبر إلى مرتبة فارس

ج - عقد قران الابنة الكبرى

د. حين يسافر السيد إلى الحرب الصليبية وكانت أربع حالات عليه سداد تكاليفها، وبدوره تنازل السيد لسيد آخر أقل مرتبة أو الفلاحين ولهؤلاء تنازل عن أرض مقطعة خاضعة لضريبة سنوية على كل فلاح فلاحتها وحرثها مقابل سداد إتاوة نقدية. والسيد لقاء ذلك مكلف بالدفاع عنهم وحمايتهم.

ومع هذا السهم الهرمي للطبقات الاجتماعية بالتزاماته وقواعده وفي مثل حشد القوى، هكذا كان الغرب حريصا على الاحتفاظ وصيانة ميراثا مسيحيا ورومانيا هدفا لتحقيق بقائه ومعيشته، وهو الميراث الذي امتزجت به مفاهيم وأيديولوجيات ومزايا النظام الإقطاعي السیادی، وحضارته المميزة، وعمليا فإن أوروبا التي نسبت آنذاك حتى اسمها بدأت تتشكل كعالم محوط بالحواجز... يعمل حسابا للمنطقة الصغيرة فقط للرقعة الضيقة!! وكانت هناك في البداية لاشك حسدات كبرى في بدايات الحياة الأوروبية حيث كانت هذه المناطق الصغيرة تتمتع بحرية النمو كما يحولها كنبات حرطابق وسرعان ما شعرت كل بقعة بأن عليها أن تصبح كيانا متيعا قويا قادرا على الذود عن أرضه وعن استقلاله. والباعث على الدهشة أنه على الرغم من هذا التقوقع السياسي من علامات تضافرت لبعث حضارة ثقافية وزراعية وقد نوه بذلك الرحالة المسيحي القديس سان جاك دي كمبو ستيل فقال سوف يشعر المسافر المتنقل أنه في بيته سواء كان في مدينة لوبيك أو في باريس أو في لندن أو في بروجز أو في كولونيا أو ميلانو أو فينيسيا إذ القيم في كل مكان والفضائل الروحية هي شأن القيم الدينية والثقافية وقواعد الحرب والحب والحياة والموت واحدة في كل مكان من إقطاعية إلى أخرى مهما كانت صراعاتهم وثوراتهم ونزاعاتهم، لهذا تشعر مثلا بعقيدة مسيحية كما ذكر المؤرخ الفرنسي مارك بلوخ ١٨٨٦ - ١٩٤٤ بما قد نسميها حضارة الفروسية.

حضارة التروبادور شعراء غنائيون وشمال أسبانيا اشتهروا في جنوب فرنسا أو اليروفير (شعراء وغنائيون اشتهروا في شمال فرنسا) ... وأخيرا حضارة الحب العذرى ... حب الغزل. وهكذا أثمرت الحروب الصليبية... أثمرت تلك الوحدة التي كانت بمنزلة تحركات شاملة، ومغامرات وانفعالات جماعية مشتركة لكل بلد من هذه الأوطان الصغيرة.

حرية أو أفضل الحريات فى القرن ١٨

لو اختبرنا الأحداث فى ذاكرة حديثة وسألناها أن تبرز لنا أهم أحداث مرت على أوروبا منذ القرن الخامس أو حتى الثامن عشر إلى يومنا هذا فسرعان ما تظهر لنا على الشاشة كلمة الحرية أو الحريات الأوروبية... ذلك أن كلمة الحرية هى مفتاح كافة الأحداث وقد احتار العالم الغربى بنفسه فى نضاله الأيديولوجى ولم يكن ينقصه من غاية النيات البعيدة ما حسن.. اختار أن يطلق عليه العالم الحر ويفض بلفظ الحرية كافة أشكالها وعلينا أن نتفق على ذلك حتى فى الشكل التعسفى الطاغى المغاير للمشروعية والعدل، ولم تتوان هذه الأنواع من الحريات عن التصارع فيما بينها وتهديد إحداها الأخرى فهى تتصدى لتجديد نطاق أو إلغاء آخر ثم تواجه مع خصم ثالث وهكذا... وعموما كان هذا التوالى الذى لم يكن أبدا هادئا ولا سيما أحد أمراء نجاح القارة الأوروبية وتطورها وارتقائها لما يجب أن نحدد أن ما نقصده بلفظ الحرية ليس الحرية الفردية (معياري قياس العالم الحر اليوم) وبالتالي حرية الجماعات، ومما له دلالاته ولاشك هو أن العصور الوسطى تحدثت عن المتحرزين وجمعها ليبرتاس والكلمة لاتميز بين المزايا أوجورا ذلك أن الحرية فى الحقيقة إنما تعنى مجموعة الحصانات وكذا المزايا التى نحتفى وراءها جماعات من الناس أو المصالح فما إن تشعر بقوتها بفضل هذا الاحتماء حتى

تنفض على الآخرين بلا حياء، وكانت هذه الحريات الجماعية بطيئة في مجموعها وظلت بطيئة فيما بعد حين أريد إعادتها إلى حدود معقولة... أو نشأت محاولات لكسرها، عموما كان لديها بعامة حياة صعبة قاسية وكان تحرير الفلاحين أول ما أتعب هذه البلاد وآخر ما أنجزته وقد نقول: إنه لم يكتمل حتى اليوم تحرير الفلاح بصورة تامة ونهائية فلا حرية بالمعنى المفهوم إلا إذا انتفت أية ملكية خارجية بين الفلاح وأرضه، ملكية سيادية إقطاعية أو مدنية أو رأسمالية... المهم ألا يحس الفلاح بأى تبعية تثقل كاهله، وأخيرا أن تقيم أرضه - بإنتاجها - أوده، وتوفير غذاءه ومن يعول.

وأن توفر له ما يعينه إذا قصد السوق المجاورة على شراء ما يلزمه واقتنائه على الأقل. ذلك بعض ما عاناه الفلاح في أوروبا خلال مسيرة طويلة في الماضي وما يتمتع به من حرية نسبية تفضل مصير فلاح آخر أكثر خضوعا منه بكل تأكيد... ويجب بالمناسبة أن نعرف أن كل وثبة اقتصادية كانت تجلب للفلاح الخير، وبذلك ارتفعت الإنتاجية الزراعية في كل مكان حين كانت اليقظة الاقتصادية في أوروبا منذ القرن العاشر أو قبله بقليل سواء في مناطق الشمال الجديدة حيث تنتشر الأراضي الجرمانية وأراضي بولونيا وأراضي التناوب الزراعى كل ثلاث سنوات وكذلك أراضي المناطق النوبية إيطاليا وفرنسا الجنوبية حيث تكثر الزراعة التناوبية كل عامين وهو ما يطلق عليه استراحة الأراضي لإنتاج الحبوب.

وارتبط ارتفاع الإنتاج الزراعى بارتفاع فى المعدل الديمغرافى للسكان وظهور المدن، وكانت عبودية الفلاح بالأرض قد بدأت تخف حدتها وبدأ مصيره يتحرر من القيود التى كان يرزخ تحتها بعد أن كان من رقيق الأرض وبعد تطوره من حامل للسيف إلى رجل تابع للكنيسة ثم إلى رجل ممسك بالمحراث.... وهنا وقعت المفاجأة فقد وقع «إهمال للأرض إذ تولى عنها مقابل مبلغ نقدى سنوى زهيد يدفع للمالك القديم.. وقع ذلك والأراضي الزراعية يومئذ وفيرة والزراع نادر... أى حين ظهرت الحاجة إلى اليد العاملة والحاجة إلى إنسان أكثر من الحاجة للأرض ولاشك كانت هناك أراضي شاسعة (ليست كلها) لم تتحقق فيها

حرية الفلاح بتعبير المؤرخ هنرى بيرين متحدثا باسم الفلاح فى الغرب فى القرن الثانى عشر.

لم تكن تلك الحرب ولا كان هذا التحرر كاملا ولا عاما أو نهائيا بعامه، فقد كان ثمة اتجاه ينادى بترك الأرض للفلاح يكون سيدا عليها، وتحديد قيمة الضريبة مسبقا وتضاءلت على مر السنين حتى صارت تدعو للسخرية. ومع ذلك فلم يكن الوضع مشكلة امتيازات منحت إذ لم تحظ باستقرار عليها بعد، ولم يعد ملاك الأراضي بنوع من الحقوق يمكنهم من استعادة سلطانهم الجائر المتعسف وقد قرأنا عن عصيان الفلاحين وانتفاضتهم فى فرنسا عام ١٣٥٨ وثورة عمال إنجلترا وفلاحها عام ١٣٨١ والثورة المفاجئة العنيفة من جانب فلاحى ألمانيا عام ١٥٢٥ - ١٥٢٥ ثم تارة أخرى فى فرنسا وقد أمكنت السيطرة على هذه السلسلة من الانتفاضات والثورات والعصيان والاضطرابات من الفلاحين خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ومع ذلك فقد ظلت آثارها بما كانت تمثل من تهديدات ساعدت الفلاحين كثيرا فى الحفاظ على شىء مما كانوا حققوا من حريات ومزايا ثم عادت معارضة تلك الحريات ومقاومتها - عبر بلاد أوروبا - مع الانطلاقة الاقتصادية والرأسمالية للعالم العصرى الحديث النشأة منذ القرن السادس عشر خاصة مع بداية القرن السابع عشر، فلما بدأ الانحسار الاقتصادى تحول الرأسماليون إلى الأرض الزراعية ليتحكموا فيها، وبدأوا يحاصرون الأراضي الزراعية السادة البورجوازيون والمدن صغيرها وكبيرها وعمد جموع الملاك إلى غارة على الأراضي الزراعية وتظهر ملكيات جديدة وأراض مستأجرة، كهيئة مزارع ومستودعات للغلال تختلف أسماؤها حسب المناطق وتندمج ملكيات شاسعة فى منطقة واحدة، وكل ذلك كان إضرارا بالفلاح فظهرت نزعة رأسمالية تسود ملاك جل اهتماماتهم تحقيق الأرباح وزيادة غلة الأراضي وبدأ الفلاحون يلجأون للمقرضين حتى يحل يوم يرى فيه الفلاح أرضه المرهونة تباع سدادا لديون تراكتت عليه، أو تترك له على الأقل بعد فرض الإتاوات الباهظة عليها لصالح الثرى، وهكذا بدأ تراكم الديون يتسع ورقعة أراضي الأكاراة تزداد (إيجار الأراضي الزراعية) وازدحمت سجلات الأراضي الزراعية بكل معوقات العمل... وكل ما

من شأنه حرمان الفلاح من جهده وكده فى الأرض وبيع محاصيل الأرض من قمح وغيره ويظل عليه سداد التأمين نقداً، وعمت هذه الكوارث كل أنحاء القارة الأوروبية وكان أكثرها أسى فى أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية وفى ألمانيا فيما وراء الألب وفى بولندا وبوهيميا والنمسا بل وفى البلقان وفى موسكو وكان أواخر القرن السادس عشر تتسع رقعة أراضي العبودية (الرق الأرضى - العبودية) كما أطلق المؤرخون على هذه العصور (مرحلة الرق الثانية)، أن وقع الفلاح بين أنياب رق أكثر شراسة حيث أعطى المالك نفسه وظيفة المالك أولاً ثم التاجر بائع الغلال ولتوفير ما يكفى لتلبية ما تنهال عليه من طلبات فكان يجبر الفلاح على مضاعفة جهوده فصارت حياته أقرب إلى السخرة التى استمرت كذلك فى الشرق حتى القرن التاسع عشر وكان ذلك علة التأخر النسبى لتلك المناطق مقارنة بغرب أوروبا حيث بدأ عهد أكثر تحرراً لصالح المزارعين ابتداء من القرن الثامن عشر، وفى فرنسا ظهر القانون الذى عجل بكل شئ حتى اندلعت الثورة الفرنسية وحررت الأرض بجرة قلم «أرض الفلاحين» من الإتاوات التى فرضت عليها أيام النظام الإقطاعى فى نموذج انتشر خلال حروب الثورة وحروب نابليون أما حريات المدن التى كانت تتمتع دائماً بالقيادة والإشراف على الحركة وتوجيهها ومنذ الانطلاقة الأوروبية الأولى كان سكان المدن يتحملون عبء إدارة الأمور وحدهم فاستفادوا من ذلك بتحقيق حرياتهم، وتسبب انحسار الغرب مع بداية القرن العاشر فى تدهور للمدن مخيف حيث بدأ نشوؤها فلما أن بدأ المد يحول من اتجاهه الاقتصادى بالتصاعد المادى فى القرنين الحادى عشر والثالث عشر عاد للمدن ازدهارها السريع بما فاق الأقاليم الشاسعة التى لم تلحقها النزعة العصرية إلا فى القرن الخامس عشر وبدأ دخول المدن فى إطار العصريات الحديثة... بدأت تشكل ملامح المستقبل بل كانت هى ذاتها المستقبل... وبالطبع لم تتمتع كلها باستقلالها ومع ذلك فقد ظهرت - مبكراً - مدن عظيم شأنها فى إيطاليا التى سبقت غيرها من بلاد القارة الأوروبية وسرعان ما انتشرت الموجة فى الغرب كله حتى فى بلاد الأراضى المنخفضة وهى ترى وتسمع عن إيطاليا الثانية فينيسيا وجنوا وميلانو وفلورنسا وجاندوير وجس وكلها مدن عصرية حديثة على حين كانت المدن فى

بلاد الملك القديس لويس (فرنسا) تعيش فى القرون الوسطى من وراء هذه المدن التى حكمها الدوقات أو القناصل. بدأت مدن كثيرة أقل أهمية ودرجة تطالب باستقلالها وحصلت بعد صراعات كثيرة على حق إدارة شئونها بنفسها والسيطرة على اقتصادياتها وإقامة العدل بين سكانها وفى الأراضى التى تمتلكها. وبصفة عامة فكانت الحرية التامة بعامه مكافأة كل ازدهار ماضى أتاح هو وحده للمدن الثرية حق الدفاع عن أراضيها وذلك إلى جانب تمتعها باقتصادياتها وكان يطلق على هذه المدن اسم المدن «الدولة»، وإن لم تظفر به سوى قلة من المدن بهذه الدرجة أما المدن الأخرى فكانت تستمد كيانها من التجارة ومن عديد من مهن وحرف كانت تعمل لصالح السوق المحلى والتجارة البعيدة أى الخارجية ولم يزدهر اقتصاد المدن - ولا شك - إلا حين فاض عن احتياجات السوق المحلى وفى بداية القرن الخامس عشر، وفى مدينة لوبيك ازدهرت المنشأة التجارية الملقبة بـ الهانز ومجموعة المدن التجارية الموزعة فيما بين البلطيق ونهر الراين وكانت لها علاقاتها واتصالاتها وقتئذ مع بلاد العالم المعروفة، وقد ينطبق القول - نفس الكلام - على مدن لـ فينيسيا (البندقية) أو جنوا أو فلورنسا أو برشلونة وبدأت عناصر أولى الرأسماليات تتجمع من التجارة البعيدة (مع الخارج) وبدأ عصر التجار الوسطاء ممن يوردون المواد الأولية ويبيعون المنتجات الصناعية، وصار رؤساء الأعمال الحرفية مع تقدم الوقت أجراء وكذلك صار رفاقهم وهكذا بدأ أن التجار هم المهيمنون أى الناس السمان أما صغار أفراد الشعب الرقيق كانوا يثرون من وقت إلى آخر بلا جدوى، كما كان مثلاً فى مدينة جاند أو فى فلورنسا أو فى كيومبين حيث اندلعت ثورة عنيفة عام ١٣٨١ وخاصة ثورة صناع الفلاندر الحرفيين (منطقة بين فرنسا وبلجيكا) وتشبه ما نطلق عليه اليوم الاضرابات طلباً لرفع أجورهم وهى باكورة لثورات المدن الصناعية، كما اندلعت كذلك المعارضات فيما بين رؤساء الحزب ورفاقهم ينحون جانباً لايهتم بهم أحد بحكم تكلفة الممتازين وأجورهم من رؤسائهم ممن بيدهم وحدهم ترقية لهم - فعمدوا إلى التجمع فى منظمات وجماعات ومحافل تتجول بين المدن ... كانوا بمنزلة طلائع البروليتاريات العمالية وظلت الأوضاع كما هى فى عصر المدن المستقلة أو شبه

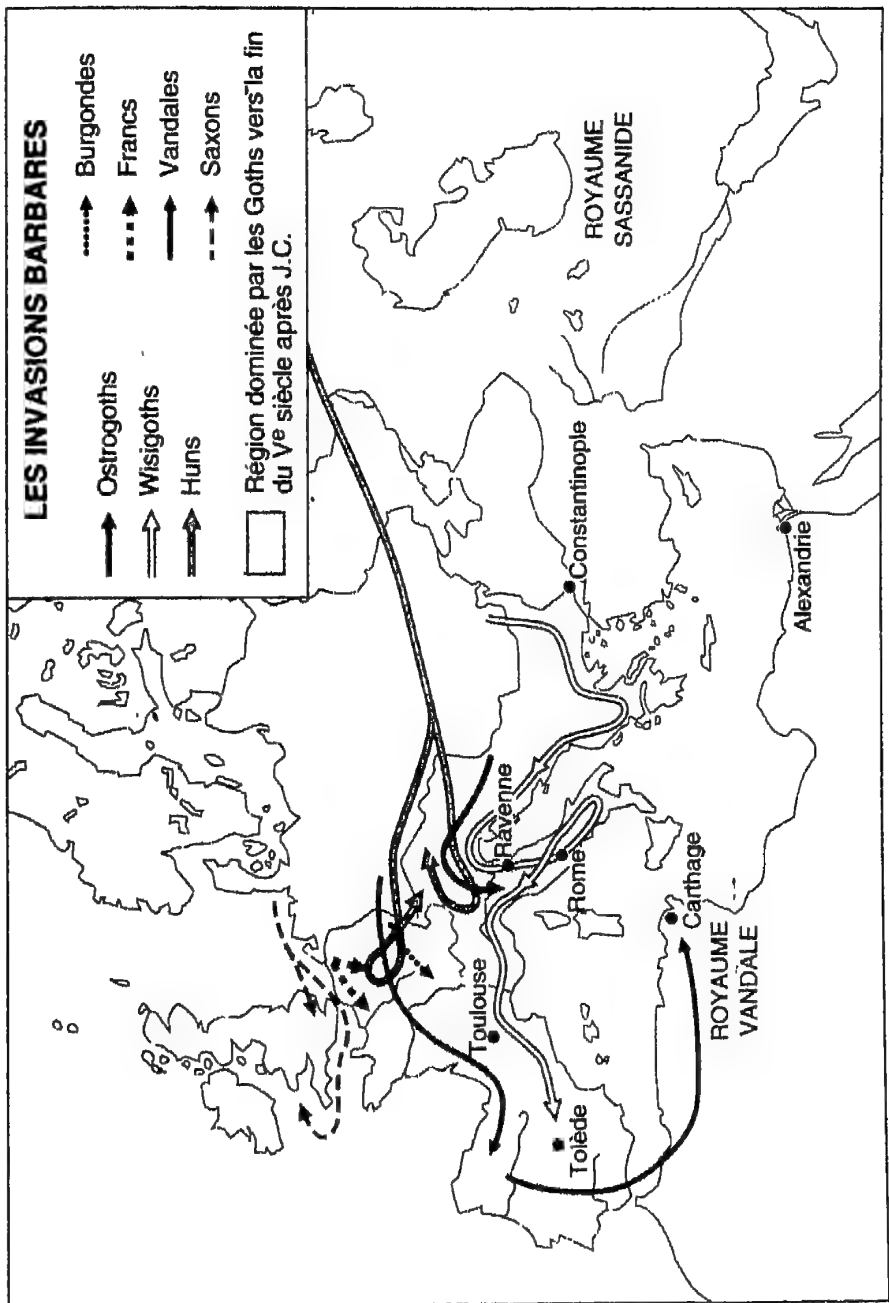
المستقلة، ترى هل حدثت نموذجية مشابهة كما تساءل ماكس ديبرت لمدن العصور الوسطى الأوروبية لم تكن هذه المدن المقفلة كما وصفها في الواقع لتتقبل بسهولة ما يأتيها من وراء حدود أسوارها إذا كانت الثورات المجاورة تجمع غالبا بسهولة بالفلاح الذى لم يكن مواطنا مضطرا إلى بيع حبوبه لمستودعات المدينة دون السماح له بممارسة حرفة أخرى إلا لضرورة تحتاج إليها المدينة، كان هذا الوضع يقينا مغايرا لما كان يجرى فى أثينا القديمة . تمتع الفلاح بالمواطنة شأن ساكن المدينة، فلا مجال للدهشة من القول أن الفلاح الأوروبى فى تلك الأزمنة حرم لقب المواطنة التى لم يكن يكتسبها إلا بشق الأنفس ولا تمنح إلا بشح شديد ما لم تشعر المدينة بحاجتها الماسة إلى زيادة السكان فيها . وهكذا عام ١٣٤٥ وهكذا قررت فينيسيا عشية تفشى الوباء الأسود (الطاعون) عام ١٣٤٥ الاعتراف مسبقا بحق المواطنة لمن يرغب الإقامة فيها، ولم تكن روح الأسياد الإقطاعيين عادة منصفة إذ كان ثمة نوعان من المواطنة يقال للأولى لم تكن لتنشئ حقا للمواطنة كاملا بل من الدرجة الثانية وهو حق تافه تحت رقابة مشددة من قبل أسيادهم وهمهم الأول المحافظة على امتيازاتهم، فقد كان الأمر يستوجب الإقامة خمسة عشر عاما فى مدينة فينيسيا (البندقية) للفوز بحق المواطنة من الدرجة الثانية وعشرون عاما للفوز بحق المواطنة التامة بل وصل الأمر إلى التمييز بين مواطن قديم ومواطن جديد وظهر قانون عام ١٣٨٦ يحدد حق التفاوض والتعامل مع التجار الألمان المقيمين فى فينيسيا اقتصر فقط على قدامى المواطنين . وظلت المدنية بأنانيتهما اليقظة والغاشمة على استعداد أحيانا للدفاع بكل شجاعة عن حرياتهما إذا اقتضى الأمر . لا تأبه بحريات الآخرين . ثم إن صراعات المدن التى تميزت بالشراسة كانت إيذانا باقتراب الصراعات الوطنية.... صراعات القرون القادمة فتواجه المدن التهديدات عند بزوغ الدول العصرية، وكان بزوغها شيئا ما بطيئا ثم طفقت تتكاثر مع القرن الخامس عشر وتدهور نفوذ المدن حيال سلطة الدولة التى كانت تمنح الامتيازات وتوقع العقوبات الاقتصادية وغيرها ومن ثم نشأت الأزمات الحادة فى كاستيل عام ١٥٢١ من جانب الكومينيداد حين أخضع شارل كان (ملك أسبانيا) وقهر جان (بلجيكا) عام ١٥٤٠ ثم تلتها اتفاقيات تراض

حتمية حيث لم تكن الملكية العصرية مثيرة لإبمساهمات المدن فكان عليها التخلي عن نوع معين من امتيازاتها للاحتفاظ بالأخرى وفى مقابل تخليها عن حرياتها (استقلالياتها) تفتح لهم الأراضي الحديثة فى الدولة يقيمون فيها مع منحهم قروضا مجزية وبدأت تنمو وتزدهر اقتصاديات الدول وتحل محل اقتصاديات المدن... إلا أن اقتصاد الدولة ظل يتجه وجهة رغبات المدن السابقة فظلت العصرية فى هذه المدن إلى جوار الدولة تسير الأمور، ولم تتضح معالم الدول العصرية المسيطرة على كافة أراضيها إلا فى تأخر فقد ظلت الملكية القديمة التى تأصلت على رباط الدم والعلاقات بين الإقطاعيات السيادية حقبة طويلة قبل أن تختفى أو قبل أن تتبدل أشكالها على الأقل وجاءت نقطة التحول منذ القرن الخامس عشر حينما ظلت ثورة المدن لا تتسع فلا إيطاليا ولا هولندا بل ولا ألمانيا التى عرفت مدنا حرة مستقلة نشيطة ثرية فكلها لم يكن أرضا لنوع الحكومة الجديدة إذ كانت الملكية العصرية تنمو وتزدهر أولا فى أسبانيا وفرنسا وفى إنجلترا وعلى قممها ملوك من نموذج جديد منهم جان الثانى وأراجون أبو فرد يناند (الكاثوليكي) ولويس الحادى عشر وهنرى السابع فى لانكاستر بإنجلترا وفى خدمة الدول هذه دول الأراضي الواسعة التحقق عدد من كبار الموظفين أو الضباط، وهكذا ظهرت مجموعة القانونيين ممن درسوا القانون الرومانى وكبار الخدم (الوزراء) حيث لعب التوقير واحترام جموع الشعب لصالح هذه الدول مالكة الأراضي دورا فى توطيد أركانها إذ كانت ترى الملك حاميا طبيعى ضد الكنيسة والنبلاء واستندت الملكية فى فرنسا حتى القرن الثانى عشر على «التفانى الشعبى» على دين محبة ويواجه هذا النموذج من الدول العصرية الجديدة ضرورات قهرية من جراء الحروب والمدفعية والأساطيل التى تحتاج إليها المعارك ومستلزماتها الباهظة فالحرب هى أم كل شئ وهى التى صنعت العصرية الحديثة

ولم تكن الدولة الحديثة تعترف بأية سلطة تعلو سلطتها بل ولا سلطة الأباطرة أو البابوية بما كان لها بالأمس من تأثير معنوى أخلاقى واسع فضلا عن تأثيرها السياسى فلقد كانت تتطلع إلى رؤية كل دولة نفسها حرة، ولا رقيب ولا حسيب وبدأنا نسمع مقولة للمصلحة العامة الرسالة التى وجهها الكاردينال ديلاكازا إلى

شارل كان بسبب حادث مؤسف خسيس وقع عام ١٥٥٢ الاستيلاء على مانتو (مدينة فى إيطاليا) وكانت تمثل علامة على التطور الذى نشأ عن انتقال السلطة فى البلاد الغربية المتصوفة من الملكية التقليدية الأبوية الزاهدة إلى النظام الملكى العصرى الجديد الذى يسيطر عليه فقهاء القانون وفى فرنسا دافع جان بودان فى أطروحة الجمهورية عام ١٥٧٧ عن سيادة الدولة بدون قسمة أو تجزئة... فلفظ رمبوليك فى اللغة اللاتينية يعنى العام «الجمهور» فالدولة ذات السيادة فوق القوانين المدنية ولا تخضع إلا للقوانين الطبيعية والإلهية فليس فى المملكة السيادية رجال يعلنون عليها إلا أن البابا لا يستطيع الاكتفاء بالمشاهدة ومن ثم رأينا فى ختام المراسم والأوامر التى تصدر لأسباب حيوية لا تصدر إلا عن إرادته السليمة الصادقة وتحتاج الدولة إلى هذه «الإرادة» و«الأنا» تصير الدولة كما كتب مؤرخ ألمانى قائلا: إنها العبارة المشهورة التى التصقت بالملك لويس الرابع عشر «أنا الدولة» كما التصقت مرة على الأقل باليزابيث ملكة إنجلترا وعموما فإن تلك النعمة الجديدة أصبحت - منهجيا - أمرا طبيعيا مسلما به وكلما ازداد استقرار الدولة العصرية الحديثة بدأ نفوذها ينتشر على حضارة أوروبا التى كانت حتى اليوم ثمرة جهود المدن الكبرى حيث نضجت فى ربوع عديد من تلك المدن المميزة الأصلية وتصير أراضى وطنية ومن خلال هذه الحضارات التى بدأ نطاقها يتسع تأكد دور العواصم بفضل ما كانت تنفقه الدولة عليها وفيها، وهكذا برزت المدن الممتازة كباريس ومدريد وكذلك لندن وأصبح ثقل حياة الدولة يدور حول ضواوى المدن الحضرية بدون منازع، إنما هى آلات تصنع الحضارة الجديدة وتزرع بؤس الناس - ولنتخيل حركة الناس الهائلة ورؤوس الأموال والثروات والانتقالات بعيدة المدى التى تلحق بجغرافية الحريات إذا تحطم بعضها أو استسلم على الأقل فقد صارت مفضلة أثيرة أو لعلها شيدت لأغراض معينة حتى بتنا نسمع عن مدن مثل مارسيليا التى أستاذت بتجارة الشرق وميناء لورينت تحتكر تجارة الهند... احتكارا بسيطا إلى جانب احتكار مدينة سيفيل (لعلها صقلية) التى احتكرت التجارة مع أمريكا منذ عام ١٥٠٣ حتى عام ١٦٨٥ وفى هذا التاريخ انتقلت الميزة إلى مدينة كاديبكس كما كانت هناك كذلك بعض الحريات التى انتزعت من الدولة

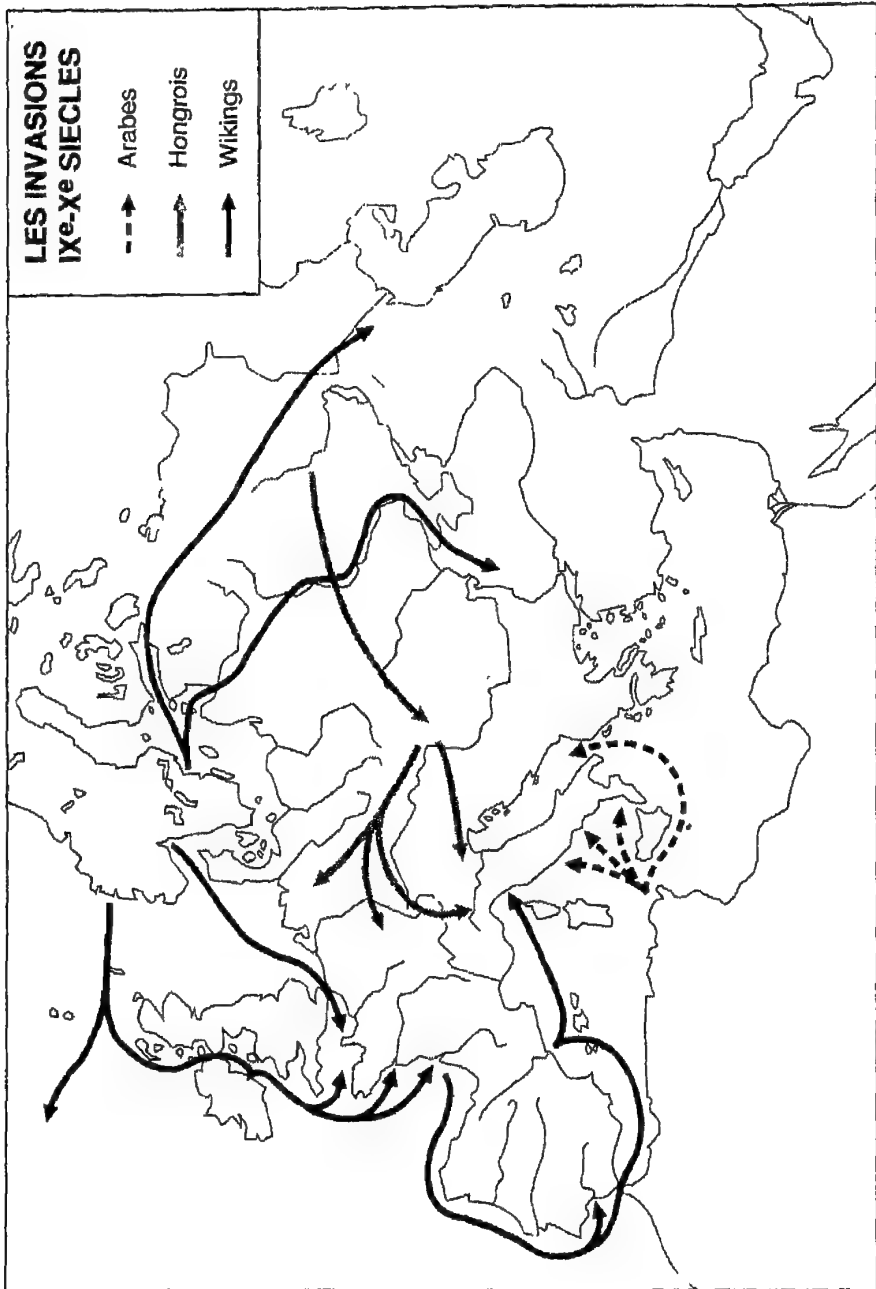
التي لم يقصر باعها عن الأنشطة وكذلك كان في فرنسا الدولة المؤيدة للاستبداد بموت كولبرت عام ١٦٨٣ (وكان رجل دولة فرنسياً له أنشطة متعددة) وموته فقدت الثورة فعاليتها وبدأت مشاعر الحريات «الإقليمية، تعارض الملك ذلك أن الامتيازات الاجتماعية كانت كأنما نقش في وجدان الدولة الفرنسية وكيانها: امتيازات رجال الدين من رجال الأكليروس والنبل ولم تتمكن الدولة من التخلص منهم فكان بسببهم إخفاقها في اللحاق بالإصلاحات المستبيرة في القرن الثامن عشر. حتى البلاد التي اختارت طريق الحريات السياسية فقد اضطرت إلى وضع مسؤوليات الدولة بين أيدي جماعة من أصحاب النفوذ المتمتعين بمزايا معينة مثل حالة المقاطعات المتحدة لما يجتمعون عليه من بورجوازية الأعمال وحالة إنجلترا عشية ثورة ١٦٨٨ إذ يمثل برلمانها ازدواجية ارسنقراطية من جماعة حرب الأحرار الوبج وجماعة حزب المحافظين النوى وهم بورجوازية ونبلاء بكل تأكيد أما بقية الشعب فلا... ترى وسط كل هذه التكدسات من الحريات المميزة ما مصير الحرية الفردية؟ ذلك سؤال لا يعنى شيئاً إذا ما طرح فيما هو اليوم إطار حرية الإنسان من حيث هو إنسان لأنه فقط إنسان، فإن الأمر يقتضى زمناً طويلاً قبل الاستقرار معنى محدد للفظ الحرية وقد يمكننا أن نتساءل على الأقل عن حرية الفرد هل تتقدم أم لا؟ والرد فى هذا الوضع لاشك متناقض متشائم فإن مفهوم الحرية الفردية فى الحركة الثقافية لعصر النهضة أو عصر الإصلاح أن تنطلق منها حرية لإرادة حيث تؤكد النهضة والمبدأ الإنسانى احترام الإنسان وعظمته من حيث هو فرد يقوم عليهما بذكائه وقدراته الشخصية حيث لا تعنى الفضيلة إلا المجد والعزة والإقدام والقدرة المثالية فى القرن السابع عشر مع الفيلسوف ديكارت (الذى قال أنا أفكر إذن أنا موجود) وبذلك ظهرت نظرية الفرد المفكر. وتزاملت مع هذه التطورات الهامة الفلسفية التى منحت للفرد انطلاقة القيم التقليدية وكانت اقتصاديات السوق فى القرنين السادس عشر السابع عشر قد انتعشت انتعاشاً له أثره نتيجة ورود المعادن النفيسة من أمريكا وامتداد نظام الائتمان حيث بدأ المال يزاحم ويعدل مسار المنظمات الاقتصادية السابقة التى كانت سائدة فى المدن الحضرية فبدأت تفقد صلابتها المعهودة مع جزء من



١ - الغزوات الكبرى

الغزوات العربية

.....> بورجوند
> فرنسيون
 —> فاندال
 - - -> ساكسون
 □ مناطق إحتلتها القوط فى نهاية القرن الخامس بعد الميلاد



غزوات القرن التاسع والعاشر ٢ - الغزوات الصغرى

عرب هنغاريون فايكنج

فائدتها، وهكذا ظهر أمام الإنسان الفرد فى نطاق الحياة اليومية حرية اختيار معينة ومع هذه الكيانات العصرية الجديدة للدولة وضعت الحدود الملزمة للفرد وواجباته فى المجتمع واحترام الامتيازات والمقيزات. وفى رسالة للفيلسوف ديكارت تفسير واضح وشرح للمشكلة إذ كيف يعيش المجتمع إذا كان كل واحد من الناحية النظرية حراً ويمثل وحده كياناً ذاتياً وما هى القواعد التى يكون عليه اتباعها؟ هكذا وجهت السؤال إليه الأميرة إليزابيث فيجى رد الفيلسوف الذى نشر عام ١٦٤٥ فى ١٥ من شهر سبتمبر قائلاً يبدو حين كل منا منفصلاً عن سواه فإن المصالح من ثم متغايرة بشكل ما عن مصالح سائر الناس كما يجب أن نتذكر دائماً أننا لا نستطيع البقاء وحدنا ذلك أننا جزء من كيان الكون وجزء من هذه الأرض وخاصة أى جزء من هذه الدولة ومن هذا المجتمع ومن هذه الأسرة مرتبطين بها بحكم موقع الإقامة وبحكم القسم وبحكم المولد. ودائماً يجب اختيار مصالح الكل الذى نحن جزء منه بدلاً من المصلحة الشخصية، وكان باسم مصالح الكافة تلك أن فرضت فى القرن السابع عشر قيوداً صارمة على الفقراء وعلى كافة العناصر التى لا جدوى منها فى المجتمع، أى على كل من لا يعملون ولئن ازدادت أعداد الفقراء ازدياداً أثار القلق لارتباطه بتصاعد عدد السكان على امتداد سنوات القرن السادس عشر والأزمة الاقتصادية التى بدأت فى نهاية هذا القرن نفسه واستفحلت فى القرن السابع عشر ونتج عنها ظهور التسول، والتشرد وكثرة السرقات مما استدعى ردعاً زاجراً فكان منذ عام ١٥٣٢ أن يشرع برلمان باريس فى جمع كل متسولى المدينة الكبيرة ومشربيه وإجبارهم على العمل فى المجارى مقيدين مثنى مثنى بسلاسل من حديد ثم للنظر كذلك كيف عاملت مدينة ترويز^(١) البائسين عام ١٥٧٣. وعموماً لم تكن هذه سوى إجراءات عابرة إذ على مدى العصور الوسطى كان البائس والمشرّد والمجنون فى حماية حق الضيافة المكفول باسم الله حيث ظهر المسيح تام الفقر وقدمه حين ارتدى يوماً رداء الفقير وكان متاحاً للفقير دائماً أن يكون رسولا من عند الله، وقد أشادت كل النزعات الروحية التى يجسدها القديس فرانسوا بالقيمة الروحانية لقديسة الفقر ومهما يكن

(١) مدينة فرنسية من مقاطعة شامبان على نهر السين ١٥٨ كيلو مترا جنوب شرقى باريس.

من شىء فقد كان البائسون والمجانين ونفايات المجتمع يتجولون من مدينة لأخرى فتسارع كل مدينة إلى مساعدتهم فى استكمال مسيرتهم بدلا من الاحتفاظ بهم داخل أسوارها (إيوائهم) ثم كان هناك - على الأقل - شكل من أشكال الحرية الملموسة هى حرية الفلاح الهارب من سيده متمسكا من هو أقل قسوة، أو هذا الجندى يبتغى بلوغ المدينة بحثا عن يجنده والمهاجر الذى يرحل بحثا عما هو أفضل أو يهاجر إلى الدنيا الجديدة (أمريكا) ووهم حياة افضل وكذلك حرية من هم من العاطلين المشردين أصلا والبله والمتسولين والعجزة وأصحاب العاهات واللصوص ومن هم بلا عمل منتظم.. يصبح كل هؤلاء من الفئات التى كانت فى حماية ظل الله فى القرن السابع عشر أعداء للمجتمع الحضري (فى المدن) والرأسمالى المأخوذ والمنهمك فى سبيل بناء الدولة حيث يحتجز فى كل أنحاء أوروبا البروتستانتية أو الكاثوليكية الفقراء والمرضى والعاطلين والمجانين ويبعدون فى وحشية، فلا شفقة ولا رحمة مع أسرهم ضمن المجرمين من كل نوع وهى الظاهرة التى درسها ميشيل فوكو فيما أطلق عليه الجنون فى العصر الكلاسيكى مشيرا إلى إعادة سجن الفقراء فى سجن محكم رهيب ثم إلى صدور مراسيم فرض الحراسات والمصادرات وما كان فى الوقت نفسه استجابة لطلب أسرة من سجن من الأبناء الفاسقين والسفهاء أو الآباء المبذرين ضمن خصوم الملك السياسيين بخطاب متهور بخاتمه فيما أطلق عليه السجن الكبير ولهذا الغرض أقيمت المنشآت والمستشفيات والورش الخيرية ولم تكن مهما أعطيت من تسميات إلا ثكنات قاسية أو ورشا للأشغال الشاقة وفضلا عن ذلك فقد كان عليه تنظيم كل هذه السياسة الاجتماعية الجديدة فى فرنسا بعد مرسوم ١٩٥٦ الصادر بإنشاء المستشفى العام، وكان واحدا من مائة على الأقل وجد نفسه محبوسا فى مدينة كبرى كباريس ولم تخف حدة هذا العقاب الزاجر إلا مطلع القرن الثامن عشر فى عالم لا حرية فيه لغير أصحاب الامتيازات المحظوظين فقد ساهم القرن السابع عشر إذن فى الحد من هذه الحرية البسيطة وهى حرية الهرب، أو حرية التسكع وكان مسموحا بها للفقراء حتى ذلك الوقت، وقد ذكرنا من قبل ما كان من ردة لحريات الفلاحين وتقلصها فى مستهل عصر التنوير كانت أوروبا لاتزال غارقة فى أعماق بؤسها

وشقاء سكانها. ووسط هذا الجو المشحون باليأس كان هناك جواً إصلاحياً ونزعة مخففة تمثلت فى هذه الحرية التى لم يلحظها أغلب الناس إذ ظلت فى أوروبا بمنزلة المثل الأعلى الذى يتجه إليه الفكر بل يتجه كذلك التاريخ فى ببطء شديد. إنها فى تاريخ أوروبا من الاتجاهات الرئيسية التى عبرت عنها معانى انتفاضات الفلاحين الثائرة فى القرن السابع عشر والاضطرابات الشعبية المتكررة كما كان فى باريس عام ١٦٣٣ وروان ١٦٣٤ - ١٦٣٩ وليمون ١٦٢٣ و١٦٢٩ و١٦٣٣ (١٦٤٢) وكذلك النزاعات السياسية والفلسفية فى القرن الثامن عشر، ولم تستطع الثورة الفرنسية ذاتها إقامة هذه الحرية التى لا يمكن أن تزدهو بحيازتها تماماً اليوم. قلن ألغت الثورة الحقوق الإقطاعية مساء ٤ أغسطس، وهذه حقيقة، فقد ظل هذا الفلاح فى مواجهة الدائن (المرابى غالباً) ومالك الأرض ولكن ألغت التجمعات عام ١٧٩١ قانون شابلييه فقد بقى الفلاح فى الوقت نفسه تحت رحمة المخدم ورب العمل واقتضى الأمر قرننا فى فرنسا حتى تصبح النقابات العمالية مشروعة مسموحاً بتأليفها عام ١٨٨٤ ولا يغنى عن ذلك اعتبار تصريح حقوق الإنسان وحقوق المواطن عام ١٧٨٩ تاريخاً أساسياً باقياً فى تاريخ هذه الحرية وهو تاريخ جوهرى فى سجل الحضارة الأوروبية...

حرية البحث عن المساواة فقد اعتقد نابليون أن الفرنسى لا يرغب فى الحرية بل يرغب فى المساواة، بمعنى التساوى أمام القانون وإلغاء الامتيازات الإقطاعية وإبجاز فى القضاء على تلك الامتيازات الخاصة ومن الحريات إلى الحرية أى بتلك الصيغة التى أضاعت تاريخ القارة الأوروبية فى أحد اتجاهاتها ومساراتها الجوهرية، ومع ذلك فمازال مفهوم الحرية مفهوماً مجرداً نظرياً وقد تهيأ من عصر النهضة مروراً بعصر الإصلاح إلى عصر الثورة واكتسب قوة جديدة حين تشكل فى إعلان حقوق الإنسان وحقوق المواطن بل وحين مثار عقيدة مذهبية مع النزعة التحررية، ومنذ ذلك الوقت فإن مفهوم الحرية المفرد وحده لا يعنى إدراك الدنيا وفهم وإدراك حركة التاريخ فمن هذا اللفظ اشتقت سواء شرعاً أو مبالغة كل إيديولوجيات القرن التاسع عشر ومفاهيمه ومطالباته... هذه التحركات والنوازع والدوافع التى تغطيها كلمة تحررية المنمونة وهو لفظ مبهم غامض إذ هو

ثرى بمعناه فالتحررية تعنى وتتضمن المذهب السياسى وزيادة السلطة التشريعية والقضائية والحد من السلطة التنفيذية وتعنى بهذا المفهوم الوقوف فى وجه النزعة التحكمية الاستبدادية مذهب اقتصادى بين الأفراد والطبقات والأمم... ومذهب فلسفى يعلن حرية الفكر ويؤمن بأن الوحدة الدينية ليست هى الوحيدة بل هناك الوحدة الاجتماعية.... أى وحدة الأمة ومايستلزم بالضرورة روح تسامح واحترام الغير واحترام الإنسان وفق المفهوم القديم، وهكذا نجد أن النزعة التحررية أكثر من مذهب غربى.. هى مناخ فكرى وهى علامة على انتصار فكرة «دعه يعمل دعه يمر» إذ يستبعد الدولة من التدخل فى كافة المراحل الاقتصادية بين الأفراد وبين الطبقات وبين الأمم فتصادمت مع عديد من ظروف القرن التاسع عشر حيث تداخلت فى مهام لا حصر لها حيث امتزجت النزعة التحررية الليبرالية فى ألمانيا وفى إيطاليا بالنزعة الوطنية والحرية.. نعم.. ولا ننسى أليست هى أولا حرية الأمة؟ وتصادمت فى أسبانيا والبرتغال مع قوى لازالت جبارة لنظام حكم قديم راسخ يركز استنادا إلى الكنيسة ووصلت فى إنجلترا وفى فرنسا على مهل إلى أقصى مدى فى مطالبها السياسية وبدأت تتضح رويدا رويدا معالم الدولة الليبرالية الدستورية بحرياتها الأساسية: حرية الفكر وحرية الصحف والحرية البرلمانية والحرية الفردية فى امتداد حق التصويت.

ومع ذلك فقد كانت نزعة الليبرالية خلال سنوات نصف القرن التاسع عشر كلها بمنزلة ستار يحجب بورجوازية أرستقراطية من رجال أعمال من طبقة مالكة خارج هذه الحلقة الضيقة، فإن الفرد الذى كانت تدافع عنه هذه النزعة الليبرالية بكثير من الإخلاص لم تكن أبدا سوى نزعة تجردية، لم يكن ميسورا الاستفادة من حسناتها وميزاتها، ومن الحقيقى كذلك أنه فى إنجلترا صاروا المحافظون والأحرار قدامى وحديثى الثراء مثل ما كان الوضع فى فرنسا فى عصر البعث وعصر ملكية يوليو فهذه الطبقة التى تملك وتدعى أنها تحررية ليبرالية كانت تقف ضد إقرار حق التصويت أى ضد الجماهير... فكيف إذن تساند سياسة كهذه متسمة بالأنانية وحب الذات فى مواجهة مجتمع صناعى تتسارع أمامه الحقائق المخيفة.... الليبرالية الاقتصادية التى تفترض منذ البداية صراعا متساويا بين

الأفراد، أليست أكذوبة كبرى؟ فكلما مر الوقت ازدادت هذه الأكذوبة ضخامة. وعموما فقد كانت هذه النزعة البورجوازية الليبرالية مؤخرة صراع ضد النظام الأرستقراطي القديم... تحدى الحقوق المكتسبة كتحدى الموروثات القديمة التي تتردد سنين تبلغ نصف ألفية من القرون السالفة وجعلتها حقوقا لها قدسيته وبهذا فهي نزعة تريد الاندماج بين نظام الحكم القديم ومجتمعه الأرستقراطي والمفروض أن يقوم بتدميره والمجتمع الصناعي حيث تطالب البروليتاريا العمالية بحقوقها، ويبدو بإيجاز أن زعم البحث عن الحرية هذا كأنما انضم رغم الظواهر إلى الصراعات القديمة التي كانت تنشأ بسبب الحريات وما كانت إلا امتيازات وفى عام ١٨٤٨ أقرت الثورة فى فرنسا حق التصويت فكان تاريخا حاسما بالنسبة إلى النزعة التحررية (ليبراليزم الليبرالية)، أما التاريخ الهام فى إنجلترا فهو الإصلاح النيابى (الانتخابى) عام ١٨٣٢ وإن لم يكتب له البقاء إلا فى شكل ليبرالية ديمقراطية امتدت مبدئيا لتشمل كافة الطبقات كل كما يريد ويعلن تولوفيل وهيريت سبسر عنها وعن انتصار جموع الشعب التي كانت تثير مخاوفهم وسرعان ما تصطدم هذه الليبرالية عند هذا الحد من انطلاقتها مع التيار القوى المتعاضم الصريح... تيار الاشتراكية الذى يداعبها المستقبل فى الوقت نفسه كما فعل المعلنون عن النزعة التحكيمية الاستبدادية وقال بعضهم عنها: إنها النزعة الفاشية سواء كان كارليل أونابليون الثالث.

من هذه الثورة الجديدة إذن تتضح معالم الاشتراكية التي تثير من التبدلات والتحولات الكبرى الكثير، وكذا تواجهها ثورة مضادة لا يدري أحد اليوم ما اسمها أو إلى أى مدى سوف تصل، وقد تصل على حين تمضى الليبرالية فى طريقها وتضاعف حكوماتها وتعبر فى الوقت نفسه عن حكمتها وعن نزعات الأنانية وميولها البورجوازية ولا تجد أمامها أية شعلة تواجهها إلا فى فرنسا فى صراعها مع الكنيسة حيث أدرك الليبراليون عدم قدرتهم بل، وحتى قدرتهم على النضال مشكوك فيها.

وفى عامى ١٩٠٢ و ١٩٠٣ ظهرت فى المجلة العاقلة مجلة الميتافيزيك والمورال (مجلة ما وراء الطبيعة والأخلاق) سلسلة من مقالات بعنوان «أزمة

الليبرالية، كتبت بالذات بمناسبة ما أثير حول احتكار التعليم غير أن الأزمة النهائية الأخيرة إنما كانت تكمن فى موقع آخر... فيما بعد بين الحريين العالميتين... فمن ذا الذى يجرؤ على القول بأن الليبرالية التى أبعدت تقريبا عن السياسة والحركة قد أبطلت قيمتها تماما وبصورة حقيقية؟ أى أنها اليوم ماتت فعلا وشبعت موتا، ثم ألم تكن أكثر من عصر سياسى؟ أكثر من حاجب يتستر خلف طبقة من الطبقات؟.. لم تكن الرمز المثالى للحضارة الغربية وحتى بالرغم مما تعرضت له من خيانات فقد ظلت ولا زالت فى موروثاتنا وميراثنا وفى لغاتنا وفى ارتكاساتنا ذلك لأن كل محاولة للنيل من الحريات الفردية يضربنا فى الصميم ويحرك مشاعرنا ويضربنا حتى فى مواجهة «الدول» المستبدة ذات النزعة التحكيمية والتكنوقراطية فى مواجهة المجتمع الخاضع أبديا للنفوذ... ليبرالية معينة ولعلها فوضوية،... إلا أنها تنادى بحرية الفرد... حرية مطلقة تامة ولذا فقد استمر بقاؤها باسم الإنسان الفرد وحقوقه ومسار حياته فى الغرب وفى الدنيا....

الفصل الثاني

**المذهب المسيحي
والنزعة الإنسانية
والفكر العلمى العلماني**

المذهب المسيحي والنزعة الإنسانية والفكر العلمى (العلمانى)

ظلت الحياة الروحية والثقافية فى أوروبا عرضة للتغييرات العنيفة المفاجئة وبذلك خلقت ما كانت تحبه من انقسامات وتوقفات لمسيرات وإثارة لعواصف لا تنتهى فى سبيل البحث عن عالم أفضل، غير أن هذه العواصف وما كانت تثيره من أزمات لا يجب أن ينسينا تلك النزعة المستمرة الصلبة لتفكيرها وفكرها وحضاراتها الواضحة عبر كل التجارب المتلاحقة للفكر الأوروبى من خلاصة أفكار سان توماس داكوان حتى كتاب ديكارت فى «خطابات أوروبية فى عصور النهضة والإصلاح» بل وعصر الثورة الفرنسية نفسها والثورة الصناعية وهى تطور أساسى ولكنه لم يلحق بقطاعات حياتها ولا بفكرها.

المسيحية

تتطور كل الأديان ومع ذلك تظل كل منها على هواه، عالم خاص متناسق بإيمانه وثباته وديمومته الأصلية وكانت المسيحية الغربية ولا زالت العنصر الرئيسى للفكر الأوروبى بل وللأفكار العقلانية التى نشأت ضدها ومنذ ظهورها كذلك ديانة وعقيدة وكانت دائما خلال تاريخ الغرب القلب بالنسبة لحضارة كانت سببا فى انتعاشها حتى فى الفترات التى انجرفت برغبتها أو بدلت من أشكالها، إذ كانت تعود دائما إلى جمعها وضمها إليها ذلك أن التفكير من أحد إنما يعنى البقاء

فى مداره... فىظل الزندىق الأوروبى سبجىنا لسلوكىات نفسىة سقىمة تقبىع فى جذور الشعائر المسىحىة وأعماقها. كان مونثرلانت^(١) يؤكّد عن نفسه أن دمه مسىحى مع أنه لم يحافظ على إيمانه، وانتشرت الديانة المسىحىة انتشارا واسعا فى أنحاء الإمبراطورىة الرومانىة وصارت العقيدة الرسمىة كما أعلنها القاضى الرومانى قسطنطىن عام ٣١٣ أى بعد ثلاثة قرون من مىلاد المسىح وكانت الإمبراطورىة الرومانىة تشمل كل ما على ساحل البحر الأبيض المتوسط من أوروبا وكذا بعض البلاد التى آلت إليها فى البداة بصفتها من العقائد الديقىة الظافرة. أو كما حلا لبول فاليرى وصفها «عش الكواسر» وقد عرف عنه التلاعب بالألفاظ حيث أراد إظهار ما بىن المسىحىة والأرض والخبز واللبىذ والقمح والكرم من أواصر وما بىنها وبنىن الزيت المقدس وكان بفضل ارتكازها الجغرافى على سواحل البحر المتوسط أن انتشرت العقيدة المسىحىة إلى أبعد من ذلك كثيرا وذلك مثل الأعاصىر من غزوات القرن الخامس وما أدت إليه انتصارات المد الإسلامى من كوارث فىما بىن القرن السابع والقرن الحادى عشر إذ وجدت العقيدة المسىحىة الوقت لتتواءم شىئا ما مع العالم الرومانى وتوظف أركان قىمها الاجتماعىة وطبقاتها والتمىيز فى دقة بىن ما هو زمنى أى متصل بقىصر وبنىن ما هو روحانى والفوز فى موجه الجدال العقائدى ووحدة اللغة والفكر البىونانى الساندىن وذلك حىما لاحت فى الأفق ضرورة تحدىد الأسس اللاهوتىة للمسىحىة وتوضىح المعالم والسمات وإبراز الآثار وقد أسهمت فى هذا العمل المضىن الشاق ماعقد من مؤتمرات فى نىفىا عام ٣٢٥ وفى القسطنطىنىة^(٢) عام ٣٨١ وفى اىفىر^(٣) عام ٤٣١ وفى فلفونىسا^(٤) عام ٤٥١.... إلخ وآباء الكنيسة المدافعون عن العقيدة النصرانىة أولئك الذىن ناضلوا قبل قسطنطىن وكافحوا ضد الوثنىة ثم اتصل نضالهم ضد العقائد بىن الذىن فسروا العقيدة المسىحىة فى مواجهة انشقاق الرأى ما نادى به القدىس أوغسطين عن انشقاق الرأى ولم يكن آخر تلك السلالة من

(١) هنرى مونثرلانت: كاتب روائى ومسرحى فرنسى (١٨٩٦ - ١٩٧٢)، انتحر

(٢) بلد فى أسىا الصغرى وكانت عاصمة للأباطرة البىزنطىبىن

(٣) على بحر إىجة

(٤) مدىنة على البسفور.

المنشقين مع بعض مفسرى الكتاب المقدس ممن كانوا يعتقدون أن الخلاف امتد حتى القرن الثامن بل وحتى القرن الثانى عشر فى الغرب البربرى وقد ولد فى عام ٣٥٤ فى تاجاست اليوم هى سوق أحرس فى افريقيا (ربما يقصد سوق الأخرس أو الأهرس) ومات هذا القديس (أوجستين) وهو مطران أسقف لمدينة هيبون (اليوم مدينة بون) عام ٤٣٠ والفندال يحاصرون المدينة وكان لكتابه الرائع «مدينة الله، وكتابة الاعترافات، بل ولآرائه المتناقضة ورغبته فى المزج بين الإيمان والذكاء أى إجمالاً الربط بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية بين النبىز القديم والجديد وكل هذه المحاولات والمبادرات التى سطعت فى أجواء المسيحية ما جعل منه أحد الأركان التى تتجمع فيها الآراء وواحداً من القلة التى نادى بضرورة السيطرة العقلانية بالعقيدة عنده هى التى تهمين على كل شئ، ومن أقواله عند ديكارت: أنا أؤمن كى أفهم... كما يقول: إنى إذا أخطأت فأنا موجود أى أن الشك يعنى الحياة وأن من الخطأ الجسيم أن نرى فى هذه الأقوال أية تناقضات ظاهرة ولاشك فقد احتفظت الأيام بمكان بارز واهتمام بالغ بآراء القديس أوجستين عالما لاهوتياً تقديراً لمحاولاته إثبات أهمية إدراك ماذا يعنى القدر، وحيرته الأحداث كما أن من آراء القديس أوجستين ومعتقداته وتفسيراته لاشك أنها تركت بصماتها على العقيدة المسيحية الغربية على الأقل بما كان يدعو إليه ويوجب من رفض الإيمان بغير إدراك وفهم ومعرفة لهذه العقيدة بعد عمق التأمل والتفكير من جانب كل شخص بإرادته الحرة حيث لم يكن الأمر أمر كنيسة فى دور الطفولة لاتدرى طريقها التى تفاجأ مسيرتها الكوارث والغزوات وهى العقيدة الثابتة وقد كان أثناء كوارث القرن الخامس أن ظهر معدنها الأصيل قبل إمبراطورية أو مثل حضارة العالم القديم الذى تصونه وتنقذه وهى تنقذ ذاتها ولقد صانت العقيدة المسيحية كيائها فى عالم تحقيق به المخاطر وعبر عديد من المآثر والاقتصاديات. ولقد كان أمامها شوط طويل من العمل الشاق المضنى لإدخال القادمين الجدد فى العقيدة المسيحية والفلاحين ممن كانت عقيدتهم المسيحية فى حاجة إلى تدعيم أو ممن كانوا ينفصلون بسهولة عن تعاليم الكنيسة كثيراً، وكذلك ادخال أهل المناطق الجديدة التى دخلها الغرب إلى المسيحية (التبشير) كما

استدعى الأمر المحافظة على رباط وثيق مع بابا روما على حين تحاول النزعات الإقطاعية تجزئة هذه المناطق إلى ولايات صغيرة متعددة لكل منها مطرانيته الخاصة، كما استدعى حسن قيادة المعارك الضارية التي تعارض الإمبراطورية وأشهرها معارك الإكليروس^(١) ساكر دوك وانتهت دون الوصول إلى نهاية حاسمة بالاتفاقية البابوية (بين كل من الإمبراطور هنرى الخامس والبابا كاليكتس الثاني في مدينة نورمس بألمانيا الغربية ١١٢٢.. كانت أزمنة مليئة بالصراعات وبالعامل الشاق والجهد الدؤوب في التعليم المتكرر الذى لاحقته الانتصارات والهزائم بين أنصار البندكين وأليسترسيين والدومنيكان والفرنسيسكان وانتهت كلها إلى نوع من مستعمرات أنشئت خاصة بكل مذهب روحيا وماديا وصراعات نشأت في القرن الثانى عشر وأدت بدورها إلى حركة تبشير عنيفة للمدن فى القرن الثالث عشر وكان لكل قرن جهوده وواجباته ومعاركه ففي القرن الثالث عشر، على سبيل المثال شب الصراع ضد المانويين وفى القرن الخامس عشر نشأ الجدل العنيف بين مجموعات المطارنة والبابوية (مجمع كوستانزا وبال، وفى القرن السادس عشر اندلاع حركة الإصلاح والحركة المضادة للإصلاح التى قادها انصار الجزويت وحركة تبشير الدنيا الجديدة (أمريكا) والتفسيرات التعسفية التى صدرت عن مجمع مطارنة تيرنت (١٥٤٥ - ١٥٦٣) وفى القرن السابع عشر ظهرت النزعة وهى حركة دينية فكرية ذات مذهب أخلاقى مسيحى متشدد، وفى القرن الثامن عشر اشتد الصراع بين انصار نزعة زندقة أقل ضدا من ملحدى القرن السابق ولم يكتب لهذا الصراع نهاية حيث اندلعت الثورة الفرنسية، وأخيرا خارج نطاق هذه الصراعات المرتكزة على أقطار وأيديولوجيات برزفية عقلانية أحيانا وعكسها أحيانا أخرى، فقد اضطرت الكنيسة إلى مواجهة دائمة مع حركات تهدف إلى الخروج عن كنف المسيحية بشكل منتظم ممل هو أقرب إلى التخارج من النطاق الحضارى وفى كافة النطاق كما وقع فى إقليم الألب أو على أطراف أوروبا فى ميكليمبورج (ألمانيا) فى القرن الثالث عشر وفى ليتوانيا وفى كورسيكا فى منتصف القرنين الخامس عشر والسادس عشر وهذه المرة ظهور مذهب



(١) جماعة الإكليروس (القساوسة).

ال شعبان وأنصاره من القساة المخادعين هنا وهناك كمذهب الموتى ومذهب الكواكب وكثير من المعتقدات الخرافية التى مازالت متعلقة (بحكايات شعبية) ملتصقة بأذهان الناس وأفكارهم ولم تعرها الكنيسة ما كانت تستحقه من اهتمام ومواجهة . ولقد استخدمت المسيحية كل أسلحتها من تعاليمها وحركات التبشير وقوتها الزمنية الوقتية وفنونها ومسرحياتها الدينية ثم معجزاتها ومذاهب القديسين الشعبية بحيث كان خدام الكنيسة الأوفياء مايعبرون كثيرا عن مخاوفهم ويعترضون .

وفى عام ١٦٣٣ فى لشبونة لم يتورع راهبان من أن يقولوا إن انطوان^(١) دى بادوا (مدينة فى إيطاليا) هورب لشبونه وكان الفقراء لا يلتصقون الصدقة إلا باسمه ولا يلجأون فى المخاطر التى تواجههم إلا إليه يتضرعون توسلا ، فالقديس انطوان هو كل شئ لهم ... فهو بمنزلة جهة الشمال التى إليها يتجهون كما عبر صيت القديس انطوان البحر، ولقد ذكر أحد الرحالة الفرنسيين أنه لمس بنفسه إخلاص الناس وإيمانهم بالقديس انطوان فى البرازيل ... وكان ذلك بعد قرن من الزمان من ظهوره فى إيطاليا، وعموما فإن الموروثات الشعبية أثبتت قدرتها دائما على حفر الخنادق وفى مسيرة الأديان والإساءة إليها من الداخل لدرجة وقدرتها على تعديل أسس الإيمان وقواعده وثبت أن كل شئ فى حاجة إلى إعادة نظر حين استقر القديس جان (حنا دبلاكروا) (الملقب بطبيب المسيحية ١٥٤٢/١٥٩١) (وله مؤلفات من النسك) مع اثنين من أنصاره فى دير فيللو إحدى مدن كاستيليا (أسبانيا) حيث أنشأت القديسة تيريز أول دير للراهبان/ أو الراهبات فى جبل الكرمل بالتبشير بالمسيحية غير عابئة بالحياة الصعبة بين الثلوج أيام الشتاء القارس فى حياة من الزهد والتنسك ولكنها لم تكن حياة متغلقة ذات حواجز؛ إذ كان الراهبان أحيانا كثيرة يتنقلون حفاة ويسلكون طرقا وعرة لتبشير شعوب أقرب إلى ضواري الحيوانات، وتبشير الفلاحين ونشر تعاليم الإنجيل بينهم مما يدل فى محيط البلد الذى نشأت العقيدة المسيحية فيه، كم كانت المسيحية ذاتها فى حاجة إلى تبشير بها وهكذا سارت العقيدة المسيحية على مسارين واتجاهين مختلفين:

(١) القديس أنطوان مطران مدينة بادو فى إيطاليا بالقرب من البندقية وقام بالتبشير المسيحى فى أفريقيا ١١٩٥ - ١٢٣١

مسار حياة ثقافية تدافع فيه عن مواقعها فى مواجهة خصوم كانوا أحيانا كثيرة ذوى طينة طيبة ومسار آخر بين كتل بشرية كانت حياتهم القاسية البعيدة عن العمران كثيرا ما تدفع بهم خارج نطاق المشاعر الدينية بسهولة بعيدا عن الأرثوذكسية الأصلية (استقامة المعتقدات) كذلك وقد لازمت هذا المسار تموجات وانحرافات من نجاح وفشل وتراجع وفترات ركود لا يراها سوى الناظر من الخارج حيث تغيب عنا تلك الحياة اليومية الدينية بكل حقائقها فتجاهلها دون أن ندري ومع ذلك فلا يمكن لها أن تخذعنا عن الحركة العامة.

فيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر حققت الديانة المسيحية قفزات تثبت حيويتها، فالكنائس والأديرة برهان ساطع صاحبت التصاعد الاقتصادى والنمو الاجتماعى فى ربوع أوروبا النشطة المليئة بالحياة فى طريقها لتحقيق توسعات عاجلة ... وفجأة يندلع وباء الطاعون الأسود وتبدأ ظروف الانحسار الدامى فى كارثة قاسية حلت بأوروبا وكان كل شئ مهياً للتراجع حتى تلك الانتصارات التى كانت الديانة المسيحية قد تمكنت من تحقيقها خلال تلك السلسلة الطويلة من فترات البلية والاضطرابات والصراعات والتى يصفها المؤرخون بحروب المائة عام من ١٣٣٧ حتى ١٤٥٣ وامتدت هزاتها إلى أبعد من عنصرى الصراع فرنسا وإنجلترا ... امتدت آثارها على جميع بلاد الغرب ... ومع النصف الثانى من القرن الخامس عشر عادت مياه العقيدة المسيحية تتدفق من جديد وتنتشر فى بلاد كثيرة عاد إليها الاستقرار بفضل ماساد وقتئذ من سلام، ومع ذلك جاءت الأزمنة القلقة، من عام ١٤٥٠ حتى عام ١٥٠٠، وقد أخطأ المؤرخون فى تسميتها بفترة ما قبل الإصلاح ذلك أن موجة من بلبلة الأفكار سادت فى كل المواقع ولم تنطلق بالضرورة على المواقف المتعارضة أو تلك المحتجة على اتجاه الإصلاح، وفى البلاد التى ظلت على ولائها لروما فإن القلق الدينى انعكست آثاره على حركة إصلاح أخرى ... كاثوليكية كانت هذه المرة أطلق عليها المؤرخون حركة الإصلاح المضاد حيث أخطأهم التوفيق كذلك فى التسمية، وعلى أى حال فإن القرن السادس عشر والسابع عشر تميزا بالمشاعر الدينية اليقظة والصراعات الروحانية إلى أبعد مدى ولم تكن لتباغت أحدا أو تأخذه على غرة ومنها صراع

أنصار المذهب الجانزنيست الحاد (المذهب الأخلاقي المتشدد) وكذلك المذهب الأخلاقي البسيط المتسامح ولكنه فى الوقت نفسه إنسانى الاتجاه من جانب أنصار المذهب اليسوعى أيام القديس سان سيران (كان رئيسا لأحد الأديرة) سادة الباب الملكى ومدام دى سيفينييه^(١) دراسين وباسكال (وهم من أعظم كتاب فرنسا من خريجى هذا الدير.

وهى مستهل القرن الثامن عشر يحدث انحسار طارئ يثير جدلا كبيرا كان هذه المرة اندفاعات ماديا لا يخدم قضية الكنيسة إذ صاحبته حركة علمية وفلسفية تتصدى لها باسم التقدم... والعقل!!

النزعة الإنسانية^(٢)

وأنصارها^(٣)

لا سبيل إلى فهم الفكر الأوروبى بغير إطار من حوار مع المسيحية فهو وحده هو القادر مهما كان حيا أو كان النقاش حادا على إدراك النزعة الإنسانية والمظهر الأساسى للفكر الغربى.

ونقول فى البداية: إن لفظ الإنسانية غامض قد يثير الالتباس، لذا فمن الخطر ألا نوضح ونحدد استخداماته وهويته، وهو لفظ مختلق منذ القرن التاسع عشر واختلقه المؤرخون الألمان تحديدا عام ١٨٠٨ عن بير نولهاك مؤلف كتاب «بتراك»^(٤) والنزعة الإنسانية حيث ادعى أن له الفضل فى إدخال هذا اللفظ فى اللغة الفرنسية الجامعية عام ١٨٨٦ أثناء تدريسه بمدرسة الدراسات العليا. ومن ثم أثار لغطا كثيرا من حوله ومع ذلك نجد أنه مشتق أساسا من صفة البشر «الإنسان»، وقد عرف به، فهم اتخذوه عنوانا لهم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر غير أن لفظ الإنسانية لم يظل طويلا مرتبطا بأنصار هذه النزعة ولا مرتبطا بروح النهضة الإيطالية وحدها خاصة وبالروح الأوروبية عامة... فقد كان كل ذلك وفوق ذلك لفظا تنعكس آثاره على كثير من الأفكار وامتدت تداعياته على معان

(١) أحد الأديرة اللسانية، شيد عام ١٢٠٤

(٢) مذهب الاسله يتخذ من الإنسان وحياته الواقعية موضوعاً له

(٣) معدنقو مذهب الاسنة

(٤) فرانمسكو بتراك، شاعر إيطالى من أنصار مذهب الإنسانية ١٣٠٤ - ١٣٧٤.

لكثير من الأحداث بل وجدنا من استخدموا مشتقات لهذا اللفظ فقرأنا عن ذلك عام ١٩٣٠ وسمعنا عن النزعة الإنسانية الجديدة ونزعة المسيحية الإنسانية ونزعة الإنسانية الخالصة بل نزعة الإنسانية التقنية بله العلمية وهذا كفيل بأن يدلنا على أن اللفظ بل أى لفظ يمكن أن يصبح شعبيا فيرسم اتجاهات لعدة معان ويصبح رمزا لها وعليها ويمكننا تاريخيا أن نتحدث عن نزعة القرن الثاني عشر الإنسانية وتعنى مدارس المذاهب الإنسانية والفلسفية (فى العصر الوسيط) أى اتجاهات النزعة الإنسانية فى حركة الإصلاح وعصر النهضة بل والثورة الفرنسية، وفى العصر الحديث قرأنا عن نزعة كارل ماركس الإنسانية أو مكسيم جوركى، فإذا ما تساءلنا عن هذه المشتقات وجدنا أنها ألفاظ كانت توضح معانى الأحداث التى اسندت إليها ولعل من المعقول استعارة تفسير أعرض لمعنى اللفظ أوضحة مؤرخ النزعة الإنسانية أو جستين رتيوديه: قد نفسر بهذا اللفظ معانى النبيل البشرية (أو الأصالة الإنسانية) أو عظمة الإنسان وقدراته الابتكارية وتتجة إلى دراسة تحركاته وتثنى على إمكاناته وقوته فى مواجهة قوى الطبيعة الجامدة... المهم أن الإنسان يظل الفرد الذى ينمى داخله - بنظام منهجى دقيق مستمر - كل القوى الإنسانية فيه حتى لا يترك فرصة لفقدان شئ يعوق عظمة الإنسان ويشيد بأمجاده أو كما قال الفيلسوف جوته ينزع الإنسان إلى أعلا أشكال الوجود ستندال^(١) حيث يكتب إلى أوجين ديلاكروا (الرسام الفرنسى) قائلا: لا تهمل شيئا قادرا على أن يجعل منك إنسانا عظيما وهكذا نجد أن النبيل الإنسانى يفرض المجتمع جهدا دائما حتى تسود العلاقات الإنسانية بين أفراد هذا المجتمع وما يستدعى عملا دؤوبا لتنمية الثقافات والتقدم العلمى الذى يوسع مدارك الإنسان والدنيا حوله وكلها جهود تخلق فى الإنسان النوازع المعنوية الفردية والجماعية المشتركة بينه وبين أقرانه فى المجتمع فيبزرغ العدل وينمو الاقتصاد ويؤدى إلى توطيد أركان السياسة ويغذى الفنون والآداب. يكاد هذا التفسير الشامل أن يكون كافيا وان قصر عن التعبير الكامل عن هذه الحركة فقد واجهتها آراء معاكسة كما حاول اتنين جلسون تأكيده حيث يقول تعنى نزعة إنسانية عصر النهضة العصور الوسطى حيث تنادى...

(١) كاتب فرنسى ١٧٨٣ - ١٨٤٢ ألف عدة كتب.

الإنسان أكثر الله أقل وكان ذلك رأياً قاسياً وعنيفاً غير عادل ومبالغاً فيه .. ومع ذلك تظل كلها آراء وأفكار لما ساد المجتمعات من أفكار الانحدار الطبيعي بشأن النزعة الإنسانية بعضها عن وعى وبعضها عن غير وعى ... فهى ترفع من قدر الإنسان تحرره وتخفف من نصيب الله ... هذا ما لم تكن قد نسبته تماماً ولا بد بشكل آخر أن تعترف أن لفظ النزعة الإنسانية إنما يعنى ببساطة الضد ضد الخضوع التام لله .. ضد كل إدراك حسى مادى للدنيا ... ضد كل مذهب يهمل أو يحاول إهمال الإنسان ... ضد كل نظام ينتقص من مسئولية الإنسان ... إنها المطالبة الدائمة ... ثمرة ... الزهو والفكر ولم يكن كالفن^(١) مخطئاً حين سخر قائلاً ... كيف نفسر هذه النزعة التى يبتغون منها أن تعلمنا توجيه مسار حياتنا بفضل قوتنا الذاتية البحتة ... ألا يعنى ذلك ربطاً بفرع واهنه من فروع شجيرة لا تتحملنا ولا نستطيع الاستناد إليها حيث إن تتخطم فتتعثثر خطانا؟ ونترنح ... ونسقط، واضح أن كالفان لم يكن ابتداءً من هؤلاء المؤمنين بالإنسان وأنصار مذهب الإنسانية ... فالمذهب يعنى الكون ... ويعنى إيمانه، بأن كل مآلديه إيمان ... يعنى التلاؤم مع الثقة فى الإنسان والإيمان به.

وفى هذا المعنى للفظ النزعة الإنسانية الأوروبية يمكننا أن نفهم كلمة عالم الاجتماع ادجار موران إذ هرول مبتعداً عن الحزب الشيوعى قائلاً: يا إلهى إن الماركسية درست الاقتصاد ودرست الطبقات الاجتماعية ... شئ رائع ولا شك .. لكن يا إلهى لقد تناست دراسة الإنسان وتعنى النزعة الإنسانية مسيرة كفاح لتحرير الإنسان بالتدريب والاهتمام بقدراته لتحسين مصيره أو تعديله وتاريخها قد واجه كثيراً من الانتصارات والتراجع والتناقضات التى شكلت ماضى القارة الأوروبية ومهدت طريقه كما كانت النزعة ذاتها محاولات للبحث القلق عن حل آخر لأحداث الساعة الحاضرة ومشاكلها وأدت صعوباتها إلى انبثاق تلك الرغبة السقيمة فى الذهاب إلى كل جديد .. واستكشاف كل ممنوع .. مسيرة طويلة سنقصر حديثنا هنا على ثلاث حالات استثنائية ذات مغزى: النزعة الإنسانية فى عصر النهضة، تبدو النزعة الإنسانية فى عصر النهضة كحوار بين روما الوثنية

(١) مصلح فرنسى.

وروما المسيحية.. بين الحضارة القديمة والحضارة المسيحية... ولاشك كان حوارا من أثرى ما عرف العالم الغربى من حوارات، وما أكثر ما كررت عبارة قالها مكيا فيللى (يقصد بها إيطاليا ولاشك) تبدو كمن ولدت لإعادة الروح إلى الأشياء المعينة وفى ذلك ما يؤكد ان الحياة ذاتها كانت فى أمس الحاجة إلى ما قيل عن الأشياء التى ماتت ويعنى ذلك أنها كانت فى متناول الأيدى ولم تمت إطلاقا، والواقع أن روما الوثنية لم تمت فى الغرب وظلت حضارتها تعكس آثارها وتداعياتها على بلاد الغرب تستمد منها ترجماتها الأدبية ونماذج أفكارها بل وحال مواقعها المشتركة واستعاراتها اللفظية فتأقلمت أوروبا المسيحية مع هذا الحوار مع روما القديمة ولم يكن أمامها حضارة أخرى بديلة منافسة وقبلة المسيحية التعايش السلمى مع روما الوثنية قبل سقوط العالم الرومانى وكان القديس جوستان يقول «منذ القرن الثانى كان كل فكر نبيل حينما كان مصدره ميراث ملك المسيحية كما يؤكد ذلك القديس آمبروار يقول كل حقيقة مهما كان تفسيرها إنما تبعث من الروح المقدسة (روح القدس) وصاح تارتوليان^(١) قائلا: ما هو هذا الشئ المشترك بين أثينا والقدس؟ ولكن صوته ظل بلا صدى... على أى حال إذا كان الميراث القديم هو الماضى فى الحياة فإن طرق التفكير ولغة العصر الوسيط فى الغرب وآداب العصر السالف القديم وشعراءه وفلاسفته أو مؤرخيه كانوا قد توقفوا عن شحذ الشاعر أو إثارة اهتمام المثقفين ولئن ظلت اللاتينية لغة حية فقد كانت اللغة اليونانية غير معروفة أو تكاد حيث أهملت المخطوطات فى أكثر المكتبات ثراء لنقبع فى النسيان تعلوها الأثرية... إنها تلك النصوص التى يتعقبها أنصار النزعة الإنسانية فى كل مكان لإعادة قراءاتها ودراستها ونقدها بشغف تمجيدا للغات الأسلاف القدامى يونانيون ولاينيون ومؤلفاتهم سوف تكون نبراسا حيا للأجيال القادمة، ولم يكن أفضل من مكيا فيللى ومقولته عند نفيه للمرة الثانية عام ١٥١٣ وكان وقتئذ بين الفلاحين والخطابين كتب يقول عندما يأتى المساء... أعود إلى مقرى وأغوص فى مكتبتى، فما أن تطأ قدماى عتبة الحجرة حتى أنزع عنى ما أرتدى كل يوم من ملابس مغطاه بالطين والأوحال لارتدى ملابس

(١) أحد المدافعين عن العقيدة النصرانية ١٥٥ - ٢٢٠ بعد الميلاد.

البلاط الملكي، وهأنذا فى هذا الزى المضحك أدخل إلى بلاط الأسلاف القدماء... الذين يستقبلوننى بالذهاب والبشاشة فأتغذى بما أفضل من طعام فإنما هو غذائى الذى خلقت من أجله وهنا لا شعور بالخل من تبادل الحديث معهم أو سؤالهم ومناقشتهم عن بواعث أفعالهم.. وهم من فرط ما يتمتعون به من إنسانية... يردون على.. فإن نزعة الإنسانية فى عصر النهضة إذن إنما تدل عليها تلك القرارات وهذه الأحاديث والمحاولات التى لا تنتهى ولا تتوقف، فالكاكتبان الأديبان الفرنسيان رابليه^(١) ومونتني^(٢) من أتباع النزعة الإنسانية ويتضح ذلك من كتبهم التى صنفوها ويمكننا أن نستكشف إلى جانب ذلك كل نصير للنزعة الإنسانية أحد الأسلاف القدامى كأنما يقوده من يده وينزع عنه القناع ويفسر لنا آراءه أحيانا فهذا إيرازمس دى روتردام الهولندى الذى لقب بأمير أتباع المذهب الإنسانى إنما هو لوسيان يقول عنه أعداؤه وميكيا فيلى هو بوليب (بوليبوس)

وليس أمرا يسيرا تاريخ هذه الحركة الفكرية فقد تكون كل من الإنسانية التى ذكرنا وعصر النهضة اتجاهين وحركتين منفصلتين إحداهما عن الأخرى فى الزمان... وفى المكان معا ولاشك أن النزعة الإنسانية انطلقت من مدينة أفينيون (بالقرب من باريس وكانت مقراً للبابا فى القرن ١٤) هذه الانطلاقة كانت انطلاقة أخرى هى عصر النهضة وانتعشت المدينة مع عودة بترارك (١٣٣٧) (المؤرخ الإيطالى) حيث تظل طويلا أفخم المدن بفضل إقامة البابوات فيها كما كانت تعتبر أغنى المدن الأوروبية بفضل روعتها وما كانت تشع من تألق ومع ذلك فقد نبعت من مدينة فلورنسا النهضة، ومن ثم سيطرتها الثقافية وظلت كذلك حتى وفاة لوران عام ١٤٩٢ وحتى استيلاء الإمبراطور وكوزم دى مبديشى عليها عام ١٥٣٠ ولاشك أن هذه التواريخ المتسلسلة (١٣٣٧ - ١٥٣٠) مقبولة بمجمل الحركة (النزعة الإنسانية) التى لم تصبح قضية إيطاليا وحدها بل أقحمت الغرب كله إذ ولد آخر أمراء النزعة المدعو إيرازم سى فى روتردام عام ١٤٦٧ وتوفى فى بال عام ١٥٣٦ غير أن المعنى الكامل لهذين القرنين الطويلين من حقبة التاريخ

(١) قرئوا رابليه ١٤٩٤ - ١٥٥٣

(٢) ميشيل مونتني ١٥٣٣ - ١٥٩٢.

لا يدرك إلا بالانفتاح العريض على الماضى قبل عام ١٣٣٧ وعلى ما يلى ذلك بعد عام ١٥٣٠ فأما نحو الماضى فلأن انفصالا كاملا لم يقع بين العصر الوسيط وعصر النهضة الذى لم يكن نقيضا لفلسفة القرون الوسطى وقد كتب أحد المؤرخين عام ١٤٩٢ يقول: كنا نرى بين القرون الوسطى وعصر النهضة فرقا يوازى الفرق بين الأسود والأبيض أو بين النهار والليل... فرقا ساطعا يخطف الأبصار ثم نجد سببا يدفع سببا آخر فينتهى الأمر بنا إلى زوال الحدود بينهما فنكاد نحتاج إن أردنا التمييز بينهما إلى بوصلة توجه مسارنا.

وأما نحو المستقبل فإن ذلك غير واضح من بعد وفاة إيراسموس عام ١٥٣٦ وهو الرجل الذى أحبه ليبراليون اليوم الأحرار أن تكون هناك حضارة تصمد فى خضم هذه الحروب الدينية التى دامت قرابة قرن من الزمان.

ومما لاشك فيه أن حركة انتصار النهضة لم تتوقف أبدا وواضح أن أنصار مذهب الإنسانية قد حققوا الفوز فى مباراة طويلة المدى حيث فازوا فى مجال التعليم وظلت ذكريات القديم الخبز اليومي حتى اليوم ولا سبيل لأوروبا أن تتغافل عن الثقة فى عظمة البشر وذكائهم والذى يظل على طول المدى أكبر الدوافع التى تدعو إلى التفكير والبقاء فى بلاد الغرب فإذا كانت الاتجاهات الإنسانية ثمرة كفاح دوائر صديقة لاتينية ويونانية تتعاون من حيث درجة تحمسها أو عبرية ذات صبغة عبرية من أمثال توماسى بلاتر عامل الحبال أوبيك دى ميراندول أو بوستيل أى ثمرة جهود عقول مستنيرة من الصفوة ولم تقتصر تباشيرهم على المدن المشهورة أو بلاط الأمراء كبلات فرانسوا الأول. فهذه العقول المستنيرة كانت مبعثرة فى أنحاء الأراضى الأوروبية ولها علاقات وثيقة فى نطاق ما كان بينهم من مراسلات توجد بينهم، منها على سبيل التدليل مراسلات إيرازم باللاتينية فى اثنى عشر مجلدا وهى التى تأثرت بها أفكار أوروبا كلها وعلى رأسها ايطاليا ثم فرنسا وألمانيا (دون إغفال الدور الهام الذى لعبته بوهيميا وهتقاريا وبولندا وهولندا وإنجلترا فضلا عما قد يرد من أسماء كثيرة فى هذا الصدد ونكتفى بما أصدره فرانسوا الأول من أوامر بتدريس المواد المحظورة وما ألف فيما بعد من هؤلاء من معلمى كوليج دى فرانس (الجامعة الفرنسية) هل النزعة الإنسانية

صراع مع العقيدة المسيحية وهل لا نرى فى هذه الحركة إلا أنها كانت تهدف إلى الإلحاد والزندقة ؟ أو على الأقل تقديم التحية لميكافيللى ورا بلييه ومونتقين رواد الفكر الحر الأصليين .

قد لا يكون عدلا أن نرى عصر النهضة بعيوننا اليوم رغم إقرارنا بأنه تحول عن مسار التعليم التقليدى المدرسى الجامد أحيانا وعن مبادئ علم اللاهوت... كل ذلك صحيح.. ولكنه تمجيد لعلوم سلفية إلحادية وإن كانت للحركة كذلك أهداف فى تمجيد الإنسان... وهو صحيح كذلك دون أن يستتبع بالضرورة أن تكون الحركة ضد الله وضد الكنيسة كما ذهب تفكير البعض إذ يوحى أى تعمق فيما أولى لوسيان قبيفر دراسة متأنية لمؤلفات رابليه ملك النهضة لم يهمل البحث يقينا وإن لم يمثل بؤرة اهتماماتها، وجدير بالذكر أن حسم تلك الآراء المتعارضة التى أثقلت النفوس والقلوب كثيرا، وقضية الإلحاد بحكم ما أثارت من جدل للمعاصرين كثير عكف عليه المؤرخون. ومع ذلك فما ينبغى أن ينسبنا الحكم عليها للأخطاء والغموض الذى يكتنف عادة المسائل التى يصعب حلها، وقد ثارت فضيحة كبرى عام ١٤٣١ من حوارات لوزنرو فالأ ونشب صراع بين أنصار أبيقراط وأنصار الرواقيين نسبة إلى الرواق الذى كان يجتمع فيه أتباع زينون التى تقول: إن كل شئ فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى وكان لهؤلاء الأخيرين خطوة وذبوع صوت.. كان جدلا بحثا تأكدت فى نهايته مفاهيم العقيدة المسيحية لما فوق الطبيعة واتضح فى نهاية المطاف أن احتياجات الإنسان ودوافعه وآماله ليست أبدا فى إطار نكران الله بل كانت جدلا فرضته ضرورات علمية صلبة سادت القرن السادس عشر وعلينا لذلك ألا نتسرع بوصم ميكافيللى بالزندقة لمجرد أنه انتقد الأساقفة والكنيسة التى وصمتنا باللاذنيين وقدست وظهرت البسطاء لتواضعهم أو هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم يتأملون ويرون الحبر الأعظم فى التواضع على حين وضعت الديانات السلفية القديمة فى عظمة الروح وألقوا عليه باللوم لمجرد أنه وضع السياسة خارج الأخلاقيات وكانت قد قبعث فيه منذ مدة طويلة وكذلك ينبغى أن نذكر الأكاديمية التى أنشأها لوران دى ميديتشى «الأفلاطونية الجديدة» واتخذت موقعا مضادا من الأوسطية ولعلها كانت تبحث عن صيغة توفيقية بين

السلفية والمسيحية فأما حين يحلم بى دى ميراندول ويدلى بخطب عن عزة نفس الإنسان وكرامته فإن لنا أن نتساءل كيف يذكرون عليه أن يحلم وهو فى آخر أيام حياته القصيرة جدا وهو يتجول فى ردائه الدومينيكي حافى القدمين بين المدن والحقول والضياح مبشرا بالإنجيل وفى يده الصليب المصلوب عليه المسيح كان أروع مثال على النزعة الإنسانية المسيحية وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى بادوان بومبانا نزى الملحد فى عيون البعض المريب ففى عيون آخرين وسميت بالنزعة الإنسانية الدينية أو كتاب سنبالون موندى (١٥٣٧ - ١٥٣٨) الذى نقده لوسيان فيفر فى كتاب صدر عام ١٩٤٢ وخلاصته أن المسيح إذا كان رسالة السماء وجوهر كل هذا الجدل فقيم إذن حديث الزندقة والإلحاد وقد قرأنا المؤرخ الشهير فيليب موتبيه وما ادعى بأن النزعة الإنسانية التى فتنها نوازع الكبرياء فى المذاهب القديمة قد صاغتها وكرمتها وتبنت نماذجها وأمثالها بل وأريابها وروحها ولغتها وإن كل حركة مهما امتدت بعيدا إلى أقصى مدى منطقى لم تكن لتهدف لغير إلغاء الظاهرة المسيحية قد يكون ذلك تفسيرا نحن أو منطقنا ولعله لم يكن كذلك فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ثم نقرأ ما قاله عالم الاجتماع أليكساندر روستوف باحثا عن عداء حين كان انتصار السلفية القديمة على الكنيسة فى أوجه بل داخل الكنيسة ذاتها. وكذلك ألم تستطع أنوارها من أكبر مراكز عصر النهضة أما ما كان من هذه التحركات ألم يكن البابوات هم الذين حركوها ووجهوها؟ ثم يجئ أليكساندر السادس الذى يصارع فى فلورنسا عدو النزعة الإنسانية وعدو أنصارها ثم شافونارولا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) الذى أحرق بأمر من أليكساندر السادس فى ٢٠ مايو ١٤٩٨ لاتهامه بالهرطقة ونشر البدع، وفضلا عن ذلك فإن السلفية القديمة عادت فانبعثت فى نفوس الناس لنزعتها إلى التسامح وكان الفلاسفة اليونانيون سواء كانوا يؤمنون أولا يؤمنون بها يسهمون فى الاحتفالات والشعائر الإلهية. فلماذا إذن أو كيف يعمد أتباعهم ومريدوهم إلى حفر خنادق العداء للكنيسة التى لم تظهر لهم عداء كاملا أو تاما... وعموما فالكلمة لإيرازم (لارازناس) فى صحيفة أيها القديس سقراط... صلّ من أجلنا فإن النهضة هى التى تباعدت عن العقيدة المسيحية فى عصر النهضة على صعيد

الأفكار بأقل من ابتعادها على سعيد الحياة ذاتها، هي إذن إن أردنا نوعا من الخيانة الفكرية أو الثقافية لا فلسفية وكان محيطها نوعا من السعادة المتعددة سعادة العيون وسعادة النفوس والأرواح والأجساد كأنما الغرب يخرج من صوم دام قرنا من الزمان وتعنى النهضة النهوض الاجتماعى والنفسى للسعادة ولم يحدث أن مر بالإنسان مثل هذه المشاعر الفياضة والعيش فى عصر سعيد كهذا فما هو عصر الحياة يعقب ما كان من عصر الموت فى العصور الوسطى وما هو التأمّل فى الموت والرقص الجنائزى الحزين مما تميزت به العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر، ها هو الغرب ينتهى إلى عهد من البهجة والافتتان أو كما وصفه ميشيل فوكو انفصل الغرب عن التأمّل فى الموت بحثا عن الحياة السعيدة ... فالحياة الأفضل وأصبح الموت بعد أن كان سماويا أصبح موتا «أرضيا» .. موتا جسديا يتحلل به الجسد فى مصير كان على الإنسان مواجهته، أو كما قال القديس أوجستين نحن فى هذه الدنيا مسافرون يتنهدون بعد الموت ومع ذلك فما من مفكر فى أن حياة كهذه هي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .. نوع من الجحيم .. وبدأت الحياة تستفيد قيمتها ... وقدرتها ومبتغاها .

يجب فى الأرض أن ينظم مملكته على تلك العقيدة الجديدة بأن كافة القوى الإيجابية فى الحياة العصرية كتحرير الفكر والتحرر من بعض السلطات وانتصار الصبغة الثقافية على ميزة التوالد... أى بإيجاز كما قال الفيلسوف نيتشه خلاص الإنسان، فكان من بوتقة التخمر الجديدة أن أصبح اتباع النزعة الإنسانية أكثر وعيا بلاشك فما هو العصر الذهبى تبرز أضواؤه كما يؤكد مارسيليو فيسان (١٤٣٣ - ١٤٩٩) ثم كان عام ١٥١٧ ردوايرازم المعنى نفسه فى قوله يجب أن نتمنى حظا سعيدا للقرن .. حيث يحل العصر الذهبى وذلك فى رسالته الشهيرة به فى ٢٨ أكتوبر ١٥١٨ إلى أحد أتباع النزعة الإنسانية وليبادير كهايمر من مدينة نورمبرج وكذلك يصرخ أورليتنس فون هاش قائلا ما أعجبه من قرن ما أعجبه من خطاب ... ما أسعدها من حياة ...

وكانت هذه الصحوّة المفاجئة بقدرات الإنسان المتعددة قد سبقت لاشك بتمهيد الطريق لكل ثورات العصر الحديث كما مهدت كذلك الطريق نحو نوبات الإلحاد

ولا نظير أن أحداً يستطيع الاعتراض على ما نقول ... إلا أن أنصار النزعة الإنسانية كانوا منشغلين في تنظيم مملكتهم الخاصة .. فلم تتح لهم فرصة منازعة مملكة الرب .

ومنذ الثلث الأول من القرن السادس عشر بدأت تتوقف حركة السعادة في عصر النهضة فبدأ المسرح الغربى يمثل الإنسان التعس، وراجت فيه السعادة شأن كل عهد وسطعت الشمس كما كان في كل العصور التي سادت سعادة البشر أو سادهم الاعتقاد بأنهم سعداء، ثم تحل العصور المعاكسة كالذى احترقت فيه مدينة الإسكندرية أو عصر أوجست عصر النور... الذى لم تدم أضواؤه إلا قليلا ولتثور النزعة الإنسانية ويعود نهر النهضة ليتخذ مساره وتدفقه من جديد فيما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكان مسار نهر النهضة هذا بين تداعيات الحروب الدينية المفرطة إذ بدأت بالفعل في ألمانيا عام ١٥٤٦ عام وفاة لوتر ولم تنته إلا بعد قرن من الزمان عام ١٦٤٨ خلال الحقبة الانتقالية فقد لحقت هذه الحروب بلاد أخرى تاركة فوق أراضيها خرابا ودمارا كاملين . وعقدت اتفاقيات تصالح (متأخرة) كان منها سلام أوجسبورج عام ١٥٥٥ ومرسوم مدينة نانت عام ١٥٩٨ وخطاب صاحب الجلالة في بوهيميا عام ١٦٠٩ ومع ذلك فقد كان على الآلاف من الرجال والنساء في سبيل الذود والدفاع عن عقيدتهم مواجهة الحروب الأهلية كثورة الأراضي المنخفضة العنيفة في عهد فيليب الثانى أو في فرنسا عند فسخ مرسوم نانت ١٦٨٥ (ذلك أن الإصلاح على عكس نزعة الإنسانية في عصر النهضة سرعان ما يمس الكتل السكانية الكثيفة) وعصيان مدينة سيفين المسلح ... أو النفى سواء إلى الدنيا الجديدة (أمريكا) أو إلى بلد آخر تلائم عقيدتهم الدينية تهدأ كل هذه الأنواع من التنكيل والإرهاب مع بداية القرن الثامن عشر أو قبل ذلك أحيانا، وعاشت البروتستانتية، وها هي اليوم تغطى بنزعتها الإنسانية الخاصة جزءا كبيرا من العالم الغربى وخاصة البلاد الأنجلو سكسونية والجرمانية ومع ذلك فليس يسيرا تحديد اللون الصحيح لهذه النزعة الإنسانية حيث لم تكن هناك كنيسة بروتستانتية واحدة، بل كنائس عدة تماثل نزعات إنسانية عدة ذات أنماط متعددة مثل أفراد عدة وهم ليسوا جزءا من عائلة واحدة وخاصة إذا ما تعارضوا مع

جيرانهم فى العالم الغربى الكاثوليكي، ويهمن الميراث الأروى الذى ورثته ولا الإصلاح فى حد ذاته ولن نضيع وقتنا طويلا فى التاريخ الكلاسيكى لعصر الإصلاح والبروتستانتية ولكننا سنركز على ملخص أميل ليونارد فقد تعاقبت على مدى عشرين عاما حركتان للبروتستانتية إحداهما تلك التى عرفت بالحركة العنيفة حركة مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) والثانية ما أطلق عليها الحركة الرزينة التى قادها كالفين (١٥٠٩ - ١٥٦٤) والرجلان لايتشابهان فأما لوثر ففلاح من أطراف الشرق الجرمانى كما أن هناك شيئا «مباشراً قوياً» طبيعياً فى هذه الثورة الروحية القروية، فقد نزعنا إلى الهجوم على تجاوزات ولا معقولات وتعليمات الكنيسة والخروج من كل الشكوك، والرهان بكل شيء على إخلاص الإيمان (مبعث الأمان) وكان هذا هو اتجاه لوثر الشاب الذى كان يقول: لم تعد الدنيا كما كانت بالأمس حيث كان البشر يساقون كالصيد، ولا شك كانت هذه الآراء متعارضة مع مواقف الأثرياء وأصحاب النفوذ ممن تألبوا عليه فلم يستطع الصمود ثم يضطر المصلح عام ١٥٢٥ إلى الانفصال عن الفلاحين الألمان الذين ثاروا ضده وبسببه (بعض الفلاحين) فيما بين نهر الألب ونهر الراين وجبال الألب كما واجه كالفان ساكن الحضر المثقف المنظم المثابر الممتلئ حيوية ونشاطاً.... عالم القانون الذى يشعر أنه فى حاجة دائمة إلى الذهاب إلى أقصى إسقاطاته. ويجد لوثر جبرية الأحداث (القضاء والقدر) كالرويا على حين يضعها كالفن فى معادلة يستخرج منها التداعيات فنجد فى كل الأزمنة أن الصفوة هم المختارون... وليس عليهم من ثم حكم الآخرين وهذا تولاه كالفن فى جنيف مستنداً إلى روح التواضع والخشوع (١٥٣٦ - ١٥٣٨) (و ١٥٤١ - ١٥٦٤) ذلك ما اتبعه كرومويل^(١) فى انجلترا هذان هما أكبر دول البروتستانتية رغم اختلاف مجاليهما ولكن النقاط المشتركة بينهما كثيرة على الرغم من مقاطعتهما روما وإلغاء الأسقفية المنظمة وتخفيض القرى المقدس من سبعة إلى اثنين مع اختلاف فى القرى المقدس ذاته ولا بد من اليقظة ونحن نتحدث عن اختلافات أنصار المذهب البروتستانتي إذ نجد المذهب البروتستانتي الإنسانى عند ترونجلي فى زيورخ وأوكيلامبا فى مدينة

(١) جماعة بروتستانتية فى القرنين ١٦، ١٧ تتادى بالتمسك بأهداف الفضيلة.

بال وهنرى الثامن فى انجلترا ونجد المذهب البروتستانتى التقوى^(١) عند المنادين بإعادة العماد وقد عذبوا كثيرا. أما الحدود الفاصلة بين المذهب الكاثوليكي والعالم البروتستانتي والتي تمثل إلى اليوم عاملا مؤكدا فى نطاق الحضارة الأوروبية فليست نابعة من مصادفات الصراع، ذلك لأن أوروبا كجذوع الشجر تتوالى فيها على مر الأزمان الطبقات فتعرف منها أعمارها وأقدم الطبقات اللب أو القلب من الشجرة فقد امتدت الإمبراطورية الرومانية غربا وشمالا إلى التقاء نهر الراين بالدانوب من جهة وإلى الجزر البريطانية من جهة أخرى بل إلى ما وراء تلك الحدود وكان أن بدأت الحضارة الأوروبية تنتشر من بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية وبدأ الغرب فى صورة نبيلة يستعمر العالم المجاور فتقام فيه الكنائس ويبحث برسله وقد نتساعل فى هذه الحدود القديمة للإمبراطورية الرومانية أى بين أوروبا القديمة وأوروبا الجديدة، أكان مصادفة أن تكون فى جزء كبير منها الحدود التى فصلت بين الكاثوليكية والبروتستانتية. لاشك أن حركة الإصلاح وجدت أسبابها الدينية البحتة وهى ترى نبعها الروحي يرتفع فى كافة أنحاء أوروبا فأثارت الانتباه إلى تجاوزات الكنيسة وإلى إخلاص مبتذل لا تكفى فيه حركات هى إيماءات وإشارات أكثر منها درع حقيقى... من هذا الشعور عانت كل العقيدة المسيحية ومع ذلك فقد حافظت أوروبا القديمة التى ظلت لاشك أكثر تعلقا بتقاليد دينية قديمة ولها ما تربطها بروما على هذا الرباط على حين لم تكن أوروبا الجديدة الأكثر شبابا وانشغالا على قدر كبير من الارتباط بجذورها الدينية السالفة إذا استوعبت الانفصام حيث لاحت تباشير «رد فعل» وطنى ولاح المصير اللاحق للعاملين، وكثيرا ما غذى ما سمي فيما بالزهو «المتعصب» وإلى فضائل البروتستانتية عزيت أسباب انطلاق الرأسمالية وظهور الفكر العلمى، ولم تعد مواقع الكاثوليكية ومواقع البروتستانتية تتشابهان فى صراع تقليدى ولا فى سياق تاريخى اقتصادى عامة، فلم يعد النظر إلى البروتستانتية فى الواقع بحيث يمكن من تأكيد تفوقها أو عدم تفوقها ثقافيا بالنسبة إلى العالم الكاثوليكي بل كان العكس إذ لاشك فيما خلقت البروتستانتية من هذا الخلاف الذى أقر انطبعا أصليا فى مجال الثقافة

(١) حركة دينية نشأت فى ألمانيا فى القرن (السابع عشر).

الأوروبية ولا بد لتفسير هذا الانطباع من التمييز بين البروتستانتية الأولى لمكافحة التي ظهرت في القرن السادس عشر والبروتستانتية الظافرة التي استقرت في القرن الثامن عشر وسرعان ما وقعت حركة الإصلاح في ذلك العناد نفسه الذي كانت تلوم عليه الحركات الأخرى... حرية الثورة وبذلك أرست قواعد بنيان صلب كما فعلت حركة القرون الوسطى الكاثوليكية فقد خضع كل شئ لقيم الوحي (قانون الطبيعة) فالدولة والمجتمع والتعليم والاقتصاد والعدل كلها على قمة الكتاب المقدس أما مفسرو الكتاب فهما الدولة والكنيسة البروتستانتية ولا حاجة بنا إلى أن نذكر أن هذا النظام لا يخلق الحرية الدينية، امتشق السلاح في الأصل من أجلها، وذلك أن النظام الأمر والقوة واليد الحديدية إنما كانت للكنائس البروتستانتية الأولى في مدينة بال (سويسرا) كما في زيورخ حيث يفرق المنادون بإعادة العمام المنفرين، وفي هولندا^(١) وقعت مذابح مماثلة حيث طورد هؤلاء التعساء الذين ينكرون الثالوث الأقدس وألوهية الابن ويتصدون للكنيسة والدولة والأثرىاء وتعلق لهم المشانق على يد الأنصار الخاضعين للبابا... ولكن ما اسم من استطاعت حركة الإصلاح معاملتهم بنفس المعاملة القاسية؟ فقد قرأنا قصة ذلك الطبيب الأسباني المعترض، فكان أن اعتقل في جنيف عند خروجه من جلسة وعظ وكان اتهم بأنه ضد الثالوث المقدس وبأنه من أنصار الحلولية ثم عذب وأحرق ويبدى سياستيان كاستيليون عام ١٥٥٤ وفي كتابه المثير اشمزازه ما حدث وكان من أنصار الحركة الإصلاحية المستنيرة الليبرالية فيها جم سيد مدينة جنيف الذي أحبه وخدمه من قبل وقال في كتابه ما من أحد مثلي يستطيع إدراك معنى أخطاء حركة الإصلاح وجرائمها الظافرة ثم يستطرد قائلاً.. كيف ولم هذا التسرع بالاتهام بالهرطقة؟ بحيث إذا أراد إنسان اليوم أن يعيش كان حتما عليه أن من الإيمان والأديان قدرا كبيرا ومهما كان من سكان الحضر أو من أنصار الله^(٢) كالمسافر من بلد إلى آخر يضطر إلى استبدال نقوده من مكان لآخر فما يصلح هنا لا يصلح هناك وذلك إذا ما أراد التمتع بحرية التغيير، أما هؤلاء المنادون بإعادة التعميق بمفهومهم وتفكيرهم وما يكتبون عن كلام الله فيآليهم وحدهم يؤوب

(١) المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد (أى وحدة الوجود)

(٢) أنصار مذهب سوسين بإنكار الثالوث وألوهية المسيح.

مصيرهم الذى يتحملونه، ظل هذا الصوت العادل منعزلا ويائسابين أنصار يملأهم شعور الوجد والحماس حتى أصبح واجبا فى القرن السابع عشر زمن النزاع بين أنصار كالفن المنادون بالاستسلام المطلق وبين المنشقين الأرض أو السويدين إعادة طبع هذه الكتب وإعادة توزيعها وذلك ما كان فى مدينة أمستردام حيث طبع أحدها بالعنوان المثير المميز دشمة ساقوا ذلك لأن سافويار كاستاليون^(١) سوف يصبح فى حقيقة الأمر منذ ذلك التاريخ من الأنوار التى سطعت تعلن عن المسار الجديد الذى سارت فيه أخيرا البروتستانتية.

وكانت البروتستانتية الجديدة تؤيد حرية السرائر (الضمير) فبدأت قسوة العقيدة من ثم تخف وطأتها بالتدريج خصوصا فى القرن الثامن عشر كلما حققت ضغوط الكاثوليكية وخف نشاط حركة الإصلاح العادى غير أن تطور البروتستانتية ذاتها وما بدأت تنادى به من حرية السريرة على نفس مسار عصر الاستنارة تحت نفوذ التطور العلمى قد جعل من الصعب التمييز كما هو الحال دائما بين الدافع والأثر وكذلك القول بأن البروتستانتية فى عودتها إلى منابعها الروحانية قد قادت أوروبا فى طريق الاستقلال الروحى أو على العكس فإن العقيدة البروتستانتية بتطوير نفسها لم تهتم بالتطور العام للفكر الفلسفى والعلمى الذى ساد البلاد الأوروبية ولا يمكن أن ننكر أن البروتستانتية على عكس غريمها الكاثوليكية قد تداخلت واندمجت فى العصر الليبرالى الكبير كما لا ننكر كذلك بالقدر نفسه أن هناك بلادا ذات تكوين وتقليد كاثوليكي كفرنسا وجدت نفسها على قمة هذه الحركة نفسها وعلى العموم نجد البروتستانتية تولى وجهها شطر حق الفحص الحر وحق نقد تاريخ النصوص المقدسة، أى إلى نزعة عقلانية فى عبادة الله وحده فبدأت بسرعة تتصالح مع نفسها، وهكذا كان حال كل الملل الهامشية التى كانت حتى ذلك الوقت مبعدة منفردة على الهامش كأنها نزعات مريبة مشكوك فيها ومنها مذهب الأتقياء الأطهار (البيورتيان الذين يتمسكون بأهداب الفضيلة فى انجلترا وأنصار مذهب إعادة التعميد فى كل من ألمانيا وهولندا وحققوا نجاحا بارزا فى انجلترا وعبروا بها إلى أمريكا حيث شيدوا مستعمرة قدر لها أن تكون إحدى

(١) عالم لاهوت فرنسى ولد فى ١٥١٥ - ١٥٦٣ كتب ترجمتان للكتاب المقدس إحداهما بالفرنسية والأخرى باللاتينية.

الجماعات النشطة البروتستانتية بالولايات المتحدة الأمريكية وفي أواخر القرن السابع عشر بدأت تعاود الظهور مرة ذوى الإلهام التى كانت قد ظهرت فى القرن السادس عشر بفضل أتباعها الذين أطلق عليهم اسم الأصدقاء وعرفهم العالم فيما بعد باسم الكويكرز^(١) أى الصحابة الصالحين الأصحاب ومعهم وليم بن عام ١٦٨١ الذى أسس قواعد فى بنسلفانيا وكذلك نشأت إعادة التجديد فى ألمانيا لصالح مذهب التقوى^(٢) وقد أسسها قسيس من الرعاة الصالحين اسمه فيليب جاك سبيتر فى ظل حماية أمير من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة من أسرة براندنبرج وقدر له من بعد عام ١٧٠١ أن يكون أول ملوك بروسيا فرديريك الأول كما أسس سبيز جامعة هال القوية عام ١٦٨١ وقد ثارت عليه كل جماعات أنصار لوتر حول منتصف القرن الثامن عشر ولم تدم حركة على قوتها سوى حركة الميتو وبزم الانجليزية (حركة دينية إصلاحية نهجية) مؤسسها ويسلبى ووايتفيلد على أنه لا يهتم هنا تعداد هذه الملل والنحل وانتصاراتها وانكساراتها سوى بإبراز تألق الفكر البروتستانتي فى إطار مشاعر دينية لم تعد تفرض الدرجة اللاهوتية الصارمة والمتشددة وقال فى ذلك فرديناند بريسون عام ١٩١٤ أحد الأكاديميين البروتستانت أن اللاهوتية لا تطابق ولا تماثل عقيدة دينية ولا بد من انقضاء إحداها لتعيش وتدمم الأخرى وهذا ما يقر عمق الخلاف بين المجتمعات البروتستانتية والمجتمعات الكاثوليكية الآن فالبروتستانتي دائما وحده مع الله ويستطيع إعداد عقيدته الدينية الخاصة ومعايشتها والبقاء على وفاق مع العالم الدينى ويظل مسائرا، وأفضل من ذلك قدرته على أن يجد بين عديد من هذه الحركات الدينية واحدة منها تحل مشكلة الخاصة بدون ألم، ويمكننا أن نقول إن الخلافات الشديدة بين هذه الملل والحركات الدينية تتفاسمها أحيانا كثيرة جماعات طبقية اجتماعية متنوعة كاختلافها، وهكذا نرى أن المجتمع البروتستانتي يتجاهل مايسود المجتمعات الكاثوليكية العصرية من هذا الانشقاق بين العلمانى والدينى إذ على كل إنسان أن يختار بين نوع معين من خضوع النفس وبين قطيعة مع الكنيسة التى هى بمنزلة تجمع سواء أكانت أو لم تكن فكل النزاعات الروحانية

(١) شعبة الصالحين البروتستانتية التى تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر
(٢) حركة دينية نشأت فى ألمانيا فى القرن ١٧ وأكدت على دراسة الكتاب المقدس.

مفتوحة واتخاذ المواقع إلزامى ضرورى، أما المجتمع البروتستانتى فمعلقه على النزاعات الروحانية داخلية التى لا تتوقف عن الظهور ومن هنا نستطيع إدراك أسباب تلك السلسلة عن الخلافات التى تقسم بها سلوكيات كل من/ الأنجلوساكسونيين وأوروبا الكاثوليكية ومواقفها وكلها حدود خصومات غير منطقية ولا سبيل إلى مجرد تبسيطها وتظل النزعة الإنسانية الثورية سمة من سمات أوروبا ويوصى بها كل تاريخها ويكررها فقد كانت أوروبا ولا زالت إلى النهاية مع ذلك، مضادة للثورة، هذا باستثناء الثورة الفرنسية فهى الوحيدة التى كان لها معنى أوروبى ودولى قبل الثورة الروسية التى اندلعت عام ١٩١٧، ولم يكن معروفا قبل هذه الثورة الروسية سوى الثورة الفرنسية رغم نشوب عديد من ثورات أخرى كانت أقل أهمية فى كل البلاد الأوروبية التى لم تعرف الهدوء، ومن بينها ما سبقت الإشارة إليه من انتفاضات الفلاحين بين القرن الرابع عشر والقرن السابع عشر وواضح أن أغلبها لا يصدق عليها لفظ ثورة بل كان أقرب إلى الحركات التحررية الوطنية كثورة المقاطعات السويسرية وانتصارها الحاسم عام ١٦٤٨، وثورة المستعمرات الإنجليزية فى أميركا فيما بين ١٧٧٤ و ١٧٨٢ وأمريكا الأسبانية بين ١٨١٠ و ١٨٢٤ أو كذلك حركات الانفصال العديدة سواء كانت بالاتفاق الودى أو بشكل خشن فظ فى البلاد الاسكندنافية: السويد والنرويج والدانيمرك وكلها حركات أقرب إلى ردود الفعل ضد الدولة الحديثة، وأكثر من ذلك ضد «الأجنبى» الداخلى بهدف تحقيق نوع من الإصلاح الذاتى وكانت الثورات الجديدة بهذه التسمية قبل عام ١٧٨٩ هما الثورتان الإنجليزيتان الأولى: الدموية العنيفة، والثانية. الهادئة عام ١٦٨٨ أما الثورة الفرنسية التى قوضت أركان أرسخ الدول الأوروبية نظاما فكانت مختلفة آثارها حين امتدت على مسرح الأحداث فى أوروبا من عام ١٧٨٩ - ١٨١٥ رمزا قادرا فى كل جيل على استعادة شبابه والتغذى بمشاعر جديدة مازالت منذ ذاك تتأكد كل يوم وقد ذكر أحد المؤرخين الفرنسيين حين زار روسيا أنه وجد زملاءه الروس ينسبون إلى الثورة الفرنسية فضائل ثورتهم كما روى هذا المؤرخ نفسه فى البرازيل أنه أثناء محاضرة له فى كلية ساوياولو عام ١٩٣٥ عن الثورة الروسية ونزعاتها الإنسانية فوجئ

بدھشة الطلبة من حديثة الذى رأوا فيه نوعا من انتهاك المحرمات وصاح أحدهم لتكن رؤيتك لهذه الثورة الروسية كما تراها أما نحن فنحن فى انتظار مثل الثورة الفرنسية ثورة عام ١٧٨٩ وهكذا عاشت الثورة الفرنسية فى نفوس الناس أجمعين حتى اليوم ولا زالت فى فرنسا مفاهيم الثورة الفرنسية تسيطر سيطرة كاملة على الفكر النقابى والثورى بل على الفكر السياسى، ولقد نشبت فى الواقع ثورتان أو ثلاث أو أربع ثورات فرنسية أخرى؛ ولكن الثورة الفرنسية الأصلية كانت أشبه باستهbab ذى الأدوار المتتالية إذ تجلت فى بداياتها كانطلاقة تحررية ذات اتجاه معتدل مع بعض المشاهد الدرامية كالاستيلاء على مبنى الباستيل وماساد الجو من خوف أكبر كما أن من مراحلها الأربع المتتالية تمرد الأشراف (طبقة النبلاء) عام ١٧٨٨ ثم تمردا بورجوازيا (طبقة القانونيين التى سميت بتجمع الولايات العام ثم ثورة مدن حضرية ثم ثورة الفلاحين وكانت الثورتان الأخيرتان حاسمتين

وأعقبتهما ثورة عديفة عشية إعلان الحرب فى ٢٠ أبريل ١٧٩٢ ضد النمسا وكانت حرب عام ١٧٩٢ هى التى أدت إلى تحول الثورة الفرنسية كما ذكر القونس أولارد ثم احتلال الأراضى المنخفضة (أى هولندا) بعد مدينة جيماب^(١) ومن ثم لم يعد ممكنا تجنب النزاع، ولنعترف بأن الثورة وهى تؤسس فرنسا دولة من الدول الحديثة قد كشفت النقاب عن قوتها وهيات الانفجار وانقضت هذه المرحلة بعنفها داخليا وخارجيا إثر سقوط روبسبير ٢٧ - ٢٨ يوليو ١٧٩٤ وكانت الثورة الثالثة إذا ما أطلقنا عليها ثورة كذلك (من ٢٨ يوليو ١٧٩٤ وحتى ٩ - ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ تشبه أحداث الشهور الأخيرة من أجل اتفاقيات المشاركة، وعلى مدى حكومة الإدارة وشملت الثورة الرابعة زمن القنديلة بأسره وعهد الإمبراطورية وفترة المائة يوم (١٧٩٩ - ١٨١٥) ومن المؤكد أن نابليون استمر فى توطيد أركان الثورة والسيطرة على مجريات أمورها بالإضافة إلى التقلبات الدرامية التى واكبت مصيره وهشاشة نظام حكم غير شرعى، وكان لزاما عليه أن يصحح أوضاعه وأكسبها الشرعية مهما يكلفه الأمر ومهما كانت العقبات والمصاعب، ثم كان بعد معركة أسترليتز أن دخل الإمبراطور فرانسوا الثانى مع تصفيق أنصاره مدينة

(١) جيماب: مدينة فى هولندا انتصر فيها القائد الفرنسى ديمييه على الهولنديين عام ١٧٩٢ .

فبينما عائدا إليها حيث قابل السفير الفرنسي وقال له في وقاحة: سيدى... هل تعتقد أن رئيسك كان يستطيع العودة إلى باريس كعودتى هذه... بعد أن هزمت فى معركة كئلك التى فقدتها الآن؟ وكان مغزى هذه الوقاحة ومعناه نفسه حين صاح فرنسى من أنصار الملكية وسحروهم انتصار نابليون .. بالسوء الحظ إنه ليس واحدا من البوريون^(١)، كان مقدرا للثورة الفرنسية فى مستهل أيامها أن تكون استبدادية ذات اتجاه عقلانى مستنير وكان خلال هذا التاريخ الحافل الصاخب أن اتسمت فى مجملها بنوع من الشذوذ... وتحول غير متوقع فقد كان ممكنا فى ربيع عام ١٧٩٢ ثورة هادئة ناجحة على النمط الإنجليزى فى الاعتدال الذى راود كثيرا من العقول الفرنسية المستنيرة من أمثال فونتيكيو. إذ كتب عام ١٧٢١ فى مؤلفه رسائل فارسية يقول يجب ألا تلمس القوانين السائدة إلا بيد ترتعش أوروبو (جان جاك روسو) الذى كان يعتقد أن شعبا قديما كالشعب الفرنسى لا يستطيع البقاء بهزات وصدمات ثورية فحين ينكسر «حديدها» (يقصد سيوفها تسقط متناثرة وتندثر بلا رجعة) وتتوافق بدايات الثورة مع هذه الروح إصلاحات أكثر منها ثورات وكان ممكنا أن يتولى شلونها ملك حازم يقود مسيرتها، ولكن فضائح كل من ميرابو وبار^(٢) ناقيها^(٣) لم تكن كافية لإقناع لويس السادس عشر بالتخلى عن امتيازاته التى كانت تغمره وجعلته أسيرها فى بلاط ذاته أو التنازل عن بعضها... وعلى العموم فهذه قضية أخرى... قديمة لافائدة ترجى من إعادة فتحها.

ولم تكن المرة الأولى التى أهملت فيها الحلول ذات المعانى والأهداف الطيبة إذ عطلت نداءات المصلحين المستنيرين فى فرنسا وضرب بها عرض الحائط منذ بداية حكم لويس السادس عشر حتى إبعاد ترجو عام ١٧٧٦ وكان المصير نفسه قدر كل برامج الإصلاح التى أرسى قواعدها فى أوروبا أنصارها المؤمنون «بالاستبدادية المستنيرة» بل أولئك الذين كانوا يعتقدون أن حسبك كسب ود الملك أو الأمير وبذلك يصحح كل شئ، ولكن ملوك وأمراء عصور الاستنارة إنما كانوا يفضلون أنصاف الحلول وأنصاف الإجراءات حتى قلص فريدريك الثانى

(١) أسرة البوريون التى حكمت فرنسا من القرن العاشر حتى القرن الثانى عشر.

(٢) ميرابو ماركيز فرنسى من خطباء الثورة الفرنسية.

(٣) بارثاف مياسى فرنسى قطعت رأسه أثناء فترة الإرهاب.

امتيازات النبلاء إذ نفذ ذلك بنوع من «الاعتدال» بحيث صارت الدولة البروسية عام ١٧٨٧ عند وفاته مسرحا لإرهاصات واسعة للإقطاعيين والنبلاء، ترى هل كان في مقدور لويس السادس عشر أن يفعل مالم يستطيع فريدريك الثانى أن يفعله؟ وهل توقع أحد منه ذلك؟ لقد لجأ حين أوشك زمام الأمور أن يفلت إلى المساعدة الأجنبية فأثار بفعلته هذه القوى المضادة الثورية واختلفت ردود الأفعال الأوروبية وسرعان ما طفقت الثورة حين فوجئت بردود الأفعال الخارجية تتخبط فى مسارها الخاطئ الذى لم تكن خططت له ولاكان محركوها قد استهدفوه.. وقد اعترفوا بذلك كما قال كارنو: إن قوة الأحداث تقودنا أحيانا إلى نتائج لم تكن أبدا قد فكرنا فيها وكان هذا الطريق المفاجئ مسلكا قاسيا أليما بالنسبة إلى الثورة والآخرين فما تماسكت الثورة إلا شهورا فقط حتى سقط وبسبب حيث فتح باب «ردود الفعل» وباب الأمل فى عودة الحياة ومباهاجها... وصارت باريس أكثر بهجة بل وقعت تغيرات كثيرة بعد نهاية روبسبير^(١) ولكن هل كان ميشيليه على حق فيما ذكر من الثورة الفرنسية انتهت عام ١٨٥٣؟ لم يكن ذلك صحيحا قطعا فقد عادت فرنسا إلى الثورة العاقلة ولم يقطع أحد فى الخارج بانتهاء الثورة فقد كتب السفير الروسى فى انجلترا رسالة باللغة الفرنسية إلى حكومته ١٧٩٧ يقول: إن ما كان محتمل الوقوع قد وقع بالفعل فى باريس حيث قام النظام الثلاثى التريمقيرا من ثلاثة وزراء فقط، فعمدت تلك الحكومة الدكتاتورية إلى اعتقال اثنين من المديرين (الحكام) و٦٤ من أعضاء مجلسيها دون أى شكل من أشكال المحاكمات وسوف ينفون إلى جزيرة مدغشقر، وهاهى ذى الحرية الفرنسية الجميلة وهاهو ذا الدستور الجميل الذى يتحدثون عنه!!.. إننى أفضل أن أعيش فى المغرب لا فى هذا البلد الذى يتشدقون فيه بالمساواة وبالحرية.. فإذا ماتساءلنا: لم هذه الشراسة الفظة؟ فذلك لأنهم فى الخارج لا يتحدثون ساخرين منهكمين عن «الحرية الفرنسية الجميلة» وها هو نابليون وباسم الثورة الفرنسية ينتقل من غزوة إلى أخرى موطدا دعائم القوانين والعادات وذلك على الرغم مما تنطوى عليه القلوب من حقد وكره يثيرهما المحتل.. أى محتل وطفق هيجل وجوته (فيلسوفان

(١) روبسبير من خطباء الثورة الفرنسية ولعب أدوارا كثيرة وعدم شنقا هو وأخوه

ألمانيان) يؤيدان نابليون فى مواجهة قارة أوروبا الرجعية والمتأخرة جدا على صعيد التطور السياسى والاجتماعى السائد وقتئذ فى فرنسا وكانوا يتمثلونها كروح الدنيا تركب حصانا وذلك فى كلمات الفيلسوف هيجل، وظلت الهواجس تنتاب البلاد الأوروبية خوفا من غزوة نابليونية عاجلة وهكذا عاشت ردود أفعال الثورة الفرنسية فى عقول أوروبا بين معجب بها أو لاعن لها وامتدت آثارها عبر دول الغرب ونقاسمتها قلوب سكان أوروبا ووجهت مشاعرهم ثم بدت أخيرا الثورة بألوانها العنيفة وقديسيها وشهادتها وآمالها الناجحة أحيانا والخائبة أخرى وإن أمكن دائما استعادتها، وهكذا بدت الثورة الفرنسية فى مستهل القرن التاسع عشر .. مثل الإنجيل.

رسالة الثورة الفرنسية

بعد عام ١٨١٥ ران الصمت على الثورة الفرنسية ومع ذلك فقد ظلت قابعة فى القلوب والضمائر بما حققته من منجزات وحركة للإصلاح لم ترجع عن الامتيازات الاجتماعية الملقاة (حقوق الإقطاع على وجه الخصوص) كما لم ترد الثروات الوطنية إلى أصحابها القدامى وظلت المكتسبات الثورية تحت حمايتها كحقوق الفرد التى منحت للمواطن بموجب إعلان عام ١٨١٤ وعندما بدا فى الأفق أن حكومة شارل العاشر قد تتقبل رد فعل جديد هاجت الجماهير على الفور واهتزت الملكية وبدأت لهجة الثورة (مبادئها) تعود إلى الظهور من جديد وبدأت تلوح فى الأفق كلمات جان جاك روسو: إنكم صائرون إلى الهلاك إن نسيتم أن الثمار ملك للجميع أما الأرض فلا أحد يملكها وربما يفسر ذلك لنا كيف استطاعت الثورة حتى أيامنا هذه أن تتكلم باللغة التى تريدها كل أجيال هذه الرموز بعد الانحسار الظاهر للإمبراطورية الثانية عام ١٨٧٥، ركائز مبادئ الجمهورية الثالثة . وتستمر الحركة الاشتراكية إحدى دعائم الثورة فى مسيرتها . وأما ماثير ذكريات الحركة الإنسانية الثورية فهو أساسا مشروعية العنف فى خدمة الحق .. العنف سواء كان الثورى هو الفاعل أو كان الضحية ذلك أن الهبوط إلى الشارع إنما يعنى أنك تسقط فيه بعد أن تصبح صيحتك الأخيرة محتجا أو معترضا قبل السقوط ولكنها شجاعة العنف .. شجاعة الموت أو شجاعة تسديد الضربة حيث

لا يمكن تقبلها إلا إذا كانت هي الطريقة الوحيدة لإخضاع القدر وجعله أكثر إنسانية، وأكثر أخوية، وباختصار رفاق الثورة إنما تتدفق من رهان مماثل وعبئها إزاء التاريخ هو النظر إلى الخلف... في محاولة للرجوع إلى الخلف.. ولذا فلا سبيل إلى العودة إلى الماضى بغير صعوبة ونخلى عقبات كثيرة لتحقيق فوز يدوم لحظة، أما على المدى الطويل فلا سبيل لأى فعل أن يكون ذا وزن فى مسار التاريخ ويدوم إلا إذا اتخذ هذا الفعل مسار التاريخ... وإلا إذا استطاع أن يضيف سرعته إلى سرعته الخاصة بدلا من محاولة وقفة أو تعويقه بلا جدوى، وربما جاز لنا أن ندهش من أن ٨٩ (عام الثورة) استخدم كمشعل أثار حركات الكتل الجماهيرية الضخمة التى ثارت بين العمال حتى القرن العشرين أولا لأن ثورة عام ١٧٨٩ فى أهدافها الأولى وفى نتائجها ظلت واحدة فى الثورات الحصيصة الرزينة مع سيرتها الأسطورية المليئة بالمعجزات وأنصاف الآلهة والعمالقة والجبابرة، وقد خفف من أضواء هذه الثورة وغشاها رشد التاريخ الموضوعى المحايد على خلاف مؤرخى اليسار الذين يرون تركيز حماسهم الثورى على شهادة الوثائق فانقذوا الثورة، ومن ثم كثيرا من قديسيها ومع ذلك ظلت رسالة الثورة الفرنسية تتألق بكل النقاء والوضوح- وقد أعادت هذه المراجعة وأعادت النظر فى الأمور والأحداث: الاعتبار والأهلية للفترة «الحمراء» لعصر «الرعب»^(١) وأبرزت معنى الآلام التى تحملها الشعب فى تلك الأيام.. الآلام التى كابدها تماما كتلك التى كبدها الآخرين وحكم بها عليهم وحاول تسويقها بحسن نيته «للتخفيف من آثارها المأساوية... ومنذ ذلك التاريخ ظهر ماسمى بعهد النزاهة وبرز جراثوس بابوف (من الأبطال) الذين جاءوا متأخرين قبل كارنو «منظم الانتصار، أودانتون ووصلتنا لغتهم ومنطقهم... لغة قوية ذلك لأنها كانت لغة «التوقعات، منها كان منح كل مواطن حق الإدلاء بصوته وفصل الكنيسة عن الدولة ومرسوم فاننوز الذى كان يتوقع نوعا معينا من إعادة توزيع الأراضى والثروات... أى أن كل هذه الانتصارات التى لم تدم طويلا وحققتها الثورة الفرنسية وتذكر لها للأسف بعد زمن

(١) فترة الرعب هى فترة من فترات الثورة الفرنسية اتسمت بالدموية من صدور قانون الاشتباه فى ١٧٩٣/٩/٥ وسقوط روبسبير فى ١٧٩٤/٧/٢٧ وفيها أنشئت محاكم الثورة التى حكمت على مايقرب من ٤٠٠ شخص بالإعدام.

الترميدور^(١) كلها إنجازات بلا أدنى شك فقد ينقضى زمن طويل حتى نرتد إلينا وتوائب نحونا وتصبح بعضا من تراثنا وميراثنا.

وبفضلها على أى حال تعيش اليوم بيننا تلك الاتجاهات الإنسانية الثورية التى برزت منذ عام الثورة عام ١٧٨٩. أما التردد والحيرة وما تمثله من تحفظات فى اشتراكية الأمس الأوروبية خصوصا فى مواجهة الشيوعية (التي خلقت مثالية أخرى ومشكلا آخر من أنماط الثورات) كالاعتراضات التى أثارها جواريز مثلا ضد الأفكار الماركسية عام ١٩٠٥ بعد عقد الاتفاق مع جول جيسد منشئ الوحدة الاشتراكية برعاية المانيستو الشيوعى.. وكلها علامات تشير إلى أيديولوجية يسارية تغذيها كذلك الذكريات والألفاظ وقد رفضت أن تماثل ثورتها ثورة ماركس وثورة انروس السوفييت فيما بعد، وتتساءل: ألم يشرح جواريز فى كتابه «التاريخ الاشتراكى لثورة الفرنسية، إلى أنها سوف تكون فى الوقت نفسه مادية مع كارل ماركس وصوفية زاهرة مع ميشيليه؟ أى أمينة مخلصه تجاه الزهد الثورى كما قال ميشيليه؛ أى تجاه الميراث الحى الذى تركته الثورة الفرنسية، وهاهى الحضارة الغربية فيما بعد داخل فرنسا وخارجها تتفاسم - متأخرا وبصورة ناقصة مثالية - ثورة ١٧٨٩ وتخفف كذلك من حملها.

(١) لشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية الفرنسية

التفكير العلمى

قبل القرن ١٩

تسيير انبثاق الفكر العلمى فى أوربا فى القرن الثامن عشر قضية العلم الحديث فقد سبقه مايمكن أن نطلق عليه مرحلة العلم المبكر تماما كما نطلق اسم الصناعة المبكرة التى سبقت عصر انبثاق مرحلة التصنيع، ولسنا نحاول هنا تحديد الزمن الذى سبق وفصل بين الاثنين، وليست القضية التى تطرح نفسها هى كيف بل لماذا هذا الاتجاه العلمى فى حضارة الغرب؟ ولأخذ بقول جوزيف نيد يلهام العالم الكيمىائى المتخصص فى حضارة الصين: لم تنشئ أوروبا أى نوع من العلم بل خلقت علما دوليا وخلقته لها وحدها أو تكاد، فإن كان الأمر كذلك فلم لم تبدأ مرحلة انبثاق العلوم فى إطار الحضارة المبكرة كالصين أو الإسلام، على سبيل المثال هناك مراحل متتالية للنمو العلمى ولنفترض نقطة البدء، لم يعرف العلم الغربى منذ القرن الثالث عشر حتى يومنا هذا سوى ثلاثة تفسيرات عامة. أى ثلاثة نظم هى مرحلة أرسطو وآرائه وتفسيراته العلمية النظرية التى سادت الغرب مع بداية القرن الثالث عشر وفيما كان يمثل تراثا قديما جدا ثم عصر أ أفكار ديكارت ونيوتن التى نهض عليها العلم الكلاسيكى الذى يعد البناء الأصلى للغرب هذا إذا نحينا الأفكار التى توصل إليها أرشميدس وأخيرا ظهور نظرية النسبية لإينشتاين عام ١٩٠٥ بما فتحت من أبواب العلوم العصرية الحديثه . وكل هذه الأفكار هى

التي سادت مسيرة التطورات العلمية. وهي حقاً لا تمثل هذه المسيرة كلها إذا تخطلتها مشاكل وقضايا معقدة إذ لم تكن أحياناً تسير الأحداث ولا الواقع فكانت من ثم تتطور إلى ما انتهت إليه كتاريخ عام للعلوم..كانت لحظات حاسمة.

وكان مذهب أرسطو وآراؤه ميراثاً قديماً جداً يمثل المرحلة الأرسطية (القرن الرابع قبل الميلاد) حيث وصلت رسالته الأساسية إلى الغرب عن طريق الترجمات المتأخرة من طليطلة (أسبانيا) وعن تفسيرات الفيلسوف العربي أفيروس ابن رشد لآراء أرسطو ومذهبه ففي فرنسا عام ١٢١٥ قامت ثورة علمية حقيقية قلبت مناهج التعليم رأساً على عقب كما تدرس أساساً اللغة اللاتينية وآدابها وشعراؤها خاصة، واستبدلت بالمنطق الصوري ولجت الفلسفة كل شيء وألغت كل شيء، تضاعفت ترجمات أرسطو التي أثارت كثيراً من النقد، ثم بدأ صراع فكري بين «القدامى» والمحدثين. وفي بعض أبيات من الشعر نظمها أحد شعراء هذا الزمان حوالي عام ١٢٥٠ يقول الفيلسوف للشاعر: لقد كرست نفسى للمعرفة (أولعلم) على حين تفضل أنت الأشياء الصببانية والنثر والإيقاع وبحور الشعر فبماذا تفيدنا كلها، قد تعرف قواعد اللغة ولكنك تجهل العلوم والمنطق.. لم إذن تنتفخ أوداجك ولست إلا أحد الجهلاء، وقد نمت مناهج ونظم الدنيا بفضل نظريات أرسطو وسادت كل ربوع أوروبا حتى القرن السابع عشر بل والقرن الثامن عشر ذلك أنها لم تستسلم فور هجوم كوبرنيك وكبلر وجاليليه. ومن المتفق عليه أن فيزياء أرسطو زالت آثارها ولم تعد سوى إحدى النظريات العالية رغم أنها لم تكن فيزياء رياضية، كذلك نجد أن أرسطو نادى بأولوية بديهية هي وجود وحدة كونية أو كوزموس، ولكن هل اتجه آينشتاين اتجاهها مغايراً إذ سأله بول فاليري ولكن قل لى ماذا يثبت لى أن هناك «وحدة» فى الطبيعة فيرد عليه أنها عقيدة إيمانية ويستطرد فاليري فيما بعد فيقول: لا أعتقد أن الله يلعب النرد مع الكون، هذه الوحدة الكونية التي توصل إليها أرسطو هي أشبه بنظام ما، فكل «جسد» له موقعه الطبيعي وعليه أن يتبقى فيه فى راحة سرمدية وهذه هي الراحة الدنيوية بين الكون وأفلاكه المتتالية على حين تهز الكون سلسلة من التحركات: حركات طبيعية (كالجسم يسقط على الأرض) فالجسم خفيف الوزن كشعلة اللهب أو

الدخان الذى يصعد إلى السماء، وهو ما يشبه حركة النجوم والكواكب الدائرية أو الأفلاك السماوية فى حركاتها العنيفة غير العادية ماعدا استثناءً واحداً هو الجسم المنطلق كالفذيفة المنطلقة فى حركة غير طبيعية وليست على اتصال بمحرك أى أنها ليست مدفوعة، ولا مقطورة وستنتقل هذه الفذيفة وسط الهواء الذى تخترقه.. هذه هى نقطة الضعف التى ظلت محل هجوم، انصب هذا الهجوم كله حتماً على القضية التى طامأ أثيرت وتوالت توابعها عن تسارع سقوط الأجسام أو جمودها وناقشها فى القرن الرابع عشر من الإسمائيين (١) كثيرون مثل: أوكام وباريدان والعبقريّة الرياضية أوريزم الذى يعترف بقانون الجاذبية ونسبية وتناسبية السرعة لولا أن أفكاره لم تجد آذاناً صاغية، وكانت معارك رائعة تخللتها أبحاث عديدة أدت إلى إنزال أفكار أرسطر عن عرشها تمهيداً لبزوغ علم الطبيعة والعلوم الكلاسيكية، وتبوّأت نظريات نيوتن مكانها ولاشك أن هذه القفزة إلى الأمام كانت ثمار أفكار نادرة تناثرت بعضها مع بعض هنا وهناك، إذ كان العلم قد أصبح دولياً يتخطى الحدود السياسية أو اللغات وامتلات سماوات الغرب بالعلوم، ولاشك كان مبعث التقدم فى المجالات العلمية، كذلك التقدم الاقتصادى الذى نشأ فى القرن السادس عشر فضلاً عن انتشار الفكر اليونانى بفضل الطباعة التى عرفت فأمكن من ثم التعرف على نظريات أرشميدس متأخراً خلال أواخر القرن السادس عشر فساعدت كثيراً فى ظهور حساب التفاضل، غير أن التقدم فى مجال الرياضيات كان بطيئاً كما يوردها أحد مؤرخى العلوم إذا يقول سار التقدم على فترات، فترات انتقالية: علوم الهندسة التحليلية بفضل فرمات حول عام ١٦٢٩، ١٦٣٠ / ١٦٦٥ ونظريات ديكارت (١٩٢٧) وعلم التحليل التوافقى عام ١٦٥٤ وديناميكية جاليلية (علم القوى) ١٥٩١ - ١٦١٢ ولم تكن علوم الرياضيات وحدها التى شغلت العلماء فقد وقع الأمر نفسه لعلوم الفلك كنظريات بطليموس فى مركزية الأرض التى كشفت أن الأرض مركز الكون ثم الانتصار البطيء لكوبرنيكوس ١٤٧٣ - ١٥٤٣ وكيبلر ١٥٧١ - ١٦٣٠) وكان ماتحقّق أكبر من حدث علمى ارساء قواعد نظام عالمى جديد ونقصدبه العلم التجريدى على أساس من نظريات ديكارت

(١) مذهب الإسمائيين أو مذهب المفاهيم المجردة أو الكليات التى ليس لها وجود حقيقى وإنما مجرد أسماء.

الهندسية وأكثر منها نظريات نيوتن القائمة على أن الأجسام تتجاذب بسبب مباشر طبقا لكتلتها ومداها.. وقد واجه هذا العالم المبتكر هو الآخر صعوبات حيث عبر كل الثورات العلمية التي وقعت في القرن التاسع عشر حتى ظهرت نظرية النسبية التي اكتشفها آينشتاين وكانت كشفا رائعا للكون.

كل هذا الكون في ثوبه الهندسى الدقيق لا يعود إلى رأى من تحدثنا عنهم من العلماء وحده وإنما تقتضى الأمانه أن ننوه بمكانة رينيه ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠ التي يستحقها بينهم، ولنفتح له قوسين ونقول إن الرجل كان يتحلى بالتواضع والرصانة والحساسية فقد عاش من عام ١٦٢٨ باستثناء رحلات في هولندا بعيدا عن فرنسا ومات في استوكهولم وكان ضيقاً على ملكة السويد كريستينجن وفي أمستردام حيث أقام طويلاً وهو مجهول من الجماهير، صنف مؤلفاته القيمة انكسار الضوء التيازيك والشهب والظواهر الجوية ثم مؤلف علم الهندسة وكلها نظريات تتحدى كل ماخرج به المنافسون والخصوم وبهذه المؤلفات وضعنا ديكارت أمام أول نقد منهجى حديث عصرى فى العلوم والمعرفة وضد كل الأخطاء والخدع التي ارتدت أثواب العلوم بغير حق وتخلص ديكارت بصعوبة عن النظريات الرياضية اليونانية كما تخطى آراء أسلافه من أمثال فيث دكافالبيرى أحرز تقدما فى نظرية المعادلات وكان علينا بعد ذلك انتظار جالوا (عالم رياضيات فرنسى وضع أسسا وقواعد فى علوم الجبر) وإذا كانت نظريات ديكارت فى الحساب لا تتحدى مدارك طالب الرياضيات حاليا فى مستهل حياته العلمية فإن ذلك لا يمنع من أن نذكر مدى أهمية القفزة التي حققها ديكارت إلى جانب نظرية الجذور وتوابعها من جذر حقيقى أى إيجابى وجذر سالب وجذر تخيلى (وهى) وغيرها، ولقد أقامت آراؤه أمام تحركات القرن السادس عشر وإنجازاته عن الفيزياء النووية، وأمام كل هؤلاء العقلانيين الذين ظهروا فى عصر النهضة ممن لم يروا فى الطبيعة إلا أنها أشبه بصندوق المعجزات أو تحديات أوهام. ثم تحل أعوام ١٧٨٠ - ١٨٢٠ لتضع أمامنا عقبة تتمثل فى ضرورة تخطى عتبة الباب الذى يؤدى بنا إلى العلوم العصرية الحقيقية. فآلف جاستون باشتيلاء، كتابا قيمة فى تكوين الفكر العلمى عام ١٩٣٥. وفيها أعطى للقرن السابع عشر حقه فى تمهيد

الطريق نحو العلم العصري الحديث وكانت نوعا من التحليل النفسى للفكر العلمى فى قرن التنوير ولكنه لم يتناول الجانب الآخر عن الأخطاء والانحرافات والحقائق التى واكبت الفكر العلمى فى مسيرته، ولعل التجزئة فى العلوم تمثل أضخم عقبة فى القرن الثامن عشر.. تقسيم الأفكار العلمية، قطاعات بعضها عن بعض (مستقلة إحداها عن الأخرى) وهى اجتهادات علمية فى تقدم ملحوظ كالرياضيات والكيمياء والديناميكية الحرارية (وهو نوع من علم الفيزياء يتناول العلاقة بين الحرارة والطاقة الميكانيكية) والجيولوجيا والاقتصاد.. ولكن هل كان ذلك كله يعد علما..؟ وكذلك مجالات الطب والعلوم البيولوجية.. وكلها علوم تفتقد الرابط الذى يربط بينها، وقد بدأت هذه الصعوبات والعقبات تصحح نفسها ببطء فلم يحدث فى فرنسا اكتشاف «الأرض الجديدة» إلا بين عام ١٨٢٠، ١٨٢٦ سنوات إنشاء أكاديمية العلوم أكبر تجمع علمى يضم كل العلماء أمثال أمبير ولاپلاس، ولوجندر، وبيوت، وبوانسوت، وكوشى (لويس دى بروجلى) وكان ذلك لصالح كل أوروبا ولكن يبقى أن نشرح أسباب تخطى عقبة الباب هذه السابق الإشارة إليها.. فنقول: إن الانطلاقة الاقتصادية المسبوقة فى القرن الثامن عشر أثارت الدنيا كلها، وأصبحت أوروبا هى القلب الحاسم وبدأت الحياة المادية والفنية تتضاعف طلباتها وضغوطها ويحى الرد بأن العنصر الحاسم هو «المحرك» كنوعية ذاتية غربية - التصنيع وتلك الميزتان اللتان تزاملتا معا، فقد امتلكت الصين ولعلها سبقت الغرب بكثير.. علما.. أو مشروع علم متقدم راقٍ ولكنها فى سبيل عبور عتبة الباب هذه لم تعرف هذه القفزة الاقتصادية التى أثارت أوروبا ومكنتها من عبور العتبة وتخطيها وبدأت المدن التجارية تظهر فى العصور الوسطى وخاصة منذ القرن الخامس عشر عملت كل القوى الأوروبية سواء المادية أو الروحية كلها لميلاد هذه الحقبة الجديدة ثمرة حضارة فى زحمتها ومسئوليتها التامة.

الفصل الثالث

تصنيع أوروبا

تصنيع أوروبا

من أكثر مهام أوروبا وواجباتها تحقيق ثورة صناعية وهي الثورة الصناعية التي انتشرت وتنتشر عبر كل بلاد الدنيا اليوم، وهذه الثورة الصناعية بحق نتاج جهود قارة أوروبا على مستوى حضارتها حيث بزغت منذ قرنين من الزمان تقريباً، ولم تكن قارة أوروبا حتى وقت زمني قصير وعلى الصعيد المادي إلا واحدة من البلاد النامية تشرق طريقها لا بالنسبة إلى الدول المحيطة بها بل بالنسبة إلى ما سوف تكون عليه فيما بعد.. أوروبا إذن فكيف استطاعت أوروبا عبور عتبة باب التصنيع.. وكيف كان رد فعلها إزاء تقدم صناعي من إبداعها وخلقها؟ تلك هي الأسئلة المطروحة للدخول إلى لب موضوعنا تصنيع أوروبا.

١- من الضروري وصف حالة أوروبا قبل التصنيع حيث كانت تحاول تجاوز النظام السائد في مناطق كثيرة من العالم .

٢- إن الثورة الصناعية ظاهرة معقدة مركبة ولم تنم: في بقعة من الدنيا دفعة واحدة فقد ظلت قطاعات كثيرة تعوق مسيرتها كصناعة الصرف في يوركشاير أو صناعة الخردوات حول مدينة برمنجهام حتى منتصف القرن التاسع عشر.. تلك أمثلة من بلد كان في مقدمة الدول التي ظهرت فيها الثورة الصناعية. وهذا التناظر اليوم نراه في بلاد أمريكا الجنوبية على سبيل المثال، وهو على كل حال تنافى أو تناقض ما يظهر في سماء كل بلد في طريقه إلى التصنيع.

٣- ومثال أوروبا يثبت أن حركة التصنيع، ومنذ بواكير نجاحها تضع أمامنا مشاكل اجتماعية حادة فعلى البلاد التى تستهدف تصنيع نفسها أن تواجه فى الوقت نفسه ضرورة إعادة النظر فى كياناتها الاجتماعية، هذا إذا كانت تحرص على تفادى الانتفاضات الأيديولوجية الثورية كذلك التى سارت أوروبا خلال مسيرتها الصناعية وعانت منها كثيرا .

جذور أول ثورة صناعية

أربع ثورات صناعية كلاسيكية، ثورة البخار، وثورة الكهرباء، وثورة المحرك الانفجارى، وأخيرا الطاقة النووية، وقد توالى تباعاً واحدة تلو أخرى وعلينا أن نبحث كيف تمكنت قافلة هذه الاختراعات من التقدم فى مسيرتها وهو ما يستدعى أن نطرح للمناقشة حالة إنجلترا الخاصة بين أعوام ١٧٨٠ و ١٨٦٠ ولماذا كانت إنجلترا الأولى فى تصنيع نفسها وفى أية ظروف، وماذا كانت الحالة العامة فى أوروبا قبل عام ١٧٨٠ على الصعيد الصناعى ؟

كان لفظ صناعة قبل القرن الثامن عشر أو على أحسن وجه قبل القرن التاسع عشر يثير احتمال سوء التفسير ولذا فسوف نتكلم هنا عما قبل التصنيع .

وفى الواقع ومنذ القرن الثانى عشر الذى شهد أول ثورة صناعية ونقصد بها أول تجديد لإدارة الطواحين المائية والطواحين بالرياح ولم تظهر أية استحداثات رئيسية أخرى إذ كانت طواحين المياه تنصب عند جدران الماء (١) وتنصب طواحين الرياح حيث تكثر كما فى هولندا للرياح التى تتعدى قوتها أحيانا عشرة أحصنة فى الساعة (٢) وكان عملها منقطعاً بسبب افتقاد منابع طاقة كافية أو نصف حركية وحولها تنشأ حياة اقتصادية عادية أو متأخرة يظل الناس أسرى لها من حيث قلة ما تغله من زراعات، رهيدة ووسائل نقل بدائية مكلفة بالإضافة إلى عدم كفاية الأسواق كانت أجور الأيدي العاملة فى المقابل غزيرة وقد تفيض عن الحاجة، أما التصنيع كما هو فى مفهومنا اليوم فلم يكن متوفراً حيث كان التصنيع

(١)، (٢) قوة حصان ساعة.

أحيانا إنما يكفى احتياجات السكان الأساسية وربما تميزت فى قطاعات معينة غطت احتياجات أسواق تطالب بصناعات ممتازة للترف كما حدث فى فرنسا منذ بداية القرن السابع عشر من تصنيع أدوات وملكية كصناعة المنسوجات ومنها كما سوف نرى كانت انطلاقة الثورة الصناعية الإنجليزية، وقد لاقت - فى الواقع - صناعة النسيج رواجاً ملحوظاً منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر بل والقرن الثامن عشر كذلك فى مدن تخصصت فى المنسوجات فى إيطاليا ومناطق الفلاندرز ولمواجهة طلبات النجار نشأت الورش فى نطاق المدن ونشأت معها مكاتب الوكالات التجارية حيث تعقد الصفقات، وإذا ازدهار صناعة المنسوجات يودى إلى قيام حركة لتصنيعها فى المنازل إذ يتفق ثلاثة شركاء أو أربعة يعقدون الصفقات مع الفلاحين بل والفلاحات فإذا هم بدورهم يلجئون للتصنيع المنزلى بأنفسهم، ومن وثائق القرن السادس عشر التاريخية ما يدلنا على أن تجار مدينة سيجوفى كاستيلا فى أسبانيا قد أثروا من صناعة الأقمشة فقد حولوا منازلهم إلى ورش عمل كما ألحقوا خارج منازلهم عددا من العاملين قد يربو أحيانا على ألفين من رجال ونساء بأسرهم مقابل قرابة خمسمائة نساج وحائك ومن فوق هؤلاء يقوم على النقعة ثلاثون تاجرا كئيبا كانوا بمنزله المنظمين الرئيسيين لهذا النوع من الصناعة إذ يتولون تنظيف البياض للأقمشة الخامة (غير المجهزة) - وشحنها إلى - حيث يريدون وكانت فلة التجار هذه أقرب إذ يوفرون المواد الأولية ويسددون الأجور ويخزنون الإنتاج ويبيعونه، وقد يصدرونه أحيانا كثيرة إلى أقصى الأقطار ويشترى عادة - لقاءها - منتجات أخرى أكثر نفعا تحقق ربحا أكبر، ولما كانت رحلات السفر طويلة وبطيئة فقد لجأوا إلى تقسيم العمل فكان الصوف مثلا فى القرن الخامس عشر ينقل إلى مغاسل أسبانيا ومن ثم يشحن إلى فلورنسا لتصنيعه ثم يبعه بعد ذلك أقمشة جميلة فى مدينة الإسكندرية بمصر مقابل منتجات قادمة من الشرق يعاد بيعها فى فلورنسا أو غيرها فى أوروبا، وكانت هذه الدورة تشتت فى أزمانا قد تصل إلى ثلاثة أعوام أو أطول، وكانت عمليات ذات نفس طويل تحقق أرباحا تستدعى تجميد رؤوس أموال وتعرضها للمخاطر، وكان التاجر الوسيط أى

(١) فلاندرز مناطق فى فرنسا.

المقاول هو القادر على هذا النوع من التجارة بفضل رأس ماله حيث يشاركه عادة تجار آخرون لتقاسم المخاطر والاحتمالات والسيطرة على الموقف، وكثيرا ما كانوا يحتفظون بالمخاطر.. وبالأرباح. فقد ظل الإنتاج أو التصنيع لفظا طويلا يعنى مركز العمال فى مبنى واحد أوفى أماكن متقاربة تحت إشراف ورقابة من رؤساء، عمال وامتدت الحركة حتى القرن الثامن عشر وإذا بتقسيم العمل ينشأ فجأة داخل الورش وقد رأينا فى إحدى مقالات مجلة أنسا يكلوبيديا عام ١٧٦١ أنها تغزو تفوق الأقمشة الحريرية من صناعة مدينة ليون الفرنسية إلى استخدام المصانع عماله تقدر إجماليا بثلاثين ألفا من عمال الحرير فى المدينة بحيث يكرس كل عامل حياته لعمله المحدد، وقد تعرض هذا النظام على أى حال لبعثرة الصناع المهرة وكانت بمنزلة القاعدة السائدة فى المدينة وعلامة أولى تديئ بالثورة الصناعية. وقارة أوروبا قبل التصنيع لم يكن ينقصها الوسطاء التجار ولا رؤوس الأموال كما لم تكن تجهل احتياجات الأسواق والأسواق الدولية حيث تتوافر لديها عمالة نصف ماهرة على مرمى البصر من التجار الوسطاء. وكانت أوروبا تعاني كما تعاني اليوم كل البلاد النامية من الاقتصاد غير المفصل ولم يكن قطاع الزراعة بالذات يتيح تصاعدا اقتصاديا أو الوصول إلى اكتماله فالسوق غير كافية والتنافس شديد قاتل أحيانا، وتؤدى أقل أزمة إلى انهيار كل شىء حيث تحدث كثيرا حالات الإفلاس الصناعى والتجارى، وقد ذكر تاجر من منتصف القرن الثامن عشر: أنك تجد فى مقاطعاتنا آثارا وبقايا مصانع مدمرة تتساقط وتقام مكانها كل عام مصانع أخرى سوف تدمر بدورها بعد حين، وعموما لم تكن حركة ما قبل التصنيع لتبقى وتدوم بالأجور الزهيدة جدا للعماله، وكان السؤال: هل تحسنت ظروف العمالة فى بعض المناطق المزدهرة وارتفعت فيها نتبجة لذلك أجور العمالة؟ والرد لاسبب المناسبة الخارجية التى قصت عليها وكان ذلك حال مدينة فيليسيا فى القرن السابع عشر وهولندا فى القرن الثامن عشر.

وفى عام ١٧٧٧ يلاحظ معتمد بيكارديا أن اليد العاملة تحتاج يومئذ إلى مضاعفة أجرها لتوفر لنفسها أسباب الحياة، ومع ذلك فهى لا تكسب إلا ما يكاد يوازى ما كانت تحصل عليه منذ خمسين عاما حيث كانت المواد الغذائية أرخص

وليس لديهم اليوم سوى نصف الموارد التي يحتاجون إليها .. وعموما فكل شيء لا يتغير أو سوف يتغير بالاختراعات الفنية حيث يجب الاعتراف بالأسبيل أن تقرر كل ما هو مطلوب منها وسوف يثبت ذلك من حالة إنجلترا حيث نشطت الاختراعات الفنية في مجالين صناعيين رئيسيين: صناعات النسيج والمناجم ومناجم القصدير بمقاطعة كورنوال وبالذات التي استغلت من قبل منذ زمن بعيد ومع ذلك تعرضت لآفة تسرب المياه (الارتشاح) وهي آفة مستديمة ومشكلة قديمة تعرض لها جورج أمبريكولا في القرن السادس عشر إذ لم تتمكن العجلات الهيدروليكية الكبرى المستخدمة من تزويد المضخات التي لم تكن لترفع سوى عمود واحد من المياه يرتفع عشرة أمتار تقريبا، ولقد أدت هذه الحالة حتى استطاع جون وان عام ١٧١٢ - ١٧١٨ هو من علماء جامعة أدنبره إعداد آلة بخارية أكثر فعالية ولم ينتظر الدجارات إذ قد لحقت منذ بداية القرن الثامن عشر آلات كثيرة اختراعات الدجار فساعدت على تحقيق مما كان متوقعا تحقيقه بل وصلت إلى فرنسا حوالي عام ١٧٥٠ في مناجم الفحم وشيدت أول سفينة تسير بالبخار في مصانع بيجنودى جوفروى، وكان بناؤها عام ١٧٧٠ وتظل صناعة النسيج في منتصف القرن التاسع عشر وعصر السكك الحديدية صناعة التحريك فهي التي تثير وتدفع الصناعات الأخرى شأن الصناعات الضرورية والمنتجات الفاخرة وقد ظلت هذه الإيقاعات كما قال ماكس ويبر تسيطر على كل ماضى الغرب الذي عرف بعصر شارلمان متشحا بالنسيج أو عصر الصوف ثم عصر القطنيات ثم مرحلة جنون الأنسجة القطنية في القرن الثامن عشر، وكان القطن إذن هو الذى عاصر نمو المصانع بمعنى الكلمة بالاشتراك مع كل من الهند وأفريقيا وأمريكا، وذلك إثر جلب الرقيق من الشعوب السوداء حيث نجد أن القطن استقر في الموانئ الكبيرة أو حولها من ليفريول وجلاسجو مستفيدا من ازدهارها ومن رؤوس الأموال المجتمعة فيها وليس يدهش أن تكون صناعة نسيج الأقطان هي التي اجتذبت كل التحسينات في الآلات وتقنياتها فبدأت الآلات الحديثة تظهر كل منها باسمه كالمكوك الطائر لمخترعه جون كبرى عام ١٧٣٣ والمغازل التي اخترعها جيني هاردجريف وآلة الإطار المائي التي اخترعها هاركرانب عام

١٧٦٩ ثم آلة ميول من اختراع كامبتون ولئن كانت كلها تطورات فإن قمة الاختراعات كانت نسج أقمشة الجاكار ١٨٠١ ومخترعها جاكارد وكانت هذه القفريات والاختراعات كلها تجارب تنشأ عفوية أحيانا واستطاع القطاع الاقتصادى دفع القطاع الصناعى نحو التقدم وكان العلم وقد حقق تقدماً فعلياً فى القرن الثامن عشر وإن ظلت علوم عامة لا تخصص لها أشبه بالنظريات غير قابلة للتعاون مع الفنون الحرفية ثم تغيير كل شىء حوالى نهاية القرن الثامن عشر حيث اتجهت بعض المتطلبات الصناعية منذئذ اتجاهاً ذاتياً مثل جون (١٧٢٦- ١٨١٩) ولم يكن على سبيل المثال حرفياً ماهراً فحسب بل كان عصامياً علم نفسه بنفسه متحلياً بفكر علمى وأقرب إلى المهندس وعالم الكيمياء، وجون بلاك المولود فى بورديو عام ١٧٢٨ من أبوين أسكتلنديين وتوفى فى أدنبره عام ١٧٩٩ حيث كان أستاذاً فى جامعة أدنبره وعالماً فى الكيمياء وخرج بدراسات فذة فى النوشادر وأتاح لوات «مبدأ الحرارة الكامنة، وأعد على أساسها آلهة التجارية حيث لا تسترخى الحضارة إلا بفضل درج فى الأسطوانة حيث تعمل كما تتولى التبريد، ويفضل هذه الاختراعات العديدة تقدمت العلوم وامتدت آثار التقدم على التصنيع الوليد فكانت على سبيل المثال عملية تبييض الأقمشة، وكان من قبل ينشر القماش وفرده وبه بالمياه خاصة الأطراف ثم النقع فى محاليل ثم أحماض مخففة وكانت عملية طويلة تحتاج إلى مكان فسيح وتستغرق وقتاً طويلاً يصل أحياناً إلى ستة أشهر لنوع من الإنتاج سريع الانتشار ولقد توصلوا إلى استخدام حامض الكبريتيك المذاب واحتاجوا إلى كميات ضخمة منه حيث يتدخل العالم جون وايت الطبيب والطالب السابق بجامعة لن ثم كان عام ١٧٧٤ بفضل السويدى كارل شيل الذى استخدمه الفرنسى بيرتوليه لتبييض الأقمشة ثم تطورت هذه الطريقة فى إنجلترا إلى أخرى عملية ممتازة وهكذا تعاون العلم على الصعيد الدولى، ومن أمثلة هذه المشاركة فى مجال العلوم والنواحي الفنية شخصية مانىو بولتون (١٧٢٨ - ١٨٠٩) إذ أخذ من جذور متواضعة نظريات وات وطورها إذ كان بدوره من علماء الكيمياء والتف حوله بالطبع جون وات نفسه مع أحد علماء الرياضيات يدعى وليام سمول كان كذلك طبيباً يدعى وليام سمول وشاعر طبيب اسمه إيرازموس

داروين وهو جد العالم داروين الكبير ومعهم آخزون وتصبح إنجلترا فى التصنيع إنجلترا العلمية برؤوس أموالها، ولننكر مندها برمنجهام ومانشستر ولندن وتظل رأسمالية التجار آمادا بعيدة عن هذه الأجواء العلمية المستحدثة فلم تأخذ دورها فى المساهمة فيها إلا حول عام ١٨٢٠ والواقع فى ذاته إحدى الدلالات.. إنه تلك الانطلاقة التصنيعية التى حركت العلوم ولكن هذا التفسير لا يفى وحده، إذ نجد فى فرنسا حيث العلم التطبيقي (نذكر هنا علماء الكيمياء من أمثال بماكيه (١٧١٨ - ١٧٨٤) أولويس بيرثوليه (١٧٤٨-١٨٢٢) وقد أحرزا تقدما فاق ماكان فى إنجلترا، ثم إن التقدم الصناعى كان أقل سرعة، فقد كان للثورة الصناعية يقينا مسار واجهت خلاله أسبابا ودوافع أخرى بعضها اقتصادى هو الأضخم وبعضها الآخر اجتماعى.

وكانت إنجلترا قبل انطلاقتها بثورتها البورجوازية عام ١٦٨٨ قد توصلت إلى نوع من التوازن السياسى، حيث كان فيها مجتمع منفتح على الرأسمالية بما كان مثلا عن إنشاء بنك إنجلترا عام ١٦٩٤، وكان اقتصادها قد استفاد من الاستثمارات العديدة فى بناء الطرق وشق القنوات حيث سادها فى القرن الثامن عشر نوع من جنون شق القنوات، وكان انطلاق الثورة الإنجليزية فى إطار انطلاق اقتصادى عام ساد القرن الثامن عشر وساد الدنيا كلها كما ساد الصين وبلاد القارة الأوروبية وكانت نسبة ارتفاع المواليد فى إنجلترا قد زادت فى القرن الثامن عشر مما أتاح لها أيدى عاملة وفيرة بأجور رخيصة وأخيرا جاء دور التحولات الضخمة فى الأساليب الزراعية الإنجليزية فعالجت مشكلة نقص المواد الغذائية وسارت الثورة الإنجليزية فى مسارين: الأول مسار القطن بين أعوام ١٧٨٠ و ١٨٢٠ ثم مسار استخراج المعادن وتنقيتها ثم تجى المرحلة الثانية وبدء عصر الصناعات الثقيلة فكان على أثرها إنشاء السكك الحديدية بفضل ماتوفر من أموال أول ثورة قطنية والقطن هو الذى نلجأ إليه إذا أردنا الحكم على هذه الانطلاقة الأولى. وراجت شهرة القطن كل أنحاء أوروبا بما فيها إنجلترا التى ظلت زمنا طويلا تستورد لحسابها ولحساب الأسواق الأوروبية وغيرها من الأسواق كل الأقمشة القطنية وكانت وكالاتها التجارية فى الهند تقوم أساسا لهذا الغرض، ولعبت التحسينات

الفنية دورها فى صناعة القطنيات وخاصة لرواجه على السواحل الإفريقية طلبا للقطن شأن الأسواق البرازيلية وتلا ذلك نجاح الإنجليز فى احتكار كل بلاد أمريكا التى استعمرتها أسبانيا (عام ١٨٠٨) بل لقد أدى الأمر إلى أن نافس الإنجليز النسيج الهنـدى حتى قضى عليه تماما وبدأ بيع الأقمشة الإنجليزية فى كافة بقاع الأرض من عام ١٨٢٠ حتى عام ١٨٦٠ وكان فى تصاعد مستمر وتجاوزت أثمان القطن الخام الذى اشترته المصانع الإنجليزية مليونى جنيه عام ١٧٦٠ وبلغ عام ١٨٥٠ حوالى ٢٦٦ مليون جنيه واستطاعت إنجلترا إغراق الأسواق العالمية بالبضائع المتنوعة فأبعدت الكثيرين عنها لولا أن لحقت التذبذبات وهى القاعدة الدائمة بهذه الأسواق فيما بين أعوام ١٨٠٠ و ١٨٥٠ فقد تخطت أسعار الأقمشة القطنية من ٥٥٠ إلى ١٠٠ بينما انخفضت أسعار القمح على سبيل المثال فضلا عن السلع والحاصلات الأخرى إلى الثلث أويكاد على حين تكاد تظل الأجور ثابتة وإن ظلت انعكاساتها على أسعار التكلفة ضعيفه فقد قلصت التقنيات المستحدثة كثيراً من مراحل العمل بالنسبة للإنسان فهل تدهشنا هذه المحصلات والنتائج السعيدة للإنتاج المكثف على الحياة الشعبية لنقرأ ما قاله ميشليه (١) عن الأزمة القطنية فى فرنسا عام ١٨٤٢ تنتشر الصناعات المعدنية عادة فى وقت تال متأخر ومن ثم ارتهن الإنتاج فى هذا المجال حتى القرن التاسع عشر وارتبط استثناءً بالحرب حيث ارتبطت عمليات صهر الحديد فى القرن الثامن عشر بظهور المدافع.. كما ذكر أحد الإنجليز عام ١٨٣١ ولكن الإنجليز لم يكونوا فى حاجة إلى مدافع إلا لتنام على أسطح سفنهم إذ لم تكن الحروب الأرضية لعبتهم المفضلة إلا بصورة ضئيلة فى القرن الثامن عشر أنتجوا حديداً أقل من فرنسا أو من روسيا وكانوا يستوردونه سواء من السويد أو من روسيا ولم تستخدم اكتشافات صهر الحديد بفحم الكوك رغم أنه اكتشاف حاسم إلا فى القرن السابع عشر، وظل صهر الحديد بفحم الخشب زمناً طويلاً، وقد تطلب إنشاء السكك الحديدية فيما بين ١٨٢٠- ١٨٤٠ كميات ضخمة من الحديد استهلكتها، فضلاً عن مقادير لا بأس بها

(١) مؤرخ فرنسى ١٧٩٨- ١٨٧٤ ليبرالى التفكير وكان أستاذاً فى كوليج دى فرانس.

من الصلب والقصدير- وتغيرت الصورة تماماً واندمجت إنجلترا في إنشاء خطوط السكك الحديدية في بلادها كما في بلاد أخرى فيما وراء البحار، هذا بالإضافة إلى أن تطور السفن ذات الهيكل المعدني المدفوع بالبخار قد غير تماماً من أشكال بناء السفن الإنجليزية وحولها إلى صناعة ثقيلة، فلم يعد القطن هو القطاع البارز مفتاحاً لحياة بريطانيا العظمى الاقتصادية.

انتشار الظاهرة الصناعية فى أوروبا وخارجها

تكاد ظاهرة التصنيع فى البلاد الأوروبية وغير الأوروبية أن تكون ظاهرة موحدة برغم وجود طائفة من الاختلافات فى مجال المجتمعات واختلافها من مجتمع لآخر وكذا إطار اقتصاديات كل منها، وعلى الرغم من هذه الاختلافات يظل النموذج هو نفسه أو كما يقول علماء الاقتصاد: نموذج موحد .. بسيط، ويحدد أحد علماء الاقتصاد الأمريكيين ثلاث مراحل (١٩٥٢) لأى تطور للتصنيع منها.

أ - مرحلة الانطلاق نقطة بداية فى الوقت المناسب، كالتأثير حين يبدأ الاستعداد للانطلاق ومغادرة المدرج، وذلك شأن كل انطلاقه اقتصادية إذ تنفصل فجأة عن نظام سلفى سابق كان يربطها بالأرض وكثيرا ما يقع هذا الانطلاق فى قطاع أوقطاعين على الأكثر كالقطن فى بريطانيا وبريطانيا الجديدة (حالة خاصة) والسكك الحديدية فى فرنسا وألمانيا وكندا وروسيا والولايات المتحدة وأخشاب البناء ومناجم الفحم بالنسبة للسويد وينطلق هذا القطاع دائما كالسهم ويتحول إلى قطاع عصرى حديث بسرعة مغايرة ومختلف عن الانطلاقات الصناعية السابقة التى لم تعرف تلك القوة الدافعة ولا هذه الحركات ذات النفس الطويل. وهكذا نجد أن كل حركة تصنيع ناشئة تزيد فى إنتاجها وتحسن من تقنياتها وتنظم أسواقها ثم تبدأ بعد ذلك فى بث الرواج فى سائر قطاعات الاقتصاد ثم

تستقر بعد ذلك أوضاع عملية التصنيع الرئيسية من حيث هي تحرك أساس ومن ثم تصل إلى سقفها الأعلى وتساعد ما جمعتها من احتياطات تؤدي إلى انعكاسها على قطاع مجاور لها يحاول كذلك الانطلاق ويحدد نفسه كي يصل بدوره إلى مرحلة الكمال..

ب- يصل الاقتصاد بامتداد هذه العملية من قطاع إلى قطاع آخر إلى مرحلة النضج الصناعي، ففي أوروبا الغربية جاء بعد مرحلة الانطلاق بفضل السكك الحديدية أي بفضل الحديد والفحم والصناعة الثقيلة بعد الصلب والصناعات البحرية الحديثة والكيمياء والكهرباء والآلات التي تأخذ دور البديل، وعرفت روسيا من بعد زمن طويل وعاصرت هذه الثورة، ولعبت في السويد عجيبة الورق والخشب والحديد الأدوار الرئيسية، وعموما تخطت بلاد العالم العربي في مستهل أعوام القرن العشرين عتبة الباب إلى النضوج الصناعي فوجدت إنجلترا التي كانت قد تخطت هذه الحقبة منذ عام ١٨٥٠ نفسها تكاد تتساوى مع زميلاتها، ثم ظهر فجأة أن هذه الاقتصاديات التي حققت موارد حقيقية ورواجاً ملحوظاً وانتشاراً صناعياً ظاهراً لم يكن كل هدفها الأصلي - إذ واجهت تلك البلاد - كيف توجه كل قواها وإنجازاتها ومواردها؟ واتضح أن عليها أن تحدد اختياراتها ولم ترد المجتمعات الصناعية على هذا السؤال لتحديد اختياراتها بشكل جماعي أو بشكل متشابه إذ كانت اختياراتها في إطار مفاهيم تاريخها الحالي ومعنى مستقبلها، ولذا فقد يمكننا أن نتخيل أنها في نطاق حضاراتها قد استخلصت كل منها العوامل والمسببات التي حددت اختياراتها.

ج - ويحى الدور على مرحلة الاختيار بين نمط حياة مقبول ومشروع لكل أفراد المجتمع أو التضحية بالأمان في سبيل الرفاهية أو بذل الجهود نحو تشريع اجتماعي حذر أو اعتبار أن السعادة والرفاهية لا يتحققان بغير استهلاك واسع من جانب الجماهير بشرط أن يتمكن منه أو باستخدام سلطة المجتمع المتنامي أو سلطة الدولة في المحيط الدائم الخطورة، محيط السياسة الدولية، محيط البحث عن القوة والنفوذ!

فقد كانت الولايات المتحدة حول عام ١٩٠٠ قد توصلت إلى مرحلة نضوجها فحاولت عندئذ تحركاً موحداً وإن كان دافعاً للبحث عن نفوذاً فنتشبت بينها وبين أسبانيا ١٨٩٨ صراع على كوبا والفلبين، وكتب الرئيس روزفلت وقتئذ يقول: كانت الولايات المتحدة في حاجة إلى حرب أو منحها شيئاً يدعو إلى التفكير فيه دون أن يمثل بالضرورة كسباً مادياً، ثم جاء بعد سنوات دور المحاولات السياسية والاجتماعية المتواضعة الوقتية ومع ذلك فهأى الولايات المتحدة بعد انقطاع الحرب العالمية الأولى تنغمس انغماساً كاملاً في حل مشكلة استهلاك الجماهير المكثف ونشأت انطلاقة السيارات التي أحدثت رواجاً مصطنعاً، ثم تصنيع الـ لريادة وسائل الراحة في البيوت، أما في أوروبا فقد تأخرت بسبب الحربين العالميتين الاثنتين ساعة النضج الصناعي والإنشاءات التي تطلبتها هاتان الحربان ومن ثم لم تتضح معالم استهلاك الجماهير المكثف إلا عام ١٩٥٠ وإن كان مع القيود والتعديلات التي أدخلتها الحكومة وسياساتها ومع ضغوط الظاهرة الاشتراكية المتنامية في فرنسا، ومنها على سبيل المثال مجموعة التشريعات الاجتماعية بداية من مجانية التعليم حتى تنظيم الضمان الاجتماعي والطبي، وكذلك يضاف تأخر قطاعات بأكملها كان مفتاح ظروف طارئة أو نتائج الصمت عن ضرورة الإقلاع عن عادات وتقاليد بالية، مثال ذلك تطور الإصلاح الزراعي على النمط الأمريكي ذلك الإصلاح الذي اصطدم عبر كل بلاد قارة أوروبا بعقبات كثيرة أوقفت تقدمه مرات عدة كما حدث نفس الشيء في روسيا وتعددت الأمور في إيطاليا وفرنسا في منتصف مسيرتيهما لتحديث قطاع الزراعة وهكذا نجد أخيراً أن التطورات الضرورية لم تنشأ في كافة المناطق كجنوب الولايات المتحدة الذي ظل مهماً إلى ما بعد عام ١٩٠٠ كما عانى جزء كبير من أوروبا من التأخر والتباطؤ ومنطقة غرب فرنسا وجنوب غربها وإيطاليا في المينز وجورنو (أي الأقاليم الجنوبية) وكل شبه قارة أيبيريا تقريباً ما عدا المراكز الصناعية في كل من برشلونة وبلبا ومجموعة الجمهوريات الاشتراكية ما عدا روسيا ذاتها وكذلك تشيكوسلوفاكيا وجمهورية ألمانيا الديمقراطية (الشرقية. فيما مضى) وسائر شبه جزيرة البلقان وتركيا، وباختصار كان هناك دائماً أوريثان بحيث كان أحد الصحفيين عام ١٩٢٩ يميز بينهما فشبه

إحداهما بمركبة الكريول والأخرى بالحصان التجارى!! فإذا ما أردنا رمزا من بين آلاف لتقرب من كارسوفيا (بولندا) حيث المركبات الضيقة ذات العجلات الأربع خلال القرن الخامس عشر بحمولاتها من الخشب وقطع من الأرز فى حراسة النساء. أما اليوم وكانت بولندا الاشتراكية إذ نكتشف بمقارنة ما كان بالأمس واليوم أن هذا النقيص من الحياة الأوروبية اليوم جزء متمم مكمل، وصاحبت موجة الائتمان ورأسمالية المال ورأسمالية الدول الثورة الصناعية فاستفادت كثيرا من انطلاقة هذه الثورة الصناعية.

وكانت الرأسمالية أنواع معينة منها خاصة قائمة منذ بابل التى عرفت المصارف والتجار الذين كانوا يبرمون التعاقدات مع مناطق بعيدة مع كافة ما يستتبع الائتمان من الصكوك والسندات الإذنية والشيكات وفى هذا النطاق سار تاريخ الرأسمالية منذ حمورابى^(١) حتى روكفلر ولكن عمليات الائتمان ظلت متواضعة فى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ونمت فى القرن الثامن عشر بسبب المبادلات التجارية مع الهند والصين وانتشرت موجة الائتمان التجارى إلى بقاع كثيرة انطلاقا من القارة الأوروبية ومع ذلك لم يكن أصحاب الأموال الحقيقيون فى هذا العصر يهتمون بالتجارة أو الصناعة وانحصرت اهتماماتهم فى تنمية العقود العامة، ومع نجاح حركة التصنيع انطلقت الأنشطة المالية والمصارف بحيث شارك رأس المال «الأموال» بل تعدى مشاركة رأس المال المستثمر فى الصناعات وانتهى الأمر بوضع يده وسيطرته على كل وسائل الحياة الاقتصادية وأنشطتها. وقد حدث ذلك فى كل من فرنسا وإنجلترا عام ١٨٦٠ وتضاعفت أعداد المصارف القديمة والجديدة وامتدت شيكاتها وبدأت تنحو نحو التخصص من مصارف وبنوك إيداع وبنوك ائتمان وبنوك أعمال، ومن الجدير بالمتابعة فيما استحدث من أنواع المصارف قصة وتاريخ بنك الكريدى ليونيه الفرنسى المشهور.

وفى الولايات المتحدة تأسس عام ١٨٦٢ بنك بييريون مورجان بشبكاته المتعددة واستطاع البنك اجتذاب عملاء من كل مكان، وتمكن من الاستحواذ على

(١) حمورابى: هو ملك بابل ومؤسس إمبراطورية بابل ١٧٩٢ - ١٧٥٠ قبل الميلاد .

كل مدخرات «راكدة»، مهما كانت قيمتها وبدأ يستثمرها في كل اتجاه تجارى وصناعى ومد سكك حديدية وإنشاء شركات ملاحية بحرية، كما اضطر إلى إنشاء فروع له في كل الدول وأصبحت رأسمالية المال عالمية بمعنى الكلمة ولم تقف المصارف الفرنسية مكتوفة الأيدي اكتفاءً بالقروض الخارجية فاتخذ له مساراً تجاه القروض من روسيا رغم مخاطرها وإن كانت ذات أهمية قصوى للاقتصاد الفرنسى، فرصيد حسابات كاسب يوازى رصيد خاسر، كما ساهمت هذه القروض الأحتبية في توفير الأعداد اللازمة لجزء كبير من الأقطار الأوروبية بعد عام ١٨٥٠ بل ومناطق أخرى فيما وراء البحار ويبدو اليوم أن رأسمالية الأموال أصبحت كاملة في أوروبا على الرغم من النظريات التى تصادم أحياناً الاتجاهات مع استثناءات القاعدة، ومن المؤكد أن مصرفاً للأعمال مثل بنك باريس والأراضى المنخفضة (هولندا) يمثل قوة من الدرجة الأولى وتظل مدن مثل لندن وباريس وفرانكفورت وأمستردام وبروكسل وزيورخ وميلانو مواقع مالية رئيسية وإن كانت ساعة الرأسمالية قد دقت واتضح معالمها فقد صارت الدولة تماماً كرجل الصناعة على أثر تأميم بعض القطاعات فى نظام الاقتصاد الموجة؛ ومن ثم لم تعد الدول أقل منزلة من رجل بنك بالإضافة إلى ماتوفر لها من وسائل أخرى لاجتذاب المدخرات كالضرائب المتنامية والشيكات البريدية وصناديق الادخار وسندات الخزانة العامة، باختصار صارت تحت إمرة الدولة موارد مالية كثيرة فهى سيدة الاستثمارات الإنتاجية لمواجهة كل تصاعد فى عدد السكان والنمو السياسى والاجتماعى وكل متطلبات المستقبل وإزاء هذا الوضع منذ اتضح ماوقع على كاهل الدولة من تحديد لاقتصاد مخطط يستطيع به مسبقاً أن تحدد معالم التنمية المتفق على تحقيقها وظهرت فى روسيا السوفيتية الخطط الخمسية تتنافس معها ومثلها فى كل بلاد الدنيا، وفى يناير ١٩٦٢ أعلن الرئيس كيندى بنفسه خطة سنوات خمس للتجارة الأمريكية كما أثارت خطة فرنسا لأربع سنوات خلافات ومناقشات حادة وكان ذلك بمنزلة امتحان للضمير القومى حيث كانت الخطة الرباعية فى الوقت نفسه خطة اقتصادية تستهدف تحرير المناطق الفرنسية التى لم تلحقها التنمية الكافية. أى سياسة تدريبية ولا يمكننا أن نوضح دور

المستعمرات إلا بما وضعت أوروبا لاشك فى المقام الاول من العالم ونقصد بالاستعمار كل الانتشار الأوروبى على الأقل منذ عام ١٤٩٢ فما من منكر ما أتاح له هذا الاستعمار من ميزات مثلما لأوروبا فقد أتاح لها مناطق شاسعة فسيحة تستوعب مازاد عن حاجتها من الناس وكانت تحت يدها مناطق وبلاد ذات حضارات غنية قابلة للاستغلال، فقد بدأ فى القرن السادس عشر حين بدأت تصل وتوالى وصول «الكنوز» من أمريكا (سبائك ذهب وفضة) وحين فتح الهند العنيف بعد انتصار بلاسى (فى ٢٣ يونية ١٧٥٧) إذ قدم للإنجليز البنغال وما كان من الإكراه فى فتح الأسواق الصينية بعد حرب الأفيون (١٨٤٠- ١٨٤٢) وتقسيم أفريقيا فى بيرلين عام ١٨٨٠ فتحققت أرباح وثروات طائلة لكل من أيبيريا أى أسبانيا وللهولنديين ثم الإنجليز بمعنى أن النتيجة كانت برسوخ أقدام هذه الشيكات الرأسمالية التى ساعدت على تقديم حركة تصنيع أوروبا وزادت احتياطاتها المالية بفضل هذه الأراضى البعيدة التى أمكن استغلال مواردها، وقد لعب هذا الاحتياطى من المال والثروات دوراً مهماً فكانت بلامنازع المستفيد الأول والرئيسى من انطلاقة الإقلاع الأول، بقى علينا أن نعرف أن الثورة الصناعية وهى تعزز وتقوى أسبقية أوروبا ومكانتها لم تعزز الواقع الاستعماري لصالح أوروبا ونجد على سبيل المثال أن الانطلاق الصناعى لفرنسا لم يجر بسبب احتلالها السنغال أو الجزائر ١٨٣٠ أو الهند الصينية ١٨٥٨ - ١٨٦٧ وتو تكين أو آنام ١٨٨٣ (يقصد فيتنام) وسوف تكون قضية أخرى تناقش فيها ملفات حركات الاستعمار وأثارت تناقضات عديدة من العناصر المتشابكة المتداخلة حيث تتداخل كل المسؤوليات والإدانات والذنوب، ولذا نكتفى بالقول أن استعمار الأمس كانت له معالمه السلبية والإيجابية من الجانبين، ويبقى شىء واحد أكيد: قصة استعمار الأمس وتاريخه التى قلبت الصفحة.

الاشتراكية فى مواجهة المجتمع الصناعى

تكمن مقدرة أوروبا فى بحثها عن رد اجتماعى إنسانى سريع فاعل ذى قيمة بعد مسيرة التصنيع ومظاهر قسوتها العديدة فقد نجحت فى خلق ظروف إنسانية اجتماعية خلال ماساد القرن التاسع عشر وبعدها من مسيرة درامية حزينة فهى درامية إذا قيست بالحروب والاضطرابات وبرغم ذلك حققت المسيرة تفوقا ملحوظا إن شئنا قياس التقدم العلمى والتقنى

والتقدم الاجتماعى وبصورة أقل، وهاهى المحصلة النهائية أمامنا اليوم على كل حال فى هيئة حقائق منها التشريعات الاجتماعية الهادئة التى قد تبلغ مرحلة الكمال لتحقيق مصير أفضل للتكتلات الجماهيرية واقتلاع جذور الانتفاضات الثورية، ولم يتحقق كل ذلك بسهولة بل كانت معركة شرسة أحاطت بها مراحل ثلاث:

١- المرحلة الثورية الأيدلوجية، مرحلة ظهور المصلحين الاجتماعيين أو الأنبياء على حد قول أعدائهم وهى مرحلة بين أعوام ١٨١٥ و ١٨٧١ منذ سقوط نابليون الأول.

٢- مرحلة النضال العمالى المنظم (نقابات وأحزاب عمالية) بدأت قبل المأساة الباريسية ربيع ١٨٧١ وهى أساسا تقع بين هذا التاريخ وعام ١٩١٤.

٣- المرحلة السياسية ومن الأفضل تسميتها مرحلة الدولة حيث أخذت الدولة بين أيديها تنفيذ البرامج الاجتماعية بعد عام ١٩١٩ إذ تحققت آماد الازدهار المادى من ١٩٤٥ حتى يومنا هذا.

ويوضح الرسم البيانى أن المتطلبات الاجتماعية فى مواجهة التصنيع كانت غالباً تعدل من مفاهيمها ونبرتها وفق التذبذبات فى الحياة المادية وتذبذبات عنيفة وساخنة فى عصور الاتحاد الاقصادى (١٨١٧ - ١٨٥١ - ١٨٧٣ - ١٨٩٦ و ١٩٢٩-١٩٣٩) ثم خفت حدتها بالتصاعد والنمو الاقصادى أعوام ١٨٥١ - ١٨٧٣ ثم من ١٩٤٥ حتى اليوم، قال أحد المؤرخين عن الحالة فى ألمانيا وخاصة عن المطالب الاجتماعية فى عام ١٨٣٠: لم تكن كلمة بروليتاريا معروفة فى ألمانيا وفى عام ١٩٥٥ بدأت تعرف على استحياء ومن بين هذه المراحل الثلاثة الأولى منها تكمن فى موقع الأفكار الاجتماعية وهى أهمها لما عسى أن تحدد من منعطف ونقطة تحول حضارى كاملة إذ كان فى الأعوام من ١٨١٥ حتى ١٨٧١ أن تزاومت الأقطار والتحليلات الحادة والتنبؤات أى وقع بإيجاز ماقد نسميه بتقلبات المصالح الأيديولوجية والسياسية واتجاهاتها نحو المجتمع وكل ما هو اجتماعى ولم تعد الدولة هدفا لسهام المطالبات بل كان المجتمع فى حاجة إلى الإدراك والفهم والعلاج والتحسين وإلى برامج جديدة بدأت تطفو ولهجات جديدة بدأت تسمع فظهرت كلمات من أمثال: مجتمع صناعى وبروليتاريا والتكتلات السكانية والجماهير والاشتراكية واشتراكى ورأسمالى وشيوعى وشيوعية.. وكلها تشكل نمطا جديدا من الفكر الثورى، وكان الكونت دى سان سيمون مخترع الاسم الموصوف والذعت المشتقين من مصدر لفظ «صناعة»، ومشتقاتها من مجتمع صناعى وغيرها ثم انتحلها أوجبست كومت وهربرث سبنسر وغيرهما، أما كومت فقد تحدث عن المجتمع الذى حل مكان المجتمع العسكرى الذى كان يقول بأن الشيوعية هى التى تحمى وتصوت الفرد، وظهرت كلمة رأسمالية لدى لويس بلان فى مؤلفه «تنظيم العمل ١٨٤٨ - ١٨٥٠»، ولدى بروديهون عام ١٨٥٧ وفى معجم لاروس عام ١٨٩٧ غير أن انتشارها الواسع إنما كان فى بداية القرن العشرين إذ صاح لامارتن عام ١٨٤٣ قائلا: من ذا الذى سوف يتعرف على الثورة فى أيدينا؟

هاهى فرنسا بدلا من العمل وصناعة حرة تباع للأسمايين، ومن الألفاظ التى لم تحقق ذيوعا ولا معنى ألفاظ البورجوازية ولفظ الجماعية ومع ذلك لم يفقد عام ١٧٨٩ - عام الثورة الفرنسية - رونقه وسيطرته فلا زالت كلمات من أمثال اليعاقبة وعصر الإرهاب وعصر الخلاص العام تلاحق النفوس وتثير الذكريات أمثلة على الرعب والفزع، أما عند أغلب المصلحين فإن لفظ الثورة يظل لفظا ساحرا له قدرة الخلق والإبداع وفى عام ١٨٧١ صرح راؤول ريجولت بقوله نحن لانصنع مساواة بل نصنع ثورة، وظهر فى فبراير من عام ١٨٤٨ البيان الشيوعى الذى وضعه كل من كارل ماركس وإنجلز وهو البيان الذى ظل حتى يومنا هذا بمنزلة إنجيل المستقبل الشيوعى. ولاشك منذ القرن الأول للحركة القرن التاسع عشر فى أن قائمة طويلة من الذين نادوا بالإصلاح ألقت الضوء على الدور الرئيسى الذى قام فى ثلاث مناطق مهمة كلها بالتصنيع وهى انجلترا وفرنسا وألمانيا ولاشك أن الأسبقية كانت للإعداد الفرنسى وظهر آراء الكونت دى سان سيمون ذلك الرجل الفريد الذى تميز بشيء من الجنون والعبقرية وكان الباعث على كل المفاهيم الاجتماعية، اشتراكية وغير اشتراكية ثم فضلا عن ذلك عالم الاجتماع الفرنسى (جورج جيرفيتش) بما كان له من نفوذ قوى وحاسم على العملاق الآخر كارل ماركس بل يتفوق عليه من بعيد وكان كارل ماركس فى شبابه وقتئذ قد قرأ كل مؤلفات سان سيمون واستخلص منها كثيرا من أفكاره وبراهينه واستدلالاته فإذا ما استثنينا السلف العجوز سان سيمون أمكننا تقسيم المصلحين إلى ثلاث طوائف عمرية: الأولى لهؤلاء الذين ولدوا خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة من القرن الثامن عشر ومنهم أوين عام ١٧٧١ وفورييه عام ١٧٧٢ وكابيه عام ١٧٨٨ وكومت عام ١٧٩٨ ثم الذين ولدوا خلال السنوات العشر الأولى من القرن ومنهم: برودون وكونسيد يران ولويس بلان وكانوا أكثر نجانا مع كارل ماركس المولود عام ١٨١٨ وإنجانز ١٨٢٠ ولاسال ١٨٢٥ ثم المجموعة الألمانية التى أقفلت المسيرة وقد قيل إن مقتل لاسال فى مبارزة عام ١٨٦٤ قد أزاح المنافس الوحيد الذى كان فى مستوى كارل ماركس مما أتاح له النجاح دون مناقس، وعموما فمن المستحسن أن ينسب هذا النجاح إلى نفوذ رأس المال (١٨٦٧) وغير مستطاع - ولاشك - فحص

كل هذه الفلسفات الخاصة بكتل الجماهير واحدة واحدة فكل منها يتجه تحليلاً للمجتمع ومصيره وصيرورته وهذا التعبير الأخير لسان سيمون: إنها نوع من المعالجات والتطبيقات والترياق، كل هذا حقق النجاح لأتباع سان سيمون المخلصين ممن جمعوا أمثال شيفالبيه وأنفنتان ثروات من المعاملات التجارية فى عصر الامبراطورية الثانية حيث تركزت الجهود حول عملية تنظم الإنتاج الفرنسية والذى كان حتى ذلك الوقت هو الرائد السائد على المسرح بحيث لم يجرؤ هيربرت سبنسر على تأكيد لفظ بروليتاريا فى عام ١٨٢٨ فى معجمه الأكاديمى وتصبح كلمة الكتل بمدلول المفرد وخاصة فى صيغة الجمع هى كلمة السر لإدراك الأعراض اللفظية للحديث عن التطور والتنمية اللتين اندلعتا فى عصر لويس فيليب كما صرح بذلك لامارتين عام ١٨٢٨ ولويس نابليون فى كتابه عام ١٨٤٤ «انقراض العوز» .. اليوم زال عصر الطبقات ولا يمكن الحكم إلا مع الجماهير، وهذه الجماهير أو التكتلات هى التى تقطن المدن وهى عمالية فقيرة مستغلة، وبدأت معارضات الطبقات - كما أطلق ماركس عليها - تظهر، والظاهرة قديمة وجدت فى المجتمعات كافة التى تطورت ماديا من الماضى ولكن هذا لا يمنع أن القرن التاسع عشر قد ضخمها حيث بدأت كلمات اشتراكى واشتراكية مع أعوام الـ ٣٠ وكذلك لفظ الشيوعية بالمعنى المبهم بالمساواة الاقتصادية والاجتماعية حسب أقوال أوجست بلانكى جنرال الجماهير الثورية بجنونها - فى رأيهم - ولكنها مانت لأنها لم تنظم اقتصادها، وقول فوربيه الذى كان بدوره يحتقر الثورة: إنه يجب خاصة تنظيم الاستهلاك، ويظل كل من باربيس وبلانكى ولويس بلان مخلصين لمبادئ ثورة ٨٩ إذ يمكن أن نصف الاثنين الأولين أنهما جالى النشاط والحركة ونسمى الآخرين رجال المبادئ وسوف نتحدث خارج محيط كارل ماركس عن أكثر هؤلاء المفكرين أصالة وهو بروديهون الذى سلبته الحرية كل تفكيره حتى النخاع بل إلى حد الفوضى تجاه الدولة وتجاه المسيحية فى سبيل البحث عن جدل (ديالكتيك) اجتماعى يستطيع أن يمسك بنواحي الدولة العلمانية وهى تطوى أمام عيوننا تناقضاتها التى كان يجب إيجاد الحلول لها للسيطرة على الآليات والحركات الاجتماعية التى هى من صنعها وهنا نحن بإزاء نوع من التأمل العلمى البعيد عن

المشاعر العقائدية الدينية بعيدا عما سمي بالحركة المناقضة لأقطار مذهب التجمع الإنتاجى المشترك ودعا إلى أقامته كل من أوين وكابيه وفورييه^(١) والأخير خاصة على نفس المسار الفكرى الثورى لكارل ماركس وكان ذلك على العمال المصممين على تحقيق ما يعلنون عنه من عالم أفضل انتظارا لتحقيقه بأيديهم.

احتلت فرنسا الأولوية فى هذه المجالات إذ كانت بلاشك بلاد الثورة الكبرى المخلصة لمبادئها وتحقق لها التقابل فيما بين أعوام ١٨٣٠ و ١٨٤٨ وعام ١٨٧١ إذ أشعلت - وحدها وهى مهذومة من الخارج - فتيل اللهب الثورى فى كميون باريس . غير أن فرنسا الاشتراكية كانت يقينا أثرا من آثار حركة تصنيعها الخاصة حيث وقع فيها مايقع فى كل مكان من الفكر الإصلاحى أو الثورة وهو ثمرة المثقفين المتمتعين بالمزايا الاجتماعية فى غالبيتهم الكبرى وكذلك وكما يحدث فى كل مكان لم يكن لأفكارهم أن تكتب لها الحياة إلى حين تصل إلى الأوساط العمالية غير أن الآثار الثقافية فى فرنسا كانت مبكرة وعنيفة أكثر من غيرها على حين كانت حركة التصنيع على العكس من ذلك أكثر تأخرا من مثيلتها فى إنجلترا ولذلك فإن مرحلة الانطلاق تقع فيما بين ١٨٣٠ و ١٨٦٠ .

ولكن ساعة الإقلاع أو الانطلاق إنما تبسط الأمور أكثر مما ينبغى حتى لاتتجاهل كل زمن الميلاد السابق فقد حدث فى فرنسا عام ١٨١٥ وحتى عام ١٨٥١ ارتفاع فى معدل الإنتاج الصناعى يقدر بـ ٢٥ ٪ فى المائة، وكان كافيا لإدخال تغييرات فى أحوال المجتمعات القديمة وإعطاء فرنسا - التى كانت تهتز بالثورة وبوادرها وحروبها - ملامح ساحات التدمير التى طرقت أبواب البلاد المعاصرة، كما أدى انتشار المدن إلى التدهور السريع للطبيعة المحيطة مما أثار كثيرا من الأدباء والفلاسفة من أمثال بلزاك إلى فيكتور هوجو وانتشار الفقر والتسول والإجرام وزيادة معدلاته وتشرد الأطفال وانتشار الأوبئة . كل ذلك تجمع بسرعة بسبب تكدس العمال بين حيطان ضيقة وفى اختلاط مزرى فوق الوصف لأن سكان الريف لم يقفوا عن النزوح من أراضيهم، ويصف ميشيليه كيف وقف الفلاح

(١) الفيلسوف الاشتراكى الفرنسية.

مذهولا لما يراه فى المدن، فهو يريد كل شىء وسوف يبقى فى المدينة إذا استطاع فالقرية ما إن يغادرها سكانها لا يعودون إليها أبداً، وكان لابد فى مدينة أورليانز عام ١٨٣٠ عام القلاقل من مساعدة ١٢٥٠٠ نسمة بين ٤٠ ألفا من السكان أى من كل ثلاثة واحد كان فى حاجة ماسة للمعونة والإسعاف واتضح أن المجتمع الحضرى قد أهاجته حركة التصنيع حيث لمسها وعاشها بنفسه وانجذب إليها أوجدبته اليها مع العجز عن تحملها بل والعجز كذلك عن معايشتها فقد عجت المدن بضحايا التصنيع فى تجمعات عمالية لم تكن حركة التصنيع وهى تجد لهم أعمالا تأبه بطروفهم المعيشية، وهكذا أوجدت الأقطار الأيديولوجية الأولى مجتمعات تشابه تلك التى تعج بها البلاد النامية اليوم منذ يتحقق النجاح لحركة تصنيع فى المدن. وتحسنت أوضاع الطبقة العاملة منذ الارتفاع الاقتصادى خلال عصر الجمهورية الثانية ١٨٥٢ - ١٨٧٠.

من التنظيم العمالى إلى الضمان الاجتماعى

يطرح هذا السؤال قضية يصعب طرحها للمناقشة بعمق فقد تطلب الأمر متابعة لمسيرة أفكار ومفاهيم اشتراكية متعارضة ويظهر على السطح السؤال التالى: كيف تأخذ هذه التكتلات العمالية على عاتقها مسئولية تحقيق هذه الأفكار والمفاهيم الاشتراكية؟ ونجد من الصعب الرد على هذا السؤال والمثل هو ما حدث فى إنجلترا إذ يتصدى العالم العمالى دائماً لتنظيم صفوفه لصالحه هو وبأسلوب واقعى حذر بعيد عن أيديولوجيات السياسة النشيطة العنيفة حيث كانت الساعة الأولى ساعة علماء النظريات الاجتماعيه الثانية ساعة التجمعات النقابية والثالثة ساعة الأحزاب السياسية ومن المؤكد أن الأخيرة كانت تمثل الدولة سواء كانت تسلم بالمطالب طواعية أى بتعقل وحكمه أو رغما عنها مكرهة ويكادان يتشابهان فى محاولة نزع مسبق للفتيل قبل اشتعاله وهناك من ثم أربع جماعات على الأقل علينا متابعة خطاها من علماء النظريات من كافة الاتجاهات والآفاق إلى النقابيين من كل الأجناس ورجال السياسة من جذور عالم عمالى وممثلين للدولة على

اختلاف قواهم فيما بينهم ، وبدأت ترسم فى الأفق ملامح تطورات تكاد تتشابه فى سماوات أوروبا وخاصة فى أهم الدول وهى إنجلترا وفرنسا وألمانيا فضلاً عن الدول المجاورة كهولندا وبلجيكا والدول الأسكندنافية وسويسرا ولم يكن التأخر ومظاهره الواضحة فى غير هذه البلاد فى حاجة إلى دليل ..ويهمنا فى هذا المقام ماوقع فى البلاد المتقدمة (التي تؤمن بالإصلاح السياسى والاجتماعى) .

بدأ قبل عام ١٨٧١ إنشاء الاتحادات العمالية بعدد كبير عام ١٨٥٨ - ١٨٦٧ وبدأت منذ نشأتها صراعها لإلغاء قانون السادة والخدم وعقد عام ١٨٦٦ أول مؤتمر لنقابات العمال التى لم تكن تضم إلا العمال الأكفاء .

ولم يحدث فى فرنسا تطور إيجابى إلا عام ١٨٦٤ بصور القانون الذى أجاز الإضرابات إلا مايتعارض منها مع الشرعية وكان عام ١٨٦٥ أن أفتتح مكتب فرعى فرنسى للإنترناشيونال (الشرعى) سبقه فى إنجلترا مكتب أنشئ عام ١٨٦٤ ثم مكتب فرعى آخر فى ليون عام ١٨٦٨ وكانت الإمبراطورية الثانية تقدمية ومقيدة للحريات معاً ولئن كانت أدخلت التحسينات على ظروف معيشة العمال فقد وضعت عينها لمراقبة حريات العالم العمالى وكانت المسيرة البطيئة نفسها فى ألمانيا وحكاية لاسال قد أسس عام ١ٸ٦٢ فى لندن ،الاتحاد العام للعمال الألمان، ثم كان بعد ذلك بسبعة أعوام أن جاء مؤتمر إيزنباخ لينشأ على أثره الحزب العمالى الاشتراكى الديمقراطى ذو الاتجاه الماركسى، قبل ١٩١٤ كانت مظاهر التقدم التى تحققت فى هذا التاريخ عديده، ففى إنجلترا أسس هايدنمان عام ١٨٨١ الاتحاد الفيدرالى الديمقراطى فكان بداية نشرالدعاية الاشتراكية فى أوساط العمال الذين كانوا حتى ذلك الوقت مبتعدين عن السياسة كما بدأت حركة التسييس (الحزب السياسى) منذ انضمت إلى الحركة النقابية منذ عام ١٨٨٤ أكثر طبقات العمال فقراً أى من غير صفوة العمالة المتميزة ثم وقعت بعد عشر سنوات إضرابات عمال أحواض السفن وكانت حركة إضراب تاريخية وقعت فى ضواحي لندن وفى عام ١٨٩٢ تأسس حزب العمال البريطانى وبعد ذلك بخمس سنوات تأسس الاتحاد العام للنقابات، وعلى أثر النجاح الذى حققه حزب العمال فى الانتخابات تكونت أول حكومة شبه ثورية وراديكالية عام ١٩٠٧ وكان التصديق

على مجموعة من القوانين الاجتماعية وبدأت فى إنجلترا مظاهر جديدة تتضح فى الأفق.

وكان فى فرنسا العمل نفسه بإنشاء جول جيد أول صحيفة اشتراكية تحت اسم ليجاليتيه (أى المساواة) ثم تأسس بعد عامين الحزب العمالى الفرنسى P.O.F واعترف القانون بالنقابات عام ١٨٨٤ وأنشأت بورصات العمل منذ عام ١٨٨٧ وجاء عام ١٨٩٠ ليشهد أول احتفال تخليد لذكرى أول مايو (عيد العمال) وفى عام ١٨٩٣، يلجج جان جواريس نائباً لمدينة كارمو وفى عام ١٨٩٥ تأسست C.C.T ثم تأسس حزبان اشتراكيان عام ١٩٠١ أحدهما الحزب الاشتراكى لفرنسا ثم الحزب الاشتراكى الفرنسى عام ١٩٠٤ وتأسست صحيفة لومانيتيه^(١) عام ١٩٠٦ حيث كانت كذلك أول محاولة لإدماج حزبيه معا وتأليف الحزب الاشتراكى الموحد.

وفى ألمانيا عمد بسمارك إلى مطاردة الاشتراكيين عام ١٨٧٨ وظهرت من عام ١٨٨٢ اشتراكية الدولة لتضاعف من الإجراءات الاجتماعية وعاد بعد تقاعد بسمارك إنشاء النقابات من جديد واجتمع من أعضائها قرابة مليون مشترك حققوا نجاحاً سياسياً كبيراً بما يناهز ثلاثة ملايين صوت فى انتخابات عام ١٩٠٧ وفى عام ١٩١٢ بلغ عدد الأصوات أربعة ملايين و٢٤٥ ألفاً ونستطيع فى ضوء ماسلف أن نقول: إن نفوذ الإنترناشونالى الثانى منذ عام ١٩٠١ قد صار له كل الحق فى التأكيد أن الغرب عام ١٩١٤ كان - وهو على عتبة الحرب - يتخطى عتبة الاشتراكية التى كانت على أهبة الاستعداد التام لتسلم زمام الحكم وإعادة إنشاء أوروبا أكثر حداثة وعصرية وربما أقوى مما هى عليه اليوم وبعد أيام بل وبعد ساعات اندلعت الحرب ودمرت كل الآمال. ولاشك كان خطأ جسيماً فشل الاتجاه الاشتراكى فى تجميد الصراع وهذا هو رأى أكثر الناس تعاطفاً مع المبدأ الاشتراكى ومعرفة من الذى يتحمل مسئولية هذا التراجع من جانب السياسة العمالية، وفى يوم ٢٧ يوليو عام ١٩١٤ وفى مدينة بروكسل فى بلجيكا التقى كل من جواهر وديمولان وهما سكرتير C.G.T الفرنسى مع سكرتير مركز النقابات الألمانية فهل

(١) جريدة تعنى الإنسانية وهى لسان الحزب الشيوعى فيما بعد.

جاء تقابلهما مصادفة في أحد المقاهى لغير تبادل عوامل اليأس ؟ لاندري قطعاً ولن ندري كذلك معنى الخطوات الأخيرة التى أقدم عليها جان جواريز.

فى اليوم الذى أعتيل فيه (٣١ يوليه ١٩١٤) لقد بنت أوروبا اليوم وبغيرما لديها من مفاهيم اشتراكية نفسها ببطء. وبصورة غير كاملة (ناقصة) بسبب أصوات الانتخابات السياسية والتشريعات وكذلك بإنشاء التأمين الاجتماعى فى فرنسا عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ وبعد ذلك بوقت قصير فى إنجلترا، وما هى السوق الأوروبية المشتركة وهى تضع أسس المساواة بين الدول تجاه الأعباء الاجتماعية تقرر امتدادها فى أقرب فرصة زمنية ممكنة على أوروبا ذات الأعضاء الستة.

الفصل الرابع

الوحدات الأوروبية

الوحدات الأوروبية

يحذرنا أحد أعضاء النزعة الإنسانية هوفرانكوسيمون مما يدعى «الوحدات الأوروبية»، ولا يمكن الرد عليه بأنه محق ومخطئ في الوقت نفسه لأن الواقع أن أوروبا هي في الوقت نفسه وحدوية وتعددية وقد شرحنا في الفصول السابقة كيف انغمست القارة الأوروبية في مصير واحد إجمالاً بفضل العقيدة الدينية وفكرها العقلاني الرشيد وتطور العلوم والتقنيات وكذلك ميولها بما يجب أن يكون عليه التطور والمساواة الاجتماعية وما توصلت إليه من نجاح في هذه المجالات. ومع ذلك نجد على الرغم من هذا التناقض الإيقاعي أن هناك اختلافات «تحتية»، بسبب المشاعر الوطنية هنا وهناك وهي مشاعر فاعلة ضرورية عزيزة فيما بين بريطانيا والإلزاس وبين وسط فرنسا وشمالها وبين متزوجورنو وليومونث وبين يافاريا وبروسيا أو بين أسكتلندا أو إنجلترا والتلامان والدالون وكاتالونيا وكاسيتلا وأندلوسيا على أن هذه الاختلافات الوطنية لاتنفى مع ذلك الواقع الوحدوي لبلاد القارة الأوروبية.

الوحدويات المتألفة

الفن والروح

بماذا نقصد بصفة التألق، إنما نقصد بها تلك التقابلات وتلك المظاهر الوحدوية التي تضيء على ما فى الحضارة الأوروبية من مستوى ثقافى وذوقى وعقلى مظهرأ أخويا يكاد يكون متماثلا كأنما غمر هذه الحضارة ضوءاً واحداً.. ضوء مشابه. ولكن ترى هل نستطيع القول أن لكل الأمم الأوروبية نفس الثقافة ؟ لاشك يكون الرد لا وإن كانت كل حركة تقع فى موقع سرعان ما نجد فيها ميلول الانتشار فى سائر المواقع، وقد قلنا ميولا للانتشار إذ أن كل تقدم ثقافى قد يصطدم بأنواع من التحفظات والرفض فى جزء أو آخر من أوروبا أو العكس وقد يحدث أحيانا كثيرة أن يتخطى الحدود كل تقدم لينتشر فى بقاع أخرى كأنما هو تقدم غير أوروبى أصلاً ويصبح «عالمياً» ومع ذلك يظل مجمل الموقع الجغرافى الأوروبى ينشئ مجالاً متلاحماً فى مواجهة سائر بلاد العالم ويتخطى الفن وتوابعه حدود أوروبا، وسرعان ما ينتشر فى أنحاء العالم سواء نبع أصلا من موطنه مثل كتالونيا أو كان فناً رومانيا أو من آيل دوفرانس أو منطقة كاترشنتو (إيطاليا) أو فلورنسا أولومبارديا أو فينيسيا (البندقية) أو من رسوم الفنان تيتيان أو اتجاهات باريس التعبيرية الانطباعية (١) وهى لون من النظريات الجمالية وكأن الأبنية كالقصور

(١) شكل من أشكال الفن يبرز الانطباعات ويهمل التفاصيل.

وبيوت النبلاء والموسرين والكنائس تجذب إليها الفنانين من كل أنحاء أوروبا كما كان في القرن الخامس عشر، ونوه بذلك كتاب هذا العصر من أمثال دوق بورجون وكلوس سلوتر وفنانو عصر النهضة الإيطاليون وربما يبدأ فنان رسم لوحة فيتولى آخر تكملتها، ورب كديسة تتابع عليها عديد من الفنانين ككنيسة سانفا ماريا ديلفيور في فلورنسا إلى بروليتشي وترجع إقامة قبابها ولعب عزور الأمراء والنبلاء وأثرياء التجار دورا مهما في تطور الفنون بما يفسر لنا انتشارها السريع فلولا تشجيعهم وإرضاء نزواتهم لما تحقق للفنون هذا الازدهار رغم بطء وسائل النقل والانتقال في تلك الأزمان، ففي هذه الأعوام (أعوام القرن الخامس عشر) قام الإيطاليون بالذات بدور أساتذة أوروبا كلها أما في القرن الثامن عشر فنجد الفرنسيين هم الذين نشروا الفن الكلاسيكي حتى روسيا من قصر فرساي إلى الحدائق الفرنسية الشهيرة، وعرفت أوروبا عندئذ بعد هذه الموجات من انتشار الفنون وإن كان بطيئاً فقد ساعدتها على استعادة تكاملها من مجالات الفنون الرومانية والفن القوطي وفن الباروك والفنون الكلاسيكية وكانت كل موجة من هذه الموجات الفنية بعد ذبوعها وانتشارها الكثيف بمنزلة دفع مثير وظاهرة تدوم طويلا فقد دام الفن القوطي مايقرب من ثلاثة قرون ولم يتعد جنوبا بورجوس وميلانو أمابلاد ساحل البحر الأبيض المتوسط فلم ترغب فيه على حين احتضنته فشملة فينيسيا في مستهل القرن السادس عشر ولكن على أخص أنماطها وبدأ هذا الفن القوطي يجد طريقه إلى باريس حوالي عام ١٥٥٠ ولم يؤثر إقليلا على الفن المعماري في عصر النهضة كما كان في اللوفر وفي قصر مدريد الذي انمحي اليوم وكان في فونتينبلو أن وافت المنية ليوناردودافنشي حيث كان يعمل الفنان الرسام النحات الإيطالي بريماتيس وقد تأكدت منذ القرن السادس عشر عظمة فن الباووك وبخاصة وهو فن من جذور روما وأسبانيا معاً فكان ثمرة من ثمرات الإصلاح المعاكس، أو كما اطلق عليه بالأمس بالفن الجزويثي وانتشر في بلاد أوروبا البروتستانتية وامتد كذلك شرقا في فيينا وبراغ وبولونيا وأخذت فنون العمارة الفرنسية في القرن السابع عشر وقتاً أقل لتنتشر بما يفسر اليوم هذا التغيير في أشكال المدن الحضرية لكثير من مدننا ومنها تورز وبوردو ولازال أوضح

الأمثلة مدينة ليننجراد (سان بطرسبورج) التي تعد بحق أجمل مدن القرن الثامن عشر، نشأت الانطباعات والأفكار نفسها فى فنون الرسم بالزيت أو فى الموسيقى إذ تدخل تقنيات هذه أو أجزاء تلك بغير صعوبة فى عديد من المسارات والاتجاهات الأوروبية، ولسنا هنا بصدد التحدث عن تقنيات الآلات الموسيقية وتنوعاتها التى سرعان ما استحدثت فى أوروبا فى عصور متلاحقة قد تناولت الآلات الموهلة فى القدم من أمثال الفلوت والهارب الأبدى والعقول بالتطوير والتحديث فكان ظهور الـ (معزف قيثارى الشكل كالبيان القديم) وانطلاق (الكمان) الذى استخدمه عباقرة العازفين الطليان غير أن ظهور الفيدلونسيل كان اختراعا فرنسيا من القرن الثامن عشر فقط ثم كان ظهور البيانو فيما بعد. وارتبط تقدم الآلات بما طرأ على الأشكال الموسيقية من نجاح إذ كان الغناء فى العصور الوسطى سواء مصحوبا بآلة موسيقية أم غير مصحوب هو السائد وبدأ تنوع الأنغام والأصوات مع أعوام القرن التاسع مع استخدام الأورج فى تقديم الشعائر الدينية وبدأت فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أنغام عدة أصوات مشتركة معاً صاحبها الآلات الموسيقية فأحرزت فى موسيقى كابيلادى بالسترينا صفة الكمال فى الأعوام من ١٥٢٥ إلى ١٥٩٤ وإذا الموسيقى الصوتية تترك مكانها للموسيقى الآلية خاصة بعد نجاح الآلات ذات الأقواس وبدأ ظهور الكونشرتات التى سميت وقتئذ موسيقى الحجرة وهى أصلاً مرادفة للموسيقى الدنيوية تكتب لعدد من الآلات منها الرباعى كوانيو أى موسيقى البلاط فى مقابل موسيقى الكنيسة، ومamusيقى الحجرة إلا نوع من الثنائى وكانت إيطاليا مهدها مع الكونشرتو مع طائفة متحاورة من الآلات بعضها مع بعض حيث تتفرد بآله واحدة فجأة لتعطى الرد لكل الأوركسترا وكان كوريللى (١٦٥٣- ١٧١٣) أول من عزف منفرداً كما كان فيتالدى ١٦٧٨- ١٧٤٣ هو القائد، وكان الجمهور فى ألمانيا يفضل السوناتا (ألتين وأحيانا آلة واحدة) أما فى فرنسا فيصاحب ذلك كله عديد من حركات الرقص ثم ظهرت أخيراً مع السيمفونيات أنواع الموسيقى الأوركسترالية الكبيرة موسيقى التكتلات الجماهيرية لعدد من الآلات وعدد من الرواد المتمعنين كذلك، وفى القرن الثامن عشر عالج ستامتز شكل السوناتا فى شكل آخر هو السيمفونية ثم تطورت فى القرن التالى، العصر

الرومانسى فى شئلى آخر تقوية لكتل الجماهير وذلك برفع مما سمي العازف المنفرد وبراغة الفنية (باجا نينى وليست) ويجب أن نفرد مكانا خاصا بالأديرا الإيطالية التى ولدت بلاشك فى فلورنسا حوالى نهاية القرن السادس عشر ومن إيطاليا انتشرت بما حققته ألمانيا وكل أوروبا من نجاح، وظهر الموسيقيون العمالقة أمثال موزار وهاندل وجلوك بفضل ماشرعوا فى كتابته من أوبرات إيطالية أعقبها أوبرات ألمانية .

وازدهرت فنون الرسم وتطورت وامتدت عبر كل بلاد القارة الأوروبية ويحدد تاريخ فن الرسم ثورتين هامتين هى ثورة عصر النهضة فى إيطاليا حيث يصبح المجال التصورى مجالا هندسيا قبل أن يتمكن جاليليو وديكارت وعلومهما من هندسة العالم بوقت طويل، أما الثورة الثانية ففرنسية تبدأ من مطلع القرن التاسع عشر حتى نهايته بحيث جعل فيها فن الرسم قضيته فى ذاته وانتهت هذه المرحلة إلى ظهور المذهب التكعيبى والمذهب التجريدى، ولقد ذكرنا الإيطالية والفرنسية وذلك لتحديد مواقع ظهور هذه الفنون وانتشارها بأنواعها وقد عاصرت كلها أشهر الأسماء فى هذه المجالات ويمثلان فى الحالتين فن الرسم الأوروبى، واليوم يمكننا أن نقول فن الرسم فى الغرب ذلك لأن هذه المدارس الرئيسية انعكست آثارها على كل أنحاء أوروبا وما وراء البحار الأوروبية . وعموما فإن نظرتنا على أى مدينة كبرى فى أوروبا من ناحية التأثير الهندسى فى معمارها أو على متاحفها كلها إنما تعبر عن نوع مطمئن من التطابق حيث تتقابل هى مع فنون جيولوجيا تكاد تكون موحدة ومع تماثل فى الألوان من السهل التعرف عليها فإذا ما وجد فى مدينة نمط بارولى وجدنا أخرى ذات نمط عصر النهضة والثالثة ذات نمط كلاسيكى وإن كانت فينيسيا قدمسها نموذج قوطى خاص بما يحمل الأوروبى من أى موقع على سرعة فهم كافة أشكال الفنون التى يشاهدها ويعرفها ويفهم خيوطها دائما بسرعة كأنها نابعة من جذوره .

وما الفلسفات بدورها لإرسالة وحدوية وهى كما يحلو لجان بول سارتر أن يقول فيها: إنها فلسفة مسيطرة على هوى المجتمعات وفق مقتضياتها وظروفها سواء كانت أفكار ديكارت الفلسفية فلسفة طبقة بورجوازية صاعدة أولم تكن وهى

على الرغم من ذلك فى عالم رأسمالى بطلىء التحول تفرض سيطرتها وتملاً كل ربوع أوروبا الكلاسيكية، كالحقول بلاجدال بأن الفلسفة الماركسية فلسفات طبقات العمال الصاعدة وطبقات المجتمع الاشتراكى أوالصناعى البازع، فمن الواضح أنها أقطار سيطرت على الغرب عن طريق سيطرتها على بقاع العالم، وهذه الوجودية فى الفلسفة^(١) تفترض اتصالات نهائية تنتشر من بلد لآخر. ولتأخذ حقتين هامتين من حقب الفلسفة الألمانية تمتد أولاهما منذ ظهور مصنف كانت عام ١٧٨١ نقد العقل المجرد حتى وفاة هيجل عام ١٨٣١ والثانية من هوسيرل.

١- (١٨٥٩ - ١٩٣٨) حتى هيدجير المولود عام ١٨٨٩ ولم يكن ميسوراً إدراك أهميتها دون أن تأخذ فى الحسبان عديد الترجمات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية والروسية التى تصاحب كل مؤلف وكلها تمثل انعكاسات سرعان ماستكمال وتندمج فى حياة أوروبا، وهى هنا من أصول حركتين فلسفيتين ألمانييتين ومن الجدير بالملاحظة فى موضوع مذهب الوجودية من حيث هى مذهب فلسفى أن ترجمتها وتفسيراتها الفرنسية لسارتر وميرلوبونتى هى التى دفعت بها إلى الدنيا كلها خاصة أمريكا اللاتينية، أما العلوم الموضوعية فقد ظلت علوماً أوروبية بحتة منذ طليعة نجاحها وليس من السهل توزيع انتصار إحدى المخترعات ونجاحها على واحدة من الأمم الأوروبية ذلك أنها من حيث هى مخترعات كانت تنطلق وتنتشر فى كل مكان من أوروبا فى وقت واحد معاً وذلك على مراحل تثير استحسان علماء أوروبا واهتمامهم تباعاً، وما من مثل نوره هنا إلا يفيد فى تحرير هذا الواقع ولنكتفى بمثل ثورة كيبلر (١٥٧١ - ١٦٣٠) فهو مرتبط بأسرة من المفكرين وكامن أسلافه كويرنيك ومعاصروه جاليليو وأنصاره وكلهم انتشروا عبر كل الأراضى الأوروبية، ولم تشذ علوم الطب والبيولوجيا كذلك عن القاعدة ولاسبيل مثلاً للتحديد ولو فى زمن مجدد ما إذا كانت علوماً ألمانية أو إنجليزية أو فرنسية أوإيطالية أو بولونية.. إذ كانت دائماً علوماً، أوروبية. أما علم الاجتماع فمن أصول فرنسية كما أن علوم الاقتصاد السياسى وخاصة فى السنوات الخمسين الأخيرة علوم إنجليزية أو أنجلوساكسونية، وعلوم الجغرافيا ألمانية وفرنسية

(١) الوجودية فلسفة معاصرة تذهب إلى أن وجود الإنسان يسبق جوهه تاركاً له حرية الاختيار ومسؤوليته.

فى الوقت نفسه ومن علمائها رانزبل وفيدال ولابلانش وعلوم التاريخ خاصة ألمانية حتى القرن التاسع عشر إذ سيطر عليها اسم ليدبولد دورانك (١٧٩٥ - ١٨٨٦) حيث أخذ على عاتقه تحقيق تاريخ دقيق للقارة الأوروبية وتدخلت فى علوم التاريخ مدرسة فرنسية كانت لها سيطرة من هنرى بير وهنرى بيرين ولوسيان لوفيفر ومارك بلوش وهنرى هوسر دوجورج وارتكز لوفيفر على علماء فى الاقتصاد من أمثال فرانسوا سيمياند وعلماء فى الاجتماع من أمثال موريس هالبراكس وكان عالم التاريخ الألماني ليوبولد دورانك يرى فى التاريخ وعلومه حصيلة تتجمع فيها كل معارف الإنسان فجدد أساليب الأحداث ومنظورها التاريخى، كما يمثل الأدب أكثر أنماط الوحدة غير المتكاملة فى أوروبا ولاسبيل إلا أن نحمد الله على عدم اكتمال هذه الوحدة فى مجال الأدب فالروايات والمحاولات الأدبية والمسرحيات إنما تستند عادة على أشد ما يميز التناقضات الحضارية الوطنية ولهجاتها ولغاتها وحياتها اليومية المعتادة وطرق تأثرها تجاه الألم والسعادة والحزن والحب والموت والحرب أساليب ترجيه أوقات فراغها وأكلها وشربها ومناهج عملها وفيهم تفكر وتعتقد وعبر الأدب تستعيد الأمم شخصيات وأفراداً يمكن تحليل تصرفاتها بل تحليل نفسياتها بفضل تلك الشهادة الأساسية ولاجدال يوجد بين هذه الأنواع من فنون الأدب نقاط التقاء ظاهرة قابلة للبقاء فهى تجيز وترتضى أنماطاً منها: تلك الموجة من الاتجاه الرومانسى الذى ساد كل أنحاء أوروبا وشملها بعد انتشاره وأضفى عليها كثيراً من أضواء العلوم والمعارف توالى بعدها ذلك الاتجاه نحو الواقعية الاجتماعية بعد الواقعية الرومانسية وكانت المؤثرات تضيف انعكاساتها الواحدة تلو الأخرى وكانت انعكاسات «فردية» أحياناً وانعكاسات مدارس فنية ويظل كل إنجاز أدبى يغوص فى اعماق الأوساط الاجتماعية معبراً عنها تعبيراً روحياً خاصة وكل ذلك فى مجال تجربة أصيلة، ولم يعد ممكناً التحدث عن وحدة أدب شعبى وطنى وبالأحرى لم يكن ممكناً التحدث عن وحدة أوروبية فى مجال الآداب. وعموماً فقد ظهرت عقبة رئيسية عقبة اللغة فلم تستطع أية ترجمة أن تثير ادراك الناس لعمل أدبى إدراكاً تاماً، فكانت كل لغة من اللغات الأوروبية الرئيسية تختلس من الأخرى بعضاً من

كنوزها كما وقع من قبل للغة اللاتينية وكما وقع للغة الفرنسية فى القرن الثامن عشر وصارت اللغة الملكية التى امتد انتشارها حيث يمكن اليوم الاكتفاء بلغة موحدة فى مجال العلوم فقط إذ شملت هذه اللغة العلمية فى حقيقة الأمر مرادفات لفظية صناعية لهاسمة العالمية ابتكرت كنوع من التعريف والتقارب يتناولها العلماء ويدركون معانيها ويقدر انتشارها بين العلماء بقدر ابتعادها عن مدارك الكتل الجماهيرية، فاللغة الفرنسية فى القرن الثامن عشر لم تدم على المستوى الدولى إلا بين طبقة الصفوة الضيقة. ترى هل كانت هذه الوحدة الثقافية - بكل ما حققته من نجاح وما شابهها من نقص - كافية لتحقيق آمال أوروبا التى تحلم بإلغاء الحدود بين بلادها؟ والرد بالنفى بلاشك وذلك بحكم انحصار اهتمام علماء أوروبا وأنصار توحيدها سياسيا الأساس فى التعليم على نمط جديد ومتعلق رزقون يتيح للطالب الاستمرار فى دراسته من جامعة لأخرى ومن بلد لآخر. وهم اليوم يهتمون بإمكان إنشاء جامعة أو جامعات أوروبية (المبدأ متفق عليه) تهيئ مجالا عاما للدراسات الأوروبية. ثم أليس هذا الهدف - علميا - هو التنويه بصورة قسرية على اتجاه ونزعات إنسانية وعصرية وحديثة مفتوحة عن آخرها على اللغات الحية وهى بكل تأكيد لغات أوروبا؟

الوحدات الراسخة الاقتصاد

كان يورق أوروبا منذ زمن طويل تحقيق وحدة اقتصادية وذلك لأن حياتها ونشاطها المادى كانا يدوران دائما فى محيط مواقع سيادية أمرّة تتمتع بالامتيازات، فكان كل شىء فى العصور الوسطى الأخيرة يصب فى فينيسيا ومنها يعود إلى الانطلاق ثم انتقل مركز الثقل بعد بداية العصر الحديث إلى لشبونه زمنا انتقل بعدها إلى إشبيلية أو بصورة أدق بدأ يتذبذب بينها وبين أنفوس حتى الربع الأخير من القرن السادس عشر ثم بدأت بعد ذلك فى مستهل القرن السابع عشر تنشأ فى أمستردام ركائز التفوق التجارى حتى بداية القرن الثامن عشر وانتقل النشاط بعد ذلك إلى لندن وظل هناك حتى عام ١٩١٤ بل حتى عام ١٩٣٩ وهناك كانت دائما جوقه (أوركسترا) وقائد للجوقة إذ كانت مراكز النقل هذه تزدهر فى كل زمن بفعاليتها فتؤثر على الحياة الأوروبية كما تؤثر فى كل بقاع الدنيا، ولم تكن لندن بالنسبة إلى أوروبا عشية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ السوق الكبرى للتعاملات الائتمانية ومركز كبرى شركات التأمين البحرى وشركات إعادة التأمين وحسب بل كانت كذلك مركز تسويق القمح الأمريكى والقطن المصرى وكاوتشوك ماليزيا وقصدير باتجكا وبيليتون وذهب جنوب أفريقيا وصوف أستراليا وبترول أمريكا أو الشرق الأوسط. وساد أوروبا رخاء مادى متماسك مشبع

بسياسة مالية ونقدية مرنة متحركة تعززها حركات دوران عبر بحار ومحيطات تحيط بها وقنوات ثم طرق ممهدة تخترقها سواء تلك التي تسلكها الدواب أو العجلات وكانت دواب النقل في وقت مبكر جدا تحقق بغيتها على حواجز جبال الألب عن طريق ممر برميز في اتجاه فينيسيا أوطرق جوهارد أوسيمبولون نحو ميلانو عن طريق جبل سنيس وقد وصفت هذه الطرق المسارات بالانتصارات الكبرى التي حققها قوافل الحمير والبغال حاملة الأقمشة الممتازة الفاخرة ومنتجات الشرق مما أتاح ازدهار الاقتصاد الإيطالي، وانعكست آثاره شمال أوروبا وشمال غربها في القرن السادس عشر وازدهار ليون التجاري بالإضافة إلى ما حققته لها أسواقها ومعارضها، يضاف إلى ذلك مراكب النقل النهري والنقل بالعجلات والعجلات الكبيرة المتخصصة في اجتياز ممرات الألب الوعرة ثم انكسرت منذ القرن التاسع عشر وفي منتصفه بظهور السكك الحديدية مآساة مناطق القارة الأوروبية من حدة التصلب والجمود حيث تقوم حضارة مادية تسودها تبادلات سريعة مع تقدم المدن الصناعية والمدن التجارية. نصرب هنا مثلين: أولهما: المود وهي قوافل السفن الشراعية التابعة للبندقية في القرن الخامس عشر وشبكة طرقها وهي أصلا شبكة بحر أبيض متوسط وإن وصل امتدادها أحيانا إلى لندن وبروغ (منطقة في بلجيكا) مخترقا طرقا برية ممهدة نوعا أخصها ممر برنيز المؤدى إلى فينيسيا حيث يمتلك التجار الألمان مستودعاتهم الضخمة المشتركة قرب جسر رباتو. والمثل الثاني: في القرن السادس عشر هو حركة تداول النقد وخطابات الضمان تتنقل من مكان إلى آخر من صقلية وهي عادة المبالغ النقدية نفسها التي تتداول من موقع إلى آخر في عمليات المبادلات والمدفوعات. ونذكر علة هذه الموجة من ارتفاع الأسعار في بعض المناطق الأوروبية إذ بدأ في القرن السادس عشر ارتفاع ضخم في الأسعار في أسبانيا كأثر من آثار تدفق مفاجئ وفير من المعادن النقدية من أمريكا كان لها آثارها على أوروبا الغربية كلها حتى موسكو - يومها - مازالت تحبو في إطار اقتصاد بدائي . غير أن ذلك لايعنى أن الحياة الأوروبية كانت كلها تسير على الخطى نفسها أو تقف على المستوى نفسه فقد كانت هناك بعض الفروق بين الخط الممتد من

مدينة لوبيك أو هامبورج ليمر بمدينة براغ ويصل حتى الإدريانى يختلف اقتصاديا عن أوروبا المتقدمة الممتدة غربا، بل هناك قلب أوروبا المتطورة مناطق أكثر تقدما ومناطق فى سبيلها نحو التقدم تفصلها عن المناطق المتطورة والمناطق المتأخرة أو التى فى سبيلها للحاق بركب التقدم، ونجد فى بلاد القارة الأوروبية وحتى اليوم مناطق تعد متأخرة مقارنة بباقي مناطق الدولة حيث نجد كل المستحدثات العصرية منجذبة نحو المراكز الأكثر حيوية وانتعاشا، وفى الواقع لاسبيل إلى اقتصاد مشترك بغير اختلافات من حيث القوى المحركة أو من حيث المستوى فهناك دائما مناطق تقود ومناطق تنقاد.... نمو هنا وتأخر هناك ومناطق فى مرحلة التطور بين الاثنين وكلها مرتبهة واحدة بالأخرى، وذلك مايفسره تاريخ البنوك فى فرنسا منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ذلك أن انطلاقها إنما جاء من التعبئة المتأخزة لصالح المؤسسات المطلوب زيادة أحجام أنشطتها مثل بنك الكريدى ليونيه الذى تأسس عام ١٨٦٣ بفضل توفر رؤوس الأموال النائمة أو نصف النائمة (أى غير المستثمرة) وحصيلة إنتاج مناطق وقرى فرنسية انتابتها الصدمة من جراء اليقظة المفاجئة وترتبط بالحياة العامة وتتساءل هل يمكن تنظيم بواكير السوق الأوروبية المشتركة كرباط اقتصادى يوحد بلاد أوروبا رغم ما فى مناطق إقليمية أو وطنية من اقتصاديات مختلفة الأنواع واحدة عن أخرى؟ ذلك ماأسفرت عنه المحاولات التى انطلقت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وقد أثبتت التجارب أن السوق المشتركة أكثر تلك المحاولات تماما وإن لم تكن المحاولة الوحيدة ولا الأولى، وكل ذلك بدأ إثر حالة اليأس التى عاشتها البلاد الأوروبية بعد انتهاء الحرب عام ١٩٤٥ إذ نشأ عدم توازن نتيجة انهيار كامل امتدت آثاره على الدنيا كلها. وكان الوضع فى أمس الحاجة لاستعادة التوازن وبدأت بالإجراءات البناءة التى اتخذت فى لندن ولتكوين لجنة السبع (سبع دول أوروبية) الموحدة فى مايو ١٩٤٧ ثم مشروع مارشال فى ٣ يوليو ١٩٤٧ بهدف إعادة إنعاش أوروبا المحطمة، كما كانت له أهداف أخرى عسكرية وسياسية واجتماعية تحقق لأمريكا به نوع من الهيمنة على قارة أوروبا التى كانت تعيد تكوين نفسها من جديد بغير كوارث الحرب العالمية الثانية، ونكتفى هنا بالحديث

عن القضايا الاقتصادية فنشير إلى فشل الـ (السبعة) التي وصفها أحد الصحفيين بالغرقى السبعة وانفتح بذلك الطريق نحو أوروبا الستة، التي يطلق عليها اليوم السوق المشتركة ، وتثير القضايا المتعلقة بمجتمعاتها كلها والمنشأ في ١٩٥١ ، الإيراتوم وخرج الاثنان من معاهدة روما الموقعة في ٢٥ مارس ١٩٥٧ وكانت حلاً جزئياً غير أن أوروبا إن قدر لها أن تعيد كياناتها حقيقة فلسوف تمتد عمقا ومساحة تستوعب طلبات الاشتراك مع مساهمة تركيا واليونان والدانمرك وإيرلندا وسويسرا والنمسا وإنجلترا وما زالت كل طلبات الاشتراك محل دراسة (يلاحظ عن المؤلف أن كتابه يكتب عام ١٩٦٢ في شهر فبراير) وبذلك فإن السوق الأوروبية المشتركة مشروع قابل للتوسع وإن حرم عالية الامتداد حتى الأورال ليشمل كافة مناطق أوروبا الكلاسيكية وحتى هذه اللحظة يظل انضمام إنجلترا يستحوز على الاهتمام الأكبر إذن .. يمكن عن طريق السوق المشتركة دراسة فرص الوحدة الاقتصادية لأوروبا وقد جاء تكوين السوق المشتركة نتيجة مساعٍ مثمرة ومفاوضات حول معاهدة روما (٢٥ مارس ١٩٥٧) ولعبت شروطها التي دارت حول مناقشات عديدة وعن دورها الفعال منذ أول يناير ١٩٥٨ . ويقتضى الأمر منا أن نحاذر ونحن نتلمس نقد هذه التجربة القصيرة الوليدة فلقد تحقق للسوق المشتركة بعض أسباب النجاح والتقدم بدأت بارتفاع معدل المبادلات التجارية بين الدول المعنية . وعموماً فإن أهم مافى هذه التجربة هو المستقبل إذ يتنبأ المشروع التقدمى لمعاهدة روما بمجموعة من المراحل منها ملاح في أفق العلاقات بين الدول الأعضاء بما يوحى بإمكانية اندماج كلى في الاقتصاد . إذ على عكس التكهات المتشائمة استطاعت صناعات الستة بما فيها الصناعات الفرنسية . التي وصفت بأنها أقل رسوخا من الصناعات الألمانية . كلها التأقلم ومسايرة متطلبات السوق المشتركة حيث اضطرت إلى تعديل أدخلته على كياناتها الصناعية بالاتجاه إلى مركزية تجميع المنشآت الصناعية كمصانع رينو على سبيل المثال أو مجموعات بيشيني أو سان جويان، كما اقتضى الأمر إعادة تحويل قطاع الفحم حيث أغلقت مناجم لم تعد تنتج أودات إنتاج ضعيف وكانت هذه التجمعات المعاد تكوينها مسايرة لحظوظ التطور الضرورى لتحقيق قفزات مثمرة، ومن المؤكد أن

القطاع الصناعى كان الأهم، وأصبح إدخال التقنيات الحديثة أكثر ليونة عن ذى قبل وبدأت الأموال الأوروبية تعرف نوعا من الاستقرار والصلابة فلم يعد الدولار يستحوذ وحده على تلك المكانة التى كان يتمتع بها زمتا طويلا حيث يتوازى مع الذهب بالنسبة للاحتياطي الوطنى فى البلاد الأوروبية وقد شملت هذه الظلال الاقتصادية :

١ - حدود السوق المشتركة الأوروبية.

٢ - الحدود الأبعد من الحدود الأوروبية.

٣ - القضايا والمشاكل الداخلية التى تثيرها أنواع التطبيقات الزراعية . ومن الواضح أن أوروبا «السته» ليست كاملة إذ أن فيها فراغات مهمة ناحية الغرب، كما أن هناك السد القائم ناحية الشرق، هو الستار الحديدي أعقبته بالفعل سوق مشتركة أخرى أى الكوميكون، ولازال دخول بريطانيا هو المشكلة فهو محتمل وغير محتمل فقد ثار أومثار منذ عام ١٩٦١ وتلك قضية صعبة لاشك أوسيكون على إنجلترا أن تتحلل أو على الأقل تباعد عن ارتباطاتها بدول الكومونويلث والتخلى عن نظام الاقتصاد التفضيلى وهو نظامها الاقتصادى مع أقطار إمبراطوريتها السابقة إذ يخلق هذا الوضع على الصعيد الاقتصادى قضايا ومشاكل عديدة منها على وجه الخصوص ضرورة موافقة دول الكومونويلث، ويعنى ذلك معنويا ونفسيا أن على بريطانيا أن تقلب آخر صفحة فى سجل المؤسسات العظمى التى تحققت لإمبراطوريتها ولم يعرف التاريخ لها مثيلا. كما أن هناك أيضا مشاكل ومع سائر بلاد العالم خاصة مع بلاد أفريقيا الشمالية (باستثناء مصر وليبيا) ومشاكل العلاقات مع دول الكومونويلث غدا والمشاكل التى بدأت عام ١٩٦٢ مع أسواق الولايات المتحدة الأمريكية وهى أسواق عملاقة تستطيع التهام السوق الأوروبية الوليدة، وبإجاز نحد أوروبا مرحلة أولى تليها مرحلة الاطلنطى مرحلة ثانية وبلاد العالم مرحلة ثالثة، على الأندسى أن لهذه المشاكل طابعها السياسى أيضا، ومعروف أن السياسى لايتدخل لتبسيط المشاكل، وتبدو المشاكل الزراعية لأول وهلة أكثر تعقيدا وهى تمثل المستقبل الرئيسى للسوق الأوروبية المشتركة. ذلك أن هذا التطور غير القابل للتفاعل بين عالم رائع .. عالم

الفلاح الأوروبي بجذوره الكامنة فى أعماق التاريخ، وما هو معروف من تواضع إنتاجيته، وعالم الست دول ومجموع سكانها بملايينها المائة والستين من بينهم ٢٥ مليون فلاح بأسرهم، ويعلن مستر مانشولت وهو وزير هولندى قديم: أن ثمانية ملايين فلاح سوف يتحولون إلى أعمال أخرى غير الأعمال الزراعية خلال الأعوام القادمة. وكان هذا الوزير- يوم أن صرح بذلك- نائباً لرئيس السوق المشتركة، أما الزراعة فقد تكون حصلية زيادة الإنتاجية وانخفاض عدد العاملين تتطلب هذه الإنتاجية المتزايدة ميكنة متقدمة فإن أوروبا على سبيل المثال إذا ارتفع دخل الفرد فيها لجأ إلى شراء سيارة وجهاز تليفزيون واقتناء عدد من الكتب والملابس وخرج فى بعض الرحلات السياحية وذهب إلى المسرح ولكنه لايزيد من استهلاكه للخبز أو اللحوم ونرجو ألايزيد استهلاكه للبيذ والكحوليات. نخلص من ذلك إلى أن الموارد الزراعية تزيد على مستوى التصاعد نفسه فى القطاعات الأخرى فقد وجب على كل فلاح من ثلاثة مغادرة الريف قبل حلول عام ١٩٧٥ حتى تغل مساحة الأرض المزيد لعدد أقل من المنتجين وتشير دراسة للإحصائيات المتوافرة إلى حاجة إنجلترا إلى ٢٢ سنة وفرنسا إلى ٢٧ سنة لتحقيق هذا التحول من العمل الزراعى إلى أعمال أخرى، دون ذكر ماعسى أن يتوقع من مفاجآت فى إيطاليا وفيها أكبر وأضخم كتل من زراع وفلاحين أو مايقرب من أربعة ملايين ونصف المليون. ولذلك فليست المنتجات الزراعية الأوروبية تنافسية على مستوى السوق العالمية حيث يغرق فائض المنتجات الأمريكية الكندية الأسواق بأسعار زهيدة جداً بل بأقل من أسعارها فى أسواقها الخاصة بفضل الإعانات الحكومية. ولم تتمكن المنتجات الزراعية الأوروبية من الأسعار المرتفعة إلا بفضل الحمایات الجمركية التى تعزلها عن السوق الدولية.

وتكمن المشكلة العويصة الثانية التى تواجه السوق المشتركة فى الفرق الكبير فى مقدار المنتج الزراعى وبين أسعاره وفق كل بلد، ففى فرنسا حيث يجمع لها فائض لاتستطيع تصريفه خاصة فى الحبوب لإبسعر السوق الدولية مما تضطر معه الحكومة إلى شراء الفائض بالسعر الداخلى للسوق ثم إعادة بيعه للخارج بالخسارة ومن ثم عام ١٩٦١ بيع القمح والذرة الفرنسيين فى الأسواق الصينية

واللحوم المجمدة فى روسيا وقد حدث الشيء نفسه لإيطاليا فى الفاكهة والخضراوات وفى هولندا فى منتجات الألبان حيث واجهتها مشكلة الفائض. أما ألمانيا فهى على العكس مستوردة لكثير من المنتجات الزراعية ولكنها تشتري من خارج السوق الأوروبية المشتركة حيث تختلف أسعار الحاصلات الزراعية من بلد لآخر وفق الإنتاج والحماية الحكومية التى تضطر الحكومات إلى إسباغها على مزارعها، وهكذا نجد سعر الحبوب الفرنسية هو الأقل وسعر الحبوب الألمانية هو الأعلى، وأدنى سعر للألبان فى هولندا.. إلخ وينهض السؤال المطروح: على أى مستوى يكون توحيد الأسعار؟ ولما كان ضروريا فى خاتمة المطاف إدخال التحسينات العصرية على القطاع الزراعى مع الكلفة الباهظة فمن الذى يتحمل تلك الأعباء الضخمة؟ وتجئ ما اتفق عليه من حلول فى بروكسل فى ١٤ يناير ١٩٦٢ لوضع هذه الأعباء فى حساب المجتمع الأوروبى عامة ولم يكن الحل لصالح ألمانيا لأنها دولة صناعية فى المقام الأول، ولكن الدول ذات الإنتاج الزراعى الوافر كفرنسا وإيطاليا وهولندا رفضت الانتقال إلى المرحلة الثانية من التصنيع مالم تتجدد السياسة الزراعية، وكان بعد مناقشات ومجادلات استغرقت زهاء مائتى ساعة من الجدل حتى أصبح مصير السوق المشتركة فى مهب الريح أن أحرزت المباحثات تقدما مئمرًا جدا بواحد من الصحفيين الذين تابعوا المناقشات الطويلة إلى التصريح مبسما «استطاعت أوروبا بمرح ابتلاع الصلب والفحم والذرة وهى تتراجع أمام الخضراوات والفاكهة»، ونص الاتفاق على آجال ولا يبدأ تطبيقه والإجراءات الأولى إلا فى يولييه ١٩٦٢، وأدركت الحكومات والنقابات الزراعية على كل حال أن الوقت أمامهم محدود للبدء فى حتمية التطبيق واستقر الرأى على حرية انتقال المنتجات الزراعية مع سداد الضرائب التعويضية على الفروق بين مستوى السعر، ويحتاج المبدأ بالضرورة إلى تحديد المؤسسات ومراكز الرقابة والقواعد وتفسيرها أى توقع بحالات لقضايا عديدة. وفى الوقت نفسه كان على الأعضاء السنة إقامة نظام جمركى موحد على حدودها المشتركة تحتسب تجديدها على متوسطات التعريفات الخاصة بكل عضو من الجماعة وإلا اضطرب التوازن الداخلى بحكم تفاوت الإغلاق، وهكذا تحققت وحدة جمركية يضمها اقتصاد مشترك، وبعد: هل نتوقف عند هذا الحد؟ لافقد ظهرت مشكله أخرى.. مشكلة الوحدة السياسية.

الوحدة السياسية التي لا تتحقق

للوحدة الثقافية نقول نعم وللوحدة الاقتصادية قد نقول نعم أما الوحدة السياسية فعلى العكس لا يمكن لأن السياسة مترددة ... متحفظة ولديها مسوغاتها وأسبابها أحيانا طيبة وليست كذلك وأخرى بل هي خاطئة وترد بها على اهتمامات تشغل بالها، وكذلك على أباطيل (من القرن التاسع عشر حتى عهد قريب بل وبصراحة إلى عهود مستقبلية ... هكذا كانت السياسة دائما وتثبت الحقيقة لنا أن أوروبا انغمست منذ عهد طويل في خضم اللعبة السياسية فما من بلد فيها حاول الابتعاد عنها إلا واجهته احتمالات ضياع ذاتيته نفسها، ولم تكن هذه اللعبة السياسية بالقطع تهدف إلى نوع من وحدة الفكر بين دول القارة بل على العكس من ذلك فقد قامت بتقسيمها إلى مجموعات تغيرت عناصرها وتنوعت دائما وكانت القاعدة السائدة إبعاد أى شكل من أشكال السيطرة أو الهيمنة عن فرض إرادتها على كل أعضاء الأسرة الأوروبية من دول: وليس ذلك بالطبع احتراما لفضيلة حرية الآخرين، فكل دولة تلعب دورها في لعبة السياسة لصالحها الذاتي فإذا ما أدت دورها بإتقان فسرعان ماتجد نفسها يوما وقد تحالف ضدها الآخرون، كان هذا المبدأ إجمالا هو التوازن الأوروبي وتساءل: هل تخلت أوروبا عام ١٩٦٢ حقيقة عن هذه اللعبة القرينة (كل قرن) ؟

نجد القرن التاسع عشر وقد مورست فيه اللعبة السياسية دون توقف لم يبتدع التوازن ولا التناغم الأوروبي ولا توازن القوى، فإن هذا الوضع يرجع إلى تقديرات رؤسائهم؛ إذ كان وضعاً جبرياً فرض نفسه على دول أوروبا وهو على العكس من ذلك، كان توازناً عقوياً تلقائياً نصف إدراكى

فرض فرضاً على رجال السياسة وكانت القاعدة دائماً هي فما إن تبدو دولة قوية ولوظاهراً أوطأ حتى يتكاتف جيرانها الآخرون مجتمعين في الكفة المواجهة لتعود إلى رشدتها وتعقلها وحكمة تقديرها كحالة فرنسا في عصر فرانسوا الأول (١٥١٩-١٥٢٢)، وهزيمة بافي، وكان أسر الأسبان ملك فرنسا بمنزله خطأ وقع إذ كان الرجل قويا جدا إنه شارك (ملك أسبانيا من أصل جرمانى) وكانت قوته أكثر مما ينبغي بحيث استدعى الأمر تكتل كل القوى في الكفة المواجهة فضلا عن دعوة الأتراك إلى المساهمة في هذه اللعبة.. لعبة التوازن ثم أصبح تصاعد قوة الدول الأوروبية يمثل خطورة على الحسابات غير المؤكدة

أوهى أقرب إلى الحسابات الوهمية، وكانت إنجلترا المنفصلة عن القاهرة وحدها القادرة بلا عقاب على ممارسة لعبة توازن القوى بعيداً عن أسلوب الميزان الترجيحي هذه فهي تكفى بممارسته وصيانتها بنفوذها وقواتها وخاصة بنفوذها وكثيراً ما لعبت دورها ضد فرنسا متحالفة تلقائياً مع أعداء فرنسا فلما انتصرت ألمانيا على فرنسا عام ١٨٧١ حيث كانت وراء إنجلترا وأوروبا رغم انقساماتها لم ترفع الصيحة أن قف عند حدك.. لا تتعجل.. وأصبحت ألمانيا قوة كبرى بفضل طفرتها الاقتصادية بعد عام ١٨٩٠ وتصاعد عدد سكانها فقد تم عندئذ إعداد اتفاق ودى أعقبه تحالف بين فرنسا وروسيا وسط أعداء لها (ألمانيا) وكانت ألمانيا من القوة بحيث رفضت الإذعان لهذا الحصار كما لم تكن من القوة بحيث تتمكن بقوتها وتفوقها على أعدائها، فأدركت أنها بالحرب وحدها تستطيع الخروج من هذا المأزق، واليوم يمر العالم بهذا النمط المؤذى من التوازن زحف على العالم من أوروبا ليشمل أقطار العالم كله وبذلك عاصرنا المعسكرين الشرقي والغربي وبينهما تحاول الدول المحايدة الطريق الثالث الذى لا يصلح قيامه بغير سند من قوة فعلية تتبع منه.. وهكذا نرى العالم يأخذ بنظام قديم بالٍ أثبت عقمه وقد يؤدي إلى

انقسام الجسد كله كما حدث للجسد الأوروبي مرات، وكان فشل الوحدة بالعنف هو الدرس الوحيد من هذ الحكاية المملة حيث ثبت للكافة أن العنف لم يكن بالقدر الذى يمكن أحدا من السيطرة على البيت الأوروبي كله ونكتفى هنا دون الرجوع إلى الوراء كثيرا عن شارلكان ونسوقف قليلاً ولو لحظة عند شارلكان (١٥٥٨/١٥٠٠) وهو أقلهم كرها وأكثرهم لطفاً وحظاً فى محاولة السيطرة فقد كانت تراوده أحلام الاستيلاء على كل الدول المسيحية حماية لها تحت سلطانه ودفاعها ضد أعدائها من الكفار، المسلمين ومن ثم إعادة إصلاحها ولقد تنامت هذه الأفكار لدى شارلكان عن تراث قديم أورثتها إياه الحروب الصليبية الأسبانية ولم يكن ينقص شارلكان شيئاً فقد توفرت لديه كل المساندات اللازمة أمثال أصحاب البنوك، فوجر، وكانت لديه دبلوماسية غير منقطعة النظير كما كانت له سيطرة على التجار ثم ترواث أمريكا وكنوزها آخر الأمر، وأصبحت أسبانيا فى عهده الفيض الذى انسابت مياهه لتستغل مناجم الذهب فضلاً عن أموال المناجم الأمريكية على حساب الموازين التجارية وإن كانت لصالح الضرورات السياسية .. فهل فشل أمام فرنسا كما قيل؟ الرد لا ونعم، فنعم لأن شيئاً من هذا النجاح لم يتح له ولم يكن ليتيح له السيطرة على بلد ضخم كفرنسا فوجد نفسه (أسبانيا) فجأة وقد وقع فى قلب هذه الدول فقرر مرغماً عام ١٥٢٩ توقيع معاهدة السلام الأبيض ثم تلا ذلك فشله إزاء ألمانيا البروتستانتية (١٥٤٦-١٥٥٢-١٥٥٥) ثم تحقق فشله آخر الأمر إزاء الإسلام التركى الذى استنفد قواه وقواته وأصبح الإسلام على أبواب قيينا يهددها ويشن الغارات على السواحل الأسبانية نفسها حتى جبل طارق وما وراء جبل طارق. وواقع الأمر إنه التواطؤ الأوروبى الذى انتصر على شارلكان.. بكل الوسائل.. بما فيها التحالف الشائن رغم كل شىء.. مع السلطان (يقصد سلطان تركيا) (على الرغم من أن ذلك كان على حساب الإسلام، لولا ذلك لكان الإسلام قد عم كل أوروبا حتى اليوم)

ولم يسيطر لويس الرابع عشر على أوروبا إلا خلال سنوات التدهور الاقتصادى فى القرن السابع عشر إذ نشأ نوع من التراجع فى القوى التقليدية بما توفر لها من إنتاج استفادت منه فرنسا بطاقتها الزراعية وقدرتها الرأسمالية المتواضعة بحيث تمكنت من وضع قدمها على أول الطريق حتى وافاه كولبرت ١٦٨٣، ولما استرد الاقتصاد العالمى قوته حول عام ١٦٨٠ إذ اللعبة سرعان ما تبدأ ففى عام ١٦٧٢

فقد حرمت الفيضانات التي اجتاحت الأراضي الهولندية على الجيوش الفرنسية دخول أمستردام وفي عام ١٦٨٨ أصبح وليم أورانج سيّدا على إنجلترا بشكل معين وفي عام ١٦٩٢ خرج أسطول نورفيل من المعركة عمليا في معركة هوج (بعد انتصاره على الجيوش الهولندية والإنجليزية) ولم تستطع فرنسا أن تواجه أعداءها في حروب وراءها أسبانيا كما لم تتمكن كذلك من الاستيلاء على أيبيريا ومايتاخ لها من ثروات قادمة من مستعمراتها (أسبانيا) في أميركا الأسبانية (أمريكا اللاتينية) ونتساءل ألم يحل بمغامرة نابليون المصير نفسه؟ كم من انتصارات حققتها المغامرة كما وقعت هزيمة ترافالجار (الطرف الأغر) فكانت هزيمة وخسارة لاتعوض (١٨٠٥) وبينما كانت الغزوة الفرنسية أسيرة أوروبا الشاسعة كان في طوع أنجلترا التحرك على الاتساع المائي إذ كان يكفيها مائه وخمسون هيكلاً خشبياً لتفرض عدم منع المرور من مضيق كالية حيث يعتقد في إمكان تجاوزه الوثوب منه عام ١٨٠٥ وكذلك كان مضيق مسينا ونابولي في أيدي الفرنسيين أوسلطان مراد (سلطان عثماني) وتبقى صقلية ملجأ لأسرة اليوربون، ولكن واجهت نفس المصير ألمانيا الهنترية التي تحالف عليها وعلى خطورتها وتهديداتها العالم كله أو أغلبه على الأقل، فهل تتمكن السوق المشتركة والوحدة السياسية الأوروبية من تحقيق ذلك اليوم بغير عنف بل عن اقتناع من الشركاء وإرادتهم؟ يلوح في الأفق لهذه الوحدة رسم ظاهر.. تحوطه الحماسة وإن أحاطت به مع ذلك الصعاب الحقيقية ولقد ذكرنا بعضا من هذه الصعاب خاصة في أوروبا الغربية التي وحدها المتعرضه لها (وقد اضطر المسئولون إلى إنشاء «أوروبا» بما تبقى من البلاد ضارين عرض الحائط باحتمالات ظهور العقوبات وتصاعد المصاعب على صعيد كل من الاقتصاد والسياسة. وكذلك التوازن الدولي وضروراته وما أشار إليه أحد ملاك المصارف العالمية وهو يقضى بما لدى بعض المناطق في العالم من مخاوف أن تؤدي الوحدة الأوروبية إلى نوع من ممارسة تعصب عنصري تجاه بلاد العالم الثالث (١٩٥٨/١١/١٤) بفضل ما تتمتع به من حرية الاختيار إذ هي تفضل المنتجات القادمة من أفريقيا الاستوائية جنوب الصحراء الكبرى وتفضلها على منتجات أمريكا اللاتينية غير أن أول الصعاب إنما كانت داخلية تتعلق بالمؤسسات ولم تكن يقينا من تلك التي يسهل عليها إيجاد

حلول لمعاهدة أو التوصل إلى نوع من التراضى والوفاق .. فهل تستطيع حكومات دول أوروبا كما قال دييجول (الجنرال دييجول) أن تتنازل عن بعض حقوقها السيادية وتضحى بها ... ويصرح أندرية فيليب فى الثامن من أغسطس ١٩٥٠ بقوله فى المجلس الأوروبى : منذ عام قبل مجلسنا تقاديا للخلاف كثيرا من الحلول التوفيقية وكانت النتيجة .. لاشيء تحقق .. ولن يحفل بنا الرأى العام إذا جئنا غدا وفشلنا فى إقناعه بأن حضورنا كان لإقامة أوروبا بشكل واقعى حقيقى ورجل السياسة نفسه هو الذى كان يهدد فى ١٧ أغسطس بتحقيق حدة أوروبا. فى مكان آخر وكان بعد إحدى عشرة سنة مرت على السوق الأوروبية المشتركة أن صرح هنرى سبال وزير خارجية بلجيكا فى ١٠ يناير ١٩٦٢ ببروكسل عشية توقيع الاتفاقية الزراعية يوم ١٤ يناير .. صرح بقوله .. كل شيء يقودنى إلى الاعتقاد بأنه لا أمل فى وحدة أوروبية فعالة بدون جنسيات سامية فأوروبا الأحزاب مفهوم قاصر ولسوف أحارب مبدأ الإجماع وحق الفيتو (الاعتراض) ماحيتت إذ عشت التجربة فى الأمم المتحدة منذ أسابيع وعاشت حق الفيتو السوفييتى وعشت تجربة مماثله فى مجلس حلف الأطلسى فى تجربة من زمن قريب حول القضية الألمانية ومشكلة برلين وموقف جهة واحدة منعت الحلف من اتخاذ موقف حاسم بناء لياساعدنى مانزاه حاليا فى قصر المؤتمرات بشأن القضايا الزراعية على تغيير رأى، ففى هذه الظروف وخلال هذه المناقشات أحاول البحث بغير جدوى عند فكر مشترك فكل واحد يدافع عن مصالح زراعية، فإذا لم تكن قاعدة الإجماع هذه قائمة لتقدمت مباحثات مجلس الستة بسرعة .. إنهم يعرضون علينا أوروبا حزبية فى محيط السياسة الخارجية فماذا نفعل سوى الصياح والجلبة فمثلا كان ممكنا أن تتفق خمس دول على موضوع الصين الشيوعية فيتمكن السانس من تجميد كل القرارات، وأسائل نفسى: أليس جميلا أن نتخلى فى هذا المجال عن تلك النزعة العرقية المتفوقة؟

كانت كل هذه الحجج والبراهين شيئا جيدا ولكن قاعدة «الأغلبية» ليست ضرورة هى الترياق المعالج لحل المشاكل فيمكن مثلا تكوين أغلبية بالمساومات أو باتفاقات ودية بين مجموعات وهى ما يطلق عليها فى المؤتمرات مباحثات الكواليس وهى لاتمثل بالضرورة سياسة متماسكة أو أكثر ترفعا من تلك المساومات

بشأن حق الاعتراض (الفيتو) وتبقى المشكلة الأساسية وهى معرفة مدى ماقد تصل إليه الاتجاهات السياسية للأعضاء الحاليين فى السوق الأوروبية المشتركة والاتفاق على الأقل على بعض الخطوط الرئيسية ذات العمق، وإلا فما نحن إزاء هذه للمغامرات المحفوفة بالمخاطر.. مخاطر «التوازن الأوروبى»، هاهى تنشأ فى منزل للقارة الأوروبية الجديد! لكن الوحدة المستهدفة معبرة عن قرارات حرة كما يقول ويكرر أتباعها غير أننا سمعنا رجل أعمال ألمانيا عام ١٩٥٨ يصرح بقوله: لا أوروبا النابوليونية ولا أوروبا الهتلرية يمكنها إثارة الانفجار فى اللحظة التى تسترخى فيها قبضة الدولة المهيمنة، ولدينا أمام عيوننا مثل حى هو تلك الدول المجتمعة فى حلف وارسو من حول الهيمنة الروسية التى تسيطر على مقدراتها الاقتصادية والسياسية لصالح روسيا كذا ونحن بهذا الاستشهاد بالواقع من خلف أسوار حلف وارسو إنما نذير الطريق ولتوضيح زوايا المشكلة من بين مئات أخرى والمقصود بالنسبة إلى الكثيرين هو تجميع دول أوروبا لمواجهة الخطر السوفييتى وهذه هذ السياسة الأمريكية سياسة الدرع ضد الاتحاد السوفييتى وكان بول رينر رئيس وزراء فرنسا وخلال مناقشات مشروع تشومان فى ١٥ ديسمبر ١٩٥١ واضحا حاسما حيث قال: لنتذكر أن الفضل فى إهمال سياسة البنتاجون (أوان التخلي عن سياسة البنتاجون) التى تستهدف الدفاع عن أوروبا فوق جبال البرانس إنما يعود إلى الجنرال أيزنهاور إذ مافتىء يكرر أن البلاد الأوروبية وفرنسا على رأسها تريد أوروبا .. ولتتخليلوا بأنفسكم نتائج رفض المشروع ويمكن فى مواجهة هذه الحسابات بمعالمها السياسة الواضحة فضلا عن المعالم العسكرية كذلك أن نتخيل معالم أخرى أكثر عقلانية لأنها أكثر واقعية، ولنر كيف وصف السنانور أندريه ارينجو فى محاضرتة القيمة (فبراير ١٩٦٠) بصفة عنصر فى المجلس البرلمانى الأوروبى. إن أوروبا فى حيرة بين انطلاقة اقتصادية اشتراكية ولدت عام ١٩١٧ فى بنروجراد قال فيها كل علماء الاقتصاد بأنها سوف تكون بدون غد وبين حملة التحرير على المستوى العالمى تحرير الشعوب التى استعمرتها أوروبا وعلى أوروبا إعادة تنظيم نفسها بشكل ثورى لادفاع المكسب الرأسمالى الوحيد الذى يخلق هذه النظم الحاكمة التى تبقى كل المزايا فى أيدي أقلية محظوظة ولكن بأقصى استخدام للأيدى العاملة وبذلك تتمكن من قلب ضغط التجار تماما .

حاشية

لم يتقدم بالقارة الأوروبية ذات الأعضاء الستة العمر بالسرعة التى يتمناها أنصارها العقلاء أوحى الذين تحمسوا لمولدها، ولم ترغب إنجلترا التى كان لها أخطاؤها فى الحكم على الأمور فى أحيان كثيرة فى أداء ثمن دخولها وقطع المفاوضات فى يناير ١٩٦٣ بإشارة من الجنرال ديغول، وكان فشلا واضحا لعله مؤقت غير أن وزنه كان ثقيلًا على أى حال ولن تستطيع أوروبا أن تكون غدا القوة الثالثة فى العالم تمتد لتشمل أكبر عدد ممكن من شركاء، ولقد انضمت تركيا عام ١٩٦٣ وتجرى المباحثات لانضمام أسبانيا والنمسا وربما الدانيمارك وفى أفريقيا نيجيريا، ولقد نشأت بعض الصعوبات الاقتصادية أمكن إيجاد حلول لها رويدا رويدا، وهكذا تنشأ أوروبا الزراعية ببطء (اتفاق ١٤ يناير ١٩٦٢) و٢٣ ديسمبر ١٩٦٣ وهما اتفاقان تحققا بصعوبة: اتفاق على أسعار مشتركة للحبوب بدأ يسرى منذ ١٥ ديسمبر ١٩٦٤ (بصعوبة أيضا) ويبقى الاتفاق على سعر لحوم الأبقار ومنتجات الألبان، ولكن العقبة ليست اقتصاديات فقط برغم أن الاقتصاد هو الذى مهد الطريق للوحدة وأقحم الدول والحكومات فى مسار تراجع عنه ومنذ ذاك بدأت السياسة تعرض مشاكلها الملحة: ضم ودمج المؤسسات وإنشاء سلطات تتخطى الحدود القومية .

وإقامة برلمان وحكومات أوروبية كما تبقى كذلك ضرورة تحديد قواعد الأراضى الزراعية المشتركة كما يحتاج الأمر إلى تذليل العقبات التى تواجه اللجنة التى تكونت فى يناير ١٩٦٥ وظلت هذه العقبات أزمة حتى يناير ١٩٦٦ تعوق أعمال الأعضاء الستة، وفى ٣٠ يناير ١٩٦٦ وقع على اتفاق إلا أن فرنسا رفضت أن تتعرض مصالح قومية أساسية لقرارات تصدر من أغلبية ما. واتضح أن أوروبا المراد إنشاؤها لازالت أسيرة مشاعر قومية كثيرة عريضة متنبهة ليست فرنسا وحدها .. للأسف هى المثل .

إن هذه الحكمة الداعية إلى وضع المشاكل لابعقياى الريح فى ذاته بل بمقياى الدفع إلى التناقى بين الشرق والغرب لتحقيق أفضل حل للمشاكل والقضايا الإنسانية فى مجتمعات القرن العشرين، فهل من أمل فى الاستماع إلى مثل تلك الحكم الرزينة؟ ولاتصبح المشكلة ماإذا كانت الوحدة الأوروبية سوف تتحقق أم لا؟ وهل هى قابلة للاستمرار أم لا؟ بل تكمن المشكلة الحقيقية فى ما إذا كان لديها أمل فى أن تتقبلها الكتلتان اللتان تتقاسمان السيطرة على العالم فكل منها قد تتخوف من الاتجاهات الاقتصادية أو السياسية لهذه الوحدة. فهل يمكن لهذه الوحدة أن تتولد منها أوروبا واحدة هادئة مستقرة متكئة على ازدهارها وفيها ألمانيا منعقة تتقبل التعديلات المتوقع حدوثها فى حدودها القديمة أم تتولد أوروبا عدوانية، هل نقبل أوروبا أن تلقى بوزنها فى حل مشكلات البلاد النامية وهى مشكلات تواجه الجميع فى عالم اليوم المقربط بلا فكاك؟ أم هى أوروبا التى نعتقد أنها غير قادرة على أخذ مكانها لتلعب دورها فى المستقبل أم تظل حبيسة تلك الحسابات الضيقة .. حسابات الأمم .. أم أوروبا فحسب آخذة فى اعتبارها هذه المطامح القديمة البالية؟ باختصار أوروبا المبدعة كعنصر تهدة .. أو أوروبا الروتينية كعنصر إثارة التوترات؟ وهذا هو ما يثير التساؤل مطروحا أمام عالم الغد: حضارة أوروبا .. وما زالت تستطيع تجاه عالم الغد أو لعالم الغد؟ هل نحن فى حاجة إلى أن نذكر أن هذا التساؤل ليس ذا أهمية فى اهتمامات بناء أوروبا حيث تدور مناقشاتهم حول الجمارك، المتبادلة ولايتحدثون إلا بلغة الحسابات والأرقام ولايستعدون عن إطار التقنيات وأعلامستوياتها وحول خبراء التخطيط ولأحد ينكر جدواها وضرورتها.

ولم تعد أوروبا اليوم تلك القارة المثالية المثقفة إذ نجى فى ذيل قائمة البرامج التعميرية ولم يعد لديها هذا الاهتمام الصوفى القديم ولاتلك الأيديولوجية ولا تأبه لتلك الحياة الهادئة شكلا .. حياة الثورة أوالاتجاهات الاشتراكية بل ولأحياة القصيدة الإيمانية الحية .. إذن لن تكون أوروبا إذا لم تستند فى خطواتها إلى هذه القوة القديمة التى صنعتها ولا تزال تتعامل معها وفيها بعمق .. وفى كلمة واحدة .. إذا ما أهملت كل تلك النزعات الإنسانية الحية .. وليس لديها الاختيار فيما أن تستند إليها كلها أو .. تتضافر حتما لدفعها وإغراقها فى يوم شؤم .. إن أوروبا الشعوب .. أمل وبرنامج جميل يظل فى حاجة إلى صياغة .. وتشكيل.

أوروبا عام ١٩٨١ مذكرة بقلم: بول بروديل

فى عام ١٩٧٨ اقترحت جامعة بوكونى فى ميلانو على «بيت علوم الإنسان، الذى يديره فرناند بروديل أن يشتركا معا فى إعداد دراسة واضحة بناءة للمشاكل والقضايا التى يثيرها توحيد أوروبا. وكان بعد ثلاثة أعوام فى عام ١٩٨١ بمدينة ميلانو أن أعلن فرناند بروديل أن تذكر ماوافق عليه من قبل متحمسا وعن عقيدة بأن المحاولة جديرة بالاعتبار لسببين على الأقل ذلك أن أوروبا - وخاصة أوروبا التى لا يزالون يطلقون عليها «القارة الصغيرة» - ولو كبرت فجأة بحجم مشاكلها حيث تنتقل من الأعضاء الستة المشتركين إلى تسعة فليست أوروبا إلا إحدى البدائل وليس الأمر مسألة عقيدة، بل حقيقة تبرز أمام عيوننا وتتجسد كإحدى الحقائق الهشة وغير المؤكدة ولعلها مؤقتة وإن كانت غامضة يقينا فهى فى آن واحد إحدى الحقائق .. وإحدى الحريات، وهى فى الوقت نفسه إحدى الضغوط على كل منا بدوره مكابذتها.. ونحن نتعلم أن نعيش عليها بأسلوب أو بآخر.. ونعرف مسبقا كل عناصر ضعفها وكل ماتبرزه من أثره وأنانية وهى لا تنجح فى إخفائها أو إسدال قناع عليها وأدنى من ذلك أنها لا تنجح فى السيطرة عليها ولكننا نعرف كذلك كل ماتتيحه وكل ماتقدمه وتجلبه لنا.. وذلك فضلا عن أننا نذكر أن فشلها سيجر علينا من الخسائر الكثير.. لعلها تأخرت كثيرا فى الوصول إلى رأى

لوسيان لوفيفر الذى يجب علينا على أى حال - أن نعترف بفضلته فى تغيير معطيات المشاكل الأوروبية وأبعادها.. مشاكلنا كما تمكن من عرضها بجلاء وعبارات جديدة وعلينا نحن اليوم مواجهتها والتعرض لها والتصدى لمواجهتها بما إننا جندنا وأشركننا معنا كل المتخصصين الذين يتبادلون التفسيرات لعلماء وأخبراء متمرسين جاءوا من كل أنحاء أوروبا بغير استثناء وأحب إلى جانب هذا المنطق المتعقل أن أضيف سببا آخر هو بلاشك شخصى، فقد أحسست دائما وأيدت أن الوحدة إذا كانت ضرورية لعلوم الإنسان ويجب أن تتم حول التاريخ فلن يدرك التاريخ النجاح إلا إذا صار ماكان يجب أن يكون دائما.. على الواقع الراهن ... على أنى بصفتى مؤرخا وحريصا على التحقيق والتدقيق لما كان بين القرن الثالث عشر والقرن الثامن عشر من ظهور رأسمالية بدت لعيون كثيرين منا وليدة، أعترف بتساؤلى كيف لم يثرعجبى ما كان من تتابع ظهور المشاكل التى تواجهنا وتعرض لها، وكان هناك سباق بين الاقتصاد والدولة وفى هذا السباق كان هناك التهديد، إن الاقتصاد يلحقه شىء وقد نجح وأقام على نجاحه أمام عيوننا الأخذ بالمبادرة وهو نجاح لم يكن دائما لاسهلا ولا منتظما غير أن الاقتصاد استطاع أن يتفادى ويتهرب من القواعد التى تبحث عن فرضها عليه أو أردتم أن يعدل لصالحه من قواعد اللعبة.. بالنسبة لى... هو درس معارض النزعة فى القرن السادس عشر أو بورصة أمستردام فى القرن السابع عشر وهو مايجرى أمام عيوننا ولايستطيع المبتدئ ملاحظته.. ربما لاحظ فقط الانعكاس أما أنا فلم يفاجئنى ولايفاجئنى ولكنه ومع ذلك يثير إعجابى.. وأتمنى لاجتماعكم كل مايستحقه من نجاح وأحىي والمنظمين والمشاركين فى الندوة وأحىي رئيس الجامعة جاسبيرانى ولا بوكونى وإيطاليا كلها وأوروبا الغالبة التى تسير فى طريقها للتشكل من جديد.

فرناند بروديل

الجزء
الخامس

أمريكا

الفصل الأول

العالم الجديد الآخر
أمريكا اللاتينية

العالم الجديد الآخر أمريكا اللاتينية

تضم القارة الأمريكية وحدتين ثقافيتين كبيرتين هما أمريكا لا أكثر الولايات المتحدة الأمريكية وتضم إليها كندا التي تقتفى أثرها، أى بإيجاز العالم الجديد بكل معناه... عالم روائع التحقيقات والإنجازات، إنجازات الحياة القادمة، أما أمريكا الأخرى الأكثر مساحة وتشمل نصف القارة وأطلق عليها اللاتينية منذ ١٨٦٥ بما فى ذلك من التلميحات فهى متعددة الدول ومنقسمة بعضها على بعض وعاصرت أحداثا درامية مزقتها ويرجع البدء بالحديث عنها إلى تفادى المقارنة المباشرة حتى لا تسحقها مسبقا تحت وطأة التقدم المذهل الذى حققته أمريكا الشمالية ولكى لا تغمط حقها فى رؤيتها بصفاتها العالية وعرض مشكلاتها وقضاياها الخاصة وبعض ما حققته من تقدم واضح أو كانت فى الحقيقة بالأمس أكثر تقدما من الأخرى فقد كانت طليعة أمريكا الثرية فجعل منها ثراؤها مطمع الكثيرين ثم دار الحظ دورته فصارت أبعد ما تكون عند وضعها بأنها سعيدة فهى محملة بظلال مثقلة ولم يبرز الفجر بالنسبة إليها بعد.

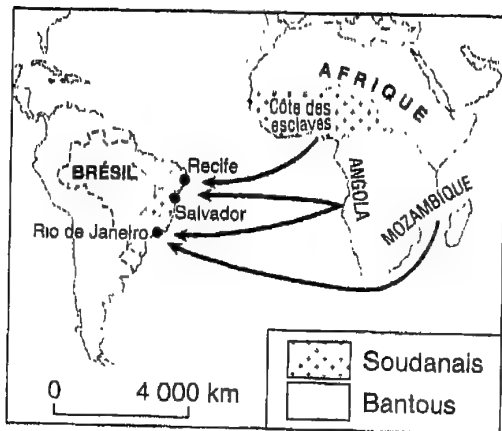
المكان والطبيعة والمجتمع دليل على ثقافة معينة

وتتغير أمريكا اللاتينية بأسرع مما تتغير منطقة أخرى فى العالم ولا تتوقف عن التغيير وبسرعة وتوشك صور الأمس على التلاشى فإذا لم يكن فى مقدورنا أن نراها بعيوننا فلا أقل من قراءة أدبها الرائع المباشر مع بعض السفسة الساذجة الصريحة إذ تتيح للقارئ رحلات فكرية رائعة تتخطى الاستطلاعات والدراسات الاجتماعية والاقتصادية والجغرافية والتاريخية والأخيرة ممتازة ويمكنها أن توفر لنا معرفة تامة لما نبحث عنه وهى تكشف كذلك وبلا مقابل عطر هذه البلاد ومجتمعاتها التى تبدو منطوية على أسرارها على الرغم من صراحة الاستقلال ومظاهر البشاشة وأمريكا اللاتينية شاسعة ولا تزال مظاهرها الإنسانية ندرة تعوم فى رداء فضفاض واسع فى فيض من المساحة ووفرة تسكر الناس، ويوشك المسافر الأجنبى إلى هذه البقاع - منذ تمكن الطيران - من اختصار المسافات الشاسعة أن يغرب عن باله فلا يلاحظ عنصر التناسق الذى يطبع هذه البلاد بطابعه كأساس - فبالأمس القريب كان المرء يستطيع عبور حوض الأمازون فى ست ساعات... أى الطيران فوقه فلا سبيل إلى عبور الأمازون بغير مشقة وصعوبات كثيرة حيث الغابات كما يقول البرازيليون وكان عبور جبال الأنديز بين الأرجنتين وشيلي يقع بطائرة ذات محركين مزدوجين وطائرات خفيفة الوزن تتداخل فيما بين الأدوية

أمريكا الأسبانية
 وأمريكا البرتغالية
 مناطق تتحدث الأسبانية
 مناطق تتحدث البرتغالية



سودانيون بانغو
 اصول السود الأمريكيين



وتدفعها الرياح أحيانا أما اليوم فتطير فوقها طائرات المحركات الأربع مقتحمة تلك الصعوبات ولم تعد سلسلة جبال الأنديز إلا على بعد ربع ساعة أو عشر دقائق من قمم الثلوج اللآلاء فى ضوء الشمس قبل الوصول إلى السهل الأرجنتيني القفر أو ساحل شيلي وبعم الانتقال بالطائرات كل بلاد أمريكا اللاتينية .

ويحظى المحطوظون من المسافرين برحلاتهم المميزة التى تنقلهم إلى المكسيك بالمتعة حيث تكسو (رياح الشمال) النباتات الخضراء والحدائق بطبقة من الثلج، ثم إذا هى بعد دقائق معدودة تلقى بهم إلى أتون حرارة اليوكاتان فيراكروز أو تلقى بهم قرب المياه الفردوسية وأزهار المحيط الهادى إلى أكادولكو، وهكذا تشحن وتنقل البضائع الثمينة ذات العائد دون سواها بالطائرات ومن بينها فواكه بحار شيلي إذ تنقلها الطائرات إلى بوينس إيرس وتنقل الدواب مشيا على الأقدام كما تنقل اللحوم الممتازة بالطائرات حتى فيدوزا فى اتجاه سانتياجو أو إلى عمال مناجم صحارى شيلي الشمالية وتظل حسابات عمليات النقل عبر هذه المساحات الشاسعة إحدى الاستثناءات على الرغم من الظواهر إذ تنطلق أو تهبط مطارات ريودى جانيرو طائرة كل دقيقة ولا يمثل ركاب الطائرات غير شطر صغير من السكان، هم الشطر البورجوازى إن أردنا ولا تمثل الطائرة فى أمريكا اللاتينية وسائل النقل الشعبية كالقطارات والحافلات والسيارات الخاصة التى تهينى لأوروبا هذه الشبكة المتماسكة من وسائل النقل والانتقال .

وعاشت أمريكا اللاتينية ولا زالت تعيش فى مساحة تقاس بخطى الإنسان وخطوات الدواب ولانقول بسرعة السكك الحديدية النادر امتدادها أو شبكه طرق تحت الإنشاء كما يعاد ترميم كثير منها بصورة مستديمة لقلة أعدادها ولذا فإن من سمات أمريكا اللاتينية البطء ومن ثم كان على خيالنا . عن هذه البلاد من بين القراءات الممتعة عن هذه المسافات الشاسعة الطويلة ماكتبه عن الراع الأرجنتيني مارتان فبيرو بطل ابتدعه جوزيه هرتانديز عام ١٨٧٢ اوسوجندو سومبرا آخر الرعاة الجائلين الأحرار إذ ينتقلون من البامبا الأرجنتينية الذى ابتدعته عبقرية ريكاردو جويرا لديس .

كما يجب مشاهدة أدغال شمال شرق البرازيل حيث الجفاف والجوع أو قراءة أروع القصص تصف الأراضي اللانهائية في الأرجنتين حيث لازال يسكنها الهنود وقد نشرتها جريدة لا تريبينادى بوينس آيرس عام ١٨٧٠ وكذا قصص عن رحلات قام بها لو تشيد مانسيلا أو قصص الكاتب الإنجليزي الذى تجنس بالجنسية الأرجنتينية أترىكو هودسون ١٨٤١ - ١٩٢٢

عن باتاجونيا وما هى كذلك تلك كتابات أليكساندر دودوا مبولدت (١٧٦٩ - ١٨٥٩) حيث يصف رحلاته ومؤلفات الكاتب الفرنسى أوجست دى سانت هيلير (١٧٩٩ - ١٨٣٥) وكان كل منهما أجنبيا عن هذه البلاد لولا سحرها خلب لبهما فوصفاها مضييفين روائعهم إلى روائع الأدب الذى ساد الجنوب الأمريكى ومن أكثر الصور حيوية فى وصف روائع الطبيعة فى هذه البلاد خلال هذه الرحلات التقليدية بما تضم من قوافل البغال والحمير عبر طرق محددة ينطلقون فيها فى ساعات محددة دون توقف إلا فى المساء ليستأنفوا المسير فى اليوم التالى وذكر هذه الرانشوس حيث يتوقف الناس والبضائع والدواب للراحة فى هذه المحطات وقد أطلق على هذه القوافل طليعة العربات وطلليعة السكك الحديدية وطلليعة القطارات وكلها تمثل المحاولات الأولى للسيطرة على الأراضي الشاسعة والتحكم فيها ولا تزال حتى اليوم بقاعا موحشة سريعة التكاثر.. ومن الواضح أن الإنسان لو لم يضع جذوره فى هذه الأراضي كما حدث فى الغرب غادر أرضه بهذه البساطة لتوفر الأراضي فى كل مكان أو فى مكان قريب أو بعيد لنقص الاستقرار وظلت حتى اليوم قوافل الدواب تعبر قلب القارة كما كان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكان أمرا طبيعيا بالنسبة لقوم ضائعين غارقين فى زحف اللانهائى وكان طبيعيا إذا ما نشأت المدن على بعد شهور وشهور من العواصم الأوروبية أو عواصم البلاد المحتلة، وكانت الأقاليم أوسع من إيطاليا أو فرنسا أن نرى الناس يحكمون على هواهم وخاصة بالأمس لعدم توافرها هو أفضل ولأن الحياة ضرورية قبل كل شئ ونجد فى الأمريكتين أن الديمقراطية الأمريكية فيما يطلق عليه الحكومة الذاتية..

١ - إنها من نبات المد التوسعى للمكان إذ يخفف هذا الاتساع وقع كل شئ ويلطفه وكذلك يصون ويحافظ على كل شئ ولو لم يتم على الأقل قهره والانتصار عليه وانتزاع الفلاحين من برائن الطبيعة البربرية أكبر أحلام الأمس ونجد الطبيعة الأمريكية الجنوبية منحت ولازالت رجالاً عظاماً فقراء قساه يتحملون الآلام عن راعى الأغنام فى وادى البامبا (وسط الأرجنتين) إلى الكابوكلو البرازيلى نحو الفلاح المكسيكى الكادح وهذا الأخير على أتم استعداد للثورة أينما ظهر قائد حق مثل إيميليانو زاباتا ومعاركه حول مكسيكو من عام ١٩١١ حتى ١٩١٩. وتظل المشكلة وهى انتزاعهم من برائن الفقر علة همجيتهم وتخلفهم ولقد راودت الأحلام كل مثقفى القرنين التاسع عشر والعشرين ألا تكون قيادة هؤلاء الناس بالإمساك بهم كقيادة الحيوانات بل تعليمهم أن يعيشوا ويعتنوا بأجسادهم ويتعلموا القراءة وهى مهمة شاقة عاجلة وإن بعدت عن أن تتحقق ولازالت مسيرات محو الأمية حتى اليوم يتصدى لها مدرسون وأطباء وخبراء فى الصحة فى جماعات وكان لهؤلاء الفلاحين الهمج الأبطال مكان فى عديد من القصص والروايات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ونقرأ لمارتن فييرو (١٨٧٢) فى كتاب البامبا الأرجنتينية عن فلاح فظ خشن ولكنه مسيحي وما هو يفضل عذوبة الشعر ينتزع من حياته القاسية إذ ينشد وينظم الأبيات ومع ذلك لا يتردد فى الطعن بالسكين فى المرقص التابع فى أحضان الغابة ويبيع الكحول، ثم شخصية دوتابادبارا التى ألفها للمسرح رومولو كاليجوس أكثر المتقدمين فى فنزويلا وطارده انقلاب عام ١٩٤٨ واسم البطلة أختير حتى لا يخطئ أحد فهى جميلة فاتنة متوحشة بل وسافلة وعديمة الذمة ولديها من الفضائل والنقائص ما يتيح لها - دونما حياء - كل ما ترغب فيه ولكنها لاتنجح مع هذا الساذج البسيط الجذاب حامل دكتوراه القانون حيث ألقت به مقادير الصدف.. صدف ميراث نحو ليلانوس فى قلب الحياة فأصبح دكتوراً مثل البافالوبيل

تلك المسرحية التى نال عنها فرانسيسكو كونزالبس جائزة الأدب الوطنية فى المكسيك عام ١٩٤٤ وكذلك يقع رئيس العصابة المتوحش الذى لا يرحم بين برائن هذه النمرة فجأة تبدأ فى تطويعه بفضل ظهور مدرس متواضع يعلمه القراءة

فتحدث المعجزة .. تزواج أوجستياس الحضارة ومدرسة اوليس لكل هذه الروايات هذا اللون العاطفى فرواية الفوراجين (١٩٢٥) للكاتب الكولمبى جوزيه ريفير إنما هى الملحمة التعيسة للبطل الذى النهمه الأمازون... الطبيعة ... الطبيعة التى تحيل الإنسان وحشا وتكفى السيطرة عليها لتحرير الإنسان وتمدينه (أى تهذيب طباعه)، فى الوقت نفسه وإذا ما صدقنا الكاتب بنجامان سوبركاسو لم تكن مأساة شيلى إلا جغرافيتها المجنونة على (١٩٤٠) وقد بدأت موجة الأدب الاجتماعى القلاص المقاتل تنتعش اليوم فقد ظل الفلاح البائس المعزول عن العالم بفعل الطبيعة وامتداد الأرض الشاسعة وفقره هو البطل الحقيقى حتى يومنا هذا فى كل قصة أدبية... وذلك نوع من الأدب جديد... تقاتل عنيف مباشر يمثل اليوم أشبه بالضحية ضحية المجتمع قبل كل شئ بل ضحية الحضارة ذاتها وهى بحق لاتأبه كثيرا بأحوال حياته كالتبيعة المتوحشة نفسها وتمثل هذه الموجة من الأدب منعطفًا تمثل ساعة جديدة تدق، ساعة ثورية بلاشك... نوع من يقظة ضمير حى حاد يدرك كنه مشكلاته فى أمريكا الجنوبية وليست لديه ثقة كبيرة فى توقع الخبر من الحضارة من هنا نشأت تلك الواقعية الداكنة وهذا اليأس. وليست رواية ماريانو آزويلا ١٨٧٣ ظهرت فى ١٩٥٢ بعنوان (لوس دى آباجو) ومعناها «الناس إلى تحت، سوى صرخة طويلة إنها قصة تقذف بنا إلى خضم تلك الثورة التى تشتعل فى المكسيك الحديثة منذ عام ١٩١٠ على الأقل وكلفتها من القتلى مالا يقل عن مليون ولم تنته بعد... إنها قصة هذه الحفنة من الجنود الثوريين الذين كتب عليهم الموت (ورأهم المؤلف يموتون) لأنه كان طبيبا لجماعة من الثوار... قصة خيبة أمل قوم تعساء لا يملكون سلاحا يواجهون به مجتمعا قاسيا عنيدا «بأثريائه المفرطين فى الثراء من أهل الشراسة وفقرائه المدقعين وأعدادهم الكبيرة والسذج البسطاء جدا. وكذا روايات الكاتب الكبير جورج أمادو وكلها عن شمال شرق البرازيل حيث مناطق الجوع والهجرة والفقر المستديم، وهى روايات رائعة جميلة تضم مظاهر عنف غريبة تمثل نوعا من مرافعات الدفاع... إنها شهادة صادقة على فئة من الفلاحين البدائيين بشكل لا يكاد يصدق وصورة حية لمآسى الشعب

فى محيط قروى شبه إقطاعى لا يجد فيه المرء حتى حنان الأرض . ويمكننا العثور على كل هذه الكتب بما بيدها جميعا من تشابه فى وصف تعاسة البشر ومنها قصص الكاتب جورج إيكانا من الإكوادور وما هى على الخريطة إلا بلد صغير ٤٥٠ ألف كيلومتر مربع وإن كانت بذلك تعد أكبر من إيطاليا وكانت منذ بضع سنين قادرة على استيعاب مليون مهاجر تمتعهم بسهولة حيث لم يجاوز تعداد سكانها المليونين وترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٤٦ قصة الفونسو بيريرا (بطل رواية هاسبونجو) ١٩٣٤ إذ يصل إلى ملكة قطعة أرض أعلى الجبل مع أسرته بعيدا عن كويتو سالكا طريقا وعرة على ظهر البغال حيث لم يكن فى مقدروه البقاء فى إحدى المدن حتى تضع ابنته وليدها اللقيط وقد غدر بها لسذاجتها وغبتها فتى من الهنود وكان فوق الجبل أن جاء هذا الميلاد البائس دون ضجة ولا ضجيج... كان صعبا غريبا وعند الوصول إلى حواف المستنقعات العالية إذ تغوص البغال فى الأوحال فيترجل الجميع وبعد أن مسح الهنود الثلاثة وجوههم بظهور أيديهم أو بأطراف أكمامهم بينما وجوههم لا يزال يغطيها الضباب وهم يستعدون لحمل أثقال أسيادهم وهم يجرون البونشو يجرون أنيال سراويلهم ذات النسيج الرخيص يرفعونها حتى أفخاذهم ويرفعون قبعاتهم الصوفية ويلفون البونشو حول الرقبة كوشاح واق اتقاء البرد وهيئات هيات عصاة البرد القارس يتخذ من ثقوب ملابسهم القطنية عارضين أكتافهم تمر فوقها البغال التى تمتطيها الأسرة من أب وأم وابنته والفتاة ويزداد انحدار القافلة فى الأوحال المجمدة وذلك نوع من الأدب يثير المشاعر والأحزان ويمثل القوة الغاشمة والمشاق التى يكابدها الإنسان ليعيش، ويا لها من حياة وربما تأخر - بسبب قسوة الواقع الاجتماعى - حل قضية الأرض الزراعية فتتعاضم المشاكل بعد معاناة سكان القرى وجموعهم فنشاهد المشاق التى يكابدها العمال فى الضواحي الصناعية أو مناطق المناجم البعيدة وهى مشاق توصف شدتها فهى شهادة من أندر الأمثلة إثارة للتوتر على حالة عمال المدن الحضرية ومقرهم الشديد وهامى بعيدا عن الدراسات الاجتماعية التى لاتهم سوى مجموعات صغيرة من المتخصصين قصة كتبها

البرازيلية السوداء كارولينا ماريا وهى امرأة تكاد تكون جاهلة عاشت فى إحدى مدن الصفيح (١).

فى ضواحي مدينة سان باولو كانت تكتب يومياتها وإن لم تكن تحفة أدبية ولعلها أقل كما لم تكن دراسة اجتماعية وإن كانت وثيقة معبرة عن الواقع وقد ترجمت إلى الفرنسية عام ١٩٦٢ باسم «اليأس، المزيلة وإلى جانب هذه الاستثناءات نجد الفقر الفلاحى يجتاح كتب الأدب جميعا... فقر يبدو منقطعاً عن كل أمل فى العلاج... ومهما يكن فليس أمامه سوى العنف... والثورة ولعل لهذا السبب وغيره نجد أن لثورة كوبا فيدل كاسترو هذه الجذور العميقة بين الفلاحين ظل رنينها يسمع فى أنحاء أمريكا اللاتينية كافة ومهما أصابها من مصير ومهما كانت نتائجها فهى علامة شاهدة على ساعة مصيرية تاريخية وهى على أقل القليل الحاجة الملحة التامة التى يراها ويدرك معناها كل مثقفى أمريكا اللاتينية مهما اختلفت آراؤهم الشخصية.... حالة تدعو إلى دراسة جادة تستعرض القضايا السياسية والاجتماعية لإيجاد الحلول التى تتطلبها... وتقتضيها.. وتستلزمها.

(١) (أكواخ من الصفيح يقيمها المعدمون فى الضواحي) أى عشوائيات

فى مواجهة مشاكل الأجناس .. الأخوة المزعومة

ومع كل ذلك عرفت أمريكا اللاتينية كيف تجد الحلول لمشكلة التخلّف والقيود الضمنية، وهاهى تشرع فى حل أعتى المشكلات التى تواجهها... مشكلة الأجناس وهى أولى الفروق لا كل الفروق بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وهى بالتأكيد التحررية التلقائية أحيانا التى تعبر عنها تجاه أحكام مسبقة بالنسبة للأجناس والجذور وليس هناك - بلاشك - ما يمكن أن نصفه بالكمال بشأن اللون ولون البشرة ولكن فى أى بقعة من العالم حدث ما هو أفضل؟ إن التقدم واضح هنا... بل هائل.. وليس التاريخ هو الذى أعد هذه المشكلات، فالأجناس الثلاثة الرئيسية فى الكون: الأصفر وهم الهنود الذين وصفوا خطأ الأحمر ثم الأسود والأبيض والثلاثة لأجناس فى عنفوانها، ولا تبدى إحداها الاستعداد للذوبان أمام الآخرين وما كانت هذه المشكلات العرقية لتبرز إذا ما ظلت أمريكا قبل كولومبوس وحدها قابضة فى موقعها بحضاراتها المتماسكة فالسلالة الأزتيك (سلالة قديمة نزلت فى الأراضى المكسيكية) ثم سلالة المايا (سلالة تقطن هندوراس البريطانية وهوليتما الشمالية) أى إجمالا السلالة المكسيكية وسلالة الأندين (سكان سلسلة جبال الأندين التى تسيطر على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية منها فنزويلا) أى تلك الحضارات الساطعة... حضارات أعالي الجبال التى جمعت تحت سلطانها الشبيه بالاشتراكية:

إمبراطورية شعوب الأنكاس هذا باستثناء مناطق الزراعة البدائية الشاسعة التي ينتمى إليها بقية مناطق الدنيا الجديدة .

وما كان لمشكلة من هذه المشكلات أن يظهر إذ لم تكن أوروبا أواخر القرن الخامس عشر بلداً مكتظة بالسكان قادرة على إخضاع كل شئ لقوانينها ولحضورها الفعلى ولا هذه الدنيا الصغيرة التي كانتا وقتئذ سكان لم يجاوزوا ٥٠ مليوناً عليهم الاستبسال فى ضراوة لإنتاج خبزهم اليومي...

عالم صغير لا يتنازل بسهولة عن بعض رجاله لاستشراق المغامرة الأمريكية وإذا ما تنازل فقطرة قطرة وعلى مدى القرن السادس عشر غادر ما يقرب من مائة ألف رجل صقلية إلى العالم الجديد فإذا كانوا تمكنوا من السيطرة على كل شئ فما حقيقة تمكنهم؟ أما المشكلة الثالثة فما كانت لتظهر هى الأخرى ما لم توفر سواحل خليج، غينيا أولاً ثم كل سواحل أفريقيا كلها فيما بعض الرجال المطلوبين ... هؤلاء العبيد السود الذين لم يكن بدونهم ليظهر السكر والابن ولا التبر... وهكذا نجد هذه الأجناس الثلاثة نفسها متلاقية فى موعد وعلى موعد فما من واحدة منها كانت من القوة بحيث تبعد فضلاً عن أن تحاول أبعاد الأخريات فوجدت نفسها ملزمة بالتعايش سويًا وعلى الرغم من كثير من المصادمات فقد كانت مصادمات لاتعادي ثم اقتنعت أخيراً بضرورة التأقلم والارتضاء اقتناعاً بحتمية التماذج والاختلاط والتواصل لبلوغ درجة معينة من التساهل والتسامح والتقدير المتبادل.

كان أول ما اعترض الغزاة البيض الأوائل هى الحضارات الهندية القديمة التى لاقت معاملة وحشية كاد أن يؤدى بها بسبب ما خلقه الغزاة البيض من اجتياح بالإضافة إلى المآسى الكبرى فى أعمال الاستغلال البشع وأعمال السخرة وبدأت أعداد الأهالى الأصليين تنقص نقصاً مشروعاَ فحينما أقام الهنـدى فى حياة بدائية وسط القبيلة يقتات على الدقيق النشوى بدأت التيارات الوافدة تجرفه منذ اتصاله لأول مرة مع الأوروبيين الوافدين وقد نجت المناطق المنيعـة كالأمازون التى استحـال على الرجل الأبيض ولوجها إلا خطوة خطوة بصعوبة بالغة.

وتمكنت الحضارات الهندية الكثيفة كلها من البقاء ولم يكن السكان الأصليون يملكون عددا ولا آلات ولا يعرفون العجلات ولا الحديد ولا البارود ولا المدافع ولا كيف يستخدمون الحيوانات الأليفة سوى اللاما.

ومست قلوب تلك الحضارات مالاقتنه من عنت وازدراء وكانت أراضي تيנקوتتيلان (حاليا المكسيك) وأراضي كوزكو صيدا سهلا للغزاة ومع ذلك أمكن إنقاذ رجالهم جنبا إلى جنب وهكذا تبدو اليوم المكسيك مزهورة بجذورها الهندية ولا تزال هضاب الأندين تزخر بحياة البداوة التي كان يحياها السكان الأصليون ... حقا هي مقبرة ولكنها ذات حيوية دافقة وذات جذور موهلة في القدم لا سبيل بحال إلى استبدالها . أما ذوو البشرة السوداء فقد ظلوا حيث وافقتهم أحوال الطقس والمزروعات وحيث عروق التبر وقد بهرتهم ظروف المعيشة في المدن التي جذبتهم إليها منذ القرن ١٦ واستبقتهم فيها بعد انتهاء عصر الرق ثم بدأوا فيما بعد يزحفون نحو المراكز الصناعية النشيطة وكان طبيعيا أن نجدهم على الساحل الاطلنطي حيث الأيدي العاملة الهندية وبدأت سيطرة المستعمر تنقص وتقص وهم اليوم يمثلون عددا كبيرا من سكان المدن الكبرى البرازيلية الحديثة، أما جزر الأنثيل فالرجل الأسود يشعر فيها أنه وسط قومه أما الرجل الأبيض وتملكه للقارة الأمريكية فقد وقع على الأقل في مرحلتين وكانت كل مرحلة مع جذور عرقية جديدة مختلفة فاستقر مع الغزوة الأولى حيث استطاع توفير لقمة العيش مفضلا إطار الحضارات الهندية الكبرى السائدة حيث وجد وهذا طبيعيا جدا «رعايا» كما وجد مائدة حافلة وذلك حال الأسباني الوافد حيث كانت المدن الكبرى بالنسبة إلى مكسيكو وليما وهذه الأخيرة من صنع الغزاة وفي أعالي الأنديز (بوليفيا عاليا) ويلوتوزي (أنشأها الغزاة كذلك من أجل مناجم الفضة حولها وعدد سكانها ١٥٠ ألف مستعمر أسباني أغلبهم من الوافدين من محبي فنون الباروك) أسلوب فني ساد بخاصة في القرن عشر وتميز بالزخارف والحركة والحرية (في الشكل)

ولا يزال واضحا على المباني حتى اليوم تعبير حي عن عظمة أثرى هذه المدن المستعمرة وروائعها ومع ذلك علينا ألا ننسى أن الجوهر الإنساني يبذو...

ويوضح غالب... هدى الجذور، وعلى عكس ذلك تقابل البرتغاليون فى البرازيل مع جماعة مشتتة من سكان ضعفاء ومن ثم تدرك الأهمية الحازمة لتوفر الجنس الأسود إذ كانت مدن البرازيل فى تلك العهود المستعمرة من أصول أفريقية وتضم مدينة باهيا العاصمة وفيها ٣٦٥ كنيسة لكل يوم من أيام السنة) وريسيف مركز كبرى مصانع السكر التى أنشأها الهولنديون أثناء احتلالهم القصير من عام ١٦٣٠ - ١٦٥٣ ومدينة أوروبريتو (أى الذهب الأسود) التى زرعت زرعاً أثر حمى الذهب ، ومدينة ريودى جانيرو التى صارت العاصمة فى عام ١٧٦٣ ومدينة ساويا ولو على العكس من مثيلاتها فهى مدينة صغيرة جداً يقطنها المغامرون وأغلب سكانها أقلية من البيض وأكثريّة من الهنود مع بعض الملونين الهجين ممن كان يطلق عليهم وقتئذ الأخشاب المحترقة أو الماميلوكوس باللغة البرتغالية. وكل هذه التفاصيل عن العصر الاستعماري تثير ذكريات قارة أمريكية استعمرها وتوالد فيها الرجل الأبيض ولا زالت قسمات الكثيرين أشبه بقسمات جزر الأنْتِيل مثل سانت دومينغ وجامايكا جزر السكر والبن ويتحدثون أكثر من غيرهم لهجات فرنسية أو إنجليزية ومع ذلك فالمشاهد واحدة فى كل مكان... فى كل مكان تجد هذا التمازج الغريب بين حياة بدائية من حياة القرون الوسطى، حياة تشيع للرق والرأسمالية معاً ونجد صاحب الأرض الزراعية أو مالك معاصر قصب السكر أو صاحب مناجم الفضة الخرافية أو التبرهم وحدهم المرتبطين باقتصاديات النقود والعملات.. ليسوا أسرى ولا خداماً لها بل يشبهون كبار العائلات القديمة فى الأزمنة الغابرة ممن كانوا يملكون حق الحياة والموت على كل أفراد أسرهم وجماعات خدمهم مع قيام المنزل الكبير للسيد المسيطر على كل جماعات العبيد... وكانت المدن إنما تنشأ بفضل هؤلاء الأثرياء ومنها تلك المنازل ذات الأدوار فى البرازيل المستعمرة بمحلات البضائع وأكواخ بئسيها ومن يطلق عليهم لفظ الموكامبوس فى البرازيل ويطلق عليهم اليوم اسم الفافيلاس والبيدونغيل (أى مدينة الصفائح وهى عبارة عن أكواخ يقيمها المعدمون فى الضواحي) وهى مواقع تكتل كثيرين اليوم وكان بعد تحررها من نفوذ العواصم الأسبانية والبرتغالية ومن تجار لشبونه وقادس أن دخلت أمريكا اللاتينية بعد عامى ١٨٢٢ و ١٨٢٣ فى

مرحلة الاستغلال المنظم (بلاحياء) من جانب رأسماليي كل أوروبا وكان أولهم رأسماليو لندن وكانت المدن والبلاد حديثة الاستقلال عملاء سفاحاً مع سطوة أصحاب المصانع والمصارف الأوروبيين وبذلك استطاعت إنجلترا بدهاء أن تبيع للمكسيك عام ١٨٢١ معدات حربية قديمة تمكنت بصعوبة كسب النصر في موقعة واترلو (إحدى المدن الأمريكية إيوا) وفي الوقت نفسه كانت مرحلة فتحت أمريكا اللاتينية بلادها لحركة تهجير أوسع من سابقتها كانت أوروبية هذه المرة ولم تقتصر على الأسبان أو البرتغاليين كما بدأت جحافل الفنانين والمثقفين والمهندسين ورجال الأعمال وتصاعدت أعدادهم منذ ١٨٨٠ وتركزت على جنوب المحيط الإطلسي مرتكزة أساساً على النقل الملاحى بالبواخر وهى الوسائل التى أتاحت الأعداد الضخمة من الإيطاليين والبرتغاليين والأسبان بالإضافة إلى آلاف وآلاف من الأوروبيين آخرين لم تستقبلهم بلاد أمريكا الجنوبية فحققوا أرباحاً وثراءً جديداً فى البرازيل الجنوبية الجديدة شمال سان باولو وجنوبها حيث كانت البرازيل القديمة تتمركز نحو الشمال من الأرجنتين وشيلي، وتولت هذه الموجات الزاحقة كالفارات البشرية تدمير القواعد الاجتماعية القديمة، ولم يقع ذلك بين يوم وليلة وإن كان على كل حال سريعاً وقد بدأت بسكنى القرى فتمكن المهاجر من تحقيق، لم يستطع دكتور القانون تحقيقه، وهكذا خلقت البرازيل الحديثة والأرجنتين المعاصرة وشيلي الحديثة، ويذكر أحد المسافرين الأوروبيين أنه كان خلال أسفاره يستطيع أن يجد إيطاليا المثابرة الرائعة... إنهم هؤلاء المهاجرون الذين حققوا مجد رواد الصناعة الأوائل فى مناطق هى اليوم مناطق سكانية مزدهرة كالمدين المواجهة للحدود الشيلية جنوب بيو قبالة باتاجونيا التى كانت بالأمس صحراء مقفرة أو كالمنطقة فى آخر عمق سان باولو التى تزدهر اليوم بزراعات البن التى أهلكت الأرض ويحتاجون اليوم إلى تلمس أراضٍ بديلة وعن غابات سرعان ما يعمدون إلى إحراقها توفيراً للأرض جديدة تصلح للزراعة... كل هذه الإنجازات رائعة ونستطيع التحدث عنها فنتطيل غير أننا نتساءل هل كان هذا هو الجوهر الأساسى من وجهة نظرنا؟ لا... إن الأساس إنما كان أخوة الأجناس فكلها ساهمت فى صنع دعائم أمريكا اللاتينية حيث تصادمت أحياناً ولأسباب اجتماعية مع

خطوط اللون... وفى الواقع فإن هذا الخط منهاج اجتماعى ثرى، والحاكم مهما كان لون بشرته يستطيع اجتياز هذا الخط فضلا عن الحدود، وفى بيرو نجد الهنود خاصة يطلقون عمن يتولون الحكم البلانكوس (أى الأبيض) ذلك أن الشراء والسلطة لازالتا حتى اليوم فى أيدى ذوى البشرة البيضاء الأصلاء، وقد تمازجت الأجساد فى المناطق التى يقطنها البيض بشكل واسع كما تمازج كاتب من أمثال جيلبيرتو فريير عالم الاجتماع كان يتحدث بالطبع عن شمال شرق البرازيل حيث يقيم مكريت يقول أوه نورديست (واحدة من الشمال) ويتناسى أن هذه الشماليات كانت قد تبعثرت وهاجرت وتفرقت من كل أراضى البرازيل وإليها ويقول: كل منا لديه مهمة من الدم الأسود وكانت أهم حركات النماذج فى المكسيك بين البيض والهنود وفى البرازيل شمال شرق البلاد بين السود والبيض وحيث دوافع التسامح والأخوة العرقية وعواملها أوضح منها فى مناطق أخرى ومع ذلك لم تكتمل النماذج حتى فى هذه المناطق المتميزة دون عقبات فقد ظلت أمريكا المهجنة زمنا طويلا تعاني فيه من عقد نقص أوروبا البعيدة التى شجعته للأسف طويلا كما أعطتها أمريكا الشماليه أسوأ مثل يتخيل، وعلى أى حال فإن الرحلة إلى الولايات المتحدة الأمريكية كانت بالنسبة إلى كثير من مثقفى أمريكا الجنوبية من ذوى البشرة الواضحة رغم أنها بيضاء كان بمنزلة درس ذى مردود عكسى... درس فى ضرورة التسامح... نوع من الرضاء النفسى الثمين إذ يجد المرء نفسه متمتعاً بحرية الاختيار... وهو يختار ويفضل بلده... ولم تندثر هذه العقد وتلك الأحكام المسبقة هكذا بسهولة، إلا أن رياحا هبت بعد عام ١٩٨٩ وعام ١٩٣٠ وأكثر من ذلك بعد عام ١٩٤٥ وصار التساؤل (هل يمكن أن نحب؟) والرد نعم ولكن هل نستطيع التقدير؟ إذ كانت أوروبا وقد دمرتها حماقات الحرب العالمية الثانية وأحوالها... بلاد الحرية والترحيب، فبدأت تتبادل التقدير مع بلاد أمريكا الجنوبية كانت مثار اتجاهات بطيئة ومن المؤكد أنها لم تتحقق كلها بل كانت أشبه بتغيير مفاهيم يسير فى طريقه، وتجيئ مؤلفات عالم الاجتماع جيلبيرتو فريير ولم تكن مؤلفاته من ذلك النوع التقليدى ذى الأسلوب العصبى بل كانت ذات لغة شاعرية فى الرواية والمجادلات الأدبية ولغة الشباب التصادية (١٩٣٣) وكانت

هذه المؤلفات بمنزلة نقطة تحول حاسمة فى تاريخ هذه البلاد وخاصة فى البرازيل وبداية ظهور الاتجاه الإنسانى ولعلها أكثر الاتجاهات والنزعات الإنسانية فى أنحاء هذا العالم الجديد كافة، كما أن الثورة الهندية فى المكسيك منذ عام ١٩١٠ فتحت حلقة من الثورات حول الأراضى الزراعية... لقد فتحت أبواب الأمل .. وتصادم مشاعر التآخى بين الأجناس أحيانا كثيرة وفق طبيعة الموقع الجغرافى مع عقبة إزالة الطبقات الاجتماعية فى الماضى طالما كان هناك فى أمريكا اللاتينية بلاد سكانها جميعا بيض البشرة كالأرجنتين حيث بقايا من الهنود بعيدا فى الشمال أو فى أقصى الجنوب على عكس هذه البلاد الأخرى حيث اختلطت الأجناس بعضها مع بعض وتولدت من هذا الاختلاط أنماط عرقية متماثلة شكلا راسخة كما فى كوستاريكا وفى مناطق أخرى من غير شك ولكنك تجد مشاعر التآخى هذه، ولم تكن أحيانا كثيرة قد انتشرت انتشارا كاملا فى المجموع... إنها واحدة من أعمق السمات الأصيلة فى أمريكا الأخرى وجوهرها وهو الأكثر وجدانية يقينا وهو وحده الذى يميزها عن غيرها ويعرف بها ويصيح هذا المسافر من أمريكا الجنوبية حين يتوقف فى بنما عائدا إلى وطنه... ها قد عدت .. عدت إلى اختلاف الألوان والبشرة وها أنا أسمع هذه الأصوات الواضحة وهذا الصياح وهذه الصيحات وهذه الأغانى والأنشيد. ولاشك أنه شعر بعودته إلى بيته .. إلى بيئته.

الاقتصاد والحضارات تحت التجربة

وعلى الرغم من عدم اكتراثها كثيرا بأمورها وتعلق سكانها بالحياة وميلهم إلى المشاعر الحادة إلى حد النزق وتمسكهم بالحبور وإقامة الحفلات الشعبية الوطنية فى صخب وجذل إلا أن أمريكا اللاتينية لم تتوقف عن المعاناة العميقة تجاه العالم الحالى بل عالم الأمسية وهو ما أطلق عليه بحق «قارة الحزن»، كما قال كبرلينج مثلها كمثل كل البلاد التى تبدأ تصليعا حقيقيا وترى أن عليها إعادة بناء هياكلها الاقتصادية من جديد، كما أن عليها أن تعدل من سلوكيات مجتمعاتها حيث يمثل هذا الواجب الأخير أصعب الضرورات خاصة فهو يمس مجتمع عالم غير مستقر أصلا دائب الحركة متقلب غير مؤكد اقتصاده... غامض مزعزع اجتماعيا غير مدعم بنيانه كما ينبغى ولم يتوقف ماضيه منذ قرون عن تدمير هذا الاقتصاد وإعادة تأسيسه وإيجاز عالم مصدوم متصادم متناقض تتحاذى فيه الحياة البدائية الأولية بلا تهديد ولا فترات انتقالية، ويدخل إليه عبيد وصلت حياتهم إلى مرحلة العصرية الفائقة وإجمالا عالم مفعم بالحوية والنشاط بقدر ما هو صعب المراس... صعب الحكم... صعب التوجيه وكانت التذبذبات الاقتصادية المفاجئة تحيط به على فترات زمنية غير متوقعة أو محسوب حسابها غالبا، وكانت أمريكا هذه تسابق الريح حول مصيرها وقدرها وكانت فترات السباق هذه أرادت أو لم ترد

تسفر عن نتائج مرضية أحيانا أو تكون قبلها الصحية أحيانا أخرى كثيرة ولاشك أنها تبعث الأحوال والظروف الاقتصادية العالمية ولكن كان من الأفضل طالما ظل عليها هذا الشوط الطويل من الجرى والسباق أن تكون من الأوائل فى المقدمة الذين يديرون وينظمون السباقات أو فى المؤخرة بحيث يستطيع القفز تلك القفزات المشهورة للحاق بالركب ... وكانت قارة أمريكا اللاتينية دائماً فى المؤخرة تجدد قفزة الشوط وكانت الوحيدة التى تعجز عن الضحك، فقد كان عليها أن تتطلق متدفقة إذا رغبت فى أن تتاح لها فرصة البيع وأن تنتج مهما كلفها من صعب ... تنتج السكر والبن والكاوتشوك والتشارك أو التترات أو الكاكاو وإنما بأسعار رخيصة، وهكذا كانت كلما وقعت فى برائن الدورات المتتابعة توالى تراجعاتها المباشرة ... كان ذلك مفتاح ماضيها وحاضرها الاقتصاديين فقد اضطرت أمريكا اللاتينية إلى الخضوع لمتطلبات الأسواق الخارجية فى إنتاج المواد الأولية فى إطار مستعمر بحث ظل بعد انحسار عهود الاستعمار بأسماء جديدة وأشكال، قيل عنها اقتصار الاستقلال إذ خطط الرأسماليون الأجانب أو بالأحرى المؤسسات الدولية المتحالفة مع الملاك ورجال السياسة المحليين لتوجيه الإنتاج إلى قطاع المواد الأولية للتصدير بعد إجبار المناطق المنتجة لعدد من السلع على تكريس جهودها ورجالها للنشاط واحد ضارين بالمنتجات الأخرى عرض الحائط وكان ممكناً لهذه الانطلاقة أن تكون مفيدة ومريحة على المدى الطويل لكل أنحاء البلد مالم تطرأ فى الاستثمارات بشكل دورى تعديلات وإلغاء ثم رغبة تطفو على السطح ثم فجأة فى الاتجاه نحو قطاع إنتاجى آخر بل فى الاتجاه كثيرة نحو مناطق أخرى . ولقد كان تنوع المناخ ووفرة الأراضي مما أتاح لأمريكا اللاتينية تحمل مساوئ فجائية القفزات وتحولها من إتجاه إلى آخر بدون تخطيط فبلغ الأمر من السوء بحيث انتاب البشر وقدرة الأراضي تبديد ضار، فلم يكن مسموحاً فى كل مكان بتوطيد دعائم بنية اقتصادية ثابت راسخ دائم مستقر صحى صالح لتأهيل طبقة من الفلاحين المهرة . وكانت أولى هذه الدورات دورة المعادن الثمينة التى بدأت مع عصر الغزو ... الدخيل ... دورة الذهب التى لم تتعد منتصف القرن السادس عشر ثم دورة الفضة وخاصة مناجم المكسيك وبوتوزى حتى عام ١٦٣٠

- ١٦٤٠، كان ثمنا للتضحيات القاسية واكتبها موجة تجديد قهرى للهنود الذين تقبلوا مرغمين أعباء مناجم المعادن وصهرها، وكان عملا شاقا غير إنسانى على ارتفاع ٤٠٠٠ متر على قمة جبال يشتد فيها البرد القارس حيث تنقص الأخشاب للدفلة بل وتنقص بشكل رهيب المواد الغذائية للمعيشة وكذا مياه الشرب... وكانت سبائك الفضة تنقل إلى المحيط الهادى ثم إلى ميناء كلالو وميناء ليما ثم إلى بنما آخر الأمر، ومنها تبدأ قوافل البغال ثم يستكمل النقل بعد ذلك بالسفن فى مياه نهر شاجر لتصل إلى جزر الأنтил ثم تقبل من بعد الأساطيل الأسبانية لترافق نقلها حتى أسبانيا، ترى من كان يستفيد من هذا النظام ؟ إنهم التجار وكبار الموظفين الأسبان ورجال أعمال دوليين كذلك تجار جنوا «الوجوسوس» وهم طبقة المقرضين بالريا من أصحاب عند ملك أسبانيا... ولاشك لم تكن من بينهم أمريكا ذاتها المحرومة دائما من هذه السبائك ومن النقود الفضية المفرغة من قيمتها السعريّة ولاتكاد تكفى شراء بعض الأقمشة أو حفنة من دقيق القمح أو بعض أوانى الزيت أو براميل الدبذ وطائفة من العبيد السود. وقد بدأ إنتاج الفضة بوتوزى ١ - ريو ليفيام ينخفض فى القرن السابع عشر وإذا أمريكا اللاتينية تشعر فجأة أنها أهملت وتركت لمصيرها وقدرها.

وفى عام ١٦٨٠ تعرف أمريكا - التى احتلها البرتغاليون - بدورها حمى اكتشاف الذهب الذى بدأ جمعه هذه المرة بأيدي العبيد السود، وبدأ الإنتاج يبطئ حوالى عام ١٧٣٠ فى الوقت الذى بدأت تستعيد فيه مناجم فضة اسبانيا الجديدة (المكسيك) ازدهارها من جديد، وعندئذ تحولت الولايات البرازيلية المقفرة - كمناطق مينا سى جيرائس (ومعناها المناجم العامة) - إلى إنتاج القطن بصورة ماء، ومن الممكن متابعة دورة تربية الدواجن (تهجين الماشية) بمختلف ماطرأ عليها من تغييرات حتى دورة التهجين فى الأرجنتين اليوم، وكذلك متابعة دورة السكر الذى بدأ على نطاق واسع فى البرازيل وسان دومينيك وجذر المارثنيك ثم دورة إلبى وكيان أكثرها ازدهار، فى البرازيل مع بداية القرن التاسع عشر، حيث استهلكت شطرا كبيرا من الأراضى امتدت رويدا رويدا حتى داخل البلاد والشاكو الأرجنتينى الشاكو (البلوط) فى منطقة كوبيراشو وتحولت كلها بعد عام ١٩٤٥ إلى

إنتاج القطن فى انطلاقة جديدة ولايكفى كتاب واحد لاستعراض قصص هذه الأنواع من أحادية الإنتاج وأحادية الزراعة، وتعيش هذه السياسة - التى أدت إلى نتائج أشبه بالكوارث- أيامها الأخيرة على حين تنجزاً وتعد قطاعات صناعية واقتصاديات قومية وطنية إلا أن كل الكيانات الاقتصادية فى أمريكا اللاتينية اتسمت بهذا النمط من التنمية القديم المتقطع المخالف للمنطق ببقظاته (نوبات الصحوة) المفاجئة وكذلك يتوقفانه وانتقالاته من قطاع إلى آخر بصورة دائمة، وكم من مدينة وكم من منطقة ازدهرت ثم يزوى ازدهارها حتى انتهت هى كذلك وأقفرت من سكانها أو على أقل تقدير أو اخضعت لإعادة تحويل قاسٍ مكلف وكانت أزمت حادة تواكب تغيير مسار الدورات الإنتاجية وكان تغيير واحد كفيلا بتراجع كل اقتصاديات البلد ولو كان نشيطا مزدهرا. ولن نعطى إلا مثلا واحدا أسوأها ذالكم هو مثل الأرجنتين اليوم.

ففى حوالى عام ١٨٨٠ بدأت موجة ازدهار واضح تعم البلد كلها وتصير مصدراً رئيسيا للحبوب والغلل واللحوم للسوق الأوروبية وذلك بفضل تعديل شامل لكياناتها القديمة ولم تكن مناطق البامبا الأرجنتينية سوى صحراء قفر يؤمها قطعان من حيوانات مفترسة كان هنود الجاوشو يقتنصونها لمجرد سلخها وبيع جلودها وتصديرها، ويشبه هذا السهل قليلا مروج الولايات المتحدة الأمريكية حيث يحيط بمدينة بوينس آيرس ويصبح بفضل بعض الجهود صالحا لإنتاج القمح وتربية ماشية منتقاة بعناية مغذاة مسمنة وبدأ كل شئ حتى أعوام ١٩٣٠ إذا ما وضعنا جانبا صعوبات عشر السنوات من ١٨٩٠ حتى ١٩٠٠ يتصاعد نمو فى الأرجنتين بسرعة لاتصدق من زيادة عدد السكان بفضل موجة تهجير قويه من إيطاليا إلى بدء التصدير المنتظم وما تلاه من عمليات التجهيز وتشيد صوامع الغلال والمطاحن وثلاجات التبريد، أرى هذا كله إلى ظهور طبيعى لحركة تصنيع طفيف حيث بدأت تتصاعد معدلات الشراء والأجور وأرباح رؤوس الأموال فضلا عن متوسط عدد السيارات لكل مواطن ارتفع كل شئ إلى القمة وبدأت الأزمة الاقتصادية من عام ١٩٣٠ تطل برأسها غير محسوسة فى البداية والمجتمع غارق فى بحبوحة من المرح والغبطة، ثم تندلع

الحرب التي جاءت لصالح بائعي المواد الأولية مع تأخير السداد لولا ماكان منذ عام ١٩٤٥ مع الانخفاض الحاد فى أسعار الحاصلات الزراعية أن بدأ الاقتصار الأرجنتينى يتدهور وكان هذه المرة تدهوراً سريعاً حددت أرقام الإحصاءات الرسمية معدلاته بنسبة ٤٪ سنوياً منذ عام ١٩٤٨ وبدأت تتحقق خسارة فى الميزان التجارى وانخفضت الأجور ومستوى المعيشة لدى الكتل الشعبية، ونتيجة لكل هذا انخفضت قدرة الدول عن مساندة صناعية وطنية أو دعمها كصناعة النسيج والمواد الغذائية والجلود... إلخ وزادت نسبة البطالة وأفقرت المزارع والقرى لصالح المدن الكبرى التي بدأت تنفخ بشكل عجيب فى وقت أعوزها ما تعرضه من أعمال وإذا ٥٪ من عدد السكان أى ما يوازى مليون نسمة يسكنون أكوأخاً من الصفيح، عشوائيات، فى ضواحي المدن، والتي يطلق عليها باللغة الأرجنتينية (أى ما معناها فيلات الفقر) وتتوقف حركة التصنيع التي كانت بمنزلة الخلاص وصناع الأمل فى مخرج بل أوشكت ميزانية الدولة ذاتها على الإفلاس.

وبإيجاز لم تعد الأرجنتين اليوم بعد أن كانت قبل الحرب العالمية الثانية أكثر بلاد أمريكا الجنوبية ثراءً بفضل مناخها وتميز أراضيها ورجالها ومع ذلك فلم تكن أكثر البلاد فقراً وإن كانت أسرعها انكماشاً فحلت محل الثقة المرحلة الاضطرابات، وذلك ما يفسر الأزمة السياسية التي تابعت على بوينس آيرس منذ سنين ويقدر خبراء الاقتصاد فى الأرجنتين أن الكيانات الزراعية التي جهزت من هنا وهناك بفضل الارتفاع المفاجئ وهو عادة ارتفاع مصطنع فى أسعار اللحوم والقمح إنما تبدو اليوم كيانات هزيلة فقيرة مع استثمارات ضعيفة لاتعنى ولا تفيد الاقتصاد إذ تمثل ٣٤٪ من إجمالى الأراضى الزراعية ويمتلك ٤٢٪ من هذه الأراضى و٦٤٪ من جملة المواشى حفنة من كبار المستغلين، وهذه هى العقبات الرئيسية التي تحرم البلاد من تحقيق نهضة قومية وطنية تحتم إعادة تنظيم زراعى قادر على إنتاجية معقولة وإعادة تشييد سوق محلى وطنى بدونها، لا أمل فى تحقيق صناعية سليمة.

ويمثل التفكك الاقتصادى عقبة أمام حركات التصنيع الحديث والتنمية فى أمريكا اللاتينية تؤدي عادة إلى اقتصاديات قليلة التماسك غير متوازنة حيث نجد

اللامعقولة في كل مكان مع قلة وسائل النقل التي لم تنشأ لصالح اقتصاد وطني قومي ولكن لربط نقاط الإنتاج ومواقعه بموانئ الشحن تاركة بين الأراضي الشاسعة مناطق خالية من طريق ممهد واحد، ولاتستطيع حركات الطائرات المنتشرة في كل مكان العلاج الناجح الفعال، وفي خلال رحلته على ظهر أحد الهنود يقول ألفونسو بيريرا: ما أفيد أن يكون المرء مفلساً ... ويتنهد ثم يستطرد آه لو كان أبي أكثر دهاءً لكان استطاع إجبار هؤلاء البيونز (الفلاحات الكادحات) على تشييد الطرق ... وعلندئذ لم نكن لنتواجد هنا اليوم ونجد عوامل تنافر أخرى من مفارقات عنيفة بين مناطق غير نامية مهمة بعد نمو، وبذا نتعرف على بقايا مدن صغيرة رائعة في الأراضي البرازيلية منها ويناس فيلهاس التي تمارس حياة بدائية تشبه حياة مدن العصور الوسطى بعيدة عن العمران محملة، تضم منازل نبلاء سابقين كعلامات على أيام خوالٍ جميلة ومناطق نامية بلغت أقصى النمو وهي المناطق الحضرية كما يطلقون عليها، وهي غالباً محدودة بشريط ساحلي يمتد حتى البحر ويتربط مع خطوط التصدير وأخيراً غياب طبقة الفلاحين القوية المتماسكة كذلك التي في أوروبا من حيث هي أساس قوى متين اكتسبت الخبرة على مدي القرون.

وكان هذا هو حال أمريكا الجنوبية: أعمال سخرة وأصحاب أعمال جشعون بين مخاطر أبادية الإنتاج الزراعي في مناطق شاسعة أعدت على عجل دون تخطيط ثم تركها فجأة وأهملها بعد أن أنشأها مستغلون برؤوس أموال من الخارج لإستغلالها أسوأ ما يكون الاستغلال. وثمة عدد كبير من السكان من عمال الزراعة متجولون هنا وهناك بحثاً عن التحرر من أسر البطالة تقودهم الأقدام إلى أقرب المدن حيث الأمل في الالتحاق بأى عمل.. وهو غالباً أمل زائف مشكوك في تحقيقه أو هجره إلى ولاية أخرى كما يفسره هذا التناقض في بلد تتوفر فيه الأراضي شاسعة وتفيض عن الحاجة وسكان زراعيون يصل عددهم ما بين ٦٠ و٧٠٪ من جملة السكان، ومع ذلك فهناك نقص حاد في المواد الغذائية فلا تكاد تكفى حاجة الناس لافتقاد خبرة الفلاحين ممن يعرفون أسلوب التعامل مع الأرض واستزراعها، ومن جهة أخرى لفساد توزيع الأراضي وهو وحده كفيل بؤاد

هذه الخبرة الزراعية بما لا يحقق إنتاجية وفيرة كافية طبيعية، وكثيرا ما أمكن التشبيه بحال روسيا أيام البلاء والنبيلات، وفي هذا البلاء، مع ذلك إلى جانب العالم الزراعى القديم - نجد الصناعة تنمو عادة فى مناطق ساحلية ذات ماضٍ قريب حيث تجتمع رؤوس الأموال أهلية أو أجنبية ورجال أعمال لديهم اتصالات مع أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية وبعض شخوص من الفنيين والتنفيذيين برزوا بفضل الهجرة، كل ذلك أتاح إعادة تشكيل النشاط فى قطاع المنتجات الزراعية للتصدير وتحويله إلى قطاع الصناعة وكانت النتيجة أحيانا مذهلة وغير متوقعة، وارتفعت مبان سكنية فى مدن رائعة الحدائث، منها ناطحات سحاب عديدة كان نموها سريعا أشبه بنبات عش الغراب وتعد مدينة باولو فى البرازيل مثلا على الهذيان فى البناء، وبهذا أصبح اقتصاد أمريكا الجنوبية اقتصادا مزدوجا فمن نجد قطاعا عصريا صناعيا بل ناميا نموا فائق الحدود يحيا السكان فيه حياة عصرية بأجلى معانيها ويتعايش جنبا إلى جنب مع قطاعات من حياة زراعية شاسعة قديمة موغلة فى بداوتها تحبو فى خطواتها الأولى، ويتفاقم هذا الانشطار كلما اتجهت التنمية الجديدة إلى قطاعات سبقت تنميتها.

ولیکن مثال البرازيل حيث كانت التنمية على عكس ما حدث فى الأرجنتين بدأت متأخرة حوالى عام ١٩٣٠ وظلت تزداد بإطراء بعد الحرب خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة حتى تضاعف إنتاجها الفعلى ووصل النمو فيما بين عامى ١٩٤٨ و ١٩٥٨ إلى معدل ٣٪ فى المتوسط إذ شيدت حينئذ مدن ساو باولو وريودى جانيرو بإيقاع يتعدى إيقاع تشييد أكثر مدن الولايات المتحدة الأمريكية شهرة فى ناطحات السحاب، فكانت البداية الأولى صناعات الأقمشة الخفيفة ثم تلتها منذ فترة وجيزة صناعات ثقيلة أسفرت كلها عن تصاعد اقتصادى معنّاز، وكان هذا التصاعد لاشك بفضل الصناعة إذ لم ترتفع الإنتاجية الزراعية أغلب الأحيان ولو بمعدل النمو السكانى حيث تمثل الأراضى المزروعة ٢٪ من أراضى الدولة ويعيش قرابة ٧٠٪ من السكان أو بالأحرى يستطعمون الطعام من هذا القطاع الزراعى المتواضع الضيق (٢٠ مليون هكتار مستغلة) فضلا عما تغله من منتجات منخفضة جدا وهكذا يتعرض سكان المناطق الشمالية - وليسوا إلا

مزارعين ويمثلون ثلث عدد الآهليين للمجاعة بالمعنى الدقيق للكلمة، كما يتعرضون لكل أمراض العوز ونقص الأغذية.. ولم يكن ثمة بادرة من أمل في احتمال تغير هذا الوضع بسرعة مادام كل شيء متجها إلى المناطق النامية من البلاد كالأستثمارات الخاصة ودعم الدولة والغروض وعوائد متحصلات التصدير السلي كالكافور والسكر والقطن والزيت.

والمراقبون لأحوال البرازيل والمكسيك يلاحظون من أن هناك قطاعين أحدهما نام والآخر باق على الهامش بعيدا عن التنمية وإن تمثلا في واقع الأمر في الموقف الذي كانت عليه الدولة بالنسبة لمستعمراتها حيث لا يستطيع شطر عريض من البلد الاقتراب من عملية الإنتاج أو الدخل أو مدى الاستهلاك الأدبي الموازي لأدنى ضرورات الحياة... باختصار قطاع يضحي به لصالح قطاع آخر، ومما لاشك فيه أن الحكومة البرازيلية في صراعها مع المشكلة الملحة مشكلة التصنيع تبدو أميل إلى المشروعات التي تدر عائدا مجزيا وإلى المشروعات التي تدر عائدا مجزيا وإلى المشروعات التي تدر ثمرات سريعة وأكثرها قدرة على البقاء. فقد تعرض منذ سنوات إيقاع الانتشار الصناعي البرازيلي لانخفاض كثافته وتدنى إلى الإنتاجية المقلقة لغياب سوق داخلي عريض بما يكفي وبدأت ظواهر البطالة والتضخم وارتفاع الأسعار بشكل طائش غير متوقع وخاصة أسعار المعيشة التي هي بذاتها التي على انكماش أبعاد السوق الوطنية وكلها دلائل تثبت ما أصبح ضروريا من تغيير السياسات ومنها الاتجاه نحو قطاع الزراعة والعمل على تحسين ظروفه للتوصل إلى النمو الاستهلاكي وتوصيل مجموعة السكان إلى مستوى معيشة لائقة لا يمكن بدونه توطيد حركة التصنيع، وكانت هذه المشكلة الاجتماعية قضية تكاد تواجه كل بلاد أمريكا اللاتينية وهي في مسارها الصناعي.. تتضاعف وتزداد حدتها وتزداد الهوة اتساعا بين جزء المجتمع الذي يشترك في عملية التنمية ويستفيد منها كما يستفيد منها سائر المجتمع التي تظل بعيدة عن الملعب... وهنا يكمن عامل الانفجار وذلك فضلا عن انفجار آخر هو إيقاع ازدياد عدد السكان وارتفاعه الذي يعد أعلى معدل في العالم ٢,٥ ٪ سنويا على وجه التقريب (هو في أفريقيا ١,٣ ٪ وفي آسيا ٢ ٪) وتبدأ طبقة بروليتارية (من

الكادحين) من سكان القرى تتحول حثيثا إلى طبقة بروليتارية من سكان الحضرية وأغلبهم عاطلون يبايشون ما يعيش فيه سكان المدن من رفاهية ونعيم ... مجتمع صناعى ... مقفل أبوابه أمام هؤلاء القادمين من القرى ... كلها تقريبا .

تتوافق كل هذه الشواهد التى يرويها علماء الاجتماع منذ سنين اتحكم على روعة ما بذل اليوم من جهد خارق فى أمريكا اللاتينية لإنشاء قواعد ثابتة لمؤسسات صناعية استفادت من آخر ما توصلت إليه وحققته التكنولوجيا العصرية وتوافر أفواج المهندسين من معماريين وفنيين من سكان البلاد الأصليين (الأهالى) أو من أجانِب يتساوون فى المقدرة والكفاءة ومع ذلك تظل تطل برأسها الظاهرة الإنسانية المخيفة التى أسفرت عنها التجربة وهى ظاهرة الفقر ... فى مواجهة الترف والثراء وما هو مثال على ما نقول : أفران هياشيادو وفى أقصى جنوب مدينة سانتياجو (شيلي) ملحق بها ستة آلاف عامل فى ذو كفاءة ممتازة اكتسبوا من فترات تدريب تقنى رفيع المستوى ويعيشون فى مستوى رفيع ولنر هذا التناقض الواضح مع ظروف معيشة بائسة لجماعة من أسر العمال يقفون ساعات متعلقين بأذيال الأمل على أبواب الورش يتكدسون بالعشرات فى أكواخ خشبية (مشيدة كنوع من الدعاية) للتعبير عن مشاعر أخوة زائفة نحو هؤلاء البائسين أمام أعين المحققين ورجال الصحافة، ومع ذلك كله فإن هذه الحالة أفضل كثيرا من مدينة المناجم لوتا إذ لم أر فى حياتى أسوأ من مشاهد هؤلاء البائسين وهم يقضون ساعات فراغهم «الطويل» على أعتاب منازلهم يغمهم غبار الفحم المتصاعد وأطفالهم هنا وهناك من حول الأقدار التى تعج بها الشوارع الجانبية فى سوق لوتا باجا يعرض من حول مناضد البائعون عليها للبيع لحوما تفوح منها روائح منتنة؟؟ معرضة لأسراب الذباب وسحب الغبار ... وما أتعس هؤلاء الأولاد الذين يعيشون فى الأكواخ القذرة أو يتسكعون على أرصفة تالشيانو (تاهاكيانو) أولاد مدينة لوتا ممن قيل لى أن ربع عددهم فقط هو الذى يستطيع الفرار من هذا المجتمع البائس جيث يعيشون أجمعين .. ويموتون .

وليست مثل هذه المشاهد من مناجم الفحم فى سان جيرونيمو وأريوجرانديه (وسول فى البرازيل) أو مناجم القصدير فى بوليفيا بأفضل حالا من الأحوال إذ تجد محيط أكثر المدن روعة وبذخا، تلك الحقيقة الأليمة التى تحق بالعمال

وحياتهم البائسة البشعة بما تعرض من فقرها المدقع حتى من حول ساو باولو وفي قلب بوينس آيرس حيث يقيم ٦٠ ٪ من السكان القرويين السابقين أولئك الذين انتزعوا من القرى كما وقع فى القارة أورودية بالأمس فقد ثبت أن هؤلاء عمال ليست لديهم ليست لديهم من ميزة، بل يعدون من أسوأ العناصر البشرية إذ يقضون يوماً فى المصنع ثم لا يظهرون فى اليوم التالى، وكثير من المؤسسات تجدد فرق عمالها كل عام بنسبة تصل إلى ٧٥ ٪ إذ أن جهلهم يزيد من تعاستهم وفقرهم.

ويلاحظ فى كل موقع ما ترتب من آثار على سوء التغذية . ونجد أن عددا قليلا ممن بقى من العمالة وتؤدى لهم أجور مجزية فى المدن قد ألفوا - فيما بينهم - طبقة بورجوازية بعيدة عن عالم العمال العاديين ونادراً ما يتكافلون أو يتضامنون مع العمال العاديين . وهكذا نجد كل شئ يتضامن ويشترك فى أبعاد هذا العالم البائس وإهماله وتركه لمصيره، وربما وجدنا أن التشريعات العمالية رسمياً أكثر من التشريعات التى يمكن تصورها تحرراً (ليبرالية) أما ما بين صيغة القانون وتطبيقاته فما أعمق الهوة... فإن الفرق والنقابات قائمة ولكن ليس لها من عنصر مشترك مع نقابات الدول الصناعية سوى الاسم فلم تتصد لمجمع تكتلات قومية وطنية... باختصار طبقة عمالية بائسة غير متعلمة بل جاهلة كذلك أحيانا كثيرة ومع ذلك فهى على اتصال بحياة سياسية انفعالية رومانسية استمدت مثلها من أفكار بيرون الزعيم الأرجنتى صديق كاسترو الكوبى وهو الذى كان رئيساً للأرجنتين من ١٩٤٦ حتى ١٩٥٥) ... ذلك عالم لا يملك أى دعم مادى أو فكرى ويبدو كأن مصيره ومستقبله يكتنفهما الصعاب... وسيظل هكذا أمداً بعيداً

ضعف طبقة الحكام وطبقة الصفوة، وفسادهما

بدأت تعود إلى رشدنا إزاء هذه المشاكل والقضايا طبقه من الصفوة المثقفة وكانت عودة إلى الرشد ولكن بصورة مغالى فيها كانت تضم الكتاب المبدعين وأساتذة الجامعات وندرة من رجال السياسة وبعض الأطباء المثقفين والمحامين ولكن ضعف الطبقات الحاكمة وفسادها للأسف والمسؤولين سياسيا واجتماعيا أضاف ضعفا جسيما وخطيرا إلى مجموع المشاكل والقضايا التي تعج بها دول أمريكا الجنوبية، وقد دمرت الثورة الصناعية وتناميها بشكل شرس ودائم دعائم مجتمع زراعى كان متماسكا ومثقفا، حقا كانت قدراته قليلة محدودة لا تتيح له فرصة الاندماج فى هذا العالم الجديد ومع ذلك كان مجتمعا مرحا ودودا.. والمؤلم أنه لم يتعرض لتبديله حقيقة. كانت هناك بالأمس أى قبل عام ١٩٣٩ وفى أمريكا شبه المحتلة قلة تحتل مسرح الحياة السياسية والثقافية وكانت فى الوقت نفسه تسيطر على الأمور الهادئة كانوا رجالا ظرفاء جذابين مثقفين يمتلكون مكتبات رائعة الثراء أشبه بأمراء عصر النهضة ببذخه كأنما جاءوا خصيصا لإغراء الصحفيين والزوار والمثقفين القادمين من أوروبا، وفى عشية الحرب العالمية الأخيرة كان المرء يعتقد أن هؤلاء الرجال محكوم عليهم اجتماعيا بالمسئوليات الضخمة الملقاة على كواهلهم وأن يمارسوا طوعا أو كرها سلطة الحكم، وكان من

بينهم هذا الذي كان يتحكم فى كل رؤوس الأموال الإنجليزية فى البرازيل ثم هذا الآخر سيد الأموال العامة أو هذا الحاكم لإحدى الولايات وهو يرنو ببصره إلى منصب رئيس الجمهورية أو هذا الجنرال ذو الجذور الشعبية الطامح فى السلطة.. كانوا كلهم يحكمون من فوق أعمال الكتب التى تزرخ بها مكتباتهم بأفكارهم وآمالهم وسط عالم غير واقعى كانوا يؤمنون بقضية الثقافة وفضائل الحضارات والعقل.. رجال أقرب إلى النمط المتحرر والأرستقراطى فى القرن العشرين.. كل هذا فى جو من الاستبداد الطاغى أو نزعة الأبوة المستنيرة على الأقل و بجانبهم.. ويعيد عن محيطهم من هم مغلقون بدوافع الغيرة نحوهم.. كان هناك جمع من الرجال الجدد من أمثال المهاجرين ممن حققوا الثروات أو رجال الصناعة ممن أناحوا لأبنائهم دون سواهم مستويات من التعليم والثقافة.. بدأت هذه الفئات الجديدة خطوات صعود اقتصادى جبارف واليوم استكملت حلقات التطور الاجتماعى إذ بدأت العجلة تدور. وعلى الجملة فإن المسار اليوم يضم ملاك أراضٍ ورجال صناعة ورجال بنوك، وتراكتت الأملاك والملكيات العائلية الشاسعة وشيدت أفخر المنازل وأروعها فى البرازيل على شواطئ ريد أو فى الداخل عند يثروبوليس وكذلك فى المكسيك فى الثيراكروز وفى أكابولكو وفى ضواحي مدينة مكسيكو الترية أو عند سفوح العاصمة كويرنا فاكسا، وكذلك بدأت المدن تتخذ شكلها، مدن كبيرة عامرة بالفنادق الفاخرة والمطاعم الجائمة على أسطح مبان ذات ثلاثين طابقا على النمط الأمريكى لطاطحات السحاب وذلك دون التعرض لمعجزة أخرى استطاعت أن تخسف ويحرق كل تحفة أخرى أمامها وتقصد بها المدينة الجديدة.. أى العاصمة الاصطناعية برازيليا التى أقيمت فى قلب شبه قارة البرازيل.. ها هو ذا العالم الجديد بمعالمه ليبدو كمن يأخذ ثأره من العالم القديم. أما ما لا يزال ينقص أمريكا الجنوبية فهى الأحزاب السياسية الصلبة المتماسكة وأكثر منها طبقات الصفوة والطبقات البورجوازية المستقرة الميدير ببلو (ومعناها نصف شعر البدن) كما يقال فى شيلي فى تعبير اجتماعى ويطلق كذلك على المواشى من الطبقة الثانية، ولا يكفى بعض المثقفين شئ دائما فلا زال هناك وقت ولا زالت هناك حاجة لظروف هادئة واقتصاد متوازن توزيعا بين أثرياء جدا

وفقراء جدا لكي تطفو على السطح الاجتماعي تلك الطبقة الضرورية للتوازن الاجتماعي المنشود في عالم لا يزال رأسماليا حتى اليوم ولا شك أن ضعف وهشاشة أعواد الطبقة المتوسطة تداني، وكان ممكناً أن تستند عليها أحزاب سياسية جادة يفسر عدم استقرار محامير حكومات أمريكا اللاتينية إذ بدلا من الصراعات بين الأحزاب هناك بين الرجال والجيش يلعب دورا كبيرا وفق مالا يزال حياً من تقاليد الليبردورية عند الجنرالات الرومانسيين الذين حققوا الاستقلال في مستهل القرن الماضي.. ومع ذلك ومع عودة الوعي بسرعة هكذا بين كتل شعبية غير مصقولة نجد من الممكن لظاهر التمددين الحضارى أن تؤدي إلى إحياء البلاد الأمريكية (الجنوبية طبعاً) على سلوك طريق وعرصع يحتم بدونها إعادة تشكيل قاسية لكل الكيانات الحالية وكما قال أحد كتاب المكسيك مؤخراً ستظل بلادنا واقفة على عتبة الباب... على المدخل دون أن تتمكن من الولوج إلى الداخل... إلى عالم رأسمالي حقيقى عصرى ينمو فيه الثراء والرفاهية وإلا فسوف ترى نفسها دون أن تعى أو ترغب ملقاة بين برائن انتفاضات من عنف لا يمكن تفاديها وهى على أى حال لن تستطيع أن تفتح لها قسراً أبواب إشتراكية حقيقية. وفى عام ١٩٦٢ كتب البرازيلى جوزيه دى كاسترو يقول ومن المؤكد أن البرازيل وكان له أن يقول أمريكا اللاتينية لابد أن تنجح فى تحقيق طفرة فى تاريخها الاجتماعى... فالذى نحن فى حاجة إليه تجنب القفزات التى تسقطنا فى الهاوية وذلك بمراعاة هذه القفزات لبلوغ الجانب من الجرف. ولاشك أن لأحاسيس عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار بل افتقاد الثقة التى يشعر بها الأمريكيون الجنوبيون ما يبررها وأقل منها مشاعر التشاؤم... ذلك أن عدم الاستقرار هذا قبل كل شئ دليل على أن هناك حضارة تبحث عن ذاتها... تستكشف نفسها لتتضح معالمها تحت ضغط الحقائق الأليمة. ومع ذلك فهى حقائق ووقائع جبارة والحضارة الوحيدة التى عرفتها أمريكا الجنوبية طويلاً إنما كانت حضارة خارجية واردة ليست سوى نسخة أمينة من جانب محدود من الرجال المحظوظين جداً من حضارة أوروبا بكل ما تشمله من انتقاء ورقة وتهذيب (كذا) وكان الأدب هنا اختباراً فكم من مؤلفات لكتاب من أمريكا الجنوبية من القرن التاسع عشر لم يشك أحد أنها كتبت

خارج القارة الأوروبية، فالأدب لكثير من الناس فى ذلك العصر جزيرة صغيرة ينزرون فيها بعيدا عن الحياة المحيطة بهم وعن أفرادها الذين لايسهمون فى ألعاب الفكر الرفيع تلك ، وقد تابعت هذه الطبقة المثقفة الفكر الأوروبى بكل اهتمام ووجدت فيه ضالتها ورضاها وشغفها. ويفضل هذا الفكر الأوروبى يمكننا فى أمريكا الجنوبية العثور على أحد أنصار الاتجاه الإنسانى الثائر، وهذا التسلسل فى اليقين الوضعى الإيجابى لأوجست كومت (فيلسوف فرنسى ١٧٩٨ - ١٨٥٧، لقب بمبتدع علم الاجتماع) ومن المفارقات الدالة أن الصبغة التى تكتب على العلم البرازيلى إنما هى تعبير عن ولاء واحترام لمبدأ الفيلسوف أوجست كومت (فلسفة الوضعية التى تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية مهمة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة) وانتهت هذه الأزمنة حيث وجدت حضارة أمريكا الجنوبية نفسها بعد إدراك التكتلات السكانية السبيل إلى ممارسة حياة الحضر فى المدن مرغمة على ولوج مجتمعات موعلة فى القدم لاستطيع استيعابها فضلا عن قبول ميراث أوروبى دون أن تعدل وتستبدل فيه على الأقل، وتحاول أمريكا اللاتينية اليوم خلق حضارة خاصة بها (تكون حضارتها هى). ثم مولد ثقافة تضم جماهير الناس، تنشر وتذاع عن طريق الصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما، لابد أن تودى إلى تطور ما، أما أهم ما يشغل بال مثقفى أمريكا اللاتينية فقد تخطوا المقدور منه وأضافوا عليه اسما وشكلا ومع انحسار هيمنة أوروبا منذ الحرب العالمية الأولى وخاصة منذ الحرب العالمية الثانية، بدأت عوامل ربية وشكوك تجاه الولايات المتحدة الأمريكية فى محاولات فرض سيطرتها وذلك فى الوقت الذى أدرك مثقفو أمريكا اللاتينية فيه ثرواتهم وأدركوا حقيقة ما على عاتقهم من مهام، وساهم الشعب بدوره من هنود وسود إذ طفقوا يحتلون أماكنهم على مائدة المجتمع الذى يعيشون فيه، وتوقفت هذه الاتجاهات التى كانت ترى فيهم الفئة المتوحشة إذ بدأت النظرة اليهم تتغير وينبعث الاهتمام بأحوالهم ومعيشتهم وأفكارهم وأمثالهم الشعبية وديانتهم وصاروا عناصر مهمة ومحورا لدراسات عديدة فى تعاطف وود من لدن علماء الاجتماع وكذلك أصبحوا جزءا من النسيج الثقافى الوطنى الوليد وذلك ما يفسر لنا منذ ٥٠ عاما ظاهرة بيع

مصنف من قصص كانت من تأليف جورج آمادو وكتاب كارولينا ماريا تلك المرأة من غمار الشعب وكان الكتاب رسالة أخوة ومحبة وتفاهم بحثا عن العدالة الاجتماعية مما عاد على المؤلفين بثروات كبيرة. وما أروع وصف هذه الحارات الشعبية أزيل جزء كبير منها أو فى طريقه إلى الإزالة لتشييد مبان حديثة.

وفى هذا التوقيت بدأ الاهتمام ينصب على الفولكلور الشعبى لسكان أمريكا اللاتينية بما هو عليه فى كل مكان من انتشار كثيف مثير للإعجاب على أن يتقبل سماعه، وكان أحيانا قليلة يبدو مختلطا بعض الشئ لهذه الموسيقى الصاخبة الزاعقة التى يعزفها إطار باكيس المكسيكيون بآلات الكمان فى جوقات تعمل فى الملامى والمراقص فى البلاد المكسيكية وأفسدتها أفواج السياح الأجانب وامتصاصاتهم ويقال إن الاسم الذى أطلق عليهم «مارياشس»، ويقال إن من بقايا زمن الاحتلال الفرنسى وعموما فلا زالت هناك ذكريات ردية فى أعماق القصص الشعبية من حقبة الاحتلال الفرنسى قابعة فى ذاكرة الشعب، ويحتاج الإنسان يقينا إلى الابتعاد عن الطرق السياحية ويتعمق داخل المجتمعات الشعبية ليتعرف على الفولكلور والاستماع إلى الأغانى البرازيلية العاطفية الكثيرة حيث يتمتع القمر الحزين بحقه فى إلهام هؤلاء العازفين على آلات بدائية موهلة فى القدم فيوصى إليهم بكل ما يرتجلون من كلمات وألحان يعزفونها وينشدونها ويرقصون على أنغامها وقد تعثر فى أعماق المجتمع على سوق فى منطقة تسمى باهيانيه تجد فيها إلى جوار سوق المواشى عروضاً بائسة لبضائع بؤساء مثل قدر من أرز مدخن أو خنزير صغير وبعض دواجن ضامرة مقابل بعض التوستويز (العملة المحلية) كما تباع كل أنواع الفواكه الاستوائية وقد تجد هنا متسولا ضريراً يرتجل الشحاذة مقدما الشكر ارتجالا للمتعاطفين حيث يتمتع الأجنبى الزائر بالفوز بقدر الشكر مصحوبا بالدعوات التقليدية.

ذلك أن الأجنبى الزائر عادة أكثر كرما... أحيانا وعموما فكل أحداث الحياة تمثل مصدرا لا ينفد للنصوص الأغانى الشعبية التى يرتجلها منشدو أو باتويا، وذلك ميناء صغير مهجور على ساحل الاطلنطى لم يتصل يوما بالدنيا من حوله بغير وسيلة انتقال عنيفة مرتين كل أسبوع تمثل فى سيارة مستهلكة فى طريق تقرر

إعادة إنشائه عام ١٩٤٧ ليكون جمالياً بعد أن كان طريقاً للنقل والحمل على ظهور البقال كما كان التفكير فى إنشاء خط نقل كبرى بائى عبر الغابات ترتفع أوتاده وتداً وتداً مخترقة الأحراج إلى داخل المدينة مما ألهم أحد الشعدين تأليف أغنية اسمها تشيجا داد الوز معناها النور الساطع ينشدها وهو يهزف على الفيولا وهى آلة موسيقية بدائية خلال صخب غنائى تحية للحضارة البارزة...!

لكل بلد مآثوراته الشعبية وموسيقاه وقصصه وحكاياته من جذور وأصول هندية وأسبانية وسوداء، ويطلع هذا الفولكلور الحياة الدينية وخاصة العقيدة الكاثوليكية الأقوى على الرغم من تسرب المبرشرين البروتستانت بصورة مسرحية فارضة وتظل الحياة الدينية على الرغم من ذلك بدائية تستند ولا تزال على أساطير المعجزات التى سادت القرون الوسطى حيث تتصل معجزات المسيح بالأساطير الخرافية لدى الهنود وطقوس العجائب التى يؤمن بها سود القارة الإفريقية القدامى، كل هذا يمتزج بأصول الطقوس الرومانية وتتفاقم حرية التفسيرات الدينية لقلّة عدد القساوسة بما لا تسيى فحسب إلى دواعى الورع وينبض على أمريكا اللاتينية ضرورة إعادة تنظيم بيتها الدينى إذ كما صرح بذلك مؤرخ أوروبى بروتستانتى أن الحالة الروحية السائدة فى أمريكا الجنوبية تذكرنا بعصر الإصلاح أو بعصر ما قبل الإصلاح فى أوروبا ضمن جهة تبدو الحاجة الملحة للمطالب الروحية الدينية ومن جهة أخرى نقصاً واضحاً لا يبعث على الرضا ومع ذلك فقد بدأت خلافات التغيير تلوح فى الأفق... وفيرة صادقة. إذ الأدب المعاصر الحديث وكل ملابسات الحياة وأحداثها اليوم وكل الاتجاهات الثقافية فى أمريكا الجنوبية وكل البوتقة مشدودة إلى العودة إلى الجذور الوطنية والقومية وأفضل مثل هو المكسيك فهامى من خلال حركة عريضة تقدمية تنزلق نحو هندية عائدة إلى منابعها الأصلية المفعمّة بالحيوية وفى هذا الإطار تعيد تشكيك دعائمها... وكان الثمن باهظاً أحياناً فمن تجارب قاسية إلى ثورات عنيفة إلى مأس وكوارث لحقت بالبلاد وإن كانت تدفقت من بين كل هذه النكبات بوادر تلك الاتجاهات الأدبية الشعبية وبصورة أفضل هذا الفن الثائر الذى كان الفنان جوزية أروزكو بروسوله الملهم. ونرى آثار هذا الفنان فى قباب كاتدرائية جواد الجارا حيث ولدت مدرسة فنية كاملة... وكذلك هذه السينما الوطنية الأصلية التى أثبتتها «ماريا كانديلاريا الرائعة».

حاشية ١٩٦٦

ظلت الثورة الكردية الشعاع وخط التساوى بالنسبة إلى مصائر بلاد أمريكا اللاتينية، فقد ظلت الكتل السكانية تتفاعل بطائفة تنبثق من الثورات الكامنة قد تكون سيئة التنظيم وأحيانا تفاعلت فيها كتل الشعوب فى قارة أمريكا الجنوبية المتزامية الأطراف ولحقت بأصداؤها المأساة الكوبية. غير أن الثورة تصادمت مع سدود وحواجز خارجية وداخلية، خارجية من جانب الولايات المتحدة الأمريكية فى مياه الكاريبى حول كوبا كما حدث فى بنما وأدت أحداثها الصاخبة ٩ - ١١ يناير ١٩٦٤ إلى قطع العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الصغيرة والولايات المتحدة الأمريكية ثم أعيدت العلاقات فى إبريل لولا أن الوضع القانونى للقناة ظل كما هو لم يتغير عمليا كما أن مشروع ازدواجية القناة بشق أخرى أو اثنين باستخدام التفجير النووى لا يحل القضية السياسية ومآثيره من توتر. وفى البرازيل كانت السدود والعقبات من داخلها سدود وحواجز مضادة للثورة نشأت بعد ثورة ٣١ مارس ١٩٦٤ ويتحدث أعداء نظام الحكم الجديد فى سخرية عن ثورة أول أبريل إذ كان قد أطيح بحكومة الرئيس جولارت فى اللحظة التى كانت تشرع فيها للمضى قدما فى حركة إصلاح لعلها إصلاحات جادة واستولى الجيش على مقاليد الحكم مقلدا الجنرال (وفيما بعد المارشال) كاستيلوورانكو على كرسى الرئاسة وقد أبعدت

هذه السلطة التي وصفت بأنها سلطة تهدئة جماعات اليمين المتطرف فى ريو وساو باولو إلا أنها أدركت أنه يجب عليها أن تخضع للضغوط الرجعية مما جعل الطبقة المثقفة القليلة من أعضاء الحزب الشيوعى السرى تدفع الثمن كما كان على النظام الجديد تجاهل الحياد ففسخت العلاقات مع كوبا لولا أن مصادر القلق الرئيسى كانت نابعة من وضع اقتصادى مشثوم وتضخم نقدى يتصاعد بسرعة ويزيد من ارتفاع الأسعار بشكل مضطرد بقدر انخفاض قيمة عملة البلد الكريزير.

تظل أمريكا اللاتينية بين أزمة سياسية وأزمة اقتصادية واجتماعية ضخمة . كذلك - لارتفاع نسبة معدلات المواليد ونقص الكادرات الكفاء وعدم استيعابها لمستوياتها المادية، وأصبح السؤال هو: هل فى إمكان أوروبا .. هذه القارة القديمة أن تعاونها؟ لتنتشلها من هدهتها؟ وهذه الحالة تفسر معنى رحلة الجنرال ديغول المسرحية من ١٦ سبتمبر حتى ١٦ اكتوبر زار خلالها عشر دول منها فنزويلا وكولومبيا والإكوادور وبوليفيا وشيلي والأرجنتين وباراجواى وأروجواى والبرازيل.

ولكن فرنسا وحدها لاتستطيع منح مساعداتها الفعالة الحاسمة إلى قارة شاسعة كقارة أمريكا الجنوبية، ولكن على أوروبا كلها من أسبانيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا أن تتحد معا لتحقيق هذا الهدف وإنجاز تلك المهمة الصعبة ، والأهم فى عيون الغرب، الغرب الذى يقدر ويعى أبعاد مسئولياته. وفى عام ١٩٦٥ وقع حادثان ذوا دلالة:

١ - فى شيلي عند انتخاب الرئيس ادوارد فريبيى بمحاولته البدء فى تجربة إصلاح سياسى مرتبط بتنمية اقتصادية آخذا فى اعتباره الأصولية الشيلية الخاصة وتابعها باهتمام الرأى العام الديمقراطى فى كل بلاد أمريكا اللاتينية

٢- وفى سان دومينيك اندلعت ثورة دستورية تحت اسم الرئيس السابق جوان بوش حاصرتها القوات الأمريكية وفيما بعد استبدلت بهذه القوات الأمريكية قوات الأمم المتحدة وفى عام ١٩٦٦ أعيد انتخاب الوزير السابق حاكم مدينة تريجبيللو (مدينة فى بيرو) فتولى بالنيابة بعد اغتيال الدكتاتور وأعيد انتخابه للرئاسة .. وفى يناير ١٩٦٦ عقد مؤتمر القارات الثلاثة فى هافانا وفيه سمح لكوبا أن توثق

عزى علاقاتها واتصالاتها السياسية مع بلاد العالم الثالث وأن يتولى الاتحاد السوفيتى نوعا من الإشراف على الحركات الثورية فى كل من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وبينما كانت حروب العصابات تتصاعد فى كل من كولومبيا وجواتيمالا وبيرو وفنزويلا إذا بالأنظمة العسكرية تتكاثر ثم يجئ الدور بعد البرازيل على الأرجنتين حيث يتولى الجيش منذ يونيه ١٩٦٦ السلطة ومقاليد الحكم مباشرة.

الفصل الثاني

أمريكا.. أفضلها
الولايات المتحدة ..

أمريكا.. أفضلها الولايات المتحدة

ربما كان الأقرب إلى الفهم أن نقول إن ذروة القارة الأمريكية أُرادن لهذا البلد من أمريكا وفي عداد أن تظل فترة... نادرة خارج السلسلة، لقد كانت طويلا إحدى الحضرارات كالمسافر بلامتاع واثقة من أن أمامها سوف تنفتح أبواب مستقبل أفضل لا ينتمى إلا لإرادتها هي لا أحد سواها يستطيع بلوغه، ويؤكد جيفرسون توماس أحد مؤسسي الدستور عام ١٧٨٧ قائلا: إن أمريكا جديدة في شكلها ومبادئها ولم تتوانى لحظة عن الاعتقاد بهذا المفهوم كل صباح وأن الأرض للأحياء... والحق أنها عبرت - وخطوات ثابتة - كل ما واجهته من أزمات اقتصادية واجتماعية أو سياسية ولم يبين لحظة أن مخزونها من التفاؤل قد نصب أو هو على وشك النضوب... وإلى زمن قريب حيث اندلعت أزمة عام ١٩٢٩ من وول ستريت (ص المال) وأصاب تداعياتها أمريكا باقتصادياتها السعيدة في عنفوان ازدهارها لاشك، وهكذا أوجدت نفسها فجأة في مواجهة أول كارثة مالية ولم يكن كافيا لتجد العلاج لهذه الأزمة أن تستعبد ازدهارها من جديد وبصورة أكبر من أي وقت، فانتجتها ولأول مرة إلى ماضيها لالتتعرف على جذورها، فالأمريكي العادي لا يؤمن بالقيمة التفسيرية للتاريخ يستمد منه الدعم والتشجيع إذ

تواكبت معاً مشاعر الحنين إلى الماضي مع إنحسار العقيدة الإيمانية فبدأ ذبولهما معاً ففي زمن الانطلاق كان الأمريكيون في زمن الرخاء والازدهار ينظرون إلى المستقبل وتفكيرهم يتجه إلى الحاضر والآن هاهم في عصر تكتل الاحتكارات الذي انخفضت فيه ساحات التنافس وفرص استغلالها يلتفتون وراء ظهورهم ناظرين إلى العصر الذهبي... بهذه الكلمات التي قالها واحد من أحسن المراقبين هوريتشارد هوفشاور عام ١٩٥٥ وأمريكا الفتية تشيخ قليلاً وقد أدركت قيمة التاري مقترية من ساعة الحقيقة لتتعرف على ذاتها، ها هي تدرك أنها منقسمة فيه من عدم اكتراثها بماضيها وفي خضم أنانيتها الجامحة وميلها إلى العزلة ورفضها كل تنازل عن حرية الفرد أو الوطن ... ها هي اليوم تدرك - مع شعورها بالأسى لما ضاع منها من زمن - أن هناك وحدة ثقافية وسياسية تقليدية ودعائم تركز عليها الحضارة الأمريكية ... بالضبط .. أليست هذه التقاليد الضمنية محكوما عليها بأن تنزوي وتبتعد في مواجهة ظروف الحياه العصرية في الولايات المتحدة الأمريكية غير أن الماضي بدأ يؤثر على كاهلها ... بدأت أثقاله تميل!

ماض مشجع كشف بالغرض

عاشت أمريكا طويلا فى ظروف مصير جديد دون أن تعكره خلال أيام سابقة كأنما كان الماضى يمسح نفسه مسحاً ذاتياً وكانت القاعدة هى الهروب من كل الفرصة أو الفرص المواتية هو مفتاح كل شئ أو كلمة السر فكل إنسان عليه أن يلحق ويستمسك بالفرص التى تتاح له ليكون وليثبت جدارته بأنه إنسان وعليه كذلك أن يصل فيها إلى أقصى مدى يمكن أن يحققه له، وكان المعتقد أن التنافس يزيد من ترسيخ كيان الإنسان ومفاهيمه وتجاريه، وجماعيا مشتركة سارت الولايات المتحدة فماضيتها هوسلسلة من الفرص المتاحة.... أمكن الإمساك بها فور انبثاقها لتحقيق النجاح عادة فيها .. ولستعرض هنا هذه المجموعة من الفرص القديمة قريبة العهد.

الاستعمار والاستغلال

كانت الفرصة الأولى زمن الغزو ربما كانت متأخرة أعقبها فترة احتلال أحد القطاعات الساحلية الأمريكية والاستقرار فيه، وبدأ السباق يفتح لأمريكا إثر الرحلة التاريخية التي قام بها كريستوفر كولومبس ١٤٩٢ وكان الفوز لأسبانيا (الكاستيلا) (جزء من أسبانيا) وفي عام ١٥٠٠ أى بعد ثمانى سنوات تمكن البرتغاليون مع الفاريز كابرال بلوغ أراضى السانتاكروز (بوليفيا) ثم تلاهما الفرنسيون سواء فى سفنهم التجارية أو سفن القراصنة أو الاتنين معاً فوصلوا إلى سواحل العالم الجديد كافة حتى جزر الأنابل وفلوريدا وسواحل البرازيل أقل من عمليا التي كانت نظريا فى ايدي البرتغاليين، وتعرف الفرنسيون على كندا ١٥٣٤ - ١٥٣٥ واستقروا أخيرا فيها عام ١٦٠٣ أما الإنجليز فقد وصلوا فى آخر المطاف حيث رسا والترابى على الساحل الذى سرعان ما اتخذ اسم فيرجينيا أواخر القرن السادس عشر وقام بتأسيس منشأة مؤقتة لم تعش طويلا ووصلت رحلات السفينة. وبين فلور عام ١٦٢٠ عند رأس كود على ساحل ما سوف يطلق عليه ولاية ماساشوستس. وبمنظرة أولى كان الوضع أشبه «بحصة» جغرافية غير مستحبة: ساحل كثيب تتقاطع مصاب الأنهار والخلجان ومتصل ببحار داخلية بمعنى الكلمة منها ضفة كسنيريك التاسعة بالإضافة إلى ساحل مستنقعات مليئة بالغابات

حصور غربا بالجبال (جبال البجانيس) الرهيبة أى منطقة شاسعة يلتحم بعضها
عض أسوأ التحام ولا يربط بينها سوى وسائل انتقال ساحلية بطيئة وفضلا عن
لك فقد احتاج الأمر إلى قرابة العام لمطاردة المنافسين وهم الهولنديون
لسويديون الذين جاءوا متأخرين وأخيرا كان البقاء فى مواجهة المعارك الهندية
مفاجئة. ومع ذلك فقد كشف الفرنسيون القادمون من سانت لورانت واحتلوا
بحيرات العظمى ووادى الميسيسيبى العظيم حيث أنشأت لانوفيك أورليانز وتحقق
فرنسيين النجاح الأول فى تطويق أول مضيق وانحصر رأس الجسر الإنجليزى
بن فلوريدا حيث كتل الأسبان مواقعهم الأمامية والمناطق الشاسعة، أقام الفرنسيون
ببراطوريتهم الواسعة بتعددهم عدا الغابات بحثا عن الفراء وبعثات الجزويت
مبشرين، وفى الغرب حيث امتدت سلطة الإنجليز التى اصطدمت هناك بحصون
حاميات الفرنسية... ونرى فى غمار هذا الكم الهائل الجارف من الوافدين أين
قع الفرصة الأمريكية إذ بدأت المستعمرات الإنجليزية تدعم كياناتها باحتلال
سلب خصوصا فى الشمال .. خاصة فى ما ساسوتس حيث نمت واتسعت مدينة
وسطن وحيث شيدت نيويورك فى الوسط أى يورك الجديدة (نيوامستردام
لقديمة) وفيلاديلفيا مدينة الكويكرز (البروتستانت).

نمت هذه المدن التى نشأت مرتبطة بأوطانها الأصلية وحياتها التجارية بين
حضان بلد «متوحش»، كانت تتميز بقدرتها على تولى أمورها بنفسها وهى تعيش
فى شبه حرية تماثل أنماط مدن الفروق الوسطى الأوربية وأفادتها الفتن الإنجليزية
نعمدت إلى إبعاد الجماعات الصاخبة من البروتستانت وصار القادمون الجدد
يعدون بمليون إنجليزى يقابلهم ٦٣ ألفا من الفرنسيين وفى عام ١٧٦٢ تجئ
لفرصة الإنجليزية أو الأمريكية تتصاعد عند انتهاء معركة الكفاح الحقيقى عن
الانفجار بين الأسبان والفرنسيين والنتيجة منذ اللحظة الأولى كانت معروفة فى
قارة فيها مليون إنجليزى مقابل سبعين ألف فرنسى على الرغم مما حققته الجيوش
الفرنسية فى كوبيك (كندا) بقيادة مونكالم ١٧٥٩ ولم تكن مشاكل استثمار ولا
إعمار المناطق المحتلة شغل السلطة الشاغل متخوفا من نقص عدد السكان فى
فرنسا بالإضافة إلى الصعوبات وعوامل القلق الداخلى كل هذا أدى إلى أن يرتحل

من أوروبا حوالى ٣٠ إنجليزياً مقابل فرنسى واحد مع اعتبار قوة كل منهما... تفاوت غريب فى النسب والمعدلات بل المسوغات وآثارها فإذا كانت اللغة الإنجليزية اليوم وثقافتها التى تصاحبها هى التى لها السيطرة فى عالم اليوم فإن السبب يرجع إلى بعض الأعداد من السفن قامت كل عام بثقل حفنة من الفتيان المجندين أغلبهم من الأميين. ثم إن إعادة كتابة التاريخ تعنى الاستسلام لمرض له اسم لعله (يقصد سخرية القدر) ويقول أمريكى صديق يهيم حبا بفرنسا مازحا أسفا وهو يحلم بالأكلات الفرنسية الشهية: آه لو كانت فرنسا تفوقت فأى مصير كان مقدرا فى شمال القارة اليوم حيث كان خليقا أن تسود عظمة الحياة وروعة المطبخ الفرنسى، أما أول انطلاقه أمريكية اقتصادية فكانت فى قطاع الزراعة والنجاح كان فيها مسألة حظ إضافى إلى جانب انطلاقة كندا بفضل خط ملاهى مياه من الجنوب إلى الشمال فى كل مكان تؤمها كل وسائل النقل المائى من زوارق وسفن شراعية مخصصة للصيد والشحن ثم قوارب السباق الرفيعة، وفيما بعد إذا احتملت هى الأخرى دورها الرئيسى تمخر عباب البحار وتصل أوروبا والبحر الأبيض المتوسط وجزر الأنтил وسواحل امريكا اللاتينية والمحيط الهادى وكلها تشرح المخاطر التى تعرضت لها حركة التجارة وكان الأسطول الإنجليزى من هذه المراكب الشراعية السريعة بما فيها من عصاة حتى بحر العانش فيما بين ١٧٧٦ و ١٧٨٢ وضريرات موجعة لهم أصابوا بها انجلترا من ١٨١٢ حتى ١٨١٥ فى حربهم الظافرة التى أثرت على تاريخ نابليون قليلا وكانت علة ثراء بعض المدن الأمريكية منذ القرن السابع عشر... ولاشك لوائح تنظيم التجارة التى فرضتها انجلترا كانت تقضى بأن تشتري المستعمرات الأمريكية من البلد الأصلى المتروبول كل ما يلزمها من سلع مصنعة تكون فى حاجة إليها ولو كانت أساسا من نتاج بلاد أوروبية أخرى، وكانت اللوائح من جهة أخرى تقضى بأن تباع إلى انجلترا أو مستعمراتها تقريبا كل المنتجات الزراعية باستثناء بعض المنتجات الحرة الممنوع دخولها إلى انجلترا كالحبوب والأسماك، غير أن ذلك لم يمنع بنسلفانيا من أن تباع لانجلترا بأربعين ألف جنيه على حين اشترت منها بما قيمته نصف المليون.. تلك إحدى الحقائق التى تردد ذكرها كثيرا فكيف إذن سد الفرق؟ يرد

بنجامان فرانكلين أمام إحدى لجان مجلس العموم شارحا لأعضائها كيف الخروج من هذه الحالة الشاذة بقوله: الفرق تسدده المنتجات التي ينقلها إلى جزر الأنتيل ولم تبع في الجزر التابعة لنا أو إلى الفرنسيين والأسبان والدانيماركيين والهولنديين أو بأثمان المنتجات التي ترسلها إلى المستعمرات الأخرى في القارة الأمريكية الشمالية بنيو انجلان اسكتلندا الجديدة وكارولينا وجورجيا بما نرسله إلى سائر بلاد أوروبا ونحن نحصل في كل مكان على نقود أو على صكوك أو على سلع تسمح لنا بأن نسدد لإنجلترا وذلك فضلا عن أرباح تجارنا وبحارتنا النشطين في هذه الرحلات الدائرية وإلى عائدات النقل الذي تتولاه سفنهم فجمع آخر الأمر في بريطانيا العظمى ما تقتضيه الحسابات من موازنات ومثل هذه العمليات التجارية الثلاثية الزوايا. تضيف أرباح النوالين. ولا ننسى الصيد فلم يترك البحارة الأمريكيون من فرض الاستفادة المتاحة لهم في البحار إلا انتهزوها. وفي أواخر القرن الثامن عشر فاقت حمولات أسطول الولايات المتحدة الأمريكية حمولات أى دولة أخرى بل وحمولاتها جميعا باستثناء إنجلترا نسبيا. وهكذا انغمست في مجالات الاقتصاد العالمى وخضعت لتبعاته واضطرت إلى أن تلعب دورها فيه كما أتاح لها أن تستفيد من انطلاقاته وانطلقت باحثة عن المعادن الثمينة التي تفتقدها . ولم يكن ممكنا تحقيق مكاسب بحرية بغير مغامرات بعيدة مليئة بالمفاجآت ولم يكن هناك من مشكلة سوى الاختيار فيما بينها، فوصول السفن المحملة بالقمح الأمريكى إلى البحر المتوسط أو موانئ فرنسا الثائرة ونجاح أسطول السفن الأمريكية في التجارة «المشبوهة» (يقصد حركات التهريب) في اتجاه أمريكا الأسبانية البرتغالية بنفس الوسيلة التي سوف يغامرون فيها على عباب المحيط الهادى وعن طريق رأس الرجاء الصالح.

ثم كان انطلاقا من سان فرنسيسكو فيما بعد فور تحرير المستعمرات من الاستعمار الإنجليزي وسيطرته عام ١٧٨٢ أن حاولت المستعمرات القديمة الوصول إلى الصين لعلها تجد ملجأ ترسو فيه تلك السفن وتستريح وكذلك سفن صيد الحيتان فى المحيط الهادى بما يدفع أمريكا عام ١٨٥٣ إلى إرسال السفن «السوداء» بقيادة الأميرال بيرى إلى خليج طوكيو، فكان ذلك إيذانا ببداة التداعيات التي تزامنت مع

هذه المرحلة والتي وقعت بعدها . ولم يكن هناك ما هو أكثر بهجة من تقابل هذه السفن الأمريكية بعضها مع بعض عبر بحار الدنيا السبعة واسمها السفينة ذات الأشرع الثلاثة التي نقلت اللورد مكارتنى سفير ملك إنجلترا (الأسد) ثم ترسو في فبراير ١٧٦٣ عند جزيرة سان بول جنوب المحيط الأطلنطي وهناك عثرت على خمسة من صائدي عجل البحر ثلاثة فرنسيين وإنجليزيين مجهزون لرحلة يبيعون فيها ٢٥ ألفا من جلود عجل البحر في كانتون (بالصين) على ظهر سفينة من بوسطن نصف فرنسية ونصف أمريكية وتنقل كذلك إلى الصين جملة من فراء القدس الكندي المشهور فيسارع السفير بالاستيلاء على السفينة غنيمة حرب حيث أنها بشكل ما - مريب فرنسية - الجلدية وكان السفير قد سمع مؤخرا عن الحرب التي أعلنت بين إنجلترا وفرنسا في يناير ١٧٩٣ . ومثل آخر صغير كان عند قيام نجل الشاهر الألماني برحلة حول العالم في خدمة القيصر كوتزيبوى فقد شاهد في أحد موانئ ألأسكا الجنوبية في ٢٦ أبريل ١٨٢٥ سفينة أمريكية ذات شراعين قادمة من بوسطن في خط سيرها عن طريق رأس الرجاء الصالح محملة بالمواد الغذائية لاستبدالها في إحدى محطات الرسو الروسية مقابل ٢١ ألف من جلود القطط البحرية (السنور) وهي أقل سعرا من فرو ثعالب الماء (القدس) الثمين حيث يكافح المشتري ويأمل في خط سيره حتى جزر الساندوتش بيعها في كانتون وكان فريق البحارة بما فيهم الربان نفسه عند الوصول إلى ميناء ألأسكا في حالة سكر شديد ولكن السفن بفضل المصادفة تجنبت الاصطدام بالصخور والغرق في اعماق البحر والأمريكيون يتمتعون بالمهارة رغم جهم للخمر

فيستطيعون في كل موقع التخلص من المآزق في هذا العصر عصر الازدهار صيد الحيتان وذلك ما مهر فيه بحارة ميناء نيويورك وموانئ نيوانجلند وقد وصف هذه الحقبة المزدهرة الكاتب هرمان ميلفيل (١٨١٩ - ١٨٩١) حيث عايشها بنفسه واصفا هذا العالم الخشن وقسوة الحياة وخطورة صيد الحيتان وكيف بزغت المدن وازدهرت من هذا المورد الوحيد من أمثال مدن نيويورك أو نانتوكيف . وفي عام ١٨٥٠ بدأ صيد الحيتان ينحسر حيث استطاعت التريوت المعدنية والغازا إنزال

«هبال»^(١) الحيتان عن عرشه وسيلة للإنارة . وفى نفس الوقت أصابت أسطول الولايات المتحدة ضربة قاسمة إذ ظهرت السفينة التجارية الإنجليزية المصنوعة من الحديد وبدأ الاتجاه نحو الداخل .. داخل القارة بغية الاستكشاف والقهر... أى انفتاح على أراضيها ذاتها وبدأ الأمريكيون يغمسون فى تاريخهم القارى وغزو هذه المساحات الشاسعة وامتدادها أكثر فأكثر فى اتجاه الغرب وإنشاء خطوط السكك الحديدية ومدها وأساطيل الملاحة الساحلية والداخلية للحاجة الضرورية الملحة فى توفير وسائل النقل وكل هذه المهام الضخمة ... انتزعتة نحو المحيط... وبدا المحيط فرصة جديدة على هوى الحياة الأمريكية فعندما نوقف مشكلة عن أن تكون أساسية إذا بمشكلة أخرى تظهر فتجرى وراء هذه وتهمل تلك ويمكننا القول بأن أمريكا استبدلت بالمحيط قطعة أرض شاسعة... أمريكية سرف تملكها بأسرها لنفسها ولصالحها. ولم يكن ثمة أفضل ولا أكثر مدعاة للفخر من النضال فى سبيل تحرير المستعمرات الإنجليزية داخل أمريكا ١٧٧٣ - ١٧٨٢ وهى تحتاج إلى تحديد وفى عام ١٧٦٢ تلاشت الإمبراطورية الفرنسية بين يوم وليلة من فوق الأراضى الأمريكية واتضح كيف أرادت إنجلترا نوعا من التواصل أو القطيعة غير أن التنازلات الإنجليزية كانت من البطء بحيث يقال إن إنجلترا أخطأت بهذا البطء كما أخطأت كذلك بغير ضرورة فى رفع الضرائب محتفظة فقط بالضرائب على الشاى حتى لقد ألقيت صناديق الشاى فى البحر من سفينتين تابعتين لشركة الهند فى ميناء بوسطن فى ١٦ ديسمبر ١٧٧٣ وكانت التقاليد السياسية الإنجليزية تنص على ألا ضريبة بغير رضا الممولين ولم يكن إنجليز القارة الأمريكية ممثلون فى برلمان لندن. وما كان أكثرها من أخطاء بالإضافة إلى ما وقع فيه هذا المؤرخ الإنجليزى من خطأ فيما زعم أن الإمبراطورية الإنجليزية منذ منتصف القرن الثامن عشر بدأت تتخبط إذ ها هى اليوم بعد تركزها حينئذ فى الأراضى الأمريكية والاطلنطى تميل إلى تغيير المسار متجهة إلى المحيط الهندى والهند واحتلال البنجاب عام ١٧٥٧ فضلا عن امتداد التجارة إلى الصين ويتساءل هذا المؤرخ قائلا: إن وراء هذا التحول نحو الشرق الأقصى والانسلاخ من العالم الجديد

(١) بال الحيتان: هى مادة زيتية توجد فى رأس الحوت.

نزعة رأسمالية متعجلة بحثا عن معدلات ربحية عالية. وقد أدت كل هذه الأسباب وغيرها إلى نشوب نزاع مسرحى آخر الأمر لننتج عنه - من جانب إنجلترا - خضوع واضح ساهم فيه تدخل كل من فرنسا وأسبانيا مما ساعد الثوار المتمردين كثيرا على تحقيق انتصاراتهم ولكنهم مع ذلك وقعوا عام ١٧٨٢ على معاهدة سلام مع إنجلترا سرا متخيلين عن حلفائهم فلم تفقد إنجلترا ماكانت تخشى فقدته فى معاهدة فرساي ١٧٨٣ لتدرك أن الازدهار الاقتصادى سيكون تعويضا على فشلها السياسى، ولاشك يتساءل المؤرخ دون العثور على رد عما عسى أن يحدث بغير هذه الثورة الصناعية التى وفرت لإنجلترا العناصر اللازمة لتحقيق هذا التفوق الدائم؟ وعموما فنحن إذا ما اهتمنا بمصير الولايات المتحدة الأمريكية فلا مجال للتوقف حيال هذه الظاهرة على المستوى الدولى ولاحتى على لافاييت (جنرال ورجل دولة فرنسى ساهم فى حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ليبرالى) وما قام به ولا على مهارة بنجامين فرانكلين وواقعيته ولكن نتوقف أمام الاستقلال ذاته وإعلان الاستقلال فى ٤ يوليو ١٧٧٦ ودستور عام ١٧٨٧ الذى جاء تنفيذه بطيئا حيال تلك السنوات الحاسمة... حيث أدركت أمريكا الفنية هويتها ومصيرها إذ ولدت أمريكا شابه تحدد شكلها. الجغرافى إلى حدود المنحدر الأطلسى وهى اقتصاديا بلد زراعى قبل أى شئ وهى على المستوى الاجتماعى محكومة بسيطرة من ملامح الأراضي هم الآباء المؤسسون الذى رفعوا قواعد الديمقراطية الأمريكية ومن بينهم جورج واشنطن وتوماس جيفرسون، هؤلاء الرجال من أولى الإرادة والتصميم على إقامة القواعد لأفضل الدساتير فى العالم وقيل عنهم منذ زمان: إن هؤلاء الآباء، بنوا دستورا مرتكزا على فلسفة هويز فيلسوف إنجليزى وعقيدة كانكان مصلح فرنسى أسس عقيدة لاهوتية فالإنسان عندهما تغلب روحه الشهوانية على النقيض من الرب ويكتب الجنرال نوكسى إلى واشنطنون غداة عصيان الشيز أن الأمريكيين على أى حال... رجال.. رجال تتملكهم الانفعالات والشهوات الصاخبة التى تنتمى إلى هذا الحيوان (١٧٨٧) ويجئ إعلان الاستقلال متضمنا حق الأحزاب والمساواة بين الناس كافة أمام القانون غير أن أقلين بال هؤلاء الملاك ورجال الأعمال ورجال القانون وأصحاب المزارع والمضاربين فى

الأسواق التجارية ورجال المال بإيجاز هذه الطبقة من الأرستقراطيين كان قرار حماية الملكية والثروة والميزات الاجتماعية، فقد كانت أمريكا تولد وهي تمتلك ثروتها و ثرواتهم بما فيها القياسية منها يتعين عليها قيادة الأخرى وكان يكفى الاستماع إلى الآباء المؤسسين وهم مجتمعون فى مؤتمر فيلادلفيا لإعداد الدستور أو قراءة خطاباتهم أو خطابات نظرائهم حتى تتضح معالم طريق تلك التيارات الفكرية، ونرى هذا المزارع الشاب شارل بنكينى يقترح بأن لمن يملك مائه ألف دولار أن يكون رئيساً للجمهورية وهاملتون الذى يطالب بمحاربة الديمقراطية وقاضها وصفاقتها فبالنسبة لهم جميعهم مثل هاتشستون ابنه واحد من الحكام أن الجمهور... الدهماء القذرة (الغوغاء) هى وحدها التى لها كل الحقوق، وبدأت الجماهير تفكر وتعقل... ما أتعس هذه الزواحف... فهى تتدفاً بأشعة الشمس وبعد لحظة تعض وبدأت طبقة (الأشراف) ينتابها الزعر وتتخوف منهم ويعترف ماسون بذلك حيث يقول لقد كنا أكثر ديمقراطية مما كان ينبغى ولحذر الذهاب إلى أبعد من ذلك إلى أقصى المسار وليس هناك ما هو أكثر إقناعاً من قول هذا الكاهن من ولاية نيوانجلند جيريمى بلكناب إذ يكتب إلى صديق له: علينا أن نتمسك بوجاهة المبدأ القائل بأن الحكومة تستمد جذورها من الشعب ولكن يجب العمل على أن يفكر الشعب تفكيراً سليماً ليدرك أنه غير قادر على حكم نفسه. ذلكم تفسير لمنطق... النظام الذى يغوص تحت مسمى الحرية والمساواة إنه منطق الرأسمالية فى أكثر مراحل تواضعه، فلأغنياء السلطة والمسئوليات أما الآخرون فإليهم هذا التنازل الكبير فيما قد يفهم بالقانون ضد الأثرياء، كما أن الأثرياء ضدهم ولايهم شئ بعد ذلك حيث يصف الدستور الأمريكى نفسه بأنه «جديد، نصير المساواة منصف بقدر ما يهدف إلى التوازن للتحكم فى عواطف واندفاعات الحيوان الإنسانى الأنانى الشرس العنيف.. دائماً.

ودستور عام ١٧٨٧ هو آلية حركية بأثقال متوازنة متعقّلة بارعة، فالسلطات يجب أن تكون منفصلة متوازنة بين الأطراف بما لايتيح لطرف أن يتخطى الحدود القانونية وإلا أوقعه الآخرون فى الخطأ بصورة فعالة أما المجتمع فلم تلغ فيه الامتيازات يقينا وخاصة السكروسانت أى الملكية المقدسة ولكنهم قرروا أن يكون

طريق الثراء مفتوحاً أمام الكافة... أليس ذلك يسيراً في هذه البلاد الشاسعة...
الجديدة التي هي أمريكا؟ ويشرح ريتشارد هوفستادتر بإيجاز هذا الاتجاه المثالي
ساخراً فيقول: كان الآباء المؤسسون يعتقدون أن بلداً ذا تصميم جيد سوف يفشل
بالمصلحة للمصلحة أى بالطبقة للطبقة وبالتحزب وإلى فرع من فروع الحكومة
بفرع آخر في منظومة من الكتب المتبادلة، وفي الحقيقة يجب الاعتراف بأن
التاريخ الأمريكي في القرن التاسع عشر كان يبدو كساحة تنافس صحن وميدان
صراع مصالح وحش... مصالح خاصة إذ أن الصراع أكثر عدالة وأكثر جلباً
للمنافع... هكذا صار المجتمع الأمريكي أكثر مما كان عليه حال البلاد الرأسمالية
الأوروبية فليست الأرباح والفوائد حكراً مقصوراً على أفراد طبقة ضيقة مغلقة بل
مسموح لكل إنسان أن يجرب حظه في مجتمع أكثر انفتاحاً وأكثر تحقيقاً للمنافع من
غيره وأن يتمكن يوماً من اجتياز الحاجز العائق، وكانت صورة الرجل العصامي
صورة تقليدية تعبر عن الإنسان الأمريكي ولعلها في طريق الزوال... اليوم .

غزو الغرب

كانت الولايات المتحدة منذ البداية تصف نفسها بأنها أمة رائدة بما قد تكون عليه مشاعر كل الأمم ذات الأراضي الشاسعة حيث يستوجب الأمر السيطرة عليها وتهيتها لإقامة الناس وسكناهم وإخضاعها لأبعاد وقياسات الإنسان مثل روسيا والبرازيل أو الأرجنتين على سبيل المثال فالامتداد الجغرافي يمثل الشكل الأول للكيان الذي يتحكم في كل ماعداه وكل نمو وخاصة النمو الاقتصادي لأمة أو الدولة وأقل منه لو كان يتعلق بحضارة والتاريخ أحسن الصنعة فقد يسر للولايات المتحدة أن تمتد من الأطلسي حتى الهادي ولنتخيل في ذلك فرنسا تستقر من الأطلنطي حتى الأورال ، وقد اشترت الولايات المتحدة مقاطعة لويزيانا عام ١٨٠٣ ثم حصلت على فلوريدا من الأسبان في عام ١٨٢١ ثم كان أن حصلت من إنجلترا على مقاطعة أوريجون عام ١٨٤٦ برغم احتمالات غضب كندا ثم تمكنوا بعد حرب قصيرة سهلة من انتزاع تكساس من المكسيك وكذلك نيومكسيكو وكاليفورنيا عام ١٨٤٦ ولاشك علينا أن ندرك عسى أن يحدث لو كانت روسيا أو بعض دول أوروبا قد رنت ببصرها للاستحواذ على هذه المناطق أو بعضها وما قد

ينشأ من الكوارث وواضح جدا أن هذا التاريخ الريادى إنما جاء نتيجة لسهولة مباركة مشكورة أن المهمة كانت ضخمة وصعبة عجزت عن مواجهتها وحدها أمريكا الفنية الناشئة. فمذ البداية وبحكمة متعلقة جاءت مراسم عام ١٧٨٧ لتحفظ بالمناطق التى كانت حينئذ خارج سيطرة الغرب وملكا عاما للاتحاد وكان فيما بعد كلما استأنف السكان الزحف إليها والاستقرار فيها بدأت ولايات جديدة تنشأ وتتكون حتى صار عددها ثمانيا وأربعين وآلاسكا التاسعة والأربعين وهاواى الخمسين ولقد تشكل الاستعمار فى أشكال وأنماط متعددة منذ عام ١٧٧٦ على الأقل لعله انتهى مع توزيع تقسيمات آخر أراضى أو كلاهما عام ١٩٠٧ فقد زخرت أحداث التاريخ بتفاصيل الحكايات ابتداء من نقل طلائع المهاجرين فى المركبات المعظمة الشهيرة وصراعات ركابها ضد الهنود مطلقى السهام حتى أواخر المستعمرين ممن يستخدمون القطارات البطيئة فوق السكك الحديدية الممتدة من محيط إلى محيط... ثم هل هناك من فائدة ترجى من ذكر تلك الأحداث التى زخرت بها عامة الأفلام الأمريكية وكذا ما وقع خلالها من مغامرات؟ كانت كل تلك المشاهد والصور المعروفة عند العزب الأقصى البطولى إنما المهم أن نذكر مدى ما تقدمت إليه مغامرات البيض من مساحات وتخوم شاسعة فى غزواتهم لأراضى الولايات المتحدة الأمريكية وصراعهم لغزو تلك المناطق وكان يتسم بطواهر مادية ومعنوية... نحاول هنا إلقاء الأضواء على الدور المحرك منذ البداية لهذا المعين الروحى والآماد البروتستانتية الجديدة وما وراءها التى تجاوزتها الحضارة الأمريكية فى مرحلتها الحاسمة الثانية.

وقد قيل إن الرأسمالية هى التى تصدت بالدور المنظم الرئيسى لهذه المسيرة نحو الأمام... نحو التقدم، وللتخيل هذا المهاجر المستعمر يتسلم قطعة أرضه المقدرة بمائة وستين فداناً ويقيم بمنزله الخشبي عليها محاولاً حرث ثم زرع الأرض الخفيفة المجاورة للحبال وتشتد الأرض كلما اشتدت جهوده فى الأرض الواطئة إلى حدود الأودية فيضطر إلى قطع أشجارها لتهيئتها وتمهيداً للزراعة. وهذا الفلاح ليس فلاحاً بالمعنى المفهوم ولعله كان يزاول بالأمس مهنة أخرى مختلفة تماماً. وكان أول ما يجب عليه معرفته قيادة فصيل من الخيول لحرث

الأرض وزرعها لإنتاج القمح دون إعداد الأرض بتدخينها خاصة إذا كان طليعة القادمين فتراوده فكره بيع الأرض التى عاش عليها سنوات فور حصوله على بعض المال ذلك أن كل شئ إنما ملحه مسبقاً وهو قابع فى مكانه البعيد فيبدأ بالعيش على الطعام المحفوظ ويصطلى بالفحم إذا ما وصلت خطوط السكك الحديدية عنده فإذا ما كان توفر له محصولين أو ثلاثة تنجح له رأسمال لم يتردد عندئذ وسرعان ما يعيد بيع أرضه متى حصل مقابلها على مبلغ أعلى قيمة من مهاجر جديد يبحث عن قطعة أرض ثم يتولى إلى بعيد نحو الغرب طبعاً مع تكرار ما وقع تارة أخرى ... وهكذا ... فهو كما وصفه لويس جيرارد ليس فلاحاً مرتبطاً بأرض له فيها جذور ممتدة بل هو أقرب إلى المضارب ... حقق صفقة كما قال أحد المؤرخين ... باشر اللعب ... لعب وغامر ولكنه وهذا طبيعى لن يكسب دائماً.. إلا أنه يواصل اللعب. وهناك آخر مشابه، مثل مدينة تنشأ فى الغرب الأوسط حوالى عام ١٨٦٠ لتتخيلها وقد عادت إلى كيانها الأصلي محطة السكك الحديدية البدائية والفندق البدائى ومخازن البضائع والكنيسة والمدرسة والبنك فكلها منشآت ناقصة بدائية ... هذه المدينة بدأت تبرز إلى الوجود يضارب على نموها وتكاثر سكانها فيبدأ فى اقتناء أفضل الأراضى وأجودها ويجند «قادمين، جدداً وبديهي أن الإنارة الكهربائية متوفرة وعماً قريب سيبدأ سير الترام ثم الهاتف (اكتشف عام ١٨٧١) ويلاحظ المسافرون الإضاءة بالكهرباء وسير الترام فى طرق المدينة التى لم تقم فيها مبان ولا منازل بعد.. فيصرح أحدهم ... هذا تماماً، نريد حتى نقيم المنازل ونستطيع بيع الأراضى بأسرع ما نستطيع، وفى مدينة بسمارك عاصمة ولاية داكوتا التى انشئت عام ١٨٧٨ حيث يقيم المستعمرون الألمان بعد خمسة أعوام افتتح الكابتول مركز إقامة الحاكم ولذلك أعد أهل بسمارك حفلاً كبيراً لافتتاح فاخر رائع ولم يكتف الأهلالى بدعوة، الكاتب الشهير جيمس بروس الذى ألف فيما بعد كتابه عن الجمهورية الأمريكية فحسب، بل وجهوا الدعوة إلى الجنرال جرانت رئيس قديم للجمهورية الأمريكية ومحارب شهير كما كان هناك من مشاهير زعماء قبائل السود لكفاحه فى ثورة عصيان ضد البيض جاء ليلقى كلمة لإحياء الحفل بلطف ودماثة. ويذكر الكاتب بروس وهو من أصل أسكتلندى

أن الكابيتول شيد على بعد ١٥٠٠ متر من المدينة وحين فاجأت دهشته سكان المدينة قيل له يجب - والمدينة سوف تتوسع - أن يبتعد مقر الحاكم عن التجمعات السكانية الحالية وهذه المدينة كما نرى اليوم لها شأن كبير عن غيرها، تزرع بسكانها وتتقدم وينمو اقتصادها دون حساب لما فى أيدى سكانها من أموال وإنما ترنو إلى ما سوف تحققه من أموال قادمة قد تأتى وقد لاتأتى... والمثير للعجب أن المدينة لم تحسب حساباً للتطورات والأحداث ومنها ما وقع ١٨٧٣ على سبيل المثال من انهيار المشروعات رغم ما حدث فظلت الأموال تترى.. حققت المراهقات نجاحاً.

أما أمريكا التى غزت الشرق والغرب فهى أساسا بروتستانتية فلقد كانت العقيدة البروتستانتية هى التى واجهت هذه الجموع البشرية التى سرعان ما استوطنت الأرض مشتته هنا وهناك فجأة وها هى جموع البشر تجد نفسها بغير راع يهديها ولاشك أن هؤلاء المهاجرين كانوا يعيشون حياة أشبه بحياة الناس فى القرون الوسطى كما أن حياتهم الدينية كانت إلى حد ما عقوية شاقة أحياناً أو ذات حيوية واضحة أحياناً أخرى تخللها بعض الإضافات والتعديلات كطقوس المورمون مؤسسى عقيدة اليوتاه الهنود (عاصمتها سولت ليك) ومن أفضل ميزات العقيدة البروتستانتية أنها تمكنت من تماسك شعلة الإيمان وإزكائها ، وربما كان ذلك وحده أجمل صفحة من صفحات تاريخها فكان عليها لكى تنجح أن تتأقلم وتنكب على مهامها وتبسيط المفاهيم والتخلص من نزعة الإبرشانة، (نظام يتبع فى البروتستانتية) (يقضى بأن يكون لكل أبرشية استقلال ذاتى) وأنصار المذهب الإنكلكانى) وتخفيض تعليم اللاهوت والطقوس وزيادة الارتكاز على المشاعر والأحاسيس وعلى ما تحدثته التجمعات من صدمات مؤثرة، وقد حقق رعاة الدين نجاحاً رائعاً فى تجوالهم بين الولايات من أنصار البائست والميثوتست وأنصار المسيح وأتباعه وقدموا النموذج المبسط لكل العقائد مركزين فقط على سيادية الفرد ثم مركزين آخر الأمر على أفعال لاعلى معتقدات فأصبحت قرباناً جماعياً مشتركاً مباشراً بسيطاً وتمكن هؤلاء المبشرون بالإنجيل من صياغة نمط الحياة الأمريكية (النموذج) ... أسلوب حياة الأمريكى حامى حضارته وسيدها وهو نموذج ساد

الجميع ... من المهاجرين الجدد «الوافدين»، منذ الأعوام ١٨٦٠ - ١٨٨٠ حتى غير البروتستانتيين اضطروا إلى التكيف والتألف مع هذا الأسلوب المجدد للحياة . وهذه الاتجاهات الطارئة من جانب «المؤمنين»، مثلهم مثل الدعاة المبشرين صارت شغل بعض العشائر الصغيرة التي اقتسمت مساحات الأراضي الحدودية الواسعة كالغزاة (وكانوا فعلا كذلك) وتولى الأتباع منهم بناء كنائسهم الصغيرة في الغرب والغرب الأوسط متجهين إلى الشمال الغربي واتجه أنصار البايست (المعمدانيين) نحو الجنوب الغربي وكانت اتجاهاتهم تماثل اتجاهات المبشرين الأسبان وأعمالهم أولئك الذين تمكنوا من القرن السادس عشر من إعادة الهداية إلى المسيحية من جموع المهاجرين الأسبان فور وصولهم إلى أراضي العالم الجديد . مع من كانوا يجذبون نحوهم من كثر الهنود البشرية وهكذا وطدوا الأركان والأسس والقواعد في العقائد لدينية لما نطلق عليه اليوم أمريكا اللاتينية .

تصنيع المدن وتمدينها

ليس التصنيع وحده كافياً لوصف هذا التحول المادى الذى ساد الحياة فى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٨٨٠ حتى أيامنا هذه فخلال هذا القرن أو شبه القرن (لأن الكتاب مؤلف ١٩٦٢) تحولت دولة من كيان زراعى إلى كيان صناعى ، لم تكن الانطلاقة الصناعية لتنجح بعامة ولو كان هذا التحول ليقدر له البقاء بدون ظهور المدن الحضرية ولبس هنا مجال متابعة هذا التحول الضخم فكتب التاريخ والجغرافيا توفر أبعاد هذا الموضوع ومعطياته . فتاريخنا كانت أول انطلاقة صناعة ويشكل غريب من مقاطعه ما سمي «بنوانجلند» وظهرت

وقتئذ صناعة النسيج مثلها كمثل عديد من الدول الأوروبية واستقرت هذه الصناعة مع الانطلاقة المفاجئة للسكك الحديدية عام ١٨٦٥ فى أزمة ١٨٧٣ والمهم هنا .

١ - الإشارة إلى أن ضخامة نجاح الولايات المتحدة الأمريكية قد أثر فى جغرافية البلاد ومساحتها ومنها عمق الجنوب على حافة خليج المكسيك .

٢ - حداثة النتائج التى كانت مؤشرا على تغيير أساليب الحياة الأمريكية المستقبلية

٣ - تكيف رأسمالية دائمة تتقاطع مع نفسها (أى ليست مستقرة) أو (تتناهبها المخاوف)

٤ - وصول الأيدى العاملة من أوروبا وبدء إنشاء المدن... كل تمده الانطلاقات البشرية والمادية ها هى تصب كيفما كان فى هذه الحضارة القديمة التى سميت خطأ أسلوب الحياة الأمريكية، وسوف نتعرض فيما يلى للموضوعين الآخرين: فنجد أن الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٨٨٠ استقبلت المهاجرين الإنجليز والاسكتلنديين فمثلوا أعماق البلاد من السكان الأوروبيين ثم جاء فيض المهاجرين من ألمانيا وأيرلندا وكان هؤلاء قد ابتعدوا قليلا عن إنجليزيتهم بل وأبعدوا السكان الأمريكيين عن العقيدة البروتستانتية مع أن البلاد كانت تسيطر عليها الثقافة والعقيدة الإنجليزية البروتستانتية عندما وصلت إليها طلائع ضخمة من المهاجرين قدروا بـ ٢٥ مليون الصقلب ومن أعراق البحر الأبيض المتوسط وأغلبهم من الكاثوليك، ولم يكن الغرب الزراعى ولا الشرق الصناعى قادرين على امتصاصهم، إذ كان الشرق الصناعى الحضرى قد تغير ولم يكن قد انقلب كما حدث فى الأرجنتين التى صارت مشتبكة مع موجة من المهاجرين قادمين من إيطاليا فتدفقت وغمرت المدن والقرى متخطية هذه الحدود خلال أعوام الـ ١٨٨٠ وهذا الفرق يجب ألا يثير الدهشة فالولايات المتحدة الأمريكية وهى تستقبل الوافدين الجدد كانت تمتلك مدنا لديها صناعة فى أتم ازدهارها... قدرة مفعمة على التقييم والإقناع والامتصاص الاستيعابى السريع الفعال وذلك ما لم يكن متاحا لبلد آخر ولننظر فى جماعة من الأمريكيين عام ١٩٥٦ فإذا بنا نجد أن النموذج الشمالى يختلف عن النموذج القادم أصلا من نابولى أو من فيينا ومن لندن أو هامبورج... نماذج بشرية مختلفة الجذور والعادات ومع ذلك كانوا كلهم نمطا أمريكيا موحدا فى تصرفاتهم وسلوكياتهم ومن هنا نقول: إن آليات الاستيعاب كانت قد لعبت دورها وأدت مهمتها وانتصرت اللغة الأمريكية بجذورها الإنجليزية وانتصر أسلوب الحياة الأمريكى الفريد إذ كانت روائع المحيط الأمريكى قد خلبت لب المهاجر فبدأ يجرب حظه بنفسه . ومنذ ١٩٢١ - ١٩٢٤ مع ظهور قوانين

الحصص وقانون ماك كاران عام ١٩٥٢ قامت الولايات المتحدة عمليا بإغلاق أبواب دخولها ولم يعد الأفراد القادمون منذ ذلك الوقت يمثلون شيئا فى خضم هذا المحيط البشرى وإن لم يتوقف إنشاء المدن وظهورها حتى أن واجهة المحيط الأطلنطى من بوسطن حتى واشنطن هذه المساحة الكبيرة قد صارت أشبه بمدينة واحدة ضخمة ميجالو بوليس مع مساحات متروكة هنا وهناك لزراعة الأشجار كما أن بعض الأراضى الزراعية وضواحي المدن متصلة كلها ببعضها البعض بل وتتشابك وأقيمت جامعة برنستون على بعض تلك المساحات التى احتفظ بها للأعشاب والأشجار بين التجمع السكانى النيويوركى وفيلادلفيا ومع ذلك وعلى الرغم من تدفق هذه الجموع البشرية من النازحين الجدد من جميع المناطق المحيطة فإن الحضارة الأمريكية استطاعت استيعاب كل ما واجهها من مبان وورش وآلات أى إجمالا هذا الثالوث الأرضى من تدفق السيارات والمهاجرين غير البروتستانتين . ولقد تشكلت الحضارة الأمريكية على مراحل ثلاثة : على الساحل الأطلنطى ومن الأطلنطى حتى الهادى وأخيرا بالقطاع العمودى وهو التصنيع ولعلها المرحلة الثانية التى حددت المعالم الرئيسية للمودج الحياة على الطريقة الأمريكية وهى احترام الفرد وعقيدة دينية مبسطة إلى أقصى حد مندفعه بعنف نحو فضائل التعاون البينى والغناء المشترك والالتزام الاجتماعى والأسبقية للغة الإنجليزية والتى انتشعت من طريقها اللغات الأخرى... فهل يمكن وصف مجتمع كهذا مجتمعا دينيا ؟

الرد بالإيجاب فتكاد نسبة ١٠٠٪ تردد أحلام بيجامان فرانكلين التى راودته عام ١٧٨٢ أى فى أوائل أزمنة أمريكا إذ قال : «الإلحاد لا تعرفه أمريكا والزندقة نادرة وسرية، واليوم لا تجد أى تصرف أو أى إجراء أمريكى دون أن يشفع بكلمة الله وكل مسعى يستهدف الداخل هو بمنزلة حرب صليبية مثل دودرو ويلسون أو الجنرال أيزنهاور كما لا توجد فروق اجتماعية لا للتمتع بالإلهام الدينى، وتجد فى أدنى السلم الطبقي المجتمعات المؤمنة بالإنجيل والشعبية وفقراء الأمس يمارسون حياتهم فى إطار مميز أكثر أناقة مما كان من قبل، فالطقوس الدينية محترمة عند الوفاة وهى من جذور انجليكانية وجماعات الإنكليكية ممن لديهم أساقفة كلهم

يمارسون حياة متدينة فى الظاهر وقد وصفها المؤرخون فقال: «إنها كنية خاصة بالأثرياء الجدد... كمثل قطعة الصابون الصغيرة الرديئة..»، والحق ليس مهما ما رآه هذا المؤرخ فالأهم هو كيف يدرك الإنسان الأمريكى... عقيدته وكيف ينظر إليها ذلك لأن المجتمع المتدين عادة متسامح فتعدد الاتجاهات مقسم إلى شيع وملا بتسميات متناثرة مع قيام كنيسة حقيقية واحدة بالمعنى المعتاد للكلمة: الكاثوليكية وليس ثمة ما يبعث على الدهشة أن نجد على سبيل المثال لا الحصر بعض الأسر موزعة فيكون أفرادها موالين لهذه الملة أو تلك لأن كل فروض فى اعتقاد ما يراه ما دام يعتقد وما دام يؤمن وهو الالتزام الأول والوحيد. ويمكن أن تشاهد فى مدينة كمدينة بوسطن كنيسة صغيرة مشيدة على أحدث الفنون المعمارية وعلى باب الدخول لافتة توضح أن أية ملة خاصة لا تمارس فى هذا المكان المقدس المخصص لصلاة كل المؤمنين فى الدنيا مهما كان إيمانهم. مشاعر رضا رائعة كما وصفها أوروبى ولم يكن يعرف إلا العلمانية والإلحاد كما عاش فى الغرب خاصة علمانية الحكومة وعلمانية الثقافة التربوية وفق النمط الفرنسى وكلها نماذج غير متصور قيامها فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد نجد على العكس شكلا من أشكال اللادينية (لادينى) لتفكير عقلانى يجد رواجاً ما تحقق من نجاح بعض الذين كانوا يتمتعون بقدرة «علمية» ظاهرة واليوم لم يعد هناك اختراق يستحق الذكر فى الجنوب إلا من جانب حدود المكسيك أو بورتوريكوم ومن الشمال من كندا الفرنسية فنجد أطفالهم يتسكعون فى شوارع ديترويت وبوسطن بل فى نيويورك كذلك غير أن هذه الهجرة ليست سوى نقطة فى مياه تتدفق فنجد مدينة كمدينة نيويورك من أكبر معاقل النازحين من بورتوريكو بلا أدنى شك وتماثل فى هذا الإطار مدينة باريس حيث تضم عددا كبيرا من النازحين من شمال أفريقيا ولأسباب مشابهة، ذلك أن كل مدينة كبرى تحتاج إلى أن عاملة غير ماهرة بل أقرب إلى البؤس تقطن أوارها السفلى من عناصر لاتجد ها ولا تستطيع توفيرها من سكانها الأصليين يحتملون أعمالا معينة.. فتلجأ المدن الكبرى عندئذ إلى البحث عنهم وقد وفر الوافدون الجدد للصناعات الأيدى العاملة الزهيدة الأجور وهو ما أتاح للصناعات فرصة الإقلاع

ثم الانطلاق كما هيأوا لهذه المدن طبقة فقرائها وأفراد عمالتها وأفضل نموذج مدينة نيويورك التي لامثيل لها في هذا الإطار معينا ومحدود كهذه المعتقدات التي سادت أوروبا منذ ظهور مؤلف داروين عن أصول الكائنات عام ١٨٥٩ ومؤلف رينان ١٨٦٥ عن حياة المسيح يتصاعد هذا النهج العقلاني العلمي في إطار من الإقرار بوحدانية الله بصورة مبهجة غامضة وكان الأهم بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية بشأن التلاحم الثقافي، والمشكلة الرئيسية الأولى تكمن فيما تمثل عقيدة المهاجرين الكاثوليكين وعلى رأسهم الإيرلنديون ثم الألمان فالإيطاليون فالمكسيكيون بحيث وطدت هذه العقيدة الكاثوليكية دعائمها لتتلاءم مع نمط الحياة الأمريكية التي تستوعب كل طبقاتها السكانية، كان ذلك بمنزلة النقطة الحاسمة في دور أول الكتل السكانية من الكاثوليك.. الإيرلنديين. وعلى كل حال فقد صانت الكنيسة الكاثوليكية وحدتها على الصعيد العالمي كما حافظت بالتالي على طبقيتها، فقد تقبلت بدون تحفظ أن يكون هناك فاصل بينها وبين الدولة مع فرق بدا في موقفها إزاء البلاد التي كانت تتمتع فيها بالأغلبية كما انغمست تماما في خضم إطار القومية الوطنية الأمريكية ثم قبلت أخيرا بدون تحفظ الإشادة بالمنجزات الأمريكية متواكبة في هذا مع انطلاقة الحياة في أمريكا ويوضح لنا تصريح واحد ذكره مطران أمريكي هذه الحالة بقوله إن صوتا انتخابيا أمينا وتصحيحا للعلاقات الاجتماعية لقادران على أن يحققا مجدا لله (تسبيحا لله) وخلصا للنفوس بأكثر مما تحققه تلك الليالي الطويلة التي يقضيها الإنسان يقسو فيها على نفسه تكفيرا عن ذنوبه أو يتحمل مشاق الحج إلى كومبوستيل (ولاية في أسبانيا) (والقديس سان چاك دى كومبا ستيل ويعتبر الحج إليه من أعلى مراتب الحج المسيحي) وتمكنت الكنيسة الكاثوليكية مثلما نجحت الملل البروتستانتية من تنظيم نفسها وهي اليوم تضم ثلاثين مليونا من المؤمنين بها واستطاعت كذلك امتلاك مؤسساتها ومدارسها وجامعاتها وعلى حين لم تحقق الكنائس البروتستانتية نجاحا كبيرا في جذب طبقات بروتستاريا (عمال) المدن الحضرية فقد تمكنت الكنائس الكاثوليكية من الانتصار في هذا المجال ولربما عاد فشل الكنائس البروتستانتية في المدن الحضرية إلى ما حققته من فوز في مناطق الأرياف

والقرى فى القرن التاسع عشر أو إلى تراثها الذى جعلها - لا إراديا - تميل إلى الفكر البورجوازى كما أنها أقبرت حماسها أحيانا على الرغم من الاستحداث المحدد الحالى وذلك لأن أمريكا المتدنية وقد تقول البلاد الأمريكية كلها مهددة بانتقال الثراء إلى مواطنيها فيتحول بالتالى إلى طبقة البورجوازية وليس هذا المظهر الدينى إلا تفسيراً للنجاح التلاحم الحضارى الأمريكى، كما أن هناك كذلك تفسيرات أخرى منها التصاعد الحيوى إلى ما يهيئوه مجتمع من عناصر جذب .. فإن مجتمع المال وحده هو الذى يضع حدود الطبقات الاجتماعية .. مجتمع كان حتى وقت قريب مفتوح الأبواب والطرق للثراء بشكل عريض، أما للمهاجر الأوروبى فكان مجرد تقبل هذه القواعد الاجتماعية يعنى ببساطة التخلص من الطبقة الأوروبية القديمة .. أى الانفتاح على الأمل! ذلك مظهر من مظاهر حضارة ليبرالية فضلا عن قسرية فارضة لا تسمح لأى فرد أن يتهرب من الالتزام بالقواعد الضمنية لنمط الحياة على الطريقة الأمريكية فإذا ما شعر المهاجر بأنه غير قادر على التأقلم والتعود على النمط الحياتى ولوراودته مشاعر الحنين لماضيه فسوف يشغل بال أولاده ولحسابهم الخاص كيفية الذوبان فى الكتل البشرية من السكان فى الولايات المتحدة الأمريكية وقد أشار كل المؤرخين إلى هذه الرغبة التى تلح على أفكار أولاد المهجرين فى ضرورة اختفاء آثار جذورهم. وأخيرا وفى مراحل هذه المسيرة الطويلة كانت أكثر الدوافع وفترة الغرض المتاحة أمام المواطن الأمريكى ومنها: حدود المساحات الأرضية وحركات التصنيع وظهور كبريات المدن وكلها تخلق فرصا للثراء الذى يسهل الاستيعاب والتحول. وكان الطريق عريضا أمام المهاجر الإيرلندى المشاكس بطبعه من مجموعة سلاطات ١٨٣٠ إذ الأولى كان يسكن فى كوخ قذر أو منزل منهدم أو هذا الإيرلندى الآخر الى يسكن منزلا تنسدل فيه ستائر الدانتلا من مجموعة السلالة الثانية أو الثالثة وهكذا نجد أن أمواج الثراء وتصاعدها ضمنت لسيل الحضارة الأمريكية الأولى العيش مع هذه الكتل البشرية الجديدة التى وطأت أقدامها القارة. فإذا كانت هذه الحضارة الأولى تختلف بقوة عن جذورها الإنجليزية الأصلية فقد ظلت أنجلوساكسونية بأكثر مما هى أوروبية حيث امتزجت بالحضارة الأوروبية عروقا

بحر أوسطية وتقاليد شمالية وليس لتفسير هاتين الحضارتين كيان فى الولايات المتحدة الأمريكية إذا امتصت الأنماط الحياتية فى الولايات المتحدة كل شئ وجرفته أمامها بفضل المغريات وعوامل الجذب والانجذاب. ولا شك أن لعبة القدر التاريخى والمصادفة وحدها هما اللتان طبعتا قسمى القارة الأمريكية قسمين مختلفين تماما ما عدا كندا الإنجليزية وجعلت جنوب القارة عالما كاثوليكيًا تماما وخاصة هسبانو برتغالى وأكثر من ذلك انطبعا بموجات الهجرة من إيطاليا.. ومما لا سبيل إلى إخفائه أن الأمريكتين ليستا على تفاهم الواحدة مع الأخرى فقد نشأتا بصورة أسوأ من أن تتفاهما.. إنها مأساة الساعة.. الساعة الحاضرة.

كنيدى: عندما سيطرت على أمور الحكم وعلى جيش فيتنام جماعات من المستشارين الأمريكيين ارتفع عددهم إلى ١٧ ألف رجل كان ذلك عند اغتيال الرئيس كنيدى فى ١٢ نوفمبر ١٩٦٣ ومع ذلك لم يتخذ الوضع أبعاد ما قد نطلق عليه نزاعا حادا وسقوطا لنظام حكم الرئيس ديبيهم الرجعى فى أول نوفمبر من العام نفسه مما أثار المخاوف من احتمال تغيير نظام الحكم فى فيتنام الجنوبية ومع ذلك فقد اتخذت حرب فيتنام منعطفًا دراميا خطيرا من شمال فيتنام وبعض سفن الأسطول الأمريكى فأصدر الرئيس جونسون أمرا بشن أول غارة على فيتنام الشمالية. وفى نهاية ١٩٦٤ بلغ تعداد بعض الولايات المتحدة المتمركزة فى فيتنام الجنوبية عشرات الآلاف ثم كان بعد عام واحد أى عام ١٩٦٥ وقد صارت الغارات على فيتنام الشمالية يومية أن بلغ عدد المحاربين من الأمريكيين على أراضى فيتنام الجنوبية ٢٢٥ ألفا ثم تجاوز هذا الحجم الضخم فى ربيع ١٩٦٦ وتوقع المراقبون أن يصل العدد إلى أربعمئة ألف رجل مع نهاية العام ولهذا السبب وحده ارتفع معدل التكاليف الحربية ارتفاعاً هائلاً.

حاشية ١٩٦٦

كانت السنوات الأخيرة بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية درامية صعبة فقد اغتيل الرئيس كينيدي في ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ وهو النبأ الذي أزعج الدنيا كلها وكان وصول الرئيس جونسون إلى السلطة تسبقه حملة انتخابات شملت للمرة الأولى منافسا هو السناتور جولد ووتر بمبالغته المفرطة التي أثارت استياء الرأي العام الدولي بل صدمته الدهشة بما أخرج الحزب الجمهوري منهكا ضعيفا منقسما كما لم تكف عن التفاقم حيث تفرض الأقلية المسلمة السوداء على أذننى البروليتاريا الانصباع لاتجاهاتها للعنف وهى تدعى أنها إسلامية وتؤمن بالقرآن بل وتنادى بدولة منفصلة للسود فى الجنوب وتزداد المشاكل الخارجية حدة وهى أحداث العالم تصل إلى شواطئ القارة الأمريكية فقد فرض ما كان فى سبتمبر عام ١٩٦٢ بعد ظهور مشكلة صواريخ كوبا وأزمة خليج تونكين فى أغسطس ١٩٦٤ إلى سلسلة من اتفاقات ودية وأخرى أثارت الإزعاج وثالثة أثارت النزاعات.

وقد سيطرت حرب فيتنام وتداعياتها على الحياة الأمريكية وتاريخها خلال على ١٩٦٤ و ١٩٦٦ وتعود جذور هذه المشكلة إلى أيام إيزنهاور خاصة تصعيد إدارة الرئيس هذه التكاليف لتصل إلى ما يقرب من نصف مبلغ ال ٩٩,٧ مليار

وهو إجمالى ميزانية الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ بل تجاوزت فعلا التكاليف العسكرية والحربية مبلغ الـ ٥٢ مليارا بحيث عمدت الإدارة الأمريكية بالمطالبة إلى تخصيص مبلغ يتراوح ما بين ٦٠ مليون دولار لمواجهة الأعباء الحربية للعام المالى ٦٦ / ١٩٦٧ ومع هذا فقد تمكنت ديناميكية الاقتصاد الأمريكى وقوته من امتصاص هذه الأعباء الهائلة الطارئة دون أن ينتج عنها ارتفاع فى الأسعار، وأمكن توفير عمل لمليون ونصف شخص (أعمال جديدة) عام ١٩٦٤ وانخفضت نسبة البطالة إلى أقل من ٥٪ أى إلى أدنى مستوى وصلت البطالة إليه فى تاريخ اقتصاد الولايات المتحدة الأمريكية، وكان مصدر القلق الوحيد لحكومة الرئيس جونسون استمرار عجز ميزان المدفوعات (الميزان الحسابى) بما تسببت فيه من ضخامة النفقات الخارجية وبنمو الاستثمارات الأمريكية خارج الولايات المتحدة وتطورها كان المستقبل على المستوى الاقتصادى والسياسى رضاً بقطورات الحرب الفيتنامية المستقبلية التى تعد أهم وأخطر ما شنته الولايات المتحدة من حروب منذ الحرب العالمية الثانية.

الفصل الثالث

الظلال وصعوبات
الأمس.. واليوم

الظلال وصعوبات الأمس واليوم

تحدثنا حتى الآن عن الفرص والنجاح ولكن المشاكل وسوء الحظ فى الحقيقة كانا كذلك ما ثلین ویبدو أنهما یعودان إلى الظهور كذلك اليوم (حاليا) بل ویتضاعفان بتوالى أعوام ۱۸۸۰ و ۱۹۲۹ وربما ۱۹۵۱ أيضا غیر أن المفارقة هنا تتضاعف إذا ألقينا عليها نظرة عن قرب فیما بین قضايا أو مشاكل مرتبطة بحياة الولايات المتحدة الأمريكية ارتباطا فعليا أو كليا، كما لا سبیل إلى التفرقة بین الفرص طيبة الحظ وسيئة الحظ بالنسبة إلى واحدة من أضخم الحضارات وقياس أبعادها بصورة حاسمة واضحة فكل مشكلة تستدعى بذل الجهد كما تثير الاعتراض والهجوم المضاد، ومن ثم یتبدل الاتجاه ويستدعى سوء الحظ الاحتياط فهو أشبه بالاختبار أو الامتحان ونادراً ما ینتهى كمصیر جماعى. وبيت الشعر المشهور الذى قاله هنرى هاينى: ربيع جدید سوف یعيد إلى البلد ما أطاح به الشتاء صحیح بالنسبة إلى الأفراد وأكثر منه للأمم فالولايات المتحدة وإن كانت لديها مشاكل وقضايا فحياتها تظل فى حیوية مفرطة.. لعلها أفضل مما كانت تتخيله هى نفسها.

لا يقف أمامه سد سواء القوة أو الانحياز فضلا عن التنازل فهو لا يرتضى بشئ ولم يبلغ دستور عام ١٧٨٧ الرق فحسب رغم أنه فى قالب تحررى بل نص على إلغاء النخاسة بعد فترة تقدر بعشرين عاما فتلقى تماما عام ١٨٠٧ وتوقف استجلاب الأسود قانونا على الأقل وإن ظلت عمليات التهريب طويلا بعد ذلك وكانت أشبه باستجلاب الحيوانات. وقد أزدهرت زراعة القطن على كواهل السود وتفاقم ظروف معيشتهم فى القرن التاسع عشر وكان السود فى الماضى يعيشون فى بيوت « السيد، وهامم الآن يتجمعون كقطيع كبير من الأغنام كما كان فى ممتلكات روما القديمة وفوق هذه الطبقة البائسة من السود وتعيش طبقات المجتمع الأبيض فى يسر وثقافة وتهذيب مؤلفة شكلا قويا من الأرستقراطية الاستعمارية وفى قصة عنوانها «كوخ العم توم» كتبها هارتيب بتشر ستون، تحكى مأسى السود وفقدهم فأهاجب الشمال عام ١٨٥٢ . ثورة فى القلوب كما تصدر قصة أخرى أحدثت هى «ذهب مع الريح» للكاتبة مرجريت ميشيل عام ١٩٣٦ حياة البذخ والثراء فى الجنوب وخاصة حريات الرجل الأبيض وما يتمتع به من ميزات أما المؤلف فولكنر فنروى قصته أحداثا مختلطة وذكريات حنين إلى الأيام الخوالى ومباريات الصيد والاجتماعات التى تثار فيها المحاولات مع تبادل كؤوس الكحول المستخرجة من عصير الذرة بإيجاز حقائق مزدوجة .. بيضاء وسوداء .. ولا شك أنها أكاذيب مزدوجة وعلى الجملة اخفى أو كاد يخفى الهندى أول من استعمره الرجل الأبيض .. فى صراعه مع الأوروبي الأبيض الدخيل فلا تجده اليوم إلا فى هذه المناطق الأقلية المحتجزة عنوانا على سلالة زالت وهكذا فإن لدى الولايات المتحدة الأمريكية مستعمرة لم تتحرر بعد بصورة حقيقية على الرغم من كل الإجراءات الرسمية .. هى أقلية عرقية أصلية لها ثقل وحضور صامدين حيال كل شئ

وفى منتصف القرن التاسع عشر أثارت مشكلة الإبقاء على الرق أو إلغائه زوبعة حرب الانفصال (١٨٦١ - ١٨٦٥) ولكنها لم تكن سوى إحدى مظاهر الصراع المتجدد الأخوى (بين الأشقاء) الذى يكاد يمزق أراضي الولايات المتحدة الأمريكية فتتصدى فيه ولايات الجنوب لولايات الشمال وتكاد تؤدى إلى الحرب بينهما:

كابوس الأمس مشكلة السود مستعمرة مهاجرين لا يمكن استئصالهم

وسط محاسن الحظوظ والفرص الفريدة تسربت واحدة من أضخم المشاكل ولم يكن مستطاعا منذ البداية تفاديها أو السيطرة على تداعياتها تلك مقام السود الأفارقة ممن استجلبوا إلى أراضيها منذ القرن السابع عشر مع انطلاق زراعة التبغ في فرجينيا بعد عام ١٦١٥ والأرز في كارولينا منذ ١٦٩٥ ثم القطن في جورجيا منذ القرن التاسع عشر كل أنحاء الجنوب الغربي في فرجينيا وعلى التاريخ والجغرافيا المسؤولة. إن الواجهة الأطلنطية حيث نشأت الولايات المتحدة الأمريكية مناطق مناخية متقاربة بعضها إلى بعض فإن مناخ مدينة نيويورك على الرغم من خط عرضها وبسبب تيار لبرادور البارد للبلاد الذي يخترقها يماثل جو موسكو حيث تقع نيويورك على مالا يجاوز ليلة واحدة بالسكك الحديدية إلى البلاد الاستوائية، منتجاتها المجلوبة إليها من الخارج. وكان طبيعيا أن يستقر العبيد في هذا الجنوب كنوع من امتداد اقتصاد جزر الأنتيل الذي ازدهر في القرن الثامن عشر بحيث استقر المقيم بالأسبان في فلوريدا والفرنسيين في لانوفيل أورليانز منذ عام ١٧٩٥ وذلك لزراعة فصب السكر الذي يمارسه كذلك جورج واشنطن في أراضيهِ وثوماس جيفرسون في ممتلكاته في مقاطعة فرجينيا وبهذا ولج إلى أراضي أمريكا ذات الجذور الأنجلوساكسونية جزء من أفريقيا .. جزء ملئ بالحياة شاذ غريب

١ - الشمال صناعى ينادى بالأسعار الجمركية المرتفعة أما الجنوب فبائع قطن يفضل شراء السلع المقدمة من أوروبا إذ هى من أنواع ممتازة ويطالب بنظام الباب المفتوح

٢ - المظهر السياسى للنزاع: يتنازع السلطة الحزبان الجمهورى والديمقراطى فالديمقراطيون بالذات جنوبيون وأما الجمهوريون فشماليون

٣ - وهذا التنافس بالأحرى تنافس مرير تمخض عن نوع من الرهان على ميل الولايات التى تنشأ فى القرب إلى الانضمام إلى أى من الجهتين .. الكتلتين .

٤ - ولا تمثل الأزمة عمليا مشكلة متفاقمة، فهل تستطيع الولايات التى اندمجت فى الاتحاد الاعتراض أم لا تستطيع، على أى حال من الإجراءات التى تقرر الحكومة المركزية اتخاذها؟ وهل لها حق الخروج .. حق الانفصال؟ ونجد أن كل مسوغات هذا التنافس وهذا النزاع وأسبابه إنما تتجلى فى الاختلاف الحاد بين الخصمين بشأن إلغاء الرق فالجنوب يعلن الحرب (معركة قاعة سامتر فى ١٢ ابريل ١٨٦١) التى انتهت بالاستسلام فى ٩ ابريل ١٨٦٥ بعد حرب أهلية مروعة ثم يحدث فى ١٨ ديسمبر ١٨٦٥ التعديل الثالث عشر للدستور ويلغى الرق وكان هذا الإجراء يشمل ما يقرب من خمسة ملايين أسود (كان عددهم ٤٨٠٠٠٠ عام ١٨٧ فى مواجهة ٣٣ مليوناً من البيض أى ١٢,٧ ٪ من إجمالى عدد السكان وقد ارتفعت هذه النسبة بعد ذلك فصارت ٣١,١ ٪ عام ١٨٨٠ ثم بدأت فى الهبوط بشكل دورى مع زيادة معدلات الهجرة الأوروبية حتى وصلت إلى ١٠ ٪ عام ١٩٢٠ ويبدو كأن النسبة استقرت عند هذا الحد وتوضح آلاف من تفاصيل الحياة اليومية بسهولة كيف ثبت أن الميزات السياسية التى منحت للسود بدون فائدة فقد أسى تأويل الحقوق السياسية حيث ظل الأسود قابعا فى مكانه «الأسفل» طالما لم يغادر الجنوب حيث هذه الدونية قائمة تلقائيا لصالح الإبقاء على التقاليد والعادات ولم يكن الرجل الأسود قبل عام ١٩١٤ قد وجد لنفسه مكاناً متواضعا فى عملية التصنيع التى كانت قد بدأت عام ١٨٨٠ أما المكان الذى وجده فحيث العمل المضنى الشاق أما المراكز العليا والأكثر تحقيقا للامتيازات فكانت مقصورة على

للرجل الأبيض ومع نشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت هجرة السود وانتقالهم إلى الشمال مهمة فاستقر السود في حي هارلم في نيويورك وفي شيكاغو في نطاق ما أطلق عليه «الحزام الأسود»، وفي مدينة ديترويت كذلك وواكبت الأقلية السوداء الانطلاقة الاقتصادية الأمريكية واندمجت فيها بحيث نجد اليوم من السود بل الأثرياء الجدد ولديهم جامعاتهم وموسيتيويهم وشعراؤهم وكتابهم وكنائسهم أما المساواة الحقيقية فتتهرب أمامهم ويحدث كما يقول أندريه زيجفرن عام ١٩٥٦ أن مجرد رغبة منهجية من التفاعل قد تعطى الانطباع باستخلاص حل للمشكلة ويقع في الخطأ عديد من الأوروبيين الزائرين، فالحقيقة أن التنافر الاجتماعي التقليدي مستمر سواء في الشمال مع شيء من المظاهر تخفيف حدة التفرقة، أما في الجنوب فنجد التنافر عمليا ولو بدون محاولات لتخفيف حدته وعلى هذا فسنجد في الشرق ووسط الشرق عناصر من السود يمتزجون فعلا بحياة البيض وقد يحدث أن يتقبل رجل ملون متميز فيشارك في مأدبة عشاء أو يدعى إلى اجتماع اجتماعي، ثم بدأت عناصر السلالة التي كانت حتى الأمس القريب مضطهدة فإذا هي تحتل مناصب إدارية مرموقة دون تمييز ومن ثم يسود الاعتقاد يقرب زوال أو - على الأقل - انخفاض مدة التمايز أو سقوط الحاجز الفاصل بصورة جادة.. ولكن ما أبعد هذا المثال! فالرجل الأسود في الولايات المتحدة الأمريكية يشعر فعلا بأنه أمريكي وتأتي إلى جانب الشعور الرغبة في أن يكون أو يصير أمريكيا لولا أنه بالنسبة إلى الرجل الأبيض يظل أمريكيا أسود وفي ذلك دليل على هذه التفرقة الحادة يبدو وكأنها تعد مشكلة اللون في الأجناس عقبة كتود تتخطى في الواقع. أن مشكلة السود واقعة في البطء اليائس الذي يحيط بها ويتعامل معها فإذا ما أُلقيت نظرة عليها بدأت الأحكام المسبقة وانتشرت عوامل النفور وتزداد وحدة المعارضات واتخاذ المواقف بأكثر مما كان يحدث في الماضي ويحدث اليوم على مدى أوسع: تمييز عنصري ونزعات لنشوية (منسوبة لقاضٍ أمريكي يدعى لنشن وكان يصدر أحكاما تعسفية ويعاقب بلا قانون) وبداية لظهور عداوات مستترة، وأحيانا سافرة من جانب الذين يبدونها نوعا من التعاويذ والشعوذة فتبدأ كل هذه التحركات والمشاعر في الانطلاق وها

هى أحداث لتل روك المدرسية التى وقفت خلالها الحكومة المركزية الفيدرالية مكتوفة الأيدى بل غلبت على أمرها حيث رفضت مدارس البيض بمساندة حاكم ولاية أركانساس قبول السود، رغم أن القانون الفيدرالى الحديث يرغمها على القبول وتكفى هذه الواقعة لكى نتساءل.. المستقبل إ لى أين؟ وعلى أى حال فمهما اشتدت حدة هذا التمييز العنصرى وما يثيره أحيانا من مشاعر متناقضة فإن المستقبل يقترب بخطى بطيئة حيث يظل الولاء السياسى للسلالة السوداء وصبرها المدهش يبشران بأن الحل سوف يكون حلا عادلاً سلمياً. ولكى نختم هذا الجزء من حديثنا فنتساءل: هل يمكننا اعتبار مشكلة السود نوعاً من سوء الحظ.. على مستوى أمريكا أو على مستوى أمريكا السوداء عامة.. هذه أمريكا السوداء.. الودود.. الصابرة؟ والرد بالنفى .. لا بكل تأكيد مادامت النزعة الإنسانية فى الولايات المتحدة الأمريكية تواجه مشكلة واجبة الحل أو عقبة مطلوب تخطيها وتذليلها وعلى النتيجة يتوقف ارتفاع هذه النزعة الإنسانية أو الحكم عليها.. والأمل معقود على حسن تقدير وتقييم ما قدمته أفريقيا للولايات المتحدة وخاصة معطياتها الثقافية الأصيلة الخاصة التى امتزجت واندمجت فى كيان الحضارة الأمريكية وعلى الأخص موسيقاها، ويجب من جهة أخرى ألا يفوتنا أن نعرف أن هذه القارة الإفريقية وعناصرها السوداء فى الولايات المتحدة هى وعلى الصعيدين المادى والثقافى تعد اليوم - وبمقاييس هذا الزمان - متطورة بل وأكثر المجتمعات السوداء تطوراً على مستوى العالم كله، فهى نشيطة جادة مجتهدة، اندمجت وتشابكت فى الحضارة الأمريكية، وعامل الوقت فى صالحها، فإذا لم تستطع الولايات المتحدة إيجاد حل لهذه المشكلة ولم تقم عملاً وفعلاً بإلغاء هذه التفرقة العنصرية البغيضة - وهى واحدة من أعنى المشاكل الداخلية التى تواجه الولايات المتحدة الأمريكية وتؤثر على حياة سكانها - فسوف تظل منابع القلاقل والضيق والإزعاج باقية ولا أحد يتمنى بقاءها - من صميم القلب - ويجب على الولايات المتحدة أن تتبنى لها الحل السعيد

رأسمالية من الاحتكارات واحتكار الأقلية حتى تدخل الدولة

حظ أم سوء حظ.. سوف نتردد في إصدار حكمنا على موضوع تاريخ الرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية، فبقدر ما خدم الحضارة أضربها، كذلك هذه الحضارة التي تدين له ويدين لها وكان هو عنوانها الذي لا يمحي إذ كان المال وسيبقى في مثل هذه البلاد الحرة الديمقراطية كما تود أن تبقى فإمبراطورية الأعمال واضحة المعالم ولا تعرض نفسها علانية فقط في هذه المباني الشاهقة العملاقة في حي ما نهائن بل كذلك في هذه الرأسمالية التي تتمثل أحيانا مباراة حرة أكثر مما ينبغي في إطار العرض والطلب بما أتاح انطلاقة لا مثيل لها في العالم حيث تحاول كل دولة مهما كان نظامها السياسى تقليدها وبلوغ ما بغلته الولايات المتحدة الأمريكية وأخيراً المثالية الأمريكية التي لا تنكر حيويتها هي جزئيا الرد على هذه الماديات الكاسحة في أرقامها وفي مستويات مبيعاتها.. تهرب ورد فعل سريع وهنا لم تكن الرأسمالية لتتحلى بنية سليمة ولم يكن هناك أكثر من ذلك تصاعد لمستويات اللزعات الإنسانية لدى الرأسمالية تحت إلحاح مجتمع براجماتيكي ووطأته (أى ذرائعى يرى صدق الآراء والأفكار في قيمة عواقبها العملية فالحقيقة تعرف بنجاحها وهي فلسفة جيمس وشيلرويوى) مجتمع ليس ثوريا وذو ثراء مفرط يصعب أن يميل إلى التدمير مثل أوروبا قبل عام

١٩١٤ أو قبل عام ١٨٤٨؟ ولقد قلنا إن الولايات المتحدة بلد زراعى فى المقام الأول حتى عام ١٨٨٠ ثم تملكته وقلنذ وبصورة فجائية من تلك الرغبات العنيفة، لأحداث أغرب وأنجح حركات التغيير، وما أكثر ما اعتراها من دهشة من نجاح حركة التصنيع نجاحا خارقا وفر لها الأموال الطائلة والقوى والنفوذ وأوروبا السنة التى كونت فيما بينها السوق المشتركة تماما ماذا يعنى تصاعد معدلات النمى المالى وبالتمام فى أوروبا هذه الأيام لنشاهد هذه الاندفاعة نحو الاشتراكية البراجماتية والشئ نفسه فى الولايات المتحدة الأمريكية حيث لم تكن الرأسمالية قادرة على متابعة مهامها وتحقيق أهدافها إلا بتأقلمها مع المجتمع ومضاعفة التنافلات، وإذا أمكننا القول بأنها أشركت الآخرين معها فى اقتسام التقدم والنجاح فقد تطورت إذن وتطورت كثيرا من الإحتكارات فى القرن التاسع عشر عند نهايته إلى هذه المؤسسات العملاقة المسيطرة وعددها اثنتان أو ثلاثة فرصت سيطرتها على السوق الداخلى، أى احتكار الأقلية.

ومن الواضح أن هذه الرأسمالية المتنامية (فى طريقها للنمو) سواء أمكن أحيانا وقف اندفاعها أو تحويل اتجاهاتها تبقى المحرك الأول والرئيسى للحياة المادية، وفوق ذلك حضارة الولايات المتحدة الأمريكية فبقدر ما تشكلت ونطورت بقدر ما أمكنها تطوير حضارة الولايات المتحدة الأمريكية بل وسياستها، وهنا تكمن جزئيا أصول الأزمة الراهنة المستمرة التى تعاني منها الحضارة الأمريكسيه ويجب انكى ندرك معزى هذا التطور الرجوع إلى عصر الاحتكارات (الائتمان)

أى الوكيل المفوض أو المؤتمن وفى الإطار القانونى الشرعى فإن الترسن (اصطالح على تسميته بالاحتكارات الكبرى) تجمع أصحاب أسهم وسندات من مختلف الشركات ينيبون وكلاءاً يفوضونهم لتمثيلهم وعلى ضوء ذلك تجتمع مجموعة المفوضين وهم يمثلون مختلف الشركات وليس لهم حق دمجهما أو ضمها حسب قوانينها. وهنا تبرز مسألة الالتفاف حول القانون إذ يعمد هؤلاء الوكلاء المفوضون أو بعضهم إلى تجميع الأنشطة المتقاربة والمتكاملة مستهدفين بالطبع إقامة احتكار على الرغم من أن مساحة أراضى الولايات المتحدة قد جعلت الأمر فى هذا الاتجاه صعباً وإن كان النجاح يصحب إحدى هذه العمليات فحقق جون روكفلر

١٨٣٩ - ١٩٣٧ إذا استطاع عام ١٨٧٠ تكوين شركة ستاندرد أويل فى ولاية أوهايو
فتمكنت حين رسخت أقدام هذه الشركة عام ١٨٧٩ من تجاوز الحدود الصارمة إذ
استطاعت أن تضم إليها مجموعات من الشركات منها ما تهتم باستخراج البترول،
ومنها ما يهتم بنقله، وأخرى بتكريره ثم تسويقه للبيع، وخاصة مع الخارج
وسرعان ما اندمجت فيها صناعة السيارات البازغة فصارت هذه المؤسسة
العملاقة يقينا نوعا من الإحتكار. وفى عام ١٨٩٧ ينسحب روكفلر من شركة
ستاندرد أويل وينشئ مؤسسة للصلب مستفيداً من غياب رقابة ضريبية فيجمع
أموالاً طائلة تمكن بها من إنشاء مشروعات خيرية وشراء مناجم حديد عند منطقة
البحيرات العظمى ولم يكن شراءاً بالمعنى المفهوم بحق بل سداداً لديون زبائن
معدمين على وشك الإفلاس، ثم يعمد بعد ذلك بزمان يسير وسلوك سرعة إلى بناء
أسطول شحن لنقل الحديد الخام مستخدماً خطوط الملاحة فى البحيرات العظمى،
ثم يتفق فيما بعد بالقوة - لا الإقناع - مع ملك الصلب اندرو كارنيجى
(١٨٣٥-١٩١٩) سيد مصانع الفولاذ الكبرى وصاحبها فى مدينة بتسبرج، ثم
ظهرت على أثر تدخل المصرفى الكبير بيريونت مورجان وهذه المنشأة العملاقة
محتكرة ٦٠٪ من إجمالى الإنتاج الأمريكى وقد وقع آخر فصول هذه القصة حين
طرحت الأسهم فى البورصة أن ضاعف بيريونت مورجان رأس المال، فكان ذلك
نوعاً من المضاربة يحدث على الإرتفاع السريع لرقم الأعمال. كان هذا النوع من
العمليات وغيرها مما يمكن عرضه هنا مثل صراعات شركات مد خطوط السكك
الحديدية مظهراً من مظاهر توحش رأس المال دون تبكيت من خبير السياسة فى
عصر مكيا فيللى. وعموماً فإن أحداً من أمثال روكفلر أو كارنيجى أو كورجان لا
يختلف كثيراً عن أمراء عصر النهضة ممن اتسموا بالحزم والتصميم والإرادة.
وهذه الموجة من قفزات الأعمال الناجحة من أمثال الجرى وراء استخراج الذهب
من كاليفورنيا عام ١٨٤٩ وخاصة عام ١٨٦٥ عشية استسلام الجنوب فى أبوما
توكس فى حرب الامتيازات حتى بداية القرن العشرين فهؤلاء «الأمراء» ذوو
القلوب القاسية أو السمحة أحياناً حسب الظروف كانوا ويعتف يرغبون فى تحقيق
أمريكيتهم فحطموا فى سبيل تحقيق ذلك العقبات أو التقوا حولها أحياناً أو تخطوها

تسلقا أحيانا أخرى ودفعوا هنا وهناك - درن محاولة للاختفاء أو الاختفاء - رشاوى
ضرورية، كتب أحدهم يقول: «إذا كان عليك أن تدفع لتحصل على حل مرض
يصبح شرعا وإنصافا فلا تتردد إزاء من لديه السلطة فى وضع العراقيل والإساءة
إساءة بالغة إلى المشروع ولا يمكنه السير مستقيماً إلا إذا تمكنت من شرائه ولو
لتفادى ضياع الوقت سدى ليس غير، عندئذ يصبح واجبا عليك أن تتقدم إلى
الأمم وشراء ذمة هذا القاضى فالغاية تبرر الوسيلة».. أليست كذلك؟ المهم كان
هذا العصر زمن تحقيق الإنجازات الاقتصادية الكبرى.. من السكك الحديدية..
التدفق نحو كاليفورنيا بحثا عن الذهب وإعمار الغرب وورود بشر جدد وظهور
طبقة العصاميين.. أعداء رأس المال البدء لا شعوريا ربما يضم ويجمع من هذه
الفئة من رجال الأعمال فى صراعاتهم وسلوكياتهم وتعرضهم للتلوث وإثارة
التلوث وإحاقه بالآخرين وهم بالطبع لا يرون أنفسهم بروية عيوننا نحن فهم فى
مفاهيمهم مناضلون لا يطيلون المكوث طويلا إزاء ما يستخدمون من أساليب لا
يهمهم سوى تحقيق الهدف الذى رسموه وخططوا لبلوغه.. تحقيق العظمة وإيجاد
المسوغات للمال العام ولأشخاصهم وذواتهم فى الوقت نفسه.. ولما كانوا أفضل
المناضلين عامة.. أفليس لهم.. انصافا.. الحق؟ ومن الخطأ القول أن كل
المناضلين كانوا عصاميين وتفسير هذا العصر بعصرهم.. فنجاح أحدهم ونقص
به بير بونت مورجان كان، نجاحا مذهلا ولذا يجب وصف ما حققه بنجاح كاذب
فلم يكن بعصامية مفهومة إذ لم يجد أمامه سوى السذاجة. وقد واجه هذا العصر
موجة من الخوف والتخوف فى أوساط الرأى العام بل بين رجال الأعمال ذاتهم
تجاه هذا المد الاحتكارى أو تلك الإجراءات التى تؤدى إلى توطيده، على أن
الظاهرة التى سادت بعد عام ١٩٣٠ قد أدت إلى مضاعفة الاحتكارات. فبدأت
تبزغ هنا وهناك كل الفطريات من عيش الغراب وكان عددها (٨٦) فى عام
١٨٨٧ إلى عام ١٨٩٧، ثم صار عددها من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٠٠،
(١٤٩)، ومنذ عام ١٩٠١ حتى ١٩٠٣ نشأ ١٢٧ احتكاراً حيث بدأ الصراع يشتد
بين هذه الاحتكارات وكانت معركة الرئاسة عام ١٨٩٦ لصالح ماك كينلى ضد
براين بفضل تدخل الاحتكارات.

وإن مثل عدد معين من هذه الاحتكارات الطموحة فشلا ذاتيا كمشروع احتكار النقل البحري التجارى الذى كان يحلم بتحقيقه بيريونت مورجان، ومع الأزمات المفاجئة القصيرة من ١٩٠٣ حتى ١٩٠٧ صار الرأى العام حساسا لدرجة أن حل الرئيس روزفلت عام ١٩٠٤ احتكار السكك الحديدية بين تصفيق الجماهير وأدت هذه الإجراءات إلى سن القانون الذى أطلق عليه قانون كلايتون عام ١٩١٤ ضد الاحتكار، وكان كلايتون هذا أحد أقطاب الحزب الديمقراطى وصديقا للرئيس ويلسون. وقد فسر بعض المراقبين هذا القانون بأنه ليس إلا ضربة سيف فى الماء وأنه بحثا عن فضيلة غائبة فاشلة، لم يكن معقولا أن ينجح قانون فى وقت زحف حركة اقتصادية شاسعة وتقدمها، ويقول دانييل دى ليون الزعيم الاشتراكى: إن السلم الطويل الذى سعدت الإنسانية درجاته نحو الحضارة كان التقدم الذى لحق بظروف العمل ووسائله أحد أقوى عناصر الإنتاج. ويحتل تحسين هذه الظروف والاحتكار تباعا قمة السلم ومن حوله تتجمع عاصفة المجتمع المعاصر إذ تحاول الطبقة الوسطى كسره وهى بذلك توقف مسيرة الحضارة. وتحاول طبقة البروليتاريا الاحتفاظ به وصيانتها وتحسينه وانفتاحه على الجميع فيصبح الأمر واضحا: عدم المساس بما هو تقدم تقنى ويمثل فخر الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن محاولة تعديل المسار نحو إنسانية البشر ليتخذوا دورهم فى المسيرة، مسيرة التقدم والأمريحتاج إلى حكم من وزن الدولة وقوتها الفيدرالية لكبح جماح أى تجاوز من جانب الاحتكارات وينبع نشاط هذه الحكومة الفيدرالية وقوتها أساسا من اليونيون (أى اتحاد يضم جميع الولايات) وكان من الضرورى تقوية هذا الاتحاد ليفرض وجوده كجار مركزى (وجدت الاحتكارات فترة فى وجوده) حيث لم يعد أمامها سوى اللجوء إليه وحده كسلطة عليا بدلا من أن تشتت اتجاهاتها بين الولايات وتناقضاتها، وأطمأنت رؤوس الأموال الضخمة والاحتكارات لهذا الأمر. كانت اليونيون سلطة عليا احترمتها حتى الأصوات المعارضة واحترمت قراراتها بكل ترحاب أو بدون ترحاب ولننظر كيف استقبل قرار الرئيس كيندى حين عارض رفع أسعار الصلب عام ١٩٦٢ فقد تقبل الجميع القرار.

واليوم نجد احتكار الأقلية - أى النقابات - ينشئ فى الولايات المتحدة الأمريكية ما قد نطلق عليه رأسمالية جديدة أو مجددة أمكن تطويعها لتساير مقتضيات القرن

العشرين وهى مختلفة تماما عن الرأسمالية التقليدية وليس من السهل فهم أو إدراك معنى هذه الرأسمالية الجديدة فهى تظهر أشكال وأنماط شتى والحضارة الأمريكية كلها إنما تعبر عن نفسها عبر نظامها وعبر شبكاتها الاجتماعية فكيف نعدد كل هذه العناصر ومنها الاتجاه إلى نهج الأوتومشين (أى استخدام الآلات)، والمعجزات التى حققها والإنتاج المماثل للإغراق فى الأسواق المتجانسة والتوحيد النمطى للسلع تصاحبه حملات الدعاية الكاسحة المقتدرة ويكون زرع العلاقات العامة والعلاقات الإنسانية بعناصرها المدربة فى كل مواقع الإنتاج أشبه بالوزارات الداخلية والخارجية تستخدمها هذه المؤسسات والمنشآت لتبرير تصرفاتها واتجاهاتها الإنتاجية فى مواجهة رأى العام وجماهير المستهلكين وفى مواجهة عمالها آخر الأمر، وهكذا تبرز آلاف من تفاصيل لها قيمتها. والمهم فى إطار هذا التنافس الاقتصادى الذى يتحكم فى الجميع إبراز القواعد والحدود ونجاح هذا النمط من أنماط التنافس الاقتصادى وهذه الحركة الإنتاجية، ولنلق نظرة على دور السوق بالأمس فى نطاق الاقتصاد الحر فى القرن التاسع عشر واحتكارات الأقلية والنقابات والحكومة الفيدرالية.

فالسوق الحر كان عند الاقتصاديين الليبراليين هو المنظم والموجه العادل لكل أركان الحياة الاقتصادية حيث يلزم كل واحد عن طريق المنافسة الشريفة مكانه وكل شئ موقعه والاقتصاد المثالى من وجهة نظر التقاليد والأعراف الرأسمالية والذى يلعب فيه التنافس أقصى أدواره دون احتكار وحيث لا تتدخل الدولة ويحفظ التوازن مبدأ العرض والطلب حيث تبدو البطالة والتضخم والأزمات ظواهر غير عادية يجب محاربتها، والبطالة ليست وليدة القرن العشرين فحسب.. ويذهب البعض إلى أبعد من ذلك باتهام ضغوط النقابات - ونكرر لتكتمل الصورة القديمة أن الإنتاج كان دائما عملا طيبا وكل عمل طيب يعجل بالتبادل حيث قانون المنافذ الذى عبر عنه جان باتيست منذ عام ١٨٠٣ إذ يتناول المنتجات مقابل منتجات أخرى أما السلع المصنعة فتعنى إضافة مبلغ نقدى إضافى إليها لمبادلتها. هكذا اتجه رأى الاقتصاديين الأحرار من آدم سميث إلى بنتهام إلى ريكاردو وإلى جان باتيست سى إلى آرثر مارشال الأب.. وعلى الجملة يسوى كل شئ فى هذا

الإطار التنافسى للنشاط الاقتصادى ذاتيا بما فى ذلك الميل نحو التوفير أو الاستثمار. وفى الحقيقة كان يكفى لتنظيم هذا الاقتصاد فى حالة اختلاله التلاعب بمعدل الفائدة سواء برفعه أو تخفيضه بحكمة وروية، ثم كان أن ساد عند مرحلة معينة من مراحل التطور الرأسمالى تكذيب كل هذه القواعد القديمة المكررة.. كذبتها الوقائع.. وكذبتها الاختكارات أو الاختكارات الخفية وأصبحت اختكارات الأقلية فى القرن العشرين القاعدة المهيمنة والمسيطرة على قطاعات شاسعة.. هى أكثرها تقدما على أى حال فهذه القواعد تزيد عناصر المنافسة الشريفة، وتتدخل الدولة ولنتذكر فى هذا الصدد ما حدث خارج الولايات المتحدة الأمريكية وكم من خطط خمسية.. وأخيرا بدأت الأزمات الطويلة تطل برأسها وتسفر عن وجهها منذ عام ١٩٢٩ كما ظهرت كذلك البطالة والتضخم كمظاهر مؤسفة بكل تأكيد إلا أنها كانت ظواهر طبيعية نتيجة النشاط الاقتصادى والحياة الاجتماعية ومن هنا برزت أهمية الثورة التى أحدثها عالم الاقتصاد الإنجليزى جون كينز (١٨٨٣ - ١٩٤٦) عام ١٩٣٦ ونظريته العامة وهى النظرية التى أدت إلى تصدع الاقتصاد الحر ونموذجه التنافسى التقليدى.. وتقبلت الولايات المتحدة الأمريكية هذه المبادئ الجديدة واعتبرتها بمنزلة القانون والقاعدة من لدن رسل (أنبياء) الاقتصاد الجديد.. اقتصاد القرن العشرين واستتبطلت منه فى أحيان كثيرة تحركاتها واتجاهاتها السياسية.

وثمة احتكار أقلية أو تنافس غير سليم أو احتكار ناقص حين يجاهد كبار البائعين لإرضاء حاجات مشترين عديدين وفى الحقيقة فإن الصراع المضاد للاحتكار لم ينته بالدمج العضوى والبيولوجى للمؤسسات ففى عدد كبير من الفروع لا فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها تحقق التجميع المركزى لصالح المؤسسات العملاقة وهكذا رأينا فى عام ١٩٣٩ فى إنتاج الألمنيوم شركة احتكارية واحدة استمر بقاؤها وهى شركة ألمنيوم الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت هناك عادة بعض المؤسسات العملاقة تتفاهم هذا النوع أو ذاك فضلا عن ثلاث أو أربع لصناعة التبغ والسجائر، ومع ذلك وإلى جوار هذه المؤسسات العملاقة كانت هناك

مؤسسات صغيرة تعيش فى ظلالها.. مقدر لها يوما ما أن تختفى فلم تكن سوى بقايا مخلفات من إرث الأمس لا يستطيع الارتباط بحركة تصنيع فى بدايتها والأخيرة وحدها هى التى تجذب إليها رؤوس الأموال والمجازفين مثل البترول فى زمن شباب روكفلر أو فورد فى مستهل صناعة السيارات فكم يحيط بها من صعاب، حيث تصعب التجربة وابعاد المؤسسة والتقدم التقنى والتمويل الذاتى.. كل ذلك بمنزلة مشاكل حيوية تستطيع المؤسسات المحظوظة فقط مواجهتها وحلها. وتوضح الاحصائيات أن زهاء مائتى مؤسسة كبرى تشرف على ما يقرب من نصف ثروات الولايات المتحدة الخرافى وهى مؤسسات لا ذاتية شركات مساهمة لحاملها أو تمتلكها طبقة العاملين فيها وفى هذه الإمبراطوريات نجد المكافآت الممنوحة للمسؤولين مثلها كمثل مرتبات الموظفين وأجورهم والعاملين، ضخمة إذا ما قورنت بمثيلاتها فى أوروبا إلا أنها مكافآت ومرتببات ثابتة أما الربح الحقيقى كما أوضح فورد يوما يعود إلى المشروع نفسه الذى وهو الحامى ويسمح بالزيادة وهكذا استقرت أوضاع هذا النوع من رأس المال الفريد، أما تحكم هذه المؤسسات العملاقة فلم تستطع القوانين المضادة للاحتكار أن تفعل شيئا إزاءها كما رأينا فى عام ١٩٤٨ وتصرف الحكومة ضد شركات إنتاج سجاير شيفستر فيلد.. كان الأمر فى حاجة إلى إعادة تشكيل إلى ثورة، ولم يكن أحد يفكر فى مثل هذه الحلول فالاحتكارات الإقليمية (أى السوق حيث يقوم بعض البائعين فى مواجهة عديد من المشترين) لم تتجزأ إلى منشآت ذات أبعاد صغيرة وصارت المراتب الشرفية العليا ملكا لدوريات رؤساء مجالس إدارات، فاحتكارات الجنرال موتورز أوستاندرت أويل فى نيوجيرسى وأديبون دى نيمور كيميكال سوسايتين أو شركة صلب الولايات المتحدة يونايستيل وتتبع هؤلاء الرؤساء ويحيى بعدهم أتباعهم من البارونات والفرسان.. إلخ كل حسب مستواه وما يمتلكه من أصول (مالية) فى مختلف منشآته.. وهى مستويات احتفظ بها لها ويستطيع أفراد الجيل الحاضر فى الولايات المتحدة اقتناء أو شراء ما يحتاج إليه من صلب أو نحاس أو أسلاك أنحاس أو سيارات وإطاراتها أو شراء صابونته ومشروباته من الويسكى بل وتابوته (نعشه) من واحد وأكثر من هذه المحلات التى توفر كل هذه السلع.

ومن المؤكد أن لمثل هذه المؤسسات العملاقة مزاياها فهي تنظم وتوفر وتتابع على نحو باهر ورائع كل تقدم تقنى وتوفر وبأقل الأسعار المنتجات الممتازة وأكثرها عصرية حتى لمواجهة المستقبل ومتطلباته، ذلك لأن الولايات المتحدة الأمريكية تركز على دعائم رأس مال قديم ورأسمالية جديدة أى على بنیان مزدوج، على الزراعة إجمالاً وعلى التصنيع وعلى المناجم، وكانت مؤسسات رأس المال القديم ذات أبعاد متوسطة زهيدة على المستوى الزراعى فنجد أحد أهم المنتجين يقدم للسوق تسعة آلاف بالة قطن ولقد كانت هذه الكمية كبيرة فى ذاتها فهي غير ذات تأثير بالنسبة إلى إجمالى الإنتاج أى لا تأثير لها على الأسعار. وهكذا كان حال سائر منتجى القطن ويحدث الشئ نفسه بالنسبة إلى الفرق الكبير بين مؤسسة بتروليول التى تضم شركات البترول الأمريكية وما حققته من نجاح مثير والمنتجات المتواضعة لستة آلاف من ورش الفحم لا زالت متمسكة بأساليب عملها القديم وعمال مناجمها البائسين ولولا تدخل الدولة لما دخلت فيها التقنيات الحديثة ولم تعد السوق تشغل بال المؤسسات العملاقة فهي تتحكم مسبقاً وهى فى مجال إخلاصها لمبدأ المنافسة الشريفة لا تتدخل إلا بعد دراسة آثار القرار، قرار رفع السعر أو تخفيضه وأثره على سائر المؤسسات التى قد تتخذ موقفاً مضراً بها. وهكذا عاشت مؤسسات صغيرة إلى جانب المؤسسات العملاقة بفضل هذا الارتفاع النسبى للأسعار وبفضل المبيعات. ومن هنا استبعدت حرب الأسعار ولم يعد هناك سوى الدعاية سلاحاً لاقتصاد زاخر وفير. ويبدو أن المؤسسات العملاقة التى لم تعد تسيطر عليها المصارف قد زلزلت مقدراتها إثر أزمة ١٩٢٩ وتعرضت القدرة الاقتصادية للمنتجين للقدرة التعويضية للمشتريين وعلى هذا فقد نتج أرباح الاحتكارات إلى جانب أو إلى جانب آخر.. وفى كل جهة محتكر عملاق يتمثل فيه بائع كبير فى مواجهة عديد من المشتريين أو مشتري مهم فى مواجهة عديد من البائعين أو فى حالة ثالثة.. عملاق فى كل جهة فإذا افترضنا مثلاً أن تجار الصلب راودتهم نزرة دفعتهم إلى تحديد سعر تحكّمى فمن الصعب فرض هذه الأسعار على جماعة كبرى هامة كأصحاب مصانع إنتاج السيارات فى ديترويت وبالطبع فإن واحداً من الأقلية المحتكرة قد يؤدى الدورين كليهما بائعاً ومشترياً مستخدماً فى كل منها أو فيهما معا قدرته الاقتصادية وقدرته التعويضية.

لكن النزاع غالباً يقع بين اللشاطين فيكونان عادة منفصلين أحدهما عن الآخر. أما النقابات فهي سوق العمل حيث تصاعدت التعويضات سافرة، فقد وجد عمالقة المحتكرين الصناعيين أرباب الصناعات أمامهم وفي قطاعات عملهم انبثاق النقابات الكبرى إذ تحاول هي كذلك الاستفادة من الاحتكار من حق تدخل المؤسسات الكبرى في سوق الأسعار بحكم قدرة الأخيرة على رفع الأسعار والضغط عليها من ثم رفع مستويات الأجور وبهذا يتمكن العمال من تقاسم المنفعة والمزايا وليست كلمة مزايا مبالغة إذ أن بعض النقابات الأمريكية ما هي إلا مؤسسات ثرية تمتلك من المباني العديد ومن رؤوس الأموال الضخمة الوفيرة ويدير شئونها وشئون أعضائها رئيس يعاونه رهط من الموظفين تدفع لهم مرتبات مرتفعة ولعل ذلك هو السبب في بعد شبكة النقابات عن رؤوس الأموال حيث لا تستطيع امتصاص المزايا واقتسام الأرباح مثل نشاط القطاع الزراعي، وعموماً فإن العداء التقليدي بين المنتجين والنقابات يتخذ شكلاً خاصاً في الولايات المتحدة اليوم شكلاً فريداً وأحياناً كثيرة يشبه جمعية يتحمل العبث فيها المستهلك ذلك أن عمالقة الصناعة سهلوا ومهدوا الطريق لبزوغ هؤلاء العمالقة الاجتماعيين وتلعب سلطتهم المعارضه دورها المنظم لضبط حركة الأجور والأسعار. ومع ذلك فإن هذا الدور المنظم معرض لأخطاء كثيرة قد يستطيع حصرها في ركن أو جعلها تنكمش. إن كل عامل من عوامل الضعف هذه .. يؤدي يقيناً في دولة كل ما فيها عملاق إلى تداعيات وآثار عملاقة هي الأخرى. ويزداد دور الدولة من حيث هي أكبر منظم، ومكلفة بصفاتها هذه مراعاة حسن سير الآلة ومتابعتها ولا يناعز أحد منذ عام ١٩٢٩ في حقها وضرورة تدخلها في الوقت المناسب ذلك التدخل الضروري اللازم في مسار إمبرالية اقتصادية تقليدية. وعموماً فإن التطور الاقتصادي في الولايات المتحدة الأمريكية قد أجبر الدولة الفيدرالية على التدخل الحذر بشأن دور السلطة الترميزية ولم يعد تدخلها بلا روية مثلما أدت إليه الإجراءات المضادة للاحتكار بقانون كلايتون عام ١٩١٤ ولكن دور الدولة أصبح تحليل عناصر الحالة الاقتصادية وتوقع وسائل التنمية بفضل ما يتاح لهذا النشاط من إمكانيات تقنية عصرية وأن تكون مستعدة في كل وقت للتدخل في هذا القطاع أو

ذلك بهدف امتصاص البطالة أو إنعاش الإنتاج أو حجب أو التضخم أو منعه .. إلخ .
وربما أدركنا كيف ولم كانت أهمية تعاظم دور الدولة الفيدرالية فبينما كان لدى
هو فر ٣٧ مساعدا كان لدى الرئيس ترومان مجموعة من معاونين يصل عددهم
إلى ٣٢٥ معارفا مباشرا و ١٥٠٠ موظفا، وكان البيت الأبيض فيما مضى يكتفى
بأعمال الرئاسة ومباشرة مهامها أما اليوم فهناك مبنى الجهاز التنفيذي حيث
يضيق المبنى بالعديد من مكاتب السلطة بل السلطات وبدأت تتركز رويداً رويداً
فى البيت الأبيض ويؤثر ثقلها على البلاد كلها «بيروقراطية مكتبية» هامة تضم
جيشا من الفنيين المتخصصين الأكفاء تخلصوا من عدم الاستقرار القديم للنظم
الفاصلة حيث كان الموظفون يتغيرون تبعاً لنتائج كل انتخاب للرئاسة، ويمثل ثبات
المستخدمين فى مواقعهم ووظائفهم وحده ثورة، فلقد أصبح الرئيس منذ اليوم
يصدر تعليماته إلى مجموعة من الموظفين التنفيذيين الأكفاء المتخصصين وإلى
هذه المنظومة الضخمة التى تقوم عليها اليوم الدولة الفيدرالية المكلفة بمباشرة
المشاكل التى تحتاج إلى إجراءات حاسمة وتتجه على ضوئها مسيرات الاقتصاد
يواجه هذا النظام اليوم مشاكل اجتماعية حادة .. فهل يتصور نظام اقتصادى ولو
كان محدودا دون أن يواكبه نظام اجتماعى موجه هو الآخر؟ فإن الدولة منذ
اللحظة التى تتحمل فيها مسئولية معينة فى تحديد النشاط الاقتصادى تصبح
مسئولة عن الظلم الاجتماعى إذ لا تستطيع تجاهل هؤلاء الأمريكيين الذين لا
يضمهم تنظيم ويتعلقون بأذيال النقابات وهم عملياً خارجها شأن هذه الجموع من
الأذلاء ممن لا يتمتعون بأى حق من الحقوق وهم جماعة يقدر عددها بمليوني
بائس .. هل هم فى حاجة إلى أدنى حد من الأجور؟ هل هم فى حاجة إلى نظام
تأمين اجتماعى على النمط الأوروبى؟ وهكذا تحتاج إلى تدخل الدولة . مشكلة
اجتماعية ورسم سياسة علاج فى أوج اقتصاد زاهر حقق رخاءا ملحوظا وواجه
وحده مشاكل عديدة ووجد الحلول لها .. صحيح كانت مشاكل قديمة إلا أنها أثارت
مشاكل أخرى جديدة بعضها ملح عاجل يحتاج إلى علاج سريع، والمشكلة على
كل حال تمثل عبئا لعله يحتاج إلى مسيرة الحضارة الأمريكية بعنف انفرادى وها
هى المشكلة اليوم ترنو بأبصار بائسيها إلى قدرة رجل فذ .. قادم يهيب بتدخل
الدولة لتنظيم مجتمع .. ينفر كل أفرادها من مجرد فكرة تدخل الدولة .. نفورا

تلقائيا.. ولكن هل تستطيع الدولة اليوم التهرب من هذا الواجب الملح، لنذكر لكى نوضح هذه الصعوبات وهذه الضرورة انطباعات الرعايا الروس ممن لجأ إلى الاحتماء بالولايات المتحدة الأمريكية عقب الحرب العالمية الثانية إذ يحاورهم أحد علماء الاجتماع عن انطباعاتهم وعما إذا كانوا يحسون فعلا بارتفاع مستوى معيشتهم المادى فتجدهم يجمعون على التحسر على المعاونات الطبية المجانية التى كانوا يتمتعون بها فى النظام السوفيتى الحاكم ويتحرون كذلك على المساواة.. مساواة الجميع فى مواجهة المرض حتى أن فرنسا يكتشف هو الآخر قيمة ما كان يتمتع به من نظام الأمن الاجتماعى الذى لم تمنحه بعد الولايات المتحدة لمواطنيها حتى على الرغم من ثرائها، ولا يبدو أنها قادرة على تقديم البديل أو المعادل. ويحدث أن يصيب المرض أحد أساتذة إحدى كبريات الجامعات الأمريكية.. مرض لاشفاء منه فوجئ به، ولم يعد قادرا على ممارسة وظيفته فما مصيره.. نسمع من يقول إنه هو الذى أهمل التأمين على حياته.. وها هو اليوم.. ملقى فى الشارع مع زوجته وأولاده.

وقد بدأ رأى العام يدرك ضرورة التصدى بجدية لعلاج المشكلة على الرغم مما تكتبه الصحافة الداخلية ولم تعد الدولة تنظر إلى الأموال التى تقتطعها كأنها عقاب غير عادل ينزل بالأقوياء.. المهرة منتجو الثراء.. لصالح غير القادرين أو الكسالى.. حيث تبدو الحكومة كمحسناً.. أساسياً.. فى حالات الضرورة.

وتعدل هذه التغيرات أكثر فأكثر وتقلل من دور وسلطات المقاطعات تلك الجمهوريات المستقلة بالأمس بل وهى تبدو كذلك قادرة على تغيير عميق من كيانات المجتمع والحصانة الأمريكية وبدأت الولايات المتحدة تعيد إمعان النظر فى واجباتها ودورها ومسئولياتها تجاه العالم.. كأمة من أممه..

الولايات المتحدة فى مواجهة العالم

خرجت الولايات المتحدة بعد فترة انعزالية طويلة لتلتقى بالعالم ذلك العالم الجديد إنما هو من وجهة نظر الولايات المتحدة عالم تكثُر فيه المنازعات وكان يرغب حقاً فى الابتعاد عنه وعن مشاكله وحروبه غير أن الولايات المتحدة كانت على الرغم منها كمن يزداد ارتباطاً بالدنيا يوماً بعد يوم.. عالم أصبح كونا صغيراً يثير أى حدث فى بقعة منه ردود أفعال فى سائر الدنيا. ولا يمكن القول إلى أى مدى كان انعزال أمريكا عن الدنيا وتوقعها فى قارتها بين المحيطين الأطلنطى والهادى. ومن المؤكد أن نزعة الانعزال هذه قد بدأت منذ الساعات الأولى للاستقلال حيث أرادت أن يكون لها عالمها الجديد، عالم مختلف تماماً من عالم أوروبا وأفضل منه بعد ثورة على الأهل القدماء وربما تولدت نزعة الانعزال كما يقول علماء التحليل النفسى من تداعيات ماضى ذاتى مستقل ... حر... بنى فى مجال فسيح القارة الأمريكية وما أتاحه هذا الماضى من أمان وتأمين وكانت الولايات المتحدة حرة فى ألا تهتم بغير ما كان يجرى فوق أراضيها والاحتفاظ برخائها ورفع ما نسبته حائط الصين، ولذلك فرضت القيود الجمركية كحواجز عازلة يقيها عداءات الجيران وتكبير بيتها باستغلال مساحاته الشاسعة البدائية وتنميتها دون ما شعور بالندم أو الخجل إذ كان كل توسع فى أراضيها توسعاً أشبه

بالغزوات الإقليمية .. امتداداً عمرانياً لكياناتها وغير شبيهة بهذه الغزوات البحرية
الفظيعة التي اقترفها المتسعمرون الأوروبيون فى القرن التاسع عشر وغيره ولم
تشعر الولايات المتحدة بأى ارتباط غير رباط الجيرة مع سائر بلاد القارة
الأمريكية وقد عبرت عن هذا التضامن مع الجيران مفاهيم «مذهب مونرو» عام
١٨٢٣ بما نادى به من أن أمريكا للأمريكيين . وتؤكد الرسالة التى وجهها رئيس
الولايات المتحدة فضلاً عن اللداء بعدم اهتمام الولايات المتحدة بمشاكل أوروبا
وصراعاتها وكان كثير من هذه المفاهيم التى نادى بها مونرو تعود إلى السطح
ويعود التأكيد والإصرار على نهجها .. ومع ذلك فمن الصعب إن لم يكن مستحيلاً
أن تتمكن أمريكا من تجاهل الدنيا أو نسيانها هكذا ببساطه فقد كانت هناك التجارة
والواردات والصادرات والعلاقات الدبلوماسية، ويأتى عام ١٨٩٨ بتلك الاندفاع
الشرسة نحو أراضى بورتوريكو واحتلالها حتى اليوم، ثم الاندفاع نحو كوبا التى
لا وجود لهم فيها اليوم، ثم الانطلاقه البعيدة نحو الفيليبين والتى لم يخرجوا منها
عملياً رغم الاستقلال الممنوح لشبه الجزيرة الأرجنتينية . ومن جهة أخرى كانت
الدنيا تجئ إلى الولايات المتحدة فى شكل هؤلاء المهاجرين أو المهجرين من
أوروبا ومن اليابان ومن الصين وكان هذا الزحف إليها أمراً طبيعياً وخطيراً فى
الوقت نفسه حتى أقفلت الولايات المتحدة حدودها وأبوابها من عام ١٩٢١ حتى
١٩٢٤ فى مواجهة الموجات الخارجية الوافدة . وليس هذا من حدث أشد فظاعة
ويؤسا من الأعوام التى تلت الحرب العالمية الأولى بالنسبة إلى أوروبا واقتضى
الأمر وفرضت الظروف إلغاء صمام الأمن .

وفى عام ١٩١٨ بعد أن ساهمت الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب
العالمية الأولى وكان لها الدور الحاسم فى هذه الحرب قررت الانسحاب من حلبة
السياسة الدولية العملية فور الانتهاء من معاهدة فرساي وعصبة الأمم، وبدأت
الولايات المتحدة تتخلى وتهمل العالم الذى كان يريخ تحت أقدام إنجلترا وكانت
وقنئذ أقداماً واهية متعبه بعد عصر استعمار ذهبى زال أو كان فى طريقه إلى
الزوال وذلك بعد أن كانت إنجلترا قد شيدت إمبراً طوريتها الشاسعة بفضل غزوات
بحرية تاريخية، وجاءت الحرب وتركت المستعمرات فى أماكنها . وكان السبب فى

التدخل الأمريكى فى الحرب جوهريا هو حماية التفوق الدولى الذى كانت تتمتع به إنجلترا مع صيانة مستقبل الحضارة الأنجلو ساكسونية .. أي حضارة الولايات المتحدة نفسها، وفى مواجهة الرئيس وودرو ويلسون الذى لم يكن راغباً فى نزعة الانطواء والتراجع حيال فشله. فهل يمكننا الحديث هنا أنه فى المقابل كان هناك نجاح واضح حققه فرانكن ديالانو روزفلت فى مؤتمر يلتا (بين تسالين وتشرشل روزفلت) وفى طهران وفى الرباط، فى اجتماعات القمة تلك التى سبقت وفاة روزفلت وكذا قبل الحرب العالمية الثانية .. كل هذه الأحداث كانت بسبب ما نجم عنها من تعهدات وارتباطات ربطت بين دول العالم وانفكاك بعض ما كان قائما منها .. عالم يؤرقه مجرد تخيل المستقبل. والسؤال الذى نطرحه هنا ألم يتنازل روزفلت طواعية بأكثر مما ينبغي خضوعا للضرورات الملحة وإبتعادا عن مبادئ نادى بها وودرو ويلسون مؤيدا مبدأ تحرير الإمبراطوريات الاستعمارية السابقة وذلك تمشيا مع مبادئ الولايات المتحدة الأمريكية وتقاليدها، غير أنه فى الوقت نفسه قد عرض للخطر قوة الغرب وبالتالي عرض بلاده نفسها لاحتمال مواجهة أمريكا اللاتينية وبلادها التى تعتمد على الولايات المتحدة اعتمادا كاملا شبه ما يكون باستعمار الولايات المتحدة الأمريكية لهذه البلاد المجاورة لها ثم إهداء مصائر نصف دول أوروبا للسوفييت وذلك ما كان عنوانا على هذا الحق «المقدس» حق الشعوب فى تقرير مصيرها، ولكن روزفلت كان يؤمن بأن سلام الكون إنما يتطلب وقف موجة غليان الشعوب المقهورة .. جميع الشعوب ما عدا الأربعة الكبار وقتئذ: الصين، والاتحاد السوفيتى، وإنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية .. كانت هذه هى آمال روزفلت ولعله لم يكن خاليا من الانعزالية إذا ما كان الاهتمام بمشاكل العالم ضرورياً هكذا بحيث يسوده الهدوء !!

ولعل هذه الآراء وتلك النظرة للأمور عند روزفلت عادة أمريكية أو لنعترف أنها وجهة نظر كما يراها غير الأمريكيين خصوصا الغرب والغربيين وهذه الظواهر خارج العالم الجديد ترى أن الولايات المتحدة تتقدم لا شعوريا بل وبدون أن ترغب قيادة بلاد الدنيا، ونعتقد أن المشكلة بسيطة ومسألة رشاد عقل، ومسألة استعداد، وأن المشاكل تقع بسبب أنانية العالم القديم وتعصبه وأطماعه ومع ذلك

فقد أغضب كثير من مبادرات الولايات المتحدة الكثيرين وهناك ما أقلت من أيديهم ففقدوا السيطرة على الأحداث فأثبتت هذه النتائج بلا غموض أن المعونات والمبادئ لا تكفيان للأخذ بيد العالم، ذلك أن الهيمنة بالتجارة والمال الشرعيان من وجهة النظر الأمريكية التقليدية توقف اليوم كثيرا من الشكوك تلك التي أثارها موجة استعمار الشعوب وتكاد تشبهها، أما الأمريكيون فيعتقدون أن فشلهم إنما يعود إلى العقوق ونكران الجميل وحسد الشعوب التي ساعدوها أو أرادوا مساعدتها، ثم بدأت الولايات المتحدة الأمريكية تتدرب وتستعد وتتخذ المواقف كسائر بلاد الدنيا.. التي تجاهلتها كثيرا.. بلاد الدنيا التي يقع على أكتافها اليوم الإشراف عليها وقيادتها حتى بالقدر الذي يحقق لها أمنها الذاتي. وهم يأخذون بناسية هذه المهام بكل جدية وهامهم يعترفون بأخطاء معينة ارتكبوها تمسها مع تقليد أمريكي خصب لطيف.. الإيمان بما تعمل والاعتراف طواعية بالأخطاء دون غرور، وتشغل بالهم النتائج ذات الفاعلية فتراهم ينشغلون عددئذ ويقلق راحتهم تلمس أسرع الوسائل لتصحيح المسار وتعديل التصويب للوصول إلى الهدف

وهكذا استطاع الرئيس كيندى أن يجمع حوله خيرة المثقفين والمتخصصين فى الاقتصاد والسياسة للقيام بدراسات متعمقة للقضايا والمشاكل كافة وقد عبر أحد الصحفيين فى ٢١ مايو ١٩٦٢ عن ذلك بقوله: إن الرئيس كيندى بعد أن جمع هذه العقول وهذه الكفاءات وهذه الأدمغة حوله وأشرف على أعمالها تحققت له نتيجة لهذا الاتجاه الرائع حصيلة زاهرة وتوليفة فائقة الأهمية من الآراء والمسارات التي تحدد خطواته (ولذلك أسرعوا باغتياله) [مسكين كيندى إذ اغتالوه لأن صرح بأن الوقت قد حان لكبح جماح الاحتكارات فقتله اليهود الصهاينة والمضحك المبكى لم يعثر على القاتل الحقيقى ولم يسأل أحد لم كان الاغتيال؟ وما نحن نذكره للتاريخ فأغلب هذه الاحتكارات فى أيدي وأموال اليهود الصهاينة أياله العالم بالأمس واليوم وإلى أن تقوم الساعة.

إلا أن هناك مناطق لا زال يكتنفها الظلال هنا وهناك والخيارات متوفرة. والمهم أن الخط الذى رسمه لتحركاته طريق واضح فنتضح للمرة الأولى نيات رئيس أمريكى بهذا الوضوح.. منذ زمن بعيد ولترى نتائج الإسراع فى دعوة

أساتذة جامعة هارفارد للمساهمة فى تحديد رؤى السياسة الأمريكية وخطوطها خلال السنوات العصيبة المأساوية منذ مشروع مارشال حتى الحرب الكورية وأزمة برلين الحالية والنزاع مع كوبا ولاوس وهنا أدركت الولايات المتحدة الأمريكية أبعاد دورها ومسئولياتها.. وهكذا ولت سياسة الانغزال وانقضت أيامها.. وكما أن القرة تفرض التزاماتها فإن عليها فى الوقت نفسه أن تتحسب خطواتها وتبعاتها، ذلك أن إنبثاق دور الولايات المتحدة على الصعيد الدولى ومركزها على القمة مما قد يساهم كثيراً فى تأخيرها الذاتى أو وقف نموها على الأقل وفى فقدان ما حققته حتى الآن من تقدم ونمو مذهلين ونراها اليوم تجد كل قواها الاقتصادية والسياسية والعلمية والعسكرية للقيام بدورها على قمة العالم وقد اتضحت فى الواقع معالم هذه القرة بعد انتصار عام ١٩٤٥ بعد إلقاء قبلة هيروشيما وبرزت فور ذلك مشكلة قيادة العالم الأوروبى ثم العالم كله.. وكان العالم قبل ذلك موزعا بين معسكرين عدائيين وفق ما تأتى به المخاطر سواء من جانب هذه الأمة أو تلك من أمم التفوق واليوم يعيش العالم وفق القاعدة القديمة أو وفق التعبير الذى أطلقه ريمون آرون ثنائى القطب فليست أيديولوجيات وحدها هى التى تفصل بين العالم الحر والعالم الاشتراكى اللذين تتصاعد أعداد كل منهما مع مرور السنين، ونجد أن العالم الاشتراكى، قد بدأ ينظم نفسه وينشئ هو الآخر تلك الوحدات الصناعية العملاقة وإذا بلدان العالم الحر تجد نفسها فريسة الرغبة فى تحقيق نوع من الاشتراكية تراها ضرورية. إن الزعامة اليوم تفرض نوعاً من الاختيار بين واشنطن أو موسكو، وما دول الحيادة فى العالم الثالث إلا كواكب فى فلك العملاقة.. مجرد مشاهدين على مسرح الأحداث الجارية وأن هذا النقل البسيط الذى يتيح انضمامهم إلى هذا المعسكر أو ذاك، ولذا استوجبت الظروف أحياناً استمالتهم أو اجتذابهم والاحتفاظ بهم بقدر ما، وربما بسطت السيطرة عليهم. وفى عام ١٩٤٥ على أثر ما ساد الدنيا من عوامل الخوف إثر إلقاء القنابل الذرية الأولى على هيروشيما ونجازاكى ١٢ يوليو ١٩٥٣ وكان مع نجاح السوفييت فى صنع قنبلتهم الهيدروجينية أن ساد التوازن بين المعسكرين، ثم كان عام ١٩٥٧ مع انطلاق أول قمر صناعى (سبوتنيك) أن حقق السوفييت نقطة فى المباراة.. نقطة حاسمة كما حفل السباق

الرهيب فى صنع الصواريخ عابرة القارات إلى مدى عشرة آلاف كيلو متر، وكلما تقدمت علوم الأسلحة اشتد بين المعسكرين أوار الحرب الباردة التى يتأجج لهيبها من تخوف كل من المعسكر الآخر على ملأ من سائر دول العالم وشعوبها وهى تتابع فصول هذه المسرحية فينتابها الذعر والهلع مما ترى عيونها مفتوحة عن آخرها وأيديها فارغة، وحيث يختلف صراع العملاقين عن صراع الدول الأوروبية بالأسف فى الدنيا القديمة ويتخذ أبعادا مخيفة توشك أن تفرق فى أتونها دول الكون كله. ومن الواضح أن هذا الصراع يستند بفكر الولايات المتحدة فلا يؤثر فى سياساتها فحسب بل تمتد آثاره وتداعياته إلى كل مظاهر حياة سكان الولايات المتحدة الأمريكية بل وعلى أفكارها، ولذلك كان عام القنبلة الهيدروجينية الروسية نقطة تحول جوهري فى التاريخ الأمريكى كما كان عام ١٩٢٩ لأسباب وظروف مغايرة وإن لم تكن أقل حسما فقد بدأ هذا القلق يشعل القلوب والأخيلة والنفوس ويغذيها بروح التحدى والرغبة فى اللحاق بل والتفوق وساد جو الحرب أو الخوف منها والاحتياط لها وهى ظاهرة المكارثية تطفو على السطح فتلاشت الآمال فى عالم يسوده التعاون والتضامن الدولى بسبب هذه الحمى المعادية للنفوس وسعادة البشر فكل معسكر يفكر فى عناد فى سياق هذه الحرب التى سميت بالحرب الباردة وهى أبعد ما تكون عن البرودة ويجب كى تكتمل الصورة أن نقحم المجال الأدبى وخاصة الشعر ثم المسرح والسينما فضلا عن الفن مع الاحتفاظ بمكان مرموق للعمارة والعلوم .. علوم الإنسان وعلوم الطبيعة وقد أقحم تفتح ذهن الأمريكى خبراء الاقتصاد من جامعة هارفارد أو جامعة شيكاغو واتهمهم كما اتهم فناني البلاد إذ وضع كل هؤلاء فى قفص الإنهام مع أشكال التقنيات ومستحدثات الصناعة الأمريكية واتخذ فقط الرواية التى لاقت رواجا كبيرا منذ قرابة العشرين عاما وكان لها تأثيرا كبيرا على الأدب الأوروبى والأدب العالمى كما أثار لنا تطورها من جهة أخرى منذ بداية القرن من الأزمة التى نحن بصدد الحديث عنها فقد اكتشفت أوروبا الأدب الأمريكى فى عام ١٩٢٠ - ١٩٢٥ ولكن شهرته إنما راجت منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فبدأ حملة نقد لترجمات هذا الأدب قادها كتاب من أمثال، مالرو وبافيز، واستقبل الأدب الأمريكى بترحاب شديد فى

فرنسا كما استقبل في كل من إنجلترا وإيطاليا وألمانيا بما أطلق عليه عصر الرواية الأمريكية .. ويمكننا أن نتحدث كذلك عن نزعة «أمركة» سادت الموسيقى ممكن متابعة آثارها في موجة رقص الجاز وموسيقاها وتقليد التمتع الأمريكي حتى في الأزياء وفن الكارتون وخاصة تلك الرسوم الهزلية المضحكة التي تمثلها أفضل تمثيل جريدة النيويورك الأسبوعية. أما ما تضمنته القصة الروائية الأدبية الأمريكية هذه القدرة الفذة على الحكاية المروية مختلفة اختلافا شاملا عن النموذج الأوروبي في قصص التحليل النفسي وقد قيل عن (التحقيق الصحفي) الموضوعي أن الأسلوب العاري المجرد إذ يتوق إلى أن يعرض لا .. ولا ينتقد ولكي يدخل القارئ في عالم الشخصية العقلية تعرض عليه الأحاسيس والمشاعر التي تتملك هذه الشخصية فجأة ويعنف دون محاولة لترجمة معانيها. ذلك هو أسلوب السينما التي لا يحتاج نفوذها إلى برهان فالرواية الأدبية الأمريكية تتميز بهذا النوع من التقنية وهذا الكلم من العنف والوحشية أي أنها نمط أدبي مصنوع بشكل معين، وكانت القصص في السينما من نوع الأخبار الساخنة والأحداث البوليسية العنيفة .. أدب فظ مضطرب .. محموم هائج دون أي قدر من الرقة أو اللطف، أدب تبادل كلمات قد تثير إعجاب النظارة على الرغم من العنف وقد يكون بسبب هذا العنف وفق الأذواق والأمزجة وربما استطعنا أن نتذوق فيه شيئا صحيحاً شيئاً حيويًا قريباً لا شبيه له في أدب آخر حالياً ولعله كما يقول الأدباء الأمريكيون أنفسهم أدب طبيعي نشأ فيما بين الحربين. ومن أكثر أدباء القصص الأمريكية همنجواي وفولكنر وشتاينبك ودوس ياسوس، وعموما فإن هؤلاء الأدباء سواء منهم الحي أو من توفي قد ولدوا فيما بين ١٨٩٠ و ١٩٠٥ أي أنهم ذرية مختلفة عن تلك التي تسود الولايات المتحدة اليوم وهم يبتعدون أكثر فأكثر عما سمي بالأدب الطبيعي رها هم اليوم منذ الحرب العالمية الثانية يعودون إلى نبع التقاليد القديمة الأصيلة التي يجهلها المجتمع الأوروبي كثيرا من أمثال كتاب القرن التاسع عشر وأدبائه ميلفيل ٨١٩- ١٨٩١، وهوثورن ١٨٠٤- ١٨٦٤، وهنري جيمس ١٨٤٣- ١٩١٦. أما ما يهمنا نحن فهو الحركة العامة وما قد تكشف عنه من الحضارة الأمريكية فليس للكاتب في الولايات المتحدة الأمريكية مكانه الطبيعي المحترم في المجتمع

حيث لا يقوم الأديب بالمعنى الأوروبي، فالكاتب الأمريكي دائما فرد منعزل يعيش على هامش الحياة وقد يتوه غالبا في ثنايا مصير مأساوى بعد تحقيق نجاح موجز بسيط وليس هناك فصل ثان كما قال الأديب فيتزجيرالد ١٨٩٦ - ١٩٤٠ وهو يعنى التعبير ويعنى أمثاله والذين يقدرون أن يحققوا النجاح وتعبير أفضل فإن الكاتب الأمريكي كائن اجتماعى لا يكتفى بالتعبير عن تمرده وضيقه من العالم الذى يحيط به ولكنه يمارس تجربة هذا التمرد ويدفع ثمنها كل يوم من الكرب والحسر النفسى والعزلة التامة (الوحدة) ويجلو تطور القصة الأدبية الأمريكية والتوترات الاجتماعية الداخلية بقوة:

وفى القرن التاسع عشر أثارت مؤلفات ميلفيل وهوثورن هذه النزعة نحو الفضيلة التى تحدث عنها كالفين ولكن على النمط الأمريكى وتمثلت آراء كالفين بالنسبة إلى الكاتب الأمريكيين نوعا من الصراع القلق المأساوى بين الخير والشر فممنهم من يعزى المجتمع الذى يعيش فيه فيرد لهم المجتمع بدوره الصفة مضاعفة. ثم تقوم فى مستهل القرن العشرين موجة عارمة من تصلب مذهب البيوريتان مبدأ الطهر (وهو مذهب جماعة بروتستانتية فى إنجلترا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر طالب بالتمسك بأهداب الفضيلة) منذ نهاية القرن التاسع عشر ولم تعد البيوريتانية رمزا على مساوى المجتمع، وهكذا بدأت موجة القصص والروايات على نمط زولا ذات الميول والنزعات الاشتراكية (أى مقارنة للاشتراكية) وراكبت امتداد القوة الأمريكية وتساعدتها بعد عام ١٨٨٠ وصار المجتمع منذ ذلك الوقت حتى الحرب العالمية الثانية مجتمعا صناعيا رأسماليا وأصبحت الحياة الأمريكية المستقبلية هدف أنصار معاداة الامتثالية المفضل وقد ألف الكاتب سنكلير لويس روايته الشهيرة بابيت عام ١٩٢٢ صورة كاريكاتيرية ساخرة ذات نزعة انتقامية تشفيا من رجال الأعمال الأمريكيين نفوا أنفسهم طواعية ليعيشوا فى باريس فيما بين الحربين من أمثال: همنجواى ومترجيرالد ودوس باسوس وفاريل ومبلر وكاترين آن مورتز وهم السلالة المفقودة الضائعة، كما أطلقت عليها جيرترودستاين رئيسة هذه المجموعة وكان صالونها الأدبى فى باريس مكانا لمن يعيشون من الأمريكيين فى الخارج ولكل أفراد هذه الذرية من

المثقفين اليساريين الذين فضحوا وعدروا محاكمة ساكو وفانزيتي وأعدامه (عام ١٩٢٧) وحكم بهذه المناسبة على الكاتب دوس باسوس بالسجن.. كانت تأثيرهم أحداث ووقائع الحرب الأسبانية (وهذا نتذكر رواية همنجواي الشهيرة لمن تدق الأجراس) وعدوانيات موسوليني وتناقضات مبدأ وما أثاره من جدل.. فى أمر هؤلاء الذين رأوا فى الاشتراكية أملاً يرجى لخلاص المجتمع المعاصر.. غير أن حرب ١٩٤٠ وتوابعها وبدايات الحرب الباردة ضربت بهذا الأمل عرض الحائط وبدأ الروائيون الأمريكيون يكتشفون معنى التضامن ومغزاه بالنسبة لبلادهم أولاً ثم يدركون ألا فائدة ترجى من الحلم الماركسى وابتعد الشباب الأمريكى عن الواقع الاجتماعى ومالوا إلى الرواية أو الرمز والشعر والفن للفن وعبر عن هذا الاتجاه هنرى جيمس وميلفيل وهذا الأخير من الجيل الضائع خاصة وقد توفى فى شرح شبابه... فهل يغير ذلك زوال التمرد من قلوب الكتاب الأمريكيين وربما صدقنا ذلك ولو فترة هذه العودة الجامحة نحو القومية التى تلت الحرب وظهور جيل من الأدباء والكتاب الجامعيين أى هؤلاء الذين استقربهم المقام فى إطار من الأمن والذين اتسقوا طواعية مع حضارتهم الخاصة الحقيقية. غير أن فى زمن ما بعد الحرب نشأ كذلك جيل وهم جماعة من شباب المثقفين يقطعون صيغ المجتمع المحيط بهم مقاطعة تامة وأساليبه، شأن كبار السن مع أقرانهم من الجيل الضائع ولكن برنين ذو صدى مختلف.. إلى رجال أعوام الـ ٢٥ أو الـ ٣٠ ممن كانوا يؤمنون بمستقبل الاشتراكية وخلفوا الذين لم يعمدوا يؤمنون فى مواجهة القلق بغير الإحتماء بالفن وشرب الكحوليات والعقاقير المخدرة فقد كان الإيقاع الأساسى بالنسبة إليهم الانغزالية التواصلية (عدم القدرة على التواصل) فى عالم مجرد من كل معنى، ومع ذلك تظل الولايات المتحدة على تقدمها على مسار العصرية فهى بلاد المستقبل وهى بذلك على الأقل ضمان للأمل عنوانا على حيويتها وعلى مصادر ثرواتها المتعددة وسوف يدفعها ذلك كله ولاشك لتسترد أو لتعثر من جديد على تفاولها السابق وثقتها فى ذاتها ويقول كلودرول فى مؤلفه «مفاتيح لأمريكا، إن أمريكا إحدى أراضى الكون حيث تظل على الرغم من كل شئ معقلاً لتأكيد قدرات الإنسان ويظل المرء على يقين فى ظهور رجل جديد قد يولد أكثر إيماناً

بقدراته وأكثر حكمة وسعادة.. من الجائر والممكن السخرية من الشلاجات
والفيتامينات شوائب الآلات.. إلا أنه ليس ميسوراً أبداً السخرية من إنسان أمريكي
فيتنامي في داخله فن الحياة وسرعة الخضوع لقدرات البشر التي آمنت يوماً
بحتمية مسئوليتها عما حاق به من نكبات.

الفصل الرابع

عبر العالم
الإنجليزى ..

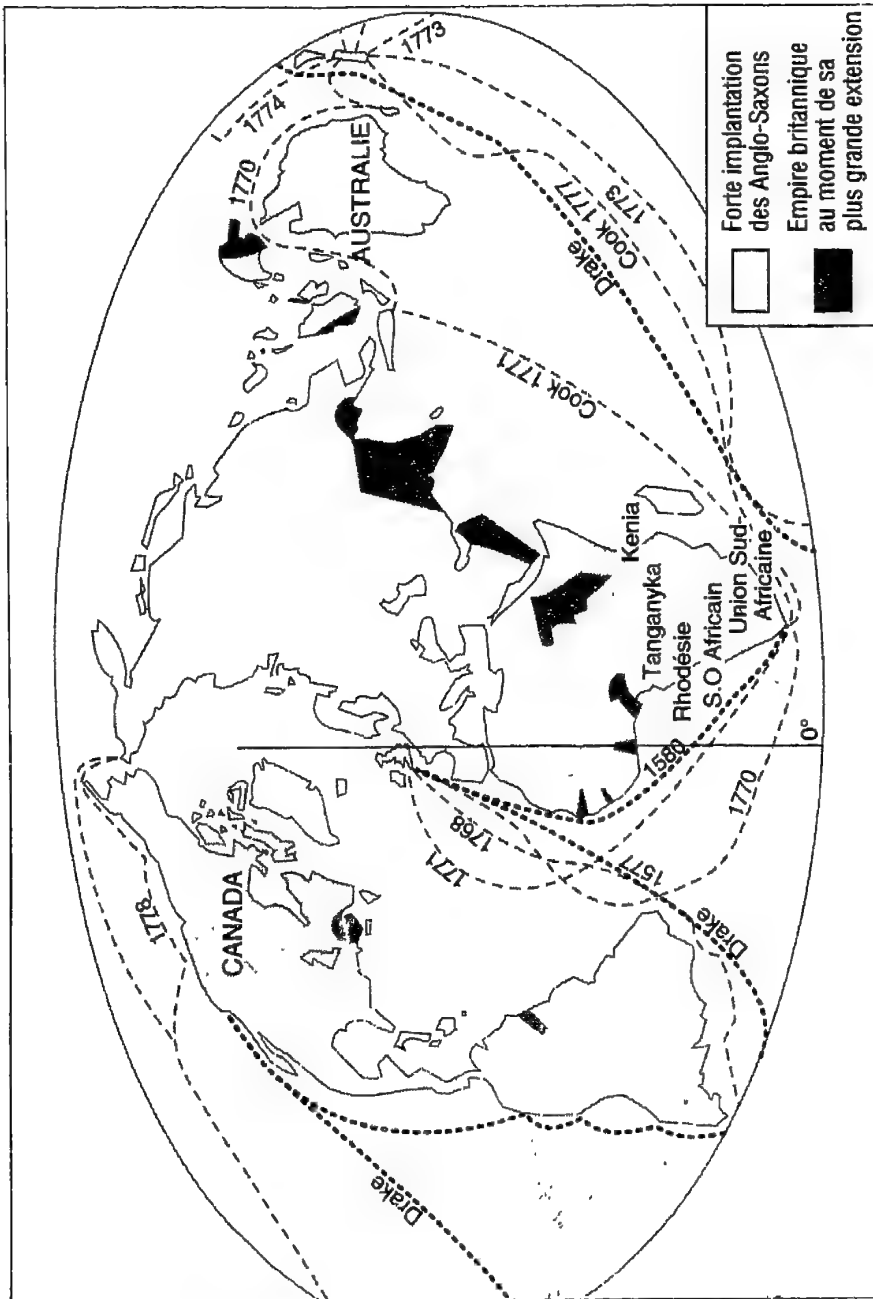
عبر العالم الإنجليزى

كانت لندن منذ القرن الثامن عشر حتى ١٩١٤ على الأقل مركز الدنيا بحيث تثير اليوم زيارة قصيرة للمدينة معالم هذه العظمة كقصر بكتجهام وقصر جيمس وداوينج ستريت وبورصة المال وأحواض السفن فى متعرجات نهر التايمز.. كل هذه الشواهد تظل عنوانا على ما كانت عليه الأحوال فيما مضى من زمان بعيد بعيد جدا فى البحار، وقد وزع الشاعر الشهير ديارو كبلنج حياته بين الهند ومنزل فى أفريقيا الجنوبية ومزرعة كنديّة ومصر فكان على حق فى قوله: إن المرء لا يستطيع فهم إنجلترا إلا من بعيد.. على هذه الحواف الإمبراطورية والحربية وخاصة من أراضى الهند لعلنا لهذا السبب نجد صديقا له من الفرنسيين أبرق إليه حين وصل من الجزائر بقوله: قررت أخيراً فهم فرنسا. ومن إنجلترا الإمبراطورية إلى فرنسا الإمبراطورية لم تعد هناك بقايا تذكر سوى القليل مما كان، إلا أن فكرة الإمبراطورية تمنح الإنجليز قوة خاصة فهى هذه الأفكار والمفاهيم والميول الإمبراطورية بأكثر مما لدينا نحن الفرنسيين، تظل لها انعكاساتها السياسية حتى اليوم، ومن ثم نفهم السمة المأساوية التى واجهتها إنجلترا إذ فرض عليها الاختيار بين السوق الأوروبية المشتركة أو الكومنويلث، فاختيار السوق يعنى الانضمام إلى أوروبا التى عاشت دائما منعزلة عنها فى جلال وأبهة ويعنى كذلك التخلّى عن أبعادها القديمة العالمية التى صنعت عزها ومجدها وواحداً من أقوى تقاليدها.

فرنسا وإنجلترا فى كندا

فقدت إنجلترا أمريكا ولكنها احتفظت بكندا بل وأنجزت اكتمالها من الإططنطى حتى الهادى ويرجع ذلك إلى عام ١٧٥٩ وهزيمة مونتكالم^(١) وموته على أسوار كوبيك عام ١٧٨٢ إذ وصلت الطلائع الإنجليزية إلى مناطق الإنتاريو والمقاطعات البحرية التى يقطنها إنجليز وأمريكيين من الموالين والمخلصين لملك إنجلترا بعد استقلال المستعمرات النائرة فيما بين عامى ١٨٥٥ و ١٨٨٥ وتنامت مظاهر الإزدهار فى الولايات البحرية التى يسكنها الإنجليز حين بدأت سفنهم الشراعية وبحارتها ينافسون بحارة الولايات المتحدة فى مياه الأطلسى عام ١٨٦٧ ثم أنشئ بعد تبدلات وتحولات الدومنيون (أى الدول المرتبطة بالتاج البريطانى) الكندى من أونتاريو وكوبيك واسكتلندا الجديدة وكذلك انضمت بزنسويك الجديدة إلى الدومنسون عام ١٨٧٠ ثم مقاطعة مانيتوبا عام ١٨٧١ وكولومبيا البريطانية، وفى عام ١٨٧٣ انضمت جزيرة البرنس أدوارد (سابع مقاطعة) وقد أتاح إنشاء سكك حديد كندايان باسيفيك الفرصة لاستعمار المروج مع استبعاد الملونين من الكنديين من جذور فرنسية وهندية وكانت من حركة تعمير هذه المستعمرات بسكان غرباء شواذ الجذور كما حدث فى الغرب الأمريكى أن أنشأت مقاطعتا البرتا

(١) جنرال فرنسى قاتل بفخر دفاعاً عن كندا ضد الانجليز وقتل أثناء دفاعه عن مدينة كوبيك.



٢ - بريطانيون
 أثناء امتداد
 امبراطورية بريطانيا

تاريخ وقواعد الحضارات - ٥٩٣

العالم الإنجليزي
 استيطان
 ١ - انجلو ساكسون
 احتلو مناطق

وشاكاتشيوان (١٩٠٧) وحتى الأرض الجديدة، ثم صارتا معا بعد استفتاء عام ١٩٤٨ الشريك العاشر. وتمثل اليوكتندا الفرنسية ثلث سكان الدولة وأغلبهم متركزون فى مقاطعة كوبيك ويسيطرون على ضواحي كندا الشرقية ومصب النهر الأسفل والمتوسط من وادى سانت لورانس

ولئن كان الموقع محاصرا فهو يتمتع بجذور عميقة، فالسكان الفرنسيون من نسل ٦٠ ألف فلاح من الغرب منتشرون بين سانت لورانس والمسيبى حيث أخضعوا لبنود معاهدة باريس عام ١٨٧٣ وتمكنها من التمسك بمقاطعة كوبيك وتمركزت فيها جذورهم بشكل قوى، على أن الكندي الفرنسي فلاح لامزارع أجير مثل قرينه الإنجليزي الذى لم يترك نفسه فريسة إغراء الغرب وندائه وقد كانت هجرته إلى المدن بطيئة فلم تستطع المصانع التى نشأت فى نيويورك جذبه إليها ولا كذلك مصانع ديترويت فهم من سلالة ذات حيوية... بسيطة سعيدة... أما كندا البريطانية فقد نشأت فى اتجاه الغرب مقتحمة مواقع الفرنسيين بمغامرات عنيفة إلى نحو قلب القارة (منتصفها) ويمكن القول بأن الإنجليز أحرزوا قدراً من نجاح فى حصارهم مقاطعة كوبيك التى بدت كشبه جزيرة معزولة غير أن كندا الفرنسية اضطرت للرضوخ وتشبثت بأراضيها وظلت فى الواقع قابضة فى رسوخ قوتها مخلصه لعقائدها الدينية الإكليريكية حتى بعد ١٧٦٣ حيث أنقذتها هذه العقائد الدينية كما أن إخلاصها ووفاءها امتد إلى اللغة الفرنسية لغة سكانها وكان ذلك من الأسس الرئيسية التى عملت على حفظ كيانها خلال القرن الثامن عشر وتبدو اليوم مجتعا وحضارة ملطوية على نفسها فى المقام الأول مجتمع من الفلاحين ثم من المحافظين بعد ذلك يباشرون رجال دين أقوياء ساعدوا الأهالى على الحفاظ على تقاليدهم ونشر ثقافتهم التقليدية. وكانت القطيعة مع فرنسا عام ١٧٦٣ بمنزلة جرح ظل يئزف لما بعد. ذلك إهمالا غير مسرغ ولا مستساغ. ثم طفقت كندا بعد ذلك تفقد الاتصال بالبلد العجوز القديم أى فرنسا.. فرنسا الأمس وفرنسا اليوم. ذلك أن فرنسا الأم تطورت منذ القرن الثامن عشر إذ عرفت وعاصرت وعاشت الثورة والتحول من الملكية إلى الجمهورية العلمانية أى (فصل الدين من الدولة) ومع ذلك لازالت تمسك وتمسك بشعلة الكاثوليكية التى لا تخبو.. وهى مقدمة خط الدفاع الثورى على طريقته، وقد قيل أحيانا كثيرة أن

كندا الفرنسية لم تدرك مغزى هذه الأحداث الجديدة فهي تثير دهشتها وتدبر
ظهورها لها ومع ذلك فهي كذلك تتطور قائمة أصولها وجذورها الكاثوليكية
وسكانها الفلاحين كما تتضح بالضرورة على حتمية التقدم العصري والنقلى
وعلم الإنسان المتطورة ولا شك أن هذا الانفتاح انفتاح واثق الخطى تدفعه روح
مقاومة شديدة صلبة عنيدة فى مواجهة كندا الأخرى.. الإنجليزية التى تأمركت
ذلك أن الكنديين من جذور إنجليزية يمثلون ٤٨ ٪ من عدد السكان وكلهم يعيشون
ويعمارسون حياتهم على النمط الأمريكى وهو نمط يمس قطاعات من سكان كندا
الفرنسية وهم فعلاً.. هناك أمريكا أخرى مختلفة حيث يظهر هذا النموذج
الأمريكى واضحاً فى مدينة تورنتو أهم مدنها حيث تتجه شطر الجنوب نحو
الولايات المتحدة الأمريكية وهذا النموذج الأمريكى كاسح نراه فى أشكال المباني
والمنازل والشقق ومحتوياتها من الأثاث وتتشابه المطابخ كما تتشابه وسائل التعليم
بين الأطفال خصوصاً الذين يتركون مبكراً يتصرفون على هواهم فتنشر (البوى
فريد) و(الجيل فريد) انتشاراً سريعاً وذلك كله لقربهم من أراضى الولايات
المتحدة الأمريكية جارتهم فإذا العادات تكاد تتقارب وتتمازج كذلك موجة الحريات
وذلك فضلاً عما نجد من نمط الأنشطة التجارية على الأسلوب الأمريكى.. أسلوب
قوى ونشط ختصار فتلك هى الكندا بعد انفصالها عن الأم الإنجليزية البعيدة
حيث قدم السكان من جذور وبلاد مختلفة خارجية عن البلاد الأنجلو ساكسونية
وحيث نجد أن الجيل الأخير من الوافدين المهاجرين ومن قد نجدهم حراً أونثاريو
يخصعون كذلك للإغراءات.. وأخيراً فإن ما يصون استقلال كندا إنما هو حصيلة
هذه المشاعر الداخلية وهى قبل كل شئ عوامل التوتر المستتر بين الأنجلو ساكسون
والكنديين من جذور الذى حققته هذه الانطلاقة الاقتصادية فى تخفيف حدة
التوترات تلك، والحق أن كندا التى تعد قوة كبرى على المستوى الدولى وعدد
سكانها الـ ١٨ مليون فإن نسبة تكاثرها يقترب من ٢٨ ٪ أى ٩ مليون كيلو متر
مربع أى ١٦ مرة مساحة فرنسا وفيها اقتصاد نام يستند على دعائم من موارد
طبيعية هائلة ومتعددة مع احتياطي ضخم من كهرباء من مساقط المياه وتنشأ فى
كل موقع صناعة هامة على الأسلوب الأمريكى مع الرقابة الشديدة على الأشكال

الاقتصادية القديمة التى أثبتت التجارب كفاءتها كاستغلال الغابات ونقل أخشابها نهرياً.. ونجد هذه الأنهار والقنوات خاصة بجذوع الأشجار. ونضيف هنا قنقول إن كندا أمة مستقلة وليست التبعية للتاج البريطانى سوى ارتباط نظرى مجرد حيث يمثل الحاكم هذا التاج بسلطات وهمية خادعة فضلاً عن أن هذا الحاكم يجب أن يكون كندياً. ولا تلغى هذه الحقائق السياسية والاقتصادية أسباب التوتر الذى يفصل بين الكنديين ويعزل كندا الفرنسية هذه المشاعر المفعمة بالتوتر أردنا أم لم نرد قائمة ماثلة منتشرة على الرغم من أن استغلال المصارف وشيكات الفنادق والمحلات الإنجليزية للأنشطة التجارية وهو ما نلاحظه بوضوح فى مدينة مونتريال أكبر المدن الفرنسية بعد باريس وإن كانت اللغة الإنجليزية فيها هى لغة الأعمال والتجارة، وعلى أى حال فليست مشاعر الألم لدى كندا الفقيرة أى كندا الفرنسية فى مواجهة كندا الثرية الإنجليزية من الأهمية السياسية فى ظل معارضة هى قبل أى شئ بمنزله رفض حضارة لأخرى ومن حقنا أن ندهش إذ نلاحظ أن كندا بجوار الولايات المتحدة الأمريكية أوضح مثل على التماثل السريع الكامل الذى لم يتوقف منذ قرنين من الزمان فتضاعفوا من ٦٠ ألف فرنسى عند البداية إلى ١٠٠ ضعف حتى على الرغم من أبعادهم عن غزو الغرب من جانب الإنجليز الذين ساهموا دون أن يدروا فى توثيق عرى الروابط التقليدية بين مجموع الفلاحين الأصليين الرافضين لأى تداخل من الخارج فيما بينهم على أن اليوم بعامة كالأمس إذ تزداد التصعدات بين الجماعتين اتساعاً وعمقا. والسؤال هل تتقارب فى عصر يشجع المطالب الوطنية الجماعتان فى وحدة سياسية أو شكل سياسى واحد.. ربما.. غير أن ذلك سوف يكون حتما موضوعاً آخر فالبعض يتحدث عن الاستقلال بل ويحددون تواريخ منها ١٩٦٤ و ١٩٦٧ كما أن هناك تحالف لورنتى (مرتفعات على الحدود الشرقية لكندا) وهو تحالف وطنى فى الظاهر وإن كان المظهر الأساسى هو حركة التربية الوطنية، ويقول أحد أنصار هذا التحالف: لسنا حركة جماهير فإن فرنسا فى الواقع كندية قائمة عنيده مصممة على البقاء والصمود ولكن فى هذا العالم العملاق.. عالم أمريكا هل لدى ستة ملايين القدرة على تنظيم شئونهم بشكل معقول فى إطار من وحدة سياسية واقتصادية حقيقية مستقلة؟ هنا أساساً تكمن المشكلة.

أفريقيا الجنوبية الهولندية الإنجليزية السوداء

كانت أهمية أفريقيا الجنوبية بالأمس منطقة الرسر البحري القديم فى طريق الهند للسفن الشراعية الإنجليزية، ففى عام ١٨١٥ فرض الإنجليز أنفسهم فرضاً على الهولنديين الذين على مدى قرن من الزمان يحتلون هذه البلاد منذ عام ١٦٥٢، كما فرض الإنجليز أنفسهم على الكنديين من أصل فرنسى، فوَقعت أحداث هياج ضد الإنجليز، قامت الحرب التى أطلق عليها حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) وتعرضت إثر ذلك أفريقيا التى استعمرها البيض للزراعات عنيفة ومشاحنات داخلية تدخل فيها الزعيم الهندى المشهور غاندى وكان يؤمذ محامياً، كما تعرضت فى الوقت نفسه لحركة ضخمة من نزوح غير شرعى للسود فكان أن بدأت المأساة، أما العاصفة فقد كانت للأيام القادمة . وكانت الحدود فى جنوب أفريقيا قائمة منذ بداية الاستعمار الحذر الذى أتى إليها منذ أول اتصال بين بيض يصحبهم عبيد من الملونين وبعض القبائل أمثال البوشمين شطر صحراء كالهارى أو من الجنوب من قبائل البانتوى وكان أغلبهم من رعاة الأغنام مستعدين لمبادلة أغلامهم مقابل الحديد والنحاس والتبغ وغيرها من سلع زهيدة الثمن وامتدت هذه الحدود وابتعدت عن اللسان ولم يتوقف امتدادها وابتعادها عن اللسان عبر أراضي جافة شبه خالية ولم تكن قبائل الكافر (سلالة السود من جنوب أفريقيا) تهدد أهل مستعمرة البيض

الصغيرة رغم سرقة المواشى وغارات قبائل الهمج الخطيرة ولم تتوغل هذه المستعمرة من البيض فى اتجاه الناتال وإقليم الترانسفال والأورانج إلا بعد (حركة هجرة المستوطنين الهولنديين عند وصول المستعمرين الإنجليز) عام ١٨٣٦ ولم تكن لموجة الهجرة هذه من الأهمية ما تذكر، وسنجد من تحليل الدافع المحرك أكثر مما تتيحه مدينة الرأس ذاتها (الكاب) (رأس الرجاء الصالح) وهو السماح لكل سفن الشحن بتفريغ ما عليها وخاصة المؤن والمواد الغذائية ونزول بحارتها للراحة وإدخال المرضى منهم إلى المستشفيات وخاصة المصابين بمرض الحفر (مرض يفسد الدم) .

ونظراً لتواضع عائد إنتاج القمح (كان الأفضل منه فى الهند وسورات أو فى البنغال)، أما الرأس فكان رديئاً ذا شهرة سيئة جداً فبدأوا يبيعون المواشى التى تحقق زرباحاً من لحومها فقرروا بيعها مذبوحة على الرغم مما كانت هذه المواشى تبديه من مقاومة عذيفة عند الذبح سواء من البقر أو الجاموس أو الخراف وكانت تربية المواشى لا تتكلف كثيراً وعائدها مريحاً جداً، وذلك فضلاً عن أن المسافات لم تكن بذات تأثير (كالقمح أو النبيذ) إذ كانت المواشى تأتى وحدها حتى الميناء . وامتد نشاط مربي الأغنام نحو الداخل حيث توغلوا فيه منذ القرن الثامن عشر حتى القرن التاسع عشر وكانت الحركة تخدم أو تنشط وفق وصول السفن للرسو، وجاءت الحرب بين فرنسا وإنجلترا فسنحت الفرصة الرائعة لازدهار التجارة والأعمال ورواجها وكانت لمظاهر هذا الازدهار كذلك أسبابه السياسية ففى عام ١٨١٥ وضعت إنجلترا يدها على جنوب أفريقيا ثم أصدرت حكومة الكاب الإنجليزية عام ١٨٢٨ المرسوم رقم ١٥ المشهور الذى ساوى أمام القانون بين البيض والملونين هذا بالإضافة إلى ما وقع عام ١٨٤٣ من إلغاء نظام العبيد من الإمبراطورية الإنجليزية (فى عام ١٨٢٨ كان العدد ٥٥ ألفاً من البيض يقابلهم ٣٢ ألفاً من العبيد و ٣٢ ألفاً من السود الأحرار) وكانت هذه الإجراءات بالإضافة إلى غارة الكافر (السود فى جنوب أفريقيا) علة ما قام بعد عامين من حركة كبرى قادت البوير (الفلاحين) إلى الهضاب الخاصة بالأعشاب فى الأورانج والترانسفال حيث استقروا فى ولايات مستقلة اعترفت بها إنجلترا عام ١٨٥٢ و

١٨٥٤ وكانت إنجلترا قبل ذلك بعشر سنوات قد ضمت بكل بساطة إقليم الناتال مع الامتداد الواسع الذى بدأ بحركة هجرة المستوطنين الهولنديين عند وصول الانجليز. وكان هذا الامتداد والتوسع أضخم أحداث أفريقيا الأفارقة (الافريكانرز) وهواشبة بغزو الغرب فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ومصيرها، وقد أدى هذا التوسع والامتداد الجغرافى إلى تشتيت السكان البيض وأثارت فرص نشوب النزاع مع السكان السود خاصة القبائل المتألقة.. قبائل الزولو الذين كانوا يتقدمون منتشرين نحو الجنوب ولم يكن متاحاً وقف زحفهم قبل عام ١٨٧٩ ولم تكن إنجلترا قد قبلت صراحة استقلال جمهورية البوير على الرغم من اعترافها عام ١٨٨٤ بما تسبب فى نشوب حرب البوير. وقد نشب نزاع آخر بسبب اكتشاف مناجم الذهب والماس فى مقاطعة ويتواتر ستاند حيث قام سيسيل رودس حاكم الكاب وممثل الإمبريالية البريطانية وكان فى الوقت نفسه ممثلاً لمصالح شركات المناجم ومؤسس البوير إذ أسرع بتطويق الجمهوريتين وإقامة شركات لها حق الامتياز فى بتسوانا لاند وروديسيا فأثار بذلك حفيظة من كانوا يتهافتون من الأجانب على أعمال المناجم ونشبت غارة الدكتور جيمسون وكانت أشبه بالقرصنة عام ١٨٩٥ لولا أن الحرب المفتوحة لم تقع إلا عام ١٨٩٩ وكانت كارثة للقوات الإنجليزية ولم تتحول لصالحهم إلا بفضل إقامة معسكرات الإعتقال بعد نضال طويل ضد شراسة رجال حرب العصابات العنيدون وبعد ثمانى سنوات من الاستلام وضم المقاطعتين فى ٣١ مايو. وفى ١٩٠٢ نشأ دومنيون وحدة جنوب أفريقيا.. التى تواجه اليوم أقصى محتتها.. محنة التمييز العنصرى.

إذ بدأت منذ الحرب العالمية الثانية فى أفريقيا الجنوبية حركة تنمية وانطلاقة تصنيع ضخمة كما واكبتها انطلاقة للمدن الحضرية الحديثة غير أن هذه الانطلاقة فى التنمية لم تؤد إلا إلى زيادة نزاعات البشر التى تهدد البلاد فاليوم نجد المستعمرين من أصول هولندية.

ومن حيل الكلفتيين من سلالات اللاجئيين الفرنسيين ممن وصلوا إلى الكاب فى القرن السابع عشر هم فى الأغلب فلاحون يملكون مزارع شاسعة ٧٥٦ (هكتار) فى المتوسط حيث النحلة ضعيفة بسبب الأحوال المناخية وضعف الأراضي الزراعية

حيث الصالح لزراعة عامة من مساحة الدولة لا يجاوز ٤ ٪، واليوم تظهر ضرورة التحول من زراعة خفيفة إلى زراعة كثيفة (أى استغلال مزرعة صغيرة برأس مال كبير للحصول على غلال كبيرة) ولتقليل عدد الأيدي العاملة الموسمية ممن يتكدسون فى المخيمات كأقربانهم عمال مناجم الذهب وعمال الصناعة، فالأمر يحتاج إلى ميكنة عصرية قصوى بالإضافة إلى استخدام الأسمدة والكف عن أساليب الزراعة الواحدة (أى الاكتفاء بزراعة واحدة) فلم تعد تصلح أوتدر عائدًا مجزيًا كما يحتاج إلى استحداث أسلوب الدورة الزراعية (أسلوب تعاقب الزرع أو الزراعات) والمزج بين الزراعة وتربية المواشى مع وضع حد للتربية البدائية، وقد احتاج ذلك كله إلى وقت وقروض واستثمارات ثم إلى مصادر استغلال قوية على مواجهة الأعباء الضخمة. ولأزال هؤلاء الملاك القساة ذوو الكروش المنتفخة وتطغى عليهم أحيانًا عوامل العنف الشديد يحلمون حنيئًا إلى الأيام الخوالى مثل وصول الإنجليز حيث كان كل شئ يسير فى هدوء وحولهم العبيد الأرقاء الطيعون لينوا العريكة الصامتون فقد ولدوا ليخدموا وليستخدموا وكلهم من سلالات البوير يتحدثون اللغة الأفريكانية النابعة من أصول هولندية، ويعارضون الإنجليز ولعلمهم يضاھونهم فى العدد إلا أنهم يسكنون المدن وهم الذين أنعشوا حركة التصنيع التى يجنى الجميع ثمارها.

وقد حاول الإنجليز والأمريكان حتى عام ١٩٣٩ التعيش فى وئام فى مواجهة المشاكل التى تثيرها سلالات الملونين وهى مشاكل مخيفة وإن كان التفاهم السياسى قد انقطع إثر نجاح دكتور مالان منذ قريب لنزعاته القومية المتعصبة كاشفا عن اتجاهاته فى أفرقة الإنجليز وإرساء قواعد سياسية عنصرية تهدف إلى الفصل التام بين السلالات خاصة تجاه السود الأرتايد.

وفى عام ١٩٦١ خرجت جنوب أفريقيا من الكومنويلث الإنجليزى رافضة الاشتراك فى سياستها العنصرية الخطرة التى أثارت فى كل أنحاء العالم رفضا وإنكارا عاما وعنيفا ولا شك أن هذه السياسة العنصرية يائسة فقد جاء انطلاق السكان والازدهار الاقتصادى ليزيدا من مأساوية الاتجاه العنصرى بما تدل عليه أرقام الإحصائيات فقد كان عدد السكان عام ١٩٦٢ ١٥ مليون نسمة منهم عشرة

ملايين من السود وثلاثة ملايين أوروبي ومليون ونصف من الملونين (غير الشرعيين) ٥٪ من الآسيويين، فالبيض إذن يمثلون ٢٠٪ من مجموع السكان ولا تكاد الكتل البشرية تزايدها تحترم هذه النسبة فيما يمثل ميزة واهية يتمتع بها البيض، وكانت سياسة البعض تجاه السود وذوى البشرة الصفراء المتمركزين في القنال تتسم بالأنانية كما أقامت الإجراءات القانونية التي اتخذت بشأن هذه القضية ما يشبه جسر دائم الرأب كثيراً ما يتصدع، وإن استهدفت هذه القوانين نوعاً من التوازن... وكان الهدف إبعاد السود بل والصفراء عن بعض المناطق ومنعهم من التملك والإبقاء عليهم في المناطق الأهلية واحتواءهم بزعم حمايتهم. ومن جهة أخرى فإن زراعة أراضي البيض في حاجة إلى أيدي عاملة كما تحتاج إليها حركة التصنيع المزدهرة في أوجها بما صممت عليه هياكلها للإنتاج المكثف. فما بالناس والأيدي العاملة فيها غير مؤهلة وغير مدربة بما يؤهل بنا إلى التساؤل ضد من هذه السياسة الرعناء سياسة التمييز العنصري؟ إنها ليست إلا غزوة من غزوات الرجل الأبيض حيث السود أكثر عدداً من البيض في مدن «مثل أوربان أوجوهانزبرج ومع ذلك فأجورهم أقل من أجور البيض ١٧ إلى ٤٠٪. وفي سبيل وقف المد الزاخر القادم من مواطن الأهالي تحاول أفريقيا أولاً: تحسين إنتاجية الزراعة الأهلية بنشر نوع محدد من التعليم المتخصص، وثانياً: تصنيع هذه المواقع أوحدودها المباشرة لامتصاص بطالتهم؛ إلا أن المشكلة أثمرت عن تداعيات اقتصادية جديدة أوقفت مسيرة هذه السياسة، وها هي صناعات البيض تحرم من الأيدي العاملة الرخيصة أجراها مما يثير في وجه هذه الصناعة منافسة رهيبة، وترتبط كذلك مشكلة المواقع المقصورة على إقامة السود بمصير المحميات الإنجليزية في سوازيلاند وبتشوانالاند وباسوتيلاند أما انضمامها إلى وحدة الكومنويلث المتوقع عام ١٩١٠ فلم تتم بعد فصولاً ذلك أن مواقف كل من جنوب أفريقيا وإنجلترا لم تود إلا إلى تفاقم النزاع، وبإيجاز وأكثر من وجهة نظر فإن الاتحاد إنما هو تقاطع طرق وسط ثورة إصلاح زراعي وثورة صناعية عليها مواجهة ثورة أخرى.. ثورة اجتماعية هذه المرة ليس ذلك فحسب بل ثورة عنصرية فهي عموماً لم تستطع رسم هذه الحضارات المختلفة بعضها ببعض سواء الأوروبية منها أو المحلية. ولا يبدو الحل علمي فيرى النظر بعد.

أستراليا ونيوزيلاندا وأخيراً .. إنجلترا وحدها

نجحت إنجلترا لتصبح وحدها ثلاث مرات ... في الولايات المتحدة الأمريكية في بدايتها على الأقل، وكان نجاحها في أستراليا وفي نيوزيلندا من موقع لآخر، وكان الإنفراد الإنجليزي مثمرا إلى أقصاه، ففي هذين البلدين كانت إنجلترا متجانسة ممثلة بالآمال والحيوية فلم يكن هناك ما كان عليه الأمر في كندا بشعبها ولا في أفريقيا بمآسيه وصراعاته ... وإنما كانت هناك إنجلترا وحدها في أقصى البحار عن الوطن في موقعين جغرافيين هما أكثر المواقع إنجليزية من بين كافة المواقع الأخرى ويجب أخيرا ألا ننسى أن نيوزيلاندا مثلها كمثل أستراليا موقعان حديثان وعضوان جديان في الكومنويلث الدومينيون، فلقد كانتا على أعتاب حياتيهما على النمط الأوروبي الدولي (أستراليا منذ ١٧٨٨ ونيوزيلندا من ١٨٤٠)، وكانت بداية كل منهما متواضعة إذ كان في أستراليا عدد الأوروبيين في ١٨١٩ إثني عشر ألفا، وفي ١٨٢١ وصل العدد ٣٧ ألفا، أما في نيوزيلندا، إذا ما تغاضينا عن فترة زحف المبشرين البروتستانت عام ١٨١٤ أو المبشرين الكاثوليك عام ١٨٣٧ فقد استقر الإنجليز فيها بعد زهاء قرن أي، حوالى عام ١٨٤٠، في شمال الجزيرة مبكرين قليلا عن صيادى الحيتان الذين استقر بهم المقام فيها عام ١٨٤٣.

ولم يكن فيها فى هذه الأزمنة سوى بضعة آلاف من المستعمرين، وينبع تشابه ظروفيهما من اندثار السكان الأصليين أمام القادمين البيض، اختفاء فى أستراليا أما فى نيوزيلندا فقد كان نوع من الارتداد الخفيف حيث تختلف الجغرافيتان، فمن جهة تجد البرارى تجد الشاسعة التى هى وحدها أشبه بالقارة، أما نيوزيلندا من جهة أخرى فتحوطها المرتفعات التى تطل حوافيها على البحار العاصفة بطول ساحل متقطع، ويختلف فيها ماضى السكان الأصليين تماماً، وفى أستراليا وقعت موجات هجرة قديمة من الأستراليين الذى هبطوا القارة منذ القرن السادس قبل الميلاد بما يوحى بأنهم طوائف من المغامرين حيث وجدوا أنفسهم سجناء أرض قفر فقيرة تكاد لا تبلغ الكفاف وتسد الرمق وقد تعب كثير من علماء الآثار والسلاطات والآثار وغيرهم من الباحثين فى سبيل جمع معلومات عن هؤلاء السكان الأوائل وحياتهم البائسة وربما كان ذلك من الأسباب التى جعلت بقايا هؤلاء السكان الأصليين ينفرون بشدة من الرجل الأبيض إذ كانوا أشبه بأقوام العصر الحجري فلم يستطيعوا لذلك تحمل الرجل الأبيض فكان إن وقع نوع من انهيار^(١) لجماعتهم الهشة، يقصد تلاشى، واختفت أواخر سلاسلهم فى جزيرة تسمانيا عام ١٨٧٦ وفى أستراليا أبعد السكان الأصليون قسراً نحو إقليم كوينزلاند وأراضى الشمال وكان مجموعهم تقريبا ٢٠ ألفاً، أما فى نيوزيلندا فقد كان الاتصال بالرجل الأبيض أكثر مأساوية وإن كان أقل تعاسة لقبائل الماورى (سكان نيوزيلنده الأصليين) والبوليتيزين (قبائل تسكن شرق أستراليا الواقع على المحيط الباسيفيكي) الذين استقروا أساساً فى الجزر الشمالية وهم أحفاد حضارة وسلاطات البحارة البولونيزيين وقد وصلوا إلى نيوزيلندا فيما بين القرنين التاسع والعاشر عند الحدود الجنوبية لمغامراتهم قادمين من البلاد الاستوائية حيث جذورهم الأصلية - أى من بلاد أشجار موز التارو والأنيام - أما نيوزيلنده وهى بعيدة عن هذا العالم الاستوائى أثارت إعجاب المستعمرين القادمين من أوروبا فبلد معتدل المناخ على نقيض مناخ أسبانيا واستطاعت قبائل الماورى التأقلم مع شمال الجزيرة ومارسوا صيد مختلف الطيور وتربيتها وهى لهم

(١) عجبى من هذا المؤرخ الكاذب فهو يستخدم لفظ إنهيار سلالة ولا يريد الاعتراف بأن الأمر لم يكن سوى نوع من الإدارة بين المستعمرين كما حدث للهود الحمر فى أمريكا.

أهم الحيوانات بحكم الفقر وبساطة المنتج من تربية الماشية جلبوا هذه الطيور فى صحبة الكلب، كما مارسوا صيد الأسماك لا فى البحار بل فى القنوات والأنهار فقد كانت البحار فى أكثر الأحيان تثور بالعواصف والأمواج، كما مارسوا جنى الثمار حيث اعتادوا الطقس البارد فشيّدوا من الأخشاب منازلهم يغلزون فيها ثيابهم من الكتان وقد قاوموا بفضل ممارسة قبائلها الحروب فيما بينها والأوروبيين مقاومة شديدة صمدوا فيها وحروب دامية للمقتحمين وإن انتهت باندحارهم عام ١٨٦٨، كما أن أبادهم ما جلب البيض معهم من أمراض ومع ذلك استطاعت قبائل الماورى فى مستهل القرن التاسع عشر تجاور ما تعرضوا له من هذه المحنة شبه القاتلة بما نزل بهم من خسائر فادحة بلغت ٤٢٠ ألفاً عام ١٨٩٦ و ١٢٠ ألفاً عام ١٩٥٢ و ٤٢ ألفاً عام ١٩٦٢ ثم بدأت طلائع جيل جديد، وأمكن بفضل إعانات الأسر إلحاقهم بالأعمال فى مدن كمدينة أوكلاند وهم اليوم من بين ٢٣٠ ألف نيوزيلندى إنما يمثلون ما لا يكاد يجاوز ٦ ٪ من مجمل عدد السكان، ومن ثم فهم لا يمثلون خطورة يخشى منها على الحضارة النيوزلاندية.

ويرتبط التاريخ البسيط لكل من أستراليا ونيوزيلندا دائماً بالظروف الاقتصادية المرتبطة بدورها بمحن التاريخ العالمى وأحواله، فقد وقعت خلاله الفرص السانحة الفجائية وكأنها القطار المتدفع فتمكن أولاً من الصعود إليه وهو ما جحد فى مساره وقد سحنت لأستراليا الفرصة حين وجدت إنجلترا نفسها بعد حرب الاستقلال فى الولايات المتحدة الأمريكية مضطرة إلى إبعاد مجموعات المذنبين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة فكانت أول مستعمرة تقام فى أستراليا عقابية إصلاحية ولم تلغ إلا عام ١٨٤٠، وكان أول فوج من المحكوم عليهم قد وصل يوم ١٨ يناير ١٧٨٨ ورست السفن فى بورت جاكسون وقدر لها النمو حتى تصير مدينة سيدنى ويكاد يزامن ذلك ما بدأت به جماعات من المستوطنين من تجربة حظها فى تربية الماشية وخاصة خراف الميرينو بما تتميز به من أصوافها، غير أن تربية الماشية كان من الأعمال الشاقة لا تتواءم مع ما كان من طباع هؤلاء المحكوم عليهم من الكسل وذلك فضلاً عما أدت إليه أموال كبار الملاك وطلب إنجلترا وسائر العالم على الصوف الأسترالى من وصفه اليوم بملك الدنيا أو قريباً من ذلك.

وقامت حول عام ١٨٥١ - ١٨٦١ حملة قاسية جريا وراء الذهب بعد الاندفاع المشهور في كاليفورنيا ١٨٤٩، وانطلاق جنون البحث عن الذهب إلى مستعمرات لانوفيل لمدن عمال الحفر القساة الذين لا يذعنون لنظام. غير أن هذا الاندفاع ساعد على تسكين هذه الجموع في مواقع، كما أسهم بالتالى في ظهور الحاجة إلى إطعام هذه الجموع من القادمين الجدد. كما عرفت نيوزيلندا كذلك بعض الانطلاقات المتتالية للبحث والتنقيب عن الذهب وضرورة تربية الماشية للصوف وزراعة القمح، أما الذهب فقد أكتشف أول ما أكتشف عام ١٨٦١ في المناطق الجنوبية من الجزيرة في وقت أهمل فيه مناطق الشمال الشرقى كما استبعدت عاصمة نيوزيلندا من أوكلاند إلى مدينة ويلينغتون عام ١٨٦٥، وجنت نيوزيلاندا أرباحا كثيرة من هذه الانطلاقة إذ رأت شأن أستراليا ضرورة إطعام الوافدين والباحثين عن الذهب. وفيما بين أعوام ١٨٦٩ و ١٨٧٩ حققت البلاد ازدهاراً ملحوظاً وإن صاحب هذه الانطلاقات إلى الأمام كثير من فترات ركود بل تقهقر وانحسار، فإذا الحال فيما بين أعوام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٩ أليم للبلدين فلم تعد تربية الماشية تحقق عائداً كافياً بل لزم أن تتجه الجهود إلى التصنيع في قارة أستراليا الواقعة بمساقط المياه بحيث تمدّها بما تحتاج إليه الصناعة من طاقة وقوى محرّكة، على أن النجاح في أستراليا لم يوفق في دفع نيوزيلندا إلى التصنيع بعد حيث التشابه الكبير إلى حد ما، فرخاء هذه البلاد الأوروبية البعيدة مرتبط بغيرها من بلاد العالم بما قد يفوق ما كانت تؤمن به هي نفسها.. مخطئة ربما بفضل يسر الحياة فيها ورفاهيتها... هنا معيشة اختصت به يبعد عنها بضع ساعات في رحلات جوية وحالات بؤس، والبلاد النامية شقاؤها في الشرق الأدنى حيث الققر وتكاثر السكان. قلدا أوروبا لا أستراليا أو نيوزيلندا اللتان على الرغم من ارتباطهما وتبعيتهما لأمبراطوريتها، والأخيرة كانت المورد الوحيد لكافة احتياجاتهما وعميلهما، وقد صارتا دولتين مستقلتين (أستراليا منذ عام ١٩٠١، ونيوزيلندا منذ عام ١٩٠٧) وظلت السياسة الصريحة لهذه الأمم الجنوبية سياسة التحفظ والتقوقع على نفسيهما رغم ما تتيح لهما هذه الأراضي الشاسعة من فرص ذهبية وقفل الباب في مواجهة الهجرة والاحتفاظ لسكانها بمستوى معيشة مرتفع وصيانة

دعائم اشتراكية برجمانية فعالة إذ تركز على الوفرة وأصبحت نيوزيلندا منذ بداية القرن العشرين إحدى الديمقراطيات الحقيقية (يوم العمل ٨ ساعات عام ١٨٥٦) وفصل الكنيسة عن الدولة عام ١٨٧٧، وحق المرأة في الإدلاء بصوتها في الانتخابات عام ١٨٩٣، ونزع ملكية الإقطاعات في العام نفسه والتصالح الإجباري بين النقابات ونزاعها مع أصحابها عام ١٨٩٤/١٨٩٥، وتوفير المعاشات لكبار السن عام ١٨٩٨، وحدث نفس التطور في أستراليا حيث أقلل باب الهجرة عام ١٨٩١ ولم يفتح بعد ذلك إلا خلال السياق الثاني للبحث عن الذهب (انتهى عام ١٨٩٣) لإنشاء الـ Coolidge في أستراليا الغربية وسط الصحراء. وبدأ نشاط المجتمع في سهولة كبيرة وبغير صعوبات بفضل حكومة حزب العمال الأسترالي وصارت القارة فعلا جنة العمال، كان النمط شبيها بالأسلوب النيوزيلندي.

لم تحدث كل هذه الميزات وكل هذا الرخاء والتكاليف الباهظة في التأمين الاجتماعي وآثاره السعيدة وانعكاساته على الأجور وعلى مستويات المعيشة وانخفاض معدلات ومخلفات الأطفال إلا بتكاليف مادية باهظة انفقت اقتطاعا من موارد الدولة وميزانياتها ومن الدخل القومي. وهكذا وجدنا في أستراليا ومع انطلاقه إنشاء المدن الضخمة أمثال سيدني وملبورن وانطلاقة التصنيع.. وفي وسط هذه الانطلاقات اندلعت موجات الإضرابات التي كلفت الخزانة العامة نفقات باهظة فخسرت أستراليا وفق ما ورد في صحيفة الغرفة التجارية ١٩٤٩، ٢٠ مليوناً و٨٠ ألف طن من الفحم من يناير ١٩٤٢ وحتى ١٩٤٩، وكانت هذه المصاعب وهذه الأزمات السبب في سقوط الأحزاب العمالية في أستراليا وفي نيوزيلندا، ولم يصاحب هذا السقوط نزاعات حادة ولا تعديلات جوهرية في الميدان السياسي وإنما تغيرت شخصيات اللعبة على حين ظلت اللعبة هي. والسؤال هو هل هذه السياسة معقولة؟ فهي تهدف إلى صيانة موارد البلاد (عدد سكان أستراليا عشرة ملايين بنسبة ١٤٪ كثافة سكانية في الكيلو المربع)، أما نيوزيلندا التي تعد أضخم من إنجلترا فيسكنها مليونان و٣٠٠ ألف بكثافة ٨٧٪، ولكنه عدداً يتنامى من طبقات بروليتارية خارجية يهدد في عالم اليوم هاتين

القارتين، والحرب العالمية الثانية قد جلبت اليابانيين على حدود أستراليا ولم ينقذها سوى الانتصار البحري الأمريكى فى بحر ادكواري (بين قارة أستراليا وغينيا الجديدة) (ماليزيا) فى مايو ١٩٤٢ بحيث راودت أستراليا أفكار تستهدف استجلاب أعداد من المهاجرين لزيادة عدد سكانها وبالتالي قدراتها الصناعية والبشرية لصيانة استقلالها، غير أن محاولتها لم يكتب لها كثير من النجاح وبأن لم تمس نيوزيلندا.. البعيدة عنها... هذه البلاد اللاهية اللامبالية حيث يحقق الرخاء بتداعياته الطبيعية المعتادة من بطء فى معدلات المواليد (٢٩ لكل ألف) زيادة فى تقدم السن (نسبة الوفيات ٩,٣ لكل ألف)... وتقدم فى ارتفاع شيخوخة بحيث لم تعد نيوزيلندا ذات الديمقراطية الوليدة المبكرة تشابه بلادا شابة منذ عهد قريب.

حاشية ١٩٦٦

فى قلب عالم إنجلترا لم يعد مصير إنجلترا سهلاً، بل معقداً، إذ نجح حزب العمال بفضل عدة أصوات وتألفت حكومة برئاسة هارولد ويلسون فى ١٨ أكتوبر ١٩٦٤ حيث تجيء عودة العمال للحكم بعد غياب طويل منذ هزيمتهم عام ١٩٥١ وهكذا استهلّت حكومة هارولد ويلسون بداية حذرة سيئة وأحوال اقتصادية وسياسية كئيبة، وتعرض الجنيه الإسترليني لأزمة كامنة لم يشف منها بعد شفاء تاماً، وارتفعت الرسوم الجمركية ١٥ ٪ خلافاً لتعهدات إنجلترا تجاه السوق الأوروبية المشتركة باتباع سياسة التبادل الحر ولم يتحقق التوازن المرجو فى الميزان التجارى وإنما نتج عن ذلك إثارة شركاء إنجلترا فى السوق المشتركة ولم يؤد فشل إنجلترا فى حلف شمال الإطْلانطى بشأن القوات المتعددة الجنسيات إلى صيانة وسمعة حزب العمال، بل نجد إنجلترا فى الواقع تعاني من التردد بين أن تظل وسطاً بين أوروبا والعالم، وبين الشرق والغرب أو الانضمام إلى أوروبا الجارة القريبة أو أن تصبح الولاية المائة فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولم يغير فوز حزب العمال فى انتخابات ١٥ أكتوبر ١٩٦٥ من حدة هذا المأزق فضلاً عن أن حكومة هارولد ويلسون تنتوى على الأقل المحافظة على المصالح البريطانية شرق السويس إلى أقصى ما تستطيع، وتعنى هذه السياسة الاحتفاظ بقواعد فى عدن

حتى عام ١٩٦٨ على الأقل، وكذلك فى ستغافورة كما تعهدت للسعودية ولماليزيا بمساعدات عسكرية وقواعد جديدة تقيمها فى المحيط الهندى، واتفاقيات برمتها مع أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا، ومع الهند ومع باكستان إذا أمكن ذلك. غير أن السياسة لم يكتب لها النجاح إلا تمكنت بريطانيا مع مواجهتها مناشدة اشترك الولايات المتحدة الأمريكية، وفى هذا العالم الإنجليزى تظل كندا الفرنسية مركزاً لعصب حساس وإثارة المتاعب إذ لا تكف عن المطالبة بالمساواة مع المجتمع الإنجليزى هناك، بل تحاول كذلك النجاح فى أية خاصة فى الإطار الفيدرالى... عمل شاق ومهمة صعبة عليها أن تنجزه وحدها أو كأنها وحدها ومن هنا تتبع مصادر عنف الأمس وكذا أحداث عنف الغد من غير شك.

الجزء
السادس

أوروبا الأخيرة

إتحاد الجمهوريات الروسية الاشتراكية

مقدمة

أوروبا الأخرى التى جاء نموها مثل أمريكا متأخراً لولا أنها ملتزمة بالقارة الأوروبية أى بالغرب ... إنها روسيا ... موسكو فى القديمة التى هى اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية اليوم وعلينا أن نتذكر:

١- جذورها وماضيها اللامتناهى .

٢- تطبيقها للمبدأ الماركسى أثر ثورة ١٩١٧ (البلشفية) .

٣- إنجازاتها الحاضرة أو كما يقول الفلاسفة ما تحقق من إنجازات بالفعل .

وقد تقول إنها البلد الذى خاض ثورة كبرى ... أكبر تجارب الشعوب ثورية، ومع ذلك حققت ثورة صناعية فى زمن قياسى بكل الأبعاد، ماذا لو استرجعنا بداية حركة التصنيع فيها عام ١٩١٧ فإنها فى عالم اليوم ١٩٦٢ تكاد توازى فى الثقل الولايات المتحدة الأمريكية ويمثل هذا النجاح المذهل أملاً ترنو إلى تحقيقه البلاد النامية فى عالم اليوم ... فهل تستطيع هذه الأخيرة فى قفزة واحدة تخطى هذه المرحلة وهل كانت الاشتراكية النجاح السريع أم لا ؟ من شروط هذا النجاح السريع .

الفصل الأول

**جذور ثورة
أكتوبر ١٩١٧ ..**

جذور ثورة أكتوبر ١٩١٧..

ليس من السهل أن نوجز بشكل معقول - هنا في صفحات - أحداث ما في هذه البلاد الطويل بما تقاطعه من مأس عذيفة لم تشهدها أوروبا الغربية رغم ما لحق بها من أحداث مماثلة. أول المصاعب؛ جسامة المساحة الجغرافية التي انطلقت منها أحداث هذا التاريخ الطويل المتعدد المعقد ... مساحات فلكية من الأراضي وقعت فيها عديد من الأحداث. وثاني المصاعب؛ استقطان الشعوب السلافية هذه الأراضي في عصور متأخرة بعض الشيء، ولم تكن هذه الشعوب على كل حال وحدها إذ خرجت من مهد السلالة السلافية أجداد الروس الأقدمين سلالات الكاريات وبولندا الصغيرة الحالية وبولونيا هي الوحيدة ذات الجذور النقية بين الشعوب السلافية، وهكذا تأخر المحتل في الصعود على المسرح واحتلاله بكامله فيما بعد روسيا الكييفية (يشير إلى مدينة كييف) .

تاه الإنسان أو كاد في هذه الأراضي الشاسعة فمن أودية فسيحة إلى أنهار ضخمة ومسافات فوق قدرة البشر، والبشر فوقها قلة ومن أنهار إلى قنوات ثم أنهار أخرى ... مناطق هائلة تكاد تتجاوز حدود قارة آسيا، فمن الشمال خط من مدينة كييف حتى بيرم، ثم غابات شاسعة تتكامل مع غابات أوروبا الشمالية كما تتلاحم التيجا في سيبيريا على الجانب الآخر من الأورال ... تلك الجبال القديمة الممتدة

من الشمال إلى الجنوب يقف عائقاً ضعيفاً كمرتفعات الفوج (سلسلة مرتفعات شرق فرنسا) وإن كانت هي الحدود المتفق عليها مع أوروبا ... حدود روسيا الأوروبية وسائر روسيا إلى الجنوب مساحة صغيرة من سهوب وفياض سوداء خصيبة ورمادية يكسوها العشب المرتفع حتى تكاد تخفى الفارس إذ يخترقها على حصانه، ثم السهوب البيضاء بأزهارها المألحة على سواحل بحر قزوين. والأراضي الروسية في مجملها هي تلك المناطق الشاسعة بين بحر قزوين والقطب الشمالي، ومن بحر البلطيق إلى البحر الأسود، وهذه أكثر الأراضي جذبا للناس مليئة بالحيوية وتستلهم روسيا إمكانية توصيلها معا، وتستطيع فتح نوافذ تطل منها على الغرب والمياه الدافئة (مياه البحر الأبيض المتوسط أي باختصار إطلالة على الحضارة الأوروبية) ولكن مع ما نستلهمه كذلك من الانفتاح على القارة الآسيوية تقلبت السهوب والفيافي ... آسيا البدو الرحل وقد سبق أن أوضحنا مخاطر الصراعات التي ظلت حتى القرن السادس عشر وما يثيره غزوها من مشاحنات متوقعة لو قدر لهؤلاء الرحل القادمين من الشرق النجاح في القفز على أسوار إيران والتدفق نحو بغداد. ولكن تحول مجرى العاصفة لصالح الأراضي الروسية حيث لا مكان تحت الشمس في بقاع الشرق الأدنى للناس كافة ... ولكن الطارئين القادمين من آسيا (بقصد الغزاة) تقدموا حتى السهوب والفيافي الروسية من نهر الفولجا حتى نهر الدون، ثم إلى نهر الدنيبر والدنيستر بل وإلى ما وراء هذه المناطق ... وأصابته هذه الغزوات موسكو عدة مرات، كما تعرضت مساحة الأراضي الروسية لمصيرها بحكم ضخامة حدودها داخل أوروبا تدافع عنها وتحميها وداخل قارة آسيا حيث نجحت موسكو في تخفيف حدة ما لحق بها من ضربات نتيجة هذه الغزوات المتقطعة وحيث لا يقوم ما يحجز البرزخ من بحر البلطيق حتى البحار الجنوبية والسيطرة عليه، لذا فليس هناك ما قد نسميه روسيا فعلا إلا من إمارة كييف (القرن السادس عشر) وسلالة الصقالبة الشرقيين الآرية شأن سائر الصقالبة ممن خضعوا لتحولات عرقية عديدة وقد تقدمت فلول من قبائلهم وعشائرتهم نحو المدن والقرى والأودية (أودية نهر الأنبيير) وتحركات تزامنت مع العصر المسيحي وانتهت حول القرن السابع واختلطت في مسيرها نحو الشرق بما كان هناك من

قبل من شعوب أخرى من أصول فنلندية من مناطق الأورال البعيدة ومن أصول أخرى من شعوب آسيا الوسطى. والآن هم من أصول السكيتية والسارمات والبلغار والكاما والقوت (جزر جرمانية) كانوا يقطنون ضفاف أنهار الفستولا والبنمين وثم الـ Alains والخزر اللذين اعتنقا فيما بعد الديانة اليهودية وأغلبهم من قبائل سواحل بحر قزوين ونهر الدون وهذه روسيا الأولى خليط من شعوب قادمة من أوروبا وآسيا يسمون الروس الصغار وهذا الخليط وما تحقق من ازدهار في جميع المدن ... كل ينابيع الحياة والحيوية فيما بين نوفوجورود الكبرى في الشمال ومدينة كييف في الجنوب لم يكن مستطاعا أن تتحقق لولا الدور الحاسم الذي تولته حركة تجارة مزدهرة من بحر البلطيق حتى البحر الأسود وامتدت إلى ما هو أبعد من ذلك حتى مدينة بيزنطة حيث خلت الثراء والأضواء بباب أهل كييف، وأوحى لهم بغزوات مجنونة حتى بغداد بحيث نقول إن ساعة الازدهار بدأت هنا في هذا الوقت وبدأت تحركات الشعوب هذه عبر هذه الطرق من الشمال إلى الجنوب تعرف سلعا كالعنبر والفراء والشمع ومعها تجارة العبيد، ومن الجنوب إلى الشمال تجارة الأقمشة والحراير الثمينة وتجارة الذهب (نقود ذهبية) التي اكتشفها علماء الآثار ممن ارتادوا هذه الطرق من نوفوجورود حتى كييف في هذه المسيرات الطويلة ذهابا وإيابا تبادل الناس البضائع والتجارة كما تبادلوا أحيانا كثيرا من صراعاتهم ، وكان على روسيا كييف أن تدافع دائما عن نفسها وخاصة من الجنوب وعلى العكس كانت الحدود من الشمال تهيب العمال الأجراء المفيدون ... يوما أجراء وآخر أسيادا ... ودائما محاربين مناضلين. وهؤلاء الشماليون أو «الفاريج» من جذور سويدية فلاحون ظلوا بدائيين وكانوا أحيانا يأتون من الدانيمرك مخرقين طريق نهر الدنيبر الذي يربط بين المدن الروسية يقودهم في اتجاه اليونانيين وقد اضنفوا على هذه الطرق اسم جارد اريكي (بمعنى مملكة المدن) ، وأقامت عائلة أحد هؤلاء الجنود المغامرين سلالة الروريك (ولد عام ٨٧٩ وأسس إمارة نوفوجورود) غير معروفة إلا أنهم استقروا في القرن العاشر في كييف وفي كل البقاع الحضرية المحيطة، ولسوف تحاط الإمارات التي أسسوها بكثرة ما تركته من أهمية من أمثال إمارة كييف وسلالة الروريكيد بين ال ريوكوفيتشي.

وتكمن عظمة أول روسيا هذه فيما تضمنته نصوص التاريخ.. العام إذ صار البحر الأبيض المتوسط مغلقا أمدا بعيدا بحكم الغزو الإسلامى منذ القرنين السابع والثامن ولذلك أصبح الطريق القارى هو الدليل من توفوجورود حتى كييف بين بلاد الشمال والأقطار الجنوبية الزاخرة بالثراء وقد فقد هذا الطريق أهميته عند فتح غرب البحر الأبيض المتوسط من جديد إثر انحسار النفوذ الإسلامى فى البحار فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر... فقد هذا الطريق النهري والبرى أهميته ثم انقطع تماما وبصورة نهائية إثر احتلال القسطنطينية عام ١٢٠٤ على يد اللاتين إذ قتل الطريق البحرى الطريق القارى، وقبل ذلك بوقت طويل عانى أمراء كييف كثيرا فى الدفاع عن حدود بلادهم كما عانوا فى ربط جزر البلقان والبحر الأسود وهناك قول مأثور يقول: «إذا أردت الأكل والشرب اذهب إلى كييف أما إذا استدعى الأمر الدفاع عنها فلا أحد هناك»، وهو قول صحيح إلى حد كبير. وتتصادم جحافل فرسان البدو الرحل التى لا تنتهى مع أراضي الإمارة ومدنها وتتوالى غارات قبائل البرشينج والنورك وزحفهم ثم الكييتشاك أو انكومان والذين يطلق عليهم اسم البولوفيتزى فيما بعد. وكان منذ القرن الحادى عشر أن انتقل شطر من أهل كييف، وقد نقول لم يكن انتقالا بل هربا نحو الشمال التركى لاستعمار مناطق الغابات التى كان الفلاحون يمهدون أرضها بقطع الأشجار فى اتجاه مدينة روستوف وضبط اسمها روستوف لاروسلافسكى وهى مدينة صغيرة فى الشمال ولا ينبغى الخلط بينها وبين مدينة روستوف على نهر الدون اليوم، ومن هناك بدأت معالم روسيا الجديدة ومعالم خليط جديد من الصقالبة والعمران حق الفنلنديين الأول، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم الروسيين الكبار، وكانت هذه الروسية الجديدة (همجية) وإن تميز سكانها بصلاية العضلات وقوتها وكانوا يقطنون هذه المواقع قبل انطفاء انوار كييف وفى الواقع أسقط أندفاع المغول ممن اجتاحتها كييف. فى ٦ ديسمبر ١٩٤١ دولة كانت منذ أمد بعيد قد فقدت توازنها ولم يكن الزائر المتجول بعد خمس سنوات ليستطيع العثور على غير مائتى منزل بئس فى مدينة كانت رائعة، ويلاحظ كثير من المؤرخين ممن يميلون إلى المقارنات أن هذه المدن الضخمة (مدن كييف الأولى) لا تشبه بحال مدن الغرب الناشئة إذ لا

تتمتع مثلها بنفوذها كمدن صغيرة متشاركة نصفها مدن ونصفها قرى يتشاركان معاً ويتقاسمان أعباء الحياة وبالذات فإن هذه المدن الروسية الأولى ليست كمثيلاتها من مدن الغرب الأوروبي منفصلة تماماً عن بقية الأراضي المنبسطة حيث يساهم السادة في القرى المجاورة لمدينة نوفوجورود الكبرى في مجلسها الإداري الفيتشييه، وقراراته سيادية محترمة في داخل المدن وعلى الأراضي الواقعة وراء النهر (هي الأراضي ما وراء الساحل أو النهر) التي تشرف عليها أو تحيط بها. فهم الأسياد بجانب المجلس (مجلس السوفييت) ... مجلس الأرستقراطية التجارية ألم نر في كييف كيف كانت المراكز الأولى من نصيب السادة الذين يؤلفون جماعة الأمراء .. اليوويار ودروجينا هم.

كانت إذن مدناً مفتوحة، شبيهة بمدن العصور القديمة كما كانت أثينا مفتوحة للحلفاء بويانثريداي^(١) في أثينا القديمة ولم تكن وحدات منغلقة على نفسها وتحمي امتيازات مواطنيها كما كان الأمر في الغرب في العصور الوسطى .

(١) طبقة النبلاء وكانت لهم حقوق الإنفراد بالحكم.

العقيدة الكاثوليكية

ارتبط مصير روسيا كيبف على مدى قرون بالعقيدة المسيحية الكاثوليكية منذ اعتناقها بها، وذلك أن الطرق عبر كيبف لم تنتقل فيها التجارة فحسب بل تناقلت كذلك الكلام الطيب الذى كان يتفوه به المبشرون بالإنجيل فى سبيل نشر العقيدة المسيحية فى الإمارة (إمارة كيبف) بفضل سياسية الأمير فلاديمير القديس أو كما لا يزال يطلق عليه فلاديمير الشمس الجميلة وكان قد جال بفكره برهة أن يتحول هو وأتباعه إلى الديانة اليهودية لولا انبهاره بالطقوس البيزنطية ومن ثم أشرف عام ٩٨٨ بنفسه على تحول كل أتباعه رسميا إلى النصرانية وتعميد كل شعب كيبف جماعيا فى مياه نهر الدنييز، غير أن الديانة المسيحية كان قد انتشرت فى الجنوب بل وفى كيبف ذاتها إثر الحركة العامة التى تلت بعثة القديس بازيل الخالدة فى منطقة خازارى عام ٨٦١، وتعميد المورافيين عام ٨٦٢، والبلغار عام ٨٦٤، والصرب عام ٨٧٦. ولم يكن تعميد روسيا سوى حدث من أحداث كثيرة... دليل إضافي على الإشعاع الفريد الذى تتوهج به الكنيسة البيزنطية. غداة أزمة الأيقونات (كان أعداء الأيقونات يحطمونها) ولم تخف حدثها إلا عند انعقاد المجتمع الدينى بمدينة نيس عام ٧٨٧ وكان ذلك بمنزلة استعادة الكنيسة القديمة عافيتها وتداعياتها التى امتدت آثارها حتى قلب آسيا الوسطى واقتضى نفاذ التعاليم

المسيحية فى كل من روسيا الصغيرة ثم الكبيرة زمنا، وتأخر النجاح بعض الوقت وشيدت كنيسة القديسة صوفيا فى كييف عام ١٠٢٥-١٠٣٧ وكنيسة القديسة صوفيا فى مدينة نوفجورود من ١٠٤٥ إلى ١٠٢٥ وكان من أقدم الأديرة هو دير طائفة الكريبت وقد شيد فى ١٠٥١ بمدينة كييف. ومن الجدير بالذكر أن مدن روسيا وقراها كانت مرتبطة أحيانا بمعتقداتها الوثنية التى أمكن اقتلاعها من نفوسهم ولم يكن ذلك أحيانا ممكنا إلا بصعوبة إذ كانت العقائد والأفكار فيما قبل المسيحية راسخة وعاشت حتى اليوم وخاصة فى أمور الزواج والوفاة وعند العرافين ممن يعالجون الأمراض مما طبع الديانة المسيحية ببعض هذه المعتقدات وظلت تنفرد بها المسيحية فى روسيا فيما هو ظاهر فى الطقوس الأرثوذكسية وشعائر الأيقونات ومالأعياد الفصح من منزلة خاصة. ولئن كانت حضارة شعوب روسيا قد انطوت فى فلك بيزنطة فقد أدى ذلك بلاشك إلى التباين والاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت، بما تثير أحيانا من مشكلة كبرى يصعب وصفها أكثر مما يصعب حلها ، وتستطيع القول بأنها خلافاً تولدت عبر التاريخ وقد خضعت المسيحية الغربية لتجارب ومحن خاصة فهى من ميراث الإمبراطورية الرومانية التى غزتها المسيحية، فإن تزامن انتصارها مع موجة من تسلط المسيحية حيث جنت العقيدة الثمار غداة زوال الإمبراطورية فى القرن الخامس وبدأت المسيحية تأخذ المهام على عاتقها ولحسابها وفاقّت الكنيسة المسكونية سلطة المجتمعات وسلطة الدولة واستغلت اللغة اللاتينية المشتركة عنصراً من عناصر التوحيد والوحدة وأخيراً توارثت عن الإمبراطورية الرومانية تدرجاتها الطبقية ومركزيتها وكذلك احتفظت بعاصمتها القديمة الساحرة روما وذلك فضلاً عن أن كنيسة الغرب سوف تتورط فى كل المشاكل السياسية والاجتماعية وهى كثيرة فى بداية مسار الحضارة الغربية وصارت أضخم مجتمع قادر على تلبية الاحتياجات كافة احتياجات الجسد والروح، وكذلك القيام بمهام التبشير بالإنجيل والتعليم له بل تجاوزت إلى إصلاح الأراضي الجديدة وإعمارها، وفى القرن العاشر كانت كنيسة بيزنطية تتمركز فى إطار إمبراطورية صلبة لم تترك لها متطلبات بل مخاطر الامتداد الوقتى فهى تسيطر عليها وتخضعها وتحدد لها إطاراً قاصراً على مهامه

الروحانية ليس غير، أما الكنيسة الأوثوذكسية التي أتت لتبذر بذورها فوق الأراضى الروسية فأقل شهرة لدى الشعب والمؤمنين ولا تتميز بما تتميز به فى الغرب ولا تعير أهتماماً كبيراً بالمجال السياسى وهى مستعدة لقبول الأسطر الوطنية التى تعرض نفسها عليها وقليلة الإهتمام بالتدرج الكهنوتى إذ ينحصر اهتمامها بنشر التقاليد الروحية كما ورثتها عن الفكر اليونانى فى القرن العاشر. أما من حيث اللغة والمشاعر فقد احتفظت الكنيسة اليونانية بلغتها وتعتبرها لغة الصفوة غير جدير بالبرابرة الهمج استخدامهما. وتعد هذه اللغة فى البلاد الصقلية لغة الخلاص أى اللغة التى اتخذها كل من القديس كيرس والقديس ميتود فيما بين أعوام ٨٥٨ و ٨٦٢ لترجمة الكتب المقدسة لتستخدمها مختلف الشعوب الصقلية، وكانا قد بدءا تنصيرهم بالإنجيل وعليهم إعداد لغة التخاطب إلى لغة كتابة ولهذه المهمة كان عليهم استنباط حروف هجائية جديدة تتسق وكلام الصقلب حول سالونيكاء، ومن ثم تبرز أهمية لغة السلافون (الخلاص) وتعد أول لغة كتابة فى تاريخ الشعوب الصقلية الثقافى ويظهر الفرق بين الكنيستين فيما يختص بالتقاليد الروحانية فى عدة أشكال فنجد لفظ حقيقة فى اليونانية وبشكل أدق بلغة الخلاص تعنى ما هو خالد ... دائم قائم فعلا خارج الدنيا المخلوقة وتعنى كلمة براقدا مع ذلك الحقيقة والعدل على عكس كلمة استينا التى تعنى الحقيقة الأرضية والشكل الهندوروكى (الهند الأوروبى) فى لغة السلاف (الصقلب) كلمة فيرا أى الإيمان لا الحقيقة، ونجد على العكس من ذلك فى اللاتينية كلمة حقيقة فى مدلولها القانونى والفلسفى أو العلمى إنما تعنى دائما نوعا من اليقين، وكذلك لفظ مقدس فى الغرب إذ الطبقية الدينية وحدها هى القادرة عل إصفاء صفة القداسة عليها وهى فى الشرق تعنى كل شئ «السر الخفى» بما يتعدى مفاهيمنا وينتزل مباشرة من أعلى (من الله)، كما كثيرا تفاصيل أخرى وفروقا عميقة ماثلة كالأسبوع المقدس الذى يسبق عيد الفصح فى الغرب إذ يبدو هناك فى سمة الحداد على حين تبدو المشاعر فى الشرق من آلام المسيح وظروف موته كإنسان فى سمة الحبور الجذل بالأغاني التى تمجد بعث المسيح الرب ولكن الشعوب الروسية تظهر صلب المسيح مسيحا وديعا عند الوفاة لا منقذا يتألم كما فى الغرب، بعدما لاقته المسيحية فى الغرب

من مشاكل البشر الجماعية بل والمجتمعية الشرعية هي المواجهة من الجذور على حين ظل الفكر الدينى فى الشرق محدوداً أكثر فردية وأيسر تصوفاً وروحانية فحسب ويرجع البعض من أمثال اليكس خوميا كوف فى مقارنته بين الأورثوذكس الصوفيين. والبعض من أمثال اليكس موفيا كوف فى مقارنته بين الأورثوذكس الصوفيين والغربيين من أنصار المذهب العقلانى هذه الاختلافات إلى الحضارات فهل تحملت المسيحية الغربية جزءاً من المسئولية عن هذا الاتجاه العقلانى الأوروبى البحث الذى سرعان ما أثار ضده الفكر الحر، وكم من مرة دافع اتجاهه وإن بدا فى النهاية متوافق معه لم يواجه الأورثوذكس الروسى على العكس من ذلك صراعات مجنونة بالمخاطر إلى عهد قريب ومع ذلك فقد أتاحت أمامه فرصة الاختيار فى القرن السابع عشر بين دين رسمى متطهر (أى متخلص من تلك العادة المتناقضة مع الكنيسة اليونانية برسم الصليب مستخدماً أصبعين من اليد اليمنى) وبين ديانة شعبية تتمسك بالشكليات وتبعث على التهذيب وتكون قريباً ثورية متعصبة ولقد فصل هؤلاء المصلحون الشعبيون من العقيدة الدينية وبدأ الانشقاق الراسكول واشتد منذئذ الصراع ودام ضد الراسكولينكرون، ثم امتد ما بدأ من صراعات داخلية وخارجية ضد الفكر الحر وأواخر عصر القيصرية وغداة الثورة البلشفية عام ١٩١٧ فقد صارعت الكنيسة الأورثوذكسية فى سبيل صيانه بقائها ذاته أى تظل فى صراع تحت الأرض وتقبل التسويات قلن تجبن فيما يبدو من هذا الصراع المرير فرصة لتجديد أو تحديد ولا حتى إدارة طرق لمسارات أخرى جديدة شبيهة باشتراكية اختارتها منذ خمسين عاماً كاثوليكية القرن العشرين طوعية

روسيا الكبرى

أما روسيا الثانية... روسيا الغابات فلم تكتمل إلا حين سوت الخليج الروسى وتمكن إيفان الرهيب أو جروزنى (١٣٥٠ - ١٥٨٤) من الاستيلاء على خازان عام ١٥٥١ ثم أمستراكان عام ١٥٥٦ فامتد إشرافه منذئذ على الفولجا الكبير وموارد بحر قزوين الضخمة، وقد تحقق النصر بفضل المدافع والبنادق للغازى القادم من آسيا فى اجتياحه الأراضى بخيوله وفرسانه فاستطاع اختراق الجانب الغربى بعد الاستيلاء جنوبا على شواطئ بحر قزوين باستثناء البحر الأسود وكان منذ القرن الخامس عشر مقراً للأتراك، المهم كان إيفان فى طريقه إلى اختراق أراضى الفرس والهند وتوقف زحفه عند البحر الأسود الحصين.. وهكذا بدأت تباشير روسيا جديدة فى الأفق تتشكل ببطء وذلك فى ظروف قاسية مغايرة لتلك التى نشأت فيها روسيا كريف وكانت الحصيلة الأولى... أهالى هذه البقاع وإخضاعهم قسراً على العبودية وتجزئة الأراضى وتقطيعها إلى مقاطعات إقطاعية، وكانت السهوب والفيافى الروسية قد احتلت قبل سقوط كريف عام ١٢٤١ على أيدي قبائل المغول (أو التتار كما يطلق الروس عليهم) وتشكلت على الفور دولة كبرى مستقلة ضمت إلى أراضيه مناطق الغابات الروسية الشاسعة والمدن الشمالية وكانت تشكل مجموعة من الإقطاعيات السيادية واتخذت هذه الأمة المسمّى أمة الخانات الذهبية

من سراى الواقعة فى وادى نهر الفولجا الأدنى عاصمة لها، وظل ازدهارها قائما مادام الطريق الطويل المنغولى مفتوحاً يمهّد الطريق إلى الهند والصين، وهو الطريق الذى سلّكه التجار الإيطاليون لتبادل البضائع بالذات من أبناء جنوا وفينيسيا حتى عام ١٣٤٠، وبعد ذلك سدّ هذا الطريق على مملكة الخان الذهبى فظلت مكثفية بمناطق الجنوب حيث كانت فقدت تقريبا أراضي غابات الشمال. وفى هذا الوقت نشأت إمارة موسكو وأتسع حجم أراضيها وسط تقسيمات إقطاعية ومعارك غامضة كان ذلك فى القرن الثالث عشر وبداى فى تجميع الأراضي الروسية على غرار ما فعله ملوك الفرس فى تجميع أراضي فرنسا، وحين تحررت هذه الإمارة من الوصاية التتارية عام ١٤٨٠ استقر قيصر روسيا فى الخان الذهبى أما سائر الأراضي التى كانت تقيم فيها قبائل من جزيرة القرم بين نهر الفولجا والبحر الأسود حيث امتدت إقامتهم إلى القرن الثالث عشر بفضل دعم الأتراك العثمانيين وكانوا بالنسبة لهم أتباعا قانعين وهادئين (تعنى تابع الكبار الإقطاعيين يعطونهم أراضي مقابل خدماتهم لهؤلاء الأسياد) وقد احتاج الأمر إلى ثلاثة قرون حتى تنقلب الأوضاع، وكم من صراعات ومشاحنات وقعت خلال هذه الحقبة وكم كان من مظاهر المعارضة والتحديات بين الروس والتتار ومع ذلك فقد استمرت المبادلات التجارية والمصالح والخدمات بل والاتصالات السلمية وخاصة تأييد ملك الخان الذهبى انطلاقا من موسكو إذ تحول هذا الخان إلى الإسلام فى وقت متأخر وكان أتباعه يتحلون بالسماحة مما حدا بهم إلى أن يتركوا للشعوب الخاضعين قوانينهم وحرية اختيار تشريعاتهم ومعتقداتهم كما كان بالعاصمة سراى كنيسة أورثوذكسية وقد حدث تزواج بين السادة وأتباعهم من دافعى الجزية بحيث قيل أحيانا بأن موسكو تعج بطبقة أرستقراطية نصف شرقية الأعراق وكان فى القرن الخامس عشر، على أى حال، حين بدأ انحسار التتار أن وصل إلى الأراضي الروسية عدد كبير من المسلمين تحولوا إلى المسيحية ودخلوا فى خدمة الأمراء مما أثار حفيظة الأتباع الأصليين من الأهلين وهكذا كانت العائلات كعائلة جودونوف وعائلة سابوروف وهى من كبرى العائلات ترجع سلالاتها إلى عروق تتارية وقد فرض المغول زمناً طويلاً إرادتهم على أمراء موسكو حيث يمثلون حضارة أعمق

من حضارتهم وكانت دولتهم على قدر كبير من التنظيم أتاحت لهم تحقيق نشاط مالى لا مثيل له فى الشمال، واللغة الروسية اليوم تحتفظ بعدد من ألفاظ وكلمات ذات أصول مغولية منها كازنا وتعنى الضرائب (لا ياسيدى أصلها عربى أى الخزينة) والتاموجنيا أى الجمرك أمام أى محطة للبريد، وندجوى أى النقود وكازناتشى أى الصراف (يقصد المخزنجى) وقد انطبعت آثار هذه الحضارة الرفيعة على عادات الموسكوفيين وتقاليدهم وقد سلكت هذه الحضارة نهاية طريق عالم مختلف .

وإن كان شعبا مستنيرا طوعته حضارة راقية وتشبه هذه المعاشرة إلى حد ما كان قائما من علاقة بين أسبانيا المسيحية وعظمة (ها هو يعترف بعظمة الإسلام للمرة الأولى) أسبانيا الإسلامية وبدأ قيصر موسكو يزحف على الخانات الإسلامية حوالى عام ١٤٨٠ فى تزامن مع الانطلاقة الأسبانية التى أتمت فصولها بالاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢، وتحقق انتصار موسكو بعد عديد من المعارك الدامية ضد الإمارات المجاورة، ولم تبد ملامح هذا النصر إلا مع بداية حكم إيفان الثالث ١٤٦٢ - ١٥٠٥ فيما يفصله كثير من المؤرخين الروس على نصر بطرس الأكبر وكان قد تزوج عام ١٤٦٩ بعد زمن يسير من توليه السلطة من صوفيا وريثة الباليولوجيين آخر أباطرة القسطنطينية اليونانيين، وهكذا صارت موسكو غداة سقوط القسطنطينية تساريجراد (مدينة القياصرة) فى أيدي الأتراك عام ١٤٥٣... وأصبحت موسكو أقرب إلى أن تكون روما الثالثة فهل تتمكن من إخضاع الدنيا وإنقاذها؟ غير أن هذا النجاح على المدى الطويل لم يتحقق للأمير وريث موسكو إلا عام ١٤٩٢ (يلاحظ أن كلمة قيصر الرومانية تقترب منها كلمة قيصر الروسية) وبعد نجاحاً أقل مما تحقق فى الحروب مع اللتوانيين وضد خان الذهب وقطيعة التاسيلاج عام ١٨٤٠ والانتصار على المدينة التجارية الكبرى نوفوجورود وكان هذا الصراع الأخير صعباً طويلاً مأساوياً، فكانت عام ١٤٧٥ حرب باردة ودخول سلمى للمدينة، ثم يرفع إيفان عام ١٤٧٧ - ١٤٧٨ جرس مدينة فتشيه ويعمد عام ١٤٨٠ إلى نفي أفراد مائتى عائلة من النبلاء ويجبر عام ١٤٨٧ سبعة آلاف من أهالى نوفوجورود على مغادرة المدينة فكان ذلك نهاية

المدينة التي أطلق عليها اسم السيد الكبير نوفوجورود. وفى ذلك الوقت وصلت جموع الفنانين الإيطاليين وغيرهم من أمثال البولونى رود ولفوفيور افانتى (من إيطاليا مدينة بولونيا) ويدعى أرشيدت وماركورفيووبيتر وسولاريو من الفنانين بناء القصور والكائنس، وكان أن بدأت انطلاقة موسكو حيث يتخذ الكرملن موقعه الفريد الحالى كما كان باولو ديبوسيس الإيطالى صاهر الحديد لصناعة مدافع جيش إيفان الثالث وتوفير الأسلحة لسلاح فرسانه القوى، وهكذا بدأت قبل قرابة قرن من الزمان من اعتلاء إيفان الرابع عرش البلاد فضلا عن الانتصارات الحاسمة على الخازان واستراخان تترسخ أقدام موسكو الأولى... وهى بلاشك خطوات أدت إلى إعادة الاتصال بالغرب، وكان كل هذا النجاح وكل هذه المستحدثات تستلزم جهوداً مضنية من الدولة، وبذلك اتصف عهده بإيفان الرهيب حيث انتشر الرعب بين صفوف المعارضة وعرف الناس ما سعى به الأوبرتشينا وهو نظام شرطة صارم أعده إيفان الرهيب لإسكات أى صوت معارض مما أتاح سحق الأمراء المعارضين والبويار وبدأت مركزية شرق البلاد الروسية تتوطد دعائمها.

وبدأت روسيا تتجه أكثر فأكثر نحو أوروبا حيث ظلت روسيا قرونا تتحضر وتتمدن حتى ١٩١٧، ولعلنا نقول إن اللحظة الحاسمة فى تاريخ روسيا قد بدأت أبعد من هذا التاريخ وفى هذا التنافس تابعت روسيا بإصرار وعناد مرحلة واحدة إثر أخرى فى سبيل اكتشاف أحدث التقنيات لزيادة فعالية التقدم والتحمسين كما تمكنت من تحقيق انتقامها من آسيا التى سبق أن هددتها خلال قرون عديدة، وامتدت تلك التهديدات إلى أوروبا فيما بعد. والحقيقة أن شعوب آسيا كانوا على امتداد قرون قد تعلموا كثيرا من فنون التوازنات التى كانت أحيانا تآرجحهم للتقدم نحو أوروبا والبحر الأبيض المتوسط وقد تدفع بهم أحيانا إلى التقدم نحو الشرق الأقصى وخاصة نحو الصين وفى مثل هذه الظروف كان مصير روسيا يترنح أحيانا أو قد يتمدد جزئيا بإحدى هذه التحركات التى كانت تلقى بالقنابل الرجل نحو آسيا والصين ابتداءً من القرن الخامس عشر وكانت جحافلهم تنتهى فى الأراضي الروسية الجنوبية وبذلك الامتداد الطبيعى الناتج عن الضغط الآسيوية،

والتنار المسلمين تقلصت قواهم أو تقلص جزء منها لصالح المغامرات نحو بلاد الشرق الأقصى، وحين تنقلب الأوضاع من جديد فى مستهل القرن الثامن عشر تتجه الغزوات فى تقدمها نحو أوروبا، ولكن الوقت فى هذه المرة كان متأخرا حيث اصطدم تقدم قبائل القرغيز والباكتيرز المندفعين أمام (وقفه القرن السابع عشر والثامن عشر الصينية) بسد منيع كان قد شيد ولم تتمكن من نفسه جحافل التمرد الذى قاده بوجاتشيف (إمبراطور روسى مغامر ١٧٧٣ - ١٧٧٤) وهذا التفسير المبسط لإحداث نوع من تصحيح حدة الوقائع وتخفيفها.

إذ كان واضحا أن ضغط القارة الآسيوية كان قد طفق يخبر وكانت التقنيات الحديثة التى أخذتها روسيا عن الغرب قد بدأت من جهة أخرى انعكاساتها تبدو على سطح الحياة فى روسيا فنشأت انطلاقة اقتصادية روسية بفضل اتصال بين روسيا وبين تجار أوروبيين بدأ نشاطهم يتنامى حتى أبواب بحر البلطيق وليس أدل على ذلك من احتلال نارفا على بحر البلطيق على يد قوات روسيا فى القرن السادس عشر وسرعان ما أغلق الباب، غير أن روسيا قد كانت حققت ثأرها. وقد سبق أن قلنا أن الحوار بين موسكو والغرب كان قد بدأ قبل صعود إيفان الثالث واستمر الحوار متصلا وازداد الاتصال تقدما. وقد وصف رجاله ألمانى هو البارون هيرشتاين رحلة عام ١٥١٧ قائلا: إنه اكتشف موسكو وكان كولومبس يكتشف أمريكا. وعلى أى حال فد بدأ تدفق التجار والمغامرين من جميع الأجناس من بائعى البضائع وعارضى المشروعات وخبراء عمارة المباني والرسامين فتتصاعد عائداتهم... عالم جديد قبل أن يصل بطرس الأكبر وكان يومئذ طفلاً صغيراً لم يرتبط بعد بصداقات مع القادمين من أوروبا ويتخذ منهم مستشاريه وقد جند دوق آلپ وقتئذ عام ١٥٧١ حاكم الأراضى الواطنة (هولندا) التى كانت وقتئذ فى أيدي الأسبان من خطر يحيق بالعقيدة المسيحية بأسرها من تدفق تهريب الأسلحة على موسكو عدوه اللدود التقليدى.

وكان هذا التحذير فى جلسة من جلسات الريثيتاغ الألمانية (مجلس الأمة) وكان شانسيلور الإنجليزى قبل هذا التاريخ عام ١٥٥٣ قد تمكن من الوصول إلى سان نقولاس أركانجيل وهناك أسس شركة موسكو لنقل السلع التجارية وتبادلها

بين تجار لندن وبلاد موسكو وامتد نشاط هذه الشركة وسفنها حتى أراضى موسكو وحتى بلاد الفرس . وتتوالى وتتابع الأحداث كفيلم سينمائي من جرأة بطرس الأكبر وتهوره (١٦٨٩ - ١٧٢٥) . ومن عظم الأحداث الخارجية إبان حكم كاترين الثانية الملقبة بكاترين العظمى (١٧٦٢ - ١٧٩٦) طرأت بعض التعديلات على الحدود وتغير الشكل الداخلى للأراضى الروسية تجاه أوروبا، ولم تتوقف روسيا فى الواقع عن السيطرة على نطاق أراضيتها الشاسعة بل كما لم تتوقف عن التحدى على أراضى، الغير حيث يبدأ الامتداد الكبير، من سان بطرسبورج وأنشئت العاصمة الجديدة على نهر النيفا منذ عام ١٧٠٣ وازدهرت تجارتها بفضل أساطيل الإنجليز والهولنديين وصارت روسيا أكثر فأكثر ذات سمات أوروبية وساهم الكل فى ذلك وخاصة سكان سواحل بحر البلطيق والألمان، وكان لأقرب الجيران الميزات الأولى . أما غزو الجنوب والاستقرار فى شبه جزيرة القرم عام ١٧٩٢ وكان قد بدأ ثم أهمله بطرس الأكبر فقد تم فى فراغ نسبى وتأخر الاتصال مع البحر الأسود فلم يقع قبل بداية القرن التاسع عشر، وقذفت أوديسا بمدافع دوق دى ريشيليو (مارشال قائد فرنسى) وفى هذا الوقت ولأول مرة (١٨٠٣) أمكن نقل قمح أوكرانيا إلى الموانئ الغربية بالبحر الأبيض المتوسط مما أثار مخاوف ملاك العقارات فى إيطاليا وفى فرنسا فيما بعد . فما تاريخ روسيا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر جملة وتفصيلا إلا عديد من حركات التأقلم الاجتماعى الثقافى الضخم بكل ما تحمله أحداثه وتطوراته من أوهام وأخطاء ونجاح وسخافات وتفاخر وتقدم وتراجع وفوق كل ذلك بالنتائج الإيجابية التى تحققت .. «امسح على روسى تجد واحدا من موسكو تحته، ... هذا المثل الذى جاء من روسيا سمع رنينه فى الغرب، والسؤال لماذا لم يحتفظ المسكوفى بذوقه وتحفظه ويتردده ويكتمانه؟ وبالقرب من موسكو اليوم يمكن للزائر أن يشاهد ما يشبه المتحف حيث احتفظ به مقر إقامة الأمير تشير بميتيف المينى منذ القرن الثامن عشر فى منطقة أوستادكنيو بأيدي العبيد المهرة وبأسلوب كلاسيكى تام رائع مما يثير إعجاب المشاهد وتعجبه من هذه الدهانات الحية والأسقف المموهة بالذهب والزخارف الرائعة وتبدو والحيطان من فخامة سمكها كأنها من مواد البناء وسرعان ما يكتشف

أنها خشبية، ويقال إن الأمير كان يردد أن لاشيء يفوق المتعة والرفاهية ولا شك أن هذا الأمير عرفها فعاشها وكل البيوت الخشبية الروسية على هذا المنوال..

أخشاب روسية ثم ملابس ترتدى على الطراز الفرنسى المشهود ذلك بالتقريب تاريخ عظمة مراحل القرن الثامن عشر فى روسيا إنها العظمة التى خلبت الباب الأوروبيين فتدققوا يشيدون كل شىء من بيوت ومتاحف وقصور وصناعات ويدا أثر ذلك فى تدفقات المهندسين والمعماريين والرسمين والحرفيين والموسيقيين وأساطين الغناء والمربيات والحاضنات... كل هؤلاء طفقوا يتساقطون على بلاد متلهفة على المعرفة والتقدم وعلى أتم استعداد للتحمل والصبر حتى تصل وتتعلم ويشهد بذلك مكتبة باسم فولتير شيدت فى قلب مدينة بطرسبورج عاصمة القيصرية، نجت من أقدام الكتل الشعبية، ويفخر اليوم بها جماعة المثقفين الروس (الأميلجانبيا) إذ عكفت على قراءة كل ما حوتها من أوراق ووثائق. وتحتل فرنسا مركزا مرموقا متميزا فى حركة الثقافة الروسية اليوم كما يصف الفرنسيون كاترين الإمبراطورة الروسية الأرستقراطية بأنها المرأة ذات الروح التحررية لأنها دعت إلى تقديم مسرحية زواج فيجارو فى روسيا، وكذلك لم يكن لويس السادس عشر قد سمح بتقديمها على المسرح الفرنسى ومع ذلك نجد تناقضا واضحا حيث كانت حكومة الإمبراطورة كاترين الثانية ذات ميول واتجاهات رجعية على الصعيد الاجتماعى منذ دعمت سلطة النبلاء وقدرتهم فى الوقت الذى ساعدت فيه على تفاقم أحوال العبيد وظروفهم.

وكان المثقفون الأرستقراطيون دون سواهم هم الذين ولوا وجوههم شطر فرساي وباريس فكيف عجزت هذه الجماعة من المثقفين عن أن تدعوا الطلبة وجموع الشعب إلى قلب نظم الحكم أو على الأقل إلى هزها لتصحو.. هذه القارة الأوروبية القديمة... ولكن مرة أخرى إن العملاق الروسى الضخم الذى فشلت أمامه الثورة الفرنسية أو على الأقل امتداد هذه الثورة فى صورة إمبراطورية نابليون... تلك حقيقة يجب ألا تغيب عن أنظارنا.

ولكن خلفية مسرح الأحداث وأعماقه أن بذور الثورة كانت تتجمع لتبدو واضحة على السطح بدءا من مسيرة تزامنت مع حقبة تحديث روسيا فى القرن

السادس عشر حتى انفجار أكتوبر ١٩١٧ فبعد سطوع نجم روسيا كيبف طفت التوترات الاجتماعية والقلقل تتجمع وعاشت البلاد عصرا وسيطا موقوتا.. الإقطاع الذى بدأت تنأقلم جذوره واللى كادت تنفت وتتلشى فى الغرب بدأت الأورية أو التفرنج (يعنى الأخذ بالأسلوب الأوروى) يتنامى منذ القرن الخامس عشر حتى القرن العشرين... تننامى يقينا ولكنها لم تكن لتمس غير شطرىسير من السكان من بعض كبار السادة وملاك الأراضى والمثقفين والسياسيين بل أكثر من ذلك فقد أدى تنامى التجارة مع الغرب فى روسيا مثلها كمثل وسط أوروبا إلى تحويل السادة إلى منتجى للقمح وتجار وما مرحلة العبيد الثانية إلا محصلة الظاهرة من الألب حتى الفولجا إذ تفرغ حريات طبقة الفلاحين من محتواها فهام العبيد الذين حصلوا وقتئذ على حق استبدال أسيادهم كل سنة، باستثناء حالات الذين يفقدون هذا الحق، إذ أصدر إيفان الرابع عام ١٥٨١ فرمانا قوزايا يحرم عليهم أى انتقال جديد كما أنقلت كواهلهم أعمال السخرة وزيادة الأتاوات وضرائب الدولة ولاشك تركت لهم حرية الانطلاق هرباً إلى مجاهل سيبيريا أو نحو أنهار المناطق الجنوبية ليلتحقوا على الحدود ويلضموا إلى الخارجين على القانون القوزاق، وهكذا أفرغت موسكو من نصف فلاحيتها الذين راودتهم أحلام الهرب ومغامراته فى سبيل الحرية. ومع ذلك فما أن يستقر مقام الحكومة فى تلك المناطق البعيدة أو تتمركز فيها سلطتها المباشرة حتى تحرم الحرية الممنوحة... إنها القصة الخالدة للحريات الروسية الخاسرة فى كل حين، أليس للسيد دائما حق فى الإمساك بالهارب، وألغى قانون ١٦٤٩ التقادم من أى نوع كان ولاشك قامت معارضات ونزاعات رهيبية ويوادر عصيان من أبرزها عام ١٦٦٩ حيث تجمع مائتا ألف من المتمردىن من القوزاق والفلاحين وأقوام من بلدان آسيوية فاستولوا على استراخان وساراتوف وسمارا وأصبحوا سادة قولنا السفلى وعمدوا إلى قتل ملاك الأراضى والبورجوازيين وكان يقود مسيرتهم ستينكارازين ولم يتيسر اعتقاله إلا عام ١٦٧١ ثم نكل بجثته وعلقت فى الميدان الأحمر بموسكو. وبعد قرن من الزمان وفى المكان نفسه قاد بورجاتشيف ثورة العصيان التى تحقق لها نصر مبدئى جارف إذ ضمت بين صفوفها القوزاق من نهر الدون والأدراى

وعمال مسابك الحديد وصهر النحاس من سكان مرتفعات الأورال وقبائل البكثير والخرجز وعبيد مقاطعات السادة كبار الملاك وعمال عبيد المناجم، انضمت كل هذه الجموع إلى ثورة العصيان البوجاتشيفينا التي امتدت حتى تنحس نوفجورود من مسيرتها لتشنق ملاك الأراضي وتعد بتوزيعها على الجميع ومنحهم الحرية، وأمكن الاستيلاء على خازان ولكن الثائر لم ينجح في اقتحام أبواب موسكو واعتقل وقطعت رأسه عام ١٧٧٥ وبدا كأن النظام يعود... أو هكذا بدا الوضع. كل هذه الأحداث معروفة تماما فالتاريخ الروسى زاخر بتفاصيل هذه الأحداث ذلك أن إلقاء الضوء عليها إنما يعنى أن هناك أسبابا تدعو إلى ذلك فكلما تقدم الزمن تضاعفت أحوال الفلاحين سوءاً. فمع بداية عصر الرق الثانى قامت أرستقراطية ثانية أيام حكم إيفان الرهيب ولم تكن طبقة الأرستقراطيين هذه إلا من قبائل البوار من سلالة روسيا كريف، وتشبه السادة فى الغرب وبصفته سيدا مالكا لأرضه استطاع إيفان الرهيب كسر شوكة النبلاء المستقلين فأعدمهم بالآلاف وصادر ممتلكاتهم ومنحها لرجال من أتباعه وأنصاره وهم ما أطلق عليهم لقب الأوير تشينيكى أى جماعة من النبلاء الخدميين لا يملكون الأراضي ولا أرباحها إلا مدة عمرية أى زمن بقائهم على قيد الحياة وفى هذه الظروف لم تكن حركة الإصلاح الكبرى التى قام بها بطرس الأكبر سوى حركة رجعية إذ صدر ١٧١٤ قانون الماچورا (إقطاعية البكر من الأبناء لا يمكن التصرف فيه) قد اعترف فى هذا القانون لهؤلاء النبلاء ولورثتهم بحق الخدمة الملكية وبالأرباح التى يضعون عليها أيديهم وهكذا نشأت وتأصلت طبقة ثانية أرستقراطية بهذه الامتيازات وهكذا حصل مينتشيكوف أثير بطرس الأكبر على مائة ألف عبد من عبيده وظهر هذا التناقض السافر وطبع وجه روسيا المتحضرة بهذه الصورة فى مواجهة أوروبا... عصر متأخر فى مواجهتها لنفسها، ومنذ ذلك التاريخ بدأ حلف فعلى يربط بين القيصرية وطبقة النبلاء التى تحيط بها والرقيق الدائم الخوف الخاضع أمام نزوات سيده وبدأت أحوال طبقة الفلاحين تزداد سوءاً بانغماسها فى صعوبات لا حل لها بحيث لم تُجدِ حركة تحرير العبيد أعوام ١٨٥٨ و ١٨٦١ و ١٨٦٤ لها حلولا بل لم تستطع حتى إلغائها أو إزاحتها من الطريق البائس الذى تعيش فيه القرى،

والأراضي التي يستولى السادة عليها، مع نقص عدد الفلاحين، كما احتفظ السادة عليها بجزء من أملاكهم فلم تطرح المشكلة للبحث إلا عام ١٩١٧ إثر الانفجار الذي لم يعرف له تاريخ روسيا مثيلاً.. انفجار أزمة الأراضي الزراعية التي تسببت بعمق في اندلاع الثورة أمداً يسيراً حيث يظهر على السطح نظام شيوع الأراضي. وهكذا لم يعرف الفلاح الروسي معنى امتلاك الأرض أبداً وحده، وبهذه الحالة في القرى الريفية تأثرت جميع مظاهر الحياة في روسيا وأشاعت فيها بذور الثورة بما يفسر ذلك النجاح المدوي لثورة ١٧٨٩ التي بدأ الحديث عنها في الصحف كافة وذلك في كل من سان بطرسبورج وموسكو بل في تويوسك في سيبيريا (١٨٢٨ - ١٩١٠) كان ذلك إشارة إلى صحوة الأراضي الروسية.. نوع من يقظة ضمير تابعتها بشغف طبقة النبلاء المتحررين، وطبقة البورجوازيين التجاري، وطبقة المثقفين والإعلاميين، وهم غالباً من طبقات شعبية حيث تمكن الإشارة إلى كتاب صغير بعنوان (الثورة الفرنسية والمجتمع الروسي) ألفه ميشيل شرانج في ترجمة فرنسية في موسكو عام ١٩٦٠ وإلى تصريح حقوق الإنسان، وكذلك اندلاع الهياج الشعبي من جديد في فرنسا والفرع الأكبر الذي يمس مباشرة أكثر الموضوعات سخونة أمثال نظام الأوتوقراطية (حكم استبدادي أي سيادة فردية مطلقة) وقضية العبيد.

كل ذلك بفضل هذه المشاعر التي كان من السهل الإحساس بها في روسيا ونراها واضحة على جبين كل فلاح، وذلك على حسب التعبير الذي استخدمه أحد المعاصرين. وثمة أسباب أخرى يمكن إلحاقها بهذا المسوغ الرئيسي لوضع الفلاح الروسي، تلك هي حركة التصنيع التي انبثقت منذ منتصف القرن التاسع عشر... كان ذلك في عهد حكم نيقولا الأول ١٨٢٥ - ١٨٥٥ وهو يقينا لا يتحمل التبعات. وكان ظهور الكاتب يوشكين ١٧٩٩ - ١٨٣٧، وليرمونتوف ١٨١٤ - ١٨٤١ وجوجل ١٨٠٩ - ١٨٥٢ وتورجتييف ١٨١٨ - ١٨٨٣ وديستوفسكي ١٨٢١ - ١٨٨١ وتولستوى ١٨٢٨ - ١٩١٠ أشبه بعودة الوعي إلى روسيا فبدأت أنماط وأشكال تترى من الثورات والهياج بدءاً من حركات محدودة ضيقة من جانب الديكا بريست ويقال لهم الديسمبريون (تعنى الذين ثاروا في شهر ديسمبر) فضلاً

عن الإعدام بالرصاص أمام قصر الشتاء عام ١٩٠٥ وتجمعات الثائرين من
المعدمين إلى أنصار الحزب الاجتماعى الديمقراطى الروسى فى مدينة منسك
ومن أنصار أول حزب ماركسى إلى قبائل من جذور صقليلية ومن الثوريين
المتطرفين أحيانا إلى الغربيين الساخطين والمثقفين والشباب والطلبة خاصة...
والمبعدين المنفيين... كلهم يحملون شعلة الثورة القادمة... وعلى لهيب هذه
الشعلة ووهجها كانت آمال.. تاريخ روسيا.

الفصل الثاني

الاتحاد السوفيتي من
عام ١٩١٧ حتى يومنا

الاتحاد السوفيتي من عام ١٩١٧ حتى يومنا هذا

تناولنا فى الفصل الأول من هذا الجزء دراسة الثورة الروسية عام ١٩١٧ فى بدايتها المبكرة ثم تداعياتها فيما بعد، والآن نبين المشاكل الضخمة التى مست الحضارة السوفيتية مساً مباشراً.

(١) كيف تقابلت الماركسية مع الثورة، وكيف قادتها بعد ذلك؟

(٢) ماهى تداعيات هذه الثورة وكيف استمرت فى الوضع الراهن للحياة؟

(٣) فيما بين هذه الصدمات وهذه الضغوط .. هل يخشى منها على الحضارة السوفيتية؟

من كارل ماركس حتى لينين

استطاعت أفكار ماركس أن تغزو بسرعة أوساط المثقفين والثوريين الروس المتطلعين إلى الغرب، وبالتالي كانوا من المعارضين للتقاليد الصقلابية القديمة. وهكذا سرعان ما وجدت الأفكار الماركسية أعواناً ومريدين بين أوساط طلبة جامعة سان بطرسبورج وأساتذتها وخاصة أوساط خبراء الاقتصاد والمؤرخين بالقدر المتحفظ نفسه الذى وقفته أوساط جامعة موسكو.

والماركسية ثمرة تعاون مشترك بين كارل ماركس ١٨١٨ - ١٨٨٣ ومعاونه فريدريك أنجلز ١٨٢٠ - ١٨٩٥ إذ عمل معه أربعين عاماً وعاش بعده ١٢ عاماً

أخرى، وتعتبر هذه المبادئ منعطفاً أساسياً للفكر والعمل الثورى فى كل من القرن التاسع عشر والقرن العشرين من حيث أنها ثورة ترتبط بحياة المجتمع الرأسمالى العصرى الصناعى وتتداعى من صفوفه حتما كثمرة طبيعية لا يمكن تجنب سقوطها ويقدر ما تقدمه من مفهوم جماعى مشترك بصورة قوية بين التفسير الاجتماعى والتفسير الاقتصادى وحوارات ماركس (الديالكتيك) (الجدلية) أو البحث عن الحقيقة بين المتناقضات إنما هى مستوحاة من آراء الفيلسوف هيغل أى أن الروح تهيمن على ماديات الكون والإنسان قبل أى شىء، ضمير... وإرادة. وبالنسبة لماركس فهو يرى على العكس أن هناك سيطرة مادية تهيمن على الروح والعقل. وكانت مفاهيم الفيلسوف هيغل ترقد فوق الرأس وهم يضعونها على قدميه. غير أن ذلك لم يمنع ماركس من العودة ثانية فى جدلياته إلى الأزمنة (كتاب هيغل الفلسفى) والتجارب المتتالية المتعاقبة لجدليات هيغل وأولها الإيجاب وثانيها السلب (أو التأكيد والنفى) وثالثا نفى النفى أى ما يعنى الإثبات إثبات حقيقة فى صيرورتها تأخذ فى حسابها الزمنين معاً ثم التوفيق بينهما. كان هذا النمط من التفكير دائما قابعا فى سريرة جدليات كارل ماركس كما يشير إلى ذلك الثورى الروسى هرزن فيقول: إن الجدلية هى علم الجبر بالنسبة للثورة (علم رياضى بإحلال الرموز محل الأرقام) وعموما فإن لغة ماركس ينطلق منها فى التحديد الدقيق للتناقضات بعد التعرف عليها والاعتراف بها علميا كما هى ثم قهرها بعد ذلك وإخضاعها برغم أن ماركس لم يستخدم هذا الوصف ذاته كما يقول لينين: أصر كثيراً على الجدلية أكثر مما أثار المادية. وهذا التفسير نفسه ينطبق على قضية المادية التاريخية فى تعبير أنجلز.. تعبير مأساوى (بائس). وقد أصر ماركس أكثر على التاريخ لا على المادية. ومن الحقائق المعترف بها أن ماركس استمد براهين الجدلية من عقيدته الثورية فى تحليل تاريخى للمجتمع وهو ما يعد واحداً من أكبر إنجازاته إذ بدت له المجتمعات الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر كمن يعانى من تناقص رئيسى.

ولنوجز هنا هذا التحليل: العمل بالنسبة للإنسان وسيلة للتخلص من قيود الطبيعة والخضوع لها، فبالعمل وممارسته يبدأ اكتشاف ذاتيته وجوهره وبأنه يعمل

بين من يعملون ويستطيع أن يكون جزءاً من المجتمع الذى هو عمل وتحرر إذ أنه هناك نزعة طبيعية فى الإنسان كما أن هناك إنسانية فى الطبيعة التى هى وحدة جوهر الإنسان مع الطبيعة وهو هذا الإثبات على ما لقيمة ومعنى العمل البشرى للإنسان.

ويتبع ذلك النفى فى مجتمع يراه ماركس متناقضاً تناقضاً غريباً، بل إلى أقصى درجات الشذوذ؛ فالمجتمع الرأسمالى هو الذى ابتدع كثيراً من التناقضات فالعمل هنا لم يحرر الإنسان وإنما أخضعه واستعبده وأبعده عن المجتمع وعن حق التملك.. تملك وسائل الإنتاج (الأرض أو المصنع) بل وأبعده كذلك عن عوائد العمل من أرباح وفوائد فأصبح مضطراً إلى أن يعرض عمله وعرقه للبيع أى التنازل عن حق من حقوقه ورهنها لدى الغير ولصالح هذا الغير. والمجتمع العصرى الحديث جعل من العمل أداة من أدوات الرق ووسيلة من وسائل العبودية. إذن ماهو نفى النفى... باب الخروج من هذا التناقض؟ يقول إن المجتمع الرأسمالى هو الذى ابتدع هبة الأرض الزراعية فحين توصل إلى مرحلة التصنيع والعمل والإنتاج الضخم المكثف أى تشكيل طبقة تتنامى بمرور الوقت من الأرقاء مدركين لأوضاعهم عبداً أرقاء فى خدمة ملاك الأراضى فإن طبقة البروليتاريا تصعد من مستوى الصراع بين الطبقات بشكل تلقائى آلى ثم يتحول الصراع إلى حرب طبقات وتدخل بذلك بذور الثورة ذات الأمد القصير.

وحيث إن الرأسمالية الصناعية هى آخر مرحلة من المراحل التاريخية للمسيرة العريقة فهى تنقل المجتمع المكون من العبيد إلى مجتمع إقطاعى ثم إلى مجتمع رأسمالى للبيع والشراء أى من التجار والبائعين ثم إلى مجتمع رأسمالى صناعى. وفى القرن التاسع عشر كانت الدنيا قد وصلت فى تزامن مع حركة التصنيع إلى مرحلة الثورية.. مرحلة إلغاء الملكية الخاصة وغدا إلى مرحلة الشيوعية التى سوف تحل محل المجتمع الرأسمالى (من المعروف أن ماركس الذى كان يعرف لفظ رأسمالى منذ ١٨٤٦ لم يكن قد استخدم بعد كلمة رأسمالية ولا بد - كما شرح هو بنفسه - من توافر مرحلة أقل من مرحلة الشيوعية حين تتخلص المجتمعات بصورة أو بأخرى من مجتمعاتها القديمة. ولاشك أن اللفظية التى نشير إليها حتى

الآن هو اسم اشتراكية (مشتق من كلمة مجتمع أى مجتمعية بأفضل من تسميتها كما نكتب نحن اشتراكية) وتعنى كل حسب عمله . والمرحلة الأعلى لهذا التطور وحدها هى التى يمكن أن يطلق عليها الشيوعية وهى تقريبا الأرض الموعودة ويستطيع المجتمع حينئذ أن يكتب على راياته كل حسب قدراته (فى مرحلة الإنتاج) وكل حسب حاجاته (فى مرحلة الاستهلاك) .

وهكذا نجد أن حوارات ماركس متفائلة أو هى كما يصفها جورج مورفيتس تصاعدية . ومع ذلك لم تكن رسالة ماركس تبدو للثوار الروس مخيبة لأمالهم حتى برغم رأى ماركس بأن الثورة فى روسيا أمر غير ممكن نظريا فى الوقت الراهن ، كان ذلك عام ١٨٨٠ حين بلغته أنباء الغضب الشعبى إذ كانت البروليتاريا بحق فى روسيا طبقة متواضعة إلى حد ما ، ولا بد من انقضاء سنوات حتى تتعدل الظروف التى أنشأتها ، وإنما يتأتى ذلك كلما تقدمت ونمت القوى الإنتاجية الرأسمالية وعندئذ يبزغ عصر الثورة الاجتماعية ... وكان ماركس يرى أن الشروط لم تكن قد تجمعت بعد . ومعروف أن ماركس وأنجلز فكرا وتناقشا ودرسا خاصة التجربة الإنجليزية عند ظهور المرحلة الأولى لرأس المال (١٨٦٧) ووصلوه إلى قلب ثورته الصناعية أو تحديدا إلى تلك الصعوبات التى تولدت عنها دون أن تكون لها قدرة تجاوزها ، فبدأوا يفكرون بعقلية كل من فرنسا وألمانيا وتجربتهما . وباختصار بأفكار بعيدة جدا عن تلك الظروف السائدة فى روسيا القيصرية ، فكيف إذن يمكن تصور ثورة اجتماعية باسم هذه المبادئ ذاتها فى بلد كروسيا أواخر القرن التاسع عشر ، ولم تكن تبدأ عصر التصنيع حيث يمثل الفلاحون وحدهم ٨٠ ٪ من السكان فى مقابل ٥ ٪ من العمال ؟ وكان لينين قد لاحظ هذا التناقض منذ ١٨٩٩ فى عصر نمو الرأسمالية فى روسيا (أى تجمع رؤوس الأموال فى أيدي القلة) بل وأكثر من ذلك غداة وعشية ثورة ١٩٠٥ وعشيتها .

ومن المؤكد أن لينين وهو من أتباع ماركس المخلصين كان أسير فكر كان موضع إعجابه يتحرك برشاقة داخله . وعلى الرغم مما كان يتمتع به من قدرة على التحرك فى إطار العمل الثورى وأفكاره الأصيلة على مستوى النظرية وهى من الميزات التى قلما اعترف بها له ، فهو سليل النبلاء الروس وتتم للكنة التى

يتحدث بها عن ذلك بوضوح ظاهر على العكس، ولا يوصف بأنه ممثل للشعب الروسى المشهود له بالبساطة والذكاء العملى، ولم يكن كذلك فى المقابل ممن تستهويهم شهوة العمل الحركى.

وقد ضاعف بالفعل من التحاليل الواقعية والأصلية والانتقادات التى تصادمت مع أفكاره وأسبغت عليه شرفا بلقب منظم الحظائر ومرابط الخيول، وكان حين باشر حركته يتذكرها بصفاء نفس. وتجد فيما تلا ذلك أن معارضاته مع ماركس كانت تقع فى المكان والزمان المناسبين ومسبقا بالنسبة لإجراء ثورى أدرك وجوب وقوعه فى الإطار الروسى... أى فى إطار العلاقات بين البروريتاريا والحزب الثورى. وبإيجاز نقول إن لينين يوافق على منح أولوية نهجية لسياسة الحزب على الصعيد السياسى أو الاقتصادى وكذلك للتكتلات الشعبية البلوليتارية ويعنى ذلك أنه يقف مساندا للسياسة المبدئية بهدف الدنو المقرب، أما عند ماركس فإن الثورة نتيجة للانفجارات الاجتماعية شبه الطبيعية التى تحدث فى ساعة معينة تحت وطأ حركة التصنيع وصراع الطبقات، وكانت جموع طبقة البروريتاريا الذين يتكدسون بسبب التصنيع فى المدن جموعا ثورية بطبيعتها وكان إلى جانبها بورجوازية معينة نمت بين صنوفها الأيديولوجيات الجديدة ومن أوساطها وتكون على وشك أن تستلهم ثورتها هى الأخرى. ولا يكون الوقت فى بعض الظروف قد بعد للاستفادة من الظروف ومن هذه البورجوازية ذات السمات الديمقراطية الليبرالية. وتردد ماركس وانجاز طويلا بشأن هذه الخطوة الاستراتيجية وارتابا حذرا وبعد عام ١٨٤٨ لأسباب أدركاها وخاصة من إمكانيات رجعية تدفع طبقة الفلاحين الفرنسيين وتدفع هذه الطبقة البروليتارية الزائفة التى ترتبط بقطعة الأرض الصغيرة التى تمتلكها.

ولا يزال الجدل والنقاش مستمرين حول شكل العمل الثورى مفتوحا حتى بعد موت كارل ماركس عام ١٨٨٣. وتستمر روزا لوكسمبرج ١٨٧٠ - ١٩١٩ فى دراسة مفاهيم كارل ماركس فكانت عندها البروليتاريا العمالية وحدها هى الجديرة بالثقة فهى التى يجب أن تكون المحرك الأوحد للثورة وعليه فإن سائر الطبقات ماهى إلا أعداء والحزب موضوعها، ويجب فرض الرقابة عليه عن قرب ومن

الداخل وملاحظته على مستوى القاعدة. ويمثل هذا كله الوسيلة الوحيدة المثلى لتدراك البيروقراطية وتفادى تسلسلها إلى أوصاله، وكانت إدارة لينين مختلفة فهي متفقة مع آراء بعض الإصلاحيين إذ ثرتاب في أن يكون لدى طبقة البروليتاريا طبعية تلقائية ثورية (كان ذلك أيام الإمبريالية) (أى نزعة التوسع الاستعماري) كما كان يفزع جدا من التلقائية ويرى أن الوقت قد حان للتركيز على الحزب وما عسى أن تضيفه من دعم لهذه الفئات الشعبية الأخرى المضطهدة مهما كانت. وقد رأى عام ١٩٠٢ في كتابه (ما العمل) أن البروليتاريا بدون حركة حزبية مركزية ثورية متمرسة (محترفة) سوف لا تتجه إلى الدور بل تتجه نحو الإصلاح (أى مبدأ الإصلاحيين) ونحو نوع معين من اتحادات نقابية ولعلها كذلك تستسلم لأحلام بوتوييه (أى مذهب المدينة المثالية الفاضلة) فى ظل ارسنقراطية عمالية. ونشير إلى ما حدث فى إنجلترا حين تصدى حزب العمال الوليد بالاعتراض على اتجاه اتحاد النقابات إلى نوع من التحفظ (أى نزعة الإبقاء على ماهو قائم) وكما وقع فى فرنسا حيث صارت النقابية، (مذهب يسمح لنقابات العمال أن يقوموا بدور فعال فى حياة البلاد الاجتماعية) عقبة فى مسيرة الاشتراكية، وكان لينين الذى يعارض أفكار روزا لوكسيمبورج وآخرين يؤكد كذلك أن عصر الحروب الوطنية لم ينته بعد وأن هناك حتمية ضرورية لتحالفات مع البورجوازية المتحررة (الليبرالية) فضلا عن معارضته على خط مستقيم لروزا لوكسيمبورج واتجاهاتها اللوكسيمبورجية ويتحالف مع برنامج إصلاح زراعى للأرض ويمتنع بشدة على اعتبار طبقة الفلاحين عنصرا رجعيا. وفى هذه النقطة الحاسمة كان بدون شك تحت تأثير الاشتراكيين الثوريين الروس، فكان مثلهم يرى أن طبقة الفلاحين تكبح مسيرة الحركية الأساسية (أو المحرك الرئيسى) للثورة ويرى على أى حال ألا تترك هذه القوة بغير دور توديه لأنها قوة تفجير هائلة، وقد عاصرنا ما قامت به من إنجاح ثورة ١٩١٧ فى روسيا. وعموما فإن لينين كان على حق فيما ذهب إليه، ولن ندخل هنا فى تفاصيل هذه المناقشات التى دارت والمواقف الأيديولوجية التى لعب البعض خلالها أدوارا هامة فى التطور الذى تلا ثورة ١٩١٧ فى روسيا وذلك على الرغم من أن هذه التفاصيل تكفى لتفسير لنا أسباب هذا التحول من

المذهب الماركسى المبدئى إلى اتجاهات، لينين وهو ماركسى يعنى فى التفكير ويعيد التفسير فى كل الاتجاهات كما يشير إلى ذلك خبراء علوم الأجناس البشرية لأنه تكيف مع أوضاع هذه البلاد (روسيا) وهى ما تزال فى مسيرة التصنيع وما يزال التفوق فى الأرض الزراعية معقودا لها... إنها روسيا القيصرية فى مستهل القرن العشرين وفى نهايته، وأهمية الطبقة البروليتارية فيها أهمية عددية .. ضعيفة جدا، ويضاف إلى ذلك أهمية اقتصادية واجتماعية لا تكفى وحدها لإثارة الثورة أو التحريض عليها مما كان خليقا أن يجلب عليها الاعتراضات الفورية من سائر المجتمع (لما كتب لوسيان جولدمان).

ولقد تأسس عام ١٨٩٨ الحزب الاجتماعى الديمقراطى فى روسيا والذى أصبح فيما بعد الحزب الشيوعى وأسسهُ أفراد جيل الماركسيين الروس منهم لينين ومارتوف ودان بالاتفاق مع الجيل الأول ومنهم جورج بنجانوف وبول اكسلرود وفيرازاسوليفتس وليف روس وكان قد أسس فى الخارج جماعة تحرير العمل. وعند عقد المؤتمر الثانى للحزب الاجتماعى الديمقراطى فى لندن عام ١٩٠٣ أحدث انشقاق من جهة مجموعة البولشفيك أى ما معناه بالروسية «الأغلبية»، وتتمتع على كل حال بأغلبية صوت فقط. ومن جهة أخرى مجموعة المونشفيك أى الأقلية ومنهم يلخاتوف نفسه وستعود الأقلية فى الواقع لتصبح الأكثرية فى الحزب الاجتماعى الديمقراطى الروسى، ترى ما السبب فى هذا الانشقاق؟

المادة الأولى من اللائحة حيث أدخل عليها لينين نصوصا عرفت باسم المركزية الديمقراطية وكانت هذه النصوص تتوقع الدور المتنامى للثوار المحترفين أى من التقنيين، تتوقع نظاما صارما للحزب سلطات ممتدة وديكتاتورية تتمتع بها اللجنة المركزية على مجموع قطاعات الحزب، خاصة تنظيماته على مستوى القاعدة، فى حالة الضرورة نقل كل سلطات اللجنة المركزية إلى مكتب تنفيذى محصور ضيق... أكان ذلك واضحا؟ إذ أصبح الحزب أشبه بألة حرب مستقلة ذاتية، ويصبح أفراد الأقلية معترضين على هذا الاتجاه الدكتاتورى لصالح شخص واحد والتنازل له عن المبادئ الديمقراطية كافة. وكان تروتسكى يتوقع أن تؤدى أفكار لينين ومفهومه إلى حتمية ديكتاتورية شخص واحد.... رئيس اللجنة

المركزية، ومع ذلك ربما كانت الظروف الخاصة بروسيا وهى فى مسيرة التنمية الاجتماعية والصناعية هى التى أدت إلى فرض هذا الاتجاه فهناك شواهد على ذلك، إذ فى عام ١٩٠٥ كان لينين بطبعه الحازم يصارع أطروحة بعض الاشتراكيين القلة، هم على أى حال المنادون بإمكانية اندلاع الثورة الاشتراكية على يد البروليتاريا كما لو كانت قوى الإنتاج فى هذه البلاد كافيا لنموها لمثل ثورة كهذه؟ بل وأكثر وضوحا ذلك الجدل الذى دار عام ١٩١٧ وكان جدالا طويلا إلى آخر مدى عشية استيلاء الثوار على السلطة، إذ دار بين لينين ومؤسس المدرسة الماركسية الروسية جورج بنجانوف فبدأ لينين مصارعا مدافعا عن اتهامه بالرغبة فى الإمساك بالسلطة قائلا إنه لو حصل عليها فلن يكون ذلك إلا بمعاونة ثورية اشتراكية كما فى البلاد ذات الرأسمالية المتقدمة (وهو حلم تخلت عنه بسرعة الثورة الروسية التى حكم عليها بدخول التجربة... وعاد بنجانوف إلى تفسيرات ماركسى الأساسية... ضعف البروليتارية بين طبقات العمال وضعف الرأسمالية وأغلبية ساحقة من الفلاحين بين الأهلىن مما كان خليقا أن يدفع بـ لينين دفعا - رضى أم أبى - إلى اللجوء إلى الدكتاتورية لو أنه استولى على مقاليد السلطة بل وإلى اللجوء إلى الأساليب الإرهابية الحكومية. وكان لينين فى هجومه المضاد يتهم من يقول بمثل هذا الكلام بأنه إنما يهينه بشتمه .. ومع ذلك فسوف يستولى على السلطة ويطلق العنان لثورة إصلاح الأراضي كما فعل ما وتسى تونج بعد ذلك بثلاثين عاما وكان ممكنا أن تشغل باله هذه المشاكل والقضايا إلا أنه عام ١٩٢١ يتراجع ويطوى تصريحاته بصورة مسرحية مثيرة ويهيل تراب النسيان على مجادلاته ومناقشاته القديمة ويصرح بقوله: الخلاصة إجمالا لقد أخطأنا... لقد تصرفنا كما لو كنا قادرين على إقامة الاشتراكية فى بلاد لم تكن الرأسمالية قد ظهرت فيها بعد، فقبل الرغبة فى تحقيق المجتمع الاشتراكى يجب أولا إنشاء الرأسمالية. ولم يقدر له البقاء بعد موت لينين فينضم ابتداء من ١٩٢٨ - ١٩٢٩ إلى حركة التصنيع التى بدأت منذ ذلك الوقت مسيرتها بالإمكانات المتاحة وفى إطار المشاكل السائدة... وأخيرا... هاهى تحقق الإنجازات الرائعة الضخمة التى نعرفها.

ولكن لنعد إلى الوراء... إلى عام ١٨٨٣ العام ذاته الذى توفى فيه ماركس لإحياء ذكرى هذه الشروح وتلك التفسيرات حيث كان جورج بليجانوف يتخيل أحوال ثوار الصدف أو ثوار المآمرات إذ يستولون على مقاليد الحكم، فيكتب فى مذكراته قائلاً: لم يكن فى مقدورهم عندئذ سوى إنشاء اشتراكية... إمبراطورية... سلالة الـ «إنكاس» (قبائل بدائية من بيرو) .. وليكن مفهوماً.. اشتراكية استبدادية... كان بليخانوف يستعير كلمات ماركس نفسه عند إشارته إلى احتمال من النوع نفسه، حيث وصفها بنفسه بأنها اشتراكية أشبه باشتراكية الأديرة أو اشتراكية الثكنات العسكرية.

وبالرجوع إلى هذا الكلام وهذه الحوارات والآراء لم يكن عودة إلى أحداث أكتوبر ١٩١٧ وتداعياتها للحكم باتهام الماركسية وحدها فيما عسى أن تجاوزها التاريخ أو سخر منه ولكن الواقع الواجب توضيحه هنا أن الثورة الاجتماعية اندلعت مصادفة فى بلاد شاسعة ضخمة تعتبر من أقل بلاد أوروبا فى حركة التصنيع التى كانت قائمة فى ذلك الوقت.

وثبت للوهلة الأولى استحالة أن تجرى أحداث الثورة على ضوء مبادئ وآراء وأفكار ماركسية صرفة أو طبقاً للمخطط الماركسى الذى ينادى بأن تقوم البروليتارية بالاستيلاء على مقاليد السلطة، ولقد استولى الحزب الشيوعى على الحكم وهو الاسم الذى اتخذته الحزب الاجتماعى الديمقراطى السابق أى أن الفئة التى استولت على السلطة كانت فئة أقلية.. طفيفة زهيدة لا قيمة لها على مستوى روسيا الشاسعة وربما لم يتجاوز عدد هذه الأقلية المائة ألف شخص... كانت هذه الأقلية رغم ذلك مجموعة منظمة تنظيمياً رائعاً استفادت من التقشّط المروع المخيف الذى يسود عشرة ملايين أو اثنى عشر مليوناً من الفلاحين البائسين يتهربون من التجنيد فى صفوف الجيش، ويتقاتلون فيما بينهم إن دعت الضرورة فتراهم يتجهون إلى قرأهم ويشرعون فى الاستيلاء على الأراضى الزراعية المملوكة للأرستقراطيين والبورجوازيين الأثرياء وممتلكات الكنيسة والأديرة وممتلكات تاج الدولة (يقصد الدولة). ويعزى إلى لينين قوله مازحاً: إذا كانت القيصرية قد تمكنت بفضل مائة وثلاثين ألفاً من طبقة الأرستقراطية (الملاك

الإقطاعيين) يمارسون سلطات الشرطة كل فى منطقة نفوذه فلم لا أستطيع أنا الصمود بضع عشرات من السنين بحزب به ١٣٠ ألفاً من المناضلين المكافحين والمجاهدين المخلصين؟ حتى نلغز ثم نرى بعد ذلك الصمود بعد عشرات من سنين حتى وصلت روسيا إلى تحقيق درجة من التقدم والنمو الصناعى . كان يجب عندها أن تقوم ثورة معقولة حسبما تنادى به النظريات ولكن... هنا تكمن المشكلة التصدى فى روسيا ،وهى كذلك السبب الذى أدى إلى ظهور تلك الدكتاتوريات العنيفة التى لم تكن «دكتاتوريات البروليتاريا» وإنما دكتاتوريات باسم بروليتارية فى طور النمو...بروليتارية الرؤساء الشيوعيين... وفى عهد ستالين تحولت دكتاتوريات الزعماء الشيوعيين فأصبحت دكتاتوريات رجل واحد مما يثير ذكريات السنوات المأساوية والأيام الكئيبة التى رانت على الحياة فى روسيا فيما سبق من أزمان ١٧٩٣ - ١٧٩٤ ونشأت ما أطلق عليه بـ لجنة الخلاص العام . وسبب هذا الاختلاف هو بلاشك التنظيم الحديدي العام الصارم للحزب الوحيد الذى يحرم ظهور فصيل مضاد أو معارض... على عكس ما وقع فى باريس عام ١٧٩٤ (أى فى أيام الثورة الفرنسية) .

الماركسية والحضارة السوفيتية اليوم

ها قد مر زمن يقترب من نصف قرن (٤٥ عاماً) عاشت روسيا خلاله فى نظام سياسى ديكتاتورى بلا حرية صحافة أو حرية الكلمة وحرية الرأى والأحاسيس وحرية القيام بالمظاهرات فى بوتقة حزب أوحى ذى بناء مقدس من حجر واحد (مونوليتيك) (تعنى أحادى الحجر وهو نظام فى البناء بحجر واحد) حيث لا تظهر على السطح أية معارضة وإلا كانت نهايتها مأساوية وقد بدأت منذ بضع سنوات فقط غداة وفاة ستالين عام ١٩٥٣ حركة تحررية أو فلنقل اتجاه بشرى؛ لأن لفظ تحررية يعد لفظاً تحقيرياً عند الشيوعيين.

المهم اتجاهه يراعى البشر... فى مسيرة بطيئة لا انعكاسات لها، وهو الاتجاه الذى أطلق عليه اللاستالينية ولم يطل به العمر إلا لساعات الضرورة والحاجة إذ لم تكن روسيا قد استطاعت بعد الخروج من براثن كل مشاكلها الداخلية وإن كانت قد دخلت عالم البلاد الصناعية الكبرى ودنياه (دنيا الشعوب المحظوظة المتمتعة بالميزات) ولقد اكتسبت هذه المكانة بعرق جبينها وهى تحتل تلك المكانة وتمكنت، أرادت أم لم ترد، من تشييد دعائم حضارة للكتل البشرية من سكانها، وتشعر روسيا ربما للمرة الأولى بحريتها فى اختيار طريق تطورها أو تحديد معالم مسيرتها على الصعيد الداخلى على الأقل، ذلك أن أهميتها وثقلها الفريد فى مجال

السياسة العالمية ودورها من حيث هي زعيمة للأمم الاشتراكية يفرض عليها التزامات وضغوط ذات أبعاد أخرى.. داخلية. وقد منيت الماركسية بالفشل رغم أنها تطورت بعد مضي خمسين عاما من الجهود والحروب على جميع الجبهات إنها حقبة طويلة نسبياً... وهل يمكن أن تتخيل هذه المبادئ الماركسية اللينينية مذهباً لدولة تحتفظ بها وتحافظ عليها وتتطور في الزمن نفسه إلى حد كبير، إن العكس هو ما كان يثير الدهشة، وإذا كانت الخطب الرسمية لازالت تحمل الألفاظ المقدسة من أمثال صراع الطبقات (أى التطبيق العملى فى الفلسفة الماركسية لتغيير وسائل الإنتاج) والعبودية والإقطاع والرأسمالية وإفقار الطبقات النسبى أو الجدل الديالكتيك المادى أو الأساسى والعمق المادى أو نشوء مجتمع خالٍ من الطبقة يعيش فى سعادة رائعة... كان لكل هذه التعبيرات وهذه الألفاظ مدلولها حيث حققت تطوراً مس الحياة ذاتها.

ألم يرد على ألسنة الإنجليز نسيا (طبقة المثقفين) الروسية فى بداية هذا القرن واتخذها الثوار شعاراً لهم يقول بأن لا قيمة لأى فكرة إلا إذا تجسمت فى الحياة العملية... فى البراكس (التطبيق العملى)... نظام ماركسى قائم على سلسلة من الأفكار المتصلة بعضها ببعض لم يكن لها أية قيمة إلا بعد أن أُلقيت فى مضمار التجربة التى عايشها ملايين البشر وهى تتفاعل فى ميدان الإنجازات التى حققتها على الرغم من الضربات المضادة التى واجهتها. وعلى العموم فإن الماركسية بالنسبة لأنصارها هى المفهوم المدرك للعالم الذى يتجاوز ذاتيته فيما ما يقوله كذلك المراقبون المؤيدون بعطف. وقد طرأت على شيوعية القرن العشرين تحولات شبيهة بتلك التى وقعت للعقيدة المسيحية منذ القرن الأول حتى القرن الرابع، ولاشك يحتاج الأمر إلى خبراء فى قضايا الضمير لإحصاء هذه التغييرات والتحويلات والخبايا والتحريرات والمهرطقات التى اتهمت بها الماركسية حتى فى عقر دارها ذاته، ولاشك أن عدد هذه الإحصائيات مفيد بشرط عدم عزل أى تفصيل كان ومهما كان ذا دلالة بل وبلا دلالة تذكر، وليس لسجل هذه الإحصائيات مغزى إلا بمدى ارتباطها بالتجربة الجماعية التى تفسر ونفسرها، وهنا يمكن أن نقول إن اختيار التجربة السوفيتية ليس هو أهم الاختيارات أو أوضحها

فيما مرت به التجربة السوفيتية، فالحق إن ٥٠ عاما تعد زمناً طويلاً نسبياً للبشر الذين عايشوا التجربة على توالى ثوراتها والمحن التي مرت بها، إلا أنه يظل زمناً غير كاف حتى يتخلص التطور الأيديولوجى والاجتماعى والثقافى فى ارتباطاته بالماضى ويجب أن يكون لدينا مقدرة التمييز بين ما هو شاذ مضلل، خاصة خلال الفترة الانتقالية على الأقل حتى عام ١٩٣٠ أو بل ربما لأبعد من ذلك، وبين ما كان وسيظل فاعلاً إيجابياً للحكم على العلاقات النهائية الحاسمة بين أيديولوجية مفروضة بعنف ومجتمع يخوض تجربة لم يخطرها ولا اختار معاشتها ولم يدرك معناها إدراكاً كاملاً وذلك على الرغم مما كان يتمتع به ستالين من إرادة حديدية فى مواجهة ضرورات اجتماعية فارضة ومسيرة اقتصادية ضمنية خلقت طبقة اجتماعية استحوذت وبالطبع على امتيازات لأفرادها. وكان أحد الجامعيين يقول ساخراً: «نحن نمثل البورجوازية السوفيتية إلا أن هذه النزعة الطبقية لا يمكنها إقامة مجتمع طبقات إلا إذا احتفظ بهذه الامتيازات التي لم يحصلوا عليها إلا بحكم وظائفهم، والاحتفاظ بها لسلالتهم من الأبناء والأحفاد وأغلبها امتيازات تمثلت فى فوائد تعليمية وفوائد مالية وفوائد وظيفية يرثونها عن آبائهم». وعموماً فأمثال هذه الاتجاهات والميول حتمية طبيعية فى كل مجتمع تسود فيه حياة أسرية. ولم تتمكن الشيوعية من تدمير هذه النزعة فى أنحاء الاتحاد السوفيتى، بل يمكن القول بأن ستالين ساهم فى تدعيمها كما أن هناك مشكلة أساسية هى المحاولات والمبادرات السوفيتية لإقامة نظام إنتاج زراعى سليم بشكل جماعى فاشل إذ يبدو كأنما اصطدم بمقاومة طبقة من الفلاحين فى القرى قسا عليها ستالين وأساء معاملتها النظام الستالينى فى الحكم بالأمس. أليس هذا الوضع المزعج من الفلاحين الذين تصفهم الروايات والقصص برد فعل طبيعى ونتاج ثقافة تقليدية انتزعت فجأة وعنوة من بيئة عاشوها قروناً لتدخل فى سعيير بوتقة اقتصادية تستهدف التحديث العصرى السريع، ويبدو أن الوضع يواجه كل بلد تسرع فى عمليات التصنيع مهما كانت الحلول المتبناه... وعلى أى هل قيلت الكلمة الأخيرة فى هذا الشأن؟ وهل هناك كلمة أخيرة تقال؟ وفى الحوار الدائر بين الأيديولوجية السوفيتية وبين الكنيسة الأورثوذكسية بشأن الفصل الدينى فصل نظام الحكم

مذهب المادية المكافحة أو الصدمة العقلانية أو عقلانية الصدمات لا الأفكار... إنكار وجود الله وإنما إيجابية الإنسان أو الحتمية العنيفة لدى الإنسان فلم إذن نقم بإضفاء قيمة جديدة على المعتقدات الأورثوذكسية بل أدت إلى نوع من التفاهم بين الكنيسة وبين ستالين الذى لم يعد بطريركية موسكو التى ألغاهها بطرس الأكبر، وكان يوم ٧ نوفمبر ١٩٥١ يثير ذكرى الأمير اليكساندر نيفيسكى من قديسى الكنيسة. ومما لاشك فيه أن غالبية المؤمنين المخلصين للعقيدة ممن يروحون ويجيئون ويؤدون صلواتهم - كما يحلو لهم - كانت من كبار السن، ومع هذا كانت الدولة فى طقوس التعميد وحفلات القران ومراسم الوفاة تحيط هذه المراسم وهذه المناسبات وتشرف على تنظيمها، وكل ذلك يثبت بأن هناك صراعا يستوجب ملء فراغه. وأخيرا ألم تنس الأجيال الجديدة تناسيا متناميا مآسى الماضى الأليم فى.. ظل نظام تعليمى وثقافى ماركسى - لينينى يكاد يشبه الديكارتز يانيزم (فلسفة ديكارت) الغربية المقبولة ومع ذلك فهى تتلاشى من الضمائر فى بلاد الغرب بما لا يؤدى إلى العدول عن المذهب الشيوعى... حقائق لم تعد تجدى مناقشتها كل لحظة فبين ٢٢٠ مليون سوفيتى تسعة ملايين فقط أعضاء فى الحزب، والمبادئ الماركسية اللينينية هى موروثاتهم والكلمة الآمرة بينهم ولغة كل يوم... ولكن... ما موقف الآخرين؟

على أى حال فإن الذى يشكل بعمق نمط الحياة السوفيتية إنما هى حركة التصنيع الضخمة التى تخضع لظروفها آفاق المستقبل القريب فبتكتاف الكل مستهدفين الدجاج فى تنميتها وتخطى عقباتها ومعالجة أخطائها ولاشك أن حركة التصنيع هذه تكلفت الكثير من المعاناة أى سدد ثمنها غالبا على الصعيد البشرى والإنسانى، حيث أن روسيا عام ١٩١٧ لم تكن تملك قواعد جاهزة وفرتها الرأسمالية سلفاً فكان عليها واجب تشييدها. وهكذا أخذت الدكتاتورية الستالينية هذا المنحنى الرهيب الفريد وتولت المهام الرئيسية التاريخية التى كانت الرأسمالية قد أرست قواعدهما فى بلاد أخرى... رأسمالية عصر الحديد ولا يمكن تفسير نظام حكم ستالين تفسيراً كاملاً سليماً بالإشارة إلى نزوات وأطماع رجل نشوان بسلطاته ولا بالإشارة إلى حتميات اشتراكية وليدة يرغب فى التطور ولا بضرورات نظام

شيوعى، فهمي كلها عنوان تخلف كان قائما يراد إزاحته عن طريق التقدم. فكان أن أستعيرت صيغة مجتمع الدولة، أى تدخل الدولة القاسى، الذى يلجأ إليه بحجة تخطى العقبات بسرعة وبلاستثمار الآدمى. وتوالى مراحل مسيرة التصنيع فى بلد زراعى متخلف على الصعيد الزراعى نفسه وهامى هذه المأساة نفسها تبدأ من جديد تحت أنظارنا فى الصين... فى الوقت الذى كادت روسيا أن تتخلص منها، ولازال النقاش دائرا حول ما إذا كان الهدف الاقتصادى قد تحقق إذ يدور هذا النقاش بين أوساط المتخصصين اليوم وسوف يستمر طويلا طالما أدت أرقام الإحصائيات إلى إثارة الشكوك فهذه بدورها تودى إلى الاختلاف والخلاف والمناقشات، أما لغة هؤلاء المتخصصين فلغة عالمية حيث يقيسون الشعوب فيما بينهم كما يفعل الأطفال وهم يقيسون قاماتهم على أن تكون أداة القياس واحدة، فقد نما الإنتاج الصناعى فى المتوسط كل عام بـ ٧,٧٪ فى فرنسا بين عام ١٩٥٣/ وعام ١٩٥٩ وكان رقم القياس عام ١٩٥٩، ١٥٦ بالمقارنة بعام ١٩٥٣. وعموما فليست المقارنات مقارنات مباشرة، ذلك أن الغربيين يحددون المقياس بالقيمة الصافية ويحددها السوفييت بالقيمة الإجمالية. ويوضح لنا عالم الاقتصاد الروسى سترو لينين أن الزيادة الرسمية فى الإنتاج الصناعى المحسوبة بالقيمة الإجمالية تعطى المؤشر ٢٢,٩ لعام ١٩٥٦ أى ٢٢,٩ ضعف إنتاج ١٩٢٨، غير أن هذه النسبة تنخفض إلى ١٤,٧ ضعفاً إذا احتسبنا الإنتاج بالقيمة الصافية، وفى مثل هذه الظروف كم من أعداء اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية وخصومه دأبوا على مجادلة هذه الأرقام. على أى إذا افترضنا أن الهدف الاقتصادى لم يتحقق كاملا فقد أصبح بلاشك على الأبواب ويمكن للمرء أن يلح نجاحاً خارقاً فى الطريق بفضل ما تحقق من نجاح فى سيبيريا، وفى أماكن أخرى وقع كثير من التحولات وأنجز فى المجتمعات الروسية بفضل تنامى الإنتاج الصناعى، وفى الوقت نفسه انقلبت أوضاع كثيرة فى حياة العالم السوفييتى كله وبدأت قواعد بنیان جديد ليترسخ:

(١) أولاً نزوح الفلاحين إلى المدن حيث تشير الأرقام إلى أهمية التغيير فقد كان الفلاحون الروس عام ١٩١٧ يمثلون نسبة ٨٠٪ من السكان وعمال الصناعات

٥٠٪ ثم وصلت عام ١٩٦٢ نسبة الفلاحين ٥٢٪ فى مقابل ٣٥٪ للعمال وأفراد السلك الإدارى، وفى هذه المدة القصيرة نفسها تضاعف عدد البيروقراطيين (موظفى المكاتب) عشرات المرات والمثقفين مائة ضعف على الأقل وبذلك بدأ الزحف الهائل فى اتجاه المدن التى امتلأت بالناس على حساب القرى باستثناء ليننجراد (عاصمة القياصرة) التى احتفظت بطابعها المميز وأصبحت المدن القديمة الجديدة بما فيها موسكو تشبه مدينة شيكاغو فى كثافة سكانها، وكلها أخذت طابع القرى الريفية حيث جلبت غالبية السكان وأولاهم من طبقة المثقفين والطلبة عاداتهم وتقاليدهم التى لا تخطئها العين وبدأت تنمو سلالة جديدة من السكان اجتاحت كل شىء وكل ركن ابتداء من أقل الوظائف تواضعا إلى أعلا وظائف الأبحاث التقنية والعلمية وهى قمة السلم الاجتماعى فى الاتحاد السوفيتى (فى روسيا)، وفى الوقت الذى كان ستالين يقوم فيه بتصنيع روسيا بمعدلات لم تكن معروفة قبل ذلك كان يفرض على الفلاحين نظام التكامل الجماعى محررا بذلك عددا كبيرا من السواعد، دافعا الفلاحين على الرغم منهم على غزو المدن، وكل ذلك وقع فى بضعة أعوام فقط. وفى عام ١٩٤٧ كان من السهل التعرف على جذور الفلاحين دون عناء، من أسلوب ارتداء الملابس بشكل بدائى وفى طريقة تحركهم البطئى وكيفية ارتمائهم فى صياح وضوضاء على الأوتوبيسات. وفى ١٩٥٦ حدث بعض التغيير إثر تأقلم الفلاحين بحياة المدن الحضرية وبالتالي ظهر عندئذ تحسن فى مستويات المعيشة، وبدأ الفلاح يتخذ مظهرا أفضل مما سبق ولم يعد الزائر عام ١٩٥٨ يعثر على أطفال أو نساء يمشون حفاة، وتغيرت فى السينما والمسارح المظاهر والسلوكيات إلى الأفضل بل يمكن القول أنها صارت نموذجية واختفى الأرتباك القروى، ومع ذلك ظلت الأصول القروية تبدو ظاهرة فى آلاف من أنماط السلوكيات، وهكذا نجد النساء فى ليننجراد - دليلا على التناقض - أكثر أناقة، ولغة الكلام أكثر رقة وعذوبة، (فعلا نشاهد ليننجراد أجمل مدن روسيا على الإطلاق) دليلا على التناقض ويكاد الانطباع العام السائد فى هذه المدينة يوهمك أنك فى مدينة أوروبية قديمة راقية فضلا عن مينائها ذى النشاط الدائم مفتحا على الدنيا كلها ولم يفرقها النمط الريفى وعلى الرغم من

ضواحيها المليئة بالمصانع فهي تظل وحدها بعيدة عن هذا الامتزاج الغريب الذى يوشك أن يكون الطابع المميز لروسيا الغد. هذه الحركة لاشك هى التى تصفى على موسكو مظهر العاصمة.

(٢) زحف طبقة الفلاحين إلى المصانع والمدارس، وجاء تدفق الأيدى العاملة وتكاثرها المندفِع ليغمُر العمالة الممتازة الماهرة فاحتل الفلاح المصانع بجهله وقلة مهارته أمام الآلة ككل فلاحى الدنيا حيث يتحول بين يوم وليلة إلى عامل بلا إعداد مبدئى أو تدريب فكان انتاجه فى بداية الأمر انتاجاً زهيدا تافها فعالجوا انخفاض الإنتاجية بمضاعفة الأيدى العاملة كما وقع التدفق نفسه والاندفاع نفسه من الفلاحين وأولادهم نحو المدارس ثم الجامعات فيما بعد. كانت نسبة الجهل فى روسيا عام ١٩١٧؛ ٧٥٪ من الأميين، ولعلها أكثر من ذلك واليوم تختفى الأمية تماما بما يفسر ذلك تضاعف المكتبات وقاعات القراءة والمؤلفات والمطبوعات الشعبية من المؤلفات الروسية الكلاسيكية بأعداد هائلة قدرت بمائة مليون نسخة من كل مؤلف ويؤمن زهيد جدا، حقا كان ورق الطباعة ردينا غير أن الثمن الزهيد قد أتاح للكافة اقتناء ما يريد، وإلى جانب ما حققته المؤلفات الكلاسيكية من نجاح فكان هناك سبب آخر يفسر الظاهرة؟ ذلك إنما يعود إلى ضعف المعاصرين من الأدباء وغياب صحافة مسلية سهلة. وعلى العموم كان ما بذل من جهد فى التعليم جبارة كما كان الأمر فى مجال الإذاعة والتلفزيون والأسطوانات وكان هذا التطور الثقافى الثورى وحده أشبه بثورة ثانية إذ أدت هذه الانتفاضة الثقافية كما يقول روز نفيلد إلى ثورة اجتماعية تتمثل فى رغبة ملحّة فى التحرر والتثقيف والتعليم وارتقاء السلم الاجتماعى فى أسرع وأقصر وقت... أو كما وصفها بعض النقاد (معرضين) «مفرضة ضارية» (لاشك يتحدث الكاتب هنا عن سرعة توصل أى توصيلية بأكثر وأدق مما تعنيه كلمة وصولية) أى رغبة فى الوصول نهم إلى الثقافة، يعنى زيادة فى الدخّل وارتقاء فى المستوى، وعموما كثرة (اكثار) عدد طلاب الجامعات والمدارس الفنية ودور التعليم بالمراسلة أو فى الدورات والفصول المسائية، وازدادت الأعداد بمرور الوقت واحتل أبناء الفلاحين المراكز الأولى. وهكذا تمكنت روسيا من إعداد ما كانت تصبو إلى تحقيقه من الكادرات المثقفة

القادرة كالمهندسين والباحثين والمتخصصين والضباط وأساتذة الجامعات من بين
ينابيع البشر وخزائنهم اللذين لا ينضبان. وذلك ما حدث فى فرنسا مع عصر
الإصلاحات فى المدارس على يد جول فيرى.

وتلا ذلك فى روسيا صدور قوانين مجانية التعليم الثانوى والجامعى على
مستويات أعلى من المستويات الفرنسية المشار إليها. صحيح حدث هذا التطور
ببطء فى فرنسا ولكنه كان فى روسيا بسرعة مذهلة بما يشبه قفزة واحدة مع
بعض الصعوبات بلاشك، مما أتاح لنا التعرف على أن التعليم الثانوى لم يكن
مجانيا فى روسيا فيما بين ١٩٤٧ و ١٩٥٦ بما يثير الدهشة والحيرة.

(٣) انخفاض مستوى التعليم عن المستوى العام، ولاشك أن الإنسان الروسى
الذى نتحدث إليه اليوم ليس هو روسى الأمس الراقى المهذب، فالتعليم السائد إنما
يحقق منفعة محددة إذ يصنع سلسلة المثقفين اللازمين لمسير دفعة الحياة
العصرية... جموع من المتخصصين ابتداء من المعلم حتى المهندس وأستاذ
الجامعة كذلك وأنصاف مثقفين كما يقول أحد المراقبين. وعادة ما يكون متسامحا،
هل هذا رأى صحيح؟ نصف التعليم للغالبية من السكان، هل هذه ظاهرة جديدة
تتفرد بها روسيا؟ أو هى ظاهرة خاصة بحضارة تكتلات بشرية فى دور التكوين
فى كل البلاد المتقدمة فى المجال الصناعى فى كل من أوروبا وفى أمريكا.
فالتعليم عند تعميمه يميل إلى التخصص وينخفض مستواه على المستوى الثقافى
العام، ولعل عدد الصفوة الحقيقية المثقفة لم ينقص بل ظل على أسوأ، ولا يزال ثابتا
فبدلا من طبقة عريضة مثقفة وسط جماهير أمية جاهلة فى كنف حضارة تقليدية
فإن الحضارات العصرية تقدم وتقر مع الصفوة بطائفة من الأميين كتائب وأفراد
لا يمثل التعليم فى مفهومهم إلا ما ينطوى عليه من أداة عمل لا أداة تشكيل ثقافى
رفيع. وعلى أى حال فإن المثقفين والعلماء والأساتذة السوفيت يرون عند بلوغ
مستوى عالٍ أنهم مع أقرانهم فى البلاد الأوروبية أو الولايات المتحدة الأمريكية
متساوون خلفاء كذلك وورثة للجذور الثقافية نفسها، فإن مثقفا من أهل باريس لا
يشعر بتغيير ما عند التحويل من جامعة فرنسية إلى أكاديمية العلوم فى موسكو
يكاد يشعر بأنه فى بلده وفى إطاره التعليمى سواء فى جدله الثقافى مع أقرانه فى

موسكو أو مزاحه معهم فهو يفهم ويدرك وهم يفهمونه ويدركون ما يريد تماما... بما يعنى أن فترة طويلة على مدى أربعين عاما من انعزال مادی انفصلت فيها وتقطعت كل ما كان بين السوفييت وأوروبا من علاقات لم تفرض تأثيرها... وهو انطباع مثير للدهشة منذ الوهلة الأولى، ولكننا نجد فى الوهلة التالية أن أوروبا وروسيا فى مطلع القرن العشرين كانتا منغمستين فى بوتقة حضارة متشابهة.. حضارة واحدة، فما قيمة أربعين عاما إذن أمام حقائق الحضارة؟ فلم يحدث على الرغم من الهزات الشاذة والتصدعات فى البنيان الاجتماعى أن انفصلت بلاد الاتحاد السوفييتى عن جاراتها فى أوروبا وكانت لا تزال عام ١٩٦٢ تابعة تبعية تامة لحضارة ١٩١٧ أى لحضارتنا.

(٤) ويبدو أن الفنون والآداب تناقض هذا التأكيد إذ كان واجبا البحث عن أفضل الشواهد على المجتمع السوفييتى الذى يبدو باهتا، غير أن نظرة على المؤلفات الأدبية كفيل بإعطائنا مثلا واضحا على الحياة فى هذه البلاد... الحياة اليومية للناس بل وعلى أوضاع الكتاب والفنانين السوفييت، ولغة الفنون والآداب لغة مشتركة وإن خضعت لظروف قهرية عند بداية عصر ستالين، حوالى عام ١٩٣٠، إذ هوجم من المثقفين من لم يخضعوا لسياسة النظام الحديدى الذى فرضه ستالين، كما رفضوا الإنضمام إلى اتحاد الكتاب البروليتاريين فى خطة السنوات الخمس، وكان اتحاد الكتاب نفسه هو الصفحة الأولى إذ حل فى تزامن مع انشاء اتحاد مماثل للفنون التشكيلية والموسيقى عام ١٩٣٢ وحل محل منظمة وحيدة تحت الإشراف المباشر للحزب. وقد كان الفنانون والأدباء يومئذ مدعوين ليصيروا مهندسى النفوس الإنسانية. وقد أوضح جيدا نوف عام ١٩٣٤ سكرتير الحزب مبادئ عقيدتهم بأنها «منهاج الواقع الاجتماعى، وكان المطلوب وصف الطبيعة المادية التاريخية للواقعية الاشتراكية وصفا أميناً صادقا خاصة تمجيد الإنتاج وظروفه بصفة استثنائية وبذلك يساهمون فى التطور الأيديولوجى وتعليم العمال والصناع فى الإطار الاشتراكى كان الواجب أن يكونوا ملهمين (بكسر الهاء) بألفاظ جيدا نوف وكلماته ويؤلفوا كتباً تبعث على الحياة المثالية حيث يبدو الأبطال موزعين بين أبطال إيجابيين وهم الشيوعيون الحقيقيون وأبطال سلبيون

وهم سائر الآخرين والطلّاع الذين ازدهروا فى كافّة الميادين فى بداية الثورة وظلّوا حتّى اليوم يشار إليهم بأنهم أتباع الفن اليسارى حيث صدرت الأوامر بمطاردتهم ومحاكمتهم مثل الـ (الشكلانيين أى الذين يتمسكون بالشكليات) ، وبذلك أمكن القبض على عدد من الكتاب ومديرى المسارح واختفوا بصورة غامضة ، ولذا أغلب الكتاب المرموقين وأصحاب المنزلة بالصمت أو نصف الصمت وكان منهم تشوكوف مؤلف «الدون الهادى» ظهرت الأجزاء الثلاثة الأولى بين عام ١٩٢٥ و ١٩٣٣ والجزء الرابع عام ١٩٤٠ وتوقف عن الكتابة حتّى وفاة ستالين، وتصاعدت بعد الحرب فى سبيل مواجهة نفوذ دول الغرب الفاسد المتعفن مدة ضغوط جوردانوف، وفرضت رقابة مشددة على الأدب والمسرح والسينما وكان أقل انحراف ينزل بمرتبة العقاب الصارم. وفى عام ١٩٤٨ هوجم الفن هجوما شرسا وشنّت الحملات الضارية على كل من الموسيقار بروكوفيف وشوشتاكوفيتش وفاتشوا ترريان شمل ذلك كل هؤلاء المؤلفين الموسيقيين العباقرة بسبب هرمستهم (أى الإبهام المبهم) وبسبب تفاوتهم بين المبادئ والتصرف كان مثلهم عامة كمثّل سائر طبقات الشعب حيث أنزل الفنانين إلى الحضيض واتسم هذا العصر بالشكليات والتفاهة وقلة الإنتاج. فهل غير موت ستالين كل هذا، الرد، نعم ولا، وقد كان رد الفعل سريعا فوراً... الانفراج العنيف... غير أن هذا الانفجار التحررى بدا خطيرا ذا عواقب مدمرة ولذا أمكن أخيرا كبح جماحه. فى نهاية عام ١٩٥٣ و ١٩٥٤ ظهرت المسرحيات الساخرة من القياصرة فى المجتمع الروسى وظهر مقال لنا قد صغير فى صحيفة عن أن الصدق فى الأدب تنقلب سطوراه إلى سخرية لاذعة من الانفصام التقليدى بين الشخصيات الإيجابية والشخصيات السلبية، وعلى الرغم مما وقع من عقوبات فقد أثار نقد الشخصية أو اللاستالينية حريات أخرى منها حرية التعبير... وعودة مئات الآلاف من «المبعدين» والإعلان عن إلغاء العقوبات المغلظة مما أثار زوبعة كبرى بين أوساط المثقفين، وبدأ الصامتون يتكلمون بصوت مرتفع خاصة الأدباء والكتاب ممن آثروا الانزواء والصمت فى عصر ستالين مما أثار دهشة الحكام فى عام ١٩٥٧ شنت حملات التوبيخ على رجال الأدب والفنانين وطلب منهم الكف

عن الدعوة إلى أى «مراجعة» ومحاولة تجميل الواقع السوفييتى وصقله مع عدم رميه بأوصاف خارجية كالطلاء بالأسود... كانت تلك هى خطوط سياسة خروتشوف وواضح أن هذه السياسة تدين أساليب الحكم الستالينى ولم تعد العقوبات توقع على المعارضين السياسيين ولا إعدامهم، وتريد نشر مفاهيم تحررية فى المجالات الثقافية والعلاقات مع الخارج إلا غير فتح الباب لدخول حملة انتقادية لعهد ستالين آثار من كان ينظر بإعجاب من الشباب إلى ستالين... إذ معنى ذلك تعريض نظام الحكم للخطر... نظام الحكم فى الداخل ومكانة الاتحاد السوفييتى زعيم البلاد الاشتراكية فى العالم واحتمال المجازفة بمكانة الاتحاد السوفييتى على الصعيد الدولى... وأسرت الحكومة عازمة على التصرف بدون تخاذل. وساهم الجمهور السوفييتى فى هذه المرحلة من الصراع بميله إلى الاستماع للخطب الشعبية ومشاهدة المسرحيات الكلاسيكية الروسية أو الخارجية، والإقبال على التراث الشعبى (الفولكلور) سواء كان مأثورا روسيا بحثا أو مقتبسا وعلى مشاهدة الأوبرات الكلاسيكية التى كانت طبقة الفلاحين قد بدأت تكتشف روائعها، ومن هنا يأتى ما حققته أوبرات فاوست ولا ترافياتا وكارمن من نجاح، وقد نافست رقصات الجيش الروس أو بالية تشايكوفسكى «لبحيرة البجع»، ومع ذلك يجب هنا التحفظ لأن حرية التعبير التى ينادى بها ويتمناها الكتاب والفنانون لم تتحقق بعد.. إنها أعنى مشاكل الاتحاد السوفييتى وقضايا حاضره ومستقبله.

(٥) لم يعد مجد علماء الرياضة والعلوم ينظر إليها كعلوم بحثه بل ينظر إليها فى إطار يقترب من الإشراق والزهو وآلاف الأسباب كانت ميادين العلوم قطاعا ثقافيا عادة لا رقابة عليه تقريبا، وكثيرا ما كان العلمى لا دخل له فى هذه المجادلات السياسية والأيدولوجية الناشبة كان بمقدوره التهرب منها والابتعاد عنها، فضلا عن أن الروس كانوا دائما خبراء لا نظير لهم فى الرياضيات بالإضافة إلى أن الحكومة لا وفرت الاعتمادات ولا أوزعت بها. أما على الصعيد العلمى فى الأبحاث فقد كان للتحكمية ميزتها إذ تميل الأبحاث فى البلاد الرأسمالية إلى التشتت حسب مختلف أنشطة الصناعة على حين رأيناها فى الاتحاد السوفييتى تنجذب نحو الاختيارات الحكومية، ذلك أن الصناعة على عكس

الأبحاث التى استفادت مع التنظيمات العلمية إلى جانبها، فلم يعد البحث العلمى اليوم هو الأفضل إذ هو ثمرة عالم هو دائما الأفضل هو ما يمنح لفريق... فهل الفضل لأكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى؟

وماهى النتيجة... أن يخرج الاتحاد السوفيتى من الصعوبات القريبة للتي تطفو على سطح النجاح المذهل الذى تحقق على الصعيد المادى. هذه الإنجازات الرائعة موجودة، إلا أن إرساء الكيان الصلب بناء لم يتم بعد... تفوق الذكريات الأليمة وكذا رنين التجربة الذى لا يزال يدوى فى جميع أنحاء العالم، ففى الوقت الذى كانت روسيا تتحرر فيه من اختيار قدرها على الصعيد الداخلى إنائها مضطرة لتقدير حساباتها فيما يخص جدوى أفعالها على الصعيد الدولى وهى تدفع الثمن بالحد من حريتها إلى مدى معين.. حد يفوق حركة اللاستالينية وتدفعه كذلك من أعلا طبقات بنيانها.. فى الفنون والآداب وهو مجال الهروب من الحيرة وتملص من المعوقات وبدون ذلك لا تستطيع حضارة أن تتقدم فى مسيرتها وحدها حتى نهاية الطريق بل ولا تستطيع كذلك التعبير عن ذاتيتها والأمل معقود على الطبقات العليا لبنائها أن تزدهر فجأة... بضربة واحدة.. بقفزة واحدة كالقفز فوق شجيرات التفاح بميدان البولشوى عند شروق أول أشعة شمس دافئة فى فصل الربيع.

مؤتمر أكتوبر ١٩٦١

ألقى المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى بظلاله على الأوضاع المأساوية للاتحاد السوفيتى اليوم، وليس الموضوع ماهو مندلع من تنافس بين الأشخاص أو إعداد قائمة بالاتهامات والإبعاد عن الحزب أو الأموات الأحياء أو الأحياء الأموات أو سرد الأحداث التى تشبه إلى حد كبير أحداث قصص دستوففسكى .. شخصيات تتعذب وتعذب، مثل قصة الأخوة كارامازوف. إنما المهم هو الحضارة السوفيتية نفسها وهى تواجه اختبارات ومهام صعبة على للصاعدين الداخلى والخارجى ويكون مستقبل الاتحاد السوفيتى تحقيق النجاح فيها أو تخطيها وأولى هذه القضايا مشاكل الجنسيات الدخيلة الطارئة؛ فالأجناس والحضارة غير الروسية عديدة فى مجموعها وثانى المشاكل مستقبل الحضارة السوفيتية المادى، ولكن هل هو مستقبل مادى فحسب؟ وثالث المشاكل مستقبل الشيوعية الدولية التى تفقد هى الأخرى تكتلها الوحيد بالأمس حتى تصبح متعددة للمراكز وترك الأمر بين أيدي النظم الشيوعية الوطنية.

فأما المشكلة الأولى فنجد أن اتحاد جمهوريات روسيا الاشتراكية السوفيتية يريد ويرغب كما يدل اسمه فيما يمكن أن نطلق عليه فيديرالية جمهوريات... جمهوريات هى فى حقيقة الأمر جمهوريات مستقلة أصلا إلا أنها مرتبطة معا

فهل يتحسن مثل هذا التعايش أو التواجد مع آخرين ويؤدى إلى بزوغ نجم حضارة متوحدة.. وقوية؟ هذا التوحيد حققه القياصرة قبل عام ١٩١٧، فبعد عصور من التفتت ولم الشمل ثم التدعيم ثم الاتهام.. إلخ. ولازال التوحد مشكلة صعبة بدون حل حاسم وعلى الرغم من استقلالياتها فلا واحدة من هذه الجمهوريات يمكن اعتبارها «فعلا» مستقلة... ودفاعها وقوات الشرطة فيها ومواصلاتها تعود إلى أوامر السلطة المركزية ممثلة فى مندوبين قابعين فى قلب اللجنة المركزية لكل جمهورية، وقد اندلعت ثورات وطنية وأخرى شوفويثة (أى متزمتة) ولكن سرعان ما كانت الوشاية بها وإجهاضها ووقعت مصادمات محلية وأمكن إعادة جورجيا إلى حظيرة الاتحاد عام ١٩٢١ أما دول البلطيق المحررة عام ١٩١٨ فقد ضمت إلى الاتحاد عام ١٩٤٠ ثم أعيد احتلالها عام ١٩٤٥ وكانت قد حصلت فى عصور القياصرة على نظام حكم مميز لم يمنح لها مرة أخرى.

وفى عام ١٩٤٩ - ١٩٥١ وقعت أزمة فى فرغيزيا بشأن الأناشيد القومية التى اصدرت السلطات قراراً بتحريمها، كما يصدر مجلس السوفييت الأعلى فى أذربيجان عام ١٩٥٨ قرارا لا يعترف بغير لغة أزييه. ذلكم ركام من المشاكل بين المصالح الوطنية والثقافية واللجان الأصلية والذكريات التاريخية والولاء للشيوعية وعدم الولاء لها والتدخلات التشريعية وفترات الهجرة والتهجير فى كل هذه الجمهوريات، من الروس أو من الأوكرانيين،... وبالتالي ركام من النزاعات والصراعات تشبه النمط الاستعماري بعد استصلاح الأراضى الجديدة البكر وحرثها حيث تكاثر الروس ففاقوا القوزاق فى كازاخستان، وقد نبأ روسيا مقدما بسياسة سوفيتية واحدة ممكنة التحقيق لصيانة وحدة أراضيها وحماية التعايش المشترك بين سكانها والاتساق الضرورى للكافة، ولو على حساب بعض التنازلات المعقولة، وذلك بحكم ما تمثله هذه الجمهوريات من جزء صغير فى شموخ البناء السوفييتى الشاسع وذلك فى تلك السياسة التى تجلت فى مناقشات المؤتمر الشيوعى عام ١٩٥٦ إذ وقعت تطورات هامة أشبه بما كان فى عصور الاستعمار وانحساره فى البلاد الغربية وذلك مع الفارق المأساوى بالقياس إلى الاتحاد السوفييتى حيث الجمهوريات متجاورات متلاحمات جغرافيا وجسديا، كما برزت فى المؤتمر مشكلة

التجانس فهل يقدر للاتحاد السوفيتى تحقيق النجاح فى حل جوانب هذه المشكلة التى أخفق فيها الغرب تماما؟ ويصرح سكرتير الحزب الشيوعى فى كازاخستان عام ١٩٥٩ أن أطروحة لينين قد ثبتت صحتها بانصهار الأمم والشعوب بانطلاقهم معا فى شراكة واحدة وممارساتهم التجريبية وأكدتها تجربتنا.

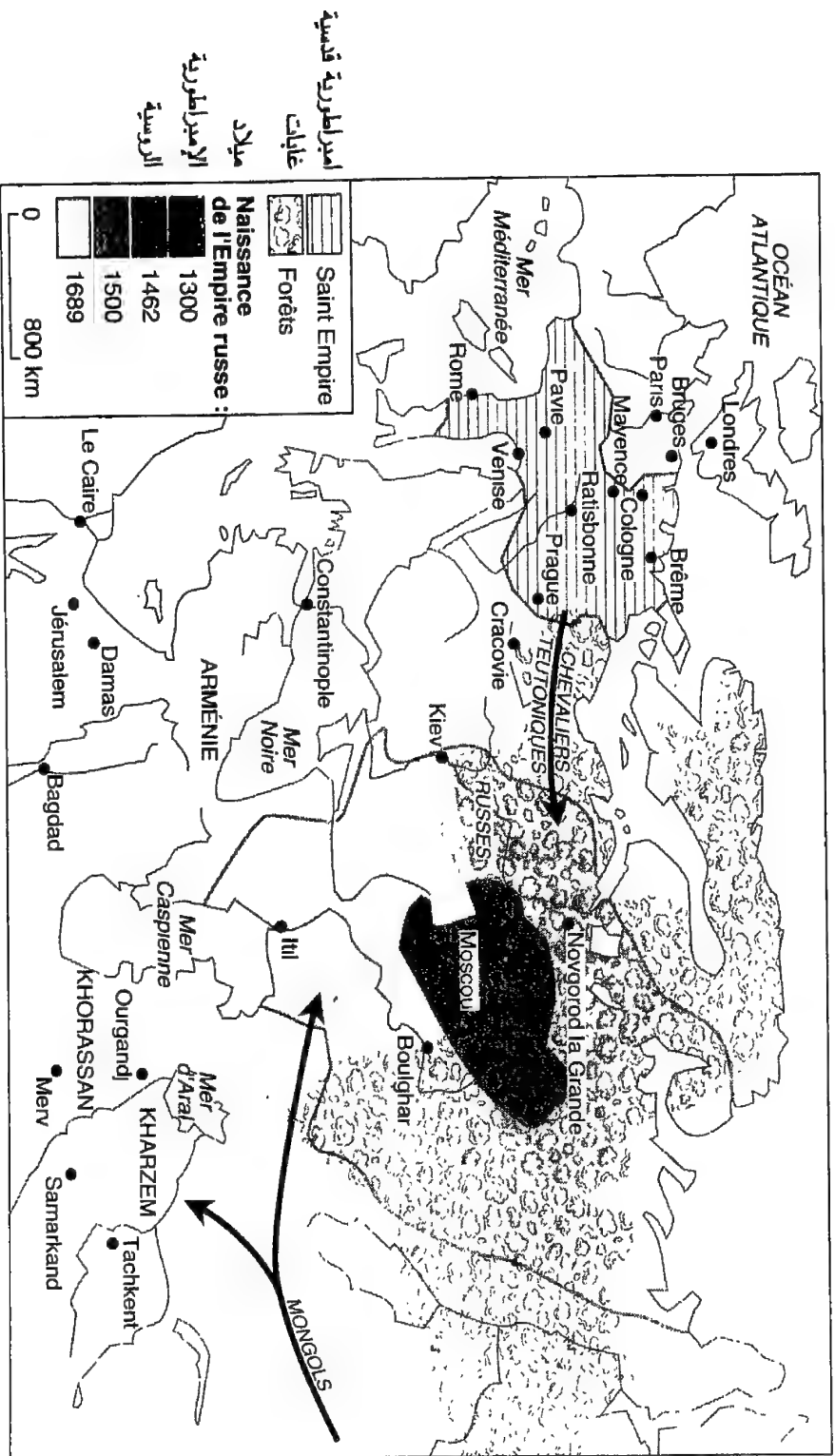
ذلك قول صحيح إذ تؤكد هذه النظرية تجارب الماضى بشأن مشكلة الاستيعابية وما يساعدها من السياسات المشتركة الموحدة وتبادل التنازلات وضرورة التعايش سويا... فكلها براهين لها وزنها بالإضافة إلى التشكيل بالممارسة العملية للمبدأ الشيوعى الذى ارتضته الكيانات الجديدة على مدى أربعين عاما وتنصهر فى بوتقة واحدة تضمها حضارات صلبة إلا فيما نشأ فى مشكلة اللغات الوطنية من اعتراض وعناد ومكابرة، وفى ذلك ما يدل على أن جمهوريات الاتحاد السوفيتى لم تتخل عن حضاراتها المحلية الوطنية ولا يزال التعايش دائرا والجدل ساريا والباب مفتوحا، ولعلنا نتساءل ألم يطور كل هذا الإنجاز من الصراع ضد الأمية والجهل والارتقاء بالتعليم العام فى الاتحاد السوفيتى من الضمير الوطنى لدى شعوب آسيا الوسطى؟

ثم إن الازدهار والبورجوازية والإعلان عن خطة عشرينية تقود الاتحاد السوفيتى فى مسيرته إلى تحقيقه لرفاهية المجتمع الشيوعى لا يبدو مشروعا عبثا لا يجدى. ويختلف الخبراء كالعادة حيث يدرك البعض أن لدى الاتحاد السوفيتى من الوسائل ما تحقق هذه القفزة إلى الأمام نحو الرفاهية وحيث تتدفق عناصر الأجيال الصاعدة لتأخذ مكانها فى مسيرة الشعب نحو التقدم، يملؤهم الحماس ويملأهم شعار الإنتاج الدافع مهما يكن شكله ومهما تكن أو تكون عليه علاقة الإعلان عنه إذ يسيطر على الحياة فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩٦٢ مسيرات التقدم السريع نحو المراحل الأخيرة للثورة الصناعية حيث فتحت سياسة خروشوف الأبواب لاستقبال هذا المستقبل الواعد القريب حيث ركزت خطة السبعين عام ١٩٥٨ على الصناعات الجديدة التى تتحكم فى بعض أنماط الاستهلاك المعقد من اليكترونيات والبكتروميكانيكا وقوى للطاقة النووية ومواد البلاستيك والتخليق الكيمائى أى كل الصناعات التى تساعد على نمو طبقة من المستهلكين المتعطشين

فضلا عن طبقة عمالية جديدة ترتدى القمصان البيضاء دليلا على مهارتها وأنها من فنيى الصناعة (خبراء متخصصون فى توفير ما هو ضرورى لمعيشة الناس) الباحثين عن مكاتب الدراسات والأبحاث، وعلماء المعامل. لاشك تؤدى هذه القوى الإجتماعية الجديدة إلى انتقال الاتحاد السوفيتى إلى الديمقراطية الحتمية فى حقبة لعلها تطول شيئا ويجب على هذه الانطلاقة وهذا الضغط أن يفتح لنفسه طريقا بين القوى الناشطة والقوى الخاملة فى المجتمع فى الحزب الشيوعى. ومن البديهى أن يحاول الحزب صيانة منجزاته لتحقيق قدر من الرفاهية بعد عديد من التجارب والصعاب، وأن يحاول نسبتها إلى نفسه ولكنه لن ينجح فى ذلك إلا إذا ثبت أنه استطاع أن يغير وجه الاتحاد السوفيتى بعد اشتراكية دامت أربعين عاما، وإذا كانت روسيا عام ١٩١٧ قد عاشت فى إطار الحضارة الغربية فلن يتصور الاتحاد السوفيتى عام ١٩٦٢ إمكانية تحقيق الرفاهية حسب المعايير الغربية... فى هذا الغرب البورجوازى، ولا يمكن باختصار عند هذه النقطة التنبؤ بأى احتمال وربما تمكن الإتحاد السوفيتى من شق طريق خاص له ويبتكر حلا لن يكون على النمط الأمريكى ولا الأوروبى.. حلا يحقق له النجاح المنشود، ولقد رأى المعلقون الغربيون على وقائع مؤتمر أكتوبر ١٩٦١ نهاية للنظرية الشيوعية الدولية كأنما يتخلى الاتحاد السوفيتى طواعية عن انفراده بالقيادة فى هذا الشأن ويتنازل عن التضحيات التى تورط فيها كى تكرر كل جهودها لتحقيق قفزتها إلى الأمام. وإجمالا فإن الاتحاد السوفيتى يتقبل منذ اليوم وحدة الهدف مع ثنائية القطب (الصين والاتحاد السوفيتى) أو تعدد القطبية أو شيوعية الأوطان حيث يترك لكل وطن تقرير مصيره بنفسه ومجابهة مشاكله الخاصة. ومع ذلك فليس من الفطنة فى المجال السياسى تلك الجسارة الحازمة فى أمور كهذه حتى داخل العائلة الشيوعية العريضة وامثالها لقواعدها الأصولية عادة... وقد تتنافى... وقد تتصارع أو تتشاجر وتغضب ولكن تتصالح فى نهاية المطاف بعضها مع بعض وتستسلم خاضعة للتفاهم والتسوية، فليس العالم الأنجلوساكسونى إذن هو وحده مخترع التصالح والتفاهم والتسوية إلا أن الشكوك بين الاتحاد السوفيتى فى مواجهة الصين ليست وليدة اليوم بل تمتد جذورها عبر قرون من التاريخ وعبر

النزاع الذى شب فى القرن التاسع عشر وصارت روسيا بفضل نتائجه فى مصاف القوى الكبرى التى تقاسمت ثروات الصين ومخلفاتها ومع ذلك تظل شكوك الاتحاد السوفيتى ومخاوفه من الولايات المتحدة الأمريكية أكبر ما يقلق باله . ويشير واقع الحال إلى ذلك متمثلا فى واقع الحرب الباردة حيث لا يستطيع الاتحاد السوفيتى سواء أرادت الولايات المتحدة أم أبى وللأسباب التى أدت بها وأجبرتها على إنهاء عزلتها عن العالم الاعتصام فى إطار ازدهاره الجديد إذ هو مضطر إلى تكييف سياسته الداخلية لتتواءم وحقائق العالم الخارجى وتوظيفها فى هذا الاتجاه . وهناك مع ذلك - اليوم - تصنيف جديد يجرى فى عالم الأحزاب الشيوعية المحيطة بالاتحاد السوفيتى كأنها النظام الفلكى حيث تتجذب نحو الشمس كواكب متناثرة مختلفة من كوكب إلى آخر، فهناك على البعد أحزاب شيوعية (وطنية) متورط بعضها فى عداء مع دول الغرب المزدهرة كإيطاليا وفرنسا والبلاد الأنجلوساكسونية كألمانيا الغربية التى لم تحرم قيامها، ثم أحزاب البلاد الأخرى التى تعمل تحت الأرض فى الخفاء، أى فى البلاد الغربية المعادية سياسيا الضعيفة اقتصاديا، كأسبانيا والبرتغال ودول أمريكا اللاتينية، وأخرى لازالت تتحرك فى الحلبة حيث الآمال كلها مباحة .. والبلاد النامية التى يثير إعجابها النظام والتجربة السوفيتية أو الصينية .. وبلاد بعيدة أو قريبة مجاورة مع حالة أفضلية مؤقته على جبين البلاد المجاورة لروسيا فى مواجهة الغرب وكانت بمنزلة خط دفاع عن الاتحاد السوفيتى الشاسع مثل: ألمانيا الشرقية وبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا وبلغاريا، وهى دول تطورت تطورا كبيرا على الصعيد الاقتصادى والاجتماعى أو فى الطريق إلى تحقيقه وكلها ماعدا بلغاريا تسير بخطى سريعة نحو التصنيع خاصة وأن كلا من تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية بموروث قاعدة صناعية قوية قبل انضوائهما تحت لواء المذهب الشيوعى، وعلى هامش هذه المجموعة من دول (النمر الروسية) تركز على حالة الشيوعية «الشاذة» فى البانيا وتقدم الاشتراكية تقدما باهرا فى يوغوسلافيا . والأوضاع فى كل هذه البلاد أوضاعا معقدة فهى من جهة لا تستطيع الابتعاد عن روسيا، كما لم يكن ميسورا من جهة أخرى تحقيق ما تحقق من انجازات بعض منها ضمان لمستقبلها كالإصلاح الزراعى واختفاء ملكية الأرضى الشاسعة فى بولندا أو هنغاريا

وحركات التصنيع لولا دخولها الشيوعية .. هذا الدخول الحاسم العنيف أحيانا حيث تشير التطورات فى طريقها فى الواقع فى كل بلد منها وفق امكانياتها الإقتصادية وعلاقتها مع الاتحاد السوفيتى بل مع الشيوعية ذاتها وأخيرا نجد على البعد الصينى الشيوعية المثقلة حجم مشاكلها الزهو بمستقبل بلادها وبماضيها تعتبر اليوم أضخم البلاد النامية فى عالم اليوم لكنها تظل الأقل انصياعا وطاعة للاتحاد السوفيتى بل وأخطر منافس له ، بل أكثر منافسيه خطورة ولكن هذه الخريطة التى رسمناها لا تتفق على الأوضاع السياسية فحسب بل تتفق كذلك والأوضاع الاقتصادية وهى أوضاع تتحكم فى المعركة بل تقوم مسبقا بتعديل مساراتها ويجازف اليوم اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية الشيوعية الذى احتل بفضل جهوده قمة المبدأ الشيوعى منذ وقت طويل بالوصول إلى اعتبار العزلة التى يعرفها المنتصرون .



حاشية (١٩٦٦)

لازال الاتحاد السوفيتى يتصارع مع مصيره العجيب، كما كان من سقوط خروشوف بسبب تفاقم الصراع مع الشريك الصينى (١٧ أكتوبر ١٩٦٤ ممتد ١٩٦٢ - ١٩٦٣ - ١٩٦٤) وقد اتخذت بداية الهجوم على الصين شكل الخلافات حول مواقف العقائد يون والألبان وبالتبادل، فإن الهجوم الصينى ضد الاتحاد السوفيتى كان يجرى على حساب يوغوسلافيا والدول المراجعة (بمعنى البلاد التى تعيد النظر فى المبدأ الشيوعى). وفى عام ١٩٦٢ عمقت المشكلة الكوبية من هوة الخلاف فقد بدأ عشية هذه الأزمة التحرك السوفيتى الحاسم تكتيكيا استراتيجيا واتضح النزاع واضحا وعلنيا عام ١٩٦٣ خلال مؤتمرات الأحزاب الشيوعية فى بلغاريا وهنغاريا وإيطاليا وتشيكوسلوفاكيا، ووصف مشروع عقد مؤتمر دولى للشيوعية اقترحته روسيا بأنه مناورة لبذر الشقاق فى الحركة الشيوعية وانكشف عمق الخلاف الناشب غداة وفاة ستالين وجرى محاولة خلال ستة الأشهر الأولى لرأب الصدع وكانت محاولة رديئة إذ يعمد ما وتسى تونج فى ٩ مارس إلى دعوة خروتشوف لزيارة بكين ويرد السوفييت بدعوة وقد صينى لزيارة موسكو ووافقت بكين فى ٩ مايو. غير أن بكين تعلن فى ١٤ يونيه النقاط الخمس والعشرين الممثلة لموقف الصينيين إزاء ما يعتقد السوفيت من تخوفهم من أن الحروب الوطنية التحررية والثورات إنما تؤدى إلى إشعال صراع نووى دولى، حيث اعتبر

الصينيون هذا التخوف لا معنى له وأن الاتحاد السوفيتى لم يعد قادرا على لعب دور قائد الحركة الثورية العالمية ما دام لديه هذا المفهوم الخاطى عن علاقات القوى فى عالم اليوم، ويدحض هذا المفهوم الإستراتيجى التخوف الوهمى من احتمال استخدام الولايات المتحدة سلاحها النووى... وباختصار كان ذلك يعنى اتهام سياسة التعايش السلمى فيعتمد الاتحاد السوفيتى إلى إبعاد مجموعة من الصينيين وهم يوزعون نصوص هذه النقاط الخمس والعشرين فى قلب موسكو حيث تتهم الصين بمحاولة إثارة المواطنين السوفيت ضد حكومتهم، على حين رأت الصين فى عدم النشر ما يثبت رفض الاتحاد السوفيتى اعتبار الخلاف أيدىولوجيا ويحوّله إلى نزاع بين الدول. ولم تثر أية دهشة عندما فشل الاجتماع الصينى/ السوفيتى الذى عقد فى موسكو من ٥ إلى ٢٠ يوليو فاتهم الصين الاتحاد السوفيتى بالتحالف مع الإمبريالية الرأسمالية إثر الاتفاق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية حول وقف التجارب النووية فى موسكو، ويرد السوفيت متهمين الصينيين بالاعتراض على التعايش السلمى، كما وصفه وحدده لينين، ويكشف الصينيون الستار عن قيام الاتحاد السوفيتى عام ١٩٥٩ بدوره بكشف الستار عن اتفاق سرى مبرم عام ١٩٥٧ على معونة لتطوير الأسلحة النووية بما فيها من تسليم أسلحة نووية إلى الصين، على حين يحيط الاتحاد السوفيتى اللثام عن المطامع الصينية الحمقاء ويناشدها بتكريس جهودها فى تنمية بلادها على الصعيد الاقتصادى بدلا من هذه المحاولات العميقة ويصف الاتحاد السوفيتى الرغبة الصينية فى قيادة الحركات الثورية فى أفريقيا وآسيا بأنها ليست سوى ميول ملطخة بمفاهيم عرقية عنصرية. ويستمر الجدل فى عام ١٩٦٤ حول موضوعين رئيسيين:

أولهما.. المطامحات الصينية فى الأراضى الإقليمية التابعة لها سواء من جانب الاتحاد السوفيتى أو الهند، كما أشار السوفيت إلى أنهم قدموا الدليل على رغبتهم فى إعادة النظر فى الحدود الصينية/ السوفيتية وكان ذلك فى حديث جرى بين ما وتسى تونج إلى مجموعة من البرلمانيين اليابانيين، ويبدو كأن هذه الرغبة كانت هزيلة فلازالت المشكلة قائمة وخاصة مشكلة الجنسيات (التركستان).

وثانيهما: مشكلة العرقية الصينية حيث ورد ذكرها في اجتماع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي في تقرير سوسلوف (١٤ فبراير ١٩٦٤) ثم في تصريح جوتنوروف في اليوم التالي لمؤتمر الجزائر وكانت آخر محاولات السوفيت لمواجهة الانفجار المتوقع حين صرح زورين بأن لدى الصينيين أهدافا خاصة لا تتسق مع التحالف الشيوعي ولا سبيل إلى دعمها تلقائيا بالتسليح النووي السوفيتي في حالة النزاع، ويبدو كأن هذا التصريح قد مهد الطريق للتحركات الأمريكية في فيتنام الشمالية بعد أحداث خليج توشكين. وكان للنزاع بين الاتحاد السوفيتي والصين أصداؤه في أوروبا بعد ارتقاء قبضة السوفييت على الدول الدائرة في فلكه وتخفيف ضغوط نفوذه عليها أمثال: بولندا وهنغاريا ورومانيا وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وتحرير إرادة الأحزاب الشيوعية الغربية. وللتذكير موقف تولياتي (زعيم الحزب الإيطالي القوي) في ذكرى دى جالنا. وما ينبغي أن ننسيتها فرقعات هذه الخلافات الداخلية مظاهر التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي في الحياة السوفيتية ذاتها، إذ بدأ الحكام يدركون تدريجا نقل القوانين الاقتصادية الطبيعية فوضعوها في مكانها بما يدل عليه معنى تعديل هياكل إدارة المؤسسات؛ إذ كان على الأخيرة أن تتلاءم مع احتياجات الاستهلاك وخاصة في التطابق مع أذواق العملاء والبعد عن الافتقار على معايير الإنتاج المحددة في الخطط، أما العلاقات السوفيتية/ الأمريكية فهي إن خلت في إطار التعايش السلمي فقد تجمدت مؤقتا سواء بفضل سياسة الولايات المتحدة في فيتنام والغارات على فيتنام الشمالية خاصة، أو بسياسة بكين ضد موسكو. وهكذا يبدى الإتحاد السوفيتي اهتماما أكثر تجاه دول أوروبا الغربية والتي معها يمكن أن تتحسن علاقاته، ومن بين هذه الدول فرنسا لأسباب تاريخية وسياسية حيث تحتل مركزا مرموقا في سياسة الاتحاد السوفيتي.. وهذا النجاح الذي حققته زيارة الجنرال ديغول إلى الاتحاد السوفيتي في يونيو ١٩٦٦ لدليل واضح على الاتجاه الجديد في السياسة الدولية.

الفهرس

المقدمة : ٣

الجزء الأول

الحضارات غير الأوروبية ٣٣

الفصل الأول : الإسلام والعالم الإسلامى ٣٥

الفصل الثانى : الجغرافيا ماذا نأخذ منها ونعلمها ٥٧

الفصل الثالث : أفول عصر الإستعمار وبزوغ الحركات الوطنية ١٠٧

الجزء الثانى

القارة السوداء ١٣٩

الفصل الأول : الماضى ١٤١

الفصل الثانى : أفريقيا السوداء اليوم وغداً ١٦٥

الجزء الثالث

الشرق الأقصى ١٩١

الفصل الأول : مدخل إلى الشرق الأقصى ١٩٣

الفصل الثانى : الصين التقليدية ٢١٥

الفصل الثالث : الصين بالأمس واليوم ٢٤٧

الفصل الرابع : الهند بالأمس واليوم ٢٧٣

الفصل الخامس : الشرق الأقصى الساحلى ٣١٥

الفصل السادس : اليابان ٣٤١

الجزء الرابع

أوروبا	٣٧١
الفصل الأول : ساحة الحريات	٣٧٥
الفصل الثانى : المذهب المسيحى والنزعة الإنسانية	٤٠١
الفصل الثالث : تصنيع أوروبا	٤٣٧
الفصل الرابع : الوحدات الأوروبية	٤٦٣

الجزء الخامس

أمريكا	٤٩١
الفصل الأول : العالم الجديد الآخر	٤٩٣
الفصل الثانى : أمريكا أفضلها الولايات المتحدة	٥٣١
الفصل الثالث : الظلال .. وصعوبات الامس .. واليوم	٥٥٩
الفصل الرابع : عبر العالم الإنجليزى	٥٨٩

الجزء السادس

أوروبا الأخرى	٦١١
الفصل الأول : جذور ثورة اكتوبر ١٩١٧	٦١٥
الفصل الثانى : الاتحاد السوفيتى من عام ١٩١٧ حتى يومنا هذا ..	٦٣٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم التسجيل ١٩٩٩/٣٨٩٨
I.S.B.N 977 - 01 - 6095 - 4

كان بروديل يقوم بتدريس التاريخ، وفي بداية الستينات، سئل بروديل عما يراه من اصلاحات لتضم إلى منهاج مادة التاريخ فى فصول التعليم الثانوى، فاقترح ادخال دراسة الحضارات الكبرى فى الفصول النهائية للتعليم الثانوى وقبل أن يقوم بتحرير نص هذه الدراسة ونشرت فى كتاب وجيز عام ١٩٦٣.

هذه الدراسة المزودة ببعض الاضافات هى التى أعيد نشرها عام ١٩٦٦ وظلت على أهميتها، فالحضارة التى يتوالى تفسيرها حسب المكان والزمان والمجتمع والاقتصاد والعقليات والسلوكيات المشتركة والجماعية. تجدد نفسها وقد أعيدت تفسيراتها بحكم توالى الفترات الزمنية ذاتها.

وهذا الكتاب يقدم على التوالى حضارة الاسلام. وحضارة أفريقيا السوداء، وحضارة الشرق الأقصى، وحضارة الغرب. وهو مشروع لكتابة تاريخ ليكون تمهيدا لاعادة صياغة تاريخ العالم يتسع لعناوين كثيرة. وقد كتب موريس آيمار مقدمة نص دراسة فرناند بروديل.